صدى الذكريات

د. محمد أحمد بدين





صدى الذكريات





وكلاء التوزيع والإدارة العامة
المملكة العربية السعودية - جدة - شارع
صاري
خلف سوبر ماركت الراية
هاتف: ٦٩٨٥٢٥٧ - ٦٩٨٧٨٩١
فاكس: ٦٩٨٢٨٢٥

مؤسسة ثقافية ناشرة، تعنى بالإبداع الفكري وتجلياته، وتسعى لبعث فكر حضاري رشيد يعانق الآخر ولا يستبعده، ويغذي أنهار المعرفة بفكر مضيء ووجدان سليم، لبناء غدٍ أفضل

الطبعة الأولى
٢٠٠٩ - ٢٠١٠م

الناشر / مركز الراية المعرفة

صدى الذكريات

عنوان الكتاب : صدى الذكريات
تأليف : د. محمد أحمد بدين
قياس الصفحة : ١٧ x ٢٤
عدد الصفحات : ٤٤٠
عدد النسخ : ٣٠٠٠
التنفيذ الطباعي : مركز الراية المعرفية

صدى الذكريات



إعداد الدكتور
محمد أحمد بدين

الجزء الأول

الاهداء

الى الوالدة العزيزة الحاجة عائشة ابراهيم علي، سليلة العلماء من آل سيدنا علي« إنا» (ترخيم لسيدنا) ، التي عانت في صمت، وفي اباء وشمم، لتربى خمسة من الصغار، بعد ان فقدوا عائلهم، واكبرهم لم يتعدى التاسعة، ولم ترعهم فقط، بل علمتهم الكثير من الخصال الحميدة، والاعتماد بعد الله على النفس.

والي من رعاني بعد وفاة ابي، وانا طفل غرير، فاحسن حمل الامانة- التي ناء بحملها الجبال- وكان لي القدوة، والمثل، والمرشد في جميع اطوار حياتي... العم العزيز- بل الوالد- على بدين ابوه رحمهما الله رحمة واسعة واحسن اليها بقدر ما احسنا الي غيرهما في حياتهما.

كلمة قصيرة

كلمة قصيرة لابد منها؛ فهذه شتات من الذكريات، التي افلحت في ان لا تخرج من فتحات غربال النسيان، رايت ان اسجلها لعل القاريء يجد فيها شيئا من تسلية، او بعض من عبر- ولست بالحكيم طبعا- بل اقصد عبر بعض من قد اشرت اليهم. ولقد بقيت هذه الذكريات حبيسة الادراج قرابة العشر سنوان، كتبتها من الذاكرة في اول عام وصلت فيه الى الديار المقدسة. واعتقد ان الاخ الصديق دكتور الباقر احمد عبد الله صاحب ورئيس مجلس ادارة الخرطوم، كان له اكبر الاثر في نشر هذه الذكريات في اكثر من ٤٠ حلقة في جريدة الخرطوم وهو يستحق الشكر على ذلك. ولم تكن لدي الفكرة في اصدارها في كتاب، لكن جاء ت هنا رغبة القراء العارمة، وتشجيعهم الذي ليس له حدود، فدفعوني دفعا لارتكاب هذا الجرم بنشر الغث والسمين، كحاطب الليل؛ لذا لهم كذلك الشكر.

في الختام أريد أن اعتذر لمن ورد ذكرهم في الكتاب - فيما يعتقدون انها حالة سلبية - او قد نلت منهم، فما الى ذلك رميت، وانا صادق.

وما التوفيق من قبل ومن بعد الا بالله

د. محمد أحمد بدين

المحتويات

الجزء الأول

أي شعب هذا؟

ها أنا ذا أعود إلى الكتابة في جريدة الخرطوم بعد غيبة ، ولسان حالي : « ما أحلى الرجوع اليها «، وذلك نزولاً عند رغبة الأخ الصديق الدكتور الباقر احمد عبد الله ، الذي ما فتئ يحثني بما يشبه التوبيخ على معاودة الكتابة في «الخرطوم « كلما تلاقينا هنا في جدة: وكنت أتذرع بأن معين الكتابة قد نضب ، وأن المرء قد خاب أمله في آمالٍ عراض كان يرجوها للوطن ، رآها تندثر رويداً رويداً ، وتذهب أدراج الرياح ، مما شهدتها وتشهدها من تنافر ، وتقاتل ، وتشرذم ، وفساد وافساد، ورشوة ومحسوبية؛ وتعنصر ، وعودة الي قبلية بغيضة ، وهوان على الناس وتجرع المرارات ، فأصابت النفس الإحباط ، والقنوط ، واليأس ، وازهدتها – فيما ازهدت – في الكتابة . وتماماً كما قال أستاذي الجليل الدكتور محمد الواثق في إحدي قصائده الرمزية عن امدرمان :

لكن تغشت شعاب النفس باخعة* *من القنوط وران اليأس والسأم

أو من عنصرية عبر عنها نفس الشاعر في قصيدة اخرى بقوله:

من كل احمد من أوشيك منقبض* *وكل هارون لا يرضى بملوال

ولقد افلح الأخ الباقر في إقناعي لأنه رجل متفائل ، لا يلبس نظارات سوداء ، وقلبه لا يزال خالياً من الشوائب ، ابيض بياض ضحكته الصافية المجلجلة.

وآلمني اذ تذكرت كيف كان الأساتذة في المدارس الأولية يضربوننا حين يكتب الواحد منا في الخانة الخاصة باسم القبيلة في استمارات امتحان الدخول للمدارس الوسطى اسم قبيلته ويصرون على ان نكتب في تلك الخانة « سوداني «، فيجيئ وقت تشجع الحكومة فيه بنفسها هذه النعرة العنصرية ، فتعين أميرا لكل قبيلة ، كأننا على وشك خوض حرب داحس وغبراء جديدة ! ولعل ذلك من باب شغل الناس بأنفسهم لغرض في نفس يعقوب والله اعلم . وأتحدى اياً من أبناء وبنات جيلنا ، ان كان يدري الي أي قبيلة ينتمي جاره في الدراسة او السكن او العمل ، او كان ذلك يعنيه في كثير او قليل . ورحم الله شاعرنا المبدع يوسف مصطفى التني القائل : في قصيدته الرائعة: « في الفؤاد ترعاه العناية × بين ضلوعي الوطن العزيز « .«

مالي ومال عصبية القبيلة

تنمي فينا ضغائن وبيلة

تزيد من مصائب الوطن العزيز»

ولا استبعد ان ينبري لي احدهم قائلاً : « لاتناقض نفسك يارجل !. فانت بالذات آخر من ينتقد ذلك. فقد كتبت عن قبيلتك ومجدتها على رؤوس الأشهاد ، والفت عنها كتاباً « لهؤلاء أقول يمكنكم الرجوع الي مقدمة كتابي «الفلاته الفلانيون في السودان « لتقرؤوا ما نصه : « لست من الذين يستحسنون الحديث عن القبائل في وطن مترامي الاطراف كالسودان ، يضم شتى الاعراق والاجناس ، فهو اشد ما يكون حاجة الي الانصهار والاندماج في بوتقة القومية الرحبة التي هي اساس التقدم ، وليس الي الفرقة والتفاخر في اطار القبلية الضيقة ، والتي هي منبع المصائب ورأس الفتن . ولنا في الصومال وبورندي اسوة سيئة والعياذ بالله . لكن من واجب المرء ان يدلي بدلوه اذا ما تعدى الحديث الموضوعية ، وجنح الي التجريح والتهكم بما يلحق ضيماً بفئة من الناس دون ذنب جنوه سوي ان حظهم العاثر جعلهم ضحية لسوء فهم واسع الانتشار ، فالحديث عند ذلك يصبح ضرورة لتوضيح ما يستطيع المرء توضيحه « . فلقد كان تناولي لهذا الموضوع من قبل الضرورة التي تبيح المحظورات وفوق هذا وذاك ، كان الكتاب في أصله بحثاً قدم لنيل درجة جامعية محددة ، ثم ترجم ونشر.

وكم كان الناس متسامحين !! فلك ان تتصور قارئ العزيز ان طالباً مسيحياً (الاخ باسيلي شاشاتي) فاز في مدرسة الفاشر الاهلية الوسطى ، في عام من الاعوام بكأس الاخلاق وحسن السير والسلوك ، على المئات من إقرانه من أبناء المسلمين ! ولم يكن ذلك بالامر المستهجن او الغريب؛ ولم تخرج مظاهرة عارمة تدين هذه الفعلة الشنعاء ، وتهدد مدير المدرسة الأستاذ المربي القدير محمد فضل المولي ، بالثبور وعظائم الامور !! وبحق لقد كان جميع ابناء شاشاتي واختهم الدكتورة عادلة من خيرة الناس اخلاقاً، يشاركونهم في السراء والضراء ، واندمجوا في المجتمع حتى اصبحوا جزءاً لايتجزأ من مجتمع الفاشرالرائع . وكان للدكتور عادل شاشاتي عيادة تكاد تكون مجانية . فهو لا يعترف بمبلغ محدد للكشف ، بل يسأل المريض كم في استطاعته أن يدفع ؟! ورايته في عيادته المتواضعه في الثورة بامدرمان في أوائل الثمانينات يتقاضي جنيها واحداً للكشف ، في حين دفعت للكشف عند اخر في نفس تلك الفترة عشرين ضعفا بالتمام والكمال ! ولنستعرض بعضا من ذكريات الزمن الجميل ، والشعب النبيل؛ فالامم دوماً الأخلاق

مابقيت . وقديماً قالوا : « والفضل ماشهدت به الاعداء «» . فلنبدأ اذا بشهادة احد هؤلاء الاعداء.

اذكر انه اثناء رجوعي الي ملفات الاداريين الانجليز المحفوظة في اضابير المديرية بالفاشر في اوائل السبعينات ، عثرت اثناء الاعداد لبحثي الذي تقدم . على موضوع شد انتباهي . فقد كتب احد المفتشين الانجليز انه اثناء مروره مع مأمور السجن لتفقد بعض المواقع داخل مدينة الفاشر حيث يعمل « المساجين « مرا على جنينة الحكومة . وعند دخولهما وجدا المساجين لايعملون شيئاً ، والعسكري غائب ، والبندقية ملقاة ارضاً على مقربة منهم . ويضيف « هرعنا اليهم نسألهم عن العسكري ، وأين هو ؟ ومالذي حل به . وأجابوا ببساطة :» رسّلنا يجيب لينا غداء ياجنابو « فقال : يا الهي ! وها انتم الان تنتظرون عودته ؟ فاجابوا بالايجاب . ثم اضاف مستغرباً في حوار مع نفسه ، كيف ان هؤلاء المجرمين يعطون كلمة شرف لحارسهم ، ويحافظون عليها ، وفي وسعهم الهروب واخذ السلاح ! وكيف ان العسكري يتواضع ويقبل ان يرسل من قبل المساجين لاحضار الغذاء ، وهو واثق من انهم سوف لن يفروا . فما كان منه الا ان ختم قصته بقوله :» أي شعب هذا ! «.

ونترك الاعداء وندلف الي البسطاء الطيبين ابناء هذا الشعب النبيل . والمسرح هذه المرة « مستشفى الخرطوم ، في اواسط الستينات ، وكنت وقتها طريح المستشفى بسبب قرحة في المعدة . وكان يشاركني « العنبر « شاب يدعي « خلف الله « ينتمي الي اسرة عريقة في الجريف غرب، هي عائلة آل حسب الرسول ، التي منها النطاسي البارع الدكتور احمد حسب الرسول . وفي يوم الزيارة تمتلئ الغرفة عن بكرة ابيها بالزوار من اقرباء وقريبات خلف الله ، يحملون مالذ وطاب من مأكل ومشرب وكنت على النقيض من ذلك ، وحيداً او اكاد . وذات يوم حانت التفاتة من والدة خلف الله الي . ولما رأتني اجلس وحيداً على السرير ، قدمت نحوي وسألتني مشفقة « مالك براك ياولدي ؟ وين امك ؟ وين اهلك ؟ فأجبتها انهم في الفاشر ، وانا هنا في الخرطوم ادرس في الجامعة . وشهد الله ما ان قلت ذلك حتى وضعت يدها على صدرها قائلة « انا امك ياعشاي ! « واصبحت من يومها تحضر الي من الطعام والشراب مثل ما تحضره لابنها ان لم يكن اكثر . وعندما تطيل الجلوس الي تسأني عن صحتى وحالي

؛ يمازحها خلف الله قائلاً : « شنو يا امي انتي نسيتيني ولا شنو » فتجيبه ضاحكة « لو نسيتك اخواتك وبنات عمك وخالاتك قاعدات ! » . ولقد قويت العلاقة بعد ان خرجنا من المستشفى ، واصبح خلف الله من الاصدقاء ؛ ودعاني مراراً الي منزلهم في الجريف ، ولكن العلاقات الانسانية على دأبها دائماً للأسف قصيرة الامد ، تخبو قليلاً قليلاً ، وما تلبث ان تتلاشى بتغير الزمان والمكان والانسان – لهم تحياتي من على البعد.

بما ان الحديث ذو شجون، فلابد لي من ملاحقة تلك القرحة اللعينة التي ابت الا ان تلاحقني خارج السودان وتطرحني سريرا مرة اخرى في هامبورج بالمانية الاتحادية في اواسط السبعينات. وكان السودانيون هناك ايضا سودانيين. لكن لنترك ذلك لبرهة. فعندما ادخلت احد عنابر مستشفي التونا الفخم، كان مكتظا بالمرضى من الالمان. وكانت الممرضة التي تتولي اكمال اجراءت دخولي افريقية فارعة الطول، ممشوقة القوام من جمهورية توجو تدعى جوزفين، وتتحدث الالمانية، وكأن جذورها المانية! وبينما هي منهمكة في تلك الاجرءات سالها مريض من آخر الغرفة بصوت عالٍ وبمنتهى الاستفزاز:» سستر ما اسم هذا الزنجي الاسود؟» وانفجر بقية القوم في قهقهة عالية. لكن لم تجب تلك الافريقية الرائعة بل خرجت على التو، وعادت بعد فترة وجيزة واخذتني الي غرفة بها سريران فقط واحدهما فارغ . وماهي الا لحظات واسمع جلبة وضوضاء في الممر ، ورأيت تجمهراً حول مركز خدمات الجناح . وكان المتجمهرون من تلك الغرفة التي أخذت اليها اولاً ، وهم يحتجون عند رئيسة الممرضات ، ويتهمون جوزفين بالعنصرية لانها ميزت عليهم ذلك الزنجي الاسود من ابناء جلدتها ، الذي هو انا ، ونقلته الي غرفة من الدرجة الممتازة . فسألت رئيسة الممرضات جوزفين ان كانت فعلت ذلك ، فاجابت بالايجاب . ثم سألتها لماذا ؟ واجابتها بهدوء ان هذا المريض يعاني من قرحة ، وكما تعلمين ان اقل استفزاز قد يزيد من انفعالاته ، وقد تعرض بالفعل للاستفزاز من هؤلاء المحتجين ؛ وهذا قد يضر بحالته الصحية ، فرأيت ان ابعده عن هذا الجو العدائي . فما كان من رئيسة الممرضات الا ان قالت لها : « رشتيش « - أي صاح !وانفض سامر القوم خاسئين!

ولقد عادني الكثير من الاخوة والاصدقاء من الطلبة ومن المبعوثين العسكريين وعائلاتهم في المستشفى ، بالاضافة الي زملائي وزميلاتي من الالمان – وايضا هذه لها قصة آمل ان اعود اليها ذات يوم – وكنت اجلس معهم في الغرفة العامة حتى تنتهي الزيارة

فيودعونني وينصرفون ليعودوا في موعد الزيارة القادمة . وكنت الاحظ ان احد المرضى في نفس الجناح يحرص دائماً على الجلوس قريباً منا ، ويطيل النظر الينا في فضول ظاهر . وذات يوم بعد ان انصرف زائري من السودانيين تقدم نحوي في استحياء وقال لي : « اطلب المعذرة ، واريد ان اكون صريحاً معك . انا فضولي ، وقد اكون عنصرياً بعض الشيئ . فانا اعرف الكثير من السود الذين يأتون بحركات وتصرفات غير مهذبة ، ويستفزون مشاعر واحاسيس الاخرين بلباسهم الصارخ الالوان ، واصواتهم وقهقهتهم العالية داخل وسائل المواصلات وفي الاماكن العامة . لذلك انا صراحة لا احبهم. ولكن بدات اول مرة اميز ان ليس كل السود سواسية . فهؤلاء الاشخاص الذين يأتون لزيارتك ، يختلفون عن تلك الفئة ، فهم في غاية النظافة والتهذيب ، تفوح منهم الروائح الباريسية ، ويحترمون شعور واحساس الآخرين ، ويتصرفون بذوق وادب جم . ثم سألني من أي بلد انتم؟ فأجبته من السودان » وبالطبع بدأ سيلاً من الاسئلة حتى يزيد ذخيرته المعرفية عن السودان . واوشك هذا « العدو « ايضا ان يقول : « أي شعب هذا ؟».

أحقاً نحن مجانين؟

الإخوة الخليجيون يتندرون على السودانيين، ويقولون إن أردت أن ينجز لك السوداني عملاً بصورة جيدة وبإتقان ، وبأجرٍ زهيد ، فاذكر له محاسن السودانيين وكيل له المديح والثناء ، لأنهم يحبون سماع ذلك كثيراً ، والغريب أنهم يصدقونك !

لكن هناك البعض من الإخوة الخليجيين يقول ذلك عن صدق وتجربة وليس على سبيل استغفال السوداني ، والأمثلة على ذلك كثيرة.

أذكر أنه ذات مرة ، في إحدى زيارات الأستاذ الصديق البحاثة الطيب محمد الطيب- رحمه الله- الي السعودية ، طلب مني أن أصحبه لزيارات أحد أصحابه من السعوديين . فذهبنا اليه في مكتبه في مركز شاكر في جدة ، وتجاذبنا أطراف الحديث . وفجأة وبدون مقدمات سأله الأخ الطيب عن رأيه في السودانيين والسودان ، الذي قام بزيارته قبل فترة وجيزة . فوصف الرجل السودانيين بكافة الخصائص والأخلاق الحميدة، والمثابرة ،والصدق ، والأمانة ....الخ. وأضاف أن البرهان على ما يقوله تعززه ابنته التي تدرس الطب في جامعة الملك عبد العزيز في جدة . فلا يمر يوم عليها إلا وتبدي إعجابها بثقافة وعلم، وأخلاق أحد أساتذتها السودانيين. وتقسم أنه أفضل أستاذ في الكلية ، ويكاد يكون مثلها الأعلى في غزارة العلم ، والتواضع . وسألناه في لهفة عن اسم هذا الأستاذ الذي رفع اسم السودان عالياً. وحاول الرجل جاهداً أن يتذكر الاسم ، ولكن لم تسعفه الذاكرة . فتناول الهاتف واتصل بابنته في البيت يسألها عن اسم أستاذها السوداني ، وجاءت الإجابة « الدكتور عامر مرسال « جراح العظام القدير، الذي كان تشد اليه الرحال من أماكن بعيدة في السعودية ومن السودان. ولقد كان لموته صدمة قوية ومؤلمة على أصدقائه، والذين قام بعلاجهم من سودانيين وأجانب – رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

ثم اعتدل الرجل في جلسته ، وقال للأخ الطيب سأكون معك صادقاً وصريحاً . لما لمست من السودانيين ما تقدم من حميد الخصال، تشوقت لزيارة هؤلاء القوم الأفاضل في عقر دارهم ، فذهبت الي الخرطوم، وليتني لم أفعل! فلقد كانت خيبة أملي للأسف كبيرة جداً، ولم أصدق أن هذه العاصمة المتواضعة في كل شيء ، هي بلد من عرفتهم من السودانيين في السعودية ، لأنها ببساطة لا تشبههم . فهم يستحقون بلداً أفضل من

هذا ! . وأضاف أن هذا الأمر حيرني كثيراً ، وكنت أتساءل طوال الوقت عن السر في هذا التباين . وختم قوله (أكيد هناك شيء ما خطأ فيكم)!! وأكدنا له مع الأخ الطيب هذا هو الذي حيرنا، وحير غيرنا من السودانيين، وحير معنا كذلك «بوبي»! وودعنا الرجل وانصرفنا، ونحن نناقش فيما بيننا ما سمعنا.

وللغرابة تكرر نفس هذا الرأي من أخ سعودي آخر في مناسبة اخرى . وهذه المرة من مسؤول كبير في الإدارة التي أعمل فيها. فذات يوم سمعت طرقاً خفيفاً على باب مكتبي . وعندما قلت تفضل ، فوجئت بدخول هذا الشخص المسؤول . فاستغربت كثيراً لأن ليس من عاداته القيام بمثل هذا الزيارات . وجلس الرجل وكأنه يحمل جميع هموم الدنيا على كاهله وأحكم إغلاق الباب. واخبرني أن لديه سرا يريد أن يفشيه لي لأول مرة، ويطلب مني الستر، والكتمان، والمساعدة. وبعد أن جلس حكى لي في أسى وحزن أن زوجته – شفانا الله واياكم- بها مس من جن ، وأنه سافر بها غرباً وشرقاً طلباً للعلاج ، وطرق كافة الأبواب ، ولكن دون جدوى . وذكر أنه سمع عن رجل صالح في السودان ربما يجعل الله الشفاء على يديه ، وكل ما يطلبه مني أن أصف له أسرع وأسهل السبل الي الوصول الي هذا الرجل ، أو أدله على من يقوم بإيصاله لهذا الشيخ ، الذي هو عبد الرحيم البرعي رحمه الله . ولحسن الحظ لوالد زوجة صهري- الطريفي خليل- علاقة حميمة وقوية بالشيخ عبد الرحيم ، وكثيراً ما كان يزره أو ينزل عنده في منزله في الخرطوم بحري . فرتبت الأمر كأفضل ما يكون، وسافر إلى السودان وبعد عودته زارني مرة أخرى، لكن هذه المرة منشرح الصدر، منبسط الأسارير. واستفسرته عن صحة زوجته فذكر أنها تحسنت كثيراً والحمد لله وعاوده الأمل في الشفاء التام بإذن الله بعد أن كان قد فقد الأمل في ذلك. ثم جاء دور السودان والسودانيين. وما ذكره – يتطابق تماماً مع ما ذكره صاحب الأخ الطيب، حتى نفس السؤال المحير عن السبب في الفرق بين البلد وساكنيه. ثم أضاف ما استوقفته هما حادثتان . الأولي حدثت في الخرطوم ، والثانية في مقر الشيخ عبد الرحيم في الزريبة . ففي الخرطوم ذكر أنه نزل في فندق المريديان ، وصلي الجمعة في مسجد قريب من الفندق . وكي لا يحرجني بدأ قوله : «كما أن لدينا شحاذين يقفون أمام المساجد في السعودية وجدت شحاذاً يجلس في أحد أبواب المسجد يتلقي صدقات المحسنين» . فأدخلت يدي في جيبي ، وأخرجت ما تيسر ودسيته

في يده. ولكن الرجل أمسك بيدي ، وأمعن النظر في وجهي ، ثم رد الي المبلغ ورفض أن يأخذه وقال لي : « أنت ضيف عندنا في السودان ، ولو ظروفي تسمح كنت أكرمتك – فكيف لي أن آخذ منك !» . قال : لم أصدق ما سمعت ، هل هناك شحاذ على وجه الأرض يرفض أن يأخذ صدقة ، بل ويعتذر أنه لا يستطيع إكرامك ؟! ولا شك أن صاحبي قال في سره كما قال البريطاني من قبله : (أي شعب هذا)؟!

أما الحادثة الثانية فحدثت في الزريبة بعد أن أكملت زوجته العلاج ، وأراد أن يشد الرحال الي السعودية، بعد الكرم الفياض الذي غمره به الشيخ عبد الرحيم – حسب قوله – وذكر لي أنه قبل أن يسافر الي السودان أراد أن يأخذ معه هدية قيمة للشيخ البرعي . ودخل سوق العطور في جدة واختار عطراً مميزاً ولكن عندما سأل عن سعره ذهل لسعره الباهظ جداً . وقال صرفت النظر عن شرائه، واخترت هدية اخرى أقل سعراً.

وعندما حان وقت الوداع خرج الشيخ البرعي لوداعنا ، وقدم لي هدية ، هل تصدق انه نفس فتيل العطر الذي استغليته عليه ! فأصبت بالوجوم، حتى لاحظ الشيخ ذلك ، وقال لي : « لا تتردد إنها هدية بسيطة أقل من المقام « . وأضاف صاحبي ، بصرف النظر عن قيمة الهدية المادية ، ذهلت – وأنا رجل لا أؤمن بالغيبيات - لكن هل قرأ الشيخ أفكاري ؟ وأراد أن يشعرني بأنه لم يستكثر على ما استكثرته عليه؟ أم هل انه مجرد توارد خواطر؟ أم ماذا؟ فقلت له :أكيد انه ماذا !!

وهناك من الإخوة السعوديين من نعتنا ذات مرة بالجنون ! كنت في رحلة عمل الي مدينة الرياض ، ووصلت مطارها بعد منتصف الليل ، وضمتني سيارة أجرة مع سودانيين آخرين على غير هدى ميممين صوب وسط المدينة ، إذ أخذ سائق السيارة كلاً على حده وكنت في المعقد الأمامي، والآخران في المقعد الخلفي . وما هو إلا برهة ، وسلام وسؤال ، وحديث وانس وضحك بين الشخصين في المقاعد الخلفية . ومن خلال الونسة عرف أحدهما المقيم في الرياض ، أن الآخر جاء الي الرياض لأول مرة في مأمورية خاصة، وسوف ينزل عند جماعة من أقربائه . وبعد أن وصلنا المكان الذي ينزل فيه المقيم ، إذا به يحلف بأغلظ الإيمان على الآخر أن يبيت معه في بيته ، لأن الوقت متأخر ، وهو غريب على المدينة وبدأ يسحبه سحباً من السيارة ، فأذعن الآخر وودعانا ونزلا . وبالطبع كنت مع السائق على علم بكل ما دار بينهما – وانتم أدري بأصوات السودانيين في مثل هذه

الحالات – وما أن نزلا وأغلقا الباب حتى بدأ السائق يهز رأسه ويقول : « لا حول ولا قوة الا بالله ... معذرة يا أخ .. أنتم أناس مجانين ! « فانفجعت « كما يقول الإخوة السعوديون . ولكن الرجل لم يمهلني حتى أرد على هذه التهمة الخطيرة ، بل أضاف: « كيف لي أن أدعو شخصاً لم التق به إلا قبل أقل من ساعة ، ثم آخذه ليلاً ليمضي الليل في بيتي ... كيف آمنه على مالي وعيالي وأهلي ؟!!" قلت له بالتأكيد إنهم لا يحسبونها كذلك، وإلا لما كانوا سودانيين!! .

وللغرابة مررت شخصياً بتجربة مماثلة ، لكن في السودان . إذ ذهبت ذات مرة في رحلة عمل من قبل المتحف القومي السوداني الي منطقة سنجه وأبي حجار. ووصلت سنجه عند المغيب ، وهي أول مرة أري فيها هذه المدينة. ونزلت من البص في أول مدخل المدينة ، حاملاً حقيبتي اليدوية وباحثاً عن فندق أمضي فيه أيام المأمورية . ورأيت شاباً من على البعد يجلس في طرف الشارع . فذهبت اليه ، وأخبرته إنني أتيت من الخرطوم وابحث عن فندق معقول أنزل فيه ، وطلبت منه إعطائي عنواناً أو وصفاً للفندق المنشود . فقال لي:» نعم أنا أعرف فندقا جيداً ، ولحسن الحظ ليس بعيداً من هنا « . ثم اذا به يأخذ حقيبتي بل يخطفها خطفاً ويبتعد مني في خطوات سريعة . وكدت أشك في نواياه ، ولكن تبعته في صمت. وبعد أن دلفنا يميناً ، ويساراً ، وعلى طول ، إذا به يدخل منزلاً به حوش كبير وغرفتان . فأدخلني إحدى الغرفتين ، وجلست على سرير ، وخرج مسرعا . وأنا لا أزال مندهشاً ممَّ يحدث . هل يمكن أن يكون هذا فندقاً بهذا التواضع الذي يميزه ؟ ثم أين النزلاء ؟ و.... الخ. وقطع على الشاب أفكاري بدخوله حاملاً مشروباً بارداً . فسألته إن كان هذا هو الفندق الذي يعنيه . فأجاب : « فندق ايه انت ما سوداني ؟ تنزل عندنا هنا في البيت»وقلت في سري ها انذا أمام مجنون آخر من إياهم!» فهو حتى هذه اللحظة لا يعرف حتى اسمي، ناهيك عن أصلي، وفصلي، ومبتغاي، ووجهتي! لكن قدم الأخ صلاح قدم نفسه -وللأسف أنستني الأيام اسمه بالكامل!- اليست الايام كالخطوب التي قال عنها البحتري في سينيته الرائعة:

ذكرتنيهمو الخطوب التوالي ** وقد تذكر الخطوب وتنسي

فهي ذكرتني بشخصه الكريم، لكنها انستني اسمه الكامل. وأبان أنهم مجموعة من معلمي المدارس الابتدائية العزاب ، وهذا هو مسكنهم، وسأمضي أيام المأمورية معهم. ولقد حضر بعد قليل زميله في الغرفة الأستاذ أحمد عبد الله، ولم يكن أقل ترحيباً أو

حفاوة بي من الأخ صلاح . ولكم أعجبت بمدينة سنجة الخضراء الرائعة والجميلة ، وتمنيت أن اسكن فيا بحق وحقيقة. وعرفني الأخ الرائع« المجنون» صلاح بمجموعة من معلمي المدرسة الوسطى ، أذكر منهم عثمان شاشوق ، وسليمان .....، شباب ممتلئون حيوية، ونشاطاً وأدباً وأخلاقاً وتفاؤلا بوطن مضيء مشرق. واحتفوا بي أيَّما احتفاء، وأعدوا لي برنامجاً حافلاً ، يوم مباراة على شرفي، ويوم زيارة المعالم الهامة في سنجه، ويوم رحلة، ويوم آخر غداء في منزل الأستاذ سليمان، الذي لا تفارقه دراجته دائماً. كما أخذني الأخ صلاح الي مسقط رأسه في قرية « أم بلينة « وعرفني بوالده، وامه، واخوانه، وحتى اخواته ، ووعدوني بقطعة أرض زراعية في أم بلينة الخضراء المليئة بأشجار المنقة، والأشجار الباسقة . وقابلت في سنجه الصديق القديم الذي عملنا سوياً في امكدادة والفاشر، عندما كان ضابطاً في المجلس البلدي، الأستاذ الأمين بريش من كوستي ، و كان وقتها أكبر مسؤول في سنجه، أعتقد أنه كان مفتش الحكومات المحلية . وعبرت له عن رغبتي في الحصول على قطعة أرض سكنية أو منزل بثمن معقول في سنجه ووعدني خيراً . ولكن يبدو أن حماسي لذلك ومرد هذا الحب الجارف لسنجه ، هو هذا الانطباع الأول الذي تركه في الأخ الرائع صلاح وزملاؤه من المعلمين ، ولأنهم ذكروني بعهدي الجميل حيث كنت معلماً مثلهم في بداية حياتي العملية في المدارس الابتدائية في امكدادة والفاشر. وذاك الحنين الجارف الذي داهمني في سنجة خلال تلك الايام القلائل، ذكرني الآن بموقف الشاعر السوداني المبدع محمد سعيد العباسي، حين زار مصر بعد ما اعشوشب العمر، وتذكر مراتع الصبا، ومسارح الأنس واللهو بها، ايام دراسته في الكلية الحربية هناك، ولقد كان يكن حنينا دافقا لمصر. اليس هو من قال فيها:

مصر، وما مصر سوي الشمس التي ×× بهرت بثاقب نورها كل الورى
ولقد سعيت اليها فكنت كأنما ×× أسعي لطيبة أو الي أم القرى

وحين تذكر كل ذلك جاشت مشاعره، واستبد به الشوق والحنين، فقال أروع ما قيل في الحنين الي الماضي الجميل، والي أيام الشباب:

يا من وجدت بحّيهم ما اشتهي ×× هل لي من شباب يباع فيشترى!
ولو أنهم ملكوا ما بخلوا به ×× ولأرجعوني والزمان القهقرى

وكانت سنجه محطة قصيرة في رحلة العمر ، لكنها وارفة الظلال، مفعمة بالمعاني الجميلة . لهؤلاء الإخوة الأعزاء ، الذين لا زالوا في الذاكرة بعد قرابة ربع قرن من

الزمان تحياتي. يا لهف نفسي! ماذا فعل الزمان الجائر بأحلامهم الوردية تلك! لكن يبدو اننا لسنا جميعا مجانين، فهناك من شذ عناً ! ذكر لي احد الأصدقاء، ان هناك شخصا ورعا، لا يبالغ في الحفاوة والإكرام كبقية "المجانين". ولا يحب الحلف بالله بسبب وبدون سبب كدأبنا نحن السودانيين.

******

وحدث ان زار شخص هذا الرجل الورع في داره اثناء تناول وجبة الغداء؛ وكان الزائر جائعا.ولكن عندما دعاه الشيخ الي تناول الغداء معه، اجابه من قبل المجاملة:» لا والله شكرا». وكان يتوقع- كعادة « المجانين» ان يصر عيه الشيخ، ويقسم عليه ان يتناول الغداء معه، ويلح في ذلك. لكن لقد خاب فأله. فلم يكن الشيخ من النوع الملحاح. وجلس يتناول طعامه في هدوء بين نظرات الضيف الذي ندم اشد الندم على قسمه الكاذب. وبعد ان رفعت اواني الطعام واحضر الشاي، التفت اليه الشيخ قائلا» ارجو الا تحرم نفسك هذه المرة!» فما كان من الضيف الا ان اطبق بكلتا يديه على كوب الشاي وهو يردد» معك حق! معك حق!». فهو لا يريد ان يخرج من المولد بدون حمص، خاصة بعد ان تبين له ان اسلوب الشيخ هذا مغاير لما الفه من اساليب!

وبما ان الحديث ذو شجون، اذكر أثناء عملنا بالتدريس في مدرسة الفاشر الجنوبية الأولية، ومعي اخي وصديقي المستشار حاليا والاستاذ سابقا عبد الحميد احمد امين ،ان زارنا ذات مرة احد المعارف اثناء فسحة الفطور. وكان الافطار يحضر الينا تارة من منزل الاخ عبد الحميد وتارة من منزلنا محمولا في (عمود) صغير يحوي بداخله العديد من الاصناف الجيدة والمتنوعة. ومن لم يذق طعام اهل الفاشر في ذلك الزمن الرخي، فقد فاته الكثير. وصادف حضور ذلك الضيف احضار احد التلاميذ للعمود، والذي لا يدل مظهره الخارجي على ما بد اخله من الاصناف الجيدة. واعددنا مكان الافطار، ودعونا الاخ الزائر ان ينضم الينا ويشاركنا الطعام. لكنه رفض بشدة حالفا باغلظ الايمان انه تناول افطاره في الصباح الباكر، ولا مجال هناك للمزيد. ولكن بعد ان فتحنا العمود، وفاحت الروائح الشهية، واخرجنا الطعام، تململ صاحبنا في مقعده، وغير رأيه بسرعة، وجذب الينا كرسيه بدون سابق انذار قائلا: « في الحقيقة عندما ترى البطون الالوان، تقول لها هلمي الي كي اريك الاركان"! وكان ذلك جواز مروره لتناول الافطار معنا.

هذا ما ازعمه ، ومن اراد التثبت من ذلك عليه استعمال « تقنية القياس بالذراع « والعهدة على الراوي اخي وصديقي الباشمهندس احمد عيسي ، الرجل المثقف الوّناس، الذي يحلو لي ان القبه ب» كبير مهندسي جدة وما جاورها»، الذي حكى ذات مرة ، انه دار لغط كثير في مجلس الخليفة عبدالله التعايشي حول « صرة الدنيا « . وتشعبت الاراء ، فمن قائل ، مصر ، واخر تونس ، وثالث مكة ..... الخ – فما كان من احد المتحذلقين الا ان قال بلغة اهلنا البقارة المحببة في غرب السودان : « صرة الدنيا كيه تحت فروة الخليفة ! والمكضب فليدرع كيه وليدرع كيه واشار الي الاربع جهات ..!»ومن يريد منكم القياس___ فليكشف عن ذراعه !

في الذاكرة حالات ثلاث ، تتباين زمنا ومكاناً ، لكنها تتفق في المضمون . فالقصة الأولى حدثت في قرية نائية في اصقاع شمال دارفور بالقرب من عين فرح . اذ ذهبت ابان وجودي في شعبة الآثار بجامعة الخرطوم للتحضير للماجستير ، مع استاذ نرويجي في علم الاجناس هو قونارت هولند ، وزوجته استاذتنا خبيرة الآثار « راندي « الي منطقة شمال دارفور لاجراء بعض الدراسات الميدانية . ووصلنا ذات مساء الي قرية صغيرة – نسيت للاسف اسمها – تقع على مقربة من عين فرح. وكانت الشمس قد غربت ، وبما اننا كنا نريد زيارة آثار عين فرح في الصباح التالي قررنا المبيت بتلك القرية ، ولانها قرية صغيرة ونائية ، كان قدوم السيارة في حد ذاته حدثاً هاماً ، ناهيك ان بها اوروبي وزوجته واطفاله . فكان ان التفت القرية كلها حولنا ، اطفالها ، ورجالها ، ونساؤها ، وحتى كلابها . ووجدنا صعوبة بالغة في الحديث وسط الضجة والضوضاء التي احدثها ذلك الجمع المتعجب. وبعد لاي سألناهم عن العمدة او الشيخ المسؤول عن القرية ، واخبرونا ان ليس لديهم شيخ او عمدة ، بل (امين المنطقة) وهي وظيفة سياسية استحدثت بعد الاستغناء عن الادارة الاهلية ابان عصر النميري . واشاروا اليه ، فلم يكن هو ايضا يدع فرصة المشاهدة تفوته ، وبعد ان قدمت له الاستاذ الأوروبي وزوجته ونفسي ، اخبرته اننا ننوي فقط المبيت ليلة واحدة في القرية ، وسنغادرها صباحا ، ورجوته ان يوفر لنا فقط مسكنا واحدا للمرأة والاطفال ، اما نحن فيمكن لنا المبيت في العراء . ولقد كان الرجل للأسف فاقد مروءة ، بدأ بأعذار واهية ، بأننا فاجأناهم بوصولنا ، وانه شخصيا لايملك

مسكنا ولايستطيع ان يكلف أي شخص بايوائنا : وكل مايستطيع عمله هو اننا يمكن ان ننام في (راكوبة) اشار اليها ؛ تقع في طرف القرية ، مهجورة ، ومخلعة من كل الجوانب . ولقد الححت عليه في السؤال – رغم كرهي الإلحاح – مذكرا اياه ان هذا ضيف اجنبي وان سمعة وطنه تقتضي عليه ان يتصرف بوطنيه اكثر ولاسيما هو المسؤول في هذا المكان ، ولو تحمل في سبيل ذلك المشاق ، والصعاب ، ولكن دون جدوى.

واسقط في ايدينا ؛ جو بارد جدا ، ولا مأوى ، ومعنا اطفال وامرأة ، ماذا نفعل يا الهي ؟ وبيمنا نحن في حيرتنا تلك تقدمت الي امرأة في مقتبل العمر ، غبراء شعثاء كبقية نساء القرية ، وهي تسير في استحياء ، وقالت لي في صوت خافت : « يمكنكم ان تمضوا الليلة في داري ، نعم هو صغير ولكن يسعكم .» وبهت الجميع حين بزتهم هذه المرأة الشهمة بتصرفها الجرئ ذلك . وشكرنا لها حسن صنيعها ، وتبعناها الي دارها بين ازقة القرية الضيقة ، واخلت لنا (قطية) صغيرة ادخلنا فيها الاستاذة راندي واطفالها، وقدمت لي مع السائق والاستاذ بساطا بسطناه في ساحة المنزل ، ولحسن الحظ كانت لدينا الكثير من البطانيات الصوفية الجيدة التي وقتنا شر البرد . وعلى الرغم من ان لدينا من الاكل ما يكفينا الا انها اعدت لنا صحنا من العصيدة ، واداما فقيرا في مذاقه ومحتواه ، ولكن كان ذلك كل ما تملك لاكرام هؤلاء الضيوف.

وصحونا فجراً على بكاء وصراخ أطفال تلك المرأة المضيفة ، وخشينا ان يكون مكروه او ذئب اقتحم عليهم (القطية) . وهرعنا اليهم، وكم آلمنا ما وجدنا ! فلقد اخبرنا الصغار ان والدتهم ذهبت لاحضار الماء من مسافة بعيدة ، مسافة تقتضي منها ان تهب في هذا الوقت المبكر ، حتى تستطيع العودة واعداد الافطار لهم ولضيوفها في الصباح . ولان ليس لها غير ثوب واحد ، تلبسه نهارا وتتدثر به مع اطفالها ليلاً ، سحبته منهم لكي تستتر به وتذهب لاحضار الماء ، وتركتهم من دون غطاء والذي حتى في وجوده لا يقيهم شر البرد، ولكن هذا هو كل المتيسر! وعالجنا الموضوع بأن غطينا الصغار ببطانية ، وعادوا وواصلوا نومهم ، وانا افكر في عظمة هذه المرأة، التي اخبرتني ان زوجها تركها منذ وقت طويل وهاجر الي الشرق بحثا عن عمل ولم تعد تسمع عنه شيئا. ورغم ذلك لم يمنعها الفقر من القيام بواجب تقاعس عنه الكثيرون. ولم ياو الدكتور قونار الى مضجعه، بل جلس مدة طويلة وهو ينظر الي الارض ، واجم من هول ماراى.

وفي الصباح ودعناها بعد ان اعدت لنا الشاي ، وبعد ان اهداها الاستاذ النرويجي

بطانيتين من اجود البطانيات واغلاها ، وقدراً من المال هي احوج ما تكون اليه . ولم تنبث بكلمة بل تمتمت وانهمرت دموعها تعبيرا عما عجزت عن قوله!

اما القصة الثانية فمسرحها مكاتب الجمارك مطار الخرطوم ، وبطلتها شابة سودانية تختلف كلياً عن تلك ، جميلة وانيقة ، يبدو عليها قدر كبير من الحشمة والوقار والاعتزاز . وكان ذلك في اوائل عام ١٩٧٣م ، عندما تقرر ذهابي مع البروفسور الألماني زقرت الي منطقة جبل مرة لاجراء مسح اثري. وحسب تجربة البروفيسور في الموسم السابق ، فان المنطقة بها بعض الحيوانات المفترسة ، لذلك احتاط هذه المرة ، واحضر معه من هامبورج بندقية (ماقنم) الشهيرة بقصد حماية النفس عند الضرورة.

وكإجراء متبع ومتفق عليه بين مصلحة الآثار وبين سلطات الجمارك ، فان كل المعدات التي تخص البعثات الأجنبية التي تنقب عن الآثار في السودان تدخل مجانا شريطة ان تخرج بعد الانتهاء من الحفريات ؛ وذلك تسهيلا وترغيبا لهذه البعثات . وكان ان قام البروفسور بشحن البندقية ووصل قبلها الي الخرطوم ، وانتظرها طويلا ولكن لم تأت . واخيرا قمنا بحجز مقاعد في الطائرة المتجهة الي نيالا عن طريق الفاشر. ولحسن الحظ وقبل ان نغادر الخرطوم بأقل من (٢٤) ساعة وصل إشعار يفيد بوصول البندقية ، وان علينا الاتصال بجمارك المطار لاستلامها . فأخذنا كل الأوراق الخاصة بها ، والتصديق الخاص باعفاء معدات ومستلزمات البعثة الألمانية وهرعنا الي مطار الخرطوم ، وكان النهار قد انتصف . ودخلنا الي الشخص المسؤول في مكتب تشاركه فيه الشابة التي سبق الحديث عنها ، وشرحنا له سبب حضورنا ، وطلبنا منه ان يستعجل لنا اخراج البندقية لاننا سوف نغادر الخرطوم صبيحة اليوم الثاني متوجهين الي الفاشر، ولان الحجز ليس بالامر السهل فنحن لانحب ان نفقد فرصتنا في السفر، كمه لا نريد ان نضحي بحياتنا في تلك المنطقة التي سنعمل فيها ونسافر دون البندقية . وفي غطرسة شديدة وصوت يكاد لايسمع سأل : « أين التصريح الخاص بادخال البندقية؟». وحسب تجاربي الكثيرة مع الموظفين السودانيين وغيرهم ، عرفت ان هذا واحدا من الذين يحبون تعقيد المواضيع ، وسألت الله في سري ان يمر الموضوع بسلام . واعطيناه خطاب مدير الجمارك الذي ينص صراحة على اعفاء كل مايتعلق بالبعثة الألمانية ؛ ولكنه رفض ذلك وقال : « انا لا اقبل الا تصديقا منفصلا لهذه البندقية بالاسم والرقم

، صادر من مدير الجمارك ، عدا ذلك لا يمكن لي قط ان اسلمكم هذه البندقية . »
وعبثا حاولنا اقناعه بوجهة نظرنا ، ولكن دون جدوى . واخيرا كان لامفر من الذهاب الي مكتب مدير الجمارك الذي يقع في طرف آخر من المدينة . وقبل ان نغادر مكتبه ، فجعنا بجملة اخرى زادت الموضوع تعقيداً ، اذ اخبرنا انه في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً سوف يقفل قسم الامن الخاص بحفظ السلاح ، وانه سوف يقوم باعادة البندقية فور خروجنا، الي مخزن الاسلحة ، وان لم نصل قبل ذلك الميعاد لانستطيع اخذها الا في صباح اليوم الثاني الساعة التاسعة صباحا ، مع العلم ان طائرتنا تغادر الخرطوم الساعة السابعة صباحا الي الفاشر . وكان ذلك الوقت المتبقي اقل من نصف ساعة ، وكان من المستحيل ان نذهب الي مكتب مدير الجمارك في قلب العاصمة وسط زحام السيارات والمشاة ، ونعود قبل الساعة الثانية عشرة . وتوسلنا اليه بكل الطرق فقط ان لايدخل البندقية الي مخزن الاسلحة ويتركها بقربه حتى نحضر ، واخبرناه اننا لعلى ثقة من اننا سوف نحضر التصريح المطلوب . ولكن ماكان من ذلك الرجل عديم المروءة الا ان قال بالحرف الواحد : « لا هذه مسؤولية كبيرة وانا لا اتحملها « وكما تدخلت تلك المرأة الشهمة ، في دارفور في الوقت المناسب ، تدخلت تلك الموظفة ، وشرفت كل نساء السودان ؛ فقامت من على مكتبها حيث كانت تستمع لحوارنا مع رئيس المكتب وقالت له بكل هدوء : « الا تستطيع يا (م) ان تتحمل مسؤولية هذه البندقية لمدة ساعة حتى يعود هذان الشخصان ؟ « فأجاب السيد (م) بلا خجل : « نعم لا اتحملها « فقالت له : « انا مستعدة لتحمل هذه المسؤولية ، والي بالبندقية « واخذتها ووضعتها بجوار مقعدها، وقالت لنا : « اذهبا واحضرا التصريح ، والبندقية لن ترجع الي المخزن لا الساعة ١٢ او الساعة الواحدة، ولو ادى ذلك الي فصلي!» « .

لقد كان فخري بتلك الشابة يفوق الوصف ، وزاد من فخري انها قامت بهذا التصرف امام اوروبي ؛ والأوروبيون بصفة خاصة يعتقدون دائما ان المرأة في الشرق (درجة ثانية) ليست لها شخصية ومضطهدة من الرجال . فها هي هذه الشابة العظيمة تنفي ذلك عملا وليس قولا.
وذهبنا الي مكتب المدير، ابراهيم يوسف علي دينار، وعدنا بالتصريح المطلوب بعد نصف ساعة تقريبا وسلمناه للرئيس ، والذي لم يستطع حتى ان يرفع رأسه لكي يرانا

، بل قال : « تفضلوا وخذوا البندقية » فاخذناها بعد ان اجزلنا الشكر لتلك الشابة الشهمة. وشدة مايحزنني انني لا اعرف اسمها ، حتى اسجله للتاريخ.

اما الحادثة الاخيرة فهي ملحمة بطلتها كوكبة من طالبات جامعات الخرطوم النيرات. وتعود بي الذاكرة الي اوائل عام ١٩٧١م حين بدأت المشاكل السياسية تتفاقم بين الاخوان المسلمين وبين اعضاء الجبهة الديمقراطية التي رأت في نظام النميري الجديد سندا لها وارادت احتواءه وذلك عن طريق فرض وصايتها على بقية التنظيمات الحزبية داخل الجامعة . وكاد ذلك ان يؤدي الي صدام رهيب في مارس ١٩٧١م تروح ضحيته العشرات لولا لطف الله ؛ وشهامة، وشجاعة، وحكمة النساء. فقد مل الكثير من الطلبة ذلك الصراع الحزبي البغيض بين الحزبين المتنافسين ، الاخوان والشيوعيين (الجبهة) . وقرروا انشاء اتحاد مستقل يدافع عن مكتسبات الجامعة ويتصدى لحل مشاكلها . ولكن سعى الواشون من انصار الجبهة الديمقراطية الى سلطات وزارة الداخلية وأوعزوا لها ان الاخوان يخططون للسيطرة على الجامعة.

وكونّ الطلبة المستقلون اتحادا لهم برئاسة الاخ الطيب السباعي الذي توفرت فيه كل صفات القيادة . وبدأ التوتر بين الاتحاد والحكومة ؛ واعتصم الطلبة المستقلون ومعهم الاخوان المسلمون داخل الجامعة . وبدأت التعبئة الحماسية في قهوة النشاط ؛ وتبارى الخطباء ، والقيت القصائد النارية التي تلهب المشاعر وتثير النفوس . ومن تلك القصائد قصيدة الاخ الشاعر فضيلي جماع التي علقت على اللوحات المنتشرة في مقهى النشاط وخاطب فيها مدير الجامعة الذي ناصب الاتحاد الجديد العداء ومطلعها :
(تناهى اليوم للاسماع ان ضميركم ودع) ويمضي فيها حتى يصل الي السخرية اللاذعة من ذلك المدير:

وام مهازل النيا بقاؤك ** دمية خرساء لا تنفع
سرقت الجولة الاولي ** وعاد الدور اليوم كي نصفع

وجاءت طوابير الجيش عصرا تتقدمها الدبابات والعربات المصفحة استعراضا للقوة وارهابا للطلبة المعتصمين . وأغلقت كل الطرق من و الى الجامعة وعزلت تماما عن

بقية اجزاء العاصمة . ووصل اكثر من وزير من اعضاء مجلس قيادة الثورة وهددوا باقتحام الجامعة ان لم يفك الطلبة الاعتصام ويخرجوا ذاعنين صاغرين . وكان منظراً مهيباً ينذر بالانفجار . مجموعة من الاغلبية تتحصن داخل اسوار الجامعة وُجهت اليها البنادق والمدافع ، ومجموعة قليلة من انصار الجبهة تقف خلف الجنود في مقهى الادارة تهتف وتحث الجنود وتشجعهم على اقتحام الجامعة . وبدأ الامر بالتهديد والوعيد ، وبالقاء الخطب النارية من جانب اعضاء الحكومة . وتأزم الموقف حتى وصل قمته حين قال وزير الدفاع حينذاك اللواء خالد حسن عباس : « ان لم تخرجوا بعد ربع ساعة فسوف ندخل الجامعة بالقوة « . واصدر الامر للجنود باتخاذ موقف الاستعداد لاطلاق النار ، وقرقع السلاح، وصوبت البنادق نحو صدور اولئك المعتصمين . وأرهب الموقف المعتصمين ففروا للاحتماء بمباني كلية الحقوق القريبة ؛ واخذ بعضهم ساترا ارضيا خلف الاسوار . ومرت لحظة خلا المكان الا من اثنين فقط رأيتهما من حيث كنت اقف في الجانب المقابل داخل مقهى الادارة، يواجهان كل تلك الدبابات والحشود والبنادق عزلا الا من الايمان والشجاعة ؛ هما الاخوان الفاتح محمد على الاستاذ لاحقا بكلية الهندسة؛ والمدير السابق للطيران المدني، والأخ احمد.... من ابناء كتم الذي اصبح فيما بعد ضابطا بالمجالس البلدية.

وحين تبين ذلك لانصار الجبهة الذيمقراطية ان هذه لعبة كبيرة وذات نتائج خطيرة ، وتأكد لهم ان هؤلاء الجنود على وشك الفتك بهؤلاء المعتصمين . وهاهي الدقائق الخمس عشرة التي حددها وزير الدفاع تكاد ان تنقضي. وفجأة تبدل الحال ، وظهرت الاخلاق السودنية الاصيلة في ابهى معانيها من حيث التضامن والتعاضد والتكاتف ، وغلبت روح الزمالة والأخاء على كل تلك الخلافات الحزبية الضيقة وخاصة لدى الطالبات . واذكر جيدا انهن بدأن بسرعة يسعين بين الطلبة من انصار الجبهة والبقية من الطلبة داخل مقهى الادارة فردا فردا قائلات : « إن الخلاف بيننا وبين زملائنا المعتصمين داخل الجامعة هو خلاف سياسي في المقام الأول ، ولكن قبل هذا وذاك هم اخوة واخوات وزملاء وزميلات لنا مهما باعد بيننا الخلاف؛ فكيف نسكت ونتركهم يتساقطون برصاص هؤلاء الجنود ؟ « ولازلت اتذكر جيداً كيف قادت الأخت فاطمة بابكر – الاستاذة بكلية الاقتصاد فيما بعد – والتي تعد من زعيمات الجبهة الديمقراطية -هذه الحملة ؛ والتي

لعبت الدور الاساسي في تغيير راي الكثير من زملائها وزميلاتها من الجبهة، أو الاخت فوزية عمر عبد الغني التي ، تبكي وتقول : « هذا ظلم هذا حرام والله ! » .

وفي لحظة حدث المستحيل فانقلب الذين كانوا يقفون خلف الجنود ويحثونهم على اقتحام الجامعة الى أعداء يهتفون ضدهم بهتافات عدائية : (الى الثكنات يا عساكر ! جامعة حرة أو لا جامعة !) واضطر السيد وزير الدفاع أن يأمر بعض جنوده بتحويل بنادقهم ومدافعهم الي الجهة المضادة . ووجد الجنود انفسهم محصورين بين الاعداء، والاصدقاء الذين انقلبوا علىهم في لحظة، وصاروا يهتفون ضدهم . وأشعل هذا الموقف الحماس وجرى كثيرون من الطلبة وتسلقوا اسوار الجامعة منضمين الي زملائهم المعتصمين، وعاد من فر الي موقعه، والتحموا جميعاً لمواجهة مصير واحد.

ولازلت اتذكر حتى هذه اللحظة كيف أن كثيراً من الطالبات – وجلهن من الجبهة – وعلى رأسهن الزميلة الشجاعة منيرة حمد النيل ضيف الله ، وقفن بين الدبابات وبين اسوار الجامعة وأقسمن أن الدبابات والعربات المصفحة لن تدخل الجامعة الا على اشلائهن . وبلغ الحماس بمنيرة أن خلعت ثوبها وأصرت على أحد أعضاء الجبهة البارزين الذي كان لايزال مصرا على اقتحام الجامعة ، ان يلبسه لأن موقفه هذا لايليق بالأخلاق السودانية !

وتقدمت الزميلة بدور محمد حمزة من توتي وهي تشق طريقها وسط الجنود والدبابات وأطلقت زغرودة طويلة متجهة صوب المعتصمين وهي تشجعهم وتحثهم على الصمود . وأدرك الجنود أن الأمهات السودانيات لم يصبن بالعقر بعد ولادة مهيرة بنت عبود والميرم تاجة . وتعالت الهتافات وهي تشق عنان السماء ، واشتد حماس المعتصمين وكادت بوابة الجامعة أن تسقط من كثرة ما تعلق بها من الراغبين في الانضمام الي المعتصمين . ونسي الكل في لحظة كل خلاف ووقفوا جميعاً صفاً واحداً ، جزء في الشمال وجزء في الجنوب والكل يهتف :

(بالروح بالدم نفديك يا جامعتنا) .

وأسقط في يد الجنود وقادتهم ولم يدروا ماذا يفعلون بعد أن انقضت تلك المهلة الانذارية . وتدخل بعض الاساتذة الأجلاء وعلى رأسهم الرجل الشجاع البروفسور مصطفي حسن اسحق ، وتقدم في ثبات وشجاعة الي وزير الدفاع ووجه اليه سؤالاً – لم يستطع الاجابة

عليه – قائلاً : « سيدي الوزير أتريد أن تسحق هؤلاء العُزّل الأبرياء بهذه المصفحات ؟ التاريخ سوف لن يرحمك إن انت أقدمت على ذلك سيدي الوزير ! « .
وتنازل العسكر عن موقفهم ؛ وتطوع عضو مجلس قيادة الثورة الرائد زين العابدين محمد احمد عبد القادر رحمه الله، للتوسط بين الحكومة والطلبة ، وأراد الدخول الا أن المعتصمين رفضوا أن يفتحوا له الباب، واستفزه البعض بأن الدخول الي الجامعة لن يتم الا بالشهادة . لكن زين العابدين رجل رحب الصدر ، قابل ذلك بابتسامة وطيب خاطر، وأمر احدى الدبابات بالاقتراب من الباب وتسلق البوابة بواسطة مأسورة المدفع التي رفعت عاليا.

توصلت اللجنة بقيادة الاخ الطيب السباعي الي شروط مُشَرِّفة مع لجنة الوساطة وخرجوا خروج المنتصرين وتعانق الجمييع وساروا في موكب هادر صاخب الي (البركس) وجنبات الشوارع تردد صدى هتافهم (سجل سجل يا تاريخ) ؛ وها هو قد استجاب بعد أن طبقوا المثل القائل : (ان اختلاف الرأي لايفسد للود قضية) .
فلتحنى الرؤوس- ولو لمرة واحدة- احتراما وإجلالا لشهامة، وشجاعة، وحكمة المرأة السودانية.

ملامح من الطفولة ١ -٤

ليسمح لي السادة القراء ان أعود بهم والزمان القهقرى الي أقدم ماتعيه الذاكرة من حوادث تعود الي النصف الثاني من الأربعينات ، وأنا طفل صغير لم يتجاوز عمري الرابعة أو الخامسة . ففي صباح ذلك اليوم وقع حدث جلل، أثار في لحظته الفرحة والابتهاج في النفس ، وخلَّف من بعده حزنا دفينا أدركت النفس كنهه عندما تقدمت بنا السنوات . فلقد جلب ذلك الحادث النساء والرجال والأطفال الى الدار زرافات ووحدانا. وكنت أنظر الى ذلك في كثير من الفرح الممزوج بالاستغراب لبكاء وعويل النساء وهنَّ يلطمن خدودهن ويتحركن في كل شبر من المنزل على غير هدى . ولا زالت صورة الجدة أم الحسن « نينية « حتى هذه اللحظة ماثلة أمامي، وهي تقوم بنزع القصب من الطرف الجنوبي الشرقي للسور « الصريف» الذي يحيط بدارنا في محاولة منها لفتح باب في ذلك المكان. وكان مبعث سروري هو مشاهدة هذا الحشد من الرجال والنساء، في دارنا ، وما يثيرونه من هرج ومرج وبكاء وعويل ، وحولي عدد كبير من الأطفال سرني وجودهم في دارنا في تلك اللحظات.

وأدركت مؤخرا حين شببت عن الطوق، أن تلك لم تكن فرحة ، بل هو الحزن الشديد الذي أحدثته وفاة الوالد في ذلك الصباح من عام سبعة وأربعين وتسعمائة بعد الألف . وأحاول جاهداً أن أتذكر ما حدث بعد ذلك ، ولكن تعجز الذاكرة . وهي تشبه تماماً في ذلك آلة التصوير التي التقطت صورة معينة ثم انتهى الفلم .

وتعود الذاكرة لتلتقط بعض الملامح من الطفولة المبكرة ونحن قد بدأنا نرتاد (خلوة) الفكي محمود ومن بعده ابنه الفكي الحاج بحي تمباسي بمدينة الفاشر العريقة ، كي نتعلم شيئاً من القرآن الكريم . وكان أخواتي اللائي يكبرنني ببضع سنين يصطحبنني معهنَّ . وكنا نسلك الي (الخلوة) طريقاً ضيقاً قصيراً يفصل بينها وبين دارنا، وينضم الينا في جزء منه أقراننا من أبناء وبنات الجيران والأقارب . ونبدأ الدرس في الصباح الباكر ، حتى إذا ما انتصف النهار ، وعلت الشمس في كبد السماء ، عدنا الي المنازل كي نصيب شيئاً من الطعام نسد به رمقنا، وقسطاً من الراحة نجدد به نشاطنا ، حتى نعود عصراً ونحن أكثر حيوية ونشاطاً. أما الطعام ، فقد كنا نتوق ونتحرق اليه ، وأما الراحة

فلم تكن لنا بها حاجة ، فالطفولة شعلة من نشاط . لذلك كنا أحوج اليه في ذلك الوقت الي اللعب أكثر منه الى الراحة. ولا أزال أتذكر جيداً كيف كنا نتبارى أثناء عودتنا الي المنازل بأن نقف أطول مدة ممكنة تحت وهج الشمس وعلى الرمال المحرقة ونحن حفاة الأقدام كاشفي الرؤوس ، لكي نثبت شجاعتنا وإقدامنا وقدرتنا على التحمل ، دون ان ندري العواقب الوخيمة التي كان يمكن أن تترتب على ذلك.

ولقد كان ليوم الأربعاء من كل أسبوع وقع خاص في النفوس ، فهو نهاية الأسبوع الدراسي الذي تقام في مسائه وليمة كبرى يكون قوامها (بليلة الدخن) (والأم دفانة) التي تصنع من دقيق الدخن ، المخلوط بالماء ، ومضاف اليه القليل من الملح ، ثم تدفن تحت الرماد الحار . ويقوم كبار (الخلوة) الذين يتولون تجهيز هذه الوليمة بتقسيم (البليلة) و (الأم دفانة) على الأواني الصغيرة التي أحضر فيها الأطفال مسبقاً اما حبات الدخن (العيش) واما دقيقاً ، كل حسب استطاعته . ولقد كان للدقيق على (البليلة) درجة . ونتذوق كل ذلك بكثير من التلذذ ونحن نودع (الخلوة) في نهاية كل أسبوع.

وكان شر ما يفزعنا ونحن نختلف الي (الخلوة) صباحاً ومساء هو ذلك المخلوق الذي يدعى سراجاً . فلقد كان (سراج) هذا ولداً كفيف البصر ، يكبرنا بعدة سنوات ، ويسير دائما معتمداً على عصا ، ويكون موجوداً في كل لحظة في ذلك الشارع الضيق ، والوحيد الذي يقودنا الي (الخلوة) . لذلك كان أمر مصادفته مراراً في اليوم شيئاً حتمياً . وكان يرتدي ملابس قذرة نتنة ، ويحمل في احدى يديه عصا ، وفي الثانية علبة أسطوانية يحتفظ فيها ببعض البيض الذي يشتريه من منازل الحارة ثم يقوم ببيعه في الشارع أو في السوق الصغير الذي يعرف بـ (أم سويقو) . وكنا نمقته أكثر لأنه يوصف بالجشع والبخل الشديدين. فرغم أنه كان يكسب كسباً لا بأس به من تجارته هذه ، الا أنه لم يكلف نفسه يوماً عناء تنظيف جسمه أو ملبسه . وكان يتصيد الصغار وهم في غدوهم ورواحهم من والى (الخلوة) . ويقبض على ضحيته بكلتا يديه وربما أيضاً برجليه ، ويأمره أن يحمله على ظهره الى منزله أو الي أي مكان يختاره . ولكم شاهدت سراجاً هذا يركب ، او بالاخرى يمتطي ظهر أحد الأطفال ، وهو قابض بيديه على العنق، ومحكم ساقيه حول الخصر و بادي السرور . وكانت قلوبنا تخفق عندما نلمحه من بعد ، ونخلع أحذيتنا حتى لا تحدث صوتاً ينبه سراجا الي قربنا منه ، ونشمر عن السيقان استعداداً للفرار عندما يكتشف أمرنا ، ونلوذ بالصمت وكأنما على رؤوسنا الطير . ولكن يبدو أنه

يتمتع بحدة سمع نادرة وما كانت كل الاحتياطات بمنجية من هذا البعبع المرعب. ولا اعتقد حتى الشاعر المبدع محمد الفيتوري كان سينجو منه رغم قوله: « غيري أعمى، مهما أصغى لن يبصرني». فما أن نقترب من مجلسه خلسة الا ويصيح صيحته المعهودة « من هذا ؟ من هذا ؟ » وهو يلوح بعصاه نحو اليمين ونحو اليسار وقد نهض من مكانه وصار يتحرك على غير هدى في كل الاتجاهات، عساه أن يظفر بأحدنا ، حتى اذا قيضت لنا النجاة ، عاد وجلس في مكانه يتحين وصول فوج آخر ليقبض على فريسته . وقلما كان يخيب ظنه . ولا أدري حتى هذه اللحظة لماذا لم يفعل أهلنا الكبار شيئاً ليبعدوا عنا ذلك (الكابوس) أم ترانا لم نكن نجرؤ على أن نخبرهم بذلك خشية أن يصيبنا شر أعظم من سراج؟؟

ولقد استمر ذهابنا الي (الخلوة) وقتاً ليس بالقصير ، الى أن ذهبت مبكراً ذات صباح كعادتي الى منزل الخال الحاج عبد الرحمن- رحمه الله- كي آخذ القرش الذي استعين به على شراء ما تيسر من طعام مما كان بعض النسوة يحضرنه الي (الخلوة) من « لقيمات» وكسرة بالسلطة . ولقد كان عمي علي موجوداً ساعتها بالدار. فذكر أن هناك لجنة لقبول التلاميذ المبتدئين ستعقد في المدرسة المزدوجة في ذلك اليوم، ولا بد من أخذي اليها . فأمرت أن أعود أدراجي الى منزلنا حتى أغسل جلبابي المتسخ الذي ضمخته الدواة ، وأخيط ما به من فتق . ولا زلت أتذكر جيداً أن جلبابي الذي كنت أرتديه في ذلك اليوم كان مصنوعاً من قماش ذي لون أبيض ومخطط بالبني ، وكان به فتق اتسع حتى بانت من خلاله ساقي.

وفجأة يتوقف شريط الذكريات ، فلا أعي شيئا عن الذهاب الى المدرسة في ذلك اليوم ، ولا كيف كان اللقاء مع اللجنة ، وما تلى ذلك من أحداث .

ويتصل الشريط وأنا في السنة الأولي (ب) في المدرسة المزدوجة التي بها قسمان (أ) و (ب) . ويكاد صوت الأستاذ آدم اسحق من مليط يرن الان في أذني ، وهو قد أخذنا خارج الفصل وأجلسنا في الساحة الجنوبية من المدرسة ، وهو يقص علينا سيرة خير المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله صلي الله عليه وسلم ، وقد شدنا اليه بأسلوبه الشيق حتى أصبحنا كلنا آذانا صاغية . وأكاد أبصر الأستاذ عبد الهادى الذي كان لا يرتدي الملابس الإفرنجية كبقية المعلمين ، بل يرتدي الجلباب السوداني والعمامة ، وقد أخذ

احدنا من الأذنين بكلتا يديه ورفعه من فوق المعقد الذي يجلس عليه لينال جزاءه من العقاب اذا ما أخطأ في جمع أو طرح.
وتنتهي الحصة الثانية ، ويقرع الجرس ايذاناً ببدء فسحة الافطار ، ولكننا لا نخرج كبقية أقراننا في الفصول المتقدمة ، بل نظل ننتظر وصول (الشعراني الريح) من السنة الرابعة لكي يقوم بحصر الغياب والحضور . فتشرئب أعناقنا الصغيرة عبر النوافذ الشمالية ، آملين في روية الشعراني . وما أن نلمحه حتى تنطلق أصواتنا (جاء الشعراني، جاء الشعراني) . ويبدو أن الأخ الشعراني كان يستعذب تلك الأصوات فيتباطأ قليلاً ، حتى يكاد يمشي الهوينا وهو في طريقه الينا.

وأكثر شيء أتذكره في حصص الأعمال الفنية التي كنا نختتم بها يومنا الدراسي غالباً، هو ما قام به الأستاذ (أحمد بخيت) من تحقيرنا وازدرائنا ذات يوم . فلقد كانت الحصة مخصصة للنماذج التي تصنع من الطين. وخرجنا جميعاً ، وجلسنا تحت ظل شجرة من أشجار (الهجليج) المنتشرة في فناء المدرسة الواسع . وكان معنا بالفصل تلميذ هو احد ابناء وجهاء واثرياء المدينة. وكان لبسه يختلف عن لبسنا جميعاً. فقد كان في غاية النظافة وحسن الهندام . فأخذه الأستاذ أحمد وأجلسه اليه، وألقى علينا درسا قاسيا في الأخلاق، ونعتنا بالقذارة ووصف ملابسنا بأنها مزرية ، وأشار الي ذلك التلميذ المحظوظ وقال لنا: « أنظروا كيف يرتدي «فيصل « ملابس نظيفة وأنيقة «. ولا أدري كيف فات على استاذنا الجليل أن العسر وضيق ذات اليد ربما كانا السبب المباشر في أن كثيراً منا لم يكن في مقدور ذويه أن يلبسوه سوى أرخص الأنواع من الأقمشة « كالدمورية « مثلا ، ولم يكن لدى السواد الأعظم منا سوى جلباب واحد ، يأتي به الي المدرسة صباحا، ويلعب به نهاراً، ثم ينام به ليلاً. فأنى لنا أن نتساوى مع من لديه العديد من الملابس ، وبدارهم الخدم والحشم الذين يغسلون صباح مساء ؟ وبلغ من تحقير واهانة الاستاذ لنا ، أن أمر أكثرنا قذارة ، بأن يذهب ويحضر مقعداً لفيصل حتى لا يجلس على الأرض مثلنا. ودارت الأيام، وتعاقبت الشهور والسنوات وشبَّ الصغار عن المكتب، ولكن الدهر» الذي لا يبالي رضا المستريح ولا ضجر الناقم المتعب «لم يرع فيصلاً كرعاية الأستاذ له وهو صغير ، فدخل في زمرة الذين تبدل بهم الحال كما قال أمير الشعراء شوقي في رائعته « مصائر الأيام :

وصار الي الفاقة ابن الغني ×× ولاقى الغنى ولد المترب

ولا أتذكر كيف ومتى انتقلنا الى الفصل الثاني أو السنة الثانية « ب» . ولقد كان في ذلك الانتقال تغيير كبير لنا، اذ انتقلنا من الجناح الجنوبي في المدرسة الى الجناح الشمالي الذي يتميز بوضع خاص. فهو يضم الي جانب « ثانية ب» الرابعتين أ و ب « وثالثة ب « . ولذلك كان هذا القسم يعج بالحركة والنشاط بسبب وجود ورش صغيرة يستعملها التلاميذ في حصص « الموضوعات « ، وهي تتركز دائما في أعمال النجارة لصقل مواهب الأطفال.

وأرى نفس ذات يوم وأنا جالس في حصة من حصص الدين ، وكانت مادة الدرس « تسميع» وكانت السورة المقررة في ذلك اليوم سورة « المطففين» . وهي من السور التي يصعب حفظها على التلاميذ. وكنت من بين الذين أخفقوا في حفظها . وأخذت نصيبي من الجلد مع الاخرين خمس جلدات ، ولكنني انفردت فوق ذلك بخمس عشرة جلدة أو تزيد قليلاً ! والسبب وراء هذه الزيادة غير المتوقعة ، هو أن مدرس مادة الدين الأستاذ محمود التجاني لي به صلة قرابة، وكنت أراه بين الحين والحين في منزلنا وفي المناسبات وفي الأحوال العادية . لذلك عندما عاقبني في المرة الأولى بخمس جلدات كغيري من التلاميذ ، حز الأمر في نفسي واستنكرت كيف يعاقبني هكذا وهو يعرفني جيداً . لقد كان هذا بالطبع منطق طفل لم يتجاوز الثامنة من عمره، ولا يعرف شيئاً عن وجوب المساواة أو المعاملة بالمثل، وخلط بين الخصوصيات والرسميات. لكل ذلك صرت أبكي بحرقة وتشنج وبصوت عالٍ . ولسوء حظي ، كنت أجلس في أول صف من الناحية اليمني حيث يجلس الأستاذ محمود، والذي غضب أشد الغضب من بكائي وتشنجي المتواصلين، واعتبر ذلك سوء تربية و» دلع « . فما كان منه الا أن نادى أربعة من كبار الفصل ، والذين حملوني بدورهم ليس على الأعناق، بل طرحوني أرضاً حيث أمطرني الأستاذ بوابل من السياط حتى بح صوتي من الصراخ ، وانقطعت عن البكاء .

ومن المصادفات الغريبة أنني كنت أقف معلما للدين في نفس الفصل بعد مضي عشر سنوات من ذلك التاريخ، وكنت أستمع للتلاميذ وهم يتلون سورة « المطففين» اختبارًا لحفظهم لها، وأتذكر جيداً أن الساعة الثانية عشرة قد حلت أثناء ذلك ، وكانت لي ساعة جيدة هي الأولى التي اقتنيتها، وان لم تخن الذاكرة كانت ماركة «جوفيال». وكنت معجبا بها اشد الاعجاب ، وأحرص دائما على ملئها في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا

. وبدأت في ملء الساعة ، وأنا أنظر الى المكان الذي كنت أجلس فيه قبل عشر سنوات ، وسرحت بذاكرتي بعيداً ، أتذكر ذلك اليوم الذي عاقبني فيه الأستاذ محمود . والصراخ والبكاء ، ولم أفق الا وقد توقفت الساعة . يا الهي لقد أتلفتها أو انقطع جنزيرها لعدم انتباهي! وغضبت غضبة مضرية ، وكدت أصب جام غضبي جلداً على أحد هؤلاء الأبرياء الذين يجلسون أمامي في رهبة وهيبة، الا انني خشيت فيهم الله ، ورن الجرس معلناً نهاية الحصة.

وان أنس فلا أنسى أيام الإجازات التي كنا نستمتع بها أثناء النقل من فصل للفصل الذي يليه . ولا زلنا نرتاد « خلوتنا « القديمة تلك، ولكن على غير انتظام. فنحن الآن تلاميذ في أعرق مدرسة في المدينة ، المدرسة المزدوجة. وأصبحنا ندرس العلوم الحديثة من جغرافيا، وتاريخ وطبيعة. واذكر كيف أن « سيدنا» طلب منا ذات يوم أن نتحف تلاميذ « الخلوة « ونشنف آذانهم ببعض ما نحفظ من الأناشيد المدرسية. وبعد أن تداولنا الأمر استقر رأي زملاء المدرسة على أن نقرأ نشيد:

نحن الطيور أيها الإنسان ** بذا الجمال خصنا الرحمن

ولقد امتلأنا زهواً وفخراً ونحن نقف في مكان بارز من « الخلوة» وملابسنا رغم أنها لم تعجب الأستاذ «أحمد» إلا أنها كانت أنظف وأجمل كثيراً من ملابس هؤلاء البؤساء الصغار الذين يجلسون أرضاً أمامنا وينظرون الينا في كثير من الإعجاب والإكبار . فنحن في نظرهم تعلمنا أشياء كثيرة لم يألفوها بعد، ولقد صفقوا لنا كثيراً ، وصادف ذلك رضا واستحسانا في نفوسنا الصغيرة، بقيت ذكراها خالدة على مر السنين.

ويبدو أنني تنقلت أثناء المرحلة الأولية « الابتدائية حالياً» بين عدة « خلاوي». فها أنذا أرى نفسي هذه المرة وقد التحقت « بخلوة» الفكي عبد المجيد ، الملاصقة لجامع فيزان من الناحية الغربية . وأكثر ما يثير تعجبي الآن هو ما كنت ألقاه أنا وعلى ابن خالي عبد الرحمن من معاملة خاصة من قبل الفكي عبد المجيد ، على الرغم من أنه شخص صارم يهابه الصغار والكبار جميعاً. ولقد كان الواسطة بيننا وبين الفكي عبد المجيد وكيله سعد. ولقد كان هذا الوكيل يستوصى بنا خيراً. فعندما يحين وقت الإفطار كان يأخذنا كي نتناول طعامنا داخل المسجد المفروش، وليس في الخارج على الأرض كبقية الأطفال. ومما لا شك فيه أنه كان يصيب معنا شيئا مما نشتريه من الجبن و « الطحنية» . ولكن لا أستطيع أن أجزم بأنه كان يأخذ شيئا من ذلك الى « سيدنا». أم الشيء الذي أدريه

جيداً هو أن « سيدنا» كان مولعا بما يحضره التلاميذ من منازلهم من مأكل ، وبخاصة ما يحضرونه للشرب. وكان كل واحد منا يحضر زجاجة خاصة يملؤها إما بماء الليمون المخلوط بالسكر، أو « الكسرة» المخلوطة بماء السكر، أو الماء الذي يكسر عليه القليل من التمر . وكان كل واحد يتفنن في ذلك حسب استطاعته . وكان « سيدنا» يتخير زجاجة معينة بعد إلقاء نظرة على كل الزجاج ، وينادي صاحبها كي يحضرها له. ومن الغريب أن ذلك كان ينبغي أن يثير الرضا في نفوس هؤلاء الذين يختار «سيدنا « زجاجاتهم، لأن لهم في ذلك شرف سقاية « سيدنا « مما يحضرون . ولكن الواقع غير ذلك . فعندما يعجب « سيدنا « بمذاق زجاجة ماء فانه يداوم عليها فترة ليست بالقصيرة، حارما بذلك صاحبها المسكين . فلا غرو ان كان الكثيرون يضنون بما يحضرونه . ويبدو أن الأخ مكي عوض، كان من الذين يجيدون اعداد زجاجاتهم، لدرجة أن « سيدنا « أحبها وأصبح يداوم عليها حتى « أدمنها « . وضاق مكي بذلك ذرعاً، وقرر أن يبعد « سيدنا « عن زجاجته بكل وسيلة. وكنا نأتي الي « الخلوة « سويا مع الأخ مكي ، فهو يشاركنا السكن في نفس الحي. وذات صباح ونحن في طريقنا الي الخلوة، قال لنا مكي:» اليوم سوف انتقم لكم من سيدنا، والّقنه درسا لن ينساه!» وشرب نصف ما في زجاجته من ماء طيب، ثم تبّول في الزجاجة حتى امتلأت، ورجها جيدا، ثم احكم إغلاقها، وواصلنا سيرنا. وبدأت الدراسة كالعادة ، وعندما حان وقت الافطار نادى « سيدنا « مكي وطلب منه أن يحضر له الزجاجة . وما ان اخذ منها جرعة حتى أنكر مذاقها ، وقطب جبينه ، وسأل مكي في استغراب « ما بال الزجاجة مرة المذاق اليوم ؟ « ولكن الأخ مصطفى حسين الذي شهد معنا الجريمة لم يدع مجالا للأخ مكي لكي يجيب ، بل صرخ بأعلى صوته « لقد تبَّول فيها يا سيدنا! « وحاول « سيدنا» أن يخرج من داخله مما ابتلع من ماء الزجاجة بصوت مسموع، ويصيح في التلاميذ أن يقبضوا على مكي. ولكن مكي كان قد أعدَّ العدة لذلك، وأطلق ساقيه للريح قبل أن يكمل الأخ مصطفي حديثه.

ولقد كان لمكي مقدرة فائقة في أعمال الاحتيال البريئة ، وكان كثيراً ما يبهرنا ويخدعنا بابتلاع بعض قطع النقود أو الأمواس. ويبدو أنه كان سيكون ماهراً جداً في هذا المضمار، لو وجد الرعاية والتوجيه.

ومرة اخرى أرى نفسي في طرف آخر من المدينة، أرتاد خلوة « سيدنا» الفكي بشير – رحمه الله ، والتي تقع الي الشرق من حينا ، في حي « دادنقا « . ولعل السبب المباشر في

ذهابي الي هذه « الخلوة « بالذات هو صلة القرابة التي تربطني بهذا الشيخ الجليل ، فهو زوج خالتي . وكنت على صلة حسنة مع ابنائه الوكلاء في « الخلوة» وبخاصة الأخ محمد بشير، الابن الأوسط. ولله در « سيدنا « بشير ! فرغم أنه كان كفيف البصر، الا أنه كانت له مقدرة فائقة في إدارة الخلوة على أكمل وجه ، وله قدرة فائقة في الطريقة التي يختبر بها حفظ التلاميذ للسور . فكان يجلس أمامه أكثر من واحد ويصغي لهم جميعا في آن واحد ، وكل واحد يقرأ سورة مختلفة ، وبصوت عالٍ ، وهو يتابع الجميع ويصوِّب خطأ كلٍ على حده . وتراه يمليء على أكثر من أثنين أو ثلاثة في وقت واحد كذلك، وكل واحد يكتب سورة تختلف عن سور الآخرين وهكذا. ولقد كان رجلا عالما فاضلاً بحق.

وأتذكر أنني وجدت صعوبة شديدة في حفظ سورة « البينة « . وكنا نحن الصغار الذين لا زلنا نحفظ جزء عمَّ ، نتلو ما حفظنا على الوكيل. ولكن « سيدنا « طلب مني أن أسمعه ما حفظت شخصياً ، فلم أنجح ، وأمرني بمواصلة الحفظ ولكنني لم أذعن لذلك. واستعنت بابنه محمد ، وصرت ألح عليه وأطلب منه أن أمحو هذه السورة حتى أكتب التي تليها. فوافق على مضض. وذهبت في صباح اليوم الثاني وجلست الى « سيدنا « وطلبت منه أن يمليء على سورة جديدة أكتبها. فتعجب من ذلك وسألني عن الذي سمح لي بمحو سورة « البينة « فقلت في تردد ظاهر « محمد يا سيدنا « . وكان اذا غضب على تلميذ قال له بصوت عالٍ « سجم! « وما أن نطق بها وطلب من التلاميذ أو « الحيران « كما يسمون أن يطرحونني أرضا ، الا وأطلقت ساقيَّ للريح فاراً بجلدي . ولقد رأيت في نفسي سرعة لم أعهدها فيها من قبل ، حتى ان كل الذين عدوا خلفي من التلاميذ الصغار والكبار على السواء لم يلحقوا بي ، فسوط « سيدنا» الفكي بشير كان كفيلاً بأن يجعل الواحد منا ياتي بالعجائب . ويبدو أن ذلك كان آخر عهدي بارتياد « الخلاوي» وانقطعت بعد ذلك الى الذهاب الي المدرسة .

واذكر أن وفاته التي حدثت بعد ذلك بسنوات كانت فاجعة كبرى تركت أثراً بليغا في كل النفوس. ولا زلت أتذكر كيف كان البكاء يشتد بالنساء حتى يكدن يخرجنَّ عن طورهنَّ ، فيخرج اليهنَّ العم محمد الزاكي – رحمه الله – وهو شخصية لها وزنها الاجتماعي الكبير في مدينة الفاشر ،ومن الأعيان والوجهاء، وكان أول من مثل مدينة الفاشر في أول مجلس للشيوخ بالسودان- ويزجرهنَّ وينهاهنَّ عن البكاء ، حتى اذا ما عاد الي حيث نجلس ، يغلب عليه الحزن ، فيبكي بكاءً مريراً يكتمه ما استطاع، ويعود يكفكف دموعه

ليدخل الي النساء ويرى ماذا تم في الداخل. الا رحمهما الله جميعا.

وذكر لي الاخ على محمد احمد تنقو قبل فترة هنا في جدة ، انه كان يصلي التراويح مع شيخ بشير في مسجد الفيزان في الفاشر، بعد ان بلغ من السن عتّيا. وكان يؤتى به الى المسجد محمولا، ويساعده اكثر من شخص لكي يقف ويؤم المصلين. ولكن ما ان يبدأ في قراءة القرآن، حتى تنكره! وتشك في انه نفس الشخص الذي حمل الي المسجد وساعده الآخرون على الوقوف! صوت قوي، ونبرات واضحة، ونشاط، وخفة وحركه، وكانه شاب في ريعان الصبا! ويكمل التراويح عشرين ركعة ثم يجلس في انتظار من يحمله الى داره! فكأنه كان يستمد قوته من القرآن، ويستغرق فيه، فينسى كل ما سواه من وهن وضعف وهزال الم بذلك الجسد الناحل!

ملامح من الطفولة ٢ - ٤

لا أحب أن أودع «الخلاوي» دون أن أذكر قصة أعتبرها معياراً للشهامة والكرم والمروءة. فقد كانت لي درسا ونبراساً في الحياة، ضمن تلك الدروس الكثيرة التي تعلمتها من العم الجليل على بدين – رحمه الله.

كان ذلك في عام أثنين وخمسين وتسعمائة بعد الألف، ونحن تلاميذ في المدرسة المزدوجة، ولكن لا زلنا نرتاد «خلوة» الفكي الحاج. وحدث حدث عظيم في ذلك الوقت في حينا الوادع «تمباسي» كان له صدى واسع في كل أرجاء الحي. فلقد أقتنى العم على أول مذياع في الحي، ولا أدري إن كان هو الأول كذلك في المدينة، فلقد كنا في سن تقصر فيها معرفتنا عن ذلك، ولكن كان حدثاً فريداً ونادراً بكل المقاييس. وقبل أن أدخل في تفاصيل قصتنا لابد أن أروي نادرة تتعلق أيضاً بهذا المذياع ودخوله الي المنزل فالحديث ذو شجون كما يقولون.

فلقد عدت ذات يوم من المدرسة، وذهبت كالعادة الى منزل عمي، ولم يكن هو موجوداً في المنزل. وفوجئت بأن كل من في الدار يتحدث همساً تارة، وتارة يكتفي فقط بالإشارة، وأمرت أنا كذلك أن أخفض من صوتي، وألتزم جانب الهدوء، وبعد إلحاح طفولي شديد مني لمعرفة السبب، أخذتني زوجة عمي» آمنة» بعيداً عن المذياع، وقالت لي: «إن عمك أحضر ذلك الصندوق – مشيرة الي مكان المذياع – وهو مكلف بالتصنت علينا، فكل شيء يقال في الدار يخبر به عمك عندما يعود مساءاً ويفتحه». ولا أدري هل صدقت ذلك أم لا.

ونعود الى قصتنا، فلقد امتلأت زهواً وفخراً لامتلاك عمي لذلك المذياع، وأذكر كم أجلسني اليه محاولاً أن يشرح لي كيف يعمل ذلك الجهاز. وكنت أفاخر أقراني في المدرسة و «الخلوة» بكل ذلك. وفي ذات ليلة دعوت كل «حيران الخلوة» كي يحضروا معي الي منزل عمي حتى نستمع جميعاً الى المذياع. ولقد كانت الفرحة كبيرة، وعلا البشر كل الوجوه، وتحركنا في موكب كبير، يضم منا الأشعث والأغبر، والحفاة والمنتعلين، فرحين مستبشرين نملأ جوانب الشارع جلبة وضوضاء. ولم يطل بنا الحال، فقد كان المنزل الموعود بتلك الزيارة – أو سمها ان شئت «الهجوم المفاجئ»- ليس ببعيد عن «الخلوة». ودخلنا المنزل، ووجدنا أصدقاء عمي من وجهاء وأعيان المدينة جالسين في ساحة الدار

على المقاعد من حول المذياع، فجلسنا على الأرض من حولهم، متكلفين الكثير من الهدوء المصطنع، والذي تتخلله بين الحين والآخر الضحكات المكتومة والظاهرة، بسبب أو بدون سبب، كما هو عادة الأطفال في مثل هذه الأحوال.

ولم يجذب المذياع كل اهتمامنا، فلقد كنا منشغلين عنه بروائح الطعام الشهية التي تفوح من داخل المنزل وتحملها الينا نسمات الليل الباردة. ولم نكن ندري أن العم على قد دعا أصحابه لتناول طعام العشاء في تلك الليلة. ويا لوليمة العشاء في الفاشر! فذلك أمر لا يدركه إلا من عاش فيها. ولعل السبب من وراء هذا التفنن في ضروب الطعام يكمن في أن مدينة الفاشر كانت عاصمة لسلطنة الفور قرابة قرن من الزمان، مما أتاح لها حظاً من رفاهية لم تألفها سواها من المدن. هذا بالطبع قبل أن يحل بها ما حل بالبلاد والعباد من بؤس وشقاء وعذاب!

أستمر المذياع في بث برامجه، واختلطت أصوات الموسيقى بروائح الطعام، ونام من نام، وبقي من يتابع المذياع بأذنه وعقله مشغول بالطعام. وما هي إلا هنيهة ونودي على عمي من الداخل، فذهب وعاد حاملاً صينية كبيرة ناء بحملها حتى قام اليه بعض أصحابه ليخففوا عنه وطأتها. ولا أدعي أنني أنقل هنا ما قاله ذلك العم الفاضل عند ذلك حرفياً، ولكن أكاد أجزم صادقاً أن ما قاله لا يختلف كثيراً عن هذا القول: «أيها الأخوة والأصدقاء أنتم تعلمون أني قد دعوتكم اليوم لتناول طعام العشاء، وأنا كلي ثقة في أن هناك منكم من أفطر إفطاراً دسماً أو تغدى غداء شهياً، فكلكم مقتدر والحمد لله، ولكن هؤلاء الصغار الذين من حولكم، منهم أبن المعدم وأبن الفقير، وربما يكون بعضهم لم يتذوق وجبة واحدة طيبة طيلة يومه هذا، فما رأيكم في أن نتبرع لهم بعشائنا هذا، ونعود غداً لتناول طعام العشاء في نفس المكان والزمان؟» فما كان منهم إلا أن وافقوا على هذا الاقتراح- ولو على مضض- وحمل الينا الطعام حيث نجلس وكان يحوي أصنافاً من اللحوم، والسلطات، والدجاج، والمشويات، والحلويات، واجتمعنا حوله غير مصدقين وانقضضنا عليه كالطيور الجارحة. ومنذ ذلك الحين وحتى هذه اللحظة، لم أعرف في حياتي موقفاً أكثر شهامة ومروءة وكرماً من موقف هذا العم الجليل!

ويكبر هذا العم في عيني أكثر كلما تذكرت قصة هي على النقيض من ذلك تماماً. فلقد كان لي صديق ونحن في الفصل الثامن «ب» من أبناء الأثرياء، وهو ذاك الفيصل الذي

تقدم ذكره في الحلقة الأولى، يسكن في حي يبعد عن حينا بثلاثة أو أربعة كيلومترات تقريباً. وحدث أن دعاني ذات مرة ومعي بعض الزملاء كي نتناول معهم طعام الغداء، ووصلنا المنزل، وجلسنا في طرف منه حتى نودي الي الطعام، الذي أدخل في غرفة الجلوس (الديوان)، ودعانا صاحبنا الي الدخول، لكن ما أن وطأت أقدامنا باب الغرفة، حتى صاح بنا والده : «الي أين أنتم ذاهبون؟ اطلعوا برة يا أولاد..... ».

ورجعنا أدراجنا ومكثنا ننتظر حتى أنتهى الكبار من الأكل، وأرسل الينا ما تبقى من فتات الطعام، وللأسف يبدو أن نفوسنا كانت في ذلك الوقت صغيرة مثلنا. فأقبلنا في سرور على ما تبقى من طعام والتهمناه في نهم وشغف.

ودارت عجلة الزمان، ونسي ذلك من نسيه من الأصحاب والرفاق، ولكن لا زال ذلك الشخص في نظري يمثل صورة بشعة للبخل وقلة المروءة، وخاصة عندما أتذكر وصايا العم على لنا دائماً «أحذر يا بني ما تحذر رجلاً فاقد مروءة!».

ومما لا شك فيه أن العم على كان لا يزال يحب الأطفال ويعطف عليهم كثيراً ويأخذهم دائماً بالرفق. وأذكر حادثة اخرى تفصل بينها وبين هذه الحادثة سنين كثيرة، ولكنها تتفق معها في المضمون.

فلقد شح «البنزين» ذات مرة في المدينة، والعم على بدين يعمل في الشركة التي تتولى توزيع مشتقات البترول على السيارات، وتجمعت ذات يوم سيارات النقل الكبيرة التي تسافر الي المدن المختلفة في دارفور تنتظر أن تنال حصتها من ذلك السائل النفيس، الذي يمثل شريان الحياة بالنسبة الى النقل في مديرية دارفور.

وخرج العم على الى جمهرة السائقين، وأخبرهم بأن «البنزين» سوف يوزع بالتساوي والعدل على الجميع، وعليهم أن ينظموا أنفسهم في صف حسب الأولوية، وأنتظم الصف وبدأ الصرف وأنا معجب كل الإعجاب بهذا النظام. وفجأة ناداني العم على وأخبرني أن أذهب الي سائق عربة معينة، وكتب لي في وريقة صغيرة الرقم الذي تحمله، وأطلب من السائق – الذي لم يحن دوره بعد – أن يأتي خلسة من النافذة الخلفية للشركة حتى يأخذ نصيبه قبل الآخرين! وتعجبت جداً لذلك التصرف الغريب، وشعرت بخيبة أمل كبيرة، في عمي، ولكن ما كان على إلا تنفيذ ما طلب مني. وجاء السائق وصرف له نصيبه كاملاً، وسدد ثمن ما أخذ. ولكن يبدو أن السائق قد ظن بعمي الظنون كما كان

الحال معي، فقبل أن يقوم عمال الشركة بنقل الحصة من المستودع، أخرج من جيبه مبلغ عشرة جنيهات ودفع بها الي العم على. وسأله العم على «ما هذا الذي تفعل فأنت قد دفعت ما عليك من حساب ؟» وأجاب السائق أن تلك هدية متواضعة لأنه فضله على غيره من السائقين.

وهنا ثار العم على ثورة جامحة، وقذف اليه بالنقود وأعطاه درساً في الأخلاق حيث قال له: «أحسبت أنني أستحق رشوة لأنني فضلتك على الآخرين؟ كلا يا صاحبي فأنت مخطئ وفاسد، أنني فضلتك فقط لأن سيارتك هي الوحيدة من بين كل هذه السيارات التي تحمل على متنها أطفالاً وخشيت عليهم من حرارة الشمس وطول الانتظار، بينما بقية السيارات تحمل بضائع لا تؤثر عليها الشمس، أما الآن فخذ نقودك التي دفعتها ثمناً للبنزين، وفي إمكانك أن تنزل الأطفال تحت شجرة يستريحون في ظلها، وتنتظر أنت دورك في الصف مع البقية». أما أنا فقد حمدت الله وتنفست الصعداء إذ لم يخب ظني فيه.

وتم نقلنا في وقت ما من عام أثنين وخمسين وتسعمائة وألف من الفصل الثاني الى الفصل الثالث ولقد كان الفصل الثالث يتميز برحلة ميدانية يقوم بها التلاميذ الى خارج مدينة الفاشر، لذلك كان الكل يتوق الى الانتقال الى هذا الفصل، حتى يتمكن من الخروج في إحدي هذه الرحلات الجغرافية، أما شرقاً الى فشار إو غرباً الى مجدوب، أو شمالاً الى جليدات، أو جنوباً الى شنقل طوباية، وكلها قرى صغيرة حول الفاشر.

وها قد واتتني الفرصة كي أقوم بأول رحلة في حياتي خارج الفاشر. وكانت رحلتنا الي قرية مجدوب، واستأجرت المدرسة سيارة تجارية كبيرة، يقودها العم الطاهر عمر، حشرنا بداخلها ثم انطلقت بنا غرباً عن طريق المطار. ولأن الطريق غير معبد، فإن السيارات أخذت تصعد فيه وتهبط وتهتز اهتزازا يتصل حيناً وينقطع حيناً آخر، ويختلط كل ذلك مع أزيز السيارة وهي تشق الكثبان الرملية، ومع أصوات التلاميذ ورائحة البنزين النفاذة، وحرارة الشمس، فيكون لكل ذلك صدى غريباً في النفس، وأذكر أن الأخ أحمد سالم لم يستسغ رائحة البنزين، فأصيب بدوار السيارة، كما هو دوار البحر! وقاسى الكثير من جراء ذلك حتى أشفقنا عليه. ولقد كانت رحلتنا تلك في يوم جمعة، وهو يوم السوق في مجدوب، وكانت تجربة جديدة لنا نحن أبناء المدينة أن نرى سوق القرية، وأكثر ما أثار انتباهنا هو وفرة اللحوم، وكيف أنها تباع عن طريق الأكوام

ولا توزن كما هو الحال في المدينة، وكانت اللحوم تشوى في وسط السوق، ورأينا الفرحة بادية على وجوه القوم وهم يلبسون أجمل ما لديهم من ثياب لذلك اليوم، ويتصافحون ويتجاذبون أطراف الحديث، وكان السوق عندهم حفلاً اجتماعياً كبيراً الي جانب أهميته الاقتصادية، ولكن كان ذلك في عصر الرخاء والرفاهية والازدهار، يا لهف نفسي! كيف تبدل بهم الحال الآن ؟

وأعود الي إفطارنا في ذلك اليوم الأغر، فأجده مكوناً من الجبنة والطحنية والعسل ماركة «أبو أسد» وارد انجلترا. وعلى الرغم من أننا ذقنا بعد ذلك ما ذقنا من هذه الأصناف، إلا أن مذاقها في ذلك اليوم كان له وقع خاص في نفوسنا، وأمضينا يومنا في مرح وسرور، حتى إذا ما أوشكت الشمس على الغروب، وبدأت وفود البائعين والمشترين تعود الى قراها المتناثرة حول السوق، بدأت سيارتنا تشق الرمال عائدة بنا الى الفاشر.
ومن النوادر الغريبة التي حدثت في تلك السنة، أن أستاذاً – لا أستحضر أسمه الآن- عله الاستاذ مصطفى احمد المكي- حضر الينا في الفصل ومعه «مطواة» جميلة رأيناها جميعاً وأعجبنا بها، ويبدو أنه نسي أن يأخذها معه عند نهاية الدرس، وتركها على الطاولة، ولكن ما لبث أن تذكرها عندما خرج التلاميذ لقضاء فترة راحة قصيرة، فقرع الجرس قبل ميعاده، ونادى منادٍ أن على تلاميذ الفصل الثالث «ب» أن يصطفوا صفاً واحداً أمام مكتب الناظر، وعندما انتظمنا في الصف، أخبرنا ذلك الأستاذ أنه أفتقد تلك «المطواة»، وعاد وبحث عنها في الفصل ولم يجدها، وعلى الذي أخذها أن يخرجها فوراً، وإلا سوف نفتش تفتيشاً دقيقاً، والذي توجد «المطواة» بحوزته سيكون نصيبه الجلد مع الفصل من المدرسة التي ليس بها مكان للسارقين.

وأذكر أن الأخ «ع» عريف الفصل أو كما يعرف بـ «الألفة»، كان أكثر حماساً لإجراء التفتيش وأكثر تهديداً لنا من الأستاذ نفسه، وكان يحث الأستاذ على عدم التباطؤ، وهو كله ثقة في أن المطواة ستكتشف عند أحدنا، ونفى كل واحد منا أن يكون قد أخذ تلك «المطواة» اللعينة، وخيم علينا الخوف وأرهبنا الموقف، وكان الناظر وكل الأساتذة وجمهرة التلاميذ يحيطون بنا من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم، والسوط المعهود يلوح به في الهواء، ولا ندري على ظهر من منا سوف يستقر. ولم يكن هناك بد من إجراء

التفتيش الذي أشترك فيه أكثر من أستاذ بالإضافة الي الألفة، وفتشنا تفتيشا دقيقاً دام أكثر من ساعة، ونحن نصطلي بالهجير ووهج الشمس، ولكن لم يبن للمطواة أثر، وأحتار الأستاذ صاحب المطواة، وأتذكر جيداً أن الأستاذ عبد الرحمن محمد الذي تقدم نحونا بعد ذلك، برهن بما فعل على دهائه ومكره الشديدين. وطلب من الأستاذ أن يفتش الألفة كذلك، ووقف صاحبنا في شجاعة وثبات وفتش كالاخرين، ولكن أيضاً دون جدوى. عند ذلك أمره الأستاذ عبد الرحمن أن يقف معنا في الصف، ثم طلب منا جميعاً أن نرفع ملابسنا حتى تبين الملابس الداخلية، وما كدنا نفعل ذلك حتى ظهرت المطواة متدلية من طرف تكة اللباس الداخلي للألفة وهي تلمع في الشمس وتهتز بينة واضحة رآها الجميع! وتسمر «الألفة» في مكانه وجحظت عيناه، أما نحن فقد حمدنا الله على السلامة وتنفسنا الصعداء وصاح من صاح: «سراق .. سراق»، وطرح أرضاً وقام الأستاذ الأمين على بجلده عشر جلدات، وقرر الناظر أن يجلد مثل ذلك في الأيام الثلاثة القادمة، وأسدلت الستارة على أكثر القصص المحزنة والمضحكة معاً في ذلك العام الدراسي.

يبدو أن المقاومة الوطنية ضد الانجليز قد اشتدت في الفاشر في ذلك الوقت من عام أثنين وخمسين وتسعمائة وألف، ولم نكن ندري الكثير عن تفاصيل تلك المقاومة في تلك السن، ولكن أذكر ذات يوم أن تناهى الي أسماعنا هتافات المتظاهرين التي تشق عنان السماء، ورأينا سيارات الشرطة تهرع في اتجاه السوق الذي لا يبعد كثيراً عن المدرسة، وبعد قليل رأينا الناس يفرون في كل اتجاه، وضرب الجرس وأمرنا بأن نغادر المدرسة فوراً الى منازلنا، وعلمنا أنه في ذلك اليوم قام بعض الشباب الثائر من المتظاهرين بتمزيق وحرق العلم البريطاني. وللتاريخ ولعدم غمط الناس اشياءهم اذكر هؤلاء الشباب، حسب الترتيب الأبجدي: أبو القاسم الحاج محمد وإدريس البناني و عباس محمد نور عالم (والد الشاعرين المبدعين عالم عباس و حافظ عباس) ، وعمها يوسف محمد نور عالم، ، وصديق أبو اليمن وعبد الرحمن حسن طويل وعبد الله الطيب جدو، وعبد الله كنيني، والشيخ الوقور محمد أبو اليمن الذي كان بمثابة الأب الروحي لهؤلاء الشباب، ومحمد محمود ، ومحمد معروف شايب، ومصطفي منقة و ويوسف أحمد «يوسفو». أما جام غضبي على المستعمرين فقد كنت في ذلك العمر أصبه على مفتش المركز الذي يعرف باسم «أيفان جونس»، ولقد كان معروفاً ومهاباً في كل المدينة التي

يجوبها مراراً يومياً بسيارته الكومر الخضراء اللون، وذات الأبواب الصفراء،والتي يرفرف عليها علم المديرية الذي ترمز اليه غزالة بيضاء على أرضية سوداء. وكان سبب حنقي وغضبي عليه هو أننا كنا في يوم من الأيام في طريقنا من المدرسة الى المنازل، وكان لنا قريب يدعى محمد أحمد فضيل، يعمل سائقاً لدى الحكومة، وكان يقود سيارة أحد المسؤولين الإنجليز الكبار، وبينما نحن نسير في الطريق، إذا به يقف الى جوارنا بسيارته الفارهة، وفتح لنا الأبواب وطلب منا الركوب لأنه في طريقه الي حينا «تمباسي». وطرنا فرحاً، فركوب سيارة في ذلك الوقت وفي تلك السن كان حلماً بعيد المنال. ولكن «إيفان جونس» لم يترك تلك الفرصة تتم، فما كدنا نركب السيارة، إلا وظهر كالشيطان ودون أي مقدمات، وأمرنا بالنزول فوراً من السيارة، وصاح في السائق، ونزلنا نجري والشتم والسباب يلاحقاننا.

ومن «القفشات» المريرة التي حدثت لي وأنا في الفصل الثالث، أذكر أنني كنت كغيري من التلاميذ أتهيب الأستاذ عبد الرحمن محمد الذي كان يدرسنا مادة الرياضيات. وكان يقسو علينا ويتفنن في عقابنا. وأتذكر أنه ذات مرة فتك بالأخ عبد الباسط حتى كاد أن يصبيه مكروه من جراء ما لحق به من عقاب. وكلما تشرق الشمس، يصيب النفس الهم والاكتئاب. فعند الذهاب الى المدرسة تبدأ حصة الرياضيات دائماً بتسميع (جدول الضرب). ويبدو أن الأستاذ عبد الرحمن – الذي أصبح الآن من أعز الأصدقاء – كان يستمريء الجمع بين نوعين من الضرب، (جدول الضرب وضرب التلاميذ). والحل الوحيد هو أن يتغيب التلميذ. ولكن ليس ذلك بالشئ السهل. فلقد كان ذوونا يدفعوننا دفعاً الى المدرسة كل صباح. وفكرت كثيراً في حيلة يمكن أن أتخلص بها من هذه الحصة المرعبة. فبدأت أغافل والدتي وأخواتي في المنزل بعد عودتي من المدرسة، وأقوم بإخفاء حقيبة كتبي في قاع سحيق من وراء دولاب أو صندوق أو «سحارة». وأصحو صباحاً، وأشرب الشاي، وأرتدي ملابس المدرسة في همة ونشاط، وأبدا البحث عن حقيبة كتبي. وعندما لا أجدها، أثور وأغضب وأتهم شقيقاتي وأخي بإخفائها. وبالطبع سوف لن أذهب الي المدرسة من دونها. وكنت على ثقة من إن أحد أفراد المنزل سوف يجدها أخيرا. ونشترك جميعاً في البحث، ونجدها أخيراً. ولكن الشيء الذي كنت أرمي اليه يتحقق دائماً، فكنا نجدها بعد أن أكون قد تأخرت عن المدرسة زمناً كفيلاً بفوات

الحصة الأولى (حصة الرياضيات).

ولا أدري كم من الوقت مارست هذه الحيلة المنجية من «حصة العذاب»! إلا أنني أتذكر جيداً أنني نويت كعادتي ذات يوم أن أخفي الحقيبة بعد عودتي من المدرسة، وتخيرت وقتاً يكون الجميع فيه مشغولاً بشيء ما، وما دريت أن الوالدة كانت تتظاهر بالانشغال وتراقبني بطرفٍ خفي. وأخذت الحقيبة وذهبت خلسة الي الدولاب، وبدأت أنزل الحقيبة بكل هدوء وراءه، حتى لا تحدث صوتاً يلفت النظر الي. وإذا بيد قوية تقبض على يدي من الخلف، وصوت يقول: «ماذا تفعل يا عفريت» وأسقط في يدي، ولم يكن هناك مجال للإنكار فلقد قبضت متلبساً بالجريمة!

وأذكر كم كنت أصاب بخيبة أمل كبيرة عند ظهور نتائج النقل من فصل لآخر. فكنت أسير من سيء الي أسوأ. فبينما كان ترتيبي في السنة الأولى السابع عشر، تأخر في السنة الثانية الي العشرينات. أما في هذه السنة الثالثة، فقد كان ترتيبي السابع والثلاثين. وكان الأخ على عبد الرحمن أبن خالي وعمتي في آن واحد، ليس بأحسن حالاً مني. وعدنا الي المنزل منكسي الرؤوس. وسئلنا عن النتائج كالعادة، وعندما أخبرناهم، سخر منا الساخرون، وغضب من غضب من أفراد العائلة. ولا زلت أذكر أن أكثر التعليقات اللاذعة هي التي جاءت من العمة عائشة بدين «إيا أمو» والدة الأخ على — رحمها الله — فقد قالت للجميع أنها متأكدة أنه ليس هناك في الفصل أكثر من ثلاثين تلميذا، ولكن صعب على الأستاذ أن يعود هذان الراسبان الي ذويهما خاليي الوفاض، فأعطى كلا منهما رقماً وهمياً من خياله حتى يقنعهما بالنجاح. وعبثاً حاولنا أن نقنعها أن بالفصل أكثر من أربعين تلميذاً ناجحاً، ونحن ضمن الناجحين بكل تأكيد، ولكن دون جدوى.

ورغم قسوة هذه العمة معنا وشماتتها منا في ذلك اليوم، إلا أنها كانت من أكثر الكبار تفهماً لنا. وكانت رحمها الله صريحة للغاية، وتتبسط معنا في الحديث الذي كنا نتجاذبه معها في كثير من الأوقات عندما كبرنا قليلاً، وفي من نحب من البنات، ونتمناها زوجة. ولي معها حكاية طريفة! فأذكر أن زرتها ذات يوم، وكنت قد أصبت بألم حاد في الحلق تناولت معه الأدوية الطبية، ولكن دون تحسن. وبح صوتي حتى كاد لا يسمع. فلما سألتني عن سبب هذه البحة أخبرتها بما أشكو. فقامت من مجلسها ودخلت الى غرفتها وأحضرت نوعاً من عروق الأشجار، وقالت لي هذه العروق مفيدة جداً في حالتك هذه،

وما عليك إلا دقها و«استعمالها». وشكرتها على ذلك وعدت الي دارنا وقمت بدق العروق وخلطتها بالماء وشربتها.

وبعد قليل زارتنا العمة «إيا أمو» في المنزل ونظرت الي وقالت: «ألم تستعمل العروق؟» فكان ردي لها «بلى» وقالت وهي مستغربة «لكن لا أرى لها أثراً حول عنقك؟». فأخبرتها بأنني قد شربت تلك «العروق». وعند ذلك جلست على الأرض وأمسكت رأسها بيديها وهي تقول: « افو! افو! لا حول ولا قوة إلا بالله! لقد أضعت نفسك يا بنيَ، عوضنا الله فيك. هذه العروق سامة يا ولدي. وعندما طلبت منك استعمالها، فقصدي هو مسحها من الخارج فقط»!. ودار رأسي ولم أصدق ما سمعت، فلقد نعيت وأنا ما أزال واقفاً! وأصبحت في حالة نفسية مزرية، أتحسس بطني تارة، وتارة رأسي أو قلبي. ومرت الدقائق والساعات بطيئة ومتثاقلة، ولكن لحسن الحظ لم يحدث شيء غير عادى، ولكنها كانت تجربة قاسية ومريرة، تبت من بعدها من «استعمال العروق».

ملامح من الطفولة ٣ - ٤

وإذ حلت الإجازة، عدنا الي مزاولة وتكثيف ما كنا نمارسه من ألعاب خلال السنة الدراسية، ولعلنا كنا مولعين بصفة خاصة بتصيد «الضب» وخصوصاً في أيام الجمعة، فلقد كنا نصدق الشائعات التي تقول أن من يقتل سبعة من الضباب في يوم الجمعة سوف يدخل الجنة! ولا ندري لماذا أردنا أن ندخل الجنة عن طريق العنف؟ وكنا عندما نرى ضباً نقول «الضب خصيم الرب». ولا أدري لماذا الضب المسكين دون سائر الزواحف الأخرى؟ فهو يكاد يكون أكثرها ألفة، ولا يؤذي أحداً، ولعل هذا هو عين السبب الذي أغرانا به، فالناس كالذئاب، تستأسد دائماً على الضعيف، وتتقي صولة المستأسد الضاري. ولقد كنا نتفنن في تعذيب هذه المخلوقات البائسة، تارة بالجلد، وتارة بوضعها على الرمال المحرقة كي تصطلي بهجيرها، وتارة بوضع الشطة على بعض الأجزاء الحساسة من جسمها. ومن المفارقات الغريبة أن الأخ عبد الحميد احمد أمين- المستشار حاليا- ، كان وقتها القاضي الذي يحكم على هذه الزواحف بالجلد أو الحبس أو الاثنين معاً، قد أصبح عندما تقدم به العمر قاضياً يقضي بين الناس بالحق، ويا ترى الي اي مدى استفاد من خبراته السابقة في هذا المضمار؟؟!

ولا زلت أتذكر حادثاً طريفاً حدث لنا ذات يوم في هذا الشأن، فكنا نوزع مهام الصيد فيما بيننا، فبعضنا مكلف بمتابعة تحركات الضب، ويقف أحدنا بقرب الشجرة أو يتسلق جذعها حتى يمنع الضب من النزول السريع واللجوء الي جحر أو الى حيث يختفي بين القصب الذي يشكل سور المنزل، فيصعب صيده حينئذ. فلقد كانت الشجرة هي المكان المثالي لصيده. وفي هذا اليوم المعني، صعد ابن خالي الأخ إبراهيم عبد الرحمن الذي يصغرنا جميعاً بعدة سنوات وأمسك بجزع الشجرة بكلتا يديه، وكلما أقترب منه الضب صاح فيه وأفزعه وأبعده الى أفرع الشجرة، وفي لحظة ما، أبلى الأخوة المناوشون بلاءاً حسناً، وأشتد القذف بالحجارة على الضب، وضاق به الحال، فاسرع الى أسفل الشجرة بكل قوة غير آبه بمحاولات الأخ إبراهيم المتكررة لمنعه من النزول، وأندفع الى داخل ملابسه وأخترقه! فما كان من الأخ إبراهيم إلا أن قفز فاراً بجلده الي أسفل وهو يصرخ ويقفز خائفاً من مكان الي آخر، ويصيح «الضب الضب»، وكنا نحاول أن نهدئ من روعه،

بينما كنا مندهشين في نفس الوقت، إذ لم نر للضب أي أثر ولا ندري الي أين ذهب. وهدأ إبراهيم قليلاً، ولكن بعد مضي بعض الوقت تقدم نحوي وهو يرتجف ويقول في صوت خافت «أنني أحس أن هناك شيئاً بارداً على فخذي» وأمسك بفتحة جلبابه بكل حذر، ونظر الي جسمه من خلالها ويا للهول! فلقد صرخ صرخة منكرة وأطلق ساقيه للريح، وهو يصرخ «الضب الضب لاصق بي» وسقط الضب أثناء ذلك، ولكنه نجا من كيدنا، فلقد كنا منشغلين عنه في تلك اللحظة بالأخ إبراهيم.

وكنوع من التغيير، كنا نمضي بعض الوقت في صيد الطيور الصغيرة، مستعينين في ذلك بأنواع مختلفة من الشراك التي كان يصنعها لنا الكبار، وكانت تتكون عادة من سبيب الخيل الذي يثبت على كرات صغيرة من الطين، والتي تشكل بعد جفافها ثقلاً يصعب معه على الطيور أن تطير به، وندفن الجزء الأكبر من الشرك تحت الرمال وننثر عليه الحب والذرة والدخن لجلب الطيور، وكنا في أحيان أخرى نستعين بنوع من السلال المحلية تعرف بأسم «الريكة»، نقوم بربطها بخيط أو حبل طويل، ونضعها في وضع رأسي، ثم ننثر الحب والدخن والذرة تحتها مباشرة، وعندما تنزل الطيور لالتقاط تلك الحبوب، نقوم بجذب الحبل من على البعد، فتهوي الريكة على ما تحتها من طيور، وتتكفئ عليها. لذا كان هذا النوع من الشراك يسمى بـ» ام كفاية». ومتى ما جمعنا ما تيسر لنا من الصيد، يذهب كل واحد منا الي منزله، ويحضر شيئاً من مستلزمات الطبخ، ونقوم بطبخ ما اصطدنا فرحين، وتكون لنا بمثابة وجبة إضافية بين الوجبات.

ولا أنسى ما جره على اللعب ذات مرة من متاعب جعلت الوالدة تتدخل بنفسها كي تفديني من الموت . فلقد كنا نذهب مع الأخ على في بعض الأوقات الي السوق حيث نمضي النهار في دكان خالي عبد الرحمن – رحمه الله – ويكون ذلك في بعض الأحيان أثناء السنة الدراسية بعد انتهاء الدروس، أو في أثناء الإجازة، وكل ذلك من أجل أن نّبعد عن مزاولة الألعاب الشريرة في الحي، ولكننا ما كنا نكف عن اللعب حتى أثناء وجودنا في السوق. ولقد كان الوقت يمضي بطيئاً ومملاً، وكان لابد من عمل شيء ما نبعد به عن أنفسنا هذا السأم وهذا الملل. فاخترنا هذه المرة أن نضحك على البسطاء من المارة الذين يمرون بالقرب من الدكان. فكنا نقوم بعمل عملة نقدية مزيفة، وذلك بتغليف

قطعة نقدية ما «بالقصدير أو الفوليا»، ثم نقوم بمسحها على رؤوسنا حتى تظهر كل التفاصيل الدقيقة للقطعة النقدية، ونسحبها برفق من القصدير، ثم ندفن القطعة المزيفة في قارعة الطريق، بعد أن نترك طرفاً منها بارزاً، ونجلس أمام فرندة الدكان وننتظر حتى يأتي أحد المارة، وينحني لأخذ القطعة، فتزوي في يديه بين دهشته وضحكنا وسخريتنا. وتارة نقوم باختيار القطع النقدية ذات الفراغ الدائري في الوسط، ونربطها جيداً بحبل طويل، وندفن الحبل وجزءاً من القطعة، وعندما يهم أحد المارة بأخذها، نجذبها بشدة ونتركه يقبض الهواء(يعني نكون قد سبقنا بذلك برامج الكميرة الخفية بسنوات عديدة!!) ولكن ما كنا ننجو في بعض الحالات من غضب وشتم بعض المارة الحمقى.

وعدنا مساء ذات يوم كالعادة الي الدور، وأتذكر جيداً أن الشهر كان رمضان، وجلست والدتي وجدتي في الفرندة تتناولان طعام الإفطار، بينما أنا وأخوتي نلعب في فناء الدار، وفاتني أن أذكر، أنني كنت شديد الخوف من الثعابين الى درجة الهوس، وربما كان مرد ذلك لما كنا نسمعه من قصص وأقاويل كثيرة عن الثعابين الطائرة، والمدفونة، والصفراء والحمراء، والتي تخرج أصواتاً عجيبة، وربما لم تكن كلها صادقة.
وما هي إلا برهة وأنا أحس بشيء ما يتحرك بالقرب من رجلي في الظلام، وتحركت مسرعاً من مكاني لكي أتفادى ذلك الشيء اللعين الذي لا يشبه إلا الثعبان، فهو في طوله ويتحرك حركة ثعبانية، وجن جنوني، فالثعبان يتبعني، وصرخت بأعلى صوتي «ثعبان ثعبان»، وفر أخوتي من حولي كل يريد أن ينجو بنفسه، وخلت الساحة في لحظة إلا من شخصي، وصرت أجري في أنحاء الدار كالمجنون، وهبت الوالدة مسرعة الي نجدتي، وحملتني على جنبها، ولا زال صدى كلماتها حتى هذه اللحظة يرن في أذني: «والله لأموتن مع أبني! والله لأموتن مع أبني!»، وهي تجذب بكل قواها هذا الثعبان اللعين الملتصق برجلي، والذي لا يريد أن يخلي سبيلي أبداً، وأتت الجدة فاطمة – رحمها الله – مسرعة بالمصباح، فكانت المفاجأة ! فلقد كنت أثناء وجودي نهاراً في الدكان، أجمع قصاصات الأقمشة التي كان يرمي بها الخياط وأتلاعب بها، وأثناء ذلك قمت بربط شريط منها حول رجلي، ونسيت في غمرة لعبي أن أحل وثاقي، فتبعني مساءاً الي الدار، وتحول في خيالي الي ثعبان طويل ملون أفسد على لعبي ومزاحي. ولله در الأم فكم هي

مخلصة وعظيمة، تجود بنفسها في سبيل أن تنقذ أبناءها. (رحم الله الوالدة عائشة إبراهيم على رحمة واسعة وأنزلها مع الصديقين والشهداء، فلكم كانت عظيمة).

وكما كان للعب واللهو نصيب في حياتنا البريئة تلك، كانت الخرافات والقصص الخيالية تجد طريقها الى رؤوسنا وعقولنا الصغيرة. فكم استمعنا الي قصص العفاريت والجن، حتى توهمنا رؤيتها أو سماعها أكثر من مرة، وكم تحدثنا في مجالسنا الخاصة عن زيد الذي يصاحب الجن الذي يغدق عليه الأموال والذهب، أو عمرو الذي مات وأنقلب شبحاً «بعاتياً»، يزور البيوت ليلاً فيفزع الناس. ومن أغرب ما تنامى الي أسماعنا أن شجرة نيم، نعرفها جيداً، تقع بالقرب من مركز الشرطة، عندما يبادرها الشخص «بالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» سبع مرات متتالية، سوف تقوم برد السلام في اليوم السابع! فكنا نبدأ نلقي عليها السلام مع الأخ على لمدة ستة أيام متوالية، وعندما يحل اليوم السابع، نتهيب تلك اللحظة التي ستقول لنا فيها الشجرة «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»، فلا يجرؤ أحدنا أن يسلم على الشجرة، ونمر بقربها صامتين، وهكذا يمضي اليوم السابع دون سلام، حتى إذا ما أطمأنت قلوبنا قليلاً، وهدأ روعنا، عدنا لتكرار السلام ستة أيام أخرى، وعزفنا عنه في اليوم السابع، ولم تكن لدينا الشجاعة الكافية قط لأن نكمل المدة المقررة، ولا أدري كم مرة حاول غيرنا ذلك.

ومن اللحظات التي كانت تشدنا ونحن صغار، تلك التي كنا نجلس نستمع فيها الى ما يرويه لنا الأخ آدم زايد من قصص وحكايات. وآدم هذا طفل يكبرنا قليلاً، وصديق لنا كان يسكن مع ذويه في منطقة جبال فشار التي تقع شرق الفاشر، وكان يحضر هو وذووه من وقت لآخر وينزلون في ضيافة العم على بدين، ويبقون مدة قد تطول أو تقصر، حسبما تقتضيه الظروف، وكان آدم يحكي لنا كيف أنه يتمكن من رؤية انجلترا عندما يصعد الي أعلى قمة في جبال فشار، ويستمتع برؤية منازل الإنجليز الجميلة وحدائقهم اليانعة الخضراء، ويرى الأطفال يلعبون في الشوارع، والسيارات مسرعة، ونحن فاغرون أفواهنا ومشدودون نتلهف الي سماع المزيد. وكم كنا نحسده على ذلك، ونتمنى أن تسنح لنا الفرصة للسفر الي جبال فشار، حتى نستمتع برؤية بلاد «الخواجات». ولقد تحقق لي الذهاب الى فشار، ولكن بعد ذلك بثلاثة عشر عاماً أو أكثر، ولم يكن ذلك بالدواب كما كان يفعل آدم، ولا بالسيارة كما كنت أحلم، ولكن على متن طائرة الخطوط الجوية

السودانية القادمة من الخرطوم في طريقها الى الفاشر، وهي تستعد للهبوط، وتدنو حتى تكاد تلامس جبال فشار. وكم ضحكت في سري وأنا أتذكر حكايات وأقاصيص الأخ آدم زايد، فها أنا الآن لا أقف فقط فوق أعلى قمة في جبال فشار، بل أرتفع فوقها بمئات الأمتار، ولا أكاد أتبين مباني مدينة الفاشر القريبة، ناهيك عن انجلترا !

ومن أغرب الأشياء التي أتذكرها عن الأخ آدم هذا، هو أنه كان على صداقة متينة مع الأخ محمد على الطيب الملقب بـ « ام جنقر»، وصدف أن قام بدعوة محمد لتناول طعام العشاء بمنزل العم على بدين، ولقد أستطاع بما وفر من نقود شراء بعض الطحنية والجبن وعلب «الساردين»، ولم نكن نحن ضمن المدعوين، فجلسنا نلعب في الشارع الكبير، وبعد أن تناول الصديقان وجبتهما تلك، خرجا الينا في الشارع متخاصمين أشد ما يكون الخصام، ولا ندري ماذا حدث لهما، وما هي إلا برهة ودارت بينهما معركة شرسة استخدمت فيها الأسلحة الحجرية، والخشبية، وتأذى من جرائها الاثنان ونحن مندهشون لهذه الدعوة التي انقلبت الي معركة!

ولا يمكن لي أن أغفل عن نوادر الأخ الصديق مختار محمد على – رحمه الله – فالأخ مختار يمتاز بالحيوية والصدق في معاملته مع الاخرين، ويأتي رد فعله دائما سريعاً وعفوياً وحاسماً في كثير من الأحيان. وأتذكر أننا كنا نعاني كثيراً أثناء لعبنا بكرة الشراب في المدرسة المزدوجة من جراء المتاعب التي كان يسببها لنا تلميذ مشاغب يدعى «أحمد أبو الليمون»، وكان أحمد هذا يكبرنا سناً، ومشهود له بالشر، ووالده جزار صارم له كلاب مشهورة في المدينة يخشاها الكثيرون، وكان لا يحلو لأحمد هذا إلا ارتكاب «الفاولات» ضد الأطفال الصغار. فما أن يستلم أحدهم الكرة إلا وينقض عليه أحمد ويركله ركلة شنيعة، يطيح على أثرها المضروب أرضاً، متألماً، بينما يسخر منه أحمد ويضحك عليه زملاؤه. وبالطبع كان كل الصغار يخشونه، فلا يستطيعون الانتقام، ينهضون من الأرض وفي الحلق غصة، وربما على العين دمعة وغبن مكتوم، وما أقسي غبن وقهر المستضعفين!

ولكن لله در الأخ مختار! فلقد كان الصغير الذي حطم الأسطورة الكبيرة، وشفى النفوس وأبرأ سقمها! فكنا نلعب الكرة في عصر ذلك اليوم المشهود في الميدان الذي يقع خلف الجناح الذي به الرابعتان، وكان هناك أحمد الذي استمرأ عادته الكريهة تلك، ويبدو أنه

كان يشعر بالفخر عندما يتجنبه الصغار ويتركون له الكرة أول ما يقترب من أحدهم، أو عندما يستمع للصغار وهم يحكون لبعضهم عن ركلاته الموجعة.

وأنفرد مختار بالكرة، وكان يجيد المراوغة، وأتجه نحو المرمى الغربي، القريب من «المزيرة» ولكن لم يكن أحمد ليرضى أن يفلت منه هذا الصيد الثمين، ولابد أن يجري بسرعة، فالأخ مختار أصبح قاب قوسين أو أدنى من المرمى، فأنطلق أحمد يعدو كالريح من خلفه، وأنقض عليه كالصقر الجارح وركله ركلة قوية، طار الأخ مختار على أثرها في الهواء وسقط سقطة نكراء على تلك الأرض الصلبة، حتى خشينا أن يكو قد كسرت ساقه أو ذراعه. وأستغرق أحمد والمعجبون في الضحك والاستهزاء. ولكن ما كان لمختار أن يترك أحمد يفرح كثيراً بما فعل، فقام من على الأرض، وتكبد ألمه في صبر، ولم تدمع عيناه، بل قفز عالياً في الهواء، حتى قرب من وجه أحمد وصفعه صفعة قوية ترنح أحمد على أثرها للوراء، وذهلنا جميعاً، وخشينا على مختار من أن يفتك أو يبطش به أحمد، ولكن لدهشتنا لم يحدث شيء من ذلك، ولم يستطع أحمد أن يرد تلك الصفعة، أو حتى أن ينطق بكلمة، بل طأطأ رأسه ونظر الى الأرض!! ويا للعجب كم أرهبنا أحمد أبو الليمون بكبر جسمه، دون أن نعلم أنه جبان رعديد في حقيقته. ولقد أنتهى كل شيء بعد ذلك، وصرنا لا نبالي بأحمد أبداً، والفضل يعود في كل ذلك للأخ مختار الذي هيأ لنا أن نلعب في اطمئنان ودون خشية أو رهبة، ألا رحم الله الأخ مختاراً رحمة واسعة وأحسن اليه، وأسبغ عليه المغفرة إنه سميع مجيب الدعاء.

أما النادرة الاخرى التي كان الأخ مختار بطلها، فهي تختلف عن المألوف. فمن الطبيعي أن يعض الكلب أنساناً، فذلك أمر جائز، أما أن يعض الإنسان كلباً، فذلك ما لم يألفه الناس؛ ولكن ما دخل مختار في كل ذلك؟ لقد أنتقل الأخ مختار من «الخلوة» التي كنا نرتادها معاً الى خلوة الشيخ التجاني عبد الماجد – رحمه الله – وهي «خلوة» مشهورة بمكانتها الدينية، وتبعد كثيراً عن الحي الذي نقطنه، وكان يرتادها من أبناء الحي أبناء العم معروف شايب، ولا أدري متى لحق بهم الأخ مختار، ولكن الشيء الذي أدريه هو أنهم كانوا يمرون وهم في طريقهم من والى «الخلوة» بحي يسكنه بعض التجار من الأقباط المصريين والشوام، وكان لبعضهم كلاب صغيرة الحجم، وكانت هذه الكلاب لا

يرضيها مرور هؤلاء الأطفال صباحاً ومساءاً أمام الأبواب التي يربضون امامها، وتبدأ دائماً عملية مطاردة عنيفة بين الكلاب والأطفال الذين يعدون لذلك العدة من مسافة بعيدة بخلع أحذيتهم والتشمير عن السيقان والسواعد. وما أن تبدأ الكلاب في النباح، إلا ويطلق الكل ساقيه للريح. ويبدو أن حظ الأخ مختار كان سيئاً في ذلك اليوم، فلقد سبقه كل أصحابه ورفاقه، وأصبح في المؤخرة، فظفرت به الكلاب، وتعثر مختار، ووقع على الأرض، وعضه أحد الكلاب عضة موجعة. ولكن ما كان لمختار أن يترك المعتدي دون عقاب، أنساناً كان أو حيواناً، فجاء تصرفه كالعادة سريعاً وحاسماً وعفوياً، فأمسك بالكلب بكلتا يديه وطرحه أرضاً، وهو يصرخ والكلب يصرخ، وعض مختار الكلب عضة أوجع من تلك التي نالها منه وما أن تركه حتى ولى الكلب هارباً وهو يعوي، ووقف مختار ينظف فمه من الشعر الذي أستقر فيه من شعر الكلب.

وكما أنهى مختار أسطورة أحمد «أبو الليمون»، أنهى كذلك أسطورة كلاب رياض توما. ويحكي الرفاق الذي يرتادون «الخلوة» معه، بعد ذلك في كثير من المرح، كيف أن الموقف أنقلب رأساً على عقب، وبدأت الكلاب تخشاهم، فأول ما تسمع أصواتهم من بعيد تستعد ليس للهجوم عليهم كما كان يحدث في السابق، ولكن للدخول الي منازل أصحابها حيث الأمن والطمأنينة، فالكلاب أيضاً لا تريد بالطبع أن تعض من شخصٍ واحد مرتين.

ملامح من الطفولة ٤ - ٤

وبانقضاء الإجازة، انتقلنا الى الفصل الرابع. ويبدو أنني قد أمضيت عامين في الفصل رابعة «ب». والغريب أنني لا أتذكر ذلك جيداً، وماذا حدث في نهاية السنة الأولى؟ وأين جلست لامتحان الدخول الى المدارس الوسطى؟ أم تراني حرمت من الامتحان في تلك السنة ضمن الذين كانوا يحرمون من الجلوس الى الامتحان بحجة أن مستواهم ضعيف، فيكونون بالتالي عبئاً على المدرسة، لأن ذلك يؤثر على نسبة النجاح بالمدرسة. حيث تتوق كل مدرسة لأن تكون في المقدمة. حقاً إن ذاكرة الإنسان غريبة، فهي تتذكر أشياء مضى عليها وقت طويل، ويكاد يراها رؤية العين، وتنسى أشياء اخرى أكثر حداثة من الأولى. كأن لم تكن بينها وبين هذه الأشياء صلة البتة.

ولعل أعنف ما أتذكره في هذا الطور هو تلك المعركة الحامية الوطيس التي دارت رحاها في الطرف الغربي من الوادى الكبير- الذي يمتلئ في الخريف فيقسم الفاشر الي جزئين، شرقي وغربي، وعندما ينحسر ماؤه صيفا، يصبح أرضا خصبة تمد المدينة بما تحتاج اليه من خضروات- بالقرب من حي «أولاد الريف». ودارت رحى تلك المعركة بين مجموعة من أبناء «حينا» ومجموعة من أبناء الحي المجاور لنا من الناحية الشمالية. وقد تكون هذه المعركة حدثت في سنة اخرى، ولكن أرجح أنها حدثت في بداية انتقالنا الى السنة الرابعة، وبكل تأكيد في أول السنة الدراسية.

ومن الغريب أن السبب الذي ادى الى تلك المعركة كان في غاية التفاهة، وما كان ينبغي له أبداً أن يثير ما أثار من مشاكل، ولكن منطق الأطفال يبرر كل شيء. وكان ذلك اليوم هو يوم قبول التلاميذ الجدد في المدرسة، التي فتحت لتوها بعد الإجازة السنوية التي تدوم عادة أكثر من ثلاثة أشهر. وكان الأخ حبيب الله على إدريس القاضي ضمن التلاميذ الذين تقدموا الى لجنة القبول في ذلك العام. وحبيب الله هذا والدته من الحي الشمالي، ووالده كان من كبار الشخصيات في المدينة، ويسكن في حي القاضي الذي يبعد عنا قليلاً. وقد سمي الحي باسم جد الأخ حبيب الله «القاضي إدريس» الذي كان قاضياً لدى السلطان على دينار ، وهو من قبيلة الدناقلة العريقة، الذين استوطنوا الفاشر وانصهروا فيها. ولا أدري لماذا قرر أبناء «حينا» أن حبيب الله لابد وأن يعود في حمايتنا الى الحي. وأعتقد أن مرد ذلك هي صداقة كانت تربط بين والده وبين العم

أحمد أمين – رحمه الله – والد الأخ عبد الحميد. وأصر أبناء الحي الذي يسكن فيه حبيب الله على عودته في صحبتهم، وأشتد النزاع وتصاعد الخلاف ووصل اقصى ما كان يمكن أن يصله في هذه الأحوال وهو: «أطلعوا معنا بره»، وهذه تعني التحدي والدعوة السافرة الي العراك والمشاجرة في مكان ما خارج المدرسة، وهي تشبه تماماً في ذلك ما قاله سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تحديه لكفار قريش: «من أراد أن تثكله أمه فليلحقني وراء ذاك الجبل أو الوادى في رواية اخرى».

وبعد نهاية اليوم الدراسي، حزمنا أمرنا وكنا ستة أو سبعة أفراد، وأنضم الينا الأخ إبراهيم موسى، رغم أنه كان يسكن حياً بعيداً عنا، عملا بالمبدأ القائل: «أنا وأخي على أبن عمي وأنا وأبن عمي على الغريب»، فهو تربطه بنا صلة الرحم، إذ أنه أبن عمتي، ولقد كان الأخ إبراهيم موسى -الدكتور حاليا في جامعة صنعاء___ مقداماً محباً للمشاجرات ويخشى الكثيرون بأسه، وكان أفراد الفريق الآخر في مثل عددنا كذلك، وأنضم اليهم الأخ أبو القاسم محمود من حي «مكركة» لأن شقيقه الأكبر متزوج من حي آل حبيب الله.

واتفقنا أن نذهب الى ربوة مرتفعة في حي أولاد الريف محاطة بالأشواك، وبعيدة عن أعين الناس، وكنا نسير قريبين لبعضنا عبر الوادي، وأتذكر أن الأخ إبراهيم موسى هو أول من بدأ المناوشات، وحتى قبيل الوصول الى ساحة المعركة، بضربة من عصا وقعت على كتف الأخ أبو القاسم محمود، وكان ذلك دون مقدمات، وبقصد الإرهاب فقط، ولكن تدخلنا حتى لا تبدأ المعركة في الشارع حيث يتدخل المارة، فنحن لم نصل الي بغيتنا بعد.

وصعدنا تلك الربوة التي كانت محاطة بسور من الأشواك، ثم قام الأخ مكي عوض- وهو صاحب الزجاجة الشهيرة، التي سقى بها سيدنا علقما- من الفريق المناوئ بقفل الباب بكتلة كبيرة من فروع الأشجار، حتى لا يفر أحدنا على حد زعمهم، فهم يريدون القضاء علينا قضاء مبرماً. ثم أُذن في أصحابه أن من كان به بول أو غائض، فليتبول أو ليقضي حاجته، حتى لا يحدث منه حدث أثناء المعركة فيعاب به! وكان هو اول الفاعلين. وكنا نحن في الطريق نجمع ما تيسر لنا من سلاح، من أغصان وفروع الأشجار الجافة والحجارة وقطع الأخشاب، وقد جمعنا من كل ذلك حصيلة لا بأس بها. وأول ما أتذكره

في المعركة، هو أن واحداً من الفريق الآخر يدعى «ود باليمي» وكان شخصاً مسالماً وهادئاً الى أبعد الحدود، ولا يسكن في الحي الشمالي، بل في الحي الجنوبي من حينا ولا أدري ما الذي زج بالمسكين في تلك الورطة – تقدم نحوي في تردد ظاهر. وما كان لي أن أفوت هذه الفرصة وأنا أظفر بأضعفهم، فصفعته صفعة قوية على وجهه، توجه على أثرها وفتح الباب وخرج مسرعاً معلناً انسحابه من المعركة، وعلمنا أخيراً أنه هو الذي نقل خبر العراك الى الحي وكان دليل الناس الى الربوة.

وأتذكر كذلك أننا كنا نتصارع كثيراً في أوقات السلم مع بعضنا البعض وكان الأخ أبو القاسم يصرعني دائماً، لذلك أراد أن ينفرد بي في ذلك اليوم، فتقدم نحوي ليصرعني كعادته، وتشابكت الأيدي والأرجل، وميلة نحو اليمين واخرى نحو اليسار، وإذا بي ألقي به أرضاً لأول مرة، وجلست على صدره، ولكن لم تطاوعني نفسي على لطمه أو خنقه. فهو حتى الأمس صديق. وقمت من صدره واتجهت الى جهة اخرى من المعركة، فرأيت الأخ مصطفي حسين ممسكاً بتلابيب الأخ مختار، ومكي عوض يضربه من الخلف، فحملت عوداً مدبباً منحنياً وهويت به على أم رأس مصطفى من الخلف، وما هي إلا لحظة وسأل الدم غزيراً من رأسه، يا ألهي لقد شججت رأس المسكين! وهالني منظر الدماء على جلبابه من الخلف، وأصابني الخوف، فألقيت بالعود سريعاً وابتعدت عن مكانه. وعندما أحس بالشج صرخ ملفتاً انتباه الاخرين اليه، وكان أقرب وأحد اليه هو مختار، فصاح أن مختارا هو الذي شج رأسه، والغريب في الأمر أن مختاراً لم ينكر ذلك، ولم أجد في نفسي الشجاعة الكافية لكي أعترف بذلك، ولم يدر أحد حتى هذه اللحظة، أنني أنا الذي شججت رأس الأخ مصطفى، وهذا سر أفشيه لأول مرة!

وعند مشاهدة الدم، تملكنا جميعاً الخوف، ونزلنا من الربوة خارجين، وكان الأخ «ود باليمي» قد عاد ومعه بعض الأشخاص الذي نجحوا في تشتيت شملنا بعد أن هددونا بالوعيد والضرب، وعدنا متفرقين الي «الأحياء»، ولقد ثارت والدة الأخ مصطفي وذهبت الي منزل الأخ مختار وهي تستشيط غضباً، وشب نزاع حام بينها وبين والدة مختار – رحمهما الله – وكادت هذه المعركة أن تؤدي الى قطيعة بين «الحيين» المتجاورين لولا أن تدخل بعض ذوي القدر والحكمة من الكبار، وصفا الجو وعاد كل شيء الي طبيعته

وكان شيئاً لم يحدث. أما الأغرب من ذلك كله، فهو أنني لا أجد إجابة قط لمن يسألني: وأين كان حبيب الله طيلة هذه المدة؟ وماذا حدث له؟ فذلك أمر نسيته الآن تماماً.

ولم نهنأ كثيرا بخلاصنا من كابوس الخلوة « سراج» حتى وجدنا في المدرسة من ينغص ويفسد علينا بهجة يومنا وأنسه، ويثير في النفس الاشمئزاز والتقزز، ألا وهو التلميذ «خليل المليح»! فلقد كان خليل هذا من التلاميذ الذين لا يعيرون الدروس أدنى اهتمام. ويبدو أنه لم يكن يتمتع بقدر من الذكاء يؤهله لذلك، فانعدمت لديه الرغبة في الدرس والتحصيل تماماً، وكان فوق ذلك يأتي الى المدرسة وملابسه ممعنة في القذارة، فوالده- أو أخوه الطاهر - كان يحتفظ بالكثير من الأبقار، وكان هو يعين والده في تربية وحلب هذه الأبقار وجلب العلف والأمباز، فتمتلئ ملابسه بالزيوت والألبان وروث الأبقار، ويختلط كل ذلك فتصدر منه رائحة تنفر وتتأذى منها النفوس كثيراً. ومما زاد الطين بله، أنه كانت له عادة غريبة، ألا وهي سرعة وغزارة العرق، وهنا تبدأ معه متاعبنا الحقيقية.

وكان يكبرنا في السن، ويقطن معنا في نفس الحي تقريباً، ولقد تخلف في المدرسة سنوات عديدة بعد أن تخرج منها كل الذين زاملوه، والذين جاؤوا من بعده. وكنا نسلك جزءاً كبيراً من الطريق معاً، ونرتاح عند شجرة كبيرة، نستظل بظلها قليلاً قبل أن نواصل السير، ويدلف الأخ خليل بعد ذلك نحو اليمين، حيث يقود الطريق نحو دارهم، بينما نواصل نحن طريقنا في نفس الاتجاه. وما أن نصل الى هذه الشجرة، حتى يمسك خليل بأحدنا بيد قوية، ويقفل قبضة يده الاخرى، وما هي إلا دقائق معدودة، ويفتح قبضته فإذا هي تغص بالعرق! وعند ذلك يأمر المقبوض منا أن يتذوق أو يلعق ذلك العرق، يا للفظاعة! ويبدأ صراع غير متكافئ بين القابض والمقبوض، وينتهي دائماً بتلقي بعض الضربات والركلات وربما بتمزيق جزء من الجلباب، حتى يتسنى للضحية الإفلات.

وكنا أول شيء نفعله عند دخولنا المدرسة صباحاً، هو أن نتحرى وجود خليل، ليس حباً في رؤية طلعته البهية، ولكن طمعاً في عدم وجوده، وكم كان ينتابنا الفرح والابتهاج عندما نتأكد أنه لم يحضر في ذلك اليوم، ولحسن الحظ كان كثير الغياب.

وأستمر الحال على ذلك ردحاً من الزمان، الى أن هيأ الله لنا الخلاص من هذا «الكابوس» على يد الأخ بشير عبد الله حسن. ووالد بشير هذا كان رجلاً غريباً في الحي، فلقد نقل الي المدينة من جزء آخر من السودان أعتقد أنه مدينة سنار، وكان يعمل في

مركز الشرطة ، وأستأجر منزلاً قريباً من دارنا، وكان له من الأبناء بشير – الذي يكبرنا قليلاً – وطه ومحمد، ولقد كان ثلاثتهم من أكثر الأولاد تهذيباً عرفتهم على الإطلاق، ولقد كانوا لنا نعم الأخوة والأصدقاء بعد أن تقدم بنا العمر. وحكينا قصتنا مع خليل للأخ بشير، الذي وعدنا بدوره بالخلاص منه، وعدنا في صباح اليوم الثاني ونحن نشعر بالأمن والاطمئنان، وخليل لا يدري ما يخبئه له القدر – أو بشير على الأحرى – في ذلك اليوم، وكان بشير قد أخبرنا مسبقاً، أن علينا أن ننفذ حرفياً ما يأمرنا به عندما يحتدم الموقف، ولم نعلم ماذا كان يبطن، فلقد أخفى ذلك عنا أيضاً.

ووصلنا الى الشجرة، وجلسنا لكي نأخذ قسطاً من الراحة كعادتنا كل يوم، وأراد خليل ممارسة تلك اللعبة القذرة، فما كان من بشير إلا أن قال في حزم: «مختار، عبد الحميد، طه، محمد،على، أطرحوا خليلاً أرضاً» ولم نتردد في ذلك لحظة ونحن نشعر أننا في موقف قوة، ونفذنا الأمر بحذافيره وعند ذلك فتح بشير حقيبته، وأخرج سوطاً كان قد أعده خصيصاً لذلك، وانهال به جلداً على خليل الذي ملأ المكان صراخاً وعويلاً. وتركناه بعد أن لقنه بشير درساً كان كفيلاً بأن يكف عنا سوء خلقه وأخلاقه، ولم يعد الي مزاولة ذلك أبداً!

ولم نكن نحن تلاميذ مثاليين والآخرون أشراراً، فلقد كنا نمتاز بقدر غير قليل من الشر والخبث والضحك على الاخرين كذلك! ومما يثير في النفس الاسى والندم الى يومنا هذا، هو أن هذا الشر كنا نوجهه نحو الضعفاء وكبار السن، وتكون الضحية في أحيان كثيرة، جدة لنا كبيرة ومسنة كفيفة ندعوها «بحبوبة مهدية»، وكنا نعرف الأماكن التي ترتادها، والطرق التي تسلكها، متحسسة الطريق بعصا لها غليظة، تتخذها سنداً ومرشداً. فكنا نختار جزءاً من طريقها ونحفر عليه حفرة متوسطة الحجم، ثم نقوم بتغطيتها بالعشب وأوراق الأشجار، وننثر عليها التراب، ونجلس على مسافة قريبة منها ننتظر وصول الجدة مهدية – رحمها الله – وأول ما تقترب منا نلقي عليها تحية حارة، وترد هي بأحسن منها، ونسألها في إشفاق مصطنع «الي أين أنت ذاهبة أيتها الجدة العزيزة؟» فترد قائلة الى بيت «فلان» فنتبرع أن نصف لها الطريق، ونأمرها بالسير المستقيم، ثم نطلب منها أن تنحرف قليلاً نحو اليسار أو نحو اليمين حيثما تكون الحفرة، وتقع المسكينة في الحفرة، ونفر نحن تلاحقنا لعناتها وشتائمها!

وفي مرات اخرى نلوذ بالصمت التام عند رؤيتها، ويتقدم أحدنا نحوها في هدوء ويسحب العصا فجاءه من بين يديها ويقذف بها بعيداً في عرض الشارع، وتقف المسكينة في قارعة الطريق تلتفت يميناً ويساراً، وهي تتحسس الأرض بيديها علها تجد العصا، التي قلما تستطيع أن تتقدم خطوة بدونها، ونفر نحن ونتركها تلف وتدور حول نفسها، حتى يأتي أحد المارة فيعيد اليها العصا. إلا رحم الله الجدة مهدية وأحسن اليها بقدر ما آذيناها.

ولقد تخصصت كذلك مع بعض إخوتي في الدار في مضايقة جدتنا رقية، وهي جدة والدتي، ولقد عمرت هذه الجدة طويلاً حتى بلغت من العمر أرذله، وبديهي أن تأتي ببعض التصرفات الطفولية في مثل هذا العمر، ولكن أبنتها جدتي فاطمة – رحمها الله – كانت ترى العار كل العار في تصرفاتها تلك، ، لذا قامت بوضعها في غرفة في الدار تكاد تكون مظلمة وكانت تعرف «بالمخزن»، ولا تسمح لها بالخروج بتاتاً، ولقد شجعنا هذا التصرف من جانبها على أن نلجأ في بعض الأحيان الى ان نسبب لها المضايقات ، فكنا نجلس حول باب الحجرة ونناديها حتى تأتينا زاحفة على أربع، ونقول لها: «أترغبين في شيء من التمر أو الحلوى أيتها الجدة الحنون؟» فتجيب في شغف «نعم نعم»، ونأمرها أن تمد يدها حتى يتسنى لنا أن نعطيها ما تريد، وأول ما تمد أصابعها من خلال فتحة صغيرة في الباب، نقوم بقرصها بشدة، أو شكها بشوكة حتى تصرخ ونتولي هاربين. ولا زال صدى صوتها الضعيف المبحوح «ماء... أريد ماءاً» أثناء فصل الصيف الحار يتردد في أذني، ولا أدري كم كان يستجاب لها، فالصوت يكاد لا يسمع، والبيت يعج بما فيه ومن فيه، والكل مشغول بحاله، وليس هناك من هو متفرغ لتلبية طلبات تلك المسكينة. إلا رحم الله الجدة رقية رحمة واسعة، فلقد تعذبت كثيراً في داخل ذلك القبو المظلم في اخريات أيامها في هذه الدنيا الفانية.

ولكن لم تكن حيلنا كلها شريرة، فلقد كانت بعضها غير مؤذية، وأتذكر من ذلك كيف أنني ضحكت ذات يوم على أحد الحمالين (شيالة). ففي ذلك اليوم وصلت الحاجّة عرفة والدة الأعمام جلال الدين وزين العابدين الحاج من الأراضي المقدسة، بعد أن أدت فريضة الحج، وكان من العادات المتبعة أن يُحضِر الأهل والأقارب طعام الإفطار

أو الغداء الى الحاج العائد تكريماً له، وكذلك الحاجة بالطبع. فأعد الطعام في المنزل، ونودي على حمّال من الشارع، وأتفق معه على أن يحمل صينية الطعام تلك الي منزل الحاجة عرفة، نظير ثلاثة قروش، وهي كل ما أعطيت من نقود، وأمرت أن أقود الحمال مرشداً، وأدفع له المبلغ في نهاية المطاف. ولقد كان الطقس حاراً، والحمل ثقيلاً والمنزل بعيداً. فما كان من الحمّال بعد أن قطعنا جزءاً قصيراً من الطريق، إلا أن أنزل الصينية من فوق رأسه، وطلب مني أن أدفع له النقود، لأنه لن يذهب أبعد من ذلك، وأسقط في يدي، ما هو الحل؟ وماذا أفعل بهذا الطعام الدسم في قارعة الطريق؟ فأنا لا أقوى على حمله أو تركه هكذا، ومن أين لي بحمال آخر في هذا المكان بعد أن ينصرف هذا الحمال؟ وهب أنني وجدت حمالاً، فمن أين آتي له بالنقود بعد دفع هذه القروش الثلاثة؟.

وكما يقولون فأن الحاجة أم الاختراع، فقد دفعني هذا الموقف الحرج الى الاهتداء الى حيلة تنقذني من هذه المعضلة، فقلت للحمال هاشا باشاً، أنني أدري جيداً أن هذا المبلغ قليل، ولذلك فسوف أزيده ثلاثة قروش اخرى عندما نصل الى المنزل، فوافق الرجل على ذلك، ولكنه أراد أن يبتزني من بعد، فما هي إلا دقائق معدودة وأنزل الطعام مرة اخرى على الأرض، وطيبت خاطره بقروش ثلاثة اخرى، واستمرأ الحمّال ابتزازي، وأحسنت أنا التمثيل، ولم أترك الطعام يستقر على الأرض بعد ذلك، فما أن يهم بإنزاله حتى أقول» «وثلاثة قروش اخرى»، وأعتقد أنني أوصلته رقماً قياسياً في مثل هذه الحالات حتى تعدى المبلغ العشرين قرشاً، وهو مبلغ لا قبل لي به ولا أدري من هو الذي يدفع كل هذه النقود، كان كل همي مركزا في إيصال الطعام الى ذلك المنزل، ثم فليأتي من بعد ذلك الطوفان.

ووصلنا المنزل أخيراً، ولحسن حظي كان يعج بوفود المهنئين والمهنئات، الى جانب الكثير من الأطفال، فما أن أنزل الحمّال ثقله حتى رميته بالقروش الثلاثة ثم غُبت في جوقة الأطفال، وهو يناديني «تعال ... تعال» ولكن لا حياة لمن تنادي. ودخلت مع بقية الأطفال الى القسم الخاص بالحريم في البيت، وبالطبع لن يقوى على اللحاق بي هناك، ويبدو أن أهل الدار استطاعوا أن يهدئوا من ثورته وانفعاله قليلاً، وطيبوا خاطره وجادوا عليه بطعام ما كان يحلم بمثله، رأيته مستغرقاً في أكله حينما استرقت اليه النظر من بُعد.

ومن التجارب التي لا زلت أتذكرها في هذا الطور هو أول مرة آكل فيها في مطعم.

ولقد كان تناول وجبة ما في مطعم وحتى الى وقت قريب ، أمرا مشيناً في عرف سكان الفاشر العريقين . ولكن الممنوع أو المرفوض دائما مرغوب ، فما بالنا لا نجرب ذلك . ولقد كان الأخ أبو البشر محمود الناير ، والذي كان من التلاميذ النابغين في الفصل ، إلا أن الحظ لم يسعفه بمواصلة تعليمه، هو أول من فتح عيني على ذلك . فأخبرني ذات مرة أنه يعرف مطعماً رخيصاً ، أو (بيلج) بلغة الألمان، وتكاد أكثر كلمة مفضلة عندهم . وأقترح أن نجمع ما لدينا من نقود ونذهب الي مطعم (عمي عبد الله) حيث يمكن أن نتناول وجبة لذيذة من اللحم والخضار المشكل . أما أين وكيف يتم ذلك ، فهو كفيل بإتمام الباقي. وبدأنا التجربة بأن دفعت القرش الذي يعطي لي للإفطار ودفع هو مثله ، وذهبنا الي المطعم الذي يقع في الصف الشمالي من الدكاكين على الشارع الرئيسي في المدينة ويفتح جنوبا. وسلكنا اليه طريقاً معوجا تفاديا للمرور من أمام الشركة التي يعمل فيها العم على بدين ، والتي تقع في أول الشارع الذي به المطعم. ودخلنا المطعم خلسة، وجلسنا في ركنٍ قصي بعيدٍ عن أعين المارة . وجاءنا العم عبد الله بالطعام، وكان لذيذا طيب المذاق ، شهي الرائحة فأتينا عليه سريعاً ثم طلبنا شيئاً من زيادة تعطي مجاناً وتعرف (بالوصلة). وخرجنا ونحن في غاية السعادة بعد أن دفعنا قرشين ونصف القرش. وقد كنت لفترة طويلة أعجب كيف أن وجبة الطعام في مطعم (عمي عبد الله) أرخص كثيراً من بقية المطاعم في المدينة، ويقل ثمنها بالنصف أو أكثر. ولكن علمت السبب عندما تقدت بنا السن . فلكم رأيت (عمي عبد الله) هذا وهو يحمل سلة (قفة) كبيرة ويتردد على المطاعم الكبيرة ، مثل مطعم قنديل، ومطعم حسن كوكس ، ويأخذ ما تبقى من الخضار الغث ، أو العظام وما أبعد من لحم وشحم، ثم يأخذ كل ذلك الي مطعمه ويقوم بنظافته ، ويضيف اليه أصنافاً من التوابل والبهارات، وبما له من مقدرة فائقة في فن الطبخ، كان يخرج طعاماً فقيرا في محتوياته الغذائية، لكنه لذيذ في مذاقه . ومما يقلل من نفقاته أكثر ، أنه كان كل شيء ، الطباخ، والجرسون ، وغاسل الأطباق ،وصاحب المطعم ، و (عمي عبد الله) .

ما اظلم الإنسان!!

لا أريد أن أختتم حديثي عن مرحلة الدراسة الابتدائية (الأولية سابقاً) . دون التعرض لحادثتين كان لهما أثر بليغ في نفسي، فلقد رأيت في الأولى قصر حبل الكذب، والثانية جعلتني اخشى على الدوام دعوة المظلوم.

كان لنا في وقت من الأوقات (سقّا) او بلغة أهل دارفور الطيبين (خراجي)، وكان يحمل الماء على حمار لنا ويبيعه في الأحياء المختلفة كما كان يفعل الكثيرون ولا يزالون. وأذكر أن هذا (السقّا) كان من النازحين من جمهورية تشاد، وكان يجيد أكثر ما يجيد سرد القصص والحكايات، التي كنا نجد فيها لذة لا تعادلها لذة، وكنا نتوق الي المساء حين يحضر الى المنزل، وينزل حمل الحمار ونحضر له العشاء، ونلتف من حوله ليسمعنا شيئاً من القصص.

ويبدو أنه كان يتمتع بقدر لا يستهان به من الذكاء، ولا أدري هل كان هو شخصاً أكولاً، أم أن ما يعطى من طعام في العشاء كان قليلاً، فكان يطلب دائماً المزيد، ويحصل عليه عن طريق حيله وخدعه، وكان يسخرنا في ذلك، وكنا نحتال بكل السبل على الوالدة حتى نحصل له على المزيد الذي يطلبه من الطعام. فعادة ما يتوقف فجأة في مكان مثير من القصة، تماما كما يحدث في المسلسلات التلفازية، وينظر الي الغرف المتراصة والفرندة الممتدة أمامها، ويقول لنا «أتدرون ماذا؟ أنني أستطيع أن أقفز من فوق هذه الغرف والفرندة، وانزل على الجانب الآخر ولقد حدث أن قمت بهذا العمل مراراً في تشاد». ونحن مشدودون اليه، ونرجوه أن يرينا ذلك، ونلح عليه، فيقول إن عملاً كبيراً كهذا يحتاج الي جهد، وليس ذلك في مقدوره دون المزيد من الأكل، ويضيف «إن أردتم أن تروا ذلك فالي بشيء من الطعام حتى أكسب مزيداً من القوة والقدرة»، وندخل مسرعين الى المنزل ونجمع كل ما استطعنا جمعه من بقايا الطعام ونأتيه بها، وبعد أن يأكل يخبرنا أنه قبل القفز لابد من إكمال القصة التي بدأها، ويستمر يحكي ويحكي، وكان أما أن يغلبنا النعاس في النهاية، أو يقول لنا أن الوقت قد تأخر لذلك سيترك القفز الي الغد. وفي غدٍ وبعد غدٍ تتكرر نفس القصة وكان ذلك الغد المأمول حقاً نائياً كالنجوم، وما درينا قط أنه كان يكذب ويضحك علينا. ولكن ليس هذا هو الموضوع الذي أنا بصدده،

فرغم أنه يدور حول الكذب إلا إنه كذب غير ضار، والموضوع الذي أقصده يتعلق بالحمار أكثر منه (بالسقّا). فلقد قررت الوالدة أن تبيع الحمار عندما رأت أن العائد منه غير مجزٍ، وكانت الأسرة على معرفة بشخص متخصص في بيع الدواب، ويعمل في المكان المخصص لذلك، ويعرف محلياً باسم (الدخولية)، وكان الرجل يبدي الكثير من الصلاح، ويكاد « يعيط» من التقوي كما يقول عادل امام»، ويظهر الورع ويترك انطباعا طيباً في كل النفوس، فطلبت منه الوالدة أن يأخذ الحمار ذات صباح ويعرضه للبيع، وخرج بالحمار في الضحى، وعاد الينا عصراً وقد باعه، وحمل الينا مبلغاً أعتقد أنه كان ثلاثة جنيهات،وحاولت الوالدة أن تعطيه جزءاً من ذلك المبلغ نظير أتعابه، ولكنه رفض ذلك في إباءٍ وشمم قائلاً: «حرام على والله أن أخذ مليماً واحداً من مال هؤلاء اليتامى الصغار، وهذا العمل قمت به لوجه الله، ولا أريد منه جزاءاً ولا شكوراً»، وأنصرف تتبعه دعوات الوالدة وشكرها، ولقد أعجبنا جميعاً بتلك الشهامة.

وفوجئنا في صبيحة اليوم التالي بان الحمار قد عاد الى الدار، لا ندري كيف ومتى وصل،وقمنا بربطه في انتظار أن يحضر الذي اشتراه لأنه سوف يقتفي أثره دون شك. وفي منتصف النهار، قدم الينا شخصان كانا يتتبعان أثر الحمار، وأخبرنا أحدهما أنه أشترى الحمار من الضامن الفكي (آدم)، وهونفس الشخص الذي أوكلنا له بيع الحمار، ولكي تتأكد الوالدة من صحة أدعائه، طلبت منه إبراز إيصال البيع، الذي يثبت ملكيته للحمار، وأصابتنا الدهشة والاستغراب، عندما اكتشفنا أن الرجل دفع مبلغاً يكاد يعادل ضعف ما استلمناه من ذلك العم (الفاضل!) وعند ذلك ثارت ثائرة خالي السنوسي، وأصر على الرجلين إن أرادا ان يأخذا الحمار لابد و أن يحضرا الضامن شخصياً، فذهبا وعادا به منكس الرأس، خجلاً وجلاً، يتوارى خلفهما. ولقد هزأ به خالي السنوسي، وجذبه من لحيته البيضاء، وهدده بالضرب حتى أرتعش الرجل وارتجفت أوصاله، ولم يستطع أن يقول شيئاً ينفي به عن نفسه هذه التهمة البينة، بل ظل ينظر الي الأرض، وكان يردد فقط «أطلب منكم السماح». وأخلى الخال السنوسي سبيله، بعد أن أوسعه توبيخا واهانة. وأعاد الينا باقي المبلغ، وانصرف ذليلا حقيرا. ورأيت كيف أن الكذب قد أذل هذا الشيخ المسن وأهدر كرامته، ومسح بمصداقيته الأرض، فهان أمره على الناس، وفقد أمامهم كل تقدير واحترام. وخشيت من يومها من الكذب.

أما القصة الثانية، فبطلتها طفلة صغيرة يتيمة تدعي (فاطمة)، وهي أخت زميلنا مختار لأبيه، وأما مسرح الأحداث فهو الشارع الذي يفصل بين منزلنا ومنزل أهلها، ولقد كان هذا الشارع هو مسرح لعبنا ولهونا نحن جميعاً أبناء وبنات الحي، إذا ما غربت الشمس، وهدأ الحي قليلاً، وقل لغط النساء وذلك بعودة الرجال الى الدور، وانشغالهن بإعداد طعام العشاء، فنجد نحن الفرصة سانحة للخروج إما خلسة وإما مراوغة. وصار هذا الشارع الكبير- كما يعرف في الحي- حين أصبحنا معلمين مسرح انسنا وسمرنا في الليالي المقمرة، وانضم الينا إخوة أعزاء من عد الغنم سكنوا في حينا. منهم الأخ الأستاذ حامد محمد على تورين، وزير التربية الاتحادي السابق، وابن عمه الطيب، والدكتور ادم على، وكانوا لنا نعم الأصدقاء.

وأتذكر إننا كنا ثلاثة أطفال نلعب في الشارع في تلك الأمسية، فاطمة ومنصور وشخصي، ومنصور هذا، أبن جزار الحي المعروف بحزمه وصرامته. ولقد كان يعبر هذا الشارع ساكنو الحي الجنوبي «زنقو»، وهم في طريقهم من والى السوق الكبير، وكان أبناء هذا الحي، من أكثر الأولاد شقاوة، وكنا جميعاً نخشى شقاوتهم ونحسب لهم ألف حساب، وكانوا يصدرون أصواتاً جماعية مزعجة، وهم في الطريق بقصد الإرهاب والتخويف، مثال ذلك الصياح بأعلى أصواتهم (إيهوا... إيهوا). وعندما سمعنا تلك الصرخات في ذلك المساء، تأكدنا من أنهم قادمون نحونا، فانتحينا جانباً وتركنا لهم وسط الشارع العريض، حتى يمروا في سلام ولا يلحقنا منهم الضرر. ولكن قد خاب فألنا، فما هي إلا برهة، وأمسكوا بمنصور وأوسعوه ضرباً وركلاً، وهو يملأ المكان صراخاً وعويلاً، ولم نستطع أن نهب لنجدته خشية أن يصيبنا مثل ما أصابه أن لم يكن أشد منه، وتركوه أخيراً وولوا هاربين. وبعد أن أفاق منصور قليلاً، هرع الى منزله باكياً شاكياً، وأخبر والده بالذي حدث، وعاد ومعه والده حاملاً سوطاً، والشرر يتطاير من عينيه وهو يسأل منصور في لهفة شديدة «من الذي ضربك؟ أجبني من هو الجاني؟» ولا أدري لماذا كذب منصور في تلك اللحظة، فلقد أشار بكل بساطة الى فاطمة، وقال أنها هي التي ضربته! فما كان من والده، إلا أن أحكم قبضته القوية على فاطمة البريئة من كل ذنب، وانهال عليها جلداً مبرحاً ومتواصلاً، دون رحمة، وهي تصرخ وتستغيث تارة، وتطلب منه الرحمة تارة اخرى، ولكن لا مغيث. ولم يتركها إلا وهي تتلوي من الألم، ولا اشك في أنها قد بللت

ثيابها! فمثل ما نالته من ضرب في ذلك اليوم لا يتحمله حتى الكبار! وعندما هم الجزار بالانصراف، جثت فاطمة على الأرض، وكأنني أراها الآن بكل وضوح وهي متجهة شرقاً نحو دارنا، رافعة كفيها الصغيرتين الي السماء، وهي تشتكي تجاني الي ربها وتسأله أن يجازيه على فعلته تلك قائلة:» ان شا الله النار تاكل بيتك» اذ ضربتني وانا بريئة .

وأفسدت علينا تلك الحادثة لعبنا ومرحنا، فعدنا الى المنازل في انتظار وجبة العشاء، وبعد مضي وقت قصير، شق سكون الليل صراخ منكر: «حريقة حريقة ! حريقة ! «، ونهض الجميع مذعورين يلتفتون الى كل الاتجاهات حتى يتبينوا مكان النار. ويا للمفاجأة، فلقد كانت النار في منزل ذلك الجزار! وجريت مع من جرى الي مكان الحريق، ولقد رأيت فاطمة في ذلك المكان مع غيرها من الأطفال، وقد تكون نسيت أمر دعوتها، ولم تقل للناس أنني دعوت بكذا أو كذا، او قد تذكرتها ولكنها حشيت المزيد من العقاب فلاذت بالصمت.ولقد شعرت بشيء من الخوف إذ خشيت، أو كنت شبه واثق من أن فاطمة قد تسللت خلسة الى هناك، وأشعلت النار، وأنا الوحيد الذي يدري بالقصة، ، ولكن خشيت أن لا أصدق، أو أن يصيب فاطمة المزيد من الضرر، فكفى المسكينة ما نالته من ضرب مبرح في تلك الليلة.

وبعد أن أخمدت ألسنة النيران تجمع الناس حول الجزار يواسونه ويهونون عليه، ومن عادة الناس في مثل هذه الأحوال، أن يسألوا عن الأسباب التي أدت الي اشتعال النيران، فالفضول غريزة عند الإنسان. وبدأ الجزار يروي القصة، فلقد كانت والدته امرأة كفيفة البصر تدعي «فضيلة» وأرادت أن تتحسس موضع بعض الأشياء داخل كوخها (قطيتها) المبني من القصب، وهي ممسكة بالمسرجة، فأشعلت النار في المنزل الذي أتت عليه عن بكرة أبيه، ولم تمض على دعوة فاطمة سوي سويعات قليلة فقط!

وصرت من تلك اللحظة اخشى دعوة المظلوم، وكلما تذكرت هذه القصة، أتذكر وصية رسول الله «صلي الله عليه وسلم» للصحابي الجليل معاذ بن جبل، الذي أرسله الي اليمن كي يعلم الناس أمر دينهم، فأوصاه بالتدرج في معاملة الناس، ثم حذره قائلاً : «وأتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» صدق الرسول الكريم، او الحديث القدسي:» يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا...» كان يترك الخيار للتلاميذ في نهاية هذه المرحلة الدراسية، في أن يجلسوا لامتحان الشهادة

للدخول الى المدارس المتوسطة إما في نيالا، لدخول مدرستها الأميرية المتوسطة. وإما في الفاشر للدخول الى مدرستها الأهلية المتوسطة، ولقد كانت المنافسة شديدة. والفرص محدودة، إذ لا توجد في مديرية دارفور بأكملها سوى هاتين المدرستين. ووقع اختياري على مدرسة نيالا. ولعل السبب المباشر وراء هذا الاختيار هو ولعي الشديد بالأسفار وكل ما يتعلق بها من وسائل. لذلك كانت أفضل الالعاب عندي هي السيارات، ولكن لم تكن تتوفر لدينا في ذلك الوقت لعب السيارات كما عند الأطفال الآن، لذا كنت أقوم بجمع الكثير من أجزاء الصفائح والصناديق، وأجلس بداخلها معظم الوقت، متوهما القيام برحلة سعيدة شرقاً الي الأبيض، أو جنوباً الي نيالاً أو غرباً الي الجنينة. وأذكر أن أحب هدية تلقيتها وأنا في هذا الطور كانت سيارة قام بصنعها الأخ محمد عمر الحاج «عرب البدو»، وكنت فخوراً بها كما وأنها حازت على رضا كل أقراني وإعجابهم حتى أن بعضهم عرض أن يشتريها مني بمبلغ وقدره ثلاثة قروش، وهو مبلغ لا بأس به في ذلك الوقت، ولكني رفضت ذلك العرض المغري وفضلت عليه سيارتي.

وأرى الحديث قد أخذني بعيداً عن موضوع رحلتي الى نيالا للجلوس الى الامتحان، ولقد كانت هذه ثاني رحلة طويلة، بعد رحلة مجدوب، أزمع فيها مغادرة الفاشر «أبو زكريا». وتعود بي الذاكرة الى صباح ذلك اليوم الأغر الذي حدد فيه سفرنا الي مدينة نيالا، فتجمعنا بالعشرات بالقرب من داخليات المدرسة المزدوجة حيث وقفت السيارة المعدة لسفرنا، وأحاط بنا أهلنا وذوونا من الرجال والنساء والأطفال، منهم من يحمل أمتعتنا، ومنهم من يريد أن يكون في وداعنا، وكانت أمتعتنا تتشابه شكلاً، وتختلف مضموناً، فلقد كان لكل واحد منا ثلاث قطع، حقيبة حديدية صغيرة للملابس، ومرتبة صغيرة «لحاف» وصفيحة للزاد بها بعض الكعك، والفاكهة، أو الدجاج المحمر. ولا أشك مطلقاً في أن سائق تلك السيارة، ومساعديه الاثنين وصاحب السيارة الذي رافقنا قد وجدوا عناءاً شديداً في تنظيم كل تلك الحقائب والصفائح «واللحافات» داخل السيارة، ووضعها في مأمن خشية أن تتساقط علينا أثناء سير السيارة وهي تتأرجح وتهتز شاقة طريقها الوعر الذي تتخلله الوديان والكثبان الرملية والمرتفعات الجبلية والحفر كبيرها وصغيرها، في رحلة تستغرق الليل بأكمله، وتنتهي مع تباشير صباح اليوم التالي في نيالا قصبة جنوب دارفور.

ويبدو أن ذلك التنظيم أخذ وقتاً ليس بالقليل، إذ لازلت أتذكر أن الشمس قد ارتفعت في كبد السماء وازدادت حرارتها فتصببنا عرقاً، والسيارة لا زالت واقفة في ذلك المكان، واختلطت أصوات النساء بأصوات الصبية والرجال، كل أم تحاول أن توصي أبنها بأن يتخذ مكاناً آمناً أولاً، ومريحاً ثانياً، وكل أب يوصي أبنه بالاجتهاد ويتمنى له التوفيق. وتحركت بنا السيارة أخيراً بعد منتصف النهار بقليل، ومجاراة لعنترة بن شداد، أقول: «لقد شفى نفسي وأبرأ سقمها» ركوب تلك السيارة من طراز فورد، والتي كان يقودها سائق ماهر يدعي «عليا»، فلكم شنفت آذاننا بما تصدر من أصوات «موسيقية» مختلفة، وهي تخترق رمال «أبو زريقة» أو تصعد أعالي «منواشي»، أو تنطلق في بطحاء «ساق النعام»، أو هي تتأرجح فيما بين ذلك. ووصلنا الى نيالا في صبيحة اليوم الثاني، وشقت السيارة طريقها الى الجزء الجنوبي من المدينة حيث نزلنا في ضيافة المدرسة الأميرية، ولقد سحرتنا نيالا بخضرتها اليانعة، واستمتعنا بجوها العليل، وحدائقها الغناء حول وادى بلبل، وكان لدينا قدر من المال، الى جانب الزاد، أمكننا من شراء بعض ما كنا نرغب فيه، مما يسر لنا رغد العيش وطيب لنا المقام في نيالا. وأذكر أن من بين رفاق الرحلة تلميذ يدعى «الزين»، كان يخفي ما لديه من زاد ويضن به، ويبدو انه كان اجشع من الذي قال فيه الشاعر:

ان مدت الأيدي الى الزاد لم اكن باعجلهم اذ أعجل القوم اجشع

فهو حتى لا يجلس الينا عندما نمد أيدينا الى الزاد، ويتذرع بالشبع ويهرب عنا، حتى إذا ما أرخى الليل سدوله، وخلد الجميع الي النوم، أخرج شيئاً من طعامه وبدأ يأكل سراً. ويبدو أنه كان يقتر حتى على نفسه، فلا يتناول من الطعام إلا قليلاً. وما هي إلا أيام قلائل، وبدأت رائحة كريهة تفوح من الحجرة، ولم يكن من الصعب علينا تحديد مصدر تلك الرائحة، فلقد سبقنا اليه الذباب، ولم تكن سوى صفيحة الأخ «الزين» التي فسد ما بداخلها من طعام لشدة أحكام القفل عليه في ذلك الجو الحار، وما كان أمام صاحبنا إلا أن يقذف بها في برميل القاذورات بين شماتة الزملاء وسخريتهم.
ومن المواقف الشجاعة التي رسخت في الذاكرة، موقف زميلنا الأخ «يوسف حمدون»، الذي تمثل في تصديه وتحمله عبء الدفاع عن كل رفاق فصله حين أحاط بهم الخطر، فقد كانت من سلبيات هذه التجمعات المدرسية، عندما تلتقي عدة مدارس في مكان واحد، أن

تتحرش بعض المدارس ببعضها بعضاً، وتقع المصادمات المشاجرات. لا لشيء إلا لإظهار العضلات فقط. وكان من نصيبنا في ذلك العام، أن يتحرش بنا تلاميذ – أو على الأصح طلاب – مدرسة كتم الابتدائية، والذين كانوا يجاوروننا السكن في الداخلية، ومعظمهم يكبرنا سناً وحجماً، إذ أن التلاميذ في خارج المدن لا يؤخذون عادة الى المدارس في سن السابعة كما كان الحال بالنسبة للمدن الكبيرة، فكان بعضهم يدخل المدرسة بعدما يتجاوز التاسعة أو العاشرة من عمره، ولقد تحرشوا بنا دونما سبب، وأرادوا على حد تعبيرهم أن يحسنوا تاديبنا، لأننا أكثرنا من إزعاجهم، كما زعموا. فما كان من الأخ يوسف حمدون، إلا أن أنبرى لهم، ولبس سكيناً على ذراعه، وحمل عصا غليظة وسوطاً. وجلس أمام غرفتنا، وتحدى كائناً من كان أن يقترب منا، وكفانا بذلك شرهم.

وتجمعنا في يوم إعلان النتائج في ساحة المدرسة، وجلسنا في مجموعات صغيرة تحت ظلال الأشجار المنتشرة نترقب وننظر، ونتطلع بقلوب وجلة نحو مقر اللجنة كلما ظهر بقربه معلم اشرأبت اليه الأعناق. وكانت كل مجموعة تتوسم أن يكون أول اللجنة من بينها، وكان الجلوس على غير انتظام، فكل مجموعة تمثل عدة مدارس، وبعد طول انتظار وترقب، ظهر الأستاذ المكلف بقراءة النتيجة، وأن لم تخن الذاكرة، فهو الأستاذ سليمان مصطفي أبكر «أبو دقن»،- وهو من أوائل النواب الإسلاميين في البرلمان فيما بعد. ولان الحديث ذو شجون اجد نفسي تواقة لذكر شيء عن هذا الرجل الفاضل الذي يتميز بشجاعة ورباطة جأش نادرتين. وروى لنا ذات مرة بعد ان تزاملنا كأساتذة في المدارس الابتدائية لاحقا، ان زوجته فاجأها المخاض ذات مرة في موطنه امبرو، معقل قبيلة الزغاوة العريقة في شمال دارفور ومقر ملوكها من آل محمدين، ولم تكن بالقرية غير قابلة واحدة، وعندما ذهب لاحضارها قيل له انها سافرت صباحا الى كتم. واسقط في يده، ورجع ووجد زوجته وقد داهمها المخاض. فقال لها، لو تركتك هكذا ستموتين في الوضوع، ولكني ساحاول مستعينا بكتاب احتفظ به في التشريح ان اقوم بتوليدك! وقد انجح او افشل في ذلك. والفرصة هنا ٥٠٪، اما في الحالة الأولى ان تركتك هكذا فالفرصة معدومة! ووافقت زوجته وهي مضطرة. وقام بتوليدها على أفضل وجه!! وسؤالي هو: من من السادة القراء يقوى على ذلك؟ ومن من السيدات القارئات تقبل بذلك؟

ونعود الى جلستنا تلك في انتظار النتيجة، واشرأبت الأعناق حين ظهر الاستاذ سليمان ، وتسمرت عليه الأعين، وهدأ الصخب والضجيج، وازدادت ضربات القلوب، وأصبح الجميع آذاناً صاغية، ونودي على أول اللجنة، فإذا هو الأخ «تاج السر مكي أبو زيد» من مدرسة زالنجي الأولية، وقد فزنا بشرف الجلوس معه في نفس المجموعة. ولقد جمعتنا معه بعد ذلك جامعة الخرطوم. ولكن قاتل الله الانتماء السياسي العقائدي الضيق الذي افسد عليه نبوغه، فلم يواصل المشوار حتى نهايته، شانه شأن الكثيرين من اقرأنه الأفذاذ، الذين لفظتهم الجامعة حين طغت اهتماماتهم السياسية على تحصيلهم العلمي، فلم يجنوا في نهاية المطاف إلا الحصرم! وهذا امر ادرك كنهه استأذنا محمد الواثق في قوله:

إن العقائد في امدرمان مهزلة × × أودى بحرمتها تجر دهاقين

وجاءت النتيجة بالنسبة لنا نحن تلاميذ مدرسة الفاشر المزدوجة مخيبة للآمال، ومثبطة للهمم، إذ أصابنا جميعاً، ودون استثناء على ما أعتقد، الفشل، ولم يقبل منا تلميذ واحد، وعدنا الى الفاشر نجرجر أذيال الخيبة. وبقدر ما كان الفرح والسرور يخيمان على تلك السيارة التي حملتنا من الفاشر، ساد السيارة» ابو رجيلة» التي تحمل اللوحة رقم ٢٢د- و اعتقد ان ملكيتها تعود لاحد التجار في نيالا واسمه احمد دلدوم- التي أعادتنا من نيالا جو من الحزن والكآبة. ويبدو أن تلاميذ مدارس شرق دارفور، أو بعضهم على الأقل، كان يشاركنا ركوب تلك السيارة، وكان أحدهم من ضمن العشرة الأوائل، وهو الأخ «البشري ضو البيت نور الدائم» الذي جاء ترتيبه رابع أو خامس اللجنة على أغلب الظن، وأراد السائق أن يكرمه ويميزه، فأخذه وأجلسه بجواره في المقعد الأمامي، بعيداً عن ضربات الصفائح والحقائب وحرارة الشمس وذرات الغبار. وحسد بعضهم الأخ بشرى على تلك الحظوة وأضمر له الشر، فأراد الأخ ابراهيم موسى منصور ومعه بعض التلاميذ أن يدبروا له مكيدة، يأخذوه بها بعيداً أثناء توقف السيارة في أحدى المحطات، ويوسعوه ضرباً. ولكن مساعدي السائق سمعا بما دار من حديث، وأفشيا اليه بالسر، وأقسم السائق أن من يمد يده الي بشرى، فسيكون عقابه وخيماً، وسخر منا قائلا : «بُلده وكمان قليلين أدب!» وكان في ذلك تهديدا كافيا لهؤلاء لأن يصرفوا النظر عن ما أزمعوا عليه.

ما أحلي الشطة!!

وعند عودتي الى دارنا بالفاشر من مدينة نيالا بعد الفشل الذي أصابنا في امتحان الدخول الى المدارس الوسطى ، قوبلت بقدر كبير من البرود والفتور، إذ من هو الذي يفرح بفاشل أو يهلل له؟ وأصبحت في مفترق الطريق، لا أدري ما الذي أفعله، فلا يوجد امتحان إلا بعد عام، وأنا لا أريد أن أعود الي مدرستي القديمة كي أعيد الفصل الدراسي الرابع مرة اخرى، وأفراد الأسرة لا يريدون بقائي عاماً كاملاً دون دراسة، وأصبحت في موقف لا أحسد عليه، مبلبل الفكر، مزعزع النفس، لم يستقر لي رأي على شيء. وبينما أنا كذلك، زارنا ذات مساء – على عادته دوماً – الخال عبد الرحمن، وكان في غاية الفرح، وأخبر والدتي أنه وجد حلاً لمشكلتي، وأن الله أراد بي خيراً كثيراً، ففي غد ستعقد لجنة القبول لمعهد الفاشر العلمي، وأنه تحدث مع شيخ المعهد، المرحوم الشيخ سوار بشأني، وأن الشيخ قد وعده خيراً، خاصة عندما علم أن والدي – رحمه الله – كان أحد تلاميذه النجباء. وفرحت الوالدة بذلك أشد ما يكون الفرح، فهي مقتنعة في قرارة نفسها أن التعليم الديني هو خير ولا شك من تعلم اللغة الإنجليزية، والذي لم يكن أمر تعلمها مستحباً لدى الكثيرين في ذلك الوقت، وأمرت أحدى أخواتي أن تعد لي جلباباً نظيفاً لصباح الغد.

أما أنا فقد أحزنني ذلك النبأ كثيراً، لأنه يعني أنني سوف أنتهج نهجاً غير الذي سار عليه أقراني، والذي كنت أتوق اليه وأتمناه، وسوف لن أرتدي الملابس الإفرنجية التي تبهرني، وأنني لابد لابس ذات يوم طال الزمن أم قصر، جلباباً فضفاضاً، وعباءة (فرجية)، ومعتجرا عمامة كبيرة أو كوفية، ومستبطناً حزاماً عريضاً! واستميح «الشيوخ» عذراً إن قلت، أن ذلك أمراً لم يكن يعجبني في تلك السن المبكرة من حياتي.

وبعد أن غادر خالي الدار، انتبذت ركناً مظلماً من الفرندة، وصرت أبكي في حرقة وأسى، وبعد قليل جاءتني صديقتي الشقيقة «عزيزة»، أو قل جاءني الفرج. وقبل أن أسترسل في التفاصيل، لابد وأن أوضح نوع العلاقة التي تربطني بهذه الأخت «عزيزة».

أعتقد أنه يوجد في كل أسرة نوع مميز من الحب المتزايد بين بعض الأطفال، كما يوجد في بعض الأحيان نوع من الحساسية، إن لم أقل الكراهية، بين بعضهم الآخر، ولقد كانت

علاقتي مع شقيقتي هذه من النوع الأول، تتميز بقدر كبير من الألفة والمحبة والتفاهم المتبادل، وكنا قلما نفترق. وبالرغم من أنها لم تكن موفقة كثيراً في دروسها، ولم تتخط المرحلة الابتدائية، إلا أنها كانت تتمتع بقدر كبير من الذكاء. ولقد كانت بارعة في التخطيط لكثير من الحيل والأدوار التي يصعب على الكثيرات ممن كن في عمرها القيام بها، وهي لا تكبرني إلا بعامين. ولا أخالها الآن إلا وهي راضية عن نفسها كل الرضا، فالدراسة التي لم توفق فيها،انتقم لها منها أولادها وبناتها حتى تخرجوا من الجامعات ونالوا أعلى الدرجات. وهم- وقولوا ما شاء الله، وامسكوا الخشبة___:

-الأستاذة سمية آدم عيسي الزراعية التي الفت قاموسا باللغة الانجليزية في العلوم السمكية والبحرية من الحجم الكبير في ١٠٠٠ صفحة تقريبا، وهو الوحيد ليس في السودان فحسب، بل في العالم العربي بشهادة منظمة الفاو الدولية.

- الدكتور طبيب الهادى آدم عيسي
- الدكتورة طبيبة سامية آدم عيسي
- الدكتورة أخصائية النساء أسماء آدم عيسي
-الدكتورة طبيبة أسنان تيسير آدم عيسي
- الدكتور طبيب مصطفي آدم عيسي.
- مهندسة الكومبيوتر سلمى آدم عيسي
-الدكتورة طبيبة زينب آدم عيسي- آخر العنقود .

وأذكر أنه كلما كانت هناك مناسبة خاصة بالنساء والبنات، ومحظور دخولها على الرجال والأولاد، مثل بعض الفقرات الخاصة في حفلات الأعراس، أو المسرحيات في الأندية ومدارس البنات، أو الاحتفال بيوم الأمهات فإنه ما كان منها إلا أن تلبسني طرحة من طرحاتها المدرسية وتأخذني وأنا متنكر في زي طفلة صغيرة، وأشاهد ما تيسر لي مشاهدته من مسرحيات أو فقرات ترفيهية.

ولم أكن بدوري ناكراً لهذا الجميل، ولهذه المعاملة الخاصة، فكنت أقف بجانبها كذلك كلما تعرضت لمحنة ما، وأذكر أن أمرتها الوالدة ذات مرة أن تطهو لنا طعام العشاء، وتذمرت عزيزة واحتجت بأنها متعبة ومجهدة، والوقت متأخر، ولا يمكنها إعداد العشاء، ولكنها أذعنت أخيراً عندما هددتها الوالدة بالعقاب أن هي لم تفعل ما أمرت به. وأعدت

ليلتها طعاماً سيئاً لم أذق في حياتي قط أقبح منه! ولم يكن مرد ذلك جهلها بالطهي، لكن كان ذلك تعبيراً عن رفضها لواقع الحال. وما كانت الوالدة تترك مثل هذه المخالفات تمر دون حسم وتطبيق درس قاس في التربية، فما أن اجتمعنا حول العشاء وتذوقنا إدام العصيدة، وكان مصنوعاً من نبات «الملوخية»، حتى أمرتنا جميعاً أن نرفع أيدينا ونكف عن الاكل، وألتفت الي عزيزة وأقسمت لها لئن لم تأكل كل تلك الكمية، ليصلنها ما لا يحمد عقباه، وأعتقد أنها كانت سوف تطبق «مادة التحقين» (وهو الإغراق المتعمد بالماء!) في مثل هذه الحالة. وجلست عزيزة الى الصحن لتأكل أكلاً أعد لستة أشخاص، وغير مستساغ إطلاقاً. وذهبت وجلست بجوارها أشاطرها الأحزان، وبدأنا نأكل ونأكل. واختلطت دموعنا بالإدام، وما أن أبتلع لقمة، إلا وتكون قد أعدت لي اخرى أكبر وأفظع منها! ولقد أتينا على كل ما في الصحن، ولا أدري كيف بتنا ليلتنا تلك من التخمة، ولكنها كانت أهون علينا من عقاب الوالدة على كل حال!

أعود الى ذلك الركن المظلم الذي جاءتني فيه عزيزة وبدأت تكفكف عني دموعي، وتقول لي همساً أنه يتوجب على أن لا أحزن، وأنها سوف تنجيني من هذه الورطة غداً إن شاء الله، وأوصتني بأن أذهب وأخلد للنوم.
وجاءتني على وعدها صباحاً، وأيقظتني سراً، وأخذتني الى طرف من المنزل، وقالت لي: «إدع أنك مريض ولا تستطيع الذهاب الى المعاينة، وخذ هذه الشطة وضعها تحت لسانك عندما يحين وقت الذهاب الى المعهد، وأحذر أن يراك أحد»، وانصرفت بعد ذلك. وجاء الخال قبل الموعد بقليل ليأخذني الى المعهد، وأخبرته مع الوالدة أنني مريض ولا أستطيع الذهاب معه للمعاينة. فقال لها إن هذه حيلة صبيانية لا يمكن أن تنطلي عليهما، وأصررت على موقفي، واستأذنتهما في الذهاب الى الحمام، وقمت بإخراج الشطة من جيبي ووضعتها تحت لساني. وعندما عدت بعد قليل كنت أتصبب عرقا ! فاستيقظت غريزة الأمومة لدى الوالدة، ونسيت كل ما كان من أمر المعهد والمعاينة، وأخذت تتحسسني بيديها وتسألني في شفقة مم أشكو وماذا يؤلمني، ووقفت الي جانبي وقالت: «لن يذهب ابني الى المعهد، بل يجب أخذه الى المستشفى». وهناك ثبت فعلاً أن حرارتي مرتفعة بعض الشيء، ولابد من حجزي لبعض الوقت لإجراء الفحوصات. وأخرجت الشطة – التي لم أحبها في حياتي كحبي لها في ذلك اليوم – خلسة كما

أدخلتها خلسة وعدت الي حالتي الطبيعية، وأخذت الى المنزل، وتخلصت من المعاينة بفضل شقيقتي عزيزة. ومن يومها ولسان حالي:» ما أحلي الشطة!!«

بعد مضي فترة من الوقت، أخذت الى المدرسة التجانية الصغرى وسميت صغرى لأنها تنتمي الى نوع معين من المدارس تضم ثلاثة فصول فقط أولى وثانية وثالثة وليست بها رابعة، وكان مستواها جيداً في المواد الأساسية، العربي والرياضيات والدين، وسميت هذه المدرسة باسم مديرها العالم الفاضل الشيخ التجاني عبد الماجد، الذي كان والده الأمام عبد الماجد من كبار رجالات الدين في دار فور، وكان أماماً للسلطان على دينار، والشيخ التجاني هو والد أستاذي الذي تقدم ذكره محمود التجاني، وصاحب تلك الخلوة المشهورة التي ألتحق بها الأخ مختار كما ذكرنا. وعلى الرغم من أن الشيخ التجاني – رحمه الله – كان حازماً وصارماً مع التلاميذ ويجلدهم جلداً لا هوادة فيه، إلا أنه كان يدنيني منه جداً، ويعاملني برفق متناه، حتى أذكر أنه كان يرسل من يبحث عني من التلاميذ في ساحة المدرسة لكي أشاركه والمعلمين إفطارهم.

ولم أمض في هذه المدرسة إلا بضعة أشهر ثم غادرتها الى محطة اخرى. وأطرف ما أتذكره في هذه المرحلة هو أن مدرستنا كانت ملاصقة لمدرسة بنات الفاشر (أ)، وكان لنا أستاذ للدين يبدو أنه شغوف جداً بأصوات التلميذات، فما أن نبدأ في قراءة بعض السور القرآنية بصوت جماعي، وتبدأ التلميذات في قراءة بعض الأناشيد المدرسية، إلا ويأمرنا الأستاذ بالسكوت قائلاً «كفانا سماع أصواتكم القبيحة هذه، ولنستمع قليلاً الي هذه الأصوات الموسيقية الشجية». عفا الله عن الأستاذ «على»، فلقد كان به شيء من الرقة في الدين.

شهد عام ١٩٥٥م أيضاً انتقالي من المدرسة التجانية الى مدرسة الفاشر الشمالية الأولية حيث وجدت فرصة للإعادة بالسنة الرابعة بفضل موافقة ناظرها الأستاذ محمد إبراهيم جابر – رحمه الله – وكان دائماً ينادي التلاميذ بـ «ود أبو زهانة». وكان يدرسنا مادة اللغة العربية الأستاذ إبراهيم عمر – رحمه الله – والذي كان مغرماً بإعطائنا الكلمات الشاذة الصعبة، مثل «تكأكأتم» و «أفرنقعوا». ولكن لم أمكث كذلك طويلاً بالمدرسة الشمالية، إذ فتحت مدرسة متوسطة جديدة في مدينة الفاشر، قبل انتهاء

العام الدراسي، وتم القبول بها على أساس نتائج امتحان الدخول لمدرسة نيالا المتوسطة المتقدمة الذكر، وكنت ضمن المقبولين بهذه المدرسة.

ولقد تم قبولي في المدرسة «احتياطيا» وبمصروفات مدرسية كاملة، مقدارها خمسة عشر جنيهاً ونصف الجنيه سنوياً، وأذكر أن العم محمد الزاكي- رحمه الله- عضو لجنة القبول، قد دافع عني دفاع المستميت، ورفض إقرار تلك المصروفات، وخاطب اللجنة قائلاً: «إن هذا الذي يقف أمامكم يتيم، وليس في مقدوره دفع هذا المبلغ». وبعد أخذ وجذب خفضت اللجنة المبلغ الى ستة جنيهات في السنة، ولكن قبل أن أغادر غرفة اللجنة، ألقى على الأستاذ عوض طلحة، مدير المدرسة قنبلة نغصت فرحتي بالقبول كثيراً، وأقلقت مضجعي ليالٍ طويلة قادمة، إذ قال لي: «أعلم أنك قد قبلت في خانة تلميذ غائب من مدرسة برام الأولية، أسمه هجو دفع الله، فتحرى أنت بنفسك وصول هذا التلميذ، ومتى ما تأكدت من حضوره فيمكنك مغادرة المدرسة، حتى دون الرجوع الينا !!». وأصبح شغلي الشاغل بعد ذلك هو التفرس في الوجوه، وتحري القادمين الجدد. وما كان ذلك بالأمر الشاق في مدرسة تضم ثلاثين تلميذاً فقط، فكنت أذهب الى صاحب الوجه الجديد الذي أراه لأول مرة، وأسأله عن أسمه، وذات يوم لمحت أحد هؤلاء وذهبت اليه، ولم أسأله عن أسمه، بل أردت أن أنوع من طريقتي قليلاً، فسألته إن كان يعرف تلميذاً يدعى هجو دفع الله، فأجابني أنه هو هجو دفع الله شخصياً، ثم سألني ماذا أريد منه، ولم أجبه بكلمة، وانصرفت نادماً على حظي التعس. ولكني لم أغادر المدرسة من تلقاء نفسي، ولم يأمرني الناظر من جانبه بذلك، ولا أدري حتى هذه اللحظة ما هو السبب الذي جعله يبقي على بعد وصول صاحب الخانة التي قبلت فيها.

وبدأت المرحلة المتوسطة في مدرسة الفاشر الأميرية، في أول دفعة للمدرسة، في أواخر عام ١٩٥٥م، وكان لنا بجانب الناظر عوض طلحة معلم واحد من أبناء الفاشر هو الأستاذ إبراهيم آدم الدين، والذي كان المشرف علينا في الداخلية، وكانت تلك أول تجربة لي للسكن في داخلية بعيدة عن أسرتي. ورغم كل الصعاب، والحنين الي جو المنزل، إلا أنها كانت تجربة إيجابية أفادتنا كثيراً في مستقبل أيامنا. ولم تكن المدرسة قد بنيت بعد، لذلك أستغل مبنى مدرسة الفاشر الغربية الأولية الجديدة التي تقع في حي الحملة في اقصى الجزء الجنوبي الغربي للمدينة لهذا الغرض، ولم تكن كذلك هناك

داخلية معدة لاستقبالنا، فاستأجرت لنا المدرسة منزل العم محمد فضيل في حي القبة في اقصى الطرف الشمالي للمدينة، وكانت المسافة التي تفصل بين مقر الدراسة وبين السكن، تبلغ عدة كيلومترات، لذا كنا نمضي الكثير من الوقت جيئة وذهاباً بين المدرسة والداخلية، وكنا نقطعها في بعض الأحيان سيراً على الأقدام، وفي أحيان اخرى كانت تقلنا عربة مفتش التعليم الأستاذ حسن على كرار، ومن بعده الأستاذ بشرى المقبول.

ولم يكن منزل العم محمد فضيل معداً أساساً لسكن هذا العدد الذي قارب الثلاثين، فنصبت ثلاث أو أربع خيام بجانب الغرف وبين الفسحات، بالإضافة الي «راكوبة»، كبيرة من القصب تقع في الجزء الشرقي من المنزل، وكان من نصيبي السكن في «الراكوبة» وكان يجاورني الأخ عبد الله صالح أبو شوك.

وكان متاعنا في الداخلية قليلاً، يتكون من سرير له أرجل حديدية ومنسوج بالحبال، وضعت عليه بطانية واحدة ووسادة، وهناك بطانية اخرى نتدثر بها، وبالطبع كان ذلك أمراً صعباً، فنحن لم نألف النوم على الحبال، فكيف السبيل الى نوم مريح وخشونة الحبال تقلق مضاجعنا؟.

وشكوت أمري الى الوالدة، فقررت أن تعد لي «لحافاً» صغيراً آخذه معي الى الداخلية في نهاية عطلة الأسبوع القادم. وفي عصر الجمعة التالية، حملت معي «لحافي» الصغير وأنا سعيد به، وبينما أنا أودع والدتي وأخوتي، دخل علينا العم على بدين صدفة، وبعد السؤال عن الحال والأحوال وعن سير الدراسة، سألني لماذا أحمل معي «لحافاً» الي المدرسة؟ فشكوت اليه من خشونة الحبال، وسألني أن كان كل التلاميذ قد أحضروا مثل هذه اللحافات، فأجبته متفاخراً، أنني أنا الوحيد الذي فعل ذلك، فقال لي: «إن كان الحال كذلك فأترك هذا «اللحاف» هنا، ولابد أن تنام على الحبال كما يفعل الآخرون»، وتألمت لحظتها لفراق ذلك «اللحاف»، ولفقدان تلك «النومة» المريحة التي كنت أحلم بها، ولكني تعلمت من العم على درساً فاضلاً في وجوب المساواة بين الأقران، فطنت اليه مؤخراً.

ولا زال العم علي على الدوام خير مرب وموجه لي في كل أطوار حياتي، والمثل والقدوة وكنت أحرص دائماً على أن أتصرف بطريقة ترضيه وتنجيني من نقده – الهادف دائماً.

وفي مرة من المرات، قدم صديق له من مدينة نيالا في مهمة تجارية الى الفاشر، ويدعى

«إبراهيم الزبير»، وعندما أنجز مهمته، كلفني العم على بإرسال تلغراف الى ذويه في نيالا يخبرهم فيه بقدومه، وأذكر أن الجملة الأخيرة كانت «بطرفكم غداً»، وبعد سحب التلغراف ودفع الحساب، تبقى لي لدى الموظف المسؤول قرش ونصف القرش، ولكن لم تكن لديه عملة صغيرة «فكة» حتى يرد لي الباقي، وفكرت أولاً في رد فعل العم على أن قلت له لقد تركت الباقي لدى الموظف ؟ واهتديت بعد تفكير أن أضيف كلمة واحدة – وقد كانت الكلمة بقرش ونصف القرش – فأضفت كلمة «الأحد» وأصبحت الجملة الأخيرة تقرأ «بطرفكم غداً الأحد». وعدت وأنا راض كل الرضا عن حسن تصرفي. وتوقعت أن أجد لدى العم على الإطراء والثناء، ولكن حدث عكس ذلك عندما أخبرته بالقصة، إذ قال لي: «كان من الخير ألف مرة لو تركت الباقي، ولم تضف كلمة الأحد، فالناس الذين يقرؤون التلغراف سوف يتهموننا بالغباء، فأي إنسان يعلم أن غداً هو الأحد، وما فعلت حشو في الكلام لا مبرر له !!».

ويبدو أن الوالدة وأخواتي في الدار كن يفلتن بعض الشيء من الرقابة التي يضربها العم على من حولي باسم «المساواة بين الأقران»، فكن يرسلن لي طعاماً خاصاً مرة أو مرتين في الأسبوع، وغالباً ما يكون هذا الطعام أكثر ما نفتقده في الداخلية، ألا وهو «العصيدة» التي تأتيني تارة بإدام القديد، وتارة بإدام شرائح السمك المجفف، والذي يعرف محلياً «بالحوت»، وكان عندما تصل أختي حليمة ومعها أخي عبد الله حاملين الطعام، آخذ منهما الصحن في فرحة غامرة، وأحفظه في مكان أمين، غالباً ما يكون تحت سريري، وأسعى سراً بين أصدقائي المقربين مثل الأخ عبد الرحيم الشعراني والأخ موسى الحاج، والأخ عبد الله صالح وغيرهم من الأصدقاء، ونختار مكاناً تقل فيه حركة الأرجل، ونلتهم ما بداخل الصحن التهاما.

وأقول للذي يتهمني بالبخل في هذا التصرف «قد ظلمتني»، فلم يكن في مقدوري أو مقدور أهلي أن يحضروا «عصيدة» تكفي لكل تلاميذ الداخلية، وهذا الصحن الواحد لا يفي بالغرض، فكان لا بد من عمل ترتيب ما، حتى لا تفقد «العصيدة» مذاقها اللذيذ.

ومن النوادر التي أتذكرها في تلك الفترة، هو ماحدث لنا ذات مرة في شهر رمضان، فقد اجتمعنا مع بعض الزملاء لتناول وجبة السحور، داخل خيمة الأخ بريمة حامد وزملائه،

ولا أدري لماذا كنا نأكل تحت ستار الظلام في تلك الليلة، ربما أنطفأ المصباح بعد نفاد الجاز «الكيروسين»، أو ربما لم نجد عود ثقاب، الله أعلم. المهم في الموضوع، هو أننا كنا نجلس أرضاً حول الصحن، وكان سحورنا يتكون دائماً من اللبن الحليب الذي نقطع عليه الخبز ونضيف اليه شيئاً من السكر، مما توفر لنا من وجبة الإفطار، أو الذي نشتريه من دكان ابو زيت القريب من الداخلية. وكنا أثناء الأكل في تلك الليلة نسمع أصواتاً تشبه أصوات القطط أو الكلاب وهي تلعق شيئاً، فنتضاحك متهمين بعضنا بعضاً بتقليد هذه الأصوات، وينفي كل واحد أن يكون هو مصدرها. وبينما نحن منهمكون في الأكل، قدم الينا أحد الزملاء، وهو يحمل معه مصباحاً، وعند ذلك تبين لنا السبب، فلقد كان معنا حول نفس الصحن ثلاث أو أربع قطط تشاركنا طعامنا وتشرب من اللبن! وتركنا الطعام محاولين أن نتقيأ ما أستقر منه بداخلنا، وقام بعضنا بمطاردة القطط بغية الانتقام ولكنها أفلتت من العقاب، ومنذ ذلك اليوم لم نبدأ سحورنا إلا تحت الأضواء.

ورغم استعدادنا النفسي والفعلى للصوم، إلا أن قلة منا فقط كانوا يتمونه، وليس ذلك لصعوبته علينا، أو عبثاً منا، ولكن السبب في ذلك يعود لناظر المدرسة، فكان يأتي الى الفصل ويسألنا فرداً فرداً إن كنا صائمين، ويستثني منا بعد ذلك فئة قليلة، ويطلب من الفراش أن يحضر جردلاً من الماء، ثم يأمر كل من لم يتوجب عليه الصيام أن يشرب كوباً من الماء تحت التهديد بالجلد، وينتهي صيامنا عادة في التاسعة أو العاشرة صباحاً.

يوم اعدم البنطلون الابيض!!!

ومن اللحظات التي كنا نتهيبها في الداخلية، ولكن ليس منها بد، هي تلك التي نقف فيها خائفين حذرين في فناء منزل الأستاذ إبراهيم آدم الدين الملاصق للداخلية، في صباح كل جمعة بغية طلب أذن بالخروج، ويقترب الواحد منا تدريجياً حتى يصبح على بعد خطوات من غرفة نوم الأستاذ، وهو لا يدري أنائم الأستاذ أم مستيقظ، وينادي في صوت خافت «أستاذ أستاذ».

وكان الأستاذ إبراهيم يتبرم ويضيق بذلك كل الضيق، وكنا نخشاه أكثر لحزمه وبطشه بنا بين الحين والآخر، ويبدو أن صبره قد نفد ذات جمعة، فبعد أن تكاثر عليه طالبو الإذن بالخروج، وأقلقوا راحته، إذا بنا نسمع رنين الجرس حوالي الساعة التاسعة صباحاً على غير المألوف، وعلمنا أن علينا أن نتجمع في فناء الداخلية، وعند ذلك ظهر الأستاذ إبراهيم متجهماً، وأمرنا أن نرتدي الزي المدرسي، ونذهب فوراً الى المدرسة! ولعمري كانت تلك أول وآخر مرة في حياتنا نذهب الي الدرس في يوم جمعة داخل السودان. ومكثنا ما بين الفصول والردهات حتى منتصف النهار، ثم عدنا أدراجنا دون أن ندرس شيئاً، أما الأستاذ فيبدو أن الجو قد خلا له فنام واستراح.

وكانت الداخلية هي محور نشاطنا كله، ففيها نقضي جل وقتنا، وذلك نظراً لبعد المدرسة منها كما أسلفت، فحتى المذاكرة المسائية المفروضة كانت تتم فيها. وكنا نجلس في فناء الداخلية بعد صلاة المغرب حول طاولتين طويلتين، تحت ضوء «الرتينة » ونستمر في الاستذكار حتى تمام الساعة التاسعة مساء، حين يعلن جرس العشاء انتهاء المذاكرة. وكان الأستاذ إبراهيم يمر علينا من وقت لآخر، لكي يجيب على ما تطرأ لدينا من أسئلة، وليتأكد من أننا نذاكر في إطار المقررات المدرسية. وأذكر أنني كنت في ذلك الطور، كلفاً أشد الكلف بقراءة «سيرة عنترة بن شداد العبسي»، ولم أكن أستسغ شيئاً سواها، وبالطبع لا تسمح قوانين المذاكرة بقراءة مثل هذه القصص، وإذا كان لابد من قراءتها، فسراً. لذا كنت أحضر كتاب «السيرة» متداخلاً بين كتب المقرر، وأختار مكانا للجلوس يكون مواجهاً للباب الشرقي الذي يأتي عن طريقه الأستاذ إبراهيم، حتى أبصره من مسافة كافية تمهلني من إخفاء كتاب «السيرة» داخل أطلس أو كتاب كبير، وفتح كتاب

آخر، موهماً الأستاذ بأني أذاكر المقرر فعلاً، وزيادة في التمويه، كنت أختلق أي سؤال أقوم بتوجيهه للأستاذ عندما يقف بجانبي، حتى أبعد الشك عن نفسي أكثر.

ومن الأشياء التي كنت أتعجب منها في ذلك الوقت، ولم أجد لها تفسيراً إلا مؤخراً، هو تصرف الأخ عوض الكريم «عوضي» من أبناء قبيلة التعايشة بـ «رهيد البريدي»، فكان هذا الطالب يجلس بجواري ويفتح كتاباً أو كراساً، ويظل سارحاً ببصره وذهنه، ولا يقلب الصفحة التالية حتى نهاية المذاكرة، وكان لا يقرأ شيئاً، بل يستغرق في التفكير، وهو أبعد ما يكون عن الاستذكار أو الدرس. ولكن بدأت أتذكره وأتفهم موقفه مؤخراً عندما تقدمت بنا السنوات، وغرقنا في خضم مشاكل الحياة، وأصبحنا نفتح الكتب ونغيب عنها بأذهاننا وعقولنا ساعات طويلة. مسكين الأخ عوض الكريم، فلقد داهمته المشاكل والهموم في طور مبكر من حياته!

وفي مرة من المرات أخذنا الأستاذ إبراهيم بالآية الكريمة «وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين» صدق الله العظيم. وسبب ذلك هو أنه كانت توجد على مسافة ليست ببعيدة من الداخلية ربوة عالية على طرف مجرى الوادي، وهي شديدة الانحدار، وتعرف في الفاشر «بالجرف»، لأن السيول المندفعة الى أسفل تجرف جزءاً منها الى أسفل الوادي السحيق. وان كان البعض يتزحلق في أجزاء اخرى من العالم على الجليد، كنا نحن نجد فرصتنا في التزحلق أو الزحف السريع على الرمال على أطراف هذا المنحدر، ويتم ذلك ونحن جالسين على الأرض، ولم تكن قوانين الداخلية تسمح بذلك، لذا كنا نخرج خلسة.
فخرجنا ذات مرة ونحن مجموعة من الصحاب، ولعبنا ما شاء الله لنا أن نلعب، وعدنا عند مغيب الشمس، ولا أدري من هو الذي وشى بنا لدى الأستاذ إبراهيم، فعندما عدنا أرسل في طلبنا، وأوقفنا صفاً واحداً، وبدأ في استجوابنا فرداً فرداً، وكان السؤال الموجه لكل واحد منا : «هل لعبت في الجرف؟» وأجبنا جميعاً بالنفي لخشيتنا من البطش والعقاب، وعند ذلك قال لنا: «اديروا عني وجوهكم والي بظهوركم»، ووقتها ظهرت البينة! فكل من كان على ملابسه لون برتقالي تركه الزحف المتواصل على الرمال، لم يستطع بعد ذلك الإنكار، ونال جزاءه على اللعب أولاً، وعلى الكذب ثانياً.

وكان يوم الخميس الموافق ١٩/ ١٩٥٦/٠٤م يوماً عصيباً علينا، فلقد جلدنا الناظر عوض طلحة عن بكرة أبينا، وكان الجلد متواصلاً ولمدة حصة دراسية كاملة، بحيث أن أغلبنا جلد ثلاث أو أربع مرات في ذلك اليوم، حتى أن العم خميس فراش المدرسة – رحمه الله – أشفق علينا وتجرأ ودخل الفصل وخاطب الناظر قائلاً: «حرام عليك أن تجلد هؤلاء الصغار هكذا»، فما كان من الناظر إلا أن قام بطرده من الفصل. وأعتقد أننا نتحمل جزءاً كبيراً من الوزر في ذلك، ولكن بكل تأكيد كان الجزء الأكبر يقع على عاتق الناظر.

كان الناظر هو الذي يدرسنا مادة اللغة الإنجليزية في هذه السنة الأولى لنا بالمدرسة، وكانت جديدة علينا تماماً، ولا توجد في المدرسة مراحل متقدمة يمكن لنا أن نسأل طلابها عما يشكل علينا، وفوق هذا وذاك كان الناظر كثير التغيب عن الدرس، وهو الشيء الذي أغرانا بإهمال دروس اللغة الإنجليزية إهمالاً يكاد يكون تاماً.

أما في صباح ذلك اليوم فقد جاء الناظر على غير عادته، مبكراً ودخل الفصل، وقال إن الحصة ستكون تهجئة كلمات، أي « Spelling » ، فيلقي علينا كلمة ويطلب تهجئتها، وعندما يتلعثم الواحد منا قليلاً، لا يترك له مجالاً بل يقول «الذي يليه Next». وأتذكر جيداً أن كلمة «Second»، بالذات جلد فيها السواد الأعظم منا. ولكن أن كانت هذه نقطة سوداء في حق الأستاذ عوض طلحة، فهي لا تساوي شيئاً بالنسبة لإيجابياته الكثيرة والتي سوف يأتي الحديث عنها في وقتها، فالرجل مثال نادر للشهامة والمروءة.

وكان مسك الختام بالنسبة للسنة الأولى تلك الوليمة الكبيرة التي أقامتها لنا المدرسة في الداخلية، ودعا لها العم محمد فضيل، صاحب المنزل ومتعهد الداخلية، وقام بإعدادها الطباخ الماهر «خاطر» ومساعده «عبد الله»، وتناولنا في تلك الليلة الختامية ما لذ وطاب من المشويات والسلطات، واللحوم المتنوعة والحلويات التي كان من بينها كنافة الفاشر الدسمة، والباسطة وقد كانت بحق خير وداع لنا ومسك الختام للسنة الدراسية.

بدأنا عامنا الدراسي الثاني، ولم تكتمل مباني المدرسة الأميرية بعد، ولم يعد منزل العم محمد فضيل يسعنا بعد أن تضاعف عددنا هذا العام، وكان علينا أن نخلي المدرسة

الغربية الأولية كذلك، لكل هذه الأسباب انتقلنا هذه المرة الي مباني المدرسة المزدوجة الابتدائية التي تخرجت منها، للسكن وللدراسة معاً، ولقد شاركنا السكن والدراسة في المدرسة المزدوجة الفصل الجديد لمدرسة كتم الأميرية المتوسطة، وزاملنا فيها من نجوم المجتمع الآن الشاعر المبدع كامل عبد الماجد، وهو أيضا لا يزال يذكر ذلك العهد ويحن اليه كما جاء في ذكرياته الثرة مؤخرا في صحيفة السوداني.

وأنضم الى هيئة التدريس هذه السنة ثلاثة من الأساتذة، وهم الأستاذ مصطفى عابدين معلماً للرياضيات،من أبناء بري، والأستاذ عبد الرحمن السيد من أبناء الفاشر معلماً للعلوم الاجتماعية، والأستاذ حميدة حسن أحمد واعتقد انه من أبناء امدرمان، معلماً للغة العربية ومشرفاً على الداخلية.

ومن أحرج المواقف التي أتذكرها في هذه السنة، ما ألحقته من ضرر بالأستاذ مصطفى عابدين، الذي كان حديث عهد بالتدريس. وكعادة المعلمين الجدد، لم يكن لديه الكثير من البنطلونات والقمصان، وما كان اكتشاف ذلك بالأمر الصعب علينا، إذ كنا نقوم بعد ملابس الأساتذة، وكان له بنطلون ناصع البياض، لابد وأنه كان يعتز به كثيرا. وفي ذات صباح جاء الفصل وهو مرتدٍ ذلك البنطلون الأبيض، ودار علينا في الفصل كالعادة لتصحيح الواجب على الكراسات، وكانت الممرات بين الأدراج ضيقة، وجلس على درجي وهو يصحح للتلميذ الذي يجلس أمامي، وكنت أعبث بالمحبرة، فأندلق الحبر الأزرق الداكن على ذلك البنطلون الأبيض الناصع من الخلف، وأصبح منظره بشعاً،! ولشدة خوفي لم أجرؤ أن أحدث الأستاذ بذلك، وبعدما تقدم قليلاً في الفصل، لفت أحد الطلبة نظره الى الحبر الذي لوث بنطلونه من الخلف، فألتفت الينا غاضباً، والشرر يتطاير من عينيه، ولم يقل شيئاً، وظل يتفرس في الوجوه محاولاً اكتشاف الجاني. عند ذلك صعب على الأمر، ووقفت وأخبرته بأنني أنا الذي فعل ذلك، ولكن من دون قصد، وأنا آسف لذلك. وسألني لماذا لم أخبره بذلك في وقته؟ فسكت. ولكن لم يثر على الأستاذ مصطفيى أو يعاقبني، فلقد كانت لي عنده منزلة خاصة، ولا أتذكر أنه عاقبني قط في أي يوم من الأيام.

ولقد توطدت بيننا أواصر الصداقة عندما تقدمت بنا السنوات وأصبح الأستاذ مصطفيى عابدين من أعز الأصدقاء، وكثيراً ما كنا نتلاقيى عندما كنا طلبة في الجامعة، وهو

أستاذ بمدرسة الخرطوم الثانوية، وأمازحه أحياناً بأنني كنت السبب في إعدام بنطلونه الأبيض الذي لم نره بعد تلك الحادثة. وتدرج الأستاذ مصطفي في السلم الوظيفي حتى أصبح الملحق التعليمي لجمهورية السودان بيوغسلافيا، وهو أهل لذلك فالأستاذ مصطفى من الكفاءات الممتازة بحق.

ولا زال الأستاذ إبراهيم آدم الدين يأخذنا بالشدة كعادته في هذه السنة أيضاً. وكان المشرف على الرياضة البدنية وكان يحمل معه عصا حتى في ميدان الكرة. أما الشيء الذي يخشاه ويهابه الجميع فهو القفز على الحصان الخشبي، فهو جديد تماماً علينا، وكان أكثرنا منه خشية الأخ موسى الحاج، فتردد ذات مرة ورفض الإتيان ببعض الحركات الرياضية، ولكنه رضخ تحت تهديد الأستاذ إبراهيم له بالضرب. فما كان من المسكين إلا أن ضرب برجليه على النابض (الياي)، وطار عالياً في الهواء، ولم يفلح في أداء الحركة بالطريقة السليمة، فسقط على رقبته، وقام وأطبق بيديه على رقبته، وأنطلق كالسهم صوب «المزيرة» الشمالية، وهو يصيح «كسرت رقبتي، كسرت رقبتي»، ولا أدري لماذا أختار «المزيرة» بالذات؟ لعله الارتباك الذي يصيب المرء في بعض الحالات فلا يعرف كيف يتصرف.

وكمثال فريد لهذا الارتباك ما حدث بعد ذلك بوقت طويل في مكتب التعليم بالفاشر، إذ كنا مجموعة من المعلمين نجلس في آخر الردهة الطويلة من الناحية الشرقية، وظهرت معلمة في آخر الطرف الغربي، ولفتت نظرنا جميعاً لأناقتها وجمالها، وكانت في طريقها الينا، ونظراتنا مثبتة عليها، وعندما وصلت الى حيث نجلس توقفت أمامنا وبدأ عليها الاضطراب الشديد، وبدأت تسألنا عن مكتب أحد المشرفين، وإذ هي كذلك أدخلت بعض أصابعها في كوب شاي كان أحد الزملاء يضعه أمامه، ولم تحس حتى بحرارة الشاي، فما كان من الزميل، وأعتقد أنه الأخ الصديق العزيز سعيد أحمد أمين، إلا أن قال لها مداعباً: «لقد أفسدت على الشاي أيتها الزميلة!»، فسحبت يدها بسرعة حتى كاد الشاي أن يندلق على ذلك الثوب الأبيض الأنيق، فينعدم كما كان الحال مع البنطلون!

وكمثال آخر لهذا الارتباك، أذكر أن العم حامد بدين – رحمه الله – خرج ذات يوم من منزله ورأى ناراً تلتهم منزلاً قريباً من «القطية» التي يرقد بداخلها أبنه حسن –

رحمه الله – مريضاً طريح الفراش، فأضطرب لذلك أشد ما يكون الاضطراب، وعندما شاهدني أهرول في اتجاه الحريق، ما كان منه إلا أن قال لي: «يا محمد النار أكلت حسن ولذلك الساعة كم؟».

ومشهور عن العم حامد انه يجيد الرمل. وحدث ذات مرة أن تحداه العم على بدين وصديقاه الملك رحمة الله محمود- رئيس الادارة الاهلية في الفاشر____ وابراهيم الصول في معرفته بالرمل، وكنت اجلس معهم في منزل العم حامد. فطلبوا منه أن يخرج من الراكوبة التي يجلسون فيها، وسوف يقومون بإخفاء شيء ما، ويتحدونه أن يعرف ما هو ذلك الشيء، وأين موضعه. فخرج وذهب الى غرفته في جزء آخر من المنزل وأغلق من ورائه الباب، وأمرت ان اتبعه لأتحقق من اختفائه. وبعد ان تأكدت من اختفائه تماما، عدت الي المجلس. فاعطاني عمي على سيجارة واشار الي ان ادفنها في الركن الشمالي الغربي للراكوبة، ثم مسح كل اثر خلفته اقدامي الي ذلك الموضع. وارسلت في طلب العم حامد. وعندما عاد جلس على الأرض وبدأ في ضرب الرمل، مرة، ومرة اخرى، ثم بدا في الرمل مرة ثالثة، وأوشك الحاضرون على الضحك عليه اذ تصوروا انه قد فشل او كاد. لكن بعض ان صمت قليلا قال لهم:» انتم قمتم بدفن شيء ابيض طويل وهو في ذلك الركن! ثم التفت الي وقال لي بكل ثقة: احفر هنا «» فاخرجت السيجارة وكسب الرهان!. كيف عرف ذلك لا ادري، إنما رويت بأمانه ما رايته بأم عين دون زيادة او رتوش!! وحتى لا يتهمه احد بالشعوذة، أقول كان العم حامد بدين عالما جليلا، وشاعرا قديرا، خمّس بردة البصيري، وحجة في النحو، قام بتاليف كتاب أعرب فيه القرآن الكريم كاملا، وكان هو المأذون الأول في الفاشر، بالإضافة الي انه كان امام جامع تمباسي، وكان يعقد حلقات دراسية في منزله يؤمها الداني والقاصي، كبيرهم وصغيرهم.ولا غرو في ذلك فقد كانت والدته الشيخة كلتوم ابراهيم أخت الإمام عبد الماجد إبراهيم إمام السلطان على دينار، الذي تقدم ذكره، تدرس الرجال القرآن والتفسير، والفقه المالكي من وراء حجاب! وهي والدة الأخ غير الشقيق للعم حامد، الشيخ محمد الأمين كرار إمام الجامع الكبير في الفاشر، والذي نال درجة الأستاذية في الشريعة الإسلامية من الأزهر، في وقت كان الذين يحملونها يعدون على الأصابع في السودان.

مواصلة لموضوع الرياضة البدنية، نجد أن الأخ حمدون من أبناء مليط، الذي كان في

الدفعة التي تلينا، قد انتقم للأخ موسى الحاج من ذلك النابض «الياي» اللعين. وحمدون هذا شاب قوي البنية، مفتول العضلات، ويتمتع بجسم رياضي متناسق، وكان يجيد الحركات الرياضية على الحصان الخشبي إجادة تامة، وفي ذات يوم قفز عالياً وضرب برجليه على الياي فكسره فصار من ذلك اليوم يعرف في المدرسة «بحمدون الذي كسر الياي».

وكانت مباني المدرسة الجديدة تسير على قدم وساق في تلك الآونة من قبل المقاول العم «آدم نم»، وبدأنا الانتقال التدريجي اليها قبل أن تكتمل نهائياً، وفي يوم من أيام الجمعة وأنا أنوي العودة الى الداخلية بعد قضاء إجازة نهاية الأسبوع مع والدتي وأخوتي، ذهبت لوداع العم على بدين في داره، وصادف ذلك وجود أحد سائقي السيارات «اللواري» الذين يعملون في نقل مواد البناء الى موقع إنشاء المدرسة، وهو يسكن قريباً من الداخلية، فطلب منه العم على أن يأخذني بسيارته الى هناك، ولكن يبدو أن السائق لم يكن شخصاً يعتمد عليه كثيراً. فبعد أن وصل الي منزله، نزل، وطلب من مساعده «عبد الكريم» أن يوصلني الى الداخلية، وفي أول مرة تدلف السيارة نحو اليسار، اصطدمت بجدار أحد المنازل وطرحته أرضاً، وخرج أصحاب المنزل، وتجمع الصغار والكبار وساد الهرج والمرج، وكل واحد يريد أن يعرف كيف حدث ذلك؟ وهل هناك ضحايا؟ على آخر ذلك من أسئلة الفضوليين، ونزلت من السيارة، ولم أشعر بشيء، وبعد لحظة نظرت الى أسفل، فإذا بي أرى الدم يملأ جلبابي، فقد أصبت بجرح فوق الحاجب الأيسر ترك ندبة لا زال أثرها باقياً. ولحسن الحظ كنا قريبين من مستشفى المدينة، فصحبني بعض ذوي الخير لتلقي العلاج، وبدأ الممرض في نظافة الجرح دون أن يسألني عن السبب، وصدفة سألني أحد الحاضرين عن الشيء الذي جرحني، فأخبرته ببراءة أنني جرحت في حادث تصادم، وما كان من الممرض عند سماعه ذلك إلا أن تركني قائلاً: «إذا لا يمكنني الآن أن أعالجك، لأن هذه حادثة جنائية ولابد لك من الذهاب الي مركز الشرطة وإحضار بيان خاص بذلك «أورنيك»! وكان وقع ذلك قاسياً على، فالدم بدأ ينزف أكثر بعد إزالة ما تجمد منه أثناء التنظيف، ومركز الشرطة يبعد بحوالي كيلومتر ونصف من المستشفى، وليست هناك سيارة تأخذني الى هناك. وعندما رأي بعض ذوي الخير حيرتي تلك، توسلوا للممرض أن يغض النظر عن هذا الإجراء الروتيني، ويضمد

جراحي، ولحسن حظي لم يخيب ظنهم وأكمل علاجي، ورجعت الى الداخلية وأنا ألف شريطاً أبيض حول رأسي.

وكان انتقالنا في وقت ما من عام ١٩٥٧م الي مباني المدرسة الجديدة يمثل نقطة تحول كبيرة في حياتنا، فأصبحت لنا ولأول مرة فصولاً جميلة واسعة، وعنابر فسيحة، وساحات وميادين للعب كرة القدم وكرة السلة والطائرة، وصرنا نقضي كل الوقت من الصباح حتى المساء في رحاب المدرسة، وبين ردهات الداخلية في التحصيل واللعب والأنس والسمر.

وكأنني قد أردت أن ألبس ثوباً قشيباً يليق بهذا التحول الجديد، فجئت الى المدرسة ولدي عدد لا يستهان به من القمصان المزركشة والأردية الملونة. ولقد يسر لي اقتناء ذلك ما قمت به من الاتجار في مشروب «الليمونادة»، أنا والأخ على عبد الرحمن، والأخ إبراهيم معروف في السوق أثناء الإجازة السنوية. فكنا نقوم بشراء هذا المشروب من بعض التجار الاغاريق الذين يديرون معاملاً خاصة بذلك، مثل «مماكوس» «وبترو» و «فاسيلي قدوم الحوت».

لم تعرف مدينة الفاشر الكهرباء في ذلك الوقت، وليس في مقدورنا اقتناء الثلاجات التي تعمل بالجاز «الكيروسين»، لذا كنا نقوم بوضع الزجاج في أوان من الفخار، ونحيطها بنوع من الخيش، ونرش الخيش بالماء، وعندما يهب الهواء يبرد الماء الراشح على الخيش الذي يبرد بدوره الأواني الفخارية فتبرد زجاجات «الليمونادة».

وكان لقرب دكان خالي عبد الرحمن والعم معروف شايب – رحمهما الله – من مكان بيع الدخن والذرة «دخولية العيش» أكبر الأثر في نجاح تجارتنا المتواضعة تلك. فكان سكان الضواحي والقرى المجاورة يفدون الي «الدخولية» صباحاً، وجمالهم محملة بجوالات الدخن والذرة، وينشغلون طيلة يومهم في البيع والشراء تحت وهج الشمس، حتى إذا ما فرغوا من ذلك، وتسلموا نقودهم، خرجوا من «الدخولية» ونكون نحن أول من يشاهدون، جالسين على صناديق الشاي الفارغة أمام الدكان، وأمامنا الجرار المليئة «بالليمونادة» الملونة الجذابة، فيقبلون علينا فرحين شرهين كي يطفئوا ظمأهم ويرووا غليلهم.

ومن الذكريات غير الحميدة التي أتذكرها في هذا الشأن، هو أننا قمنا في أكثر من مرة بابتزاز الخواجة فاسيلي دون وجه حق! فكنا في كل مرة نفتح زجاجة ما بطريقة متقنة، لا يبدو معها قط أثر الفتح، ونختار حشرة قد تكون ذبابة، أو نملة ندخلها بعد قتلها في

المشروب، ثم نحسن إغلاق الزجاجة ونأخذها الي الخواجة ونحن ثائرين ثورة عارمة ومهددين برفع الأمر الي السلطات الصحية، لأن هذه المشروبات ملوثة، ويشير الينا الخواجة بالهدوء ويطلب منا في ترج واضح أن نصمت أو نغض من أصواتنا قليلاً ويأخذ تلك الزجاجة على عجل، ويقوم بإخفائها تحت تخشيبة الدكان، ويأمر أحد العاملين معه أن يستبدلها لنا بدستة أو نصف دستة، فالخواجة لا يريد من السلطات الصحية أن تغلق معمله،أو تغرمه مبلغاً كبيراً من المال- حين كانت هنالك سلطات صحية مهابة!- وتكون النتيجة ضربة تجارية رابحة لنا، وما علمنا أنها ضربة قاضية في أخلاقنا، ما كان ينبغي لنا القيام بها، ولكنه جهل الطفولة، والطمع الذي يورد الناس المهالك.

كانت فرصتنا السانحة هي يوم الأحد من كل أسبوع، حين يغلق كل الأغاريق معاملهم ودكاكينهم، وهي الوحيدة التي تتولى صناعة وبيع المشروبات الباردة في المدينة، ففي أيام الآحاد يعتمد علينا بالإضافة الي رواد «الدخولية»، عامة التجار في إكرام ضيوفهم، أو في التخفيف عن وطأة الحر، إذا أنهم في باقي الأيام يفضلونها «مثلجة» من عند الخواجات. لذلك كان مساء السبت هو مساء العمل، نحاول بقدر المستطاع أن لا نترك زجاجة فارغة ولابد من ملئها أولاً بأول، وتتكدس الأواني الفخارية والصناديق بالزجاج، وقد نستعين بشيء من مشروب الكولا كنوع من التغيير.
وكنا نربح في الدستة الواحدة ثمانية قروش، وهو مبلغ محترم دون شك، وعند انتهاء الإجازة، كنت قد جمعت حصيلة من المال تزيد على الخمسة جنيهات، وأضفت الي ذلك مبلغاً آخر من المال جمعته من تجارة مسائية على «طبلية» قرب المنزل، في الشارع الكبير، قوامها الحلوى والكبريت والصابون والجاز. ورغم أن الوالدة كانت تحرص دائماً على ألا تصرف قرشاً إلا في موضعه المناسب والضروري، نظراً لقلة عائد تجارتها، وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقها، إلا أن عزتها بالنفس لم تدعها تسألني يوماً عن المبلغ الذي أدخره، أو تسألني لماذا أشتري هذا أو ذاك، فكانت لا تتدخل قط في أموري المادية الخاصة، وتترك لي مطلق الحرية في التصرف في نقودي كيفما شئت.

ومكنني كل ذلك من الصرف بسخاء على مستلزماتي المدرسية. وساعدتني هذه الوفرة في الملابس في ارتداء ملابس نظيفة طيلة أيام الأسبوع، في المدرسة والداخلية، الى درجة

أن اختارتني إدارة المدرسة «كأنظف تلميذ». ونتيجة لذلك أوكلت الي مهمة الإشراف على نظافة المدرسة، وهو الأمر الذي جر على الكثير من المشاكل والمصائب التي كنت في غنى عنها. ولم يكن الأمر محبباً الى نفسي، وكنت أقوم به على مضض، وكان يتمثل في أن يبدأ كل طلبة المدرسة قبل بدء الحصة الأولى في جولة حول المدرسة لالتقاط الأوساخ والأوراق من الفناء، وعلى أن أسير من خلفهم حاملاً ورقة وقلماً أدون أسم، كل من لا يؤدي واجبه على الوجه المطلوب، ثم أقوم برفع أسمه الى الأستاذ المشرف حتى ينال عقابه. وأذكر ذات مرة أنني كتبت أسم الأخ أحمد عبد الوهاب، وكان مشهوراً بسرعة غضبه وانفعاله السريع، فأنقض على ركلاً وضرباً، ومزق الورقة ونعتني بالجاسوسية والتجسس على الطلبة.

وألقت على إدارة المدرسة عبئاً آخر غير النظافة، وهو أكبر وأثقل. فلقد كنت ضمن أربعة طلبة اختارتهم الإدارة لرئاسة الداخليات، ولم تكن هناك مسميات خاصة بالداخليات، بل سميت على أسماء رؤسائها، فكانت هناك داخلية كنجوم، وداخلية بريمة، وداخلية على محمدين، وداخلية بدين. ولكم عانيت كثيراً من مشاكل الطلبة الذين وجدوا أنفسهم – وأنا ضمنهم – داخل حياة مقيدة غير تلك التي ألفوها، حياة فرضت عليهم نظماً وقوانين لم تجد عند الكثيرين الاستحسان والرضا، فكانوا كثيري الشغب والاحتجاج. وكما لحقني الاعتداء في الإشراف على النظافة، لحقني كذلك في الإشراف على الداخلية، حيث تهجم على ذات مرة الأخ محمد آدم «هرمز».

وكان لكل منا في الداخلية هوايته الخاصة، التي يمارسها ويستمتع بها، ولكن أغرب تلك الهوايات هي هواية الأخ محمد أحمد المشهور بـ «ود نمو». فلقد كانت هوايته المفضلة هي الأكل، فكم كان يستلذ للطعام الذي يتناول منه كفايته، ثم لا يكتفي بذلك، بل كان يحتفظ بـ «كورة» خاصة يملؤها بالأكل عقب كل وجبة، وبعد أن تكون معدته قد امتلأت بالطعام ولا مجال بها للمزيد، فهو لا يريد قضاء الوقت بين الوجبات بلا طعام، فكان يتزود لأن في اعتقاده أن خير الزاد الطعام! وكنا دائماً نعرف مواعيد قرب الوجبات من «ود نمو» هذا فهو يتحرك نحو صالة الطعام – قبل وقت كافٍ من قرع الجرس الذي تفتح بمقتضاه الأبواب، حتى يكون أول الداخلين وآخر الخارجين بالطبع، ويتراقص وهو في طريقه الي صالة الطعام ذات اليمين وذات اليسار على إيقاع ضربات خفيفة متناسقة يوقعها على «كورته» تعبيراً عن سروره البالغ ونشوته الفائقة بقرب موعد الطعام ناهيك عن الطعام نفسه. وكان الطلبة يتندرون عليه في ظرف وخفة، وهو شخص في منتهى الطيبة، يتقبل كل ذلك بصدر رحب وروح رياضية عالية، ووصفه أحد الظرفاء ذات مرة بقوله «ود نمو هاج وماج وأبتلع العدس» فصارت قولته تلك مثلاً.

وأذكر أننا خرجنا لأول مرة في هذه المرحلة المتوسطة في رحلة على شكل معسكر، الي قرية الطينة بالقرب من «طويلة» غربي مدينة الفاشر، حيث عسكرنا بها عدة أيام، وكانت تلك فرصة سانحة لنا كي نتدرب على أشياء كثيرة، منها إعداد الطعام والحياة في ظروف مغايرة لحياة المدينة، الي جانب اشتراكنا في إدارة ونظافة المعسكر.
وكانت الليالي ممتعة لما تقدم فيها من برامج ترفيهية متنوعة. ومن اللعبات التي ارتحنا لها كثيراً لعبة قوامها ورق اللعب «الكتشينة» لكن كانت الكروت تحمل أحرفاً إنجليزية بدلاً عن الأرقام، بمعدل كرت واحد لكل حرف، وعند تفريق الأوراق على المشتركين في اللعبة ان يحاول كل واحد منهم تكوين كلمة إنجليزية مما لديه من أوراق، ويفوز في النهاية الذي يكوّن أكثر الكلمات، أو الذي يتخلص من كل ما لديه من أوراق. وقد أحضر هذه اللعبة التعليمية الأستاذ مصطفى عابدين الذي كان ضمن من رافقنا من الأساتذة. ولكم ان تتصوروا اننا عسكرنا في هذه المنطقة الآمنة لمدة اسبوع دون خوف

او وجل او حراسة. ولو فعل الطلبة الآن ذلك لسقطوا صرعى إما بسلاح الجنجويد، او التورا بورا، او الحركات المسلحة، او الحكومة. فالأمر سيان اذ تعددت الأسباب والموت واحد! لان هذه المنطقة أصبحت منطقة كر وفر بين هؤلاء المقاتلين جميعا، ومسرحا ومرتعا لقتالهم! وقى الله سوداننا شر المحن والاحن.

ولا أدري ماذا كان سبب الجفوة بيني وبين الأخ عبد المولى كنجوم، الذي كان من أعز أصدقائي، فلقد كنا على غير وفاق أثناء هذا المعسكر، وكان الأخ عبد المولى هذا من المبرزين في اللغة العربية، والمغرمين بالتحدث بها دائماً، ولم يفته أن يستخدمها حتى أثناء تحرشه بي في هذه الرحلة. فبينما كنا نحن مجموعة نتجول داخل غابة قريبة من المعسكر، تخلف عنا الأخ عبد المولى وقطع بعضاً من فروع الأشجار، لاستعمالها كسلاح، وأقترب مني من الخلف وهو يقول بلسان عربي مبين : «يا أبن الأكرمين تمهل»! ولعمري كانت تلك أول مشاجرة تبتدرني بلغة عربية فصحى، فكل مشاجراتنا كانت تبدأ بالعامية السودانية: «أطلع معاي بره». ولقد تأخرت كما أراد الأخ عبد المولي، وكاد أن ينشب بيننا العراك لولا أن تدخل بعض الزملاء وعتبوا علينا، ولم نواصل السير إلا ونحن أصدقاء كما كنا دائماً . وكأن الأخ عبد المولي أراد أن يعتذر عن تحرشه بي في ذلك اليوم، ويدفع عربوناً جديداً لهذه الصداقة، فأهداني حذاءاً جميلاً «شبشب» من صنع بلدته زالنجي، أول ما عدنا الي الفاشر.

وللأخ عبد المولى قصة طريفة مع الأحذية، أو بتعبير أدق «المراكيب الجلدية»، ففي إحدى الإجازات أعد لنفسه في زالنجي عدداً من «مراكيب» جلد النمر وجلد الأصلة، وعدداً من «الشباشب» استعدادا للعام الدراسي الجديد، وخشي على هذه المقتنيات الغالية من أن تسرق أثناء الرحلة بالسيارة من زالنجي الى الفاشر، وبعد تفكير تفتقت عبقريته عن خطة بارعة يحفظ بها أحذيته عن السرقة، فجاء بصندوقين من الكرتون ووضع فردة حذاء من كل نوع في صندوق، وكان هدفه من وراء ذلك هو تفويت الفرصة على السارق، الذي سوف لن يسرق الصندوق عندما يجد أن كل الأحذية ما هي إلا «فرد»، ولا يمكن أن يستفيد منها. وقام بوضع كل صندوق في ركن من السيارة، ونام قرير العين، وما درى الأخ عبد المولى أن السارق كحاطب ليل، لا يجد وقتاً لكي يفرق بين الغث والسمين، وعندما

وصل الى الفاشر أنزل الصندوق الأول وبحث عن الثاني ولكنه لم يجده، ولم يسرقه سارق بل أتضح أن الوثاق الذي يشده الي السيارة قد أنفرط عقده، ووقع الصندوق أثناء تأرجح السيارة ولم يحس به احد ! وفقد الأخ عبد المولى بهجة التبختر بتلك الأحذية بين ردهات الفصول والداخليات.

لقد انقطعت صلتي بالأخ عبد المولى منذ أن تخرجنا من المدرسة الوسطى في آخر الخمسينات، وأعتقد أننا تلاقينا مرة واحدة فقط بعد ذلك في أوائل الستينات، وتفرقت بنا السبل، وسار كل منا في طريق، يكاد لا يعرف أو يسمع عن الآخر شيئاً. وبعد مضي عشرين عاماً، وفي ذات ليلة من شتاء عام ١٩٨٠م، وبينما أنا جالس في سكني بحي «كيفتزمور» الهادىء بمدينة هامبورج بألمانيا الغربية، وقد قاربت الساعة التاسعة ليلاً، رن جرس الهاتف، وجاء الصوت من الطرف الثاني «هلوا» وبعد التحية سألني أن كنت لازلت أتذكر هذا الصوت، وكانت إجابتي بالنفي، ويالها من مفاجأة، فلقد كان على الطرف الآخر الأخ الصديق عبد المولى، وفي ألمانيا، لكن في مدينة اخرى هي «مونستر» حيث يستقر! وكان السؤال الحار عن الحال والأحوال، وتم سريعاً ترتيب لقاء في هامبورج. وقام دكتور عبد المولى وزوجته الألمانية الفاضلة «قابي»بزيارتنا في هامبورج، وأمضيا معنا بعض الأيام. وكان لقاءاً رائعاً جاء بعد فراق كاد أن يبلغ ربع قرن من الزمان، أعدنا واجتررنا فيه ذكريات الماضي البعيد، ثم افترقنا من جديد، اذ اخذ هو زوجته الي محطة القطار، وأخذت أنا زوجتي الي مستشفى هايدلبيرج، حيث رزقنا في نفس ذلك اليوم بالابن ياسر. وغادرت بعدها ألمانيا الى السودان فالسعودية، وترك هو ألمانيا وأستقر في السويد، له كل التحيات.

******

أعود مرة اخرى لكي أحدث القارئ الكريم عن الأستاذ عوض طلحة أول مدير لمدرسة الفاشر الأميرية المتوسطة، والذي مر ذكره من قبل في حالة سلبية. وهذه شهادة أسجلها للتاريخ، فلقد كان الأستاذ عوض مثالاً نادراً للشهامة والكرم والمروءة والتربية وكل الخصال الحميدة، وكان أكثر من مجرد مدير مدرسة، وأكثر من مرب، وكان بمثابة الأب لكل واحد منا، إذ كان يسهر على راحتنا ليلاً ونهاراً. واذكر أن اللصوص قد أكثروا من زيارة الداخلية ليلاً في وقت من الأوقات، مما اضطرنا الي الاحتفاظ بالعصي الغليظة،

والتربص بهم. وفي ذات ليلة صحونا على وقع أقدام شخص في ممرات الداخلية بعد أن أوينا الي مضاجعنا بوقت طويل وقد اليل الليل، فلم نشك قط في أنه اللص أو «الحرامي» فقمنا شلة من الطلبة وحملنا أسلحتنا وخرجنا الى فناء الداخلية نريد الفتك به أو على أقل تقدير إبعاده عنا. ولكم هالنا إذ وجدنا أن الذي يتجول هناك هو الأستاذ عوض طلحة الذي يحمل عصا أكبر من عصينا تلك، ويقوم بالحراسة على الداخلية والصغار نيام، ولم يشأ أن يكون كالسلطان الذي دخلت عليه عجوز تشكو اليه لصوصاً سرقوا مواشيها ليلاً بينما كانت نائمة، فقال لها السلطان موبخاً: «كان ينبغي عليك أن تسهري على مواشيك لا أن تنامي»، فأجابت العجوز: «ظننتك أنت الساهر يا سيدي فنمت !».

كان كثير من الطلبة لا يستطيع سداد ما عليهم من مصاريف مدرسية في أوانها لضيق ذات اليد وعسر ذويهم وبعدهم عنهم، وكانت العادة المتبعة في المدرسة القريبة منا، «الفاشر الأهلية»، أن يطرد الطالب ولا يسمح له بالدخول مرة اخرى ما لم يسدد ما عليه من مصاريف. ومن الطرائف المحزنة والمضحكة في آن واحد ما حدث لأحد الطلاب في المدرسة الأهلية القريبة منا كما ترويه الروايات، إذ أوقفه الأستاذ أمام أقرانه وسأله في استخفاف وازدراء: «وماذا نفعل بك يا أبا القاسم وأنت لم تسدد المصاريف حتى الآن؟»، فأراد المسكين أن يحفظ ما تبقى له من ماء وجهه أمام زملائه، فقال للأستاذ «إن لم أتمكن من سدادها حتى صباح الأحد، فسوف أضطر للاستقالة من المدرسة». ولكن ذلك الأستاذ القاسي رد عليه: «لا نحن نهون عليك أمر الاستقالة ولا ندعك تضطر لذلك، بل سنقوم بطردك من المدرسة»!.

وقلما كان الأستاذ عوض طلحة يلجأ الي طرد من أخفق في سداد ما عليه من المصاريف، إلا فيما ندر، بل على النقيض من ذلك، فعندما يتأكد من أن الطالب فعلاً فقير ولا يملك ذووه المال، يعلم أن هذا الطالب لا بد وأنه يعاني من ضيق وحرمان حتى في حياته الخاصة في المدرسة، فيقوم بإرساله الي دكان الخواجة «مماكوس» بوريقة صغيرة يعطى بموجبها الطالب ما لذ وطاب من أنواع البسكويت والحلوى والعصير على حسابه الخاص حتى يرفع من معنوياته ولا يجعله يتذوق مرارة الحرمان. والأستاذ عوض طلحة – مع الأسف – أحد أساتذتي القلائل الذين لم أقابلهم قط بعد نهاية المرحلة المتوسطة، أو أسمع عنه أي شيء، له كل الحب والتقدير حيثما كان فلقد كان نعم الأستاذ وخير المربين.

******

وكنا نمضي وقتاً ممتعاً في الداخلية بين اللعب والسمر والاستذكار، وكلما أتذكر الأخ الرشيد المشهور «بأبو الرشُد» يتملكني الضحك. فلقد كان شخصية ممتعة بحق، ويتكلف الحزم والوقار في كل أموره صغيرها وكبيرها، وتراه متجهما بلا سبب، ويأخذ كل شيء مأخذ الجد. وكانت لديه فكرة سيئة عن أبناء المدن، فهو يعتبرهم أقل قوة في الأجسام والشجاعة من أبناء القرى والأرياف، وهم في نظره «مدللون» ولا يقدرون على الشدائد. لذلك كان كثير السخرية والاستخفاف والتحرش بهم، فهو يتحداهم في كل شيء يحتاج الى إظهار قوة وشجاعة، وكان يكثر التحدي والاستفزاز بصورة خاصة بالأخ الصديق ميرغني الخليفة بابكر. ولا أدري لماذا ميرغني بالذات، ولعله يمثل في نظر الأخ الرشيد المثال الصادق لأبناء المدن، فالأخ ميرغني من أبناء مدينة الفاشر، وسيم المحيّا، جم الأدب وفي وداعة الطفل، وآية في التهذيب. وشخص يتمتع بكل هذه الصفات لا يقوى على الشدائد في حكم الأخ الرشيد، وكان الأخ رشيد يتحداه دائما في ان يصارعه، ولكن الأخ ميرغني يرده رداً مهذباً في كل مرة ويصرفه عنه. وذات مرة أكثر الرشيد الإصرار والتحدي طلباً في مصارعة الأخ ميرغني، وكان التحدي مصحوبا بالكثير من الاستفزاز والغمز واللمز. وكنا ثلاثة فقط، هما الاثنان وشخصي، في الفناء الخلفي لداخلية «كنجوم» وبالقرب من «المزيرة». وقبل ميرغني أخيراً التحدي على مضض، وتشابكا بالأيدي وتمايلا يمنة ويسري، وإذا بالأخ ميرغني يطيح بالرشيد أرضاً كالجوال، ووقع الرشيد منبطحاً على بطنه وقد طارت كل «فردة» من حذائه في جهة، وعلق التراب والغبار بجلبابه ووجهه، وكان شكله مزرياً ومضحكاً في نفس الوقت! وأذكر أن أول شيء فعله هو أن قدم نحوي وقال لي: «لا تخبر أحداً أن ميرغني قد صرعني»! ولكن خبراً كهذا لا يمكن السكوت عليه بأي حال من الأحوال، فهو أشبه بما يسمى في الحاضر بالخبطة أو السبق الصحفي، فأنا وكالة الأنباء، وما هي إلا أيام قلائل وذاع الخبر وأنتشر وتناقله الزملاء وتقلص الأخ «أبو الرشد» الى حجمه الطبيعي وترك تحدي واستفزاز أبناء المدن.

xxxxxx

ومن المواقف المحرجة التي أتذكرها وأنا في هذه الداخلية ما حدث لي ذات مرة مع الأخ صدّيق الجدوبة. فقد تبين لنا أن حافظة الشاي «الترمس» هي من أكثر الأشياء المرغوبة في الداخلية، فالشاي هو «الكيف» الوحيد المسموح به، وهو لا يكون متوفراً إلا

أثناء الوجبات، وعدا ذلك فهو القمر الذي يفتقد في الليلة الظلماء، خاصة عندما تطول المذاكرة ويمتد الليل، ويدب النعاس في الأجفان، فيصبح وجود هذا السائل السحري أمراً جوهرياً. وبإجراء عملية حسابية بسيطة، وجدنا مع الأخ صّد يق أننا يمكن أن نكسب الضعف إذا قمنا بشراء حافظة شاي وأنزلناها في اليانصيب عن طريق «الكرتلة». وبعد أن أكملنا بيع «النمر» وأصبحت تلك الحافظة الحمراء في انتظار سعيد الحظ، جلست مع الأخ صديق على سريره وسط العنبر الذي يقطنه صديق في داخلية بريمة، وأحاط بنا الطلاب إحاطة السوار بالمعصم، ووقف بعضهم على النوافذ وكل واحد يتطلع أن تكون الحافظة من نصيبه. وكنا قد قطعنا «نمرة» كذلك مع الأخ صديق، وذلك أمر لا غضاضة فيه في عرف اليانصيب. ولكن لسوء حظنا عندما قمنا بفتح «الكرتلة» كانت «النمرة» الرابحة هي صورة لثلاث قطع من الطماطم، وكنت مع الأخ صديق- للاسف- أصحاب هذه «النمرة»! عند ذلك صاح الجميع «كرتلة مزيفة! كرتلة مزيفة !» وأرادوا تحطيم الحافظة والبطش بنا، وساد الهرج والمرج، وتعالت الأصوات وكثر اللغط والضجيج، وتدخل على أثر ذلك ضابط الداخلية الأستاذ مصطفى زكي «جاينيس»، وكان من جراء ذلك أن حرمت إدارة المدرسة على الطلبة إجراء أي نوع من أنواع اليانصيب، أما تلك الحافظة الحمراء فلا أدري أين استقرت.

ولا أنسى أستاذي الجليل والمربي الفاضل الشيخ بشير مالك معلم الدين بالمدرسة وأمام الزاوية بالفاشر، ولا يمكن لشخص ما مهما أوتي من بلاغة أن يصف أخلاق هذا الشيخ الفاضل. رجل غاية في التقوى والورع وحسن الأخلاق، يحبه كل سكان المدينة صغيرهم وكبيرهم ويجد عندهم كل تقدير واحترام، وكان كثير البكاء من خشية الله؛ وقد نقل الينا من مدرسة الفاشر الاهلية. ولقد أستغل فيه بعض الطلبة الأشرار هذا الجانب فيذكرون له أثناء الدرس أن أحد السائقين سب الدين، أو يسألونه عن حكم من استهزأ ببعض الأحاديث النبوية، أو يقومون بكتابة بيت أو أبيات من الشعر الغزلي الفاضح على السبورة فيستغفر مولانا الشيخ بشير ويضع أصابعه في أذنيه حتى لا يستمع الي بقية حديثهم ويهرول الي خارج الفصل، فيجد هؤلاء الفرصة لقضاء الحصة في لعب وضحك. ويذكر أنه في ذات مرة أغرى بعض الطلبة الأشرار من مدرسة الفاشر الأهلية امرأة ساقطة متبرجة من الشارع أن تتعرض له، فبينما كان عائداً الى منزله – وهو

لا يمشي إلا ناظراً الي الأرض ولسانه يلهج دوماً بالاستغفار وبذكر الله – قربت منه تلك المرأة وهي تبادره بالحديث، وهو صامت لا يلتفت اليها، فدنت منه أكثر، فأسرع هو الخطى، وإذا بها تمسك بطرف عباءته، عند ذلك خلع لها العباءة وولى هارباً، وهي تناديه لكي تعيد له العباءة ولكنه لم يقربها بعد ذلك قط بعد أن دنستها تلك المرأة!!
ولقد كان يناديني اليه مرة كل شهر أو شهرين ويتحين ألا يراه أحد، ويأخذني معه الى مكتبه، ويغلق النوافذ والباب، ويأمرني أن أدنو منه كثيراً، ثم يدخل يده في درج مكتبه ويخرج مبلغاً من المال يقارب الجنيه، وهو يردد أنه لابد لي من أخذ ذلك المبلغ قائلا: «انا ادري انك يتيم يا بني، لذا أنت محروم، فلعل هذا يعوضك ولو القليل عن فقدان حنان الأب» ويحذرني أن أخبر أحداً بذلك، ويتبع ذلك بدعاء كريم سائلاً الله العلى القدير أن يبارك في شخصي وأن يهديني الي سواء السبيل. يا الهي الا زال بيننا اليوم أمثال هذا الشيخ الورع، مم من يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق أم أصبحوا من المنقرضين؟؟!! فقد كان فعلاً من الذين لا تعلم يسراهم بما تصدقت به يمناهم، واستميح أستاذي الجليل العذر إن أفشيت سره هذا الذي ظللت أكتمه حقبة طويلة من الزمن، ، إذ أن الوثائق الرسمية أيضاً تصبح قابلة للنشر بعد ثلاثين عاماً، وها قد مضي عليها ما يربو على ذلك.
ولقد فقدت مدينة الفاشر برحيله الى موطنه في فداسي بالجزيرة، بعد ان تقدمت به السن، رجلاً قل أن يجود الزمان بمثله، حيث أدركته المنية هنالك. الا رحم الله الشيخ بشير مالك رحمة واسعة، وأحسن اليه بقدر ما قدم من عمل صالح.

ومن الذكريات الاليمة التي لا زالت عالقة بالذهن، ما كان يقوم به بعض الأشرار من الطلبة نحو الصغار المستضعفين من زملائهم، فكانوا يلجئون الى ضربهم وإيذائهم تارة قوة واقتدارا، وتارة بالحيلة. ومن تلك الحيل أذكر أننا كنا جالسين ذات ليلة في فناء المدرسة ذات ليلة نتجاذب أطراف الحديث، فقدم نحونا أحد أفراد هذه العصابة،(ع.أ.ر) وأخبر أحدنا، هو الأخ الفاتح عبد الصمد من أبناء نيالا، بأن قريباً له يسأل عنه في «العنبر رقم كذا». وأسرع المسكين الى المكان المحدد، الذي لم يكن بعيداً عن مكان جلوسنا، وما أن دخل الفصل – الذي كان يستغل للسكن قبل إكمال مباني الداخلية – حتى أطفئت الأنوار، وأغلقت النوافذ والأبواب وانهالوا ضرباً وركلاً على الضحية،

وهو يصرخ ويطلب النجدة، ولكن لم يكن منا من يجرؤ على الاقتراب فقد يكون نصيبه من العقاب أسوأ من ذلك.

أما المشرف على الداخلية فغالباً لا يكون موجوداً في الأمسيات، وبالطبع كانوا يتوعدون الضحية ويهددونها بأن العقاب سيكون أفظع في حالة أخبار المشرف بذلك، بل بلغت النذالة والوقاحة ببعض أفراد هذه العصابة، أنهم كانوا يأخذون» أتاوات» منتظمة من هذه الطبقة الضعيفة، وأن رفض هؤلاء الدفع فإنهم يهددونهم بالانتقام ليس فقط في الداخلية وإنما في أثناء عودتهم الى نيالا لقضاء الإجازة، وكانوا يستخدمون التعبير الانجليزي» By the side of the road « اي سيكون لنا لقاء على جانب الطريق ، فيذعن هؤلاء ويرضخون، ويسلمون ما لديهم من نقود وحلوى وكعك حتى يأمنوا بطش أفراد العصابة! ومن المؤسف أن المشرف على الداخلية، وكذلك إدارة المدرسة، لم يكونا يدريان بهذا الإرهاب الذي يتعرض له بعض الطلبة ليلاً، وقد ادى ذلك الى أن كثيرا من الطلبة النابغين أخفقوا في دراستهم لانعدام الأمن في الداخلية ليلا، إذ كان الليل يشكل لهم كابوساً رهيباً يخشونه كل الخشية! أما أفراد تلك العصابة، التي على راسها طالب يلقب باسم» كوكوا» فلم يتمكن أحد منهم من اجتياز المرحلة المتوسطة، ولا أدري هل واصلوا حياة الإجرام تلك أم اهتدوا الي جادة الطريق؟؟

******

وكان الأستاذ حميدة حسن أحمد، معلم اللغة العربية، يتحفنا بكثير من النوادر العربية والألغاز التي كنا نمضي وقتاً طويلاً في فك طلاسمها مثال ذلك بيت الشعر المشهور:

قرعت الباب حتى كلّ متني ** فلما كلّ متني كلـمـتني
قالت لي يا إسماعيل صبرا ** فقلت يا أسماء عيل صبري

أو ما هي الحكمة في كسر الميم في قولهم: «إن محمداً كريم»، وغيرها من الشوارد. وكان أداء الأستاذ حميدة رائعاً، وشخصيته قوية، ومحترماً من الجميع. وكان يضطر في بعض الأوقات الى الدخول للفصل ومحاولة تدريسنا اللغة الإنجليزية عندما يتغيب المدير، ويأتي معه الأستاذ عبد الحميد – الذي غادرنا بعد ذلك بمدة وجيزة وألتحق ضابطاً بالقوات المسلحة – ليستعينا معاً على هذه المادة التي لم تكن من تخصصهما،

وكانت للاستاذ حميدة طريقة مميزة في نطق كلمة « crow » أي غراب. مما حدا ببعض الطلبة أن يطلق عليه هذا الاسم بعد ذلك حتى أشتهر به. وكان قد خلف الأستاذ إبراهيم آدم الدين – الذي غادرنا وألتحق بالجامعة الأمريكية في بيروت – في الإشراف على الداخلية، ولكنه لم يكن أكرم من الأستاذ إبراهيم في السماح لنا بالخروج من الداخلية. ولكن ما لبث أن غادرنا كذلك الأستاذ حميدة وألتحق أيضاً بالجامعة الأميركية ببيروت، وتولى من بعده الأستاذ مصطفى ذكي المشهور بـ «جاينيس» (أي الصيني باللغة الإنجليزية) –من مدينة عطبرة- الأشراف على الداخلية. وكان شخصاً رزيناً هادئاً، لا يتحدث إلا همساً، وكان ساخراً لاذعاً، وأذكر أنه كلما كان يحدث مني تقصير في شؤون الداخلية التي أرأسها كان يخاطبني ساخراً: «أأنت حارس داخلية أم حارس مرمى؟»، وكنت أخرج في عهده يومياً من الداخلية، وذلك أمر لا يحلم به أحد، إذ كان الخروج مرة واحدة في الأسبوع معضلة، فما بالك به يومياً؟ ولكن لم يكن ذلك إيثاراً لي على الاخرين، فالضرورة هي التي اقتضت ذلك، إذ كان يستعين بي في إيصال «الراجعة»، وهو البيان اليومي الخاص بمقادير الطعام المطلوبة من المتعهد العم محمد فضيل. فنظراً لأنني كنت الوحيد من أبناء الفاشر الذي قبل في الداخلية، ولأن بقية الطلبة القادمين من خارج الفاشر لا يعرفون موقع دكان المتعهد، فإنه لم يكن هناك مناص من أن أحظى بشرف الخروج المتكرر، وكانت فرصة طيبة لتغيير جو الداخلية.

وتتلمذت في مدرسة الفاشر الأميرية بالإضافة الي ما تقدم من أساتذة، على أساتذة أجلاء أفاضل لا زلت أكن لهم كل تقدير واحترام، أذكر منهم الأستاذ الربيع علي أحمد حامد الذي كان معلماً للرياضيات والمشرف على «الطابور»، وكان حازماً وقوياً خاصة مع الطلبة الأشقياء الذين يرهبونه كثيراً، والأستاذ سليم أحمد سليم، وكذلك الأستاذ السنوسي أحمد حامد عم الأستاذ الربيع، وجميعهم من أبناء الفاشر. ولعل السبب في عدم وجود ذكريات خاصة لي مع هؤلاء هو سكنهم في المدينة بعيدين عن الداخلية، ولم تكن تجمعنا معهم سوى ساعات الدراسة على عكس بقية الأساتذة الذين نراهم طيلة النهار وجزءاً من الليل.

«عسي أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» صدق الله العظيم.

وانتقلنا الى السنة الرابعة في النصف الثاني من عام ١٩٥٨م وبدأت نغمة الامتحانات والمذاكرة والدخول الى المدارس الثانوية تصبح الشغل الشاغل لنا، ولقد كان استعدادنا للامتحان عظيماً وكنا لا نكتفي بالمذاكرة في الفصول والداخلية فقط، بل كنا نستفيد من إجازة نهاية الأسبوع كذلك في المذاكرة الجماعية مع الصديقين الأخ عبد الحميد والأخ مختار – رحمه الله – وكان ينضم الينا في أحيان كثيرة الأخ عبد الله معروف الذي يقل عنا بفصل أكاديمي كامل، وكان يسبب لنا الكثير من المتاعب والمشاكل، وكنا نذهب عادة في مساء كل خميس الى منزل والد الأخ إدريس عبد القادر الذي كان يعمل مساعداً طبياً، ويسكن في البيت الحكومي الملحق «بالشفخانة»، وإدريس هذا زميل الأخوين مختار وعبد الحميد بمدرسة الفاشر الأهلية. وتبدأ المذاكرة في حوالي الساعة التاسعة مساء ونستمر دون توقف حتى الساعات الأولى من صباح الجمعة أو الى شروق الشمس في بعض الأحيان. وكان المنزل يقع بالقرب من وادي الفاشر الكبير «تندلتي». فكنا نخرج من وقت لآخر لغسل اوجهنا وأيدينا وأرجلنا في الوادي بقصد تجديد النشاط، ولاستنشاق بعض الهواء النقي بعد أن نكون قد تشبعنا بهواء الغرفة الفاسد الذي يختلط فيه ثاني أكسيد الكربون من مصباح الجاز «الكيروسين» وبرائحة دخان السجائر. وكان الأخ عبد الله معروف الذي لا زال أمامه عام بكامله للتجهيز للامتحان، لا يأخذ المذاكرة مأخذ الجد، لذلك كان كثير اللهو ويسبب لنا الكثير من المضايقات. فأذكر بينما كنا ذات مرة منهمكين في المذاكرة بعد أن أنتصف الليل، وبعد أن أفنى كل أعواد الثقاب المتبقية في إشعار السجائر، قام فجاءه بإطفاء المصباح الوحيد الذي يضئ لنا، ولم يكن من الممكن أن نلجأ الي أي مكان بغية الحصول على عود ثقاب في ذلك الوقت المتاخر من الليل، وما كان أمامنا إلا اللجوء قسراً الى النوم بعد أن أضاع علينا صاحبنا ساعات ثمينة من المذاكرة.

وكان الواحد يغفو إغفاءة قصيرة كلما أشتد به النعاس، من أجل أن يرتاح قليلاً ثم يواصل القراءة، إلا أن الأخ عبد الله وبقية الزملاء لا يدعونه وحاله فيقومون بعمل «الصافوتة» وهي عبارة عن فتلة خيط أو شعر رقيقة تبرم جيداً ثم تدخل خلسة في أذن أو أنف النائم، فيهب منزعجاً ينفض أذنيه أو أنفه متوهماً أن حشرة لعينة قد استقرت

هناك. وذات مرة كان الأخ مختار - رحمه الله - نائماً، فما كان من الأخ عبد الله إلا أن صفعه صفعة قوية على خده ثم أستلقى بجانبه راقداً متظاهراً بالنوم. وقام مختار منزعجاً غاضباً لا يعلم من هو الذي صفعه، ولا يدري كيف يتصرف. ومع أن المصباح كان يضئ كل الغرفة الصغيرة، إلا أنه أخذ «بطارية» وأضاءها وهو يبحث عن كتبه وكراساته التي جمعها على عجل وخرج عائداً الى دارهم دون أن يقول شيئاً.

ومن الأشياء الطريفة التي أذكرها ضمن هذه المذاكرة الجماعية. هو أنني حضرت متأخراً ذات ليلة، وكان هناك في ركن من الغرفة صحن به شيء لم أتبينه جيداً. ولكني ما شككت في أن يكون طعاماً، فشكله يوحي بذلك ويبدو أنني كنت جائعاً، فاقترحت على الرفاق أن نتناول ذاك الطعام أولاً حتى لا يبرد، ولكنهم طلبوا مني أن أصبر قليلاً حتى نقرأ ساعة ثم نتناول الطعام. وبعد مضي الساعة أعدت اقتراحي مرة اخرى. وكانت الإجابة كسابقتها، وواصلنا المذاكرة وبالي مشغول بالطعام. وأخيراً قال الزملاء حسناً، لنتناول طعامنا الآن، وكنت أول من غسل يديه، وأحضر الصحن. وكانت خيبة أمل كبيرة بالنسبة لي، إذ كان الصحن مليئاً بالفحم الذي بدأ من الإضاءة الخافتة وكأنه لحم، وأنفجر الزملاء ضاحكين، وشعرت بقدر غير يسير من الحرج.

وجلسنا لامتحان الشهادة المتوسطة، أو الدخول الى المدارس الثانوية العليا في مارس ١٩٥٩م، وصادف قدوم الامتحان حلول شهر رمضان، ولقد وجب الصوم على بعضنا، ولكني كنت ضمن الذين لم يتوجب عليهم الصيام شرعاً، إلا أنني أصررت رغم ذلك على الصيام. وكان الامتحان يدوم ستة أيام، بمعدل مادة لكل يوم، وصمت خمسة أيام وفطرت في يوم امتحان الرياضيات - التي تعرف عند جمهور الطلبة «بالحساب فراق الحبايب»، وذلك حتى أكون أكثر تيقظاً ونشاطاً كما توهمت! ومن المفارقات العجيبة، هو أنني وجدت نفسي عند ظهور النتيجة ناجحاً في الخمس مواد التي جلست لها وأنا صائم، وأخفقت في مادة الرياضيات! ولعل الشعور بنوع من الذنب كان يصاحبني أثناء الإجابة على ورقة الرياضيات فانعكس ذلك على إجاباتي وجاءت النتيجة مخيبة، على الرغم من أن مستواي في الرياضيات لم يكن سيئاً.

أما عن الامتحان نفسه، فلا زلت أذكر كيف أن البيئة التي كنا نعيش فيها قادتني الى فهم مغلوط لأحد مواضيع الإنشاء، ولحسن الحظ كان الموضوع اختياريا وهو بعنوان

«فلم أعجبني»، هكذا وردت العبارة دون أي تشكيل. فقرأت الكلمة الأولي «فَلم» بفتح الفاء واللام، واحترت كثيراً في ما هو هذا الشيء الذي لم يعجبني، وعندما أعياني التفكير تركته مضطراً الى ما هو أصعب. وبعد الخروج من الفصل سألت أستاذ اللغة العربية مستغرباً كيف يطلب منا كتابة موضوع مبهم كهذا، وزال عجبي عندما أخبرني أن الكلمة الأولى تقرأ «فِلم» بكسر الفاء وتسكين اللام. وبالطبع لو جاء مثل هذا الموضوع الآن لمدارس مدينة الفاشر لما شق على الطلبة فهمه من أول وهلة، أما في زماننا فلم تكن مدينتنا تعرف الأفلام والسينمات.

ولقد أعجبت أشد الإعجاب بأداء الأستاذ الكبير المرحوم إبراهيم فزع ناظر مدرسة الفاشر الثانوية آنذاك، وهو يملي على مسامعنا الإملاء الإنجليزية التي رسخ مطلعها في الذهن حتى اليوم، وكانت تدور عن الامتحانات، وأنها كالأحلام المزعجة، على الرغم من أن المرء قد واجهها كثيرا وانتصر عليها.«Examinations are like awful dreams to me، although I have faced them so many times and conquered them.»

ولا أدري لماذا كان النحس دائماً يلازم الدفعة التي أكون فيها في الامتحان النهائي، فبينما لم يقبل منا أحد في مدرسة نيالا الأميرية المتوسطة قبل خمسة أعوام، كذلك لم يقبل منا هذه المرة في مدرسة الفاشر الثانوية سوى طالب واحد هو الأخ عبد الرحمن محمد محمود! والحق يقال فإن الأخ الصديق عبد الرحمن كان في غاية المثابرة والاجتهاد، ولا تمر عليه دقيقة إلا وهو يقرأ في كتاب أو يحفظ درساً. وفوق ذلك يبدو أنه كان يتمتع بموهبة موسيقية لا بأس بها، واليه يعود الفضل في تعليمي عزف الأغنية السودانية «الحبيب وين أنا قالوا لي سافر» أثناء ما كنا تلاميذ في المدرسة المزدوجة على قيثارة له صفراء وذات بقع سوداء.

وما أكثر ما سمع ثلاثتنا(مختار وعبد الحميد وشخصي- وكان احد الظرفاء يطلق علينا « the three musketeers » -أي الفرسان الثلاثة-) من التعليقات اللاذعة والساخرة على هذه الخيبة التي أصابتنا أو أصبناها، مما ضاعف من حزننا وشعورنا بالإحباط. ومن التعليقات الساخرة التي كانت من نصيب أحد زملائنا، من الذين جلسوا للامتحان «من منازلهم» ولم يحالفه الحظ، ما جاء على لسان أحد أفراد

الحي المعروفين بصراحتهم اللاذعة، والذي لا يعرف طريقاً للموارة أو التورية. فلقد سأل هذا الشخص ذلك الزميل الذي لم يوفق مثلنا إن كان قد سمع أسمه ضمن أسماء الناجحين التي أذيعت، فأجابه الزميل بأنه غير متأكد تماماً. لأن المذياع حدث فيه بعض التشويش في لحظة ما أثناء إذاعة أسماء الناجحين، ولعل أسمه قد ذكر أثناء ذلك ولم يسمعه. فضحك ذلك الشخص اللاذع وقال له عبارة كان يكثر من استعمالها «يا أخي دعك من هذا الكلام القايم دا » أي بمعني الذي لا أساس له من الصحة. فهل يعقل أن من بين آلاف الأسماء التي أذيعت لا يحدث التشويش إلا في أسمك أنت! وأسقط في يد زميلنا ولم يفتح الله عليه بكلمة. ولا انس الاخ حسين شمين الذي قال لنا بالحرف: « رميتو لينا الحيشان»!!

******

وبدأت إجازة تلك السنة تمر كئيبة ، ثقيلة وطأتها على النفس، نحاول قطع الوقت فيها بلعب الورق أو الجلوس الى العام القاص، أو الراوي محمد النور هارون، الذي له ملكة فريدة في سرد القصص، وكان مولعاً أو متخصصاً في سرد حكايات ونوادر السلطان على دينار بطريقة شيقة تشدنا اليه شداً، وترفه عنا قليلاً، وتنسينا مرارة واقعنا.وعلى كثرة ما سمعت منه من هذه النوادر لم اعد أتذكر سوى نادرتين او ثلاث. اذ يذكر العم محمد نور أن من عادات السلطان على دينار في المناسبات الدينية والأعياد أن يجمع الناس في مكان عام، ويخطب فيهم ويعظهم، ثم يتهددهم ويتوعدهم إن هم حادوا عن الطريق القويم أو خالفوا أوامره. وفي ذات يوم بعد أن أنتهى من خطبته النارية، أختتمها بقوله «أواضح لكم قولي هذا؟» فإذا بصوت يجيب «هذا كلام فارغ!!» فأكفهر وجه السلطان، وكشر عن أنيابه – وكان مهاباً من الجميع لبطشه وجبروته – وسأل «من هذا الحمار الذي يقول ذلك» فجاء الصوت مرة اخرى متحدياً «أنا أبو شنب»! ويحكى أن من المفارقات أن القائل لا شنب له. فأمر السلطان جنوده بالبحث فوراً عن أبي شنب هذا وإخراجه من وسط الجمع، وفي لحظة حنى كل شخص من طريري الشباب، ومن ذوي الاشناب الكثة رأسه الي أسفل، وبدأت عملية مسابقة مع الزمن في جز أو «نتف» شعر شنبه، وعندما أكمل الجنود البحث وسط الحاضرين لم يعثروا على أي شخص له شنب!!

ويحكي العم محمد النور في مرة اخرى أن مجلس السلطان كان يضم ذات يوم أحد

الدهاء الذي طمع في حصان جميل يملكه أحد المقربين من السلطان، وفكر في حيلة ينتزع بها ذاك الحصان الأصيل، فزعم للسلطان أمام صاحب الحصان أنه يستطيع أن يتنبأ بما في دخيلة هذا الشخص المعني. فأستغرب السلطان وصاحب الحصان، واستنكرا ذلك، ولكن الرجل أصر وتحدى، وعند ذلك قال له السلطان تأكد لو أنك فشلت في معرفة ما بداخل سريرة هذا الرجل فسوف آمر بقطع رأسك. فأجاب الرجل أنه يقبل ذلك، وسأل ماذا يكون نصيبه إن هو أفلح، فأجابه السلطان أن له الهدية التي يختارها، فقال: «أنا أختار الحصان»، فوافق السلطان، وخرج صاحب الحصان مع بعض أصحابه من المجلس، ليضمر شيئاً ثم يخبر به هؤلاء الأصحاب حتى يكونوا له شهود بينة ان كذب ذلك المتنبئ.

ثم عادوا الى مجلس السلطان مرة اخرى والرجل جالس بين يدي السلطان، وجلسوا من حوله ينتظرون أن يسخروا من هذا الكذاب الذي غامر برقبته. وعند ذلك أمره السلطان أن يكشف ما بداخل سريرة صاحب الحصان فأجاب «سيدي – الله ينصرك – أن هذا الرجل يكن لك في سريرته حباً خالصاً لا يخالجه أدنى شك، ولقد أفضى بذلك الي أصحابه هؤلاء فسلهم» وقبل أن يلتفت السلطان الى صاحب الحصان أو الى أصحابه، هب الرجل واقفاً وهو يردد :»قد صدق الرجل .. قد صدق الرجل.. وأستحق بذلك الحصان» ! وبالطبع لم يكلف نفسه سؤال أصحابه الذين أفشى لهم سره عن حقيقة ما قال الرجل، فلقد أزاح ذلك الرجل الداهية في لحظة خاطفة ومفاجئة، السيف من عنقه، ووضعه على عنق صاحب الحصان الذي كان سيكون جزاؤه وخيماً إن هو أنكر أنه في دخيلته لا يحب السلطان على دينار!

ولا تزال أسرة السلطان على دينار تتمتع بالمهابة والتقدير في مدينة الفاشر، وبخاصة الميارم (جمع ميرم وهو لقب يطلق على أخوات السلطان، وكانت أشهرهن الميرم تاجة) ويا ويل من يقع معهن في مشكلة! فأنهن يرينه نجوم الضحي حقا وليس مجازا !! ولقد رأيت بأم عيني المذلة التي لحقت بأحد السائقين في سوق الفاشر الكبير الذي اتهم بالإساءة الى السلطان على دينار، اذ اقسمن ان يدنسن ذلك الفم الذي فاه بذلك!!
يبدو أن السلطان على دينار كان يتحين الفرص للانتقام ولإذلال فئة من الناس، أمام الجمهور. فمن اجل إذلال الجزارين أتخذ من افتراس الأسد لمواشي امرأة مسكينة

اشتكت اليه ذريعة لإجبار الجزارين على إحضار ذلك الأسد، ليس مقتولاً بل موثقاً بالحبال، وذلك بسبب ما لديهم من مقدرة في مصارعة الثيران. وأمر أن يكون ذلك على مرأى ومشهد من الناس وقبل غروب شمس ذلك اليوم، وإن فشلوا فسوف تقطع رقابهم! وتذكر الروايات إنهم نجحوا في ذلك، وقبضوا على الأسد حياً وأبقوا على رقابهم.
وكان يجمع في بعض الأحيان كل رجالات الدين «الفقراء» عندما يحل الجفاف ويتأخر هطول الأمطار، ويقول لهم ما فائدة هذه المسابح الكبيرة واللحي المتدلية. إن لم تدعوا الله أن ينزل علينا الغيث غداً، وحذاري أن يتأخر الغيث عن هذا الميعاد! ويذكر الرواة أن الخوف يستبد ببعض هؤلاء البؤساء، فلا يجلسون على الأرض يدعون مع بقية زملائهم ويتضرعون، بل يتسلقون الأشجار حتى يكونوا قريبين من السماء، ويمكثون كذلك ساعات طويلة، وأكفهم مشرعة، وألسنتهم تلهج بالدعاء لرب العالمين.

ولم تمض الإجازة كلها كئيبة حزينة كما بدأت، فلقد حملت الينا الأنباء بشرى عظيمة بعد ظهور نتائج الشهادة بعدة أسابيع، إذ أذيعت أسماؤنا نحن الثلاثة ضمن الطلبة المقبولين، أو المرشحين للقبول بمعهد التربية بالدلنج. ولقد كانت فرحتي ثلاث فرحات في آن واحد، أولاً لأن مهنة التدريس كان لها بريق خاص في ذلك الوقت، ولها مكانة خاصة في المجتمع، والمعهد هو طريقي الى هذه المهنة المرموقة، وفوق ذلك لم يكن لدي تصور واضح عن الوظيفة التي يمكن أن أشغلها إن كنت قبلت في المدارس الثانوية لأن ذلك في حكم المجهول، وهذا أمر بالغ الأهمية، إذ أرتبط التعليم دوماً لدينا بالوظيفة، وهو أمر غير حميد مع الأسف.
والسبب الثاني لفرحتي هو أن هناك «معاينة» تتم لهذا الغرض وتعقد في عاصمة البلاد «الخرطوم»، وتلك فرصة نادرة لمشاهدة هذه العاصمة التي طالما سمعنا عنها واشتقنا لرؤيتها، إذ كانت محط أنظار وآمال الكثيرين من الإقليميين من أمثالنا كما يصفنا بذلك سكان العاصمة.
والفرحة الثالثة كان مردها المبلغ الذي سوف أحصل عليه بعد سنتين فقط، وهو راتب يبلغ سبعة عشر جنيهاً ويزداد ستين قرشاً، وسوف أستطيع أن أساعد والدتي قليلاً في العناء الذي تكابده والمشاق التي تتجشمها في تربيتها لخمسة من الأولاد والبنات، الله وحده يعلم ما عانته في سبيل ذلك دون أن تشكو أو تتضجر.

ولكم حمدت الله في سري كثيراً عندما أصبحت معلماً وتمكنت من اقتطاع مبلغ يسير من راتبي وإرساله الى الوالدة في الفاشر في نهاية كل شهر، وعجبت كيف حزنت عندما لم أنجح في الدخول الي المدارس الثانوية، وكنت دائماً أشكره تعالى وأقرأ في سري الآية القرآنية الكريمة «عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم». صدق الله العظيم.

وأكملنا استعدادنا للسفر بالعربات على طريق الفاشر – الأبيض، ثم بالقطار من الأبيض الى الخرطوم، وقمنا باستلام تصاريح السفر الخاصة بالرحلة من مكتب التعليم بالفاشر، وما هي إلا أيام ورأيت نفسي مع بقية الزملاء نمتطي صهوة عربة «بلكوار» يقودها سائق ماهر يدعى «مختار»، وهي تتجه بنا من الفاشر شمالاً عصر ذات يوم صوب مدينة الأبيض في رحلة مقدر لها أن تمتد الي خمسة أيام.
وكم أعجب أن أرى أن وصفي لهذا الطريق الطويل الذي يمتد مئات الكيلومترات من الفاشر الى الابيض لا يثير شيئاً من الدهشة أو الاستغراب لدى أي شخص يرتاد ذلك الطريق الآن، فلقد بقي كل شيء على حاله – إن لم يكن أزداد سوءا عما كان عليه قبل عشرات السنين! وطريق معبد كهذا يقطع في بلاد اخرى في أربع ساعات أو أقل، ولكنا لا نزال نقطعه بمعدل أكثر من يوم كامل مقابل كل ساعة !
وأذكر هنا ما يحكى عن الأخ محمد صالح الذي كان طالباً في مدرسة خور طقت الثانوية، وأراد وصف الطريق باللغة الإنجليزية، ففكر في الوصف ثم ترجمه ترجمة حرفية من اللغة العربية الى اللغة الإنجليزية.

ويقال أن الخواجة أستاذ اللغة الإنجليزية قال له: «أنا آسف هذه ليست لغة إنجليزية».
والغريب في الأمر أن هذا الطريق رغم وعورته وطوله لم يثر فينا أبداً الضجر والسأم والملل، فلقد خفف عنا ذلك سفرنا في مجموعة من أبناء دارفور نتجاذب أطراف الحديث والسمر، ونتبادل النوادر والنكات ونحن على متن السيارة ليلاً، وهي تشق طريقها بصعوبة بالغة بين الكثبان الرملية والمرتفعات الجبلية، ونمضي نهاراً سعيداً عندما تقف بنا السيارة نهاراً في محطات القيلولة الظليلة التي تعج بالحركة والحياة، والنشاط، مثل الكومة، وأم الحسين، – قهوة «درهم» تلك الحسناء الفارعة من عرب البادية التي سار بذكر جمالها الركبان – وأم كدادة، وبروش وجبل حله، وأم شنقة، والدم جمد، وود

بندة، والخوي(التي قال فيها الشاعر الفحل محمد احمد محجوب بيته المشهور:
الناس مرقدها النهود وأنت مرقدك الخوي .. ولو علمت ما النهود لطويت لها الأرض طي) والنهود، وغيرها من المحطات.

ولكم سافرنا بعد ذلك مراراً على هذا الطريق، مع اختلاف السائق والسيارة فقط. وعلى كثرة من سافرنا معهم من السائقين لا يمكن قط أن أغفل عن ذكر العم الشهم على شقلبان – رحمه الله – فلقد كان يصر علينا في المحطات الكبيرة أن لا نتناول الطعام الجاف والمعلب الذي نكون قد اشتريناه من الفاشر أو الأبيض، ويدعو كل الطلبة الي وجبة دسمة في أحد المطاعم في أم كدادة، أو النهود، ونأكل ما لذ وطاب من طعام جيد الطبخ شهي المذاق، بل يذهب الى أبعد من ذلك ويدفع لنا أجرة الحمام أو «الدش» في النهود مثلاً.

ولقد كان العم شقلبان دائم التندر عليُ من بين جميع زملائي، وكان يقول أن كل مناه أن يراني وقد أصبحت معلماً حتى يضحك على لأنني سأكون حينذاك أصغر معلم يشاهده في حياته! ولكم ضحكنا معاً مراراً بعد ذلك عندما كنا نتقابل وقد أصبحت معلماً. رحم الله العم على شقلبان فلقد كان من الأخيار.

ولا أنسى المآسي التي كنا نعانيها في فصل الأمطار بالذات في هذا الطريق، الذي تزداد وعورته في الخريف وتشكل خطورة قصوى على الأرواح، وما أكثر ما انقلبت السيارة فيه، ولاقى من لاقى حتفه، وأصيب من أصيب، وجرح آخرون. وكان السفر في الخريف على هذا الطريق مجازفة كبرى، ولكن لا مفر منها، فليست هناك وسيلة مواصلات بديلة اخرى. وعندما تبدأ الأمطار تهطل، لا تتوقف السيارة، لأننا علمنا من السائقين أن الماء عندما يمكث طويلاً في الأرض تشتد خطورته على السيارة، لذلك لابد من مسابقة الأمطار وفي نفس الوقت لا يريد السائق أن يفسد عليه المطر ما يحمل من البضائع – مثل السكر والملح والدقيق والتبغ والصمغ – مما تنقل من بضائع من والى الفاشر والأبيض، فيقوم السائق بتغطية السيارة بما عليها ومن عليها من البشر بمشمع كبير سميك، وقد يكون على ظهر السيارة أكثر من ثلاثين راكباً من النساء والرجال والأطفال والشيوخ، وبالطبع لا يكون هناك هواء متجدد فتفوح رائحة كريهة نفاذة، ويشتد صراخ الأطفال، ويسود الذعر النفوس، ويتذمر الكبار، ولم يكن أمامنا مخرج من هذا المأزق

إلا أن نعلن للسائق منذ البداية أننا نفضل الجلوس فوق المشمع ونبتل بالمطر، وهو لا يفضل ذلك كثيراً، ولا يسمح لأحد من الركاب «الغلابة» بهذا الامتياز، ولكننا لأننا ندخل في زمرة «المثقفين» كما يبدو، لذا كنا نحظى بتلك المعاملة الخاصة. والسبب في عدم سماح السائق بهذا الاستثناء هو احتمال سقوط الراكب عندما تتمايل السيارة فينزلق الشخص على هذا المشمع المبتل الي خارج السيارة، وتقع المسؤولية بالتالي على عاتق السائق، أو أن يتدحرج الجالس فيقع على رؤوس بعض الجالسين داخل ذلك القبو النتن. وكان أكثر ما يخيفنا في حالة الجلوس داخل المشمع، هو حدوث مكروه وانقلاب السيارة، وذلك أمر وارد في كل لحظة، وعند ذلك سوف تكتمل فصول المأساة، فالمشمع الذي أحسن وثاقه وشد شداً متيناً على حواف وقوائم السيارة لن يدع مخرجاً لأي شخص.

وفي إحدي هذه الرحلات المتوالية ونحن نزرع الطريق ذهاباً وإيابا ، أثناء التحاقنا بالجامعة ، سافرت مع أخي وصديقي إبراهيم موسى من الفاشر متجهين صوب الأبيض ، وقد تبدل بنا الحال وأصبحنا نركب على المقاعد الأمامية ، بعد أن دخلنا الجامعة وأصبحنا « مثقفين « من الدرجة الأولى !! وها نحن في أول الطريق وقد بدأ الغيث يهطل علينا ، وسالت الشعاب والأودية ، وأصبحنا لا نرى أمامنا سوى بحر ممتد من الماء ، لا ندري أين هو طريق السيارات ، وأين هي الحفر والآبار والحفائر . والسائق صِدّيق يصارع الأهوال في جلد وثبات وصمت ، نخرج من بركة ماء لندخل اخرى ، لا السائق ولا نحن ولا أحد سوانا غير الله يعلم مدى عمقها وخطورتها . قد تكون سنتمترات ، وقد تكون أمتارا تبتلع السيارة بكاملها . وفي بعض الأحيان عندما يخالج السائق الشك في بركة ما، ويرتاب في أمرها ، يقف ويأمر مساعديه أن ينزلا وبيد كل واحد منهما عصا طويلة ويسيران أمام السيارة يسبران غور الماء ، والسائق يقود السيارة على مهل من خلفهما . وبينما نحن كذلك ، إذا بنا ببركة تبدو لأول وهلة صغيرة ، واستهونها السائق ، ولم ينزل المساعدان لجس نبضها ، وعندما دخلتها السيارة نزل الجزء الأمامي كله في الماء ، ومالت السيارة ميلة منكرة الي جهة السائق . وكان يشاركنا الجلوس في المقاعد الأمامية ، احد الشناقيط من جمهورية موريتانيا الإسلامية . فأوجس الرجل خيفة في نفسه ، لأنه ليست له دراية بمثل هذا النوع من الأسفار التي تنقلب فيها السيارة الى نوع من المراكب . فبادر المسكين في تلهف وسرعة وقبض على « طبلون « السيارة بكلتا يديه في رعب ظاهر. إلا أن السائق صديق لم يرحمه ، والتفت اليه مخاطباً: « فك الطبلون

يا شريف « ، ثم أردف بالعامية السودانية « خليك سوداني ياشريف »! وأذعن الرجل وجلس مثلنا وفوض أمره الى الله.

وقبل أن نصل الي مدينة أم كدادة في صباح اليوم الثاني ، وبينما السيارة تسير مسرعة في ارض رملية مبتلة ، إذا بها تنزل فجأة بكاملها الى النصف تقريباً داخل الرمال المشبعة بالماء ، لدرجة تعذر علينا معها فتح الأبواب الأمامية ، وقفزنا من فوقها ، وفر الجميع من ظهر السيارة على عجل ، إذ لا احد يريد أن يغرق في بحر من الرمال المشبعة بالماء . وكان لابد من إنزال كل حمولة السيارة . وواصلنا رحلتنا بسيارة اخرى أوصلتنا الى مدينة أم كدادة ، حيث انتظرنا سيارتنا تلك حتى انتشلت ولحقت بنا، ومن ثم واصلنا رحلتنا.

نعود الى رحلتنا الأولى تلك الي الأبيض، والتي وصلناها ذات صباح بعد سفر مضنٍ دام أربعة أيام وخمس ليالٍ. وكان أكثر شيء نتوق اليه ونتطلع الى رؤيته في مدينة الأبيض. هو القطار الذي لم نره قط على الطبيعة من قبل! وأمضينا يوم الوصول ضيوفا على داخلية مدرسة الأبيض الصناعية في انتظار قطار الغد الذي سوف يحملنا الى العاصمة. وكنا نترقب طلوع الشمس في تلك الليلة، حتى نذهب الى محطة السكة حديد ونرى القطار، الذي يغادر الى الخرطوم في تمام الساعة السابعة صباحا. وعند وصولنا الى المحطة، ظن بعضنا القطار منازل متراصة لأول وهلة. وتحرك بنا القطار بعد طول انتظار، وبدأت مدينة الأبيض تغيب عنا رويدا رويدا.

ولكننا لم نكن سعداء بالسفر بالقطار، ولقد خاب ظننا فيه! فالسير المتواصل، والغبار الكثيف، والحر الخانق، بالإضافة الى تلك الروائح التي تنبعث من أولئك الأشخاص المتكدسين داخل عربات القطار، وبقايا فضلات الطعام، كلها كانت كفيلة بان تنغص علينا سفرنا، وتفسد علينا بهجة يومنا، وتجعلنا نحن الى السفر « باللواري» حيث الهواء الطلق، والقيلولة المريحة تحت ظلال الأشجار الوارفة، والاستمتاع بما لذ وطاب من مأكل ومشرب في محطات الطريق.

«طيب السواق ده مالو... مايركب ورا!!»

وصلنا الخرطوم التي تحرقنا شوقاً لرؤيتها في صباح اليوم الثاني لمغادرتنا الأبيض ، ونحن نتلفت ذات اليمين وذات اليسار ، نحدق في كل شيء ، دون التركيز عليه خشية أن يفوتنا شيء على الجانب الآخر، فألفيناها مدينة نظيفة ، منسقة ، ومنظمة ، يانعة الاخضرار ، تظلها الأشجار الوارفة ، وتزينها الحدائق ذات الأزهار الملونة ، والميادين الخضراء الفسيحة ، وتختلف كلياً عن مدينتنا المتواضعة الفاشر – ولا أريد أن يسألني أحد الخبثاء : « هل هي الآن أفضل أم في السابق ؟ « وان أصر على السؤال، فالإجابة متروكة لفطنته!!

ونزلنا في ضيافة المعهد الفني حيث عقدت لجنة المعاينة، وأذكر أن بعض أبناء الفاشر الذين كانوا يدرسون في المعهد آنذاك وعلى رأسهم الأخ الشهم الفاضل الجزولي، قدموا لنا دعوة لتناول طعام العشاء، ولقد كنت مرهقاً مكدوداً، أصارع الإجهاد وأغالب النوم، وكان الوقت لا يزال مبكراً، وفوق ذلك كان علينا هبوط أو صعود بعض الدرجات على ما أذكر؛ فطلبت من الأخ الفاضل أن يمسك بيدي جيداً حتى لا أسقط، إذ أنني كنت لا أكاد أتبين طريقي من فرط ما ألم بي من النعاس والإرهاق. فعلق أحد زملاء الفاضل ساخراً «هذا يريد أن يصبح معلماً وينام في الثامنة مساء»! ، وما درى أنه قد ظلمني كثيراً. فرحلة كتلك امتدت الى قرابة الأسبوع لابد وأن تنهك من كان مثلنا أو حتى من هو أصلب منا عوداً لأيام كثيرة قادمة.

كان همي في اليوم الثاني هو رؤية مدينة أم درمان العاصمة الوطنية، فأخذت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يحملني الى سوق أم درمان، وعندما وصلت الى حي الموردة ورأيت السوق أدركت أنني قد وصلت الي قلب المدينة، فمدينتنا الفاشر لا تعرف سوى سوق واحد هو قلب المدينة النابض. ونزلت من السيارة وتجولت قليلاً في السوق، وتناولت مشروب «البيبسي كولا» الذي كنا نسمع عنه كثيراً في مدينتنا التي لم تعرفها قط، ولكني أصبت بالدهشة وعجبت أن يكون سوق أم درمان أصغر من سوق الفاشر. وبعد السؤال علمت أن السوق لا يزال يبعد الى جهة الشمال بما يقارب الاثنين من الكيلومترات، وفضلت أن أكمل ما تبقى مشياً على الأقدام، وعند المحطة الوسطى أكملت جل نقودي في

شراء الهدايا لأخواتي من دكان واحد، الأمر الذي اضطرني الى الاقتصاد الشديد فيما تبقى لي من نقود بعد ذلك.

أما أحرج ما مر بي من مواقف في الخرطوم، فهو ما حدث لي ذات يوم مع الأخ الزميل كرم الدين أحمد بوش، إذ قررنا أن نتناول طعام الغداء في مطعم يقع في قلب المدينة، ودخلنا الي المطعم بعد أن قمنا بجولة في السوق أشترى خلالها الأخ كرم الدين بعض أقمشة «البنطلونات». وبعد أن تناولنا وجبة شهية، تختلف عن الوجبات التي ألفناها في المعهد الفني، طلبنا من «الجرسون» أن يطلعنا على الحساب، وعند رؤية الفاتورة أصابنا الذهول، وأتضح لنا الفرق الكبير بين الأسعار السائدة في مطاعم الفاشر «المتواضعة» وبين أسعار هذا المطعم النظيف الأنيق. والأدهى والأمر أن كل ما لدينا من نقود كان غير كافٍ لسداد تلك الفاتورة! وأصابنا الخوف وخشينا أن يتهمنا صاحب المطعم بالاحتيال فيقوم بتسليمنا الى الشرطة! ولكن الأخ كرم الدين تصرف بحزم وسرعة وتقدمني الى صاحب المطعم الذي يجلس على الباب، وحكى له القصة، وقدم اليه تلك الأقمشة التي أشتراها كي يقبلها رهينة حتى نذهب الى المعهد ونعود بالمبلغ المطلوب. ولكن الرجل كان شهماً وكان سودانياً، وهوّن علينا الأمر ورفض أن يحجز تلك الأقمشة، وتركنا نذهب ونحضر ما تبقى لنا من الحساب اعتمادا فقط على الثقة. ومنذ ذلك اليوم أوقفنا أنفسنا على وجبات المعهد، وأقلعنا عن التطلع الي مطاعم الخرطوم الأنيقة.

ومن الصدمات الحضارية التي تعرض لها الأخ عبد الحميد، أنه أراد ذات يوم أن يأخذ سيارة أجرة من السجانة- حيث كان ينزل في ضيافة جده المدني- الى المعهد أو بالعكس لا أدري، وعندما لم يجد سيارة في الطريق دلف الى أقرب منزل تقف أمامه سيارة فارهة، وقرع الباب، وعندما خرج اليه صاحب الدار طلب منه أن يأخذه بالسيارة الى المكان الذي يريده، كسائق تاكسي بالطبع، وقد أدرك الرجل أن صاحبنا غريب في المدينة، فأخبره أن سيارته تلك سيارة خاصة، وأن سيارات الأجرة تتميز بألوان خاصة وصفها للأخ عبد الحميد وودعه ودخل الى داره، وأدرك صاحبنا أن ليس كل سيارات الخرطوم «تكاسي»!

وذات مرة قررنا أنا والأخ عباس إبراهيم عبد الجبار العودة من سوق الخضار سيراً على الأقدام الى داخلية المعهد الفني. وبعد أن قطعنا جزءاً كبيراً من الطريق وصلنا الى دار الرياضة ، وفشلنا في الاتجاه أو الطريق الذي يوصلنا بعد ذلك الي الداخلية، ولم ندر

أنها تقع مباشرة خلف دار الرياضة. فأخذنا تاكسياً وطلبنا من السائق أن يوصلنا الى الداخلية . ويبدو أن السائق لم يكن أميناً ، فقد ضحك علينا ، إذ أخذنا وأعادنا الى قلب المدينة ، ثم أخذ طريقاً آخر أوصلنا به الي الداخلية، واكتشفنا المقلب عندما أبصرنا دار الرياضة أول ما وصلنا !

وعدنا بعد المعاينة الى ذوينا مرتادين نفس الطريق ، السفر الممل المضني بالقطار ، ثم السفر الممتع الجميل باللواري.

ولهذه الرحلات باللواري آداب خاصة يحرص عليها السائقون ، ولابد من مراعاتها حتى يستقيم الحال . اذكر من ذلك عندما تلتقي سيارتان في اتجاهين معاكسين ، وغالباً ما يكون المجري الرملي عميقاً ، والخروج منه ليس بالأمر السهل مع سيارة محملة بالبضائع ، اذ لابد من فتح مجري جانبي لتخرج إحدي السيارتين . وتقضي الأصول على ما اعتقد أن المتجه غرباً يخرج للذي يتجه شرقاً أو العكس لا ادري . المهم ان هناك أصولا يجب مراعاتها في مثل هذه الحالة . وذات مرة التقت سيارتنا بسيارة قادمة في الاتجاه المعاكس ، ورفض كلا السائقين الخروج من المجرى ، وكان الليل في أوله ، حيث يحلو فيه السفر لبرودة الجو. وأراد السائق الآخر أن يرهب سائقنا ، فأمر المساعد بإنزال « الحلة «لإعداد العشاء . فما كان من سائقنا إلا أن أمر المساعد بأن ينزل السرير استعداداً للنوم ! وهنا تنازل السائق الآخر ورضخ للخروج !

والغريبة مررت بحادثة مشابهة لهذه قبل سنوات قليلة هنا في جدة . فكنت خارجاً من شارع القنصلية الألمانية المؤدي الى شارع عرفات – وهو شارع ذو اتجاهين ولكنه ضيق لوقوف السيارات على جانب مستشفي الحمراء والمبنى المقابل له ، مما يصعب مرور سيارتين في آن واحد في كثير من الحالات . فبعد أن قطعت جزءاً كبيراً منه وأوشكت على دخول شارع عرفات ، إذ بسيارة يقودها أحد الخواجات دخلت في نفس الشارع الذي أنا فيه . فوقفت وتوقعت منه أن يعود قليلاً الي الوراء لان مسافته اقرب ، لكنه لم يرجع وأشار الي بيده بحركة استفزازية أن أعود الي الخلف ، فرفضت ، وتقدم بسيارته حتى كاد يلامس صدام سيارتي، ثم أطفأ الأنوار وأوقف الماكينة ! عندها عربدت بي الحماقة السودانية الأصيلة، ففعلت مثلما فعل ، أطفأت الأنوار، وأوقفت الماكينة ، وزدت عليه بأن خرجت من السيارة وأغلقتها واتجهت لأتفرج على إعلانات الأطباء الزائرين التي تزين

جدران مستشفي الحمراء من الخارج ، وكأن الأمر لا يعنيني في قريب أو بعيد ! فما كان منه إلا أن رضخ ورجع وأفسح لي المجال للخروج من الشارع ، وعندما مررت بقربه نظرت اليه ولسان حالي يقول : « إياك أن تفعلها ثانية مع سوداني « ، ولكن اكتفيت بقولها في سري، مضيفا: فلعله يترك لك « الجمل بما حمال» ويأخذ تاكسي وينصرف !!

وهناك بعض السائقين لهم طقوس خاصة يمارسونها أثناء هذا السفر . من هؤلاء « ود الجندي « اعتقد أنه من سكان الأبيض ، والذي كان يتأنق في ملبسه ومظهره ويتعطر وكأنه ذاهب الي حفلة ، وليس مرتاداً الفيافي والقفار ، وهو يحف المقاعد الأمامية بالستائر الملونة ، والإضاءة الباهتة ، ولا يسمح لكائن من كان أن يشاركه الركوب في المقاعد الأمامية مهما دفع من نقود ، بل يستمتع وحده بالجلوس هناك رفضاً أن يشاركه أحد في صومعته تلك !

ولأن الحديث ذو شجون، وما دمنا داخل كابينة القيادة، فلابد أن يتبادر الى الذهن. ما رواه صديقي ورفيق صباي المستشار عبد الحميد أحمد أمين، الذي لا شك أصبحتم تعرفونه الآن، ولكن لا ضرر من الإفاضة، فهو كان آخر رئيس لديوان الزكاة قبل حكومة الإنقاذ. فقد حكى انه تقرر ذات مرة سفر، الأخت الأستاذة زخرف بنت عمنا عمر خوَف، زوجة الأخ الصديق مالك الزاكي صالح، مؤسس ومدير معهد القرش السابق في بداية حياتهما الزوجية من امكدادة الى الأبيض على ما أعتقد . وكانت معها والدتها وجدتها في المقاعد الأمامية ، إلا أن الجدة أصرت على أن تركب قريبة اخرى لهن معهن في المقاعد الأمامية . فأخبروها أن هذا غير ممكن لضيق المكان ، وعندما رأت مكاناً رابعاً بقربها شاغراً قالت « والمحل ده مالو» ؟ : فقالوا لها انه خاص بالسائق . فما كان منها إلا أن قالت لهم ببراءة شديدة : « طيب السواق ده مالو..... ما يركب ورا !!»

ووصلنا الى ذوينا نترقب إعلان النتائج، ولم يطل بنا الانتظار، وظهرت النتيجة، ولحسن الحظ قبل كل الذين حضروا المعاينة من أبناء دارفور، وحتى الذين لم يحضروا كالأخ عبد الرحيم أبو بدرية.

وسافرنا على نفس الطريق الذي سلكناه الى المعاينة، وصحبنا في هذه الرحلة أخ من أبناء مدينة الفاشر، برهنت الأيام فيما بعد على أنه مثال نادر يحتذى به في الطموح

والإصرار والعزيمة، فلقد أكمل فقط تعليمه الابتدائي وأمضى بعض الوقت في المعهد العلمي، وكان يعمل في أوقات فراغه صبياً» سمكري» يتعلم في بعض «الورش» الحديدية بالمدينة، وصمم أن يواصل تعليمه في جمهورية مصر العربية، وركب معنا تلك السيارة في يوم من خريف عام ١٩٥٩م، وأنقطع للعلم والتحصيل معتمداً على موارده الذاتية المحدودة، ولم يعد قط الي السودان إلا في عام ١٩٨١م، وهو يحمل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية بامتياز، ذلك هو الأخ الدكتور عبد الله محمد بريمة، له التحية والتقدير.

وصلنا الأبيض وأخذنا منها سيارة اخرى من طراز «فورد» الي مدينة الدلنج، التي وصلناها مع مغيب يوم من أواخر شهر يونيو ١٩٥٩م، بادئين بذلك مرحلة اخرى من مراحل الدراسة، امتدت الى عامين، ولقد استفدنا بحق كل الفائدة من معهد التربية بالدلنج، والذي كان يقوم كغيره من معهدي التربية في بخت الرضا وشندي على أسس تربوية متينة، تدرب الطالب على جوانب كثيرة في الحياة وتعده للمستقبل وتهيئته لكي يكون معلماً ناجحاً.

كانت فصول الخوامس تضم في البداية فصلي «دوي» و «منتسوري» وأضيف اليهما في السنة التي التحقنا فيها بالمعهد فصلان آخران، هما «دالتون» و «روسو» ولقد قبلنا نحن الثلاثة في فصل خامسة «دالتون»، وبينما سميت فصول الخوامس على فلاسفة غربيين، سميت فصول السوادس على فلاسفة مسلمين، ابن سينا، والغزالي، والفارابي، وابن خلدون.

وأول تجربة مريرة ومفيدة في نفس الوقت مررت بها في الفصل، هي أنني وجدت ذات مرة مسطرة واقعة بالقرب من حيث أجلس، فأخذتها وقلت بصوت مرتفع «المسطرة دا بتاع منو؟» فأنفجر الفصل ضاحكاً، وعجبت لماذا يضحكون على، ورددت قولي مرة اخرى، فقال لي أحدهم أنت تخطئ في حديثك، وتذكر المؤنث، والصحيح أن تقول «المسطرة دي بتاعت منو؟» فتنبهت لأول مرة الى أن اللغة العامية التي نتحدث بها في دارفور والتي يكثر فيها تأنيث المذكر وتذكير المؤنث، لغة مختلفة عن هذه التي يتحدث بها الناس في أواسط السودان، ومنذ ذلك اليوم قررت أن أستمع جيداً لما يقوله الآخرون وأكرر القول في سري عدة مرات قبل أن ألفظ به حتى لا أكون عرضة الي الضحك مرة اخرى.

لا أظن أن أحداً من خريجي معهد التربية بالدلنج ينسى تلك الرحلات التي ينظمها المعهد مرة أو مرتين في السنة، والتي يعسكر فيها الطلبة في إحدى المناطق المنتشرة حول

الدلنج مثل: «سلارا، كجورية، النتل، أبو هشيم، كرتالة، تندية، الفرشاية» وغيرها من الأماكن. وعلى الرغم من المشقة والتعب اللذين يتكبدهما الطلبة في هذه المعسكرات، إلا أنها كانت ممتعة ومفيدة، من حيث أنها تدرب الشخص على تحمل المصاعب والصبر والعيش في وئام مع المجموعة في ظروف قاسية، وكانت الرحلة تبدأ سيراً على الأقدام وسط الأحراش والغابات، وعند الوصول الي موقع المعسكر، لابد من تهيئة المكان المناسب لنصب الخيمة الرئيسية التي تحفظ بداخلها المواد الغذائية، وتجهيز أسرة النوم «الدرنقل» وهي مسؤولية فردية، وعلى كل واحد أن يقطع الأخشاب من الأشجار ويصنع لنفسه سريراً. وكم من مرة نزلت علينا الأمطار ليلاً أو نهاراً، وأبتل كل شيء وغاص «الدرنقل» في الوحل والطين، أو وقع ليلاً بمن فيه على الطين والماء، وكم سهرنا حول نار المعسكر لمشاهدة الفقرات الترفيهية التي يتبارى في تقديمها جناحا الداخلية، وكم استمتعنا بالستين بلحة التي تصرف لكل واحد منا كل ليلة حتى تعطينا مزيداً من السعرات الحرارية.

كان المشرف على معسكراتنا في ذلك الوقت هو الأستاذ أحمد محمد نور الملقب «بالتاج» الذي كان هو المشرف على فصلنا «خامسة دالتون» كذلك، وفي مرة اخرى كان المشرف هو الأستاذ عبد القادر فضل السيد ويعاونه الأستاذ عبد السلام سالم.

وكان الأستاذ التاج مثالاً يحتذى به في التربية، لا يكل ولا يفتر ولا يجلس إلا بعد أن يطمئن على الجميع، ولا يأكل حتى يتأكد بأن كل واحد قد تناول وجبته، وكان حازماً قوي الشخصية، وحريصاً على أن يؤدي كل واحد منا واجبه على الوجه الأكمل. ومن سياسته في إدارة المعسكر أنه إذا جاءه احدهم يشتكي من مرض قد أصابه، ينادي زملاءه الأقربين ويسألهم إن كان الطالب المعني قد تناول وجباته كالمعتاد؟ فان كانت الإجابة بنعم، قال للمشتكي «أنت متمارض ولست مريضاً، أذهب وباشر عملك».

أما أكثر «مقلب» كنا ضحية له من قبل الأستاذ التاج، فهو ما حدث ذات ليلة، وكانت تلك آخر ليلة في أحد المعسكرات التي تدوم عادة أسبوعاً، وكان من واجبات المعسكر الحراسة ليلاً والتي تتم بالتناوب بين جناحي الداخلية، وبعد أن أكمل كل جناح ثلاث ليالٍ في الحراسة، جمعنا الأستاذ أول الليل حول نار المعسكر التي لا تخبو ليلاً ولا نهاراً، إلا عند هطول الأمطار، وذكر أن كلاً منا قد ادى دوره في الحراسة كما هو مطلوب، وتم ذلك مناصفة بين الجناحين، أما هذه الليلة الأخيرة فستكون الحراسة تطوعاً، فمن يأنس في

نفسه القدرة والرغبة فليقف الي الجانب الأيمن. فنهض بعض الطلبة ووقفوا الى حيث أشار الأستاذ، وجلسنا نحن في الجانب الآخر فرحين مستبشرين بالليلة الهادئة التي نمضيها دون إيقاظنا في منتصفها لأداء الحراسة. ولكن لم تكن فرحتنا طويلاً، إذ قال الأستاذ التاج لأولئك النفر الذين وقفوا الى جهة اليمين، «أنتم برهنتم على شهامتكم ومروءتكم فلكم الشكر، ولقد استحققتم بذلك نومة هادئة، أما أنتم أيها الكسالي – موجهاً حديثه الينا – فلابد أن تدفعوا ضريبة تقاعسكم وكسلكم وذلك عن طريق أداء الحراسة هذه الليلة»!

ولكم أحزنتني كثيراً النهاية التي وصل اليها أستاذنا الجليل التاج! فبعد أن انقطعت صلتنا به بعد التخرج بمدة طويلة بلغت سبعة أعوام، عدنا والتقينا مرة اخرى في الخرطوم، عندما أصبحنا طلبة في الجامعة، وأصبح الأستاذ التاج مساعداً لسكرتير امتحانات السودان في الوزارة، وتلاقينا مراراً وكان لنا نعم الموجّه ونعم الصديق. ثم افتقدته مدة تصل الى العام أو تزيد قليلاً، لم أسمع عنه خلالها شيئاً، وحسبت أنه قد نقل الى مكان آخر، وانقطعت إخباره عنا. ولكن ذهبت ذات مرة الي الوزارة ودخلت الى مكاتب الامتحانات فرأيت الأستاذ التاج جالساً على كرسيه المعتاد ويرتدي نظارة سوداء سميكة على غير عادته، فهرعت اليه في شوق ظاهر كي أحييه بعد هذه الغيبة الطويلة. لكنه لم يبادلني نفس الشعور، بل رد على تحيتي ببرود شديد، ثم سألني من أنت ؟ فأجبته مستغرباً وذاكراً أسمي بالكامل، ولكنه لم يغير أسلوبه أو لهجته تلك، وبدأ لي أنه يجهلني تماماً، وسألني عما أريد، وصدمت صدمة قوية لم أستطع معها أن أرد عليه وخرجت من المكتب لا أدري ماذا حدث! فلحق بي مسؤول آخر كان يقاسمه المكتب وقال لي: «لعلك لم تسمع بالذي أصاب الأستاذ التاج؟» فلقد أصيب المسكين بمرض عضال في رأسه، وأجريت له عملية جراحية في الخارج فقد على أثرها جزءاً من ذاكرته»، ولقد حزنت على أستاذي التاج أعمق الحزن وانقطعت أخباره عني مرة اخرى، وأتمني أن يكون قد شفي من ذلك المرض العضال.

ليلة الوداع!!

كان المعهد يعج بشتى أنواع الأنشطة الرياضية، والثقافية والترفيهية وتشتد المنافسة دائماً عند قرب عيد المعهد، الذي تشارك فيه وفود من بقية المعاهد الاخرى، والذي يخرج دائماً في ثوب قشيب رائع جذاب، ويصبح المعهد كله كرنفالا زاهيا بالالوان.
ومن الطرائف الرياضية التي أذكرها ما حدث لي ذات مرة وأنا طالب بالفصل السادس في المعهد، فقد كنت في تلك السنة أمثل حارس المرمى الاحتياطي لفصلنا، الذي كان حارسه الأول الأخ عوض، من أبناء مدني. وكانت هناك مباراة في المنافسة بين فصلنا وبين فصل سادسة أبن سينا، وأعتقد أن النقاش الذي دار في الفصل حول الإعداد للمباراة واختيار المنتخب قد أغضب الأخ عوض بعد أن أنتقد بعض الزملاء أداءه في المباريات السابقة، وأقسم الأخ عوض أنه لن يلعب أبداً في ذلك اليوم، وكان البديل هو شخصي – لا أستطيع أن أضيف كلمة «الضعيف» التي تلحق دائماً «بشخصي» كما جرت العادة، لأن أسمي يناقض ذلك «بدين»!

كانت تجربة ليست باليسيرة، وسار اللعب سجالاً بيننا وبين سادسة أبن سينا، وكنا متقدمين بهدف على ما أذكر، وبينما المباراة تلفظ أنفاسها الأخيرة– كما يقولون – احتسب حكم المباراة الأستاذ كمال ضربة حرة مباشرة على رأس خط ١٨ ضد فريقنا وأنبرى للتسديد الأخ مصطفي مأمور، وهو معروف بقذائفه الصاروخية، وبدأ زملائي في خارج الميدان يشجعونني بحرارة، فعلى الآن تعتمد النتيجة، ووقفت مجهدا خائفاً وسط المرمى، وكانت الشمس تطل على عينيّ، والعرق يتصبب عليهما، مما يجعل الرؤية في منتهى الصعوبة، إن لم تكن مستحيلة، وزاد الطين بله أن وقف كل زملائي من أفراد الفريق أمامي في محاولة لإبعاد الكرة عند ركلها، فأنا حارس المرمى الذي تتجه نحوه المئات من الأعين، وتحيط به مشاعر زملائه من داخل وخارج الميدان، وهو لا يكاد يميز بين اللون الأسود والأبيض! فتوكلت على الله، ووضعت يدي بالقرب من خاصرتي اليمني، وهي في وضع مهيأ لالتقاط الكرة، التي لا يعلم إلا الله وحده أين يمكن أن تستقر في هذا المرمى الواسع! وأخيراً صفر الحكم وركل الأخ مصطفي مأمور الكرة، فإذا بها لا تصيب المرمى، بل تصيبني بقوة، حتى تكاد تطرحني ارضا، وتستقر في نفس «الفخ»

الذي نصبته لها، وكأن يدي مغناطيس جذب اليه الكرة جذباً! ويالها من مصادفة عجيبة ومفرحة، وصفق لي الزملاء بحرارة، ورقصوا ودخل بعضهم الميدان لتهنئتي بهذه «المهارة الفائقة»، وأنا أشكر الله كثيراً في سري على هذا التوفيق الذي تم بمحض الصدفة، فلو كانت يديّ على بعد بضع بوصات من مكانهما شمالاً أو يميناً لولجت الكرة الشباك بكل تأكيد دون أن أحس بها! وحققت الفوز لفصلي في تلك المباراة، وأنا أردد سراً «رب رمية من غير رامٍ».

ولعل اختياري لخانة حارس مرمى يعود الي الماضي البعيد، الى أيام الطفولة وأنا تلميذ بالمدرسة الابتدائية بالفاشر. فلقد قادتني الصدفة ذات مرة لكي أشاهد جزءاً من مباراة في ميدان «النقعة» بين فريقي المريخ والهلال، وكان حارس مرمى المريخ هو الأخ حسن «أبو سكساكة» الذي كان يقف في لحظة وصولي الى الميدان في الجزء الجنوبي حيث وقفت أتفرج بين جموع المشجعين. ويبدو أنه بهرني بلبسه الأصفر المخطط بالبرتقالي، وبحركاته الفدائية في التقاط الكرة، وأخذت أصفق له شأني في ذلك شأن المشجعين من حولي والذين كانوا ينتمون الي فريق المريخ، أو «السوق» كما كان يعرف في البداية. ولعل هذا الانطباع الذي تركه في نفسي الأخ حسن لم يحدد فقط وظيفتي في الميدان مستقبلاً، بل حدد أيضاً انتمائي الى فريق المريخ، وكان ذلك بمحض الصدفة، فلو كنت وجدت نفسي في نفس المكان الذي وقفت فيه في النصف الثاني من المبارة، أو ذهبت توا عند حضوري الى الجزء الشمالي لوجدت حارس الهلال العملاق، الأخ أسد ولربما أصبح انتمائي هلاليا.

ومن الأساتذة الأجلاء الذين تتلمذت عليهم في معهد التربية بالدلنج في أوائل الستينات، ولا زالت ذكراهم العطرة عالقة بذهني، الأستاذ الشاعر الاديب الفذ جعفر محمد عثمان الذي درسنا الأدب العربي. ويشهد الله أنه غرس في نفوسنا حب الشعر العربي الرصين، لأنه كان رجلاً ذواقة يحسن اختيار عيون الشعر، ويخط ذلك بخط بديع متناسق على «السبورة» فنؤخذ نحن بجمال الخط، وروعة القصيدة، وحسن أداء الأستاذ، وتمكنه من مادته. وكان فوق ذلك غاية في الأناقة وحسن الهندام، ويفوح العطر حتى مما تبقى من أجزاء «الطبشور» الذي يمسك به! فما أن يغادر الفصل حتى يتسابق الزملاء الي أخذ

بقايا «الطبشور» واستنشاق ما يفوح منها من عطور باريسية! لذلك لا غرابة في أن تبقى حتى هذه اللحظة قصائد كثيرة تختزنها الذاكرة من تلك التي درسنا لها الأستاذ جعفر قبل أكثر من أربعين عاما!

ولقد كان هو المشرف على المكتبة، وكان لا يقبل أي ضوضاء أو ضجة حولها، وهو على علم بكل كتاب في المكتبة، شكله ولونه الخارجي، بالإضافة الى محتواه بالطبع! ويكفي أن تسأله عن أي كتاب، فيأتيك الرد قاطعاً بمكانه في المكتبة بين مئات الكتب، ويزيدك نبذة مختصرة عنه إن أردت.

وأذكر أننا قدمنا ذات يوم الي المكتبة قبل حضوره وكانت مغلقة. فوقفنا أمام الباب نتجاذب أطراف الحديث في انتظار وصوله، وبينما نحن كذلك إذ قدم نحونا الأستاذ جعفر، ولم تسره تلك الضجة التي أحدثناها فقال لنا – وهو يتحدث دائماً باللغة العربية الفصحي، في لهجة مصرية محببة، فهو قد تلقى علومه في مصر الحبيبة – «هذه كعتبي المقدسة لا أريد حولها ضجيجاً أما أن تصمتوا وإما أن تخرجوا، وفي الأمرين شوري بينكم»، ولم يزد.

ولا زلت أذكر حتى الآن أنه فرض علينا تحليل قصيدة أو كتابة موضوع أدبي على شكل رسالة مصغرة نقدمها في آخر السنة الدراسية، واخترت قصيدة لا أتذكرها الآن، وقمت بتحليلها وشرحها. وكم أثلج صدري أن أقرأ تعليق الأستاذ جعفر على موضوعي بعد أن قام بالإطلاع عليه بقوله: «أحسنت، لقد قاربت الكمال فأطلبه». ولقد كان هذا القول وهذا التشجيع هما اللذان كانا ينيران لي الطريق، كلما توغلت في الصعب فالأصعب، وكلما شقت على الدراسة وأرهقني التحصيل في شهور وسنين لاحقة، وكانا الدافع للكد والاجتهاد والمثابرة، وذلك ما رمى اليه الأستاذ الجليل، فهو يدرك أن الكمال لله سبحانه وتعالي وحده، وهو أمر مستحيل المنال، ولكن لا بد من الكد والاجتهاد والعمل الدؤوب.

ولم يكن ليتجاهل طلبته حتى بعد التخرج، فأذكر أن الأخ مختار – رحمه الله – كتب اليه خطاباً بقصد التحية، وأجاب الأستاذ تلميذه بقطعة أدبية رائعة، أجزم أنها من أروع ما كتب في أدب الرسائل. وكم يحز في نفسي أن تكون تلك القطعة الأدبية قد ضاعت في مسيرة الزمان بعد أن حافظنا عليها مع الأخ مختار عليه الرحمة ردحاً طويلاً من الزمان.

وأذكر من ذلك الخطاب -عندما فشل، في أن يتذكر مختار- قوله له: «والى كثرة من جلس اليه من الأساتيذ، لا أكاد أتبين سمادير وجهك» ويحاول أن يتذكره في تهذيب شديد – قائلاً له:» فدعني أسوق اليك السؤال في استحياء...» ونسيت الباقي ولا تلوموني على ذلك فهذا خطاب كتب قبل ما يربو على أربعين عاماً!! وكنت أود أن يكون موجودا حتى أنقله بحذافيره هنا لكي لا يتهمني القارئ الكريم بالتعصب الاعمى لأستاذي الجليل. جزاه الله عنا خير الجزاء، فلقد كان نعم الأستاذ ومثالاً يحتذى في التهذيب ومنبعاً خصباً للثقافة والأدب وواحداً من أعظم من جلست اليهم من الأساتذة طوال حياتي.

وعندما قابلت الأستاذ ياسر عبد الفتاح، الصحفي اللامع في جريدة الخرطوم، قبل عدة سنوات هنا في جدة، رأيت فيه من الوهلة الأولي شبه أستاذي الجليل جعفر محمد عثمان، وسألته عن سر هذا الشبه اللافت، فأخبرني أن الأستاذ جعفر هو خاله (لزم) أي شقيق والدته، وعلمت من ياسر أنه ألف قصيدة «التبلدي» التي قررت ذات مرة في امتحان الشهادة الثانوية، وأن آخر منصب تقلده في حقل التعليم، هو الملحق التعليمي لجمهورية السودان في المغرب، وقد نزل المعاش، وهو يعيش الآن في إحدى قرى خشم القربة التي هّجر اليها سكان حلفا القديمة، فحملته اليه كل تحياتي وأمنياتي بدوام الصحة والعافية.

وحق لياسر أن يفخر بخاله، فهو رجل ولا ككل الرجال، ونرجو أن يطبق ياسر المثل السوداني الشهير «الولد خال» هل تفعلها يا ياسر؟ نحن في الانتظار!!
أما مولانا شيخ الأمين – أستاذ الدين – من أهالي الهلالية إن لم تخن الذاكرة، كان شخصية مرحة. وبدأت صلتي به بصفعة قاسية تلقيتها منه ذات يوم بينما كنا نقف في «طابور» المساء، وكان هو المشرف على المعهد في ذلك الأسبوع. فبينما كان يتحدث الينا، سمع أحد الطلبة يتكلم، وكان هذا الطالب يقف بالقرب مني، فلم يتبين مولانا من هو المتحدث الذي قاطعه، فقط نظر الي حيث أقف وأشار على أن أتقدم نحوه، وذكرت له أنني لست الشخص الذي يعنيه، ولكنه لم يمهلني لأكمل حديثي، وصفعني صفعة قوية بظهر يده على وجهي، وألحق الصفعة بشتم غير كريم. ولقد تألمت لتصرفه هذا، إذ أتلقى ذلك وأنا برئ من الذنب. وذهبت اليه في صبيحة اليوم الثاني في مكتبه

وأخبرته أنني لا زلت أصر على براءتي من جرم الأمس. وأحس بأنه ضربني وشتمني ظلماً. ولقد تأثر مولانا غاية التأثر لذلك، وأعتذر لي اعتذارا رقيقاً. وصار بعد ذلك من أقرب وأحسن الأساتذة الي.

وكان مولانا كثير الخروج عن الدرس، أقصد خروجاً ذهنياً. فكان يحب كثيراً أن يحكي عن ذكرياته في مديرية دارفور حيث عمل لفترة من الوقت في مدرسة نيالا الأميرية المتوسطة معلماً للدين، ويبدأ يحكي ويسترسل في ذكر حميد خصال أهل دارفور، وفي ذكر الأطعمة التي يتفننون في صنعها والحصة تكاد أن تنتهي ولم ندرس شيئاً. وما كان يقطع عليه حديثه وقصصه المتواصلة إلا دمدمة الرعد التي تنذر بقرب هطول الأمطار. وما أدراك ما الأمطار في الدلنج! فإنها تصب أو تسح مدراراً صباح مساء. وتستغرق ساعات طويلة، تبتل خلالها الأرض الطينية، ويصبح السير عليها معضلة. فعند سماع دمدمة الرعد يصمت مولانا قليلاً ثم يخاطبنا قائلاً «أتدرون لماذا يريد المطر أن ينزل الآن ؟ السبب هو أنني أرتدي حذاء نظيفاً لامعاً وهو يريد أن يبلله لي بالطين. ولكن لن أسمح له بذلك، وسوف أقوم بتشتيت السحب، فيرفع يديه بالدعاء : «أللهم حوالينا ولا علينا، على الجبال والآكام ورؤوس الأشجار». ولقد حفظنا ذلك الدعاء لكثرة ما كان يردده فما أن يبدأ في قراءته، حتى نشاركه جميعاً في صوت مسموع في ترديده.

ومن الحوادث التي أتذكرها، أن أحد زملائنا من أبناء مديرية دارفور، كان يكثر من النوم ولا يصحو مبكراً، وذلك أمر غير مقبول البتة في معهد التربية بالدلنج، فاليوم الدراسي يبدأ مبكراً بحصص «النشاط» قبل الدخول الي قاعات الدرس، ولابد أن يشارك الجميع في هذا النشاط الصباحي، الذي يقسم على عدة جمعيات، مثل جمعية الداخليات، وهي من أقسي وأشق الجمعيات وأكثرها كراهة لدى الطلبة، فأفرادها يتولون نظافة العنابر وغسل الحمامات. وهناك جمعية الإصلاحات التي تتولى إصلاح كل ما هو تالف في الداخلية، وجمعية الصحة التي يساعد أفرادها في تمريض الطلبة الذين يرتادون المستوصف، وجمعية الزراعة التي تتولى رعاية كل ماهو أخضر في المعهد من شجر ونبات وزهور... الخ. ومن حسن الحظ أن الدورة تتغير بعد كل أسبوعين بحيث يمر كل طالب على جميع الجمعيات تقريباً.

وفي ذات صباح كان ذلك الزميل يغط في نومه كعادته بينما كان الجميع يزاولون نشاطهم الصباحي، فقام بعض الزملاء من أبناء أواسط السودان بحمل سريره في خفة دون أن يشعر، وذهبوا به الى منتصف المعهد حيث توجد نافورة كبيرة، ووضعوه بقربها، وأحاط به حشد كبير من الطلبة، ثم صاحوا جميعاً بصوت واحد، الأمر الذي أفزع صاحبنا، فقام مذعوراً يتلفت حوله ويحدق في الجمع المحتشد وهو لا يدري أفي حلم أم يقظة! ولقد ضحك عليه المتفرجون وسخروا منه. لكن هذا التصرف حز في نفوس بعض زملائه وأصدقائه من أبناء مديرية دارفور، فأجروا اتصالات سريعة بكل أبناء الإقليم وصوروا لهم أن ما لحق بالأخ الزميل ليس المقصود به هو شخصياً، ولكنه اهانة لكل أبناء الإقليم من أبناء «دار صباح»، ولا يمكن أن نسكت عليها بأي حال من الأحوال، ولابد من تلقين أبناء «الجلابة» هؤلاء درساً لن ينسوه أبداً!

وأستقر الرأي على أن يستعد أبناء دارفور في حصة الزراعة الريفية القادمة، وهي الحصة التي نكون فيها بعيدين عن المعهد وسط الحقول والأحراش، حيث يمنح كل طالب مزرعة صغيرة ٧×٧ أمتار لزراعتها ورعايتها وحصدها، ثم يقوم ببيع المحصول للمعهد عن طريق بنك المعهد. وفي اليوم الموعود بدأ جمع الأسلحة وتجهيز العصي ونحن في طريقنا الى المزرعة، وشعر أفراد الفريق الآخر بذلك، فبدءوا أيضاً يعدون العدة. لكن بعض الطلبة المحايدين وعلى رأسهم الأخ مزمل من أبناء شرق السودان، نقلوا الأمر قبل أن يستفحل الي الأستاذ عبد الرحمن صالح الطاهر المشرف على حصص الزراعة الريفية ومعلم التربية الوطنية بالمعهد، والشخصية البارزة في حزب الأمة فيما بعد. وقام الأستاذ عبد الرحمن بتهديدنا جميعاً، وأذكر من ضمن ما قاله ان جميع أسمائنا لا زالت مسجلة فقط بأقلام الرصاص، وكل من يخطئ سوف يشطب أسمه بجرة قلم، ويستبدل بواحد من المئات الذين يتوقون للالتحاق بهذا المعهد، وكان ذلك إنذاراً كافياً كي يكف الجميع عن اللعب بالنار.

ولقد كانت تلك حادثة عارضة، أصبح بعدها الجميع أصدقاء ،لا يفاخر الواحد منهم بإقليمه أو بقبيلته، وهذا من فضائل التعليم المختلط إقليميا في بلد متعدد العرقيات كالسودان، فهو الطريق السليم والأمثل للانصهار في بوتقة القومية السودانية الواحدة،

في بلد شاسع كالسودان، ويا حبذا لو يصار الي قرار يقضي بحفظ نسبة ٢٠٪ في كل مدرسة ثانوية عليا لتملأ من طلبة أقاليم مختلفة عن الإقليم الذي تقع فيه المدرسة.

فدور العلم هذه هي التي تنصهر فيها القوميات، وتذوب فيها العنصريات. وتتلاشى فيها الفوارق، وتتكون بداخلها الصداقات، ويتعمق التفاهم. وتقوى الصلات. بين مختلف القبليات والعرقيات، إذ أن ليس هناك ما هو أقدس من زمالة العلم. ومن دور العلم، ولله در الشاعر العظيم أحمد شوقي الذي وصفها في قصيدته المشهورة «مصائر الأيام» قائلاً :

تـؤلفهم في ظلال الرخـاء ** وفي كنف النسـب الأقـرب
وتكسر فيهم غـرور الثراء ** وزهــو الـولادة والمنصب
بـيـوت مـنزهــة كالـعتيق ** وإن لم تستر ولـم تـحـجـب
يداني ثراهـا ثـرى مـكــة ** ويقرب في الطهر من يثرب

وأما الأخ الزميل المعني فقد أثر ذلك الحادث كثيراً في نفسيته وقرر ترك المعهد نهائياً. حيث عاد الى وطنه الصغير، وغير خطه الدراسي، وتدرج في المدارس الثانوية والجامعة وما فوق الجامعة حتى حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية. وانطبق عليه بالفعل المثل «رب ضارة نافعة»، أعني بذلك الأخ الدكتور محمد الشريف سليمان من أبناء نيالا، الذي يعيش الآن في ألمانيا بعد أن اخذ الجنسية الألمانية — له تحياتي.

******

وفي مارس من عام ١٩٦١م وصلنا الى نهاية المطاف، وبدأنا نستعد لمغادرة مدينة الدلنج بعد أن أمضينا فيها عامين، تم خلالها أعدادنا كمعلمين مؤهلين للعمل في المدارس الابتدائية، وكنا نتوق كل صباح الى ظهور كشوفات التنقلات المدرسية المركزية، والتي ترسل صورة منها الى معاهد التربية. وبعد طول ترقب وصلت الكشوفات، ووجدت شخصي ومعي الأخ على محمد آدم جمبير وقد ألحقنا بمدرسة أم كدادة الابتدائية، ونقل الأخ عبد الحميد الى الكومة، والأخ المرحوم مختار محمد على الى الطويشة. ولا أدري كيف كان وقع ذلك على نفسي، لكنني قطعاً لم أكن سعيداً بذلك أو راض عنه. فبغيتي مدينة الفاشر، عاصمة الإقليم، ومهد الطفولة ومرتع الشباب، ودار الأنيس والجليس والحبيب، ولقد كانت الفاشر تعيش أحلى أيامها في الستينات، ولعلها استعادت شبابها

في غابر الأزمان عندما كانت قبلة العلماء والوجهاء، حيث وصفها المؤرخ السوداني محمد عبد الرحيم بقوله : «كان الناس يقولون من لم يعلم أبن عاشر، لا يقدل في الفاشر».

وعلى الرغم من عدم استحساني العمل في مدينة أم كدادة في البداية، إلا أن الأيام القادمة أكدت لي مرة اخرى الحكمة في قوله تعالي: (عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) ولكن لنترك أمر ذلك الى المرحلة الثانية، أي المرحلة العملية الأولي.

******

واستميح القارئ الكريم عذراً، في أن أعود بالذاكرة الى ما يربو على أربعين عاماً من الزمان، الى تلك اللحظة التي ودعنا فيها أصحابنا، ومعهدنا العزيز، وأساتذتنا الأجلاء، ومدينة الدلنج العريقة، فلا زالت لحظة الوداع الأخيرة عالقة بذهني وكأنها حدثت البارحة، وكانت قاسية ومريرة خاصة على أصحاب القلوب المرهفة الحساسة، فقد قويت أواصر الإخاء والمودة والألفة بين أبناء الغرب والشرق، وتكونت صداقات متينة، وها قد جاء وقت الوداع، وربما يكون الوداع الأخير الذي ليس من بعده لقاء، وذلك ليس بالأمر المستغرب في وطن شاسع كالسودان، فكاتب هذه الأسطر لم يقابل الأصدقاء والزملاء الأعزاء الذين أمضى معهم فترات من أسعد فترات العمر، منذ ذلك المساء من شهر مارس من عام ١٩٦١م وحتى هذه اللحظة، أي منذ أن ركبنا سيارة «الكومر» التي تعرف «بالكونتاكت» والتي يقودها العم سعد، ويممنا صوب مدينة الأبيض. فاليهم في كل مكان التحية والسلام، وأن حال الدهر دون اللقاء فالذكرى العطرة بقيت خالدة في النفس.

أذكر أن الأخ السناري حسب الرسول – رحمه الله – من أبناء الفاشر، لم يقدر على تحمل الفراق، وكانت تربطه صداقة حميمة بالأخ كمال ساتي من أبناء الأبيض، فأجهش بالبكاء، وجلس على السيارة وأخرج دفتراً وقلماً وبدأ يكتب ما تجيش به نفسه من مشاعر وأحاسيس، والدموع تسقط على ما يخط حتى كادت أن تطمسه تماماً، ولكن بعض الزملاء كان يرى في ذلك العيب كل العيب، وأنه لا يليق بالرجال، وضحكوا وتندروا على هذا الزميل المرهف الذي أخذه الفراق أخذة قوية ففاضت مشاعره ودمعت عيناه. وليتهم سمعوا قول الشاعر المبدع إدريس جماع:

هين تستخفه بسمة الطفل ** قـوي يـصـارع الاجـيـالا

ولقد رسخت تلك الصورة الحزينة في نفسي، وكلما حان وقت وداع تذكرتها. ولقد عادت الي وأنا في ألمانيا عندما رأيتها في دموع السيدة جيتا مازر صاحبة الدار التي كنا نقطنها في بوبارت الجميلة على نهر الراين، ورأيتها في مطار هامبورج في دموع مونيك الزائرية. وفي دموع فاطمة التونسية، ودموع جزلا البولندية، والينا الروسية وهن يودعن زوجتي، وتأكدت أن الإحساس والشعور لا يعرفان فرقاً بين اللون والجنس. فالإنسان يألف أخاه الإنسان مجرداً من كل الفوارق، سواء أكان من أبناء جلدته أم سواها. فيهش عند لقائه. ويحزن لفراقه، وتفيض دموعه غزيرة لكي تعبر أصدق تعبير عما يعجز اللسان عن قوله في تلك اللحظات العصيبة!!

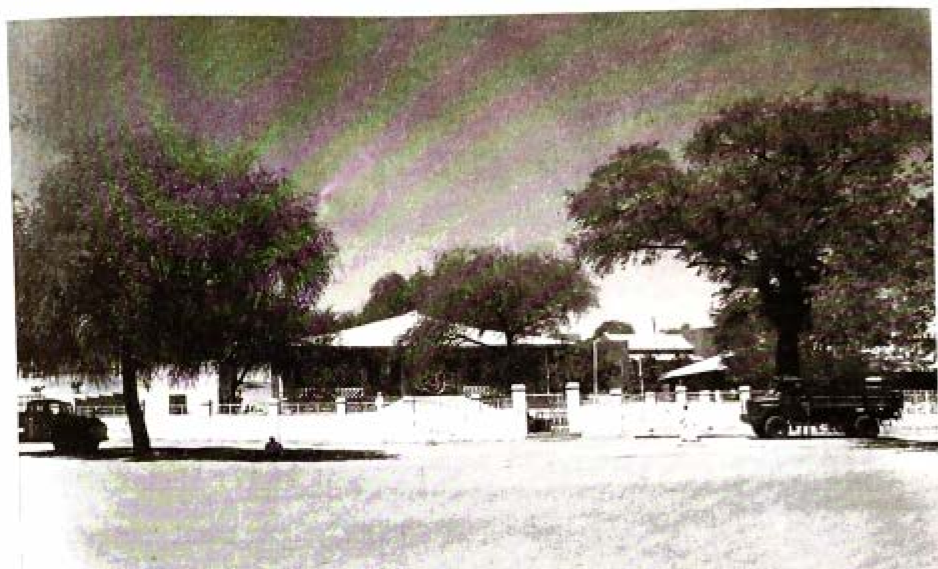
ولا أرى في هذا المجال، أروع مما قاله العقاد، في قصيدته «ليلة الوداع» وأريد أن يشاركني القراء في مطلعها فقط- إذ لا مجال لإيرادها هنا كاملة لضيق المجال . لتكون مسك الختام لهذا الفصل الأول من الذكريات.

أبعداً نُرجي أم نرجي تلاقيا ** كلا البعد والقربي يُهيج ما بيا

إذا أنا أحمدت اللقاء فإنني ** لأحمد حيناً للفراق أياديا

ألا من لنا في كل يوم بفرقة ** تجدد ليلاتِ الوداع كما هيا

ليال يبيح الدّل فيها زمامه ** ويُرخص فيها الشوق ما كان غاليا



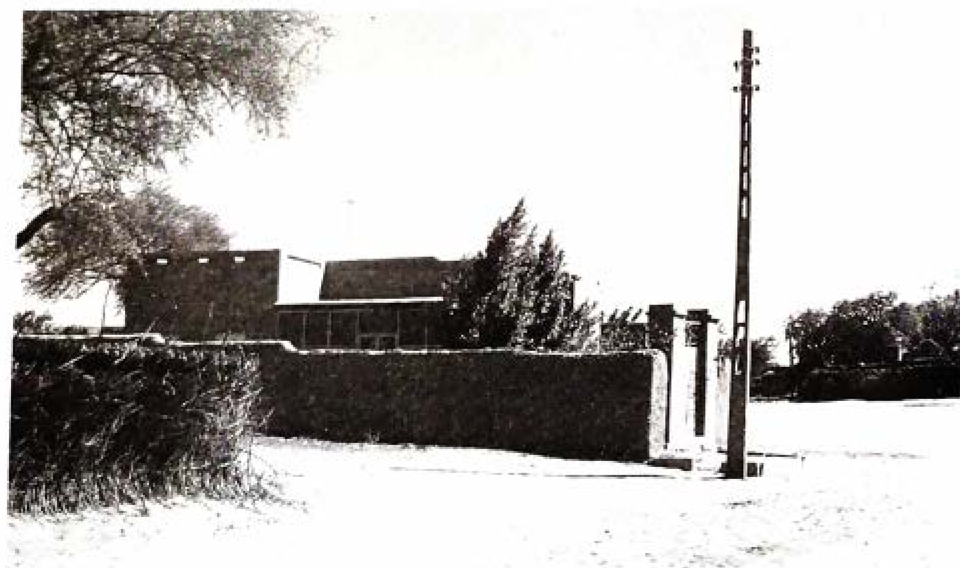
صورة المحكمة الكبرى في الفاشر



منظر عام لمدينة الفاشر أخذت من قصر السلطان علي دينار (المتحف حالياً) في اتجاه الشرق.



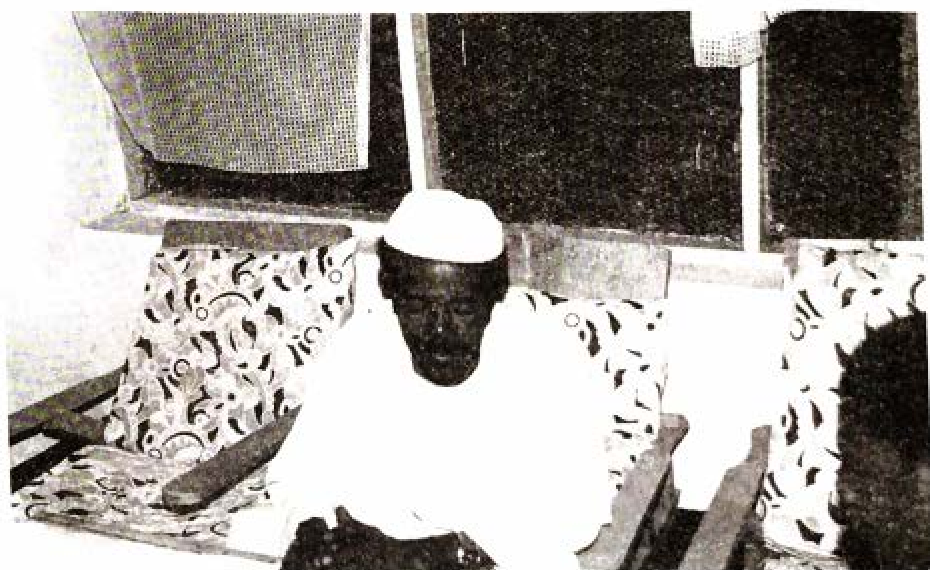
صورة للجزء الغربي لمنزلنا من الداخل.



صورة للجزء الغربي لمنزلنا من الخارج.



الشارع الكبير أمام منزلنا، مرتع الطفولة والصبا.



الأخ الصديق سعيد أحمد أمين شقيق الأخ عبد الحميد.



نحاس السلطان علي دينار في المديرية بالفاشر.



مئذنة جامع السلطان علي دينار بمدينة الفاشر، وهي كل ما تبقى من أول مسجد أنشأه السلطان بقرب قصره، وتعد من المعالم الأثرية البارزة في الفاشر.



على شمال الصورة المدرسة المزدوجة العريقة، وأول مدرسة أولية بنيت في دارفور ودرسنا فيها المرحلة الأولية. وللأسف لا يظهر منها سوى السور الخارجي.



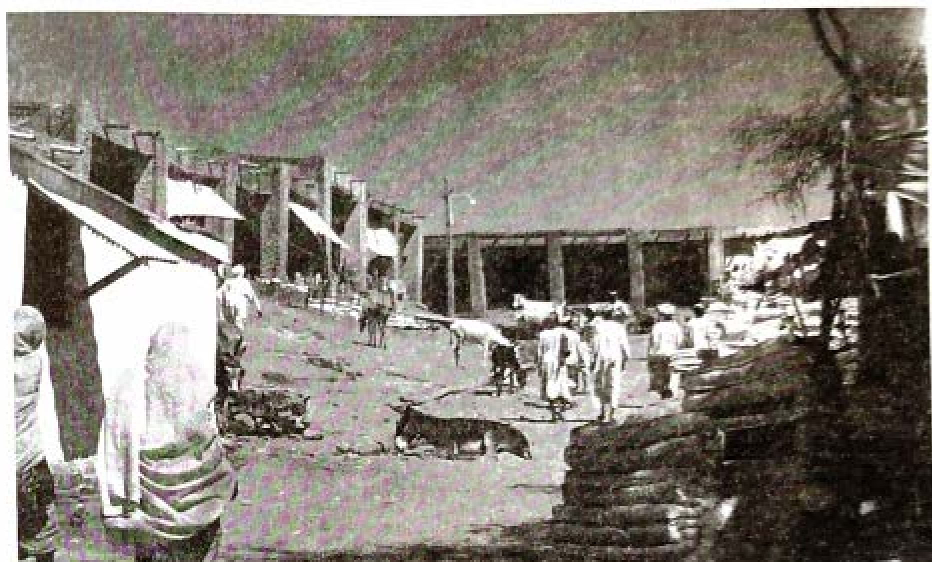
الكبري الذي أقيم على «الرهد» وادي الفاشر الكبير الذي يمتلئ بالماء في الخريف وتبقى مياهه لعدة أشهر.



الاسكافي الماهر الآخر الأخ خليل.



اشتهرت الفاشر بصناعة المراكيب «أحذية» جيدة، وهذا هو أحد أمهر الاسكافيين، في المدينة الأخ يوسف.



جزء من سوق الفاشر



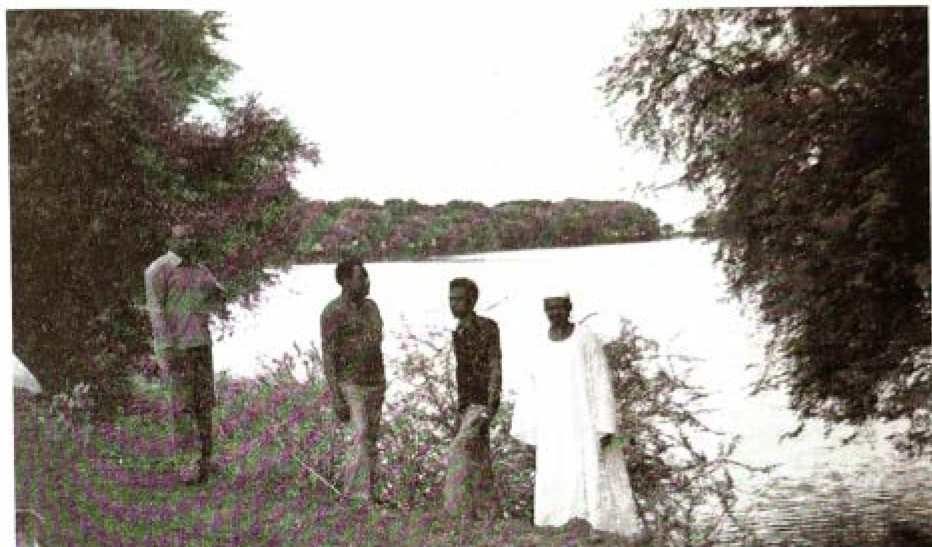
جزء من سوق الفاشر



من عادة شباب حي تمباسي من الأصدقاء والأقارب البررة تكريم أبناء الحي العائدين في اجازات برحلة، تكون غالبا إلى خزان قولو الذي يمد الفاشر بماء الشرب في غربي المدينة على بعد حوالي ٢٠ كيلو متراً، وهذه إحدى الرحلات التي كانت من نصيبي عند عودتي الأولى من ألمانيا.



رحلتنا إلى خزان قولو، علي عبد الرحمن ومصباح ملازم.



رحلتنا إلى خزان قولو.



رحلتنا إلى خزان قولو.



رحلتنا إلى خزان قولو.



رحلتنا إلى خزان قولو.

الجزء الثاني

المحتويات

الجزء الثاني

الليل طويل والكل مُقمِر!

قال الشاعر أحمد شوقي في قصيدته « مصائر الأيام» :

قد انصرفوا بعد علم الكتاب ** لباب من العلم لم يكتب
حياة يغامر فيها امرو ** تسلح بالناب والمخلب
وصار إلى الفاقة ابن الغني ** ولاقي الغني ولد المترب
وقد ذهب الممتلئ صحة ** وصح السقيم فلم يذهب
وكم منجب في تلقي الدروس ** تلقي الحياة فلم ينجب

******

ودخلنا هذا الباب الجديد من الحياة في أول شهر أبريل من عام ألف وتسعمائة وواحد وستين كمعلمين في المدارس الأولية ، وأضيف إلى أسمائنا اللقب الرسمي الذي كان يطلق على معلمي الأوليات في ذلك الوقت ، وهو (الشيخ). وكان التعيين يتم في الدرجة الوظيفية المعروفة باسم « kj ٥» ، وكان يحلو لبعض المعلمين الظرفاء ادعاء إن هذا هو اختصار لـ « كلب جربان نمرة ٥» !!

وعاد كل منا إلي وطنه الصغير في انتظار فتح المدارس التي كانت قد بدأت لتوها الإجازة السنوية . وكانت الفرحة ثلاث فرحات : فرحة بالوظيفة ، وفرحة بالإجازة ، وفرحة بالرواتب التي سنتقاضاها أثناء الإجازة . ولم تكن رواتبنا بالشيء اليسير في ذلك الوقت فلقد بلغت سبعة عشر جنيهاً وستين قرشاً ! وبما أن الصرف كان يتم في إدارات المناطق التي تقع فيها المدارس ، كان لزاماً على أن أفوض شخصاً ما في أم كدادة كي يقوم باستلام راتبي . ووقع اختياري على الأخ الصديق حيدر السيد أبوشوك . وبعثت إليه بتوكيل شرعي فأرسل لي بمقتضاه أول راتب أتقاضاه في حياتي داخل ظرف أزرق أنيق يليق تماماً بجلال المناسبة بواسطة العم علي بدين بشركة شل مع أحد القادمين إلى الفاشر. وعلاقتي بالأخ الصديق العزيز حيدر بدأت منذ المرحلة المتوسطة في الفاشر الأميرية ، وهو يقل عني بمرحلتين دراسيتين، وكان يسكن معنا بالداخلية لان أهله من ام كدادة. وكان يخرج معي أسبوعيا كل خميس لقضاء نهاية الأسبوع مع عمته» الخالة عشوة» التي تسكن بجوارنا، ثم نعود مساء الجمعة معا كما جئنا» كداري». له تحياتي في

مستقره الجديد في الحاج يوسف. وكان العرف يقتضي أن أبرّ بعض الأهل وذوي القربى بشيء من الراتب . فلم أبخل بذلك اعتماداً على أن الصدقة تبارك في المال وتزكيه . ولقد كان للامتنان الذي أظهروه ، والدعوات الصالحة التي غمروني بها ، وقع طيب في نفسي فاق أثرها كل تلك الفرحة والسعادة اللتين أضفاهما على ذلك الراتب الأول.

وكانت مدينة الفاشر العريقة، عاصمة السلاطين ، ومهد العلماء، كعهدنا بها دائماً في الأجازات ، تلبس أبهي حللها ، وتعج بالنشاطات الرياضية والاجتماعية . والثقافية، وتصبح مهرجاناً للأفراح والأعراس وكأنها تبتهج وتحتفي بأبنائها المعلمين والطلاب ، وبناتها المعلمات والطالبات العائدين إليها بعد طول غياب ، يبثونها وجدهم وحنينهم . فتبادلهم شوقاً بشوق وحباً بحب وتحتضنهم بكل رأفة وعطف . وهي لا تبخل بذلك حتى على غير أبنائها وبناتها الذين يعبرونها من كل صوب وهم في طريقهم إلى قضاء الأجازة مع ذويهم . فيمكثون فيها ما شاء الله لهم أن يمكثوا ، يقضون حوائجهم ويرتاحون قليلاً من عناء الطريق، ووعثاء السفر، قبل أن يواصلوا سفرهم الطويل .

وأثناء ترددي على دكان الأخ محمد عوض الله خلال هذه الإجازة تعرفت على أحد المعلمين من أبناء أم كدادة وهو في طريقه من الصيّاح بشمال دارفور ، حيث يعمل ، إلى بلدته . فكانت فرصة طيبة لي أن أسأله عن بعض الجوانب الخاصة بالمدرسة والبلدة بصفة عامة . وقد عكس لي صورة طيبة عن الأحوال هناك ، وأجاب على الكثير من تساؤلاتي واستفساراتي . ولحق بنا معلماً في مدرسة أم كدادة الأولية في العام التالي منقولاً إليها من مدرسة الصيّاح ، وكان نعم الأخ ونعم الزميل ، ذلكم هو الأخ التجاني سراج ،(الإسلامي البارز، الذي أصبح فيما بعد رئيسا لاتحاد طلاب جامعة الخرطوم.) له تحياتي.

وبعد أن أوشكت الإجازة أن تنقضي ، بدأت مع الأخ علي محمد آدم في إكمال الاستعدادات الخاصة بالسفر . وأجمعنا أمرنا على أن نشتري بعض ما نحتاج إليه من أثاث منزلي متواضع من الفاشر ، وأن نستأجر طباخاً نأخذه معنا إلى أم كدادة . وبعد أن أكملنا ذلك تحركنا صوب أم كدادة على متن إحدى السيارات في الصباح الباكر.

ووصلنا إلى أم كدادة - التي رأيتها بالطبع عدة مرات وأنا في طريقي من والي الأبيض - في مساء نفس اليوم ، وأنا أتذكر قولة شهيرة لأحد السياسيين خاطب بها جمعاً سياسياً حاشداً هناك قائلا: (يا أهل أم كدادة إن الاستعمار قد كد عظامكم كداً!!) . فأصبح

لا يرد ذكر أم كدادة ، إلا وأتبع بهذه المقولة الشهيرة . ودلنا بعض الأشخاص الذين استفسرنا هم، إلى منازل المعلمين في أقصى الطرف الشمالي من المدينة . وبعد أن أنزلنا متاعنا وبدأنا في إعداد وترتيب المنزل، وصلنا أول وفد من سكان المدينة بزعامة الأستاذ أحمد الطيب زين العابدين، (المثقف المتمكن، والباحث في التراث، وعميد كلية الفنون الجميلة السابق، لاحقا) ، ـ الذي تم نقله من مدرسة أم كدادة الأولية في ذلك العام ـ والأخ محمد البكري ـ رحمهما الله ، وذلك بقصد الترحاب والتهنئة بالوصول ، ولقد أكبرنا فيهم ذلك ورأينا فيها لفتة كريمة تستحق الشكر والثناء .

ولا تسل كيف أمضيت ليلتي الأولي تلك في أم كدادة ! فرغم إرهاق السفر ومشقته إلا أن الأرق لم يدع لي سبيلاً إلى النوم . فقد كنت أشد ما أكون تحسراً على وداع الفاشر في ذلك الوقت بالذات من السنة . فهذه هي الفترة التي تكثر فيها الأفراح وحفلات الزواج على وجه الخصوص كما أسلفت . وكانت تلك فرصة سانحة للالتقاء بالأصدقاء والأحبة والسهر في تلك الحفلات إلى أوقات متأخرة من الليل ، بعد أن نكون قد أمضينا أول الليل في أحد الناديين العريقين بالمدينة ـ نادي المريخ ونادي الهلال ـ نحتسي أكواباً وأقداحاً من الشاي والقهوة والحليب والكاكاو و (الفرنساوي) والزنجبيل ، ونلتقي في ركن معجبي أغاني حقيبة الفن الخالدة بنادي المريخ بكل من الأصدقاء الأعزاء محي الدين محمداني ، وعلى عبد الرحمن زكريا ، ومدثر الريح السنهوري ، وحسن التاي ، وهاشم وحيدر محمد كوكو ، وعمر بيّن ، لاعب الكرة الحريف من أبناء كسلا ، ونور الدين محمد نور الدين ، و«أبو» القاسم كرم الدين ، وعبد الرحمن زيدان (لاعب المريخ العاصمي الفذ فيما بعد) ، وعبد القادر الحاج ، ونستمع إلى هذه الأغاني استماع الأعمى الذي يكاد يبصر من فرط إصغائه ـ ونطرب دون أن يستخف بنا الطرب ، إذ كان كل شيء يتم في هدوء ووقار . أو نلتقي في نادي الهلال بالإخوة عبد الملك من فداسي، ورمضان حسين، وعلى محمد احمد تنقو، وعبد المنعم منقة- رحمه الله___ وسليمان احمد حامد، وعثمان زيدان، وفيصل عبد العزيز الشفيع، وغيرهم من الأصحاب، الذين نسيت أسماءهم، فلهم المعذرة. ثم نذهب بعد ذلك إلى أحد مطاعم المدينة المنتشرة في السوق ونتناول ما لذ وطاب من الشواء والفول والحساء والأطباق المختلفة من الادامات . وبعد ذلك نرتاد بيت الأفراح هذا أو ذاك ، أو كليهما ، فالليل طويل والكل مقمر . وقبل حضورنا إلى النادي نكون قد استمتعنا بمشاهدة مباراة جيدة رفيعة المستوي بين فرق

المدينة المختلفة في ميدان النقعة .

وكانت الإجازة في الفاشر في الستينات ، وبكل المعايير بهجة ومتعة لا يعد لهما شيء ، فالأصحاب لا يفترقون إلا بعد أن ينتصف الليل ، يقطعون الطريق من طرف المدينة إلى طرفها الآخر سيراً على الأقدام ، لا يعرفون غير سرد النكات والملح والطرائف . ولا يحسون بطول (المشوار) مهما طال الطريق ، فالسمر والأنس ، ونسمات الليل الباردة ، ورومانسية الليالي المقمرة - في مدينة لا تعرف الكهرباء - كلها تفقد الإنسان الإحساس بالتعب والسأم والفتور. ونعود ونلتقي نهاراً في دار العم أحمد أمين العامرة - رحمه الله - (والد الأخ عبد الحميد) أو نذهب إلى مكتبة الأخ فضل محمدي (النهضة) الرائدة في حقل الثقافة ، ومن بعدها إلى مكتبة (الجماهير) لصاحبها الأخ الصديق صديق محمد البشير والتي حملت لواء الثقافة في الفاشر من بعد مكتبة النهضة . ونمضي سحابة يومنا في اجترار حوادث الأمس وفي انتظار وصول الصحف والمجلات التي كانت تصل بالطائرة مرتين أو ثلاث كل أسبوع من عاصمة البلاد . ثم نرتاد دكان الأخ محمد عوض الله أو دكان الأخ أحمد كدك لمواصلة الأنس . ونعود بعد ذلك لتناول طعام الغداء فرادى أو مجتمعين دون سابق وعد، وكيفما اتفق، وحيثما أدركنا ذلك. وفالطعام اللذيذ وفير في كل بيت، فذاك كان عهد الرخاء! . ثم نخلد إلى (غفوة) قصيرة نهب بعدها لمواصلة بقية برامج اليوم .

وكنت في هذه الإجازة بالذات حريصاً على حضور عرس معين لما يهيئه ذلك من لقاء معين له تصبو النفس واليه تتوق . ولكن تأخر قليلاً عن موعده وتم تأجيله إلى نهاية شهر يوليو ، فغادرت الفاشر في منتصف يوليو وأنا على ذلك حزين .

وعلى الصعيد الدراسي، بدأت الأحوال تسير سيرها الطبيعي في المدرسة بعد توزيع جدول الحصص والواجبات الإضافية. ولقد كان من نصيبي الإشراف على الداخلية ، وهو الأمر الذي جر علي الكثير من المتاعب والمشاكل كما سيأتي ذكره .

وما لبث أن حضر إلينا بعد أسبوعين تقريباً من بدء الدراسة الأستاذ إبراهيم إدريس - رحمه الله - نائب مفتش تعليم المديرية وأخبرنا أن مدرسة (شنقل طوباية) تعاني من نقص حاد في المعلمين ولابد من أن يصحبه أحد الخرجين الجدد إلى الفاشر كي يسافر من هناك الى (شنقل طوباية) . وخفق قلبي وتمنيت أن يقع اختياره علي. وأضاف

الأستاذ إبراهيم أن أحد المعلمين بمدرسة (شنقل طوباية) . هو الأخ الصديق الفاتح السناري . أوصاه بشدة أن يقع اختياره علي . فزاد ذلك من فرحي ، رغم علمي التام أن (شنقل طوباية) . التي تقع بين الفاشر ونيالا . تعد قرية إذا ما قورنت بأم كدادة ، وهي أكثر منها بؤساً وشقاء ، (مع اعتذاري الشديد لأخي وصديقي التجاني موسي المراجع القانوني بالبنك الإسلامي بجدة، وللأخ الطاهر حمدون وزير التجارة الخارجية السابق) إلا أن كل تفكيري في ذلك الوقت كان محصوراً فقط في ذلك العرس وما يهيئه لي من لقاء، ولا يهمني بعد ذلك في كثير أو قليل أن يأتي الطوفان !

ولكن ما كانت لفرحتي تلك أن تدوم طويلاً . فما هي إلا برهة وأنفرد الناظر بنائب المفتش ، وتحدثا طويلاً ثم عادا إلينا وأخبرانا أن الرأي قد استقر على نقل الأخ علي محمد آدم وعلى إبقائي في أم كدادة . وتبرمت وغضبت كثيراً من تصرف الناظر وإصراره على إبقائي مما يعني ضياع تلك الفرصة الذهبية التي كنت أتوق إليها . ورفضت أن أتناول غدائي معهم في ذلك اليوم كتعبير عن الاحتجاج .

والآن وبعد كل هذه المدة الطويلة ، تبين لي وأنا أنظر إلى الأمر من زاوية مختلفة ، انه كان ينبغي على أن أشكر الناظر على اتخاذه ذلك القرار لا أن أغضب منه . فلا أدري كيف كان سيكون حالي في (شنقل طوباية) أثناء الاستعداد لامتحان الشهادة الثانوية العليا دون تلك المساعدة العلمية الجبارة التي لقيتها في أم كدادة من نفر كريم من أبنائها والعاملين فيها . ألم يقل سبحانه وتعالي وهو أصدق القائلين : (عسي أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسي أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) . ولكنه طيش الشباب وضيق الأفق وقصر النظر !

لكن ذلك الصبوح الذي حرمني المدير من السفر إلى لقائه كان بي حفياً كعهدي به دائماً ، يؤنس وحشتي في تلك الليالي الطويلة المقفرة في أم كدادة ، كان هناك بطيفه وروحه وجميل الذكريات ، يشد من الأزر كلما استعصت الدراسة ، ويشحذ الهمم كلما دب اليأس في النفوس. ولم أشعر يوماً أنني كنت وحيداً ، فلقد كان دائماً هناك بقربي . كان المرشد ، وكان الهادي ، وكان البدر الذي يضئ الدياجير والربا .

ولقد كانت أم كدادة هي المنطلق الذي بدأت منه رحلتي العلمية استعدادا لامتحان الشهادة الثانوية كطالب ممتحن من منازلهم ، وقمت في بداية الأمر بجمع كل كتب

المقررات المدرسية . وساعدني في ذلك الكثيرون ، أذكر منهم الصديقين حيدر السيد أبوشوك ، وإبراهيم عبد القادر،ذلك الشاب الوسيم الأنيق والمهذب، والخجول، والذي كان غريبا في الفاشر، اعتقد من كردفان، وكان يعمل في مصلحة الأشغال، ولقد ربطتني به صداقة متينة، له تحياتي حيثما كان. وبدأت مرحلة مضنية وقاسية من الاستذكار والتحصيل.

وأذكر أنه في بداية مراجعتي للغة الإنجليزية استعصت على كلمة (ARRIVE) وفشلت في معرفة معناها ، رغم أنني متأكد من أنها قد مرت علي في المرحلة المتوسطة . فبدأت أقلب كتب المطالعة الإنجليزية (الريدرز) ، حتى وجدتها في الكتاب الرابع على ما أعتقد . فقررت أن أبدأ مراجعة اللغة الإنجليزية من ذلك الكتاب وقرأت (الريدرز) حتى الجزء السابع . ورأيت أن أخصص السنة الأولي في هذا الإعداد للغتين ، الإنجليزية والعربية فقط . فقمت بقراءات ما يربو على الثلاثين كتاباً إنجليزياً . وكلما أفرغ من واحد منها أقوم بتلخيصه في كراسة منفصلة . ومن الكتب التي قرأتها في هذه المرحلة ولازلت أتذكرها

(TALES OF TWO CITIES)، (GREAT EXPECTATIONS) لجارلز دكنز ، و (CRY THE BELOVED COUNTRY) لألن باتن ، وغيرها من الكتب . وقرأت كثيراً من الكتب العربية ، خاصة كتب عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، وعلى رأسها كتاب « الأيام».

وبعد أن آنست في نفسي تحسناً ملحوظاً في هاتين اللغتين اتجهت صوب كتب المقررات . ولم تكن هناك في أم كدادة مؤسسة تعليمية فوق الابتدائي ، ولم يكن بين موظفيها من تلقى تعليماً عالياً باستثناء ضابط المجلس والقاضي الشرعي . فكان لزاماً علي أن أعتمد على نفسي.

واذكر كم كنت أحاول حل بعض المعادلات الرياضية عشرات المرات قبل أن أهتدي إلى الإجابة الصحيحة المدونة في آخر الكتاب . وكيف أنني أمضيت خمسة أشهر أدرس كتاب رياضيات دون أن أعلم أنه قد ألغي من المقرر في المدارس الثانوية . وكم من مرة جلست في محطة السيارات القادمة من الفاشر أو الأبيض ليلاً ، أتفرس في وجوه القادمين علي أظفر بمن أعرف من طلبة جامعة الخرطوم أو المعاهد العليا ، او حتى المدارس

الثانوية كي استفسره عن حل معضلة أشكلت علي ، أو أطلب منه شرح قاعدة ما بين أنوار السيارات ، وضجيج المسافرين والباعة المتجولين ، وأزيز الماكينات وأبواق السيارات أو السائق منادياً لهم بالإسراع في الركوب . وما قصدت من كل هذا أن أقول إنني قمت بالمستحيل ، أو أتيت بما لم تستطعه الأوائل ، كلا وألف كلا ، فكثير من معلمي المدارس الأولية، ممن سبقوني أو جاءؤا من بعدي- وعلى رأسهم الأخ الصديق الدكتور آدم الزين محمد، الذي كان أول معلم في المدارس الأولية من مديرية دارفور يلتحق بجامعة الخرطوم من منازلهم. وكم أثلج صدري أن سمعت مؤخرا أن جامعة هولندية قد قامت بتكريمه كأفضل باحث في إفريقيا لعام ٢٠٠٧م، وهو أهل لذلك له التهنئة الخالصة___ فكلهم جدوا واجتهدوا، وتعبوا وعانوا، قبل أن يلتحقوا بالجامعة دون المرور بالمدارس الثانوية . لهم تحياتي وتقديري. وكل ما أردته فقط هو أن أسجل الحقيقة المحضة التي أصبحت جزءاً من التاريخ .

أما الأخ العزيز الأستاذ صالح أبوبكر إسحق ، فلا يمكن أن نجزيه قط على المساعدة العلمية الجبارة التي قدمها لنا . فكم أنفق الساعات الطوال وهو يشرح لي ومعي الأخ الصديق سليمان محمد الحسين ، كتاب المقرر في الجغرافية (OUTLINES OF GEOGRAPHY) ، أو يشرح لنا القواعد والبلاغة ، أو يصحح لنا مواضيع الإنشاء الإنجليزية في تواضع وأدب جم في دارهم العامرة بأم كدادة . ولقد كان لنا نعم الأستاذ ونعم الأخ وخير معين في أوقات المحنة والشدة. جزاه الله عنا خير الجزاء. وكذلك كان الأخ العزيز عبد الرحمن الزاكي صالح(الدكتور الطبيب الآن استشاري الأعصاب والمخ)، والشقيق الأصغر للأستاذ مالك الزاكي صالح، الذي مر ذكره في حلقة سابقة؛ وصديقه أحمد القرشي طه. رحمه الله. الذي كان موته الشرارة التي أشعلت ثورة أكتوبر الخالدة في عام ١٩٦٤م . وكانا يشرحان لنا الرياضيات بصفة خاصة، أثناء إجازة كان يقضيها الأخ احمد القرشي مع صديقه عبد الرحمن الزاكي في موطنه ام كدادة. ولا أنسى أيضاً الأخ الصديق أمين محمد الحسن بريش ضابط المجلس الذي درسني الأدب الإنجليزي ، وقرأت معه كتب شكسبير وبرنارد شو، والذي مر الحديث عنه كذلك، عند الحديث عن مدينة سنجة الرائعة؛ وكذلك الأستاذ الشفيع المعلم بالمدرسة المتوسطة بأم كدادة(من أبناء ابو جبيهة بجبال النوبة) وكان كل ذلك

يتم دون دفع مليم واحد ، وكانوا عوضاً لي عن المدراس الثانوية التي لم أوفق في الدخول إليها .

ولقد كنا نحن المعلمين فخورين أيما فخر بالوظيفة التي كنا نؤديها ، ممتلئين همة ونشاطاً وحيوية ، نتطلع إلى غد مشرق ونعيش ونتفاعل مع الحاضر . وكان يثلج صدورنا ويملؤها زهواً ما كنا نلقاه من تقدير واحترام من كافة أهل المدينة ، صغيرهم وكبيرهم: فأينما حللنا قوبلنا بالبشر والترحاب ، ودارت علينا أكواب الشاي وأقداح القهوة وعصير الليمون ، خاصة في السوق الذي كنا نرتاده غالباً بعد انتهاء اليوم الدراسي . وكان ذلك شأن كل المعلمين المنتشرين في ضواحي ومدن السودان ، قبل أن يتبدل الحال !

وكانت دعوات الولائم تترى علينا من أهالي أم كدادة الكرماء، والاصلاء- دون حاجة إلى « تأصيل». فالأصالة تراث موروث ، ولا يحتاج منا إلى هيلمانة يا قوم!!- والذين كانوا مولعين أشد الولع بمثل هذه الولائم والدعوات بمناسبة وغير مناسبة . وللحقيقة ، لابد أن أسجل هنا أنها كانت من أفخر الولائم وأحسنها كماً وكيفاً ، ولا تقل عن مثيلاتها في الفاشر بحال من الأحوال.

وفي غمرة هذا التقدير والاحترام ، أذكر أنني حضرت ذات مرة عصراً إلى السوق لقضاء بعض حوائجي ، وارتدت متجراً كنا نشتري منه الكثير من الأشياء ، هو متجر الأخ عبد الله موسي . وكان يجلس وقتها نفر كريم من أهل المدينة أمام المتجر . وما أن وصلت إليهم حتى هبوا جميعاً واقفين لتحيتي في كثير من التقدير والاحترام . وعظم ذلك في نفسي وأصابني شيء من الارتباك ، وأردت أن أقول لهم تفضلوا بالجلوس فذل لساني وقلت لهم (جلوس!!) ، وهي كلمة يعرفها كل المعلمين ، فهي التي كنا نرددها للتلاميذ عندما يقفون لدخول المعلم . ويبدو أن وزارة التربية والتعليم هي أول من طبقت حرفياً البيت القائل

قم للمعلم ووفه التبجيلا ** كاد المعلم أن يكون رسولا

لكن يا أستاذ... العشرة كتيرة خلاص !

رأينا في الحلقة السابقة المكانة المرموقة التي كان يتمتع بها ،إخوتي وزملائي، معلمو المدارس الأولية بصفة خاصة، والذين تشرفت بالانتماء إليهم فترة من الزمن تزيد على الخمس سنوات. وليس هذا تميزا لهم عن بقية معلمي المراحل التعليمية الأخرى، لكن السبب ببساطة، هو أن وجودهم في القرى، والبوادي أتاح لهم أن يصبحوا من علية القوم، فيحاطون بالاحترام والتقدير من الصغير والكبير(أي بمعنى آخر يقبضو الجو)!

لكن مما يؤسف له، هو تبدل حالهم، وتأخر رواتبهم، وقلة حيلتهم، وهوانهم على الناس، خاصة في مديرية دارفور المكلومة! وكم حزنت كثيرا مؤخرا عندما روى لي ـــ من لا اشك قط في صدق قوله- الأخ العزيز الأستاذ صلاح عيسي، زوج ابنة أختي الدكتورة سامية آدم عيسي ، عندما كان يعمل في سلطنة عمان، وجاء مرورا بسيارته إلى جدة في طريقه لقضاء الإجازة في السودان، ونزل ضيفا عندي. وكان يخرج يوميا لقضاء حوائجه، ويعود في آخر النهار. وعاد ذات يوم بعد أن امضي نهاره في ميناء جدة الإسلامي يشحن بعض الكفرات؛ على غير عادته واجما حزينا ، لا يحادثنا إلا لماما، ولم يتناول من الطعام إلا قليلا! فاستفسرته عم حدث له. فحكى لي انه استأجر أربعة من العمال السودانيين، الذين يعملون حمالين في ميناء جدة لإنزال الكفرات من السيارة. وإثناء فترة راحة صغيرة يمضونها، قدم احدهم إليه في استحياء، وسلم عليه باسمه. وأضاف:» حاولت أن أتذكره ولكني فشلت« . فسألني:» الم تتذكرني يا صلاح؟ أنا أستاذك فلاني الفلاني، الذي درسك في مدرسة بركة الأولية بضواحي الفاشر!!« فقال صلاح: « ليتني لم اسمع ذلك! فلقد ألجمتني المفاجأة، وشعرت بان الأرض تدور بي!» ولما عدت إلى رشدي، أقسمت عليه أن لا ينزل بعد ذلك كفرا واحدا ، وأعطيته أجره ليس كاملا فحسب، بل مضاعفا. وطيبت خاطره، لأزيل عنه ذلك الانكسار الذي بدا عليه، وقلت له إن العمل ليس عيبا ولا حراما، وانه خير له ألف مرة من أن يسال الناس أعطوه أو منعوه؛ وودعته، وأنا لا أزال حزينا على أستاذي حتى الآن!!

******

لا أدري لماذا كان تلاميذ المدرسة في أم كدادة في ذلك الوقت مثيرين للقلاقل ! وكم راعني

أن أجد الكثير من الشتائم المقذعة، والألفاظ البذيئة التي تسب المعلمين بأسمائهم على كثير من الجدران . ولكن تبين لي أخيراً أنهم وجدوا ضعفاً لدى بعض المعلمين من جانب، وآذاناً صاغية من ناظر المدرسة من جانب آخر. فأذكر أنه ذات مرة أذنب أحد التلاميذ فعاقبه أحد المعلمين عقاباً عادياً يحدث في كل المدارس، وأقل بكثير مما كنا نتلقاه عندما كنا تلاميذ . فما كان من هذا التلميذ إلا أن ملأ المكتب صراخاً . وعويلا . وجرى واشتكى للناظر . وأرسل الناظر على الفور في طلب المعلم ؛ ولا ندري ماذا قال له ، لكن يبدو أنه أكثر من توبيخه وازدرائه أمام التلاميذ، إذ أنه ما أن عاد ألينا في المكتب وجلس على كرسيه، حتى دفن رأسه بين يديه وأجهش بالبكاء !! ويبدو كذلك أن كثيراً من التلاميذ قد سمع بعضاً مما وجهه إليه الناظر ، وتبعوا المعلم إلى المكتب ، وسدوا علينا النوافذ والباب يحدقون في ذلك المعلم الضحية . ولقد حاولنا صرفهم جاهدين لكن دون جدوى . فقمت مع معلم آخر بقفل النوافذ والباب ، وكان ذلك أضعف الإيمان .

ولكم أستخف بنا التلاميذ بعد ذلك ! فكم من مرة يقف أحدنا في ساحة المدرسة وينادي: (ياولد) ، فلا يلبي أحد من الجالسين أو الواقفين بالعشرات في الساحة النداء ، ولا يحركون ساكناً ، وكأن الأمر لا يعنيهم من قريب أو بعيد ! وعلمت من كل ذلك أننا أمام تلاميذ مشاغبين ، ولابد من أخذهم بالشدة حتى تستقيم الأمور . فالتدريس يقوم أساساً على الاحترام، وقوة الشخصية، فإن ضعفت الشخصية ، زال الاحترام ، وبزوال الاحترام يختلط الحابل بالنابل وينفرط عقد النظام.

ومضى بنا الحال كذلك فترة من الزمان ، إلى أن جاءني ذات يوم أحد التلاميذ شاكياً ومتضرراً من تلميذ آخر قام بضربه . فأرسلت في طلبه . وعند الاستفسار تبين لي فعلاً أنه مخطئ ، فقمت بجلده ثلاث جلدات على ما اذكر . وكان لابد أن ينتقم كأقرانه ! فما كان منه إلا أن جرى ودخل مكتب الناظر مقدماً شكوى ضدي . وأرسل الناظر الفراش «سبيل» يطلب المثول أمامه . وأحس التلاميذ أن مسرحية أخرى ستمثل في مكتب الناظر ، وسيكون ضحيتها هذا المعلم الجديد ، لذلك سبقوني إلى مكتب الناظر ووقفوا على النوافذ وأمام الباب ، حتى أنني وجدت صعوبة بالغة في شق طريقي إلى داخل المكتب . ويبدو أن الناظر راقه أن يكون عدد المتفرجين كبيراً . فذلك أدعى لإرهاب المعلم حتى يرعوي ولا يعود إلى فعلته الشنعاء تلك مرة أخرى . وكان التلميذ المشتكي يتصدر المكتب

فرحاً وساخراً! وبدأ الناظر موعظة حادة يذكرني أن العقاب في المدرسة لا يتم إلا بعد موافقة الناظر ، لأن أهل التلاميذ يحمّلونه مسؤولية ما يحدث ، ويسببون له المشاكل ، وكل ما ينجم عن ذلك يقع على عاتقه .... الخ . كل ذلك بين نظرات الاستحسان والإعجاب من جماهير التلاميذ ، والتلميذ المشتكي يبتسم ويتبادل النظرات مع أقرانه في فرحة غامرة .وكلما ازداد الهرج والمرج ، يرفع الناظر صوته أكثر حتى يسمع التلاميذ بوضوح . وكنت أستمع لتلك الموعظة في صمت ودون أن أقاطع الناظر بكلمة . وبعد أن انتهي من حديثه التفت إلى و قال : « أرجو أن يكون الأمر قد وضح لك الآن يا أستاذ « . فقلت له : « نعم ، وأي وضوح يا حضرة الناظر! « . والتفت بدوري إلى « الفرّاش « سبيل . الذي لم يدع تلك المسرحية تفوته كذلك . وطلبت منه أن ينادي على أربعة من كبار التلاميذ ، وأمرتهم أن يطرحوا ذلك التلميذ أرضاً داخل مكتب الناظر . وقمت بجلده عشر جلدات أو أكثر ! وأفزع صراخه من كانوا على النوافذ والباب ، ففروا على غير هدى ملتمسين النجاة . وقلت للناظر : « أرجو أن يكون الأمر قد وضح لك أنت أيضاً الآن ، ولهذا التلميذ ولأقرانه ! « ووقف الناظر فاغراً فاه يحدّق ، ولم يستطع أن يقول شيئاً من هول المفاجأة التي ألمت به، واعتقد انه خشي أن يأتي الدور عليه!! وذهبت إلى مكتب المعلمين وجلست على الكرسي ، ولكن لم يتبعني أحد من التلاميذ أو يقف على النوافذ . أما ذلك التلميذ فهو الأخ . المهندس حالياً . التجاني محمد أحمد الصديق ، الذي كبر وأصبح من الأصدقاء ، وكم تلاقينا بعد ذلك وتذكرنا تلك القصة ، فضحكنا معاً وهو يقول لي: « لكن يا أستاذ العشرة كتيرة خلاص!! « وآخر ما وصلتني عنه من أخبار قبل فترة ليست بالقصيرة، انه سافر للعمل في ليبيا، وتزوج من آل ياسر عرفات، محققا بذلك شيئا من الوحدة العربية!! ويعيش هناك في حبور وسرور! له تحياتي.

******

ولم يكن حالنا في الداخلية بأسعد من حالنا في المدرسة. فمن المشاكل التي أتذكرها ، أنني كنت منهمكاً ذات ليلة في المذاكرة في داري ، فإذا بي أسمع ضجيجاً غير مألوف في أم كدادة الهادئة . وبدأ الضجيج يعلو رويداً رويداً ، فخرجت كي أتبين مصدر ذلك . وهالني أن أرى عشرات التلاميذ يتجهون صوب منزلي ! وعند وصولهم واستفسارهم عن السبب الذي دعاهم إلى الحضور في تلك الساعة المتأخرة ، أجابوني بصوت واحد أن (عبد الكريم) طردهم من الداخلية بالقوة . وعبد الكريم هذا أكبر تلاميذ المدرسة

سناً وحجماً ، ويقرب مني في العمر ، فارع الطول ، وقوي البنية ، ولو صارعته لصرعني!
وكان كذلك على قدر غير قليل من الغباء . وكنا نعامله معاملة حسنة في المدرسة ، فيها الكثير من الاحترام حتى لا نجرح شعوره ، (فالرجل) التلميذ متزوج في قريته وله مكانة وسط عشيرته . وكنت أسمح له بقضاء نهاية الأسبوع مع زوجته في القرية !!
أما هذه المرة فقد طفح الكيل ، وبلغ السيل الزبى ، ولا مجال للاحترام . فأمرت التلاميذ بالعودة الى الداخلية وسرت من خلفهم . وعند وصولي إلى هناك ، رأيت عبد الكريم يقف وحيداً في ساحة الداخلية بالقرب من كومة حطب كبيرة . وسألته عن سبب طرده للتلاميذ ، فأجاب أنه يريد أن يحضر زوجته تلك الليلة إلى الداخلية ولا يريد مضايقة من أحد . وتبين لي أنه ثمل بعض الشيء . وأمن التلاميذ بوجودي قليلاً ، وبدأوا يقتربون منه تدريجيا . فقلت لهم : « انقضوا عليه جميعكم واطرحوه أرضا » . وما هي إلا لحظة حتى أوقعوه على الأرض، وامسكوا به من كل طرف. فأخذت عوداً من كومة حطب كانت قريبة مني، وهويت به على ظهره . وبعد ضربتين أو ثلاث صرخ عبد الكريم صرخة مفزعة شقت عنان السماء ، فكفيت عن ضربه . وعاد الهدوء إلى الداخلية . ولكن عبد الكريم شعر أن لامجال له في المدرسة، بعد أن تجرع ذلك القدر من الإهانة ، فغادرها نهائياً . ولم أره قط منذ ذلك الحين ، ولا أخاله إلا غاضباً علي حتى الآن !
ولم تكن حياتنا كلها في أم كدادة غارقة في بحر من المشاكل بالطبع . فهي لم تخل كذلك من النوادر والطرائف . أذكر من ذلك أننا اجتمعنا نحن المعلمين ذات مرة وقررنا أن نمهد للقاء مع معلمات مدرسة البنات التي لا تبعد عنا كثيراً . فلم يكن في المدينة سوى هاتين المدرستين . وكان لابد من التعاون الوظيفي من أجل استكمال الوسائل التعليمية ، والكتب التي تنقص في مدرسة ، وتفيض عن الحاجة في المدرسة الأخرى. وهذا التعاون هو أمر شائع بين مدارس الأولاد والبنات داخل وخارج مدينة الفاشر.
فاجتمعنا وكتبنا خطاباً رقيقاً إلى الناظرة (سكينة محمد أحمد) ، وأبدينا رغبتنا في إجراء لقاء بين معلمي ومعلمات المدرستين بقصد التعارف ، لأن رسالتنا واحدة ، وغرضنا من وراء ذلك نبيل، وأرسلنا أحد التلاميذ بتلك الرسالة إلى مدرسة البنات وجلسنا نترقب الرد ، وبيننا المتفائل بحسن الرد ، ومنا المتشائم منه . ووصل الرسول بعد قليل ، وتناولنا منه الرد على عجل . وفوجئنا بما وجدناه مكتوباً على الورقة !! فلقد جاء فيها أن الفكرة مرفوضة جملةً وتفصيلاً ، ولا مجال هناك « لأمور اللف والدوران!!

« وثرنا لذلك ولسوء فهم قصدنا . وتناولت ورقة كتبت فيها بلهجة جافة إننا نسحب اقتراحنا، ونأسف له، بعد أن خاب ظننا في هيئة التدريس! وبعد أن انطلق التلميذ الذي حمل ردي بدقائق ، وصلت تلميذة من نفس المدرسة تحمل رسالة أخرى ، قمنا بفتحها ، فإذا هي مليئة بالشكر لنا على هذا الشعور النبيل ، والمبادرة الكريمة ، وأن الهيئة على أتم الاستعداد لإجراء هذا التعارف ، وأنها تقدم لنا في نفس الوقت دعوة رسمية في نهار الأربعاء بعد انتهاء اليوم الدراسي لكي نتناول معها المرطبات والشاي . وجاء في ذيل الرسالة أن الرد الذي حمله لنا التلميذ كان فقط من قبل المزاح !

ولكني وقعت في الفخ ، إذ قمت بتوقيع الخطاب الجاف الثاني باسمي شخصياً . وكان من البدهي أن يسألن في يوم الأربعاء عن كاتب الخطاب الثاني . وشعرت بالإحراج ، واعتذرت عن الذي بدر عني ، إلا أن ذلك لم يعفني من أن يطلقوا على ذلك اليوم لقب (الأستاذ المتسرع !).

والسيدة الأستاذة سكينة محمد احمد من بنات الفاشر، هاجرت إليها أسرتها من شمال السودان، واقترنت بعد ذلك بالمرحوم اللواء خليفة كرار بلة، مدير الأمن الأسبق، الذي كان شرطيا من طراز فريد، وجاء منقولا إلى الفاشر في بداية حياته الوظيفية من موطنه الصغير في القوز بضواحي الخرطوم، شاب وسيم ، دمث الأخلاق، شارك الناس في السراء والضراء، واندمج في الأنشطة الاجتماعية، والرياضية، ولعب في فريق الأهلي، وكان يعرف كيف يفرق بين واجبه الرسمي وبين اجتماعياته، وأحبه أهل الفاشر واحتضنوه لدماثة خلقه، وطيب معشره ، وبادلهم حبا بحب، واحتراما باحترام، حتى صار كواحد من أبنائها . وتوج كل هذا الحب بالاقتران بهذه السيدة الفاضلة، ام نسرين. واذكر في حفلة زواجه، التي أحياها احد فناني الفاشر، من الذين يجيدون الغناء، لكن للأسف لا يحسن اختيار الأغاني، لضحالة تعليمه، أن اختار هذا الفنان الهمام، أغنية شرحبيل احمد» يا ما بكرة تندم.. أنا حالك بشوفو!! «فقام الأخ خليفة متصنعا «التبشير»، وقدم نحونا يهز فوق رؤوسنا، ويقول لنا بصوت خافت: « بالله عليكم، دي أغنية يغنوها لعريس؟؟!»

ولم تنقطع علاقتنا به حتى بعد أن غادر الفاشر إلى الخرطوم. وكانت تربطه صداقة حميمة بصفة خاصة بالأخ العزيز المقدم شرطة معاش عبد الماجد احمد أمين، الشقيق الأكبر للأخ عبد الحميد، لذا كنا كثيرا ما نتلاقى؛ ودعانا إلى منزل أسرته، وعّرفنا

بوالده الرجل الطيب كرار بلة ، وأخيه المهذب عمر. والأخ الصديق اللواء خليفة كرار- رحمه الله- بكل تأكيد ليس من شاكلة شرطي أخينا العزيز والصديق الصدوق، والمثقف المسكون دوما بهموم الوطن، ورموزه، وتراثه، والاجتماعي بدرجة فارس . الأخ جماع بن مردس. فلقد حكى لنا ذات مرة في داره العامرة بجدة، حين أولم وليمة عشاء فاخرة على شرف وداع الأخ الصديق العميد بحر الدين عبد الله علي، مدير الجوازات السابق بقنصلية جدة، والذي هو أيضا شرطي من نوع ممتاز، أقام علاقات طيبة مع كافة قطاعات المغتربين ، واستطاع أن يغير نظرة جماع عن الشرطة حسب زعمه، له تحياتي. فلقد ذكر الأخ جماع انه كان طوال حياته يخاف من رجال الشرطة، ولكن العميد بحر الدين، بدماثة خلقه، وحبه لمساعدة الآخرين، وحل مشاكلهم، بوجه طلق بشوش: غير رأيه في الشرطة. وروى الأخ جماع أن احد الرواة قال ذات مرة لمستمعيه، أن كلبا دخل الجنة! فاستنكروا ذلك، وقالوا له:» أكلب في الجنة يا شيخنا؟؟!» قال» أي نعم! لأنه أكل ابن شرطي؛ ولو كان أكل الشرطي نفسه لكان في عليين، وهى ارفع درجات الجنة!» والعهدة على أخينا جماع!!

وللحقيقة والتاريخ، فان أهل الفاشر الطيبين – وبلا تعصب- كانوا يحسنون معاملة الموظفين الغرباء في المدينة لدرجة بعيدة، ويحترمونهم احتراما مبالغا فيه. فيبادلهم هؤلاء الموظفون حبا بحب، وتقديرا بتقدير، ويصبحون وكأنهم جزاء من أبناء الفاشر. وينطبق ذلك على الموظفات كذلك، مثل الأستاذة أيفون التي نقلت من عطبرة مديرة لمدرسة الفاشر الأميرية المتوسطة بنات، والتي طاب لها المقام فاستقرت في الفاشر. واذكر أن قابلتها في آخر زيارة لي إلى الفاشر، بعد مجيئها اليها باكثر من ربع قرن، في سوق خيري، كانت هي فيما يبدو المشرفة عليه، وقد تفشّرت تماما___ أي اصبحت فاشرية- والنساء والرجال لا ينادونها –احتراما- الا بـ « ست ايفون» . ولا غرابة في أن كثيرا من هؤلاء الموظفين قد تزوج من الفاشر؛ والأمثلة على ذلك لا تحصى ولا تعد.

والغريبة انطبق هذا حتى على غير السودانيين، من أمثال الدكتور المصري احمد غزالة، الذي نقل إلى الفاشر منذ أكثر من ربع قرن من الزمان كذلك، فاستوطن فيها، ولم يعد قط إلى مصر منذ ذلك الحين! ولقد تسودن حتى في لبسه، وتقاليده، وعاداته. اذكر انه حضر قبل بضعة سنوات لأداء العمرة، وزرته في منزل الأخ الصديق الشاعر عالم عباس محمد نور هنا في جدة، حيث كان ينزل، وفوجئت بان حتى كلامه أصبح فاشريا!! وهو

الآن مدير المستشفى السعودي التعليمي في الفاشر؛ له تحياتي. ويحكى أن احد هؤلاء الموظفين لم يكن في البداية راضيا على نقله من العاصمة إلى الفاشر، وجاءها على مضض. وعندما نقل منها، حزن على فراقها أيما حزن؛ فقال قولة أصبحت مشهورة:» الفاشر ينقلوك ليها تبكي ! وينقلوك منها تبكي!!»

هذا بخلاف تلك الأسر العريقة التي هاجرت منذ قديم الزمان من وسط وشمال السودان، واستقرت في الفاشر، وغالبيتها مارست التجارة، وتزاوجت، وتمازجت مع أهل الفاشر، وأصبحت فاشرية قلبا وقالبا، مثل آل السنهوري الريح، وآل السناري، وآل محمد كوكو، وآل القاضي إدريس، وآل ابو سم، وآل الياس جاد الكريم، وآل الطاهر محمد ابراهيم، وآل ابو اليمن، وآل محمد عبد الرحيم حماماتي، وآل الحاج بابكر كرم الله، وآل التاي، وآل عبد الرزاق التويم، وآل الكرف، وآل الطاهر العبادي، وآل الخليفة بابكر، وآل سهل البشير، وآل زيدان، وآل شطة، وآل الخضر، وآل عوض محمود، وآل الفاضل ساتي، وآل رمضان برة، وآل احمد حامد، وآل الشيخ بشير مالك، وآل صالح حسن، وآل الحلو، وآل عوض بلال، وآل التنقاري، وآل ابو شيبة، وآل قنديل، وآل طاشين، وآل عوض الله دفع الله، والكوارته، وغيرهم كثر؛ ولكني اعتذر لهم لضيق المجال، وحتى لا يصبح المقال وكأنه دليل هاتف!، كما أن الترتيب هنا لا يعني شيئا، وجاء بمحض الصدفة!

هذا بخلاف الذين استوطنوها من خارج السودان، من أغاريق، وشوّام، أو المصريين من أصول تركية الذين لهم حي كامل في الفاشر يعرف بحي» اولاد الريف»، الذي يقع على حافة وادي الفاشر الكبير. وقد تخصص هؤلاء في زراعة الخضروات، التي يمدون بها كافة أهل المدينة، ومنهم آل الشيخ العالم حسن سالم، و آل الأستاذ المؤرخ سليمان إبراهيم، وآل نورالدين، وآل البنجاوي، وآل محمد السيد، وآل علم الدين، وآل خلاف، وآل ابو صبرنج، وآل سلطان، وآل محمود اب دوقل، وآل عبد المجيد، وغيرهم من الأسر العريقة.

هذا بالإضافة إلى الذين استوطنوها من شمال وغرب إفريقيا مثل المغاربة، والشناقيط، والفلانيين، والهوسا، والبرنو، والبرقو، و الكنين (الطوارق) والسلامات وغيرها من القبائل؛ بالإضافة إلى القبائل التي انتقلت اليها من أجزاء أخرى من داخل دارفور.

ولا غرابة البتة في ذلك، فالفاشر نشأت عاصمة منذ عام ١٧٩٢م عندما أسسها السلطان عبد الرحمن الرشيد، ولا زالت حتى يومنا هذا؛ وتكون بذلك العاصمة الوحيدة

في السودان، التي استمرت عاصمة لأكثر من مائتي سنة! لذا لم يكن من المستغرب أن تهوي إليها أفئدة من الناس من كل حدب وصوب، وينصهرون فيها. وأصبحت تماما كامدرمان عاصمة قومية.

وآمل أن يتناول ذلك بتفصيل أكثر الصديقان الشاعر عالم عباس، والدكتور إبراهيم موسى، اللذان يعدان لتاليف كتاب عن الفاشر يتناول فيه الأخ عالم عباس الجوانب الاجتماعية، والثقافية، والأخ المؤرخ الدكتور إبراهيم الجوانب التاريخية، يكون إضافة مقدرة للكتاب الذي الفه الأستاذ ادم عيسى اسحق بعنوان» فاشر السلطان تتحدى الزمان».

وعلى الرغم من أن هؤلاء أصبحوا فاشريين ١٠٠٪، إلا أن صاحبنا عبد الرحمن أبو....، كان يصر على أن الذين تعود جذورهم إلى الوسط والشمال بصفة خاصة أنهم « جلابة»، ويقدح في شجاعة بعضهم، وقوة تحملهم للشدائد،تماما كما كان يفعل زميلنا في الفاشر الأميرية ابو الرشد مع الصديق ميرغني بابكر، اللذين ورد ذكر حكايتهما في إحدى الحلقات- لكن طبعا فقط من قبل المزاح، فهم أصدقاؤه كذلك- وكان يسخر بصفة خاصة بالصديقين العزيزين مدثر الريح، وحيدر كوكو، لاعبي الكرة الحريفين ، والخلوقين ،عندما نجتمع للأنس في نادي المريخ.

فقرر مدثر وحيدر أن ينتقما منه. وكان يعرفان الطريق الذي يسلكه ذلك الأخ عندما يعود إلى منزله بعد منتصف الليل. وكان يمر من تحت شجرة كبيرة بقرب مسجد الفاشر الكبير. فاختبأ ذات ليلة بقرب الشجرة، وعندما أبصرا الأخ عبد الرحمن قادما من بعيد وهو يترنم، خلعا ملابسهما، ، وتسلقا الشجرة. وحين وصل الأخ، قفزا اليه فجأة من أعلى الشجرة وهما يصدران أصواتا مزعجة ! ويأتيان بحركات غريبة! ويدوران من حوله! ولم يشك الأخ عبد الرحمن قط أنهما من الجان، فألقى بعصاه، التي لا تفارقه مطلقا، والتي يعتبر حملها من مكملات الرجولة، وأطلق ساقيه للريح، وقد شق صراخه سكون الليل!

وفي اليوم الثاني احضر مدثر وحيدر معهما العصا الغنيمة إلى النادي ، وعلم كل من في النادي بالقصة، وأدرك عبد الرحمن المكيدة، وأصيب بالخجل الشديد، وكفّ عن السخرية بأولاد من يعتبرهم « جلابة جبناء!!»

ولا ادري لماذا ذكرتني هذه الحادثة المتمثلة في»الخلعة»- او الفجعة- ليلا ، بطرفة حدثت

في الكومة حيث كان الأخ عبد الحميد احمد أمين(الذي هو بالمناسبة جراب طرائف، ويجيد السرد بطريقة عجيبة!! ومن النوع الذي لو جلست تستمع إلى نوادره، يمكن أن تموت في أي لحظة من الضحك.!! فخذ حذرك يا هذا!!) يعمل في مدرستها الأولية، إذ يحكي انه كان معهم في عام من الأعوام معلم، بسيط، وطيب القلب، و به شيء من غفلة، يجعل المعلمين يتخذون منه أضحوكة في بعض الحالات. وقرر هذا المعلم ذات مرة أن يقيم شهر رمضان كاملا ، حتى يصادف ليلة القدر. فبعد أن يتناول المعلمون عشاءهم، يأخذ فروته، وسبحته، وإبريقه، وبعض الماء ، وقليلا من التمر، ويذهب لكي يتعبد في قطية مهجورة ونائية تقع في طرف المدينة. وقرر زملاؤه من المعلمين أن يضحكوا عليه ذات ليلة حالكة الظلام، فاعدوا لذلك العدة، واشتروا أربع بطاريات من ذات الثلاث حجارة، وبعد أن أليل الليل، ذهبوا إلى تلك القطية في هدوء وصمت حتى لا يفتضح أمرهم. وأحاط الأربعة بالقطية التي كان الأستاذ بداخلها منهمكا في تعبده، وفي وقت واحد أضاءوا الأربع بطاريات، التي نفذ ضوؤها القوي من خلال القصب إلى داخل القطية ! فطار الأستاذ ووقع، وهمهم، وتمتم بكلام مبهم، وكاد أن يغشى عليه من هول « الخلعة»!! وبعد أن جمع إطراف شجاعته، رفع يديه بالدعاء، ساردا «اللستة» التي أعدها:» يا رب كذا ألف جنيه، وزوجة بنت حلال، وبيت.. و.. .. !» وقبل أن يكمل سرد «اللسته» قال له زملاؤه:»دعك من هذا الآن وهلمّ إلى السحور!!»

الناظر ... والضابط... والحاكم العسكري... والتحدي..!!!

كان لنا في مدرسة أم كدادة الأولية في عام من الأعوام، ناظر غريب الأطوار ، يثور دونما سبب، ويتخذ موقفاً عدائياً ضد الكثيرين دون مبرر، ويتعارك في غير معترك! وهو على استعداد على أن يحرج أي شخص ، وفي أي مكان دون مراعاة لإحساسه وشعوره. ومن هذه الإحراجات الكثيرة ، كان أحدها من نصيب مفتش تعليم القسم الأولي بمكتب تعليم المديرية عندما زارنا ذات مرة بقصد التفتيش ومعالجة المشاكل على الطبيعة .

وكنا نسمع أن هذا المفتش بالذات كلف بالهدايا وتواق إليها. وكان يحب أن يهدى إليه في كل منطقة يزورها بعض المنتجات والمواد الغذائية التي تتوفر محلياً بأسعار زهيدة تقل كثيراً عن أسعارها في مدينة الفاشر حيث يستقر السيد المفتش . وكان يعود من كل رحلة تفتيشية إلى منزله ، وعربته الحكومية تنوء بجوالات الذرة والدخن ، وصفائح السمن والزيت والكثير من الخراف والشياه .

فبعد أن فرغنا من تناول الإفطار ، أراد المفتش أن يأخذنا بعبارة (واللبيب بالإشارة يفهم) ؛ فأرسل القول عفواً : « كيف أسعار السمن عندكم ؟ « ولكن الناظر كان له بالمرصاد ، وفهم المقصود بذلك الحديث . فأطلق ضحكة رنانة ، وقال للمفتش : « إن السوق ملئ بالسمن ، ويمكنك أن تسأل أي شخص يدلك عليه ، أما نحن فلسنا تجار سمن! « ولم يرد المفتش بعد أن شعر بقدر كبير من الإحراج ، وقام بتغيير الموضوع بسرعة .

ولقد كانت لي مع هذا المفتش أيضاً مواقف(وبالمناسبة كان هو نفس ناظر «ابو الجعافر»- الأخ جعفر عباس- في المدرسة الأولية في جزيرة بدين ، الذي حكى عنه مؤخرا في ذكرياته « سيرة في مسيرة» بجريدة السوداني، وهو الذي قد وزع الحلوى على المواطنين عند قيام الثورة المصرية___ حسب رواية الأخ «ابو الجعافر»-، فيبدو انه رجل «تقليعات» من زمان. ومع أن الأخ»ابو الجعافر» كان يتقدمني بعام في كلية الآداب بجامعة الخرطوم-بينما كان أخوه الصديق محجوب يقل عني بسنة، يعني أصبحت سندوتشا بين آل عباس! - إلا أنني اعترف له بأنه اصغر مني سنا! واسألوا الأخ «ابو الجعافر» كي يحل لكم هذا اللغز!! واذكر انه حكى لي ذات مرة حكاية طريفة جدا، لكنها من العيار الثقيل، غير القابل للنشر للأسف!! لذا نطلب المعذرة من السادة القراء!

وفي اليوم الثاني لزيارة المفتش ، وبينما كنت أرتاح عصراً في داري ، سمعت طرقاً عنيفاً على الباب . وعندما خرجت وجدت تلميذين أخبراني أن مفتش التعليم والناظر يطلبان حضوري إليهما فوراً في المدرسة . وذهبت إليهما ووجدتهما جالسين في وسط ساحة المدرسة وأمامهما عدد من الكراسات وهما متجهمان . وألقيت عليهما التحية فردا ببرود شديد ، وطلبا مني الجلوس . وسألني المفتش عن عدد أسابيع السنة ، وعن عدد الأمالي المفروضة في كل أسبوع ، وأخبرني أنه بإجراء عملية حسابية بسيطة أكتشف أنني لم أعط نصف المقرر المفروض . وهاج وثار ثورة عارمة، ولكني تملكت أعصابي . وهو أمر نادر . ولم أرد عليه . وأراد الناظر أن يريني بعضاً من شهامته ، فقال لي : « للأسف لم تترك لي مجالاً للدفاع عنك ، فلقد سودت وجهي أمام المفتش! « .
وفي صباح اليوم التالي أتانا ذلك المفتش بفرية جديدة مفادها أن السيد وكيل وزارة المعارف في الخرطوم(الأستاذ عبد الحليم على طه، شقيق مربي الأجيال السيد عبد الرحمن على طه- رحمهما الله) سيحال إلى المعاش، ولابد من تقديم هدية له باسم معلمي الأوليات بالسودان . لذلك فإن مكتب التعليم بالمديرية فرض قدراً من المال يتوجب على كل معلم دفعه. وأجبته أنني ليست لدي معرفة شخصية بهذا الوكيل، رغم تقديري له، ولا أرى داعياً لأن أقدم له هدية، ولذلك فسوف لن أدفع مليماً واحداً . وعند ذلك خرج المفتش عن طوره ، ونعتني بأبشع ما يحفظ من صفات : (يا بخيل .. يا جشع .... الخ) وادعى أنني أريد أن أحرض المعلمين ، وأنه سوف يقوم عند عودته إلى الفاشر بنقلي . أو على الأحرى بنفي . إلى مدرسة (جبل سي) في شمال شرق جبال مرة ؛ وهي مدرسة يفر المعلمون من مجرد سماع اسمها ، فرارهم من الأسد . ولم أرد على اتهاماته وثورته ، بل قلت له : « يمكنك أن تنقلني إلى أي جبل تشاء ، ولكنني لن أدفع.»
ومرت الأيام ، ونقل هو مترقياً إلى مكان آخر ، وتلاقينا صدفة في وزارة المعارف بالخرطوم بعد ذلك بعدة سنوات وأنا طالب في الجامعة ، فبادرني كعادته ثائراً ، هائجا، وتعجب كيف أحضر إلى الخرطوم أثناء الفصل الدراسي ، لابد وأن الأحوال قد أصبحت فوضى في مكتب تعليم دارفور بعد نقله منها . وقلت له : « سيدي المفتش هل أنت متأكد أنني لازلت معلماً، وفي مديرية دارفور ؟! ، «وتركني وحالي وانصرف.»
ومن قصص أو طرائف الناظر الكثيرة، ما كان بينه وبين ضابط المجلس البلدي ، السيد إبراهيم يوسف علقم ، ابن عم الكاتب الناقد الاجتماعي، والسياسي الحاذق ، الذي

يكتب عمود « كلام عابر» بجريدة الخرطوم، الأستاذ عبد الله علقم: ويبدو انه من فرع الأسرة بالقضارف، بينما السيد الضابط من الأسرة، في الجزيرة. كان هذا الضابط، الذي أصبح وزيراً إقليمياً للصحة بالإقليم الأوسط فيما بعد، رجلاً هادئ الطبع رقيقاً ومهذباً، لا يتحدث إلا همساً، وعلى النقيض تماماً من الناظر. والغريب في الأمر أنه كان يكن للناظر كل تقدير واحترام، بينما الناظر يحتقره ويزدريه ويسخر منه، ويغتابه كثيراً دونما سبب. وحدث أن جرى الاستعداد للاحتفال بذكري انقلاب ١٧نوفمبر ١٩٥٨م. وكان السودان يعيش تحت الحكم العسكري الذي وضع كل مديرية تحت إدارة (الحاكم العسكري) الذي يهابه الجميع ويخشى بطشه. ولقد كان الحاكم العسكري لمديرية دارفور(اللواء ز.ح.ط.) يعيش في ترف وبذخ عجيبين في ذلك الوقت، داخل قصر فخم ملحق به حديقة حيوانات خاصة. ويحكى أنه دعا كبار الموظفين ووجهاء البلد ذات يوم إلى العشاء في داره، وأخذهم في جولة حول الحديقة. ويروى أن الشيخ عوض الله صالح - رحمه الله - قاضي المحكمة الشرعية آنذاك، والذي كان صريحاً وساخراً، لما رأى كل ذلك البذخ، ورأى قفص القرد تضيئه الأنوار الكهربائية الملونة قال: « ليتني كنت قرداً في دار أمير المؤمنين علّني استمتع بما يستمتع به من الكهرباء، التي حرمت أنا منها في داري !! «

والشيخ عوض الله صالح- رحمه الله- له نوادر كثيرة في الفاشر. ففي ذات يوم اتصل بالعديد من أصدقائه الموظفين الذين يسكنون حي الموظفين « الكرانك» بالفاشر، واخبرهم أن احد أصحابهم، الذي هو في نفس الوقت جار الشيخ عوض الله صالح، كلفه بان يتقدم إليهم بدعوة غداء في منزله غدا؛ دون أن يدري الموظف نفسه بذلك! وفي الغد، وفي ساعة الغداء، بدأ باب دار ذلك الموظف يقرع بين الحين والآخر، وهو يرحب بهذا، ويفتح الباب لذاك، ويحاول أن يجد مكانا لآخر. وبدأ عدد القادمين يزداد تدريجيا، حتى زاد على العشرة ! واسقط في يد الموظف، فالوقت وقت غداء، والعدد الذي جاءه كبيرا، وليس لديه ما يكفي هذا العدد، واحتار فيما يفعل، وبدأ يدخل ويخرج، وهو في حيرة من أمره! وشعر الضيوف أن حضورهم غير متوقع، وإنهم فاجأوا صاحب الدار،وأصيبوا بحرج شديد، فصاروا ينظرون في استغراب إلى الشيخ عوض الله، الذي لم يدع أيضا هذه الدعوة الكريمة تفوته! عند ذلك أطلق الشيخ عوض الله ضحكة رنانة،

وقال للحاضرين:» أنا صادق في أنكم فعلا مدعوون للغداء اليوم، ولكن ليس هنا، إنما في بيتي! فهلموا الي الغداء قبل أن يبرد!» وتنفس الموظف الصعداء بعد أن أدرك انه وقع ضحية لأحد مقالب الشيخ عوض الله! رحمه الله رحمة واسعة،وأحسن إليه. كان رجلا فاضلا بحق، وابعد ما يكون عن التزمت، والتعصب، والتشدد. اذكر انه زار ام كدادة ذات مرة، وكان ينزل في ضيافة الضابط، حيث نجتمع للغداء، ولا يرى غضاضة في أن يشاركنا بجلوسه معنا أثناء لعبنا « كنكان ١٤ أو الوست»، فيضحكنا كثيرا بطرائفه، ثم نذهب معه الى المسجد، فيكاد يبكينا بمواعظه عقب الصلاة!!

وبعودتنا إلى الناظر، نجد أن موعد الاحتفالات بثورة ١٧ نوفمبر « المجيدة» قد حان، وبدأت الاجتماعات التمهيدية بين رؤساء المصالح وناظري المدرستين. وكانت مدرسة أم كدادة المتوسطة قد افتتحت في ذلك العام. بالإضافة إلى ناظرة مدرسة البنات، من أجل الإعداد للاحتفالات ولتوزيع فقرات البرامج وتحديد الألعاب التي ستقدم في ذلك اليوم . وكان كلما عرضت لعبة للنقاش يقترح ناظرنا أن تتولي مدرستنا تقديمها . وأخذ بذلك نصيب الأسد من تلك الألعاب . وشكره الضابط على اهتمامه، وعلى هذه المشاركة المكثفة. ووزع ما تبقى من الألعاب بين مدرستي البنات ومدرسة الأولاد المتوسطة .

وجاءنا الناظر بعد الاجتماع فرحاً مستبشراً ، لا يعرف أرضا تسعه، وأخبرنا أنه سوف يلقّن ذلك الضباط درساً قاسياً لن ينساه أبداً ! وبدأ يشرح لنا خطته : فذكر أنه أقترح أن تقوم مدرستنا بتقديم معظم الألعاب التي تعرض في يوم الاحتفال . ولكن كانت تلك خدعة منه . فسوف لن تقدم المدرسة في الواقع شيئاً . وطلب منا ألا نجري أي استعدادات لذلك . وعند يوم الاحتفال سيفاجأ الجمهور بأن البرنامج الذي أعده السيد الضابط برنامجاً فاشلاً ، وسوف يجد الضابط نفسه في موقف لا يحسد عليه، عندما يضحك عليه الناس، ويسخرون منه. فانصرفنا ونحن نتحرق شوقاً إلى ذلك اليوم لنري كيف تكون المواجهة، وهل سيصمد السيد ناظرنا ؟ !! .

وجاء يوم الاحتفال ، واكتظت جنبات الميدان بجموع المتفرجين والمتفرجات ، وجلس كبار الموظفين ووجهاء المدينة والتجار داخل صيوان أحسن إعداده وتزينه . وارتدى الناظر أبهي حلله ، بدلة كاملة بنية ، وطاقية خاصة مصنوعة من جلد النمر ، وهو يتبختر أمام الجمع استعدادا للضحك والسخرية من الضابط .

وافتتح الحفل بآيات من الذكر الحكيم ، وتليت البرامج، وبدأت الفقرات . فنودي على

تلاميذ مدرسة ام كدادة الأولية للبنين لكي يقدموا (لعبة الكراسي) وصفق الحاضرون ، ولكن لم يتقدم أحد من التلاميذ أو المعلمين إلى ساحة الاحتفال . وظن مذيع الحفل أن تلك ربما تكون غلطة مطبعية ، أو ربما تكن الفقرة قد ألغيت . وكانت الفقرة الثانية من نصيب مدرسة البنات، ثم نودي على مدرستنا كي تقدم الفقرة الثالثة ، ولكن أحداً لم يحرك ساكناً !

عند ذلك شعر الجمهور أن في الأمر شيء، وبدأ يرمقنا بنظرات تنم عن الدهشة والاستغراب. ونهض الضابط من الصف الأمامي ، وتقدم إلى منتصف الساحة ، وناداني وسألني عن سبب إحجامنا عن تقديم ما أتفق عليه مع الناظر من فقرات . فأخبرته أن الناظر قد أمرنا بأن لا نعد العدة لذلك . وما أردت بذلك فتنة ، ولكن لامناص من الصدق . وكان الناظر يتقدم نحونا بخطى وئيدة ، وهو في أشد حالات التبختر. كيف لا ، وقد أوشكت نبوءته أن تتحقق . ولكن الضابط كان حازماً وصارماً. والتفت إلى الناظر وقال له : « أقسم بالله ثلاثاً لأ تصلن الآن بالحاكم العسكري في الفاشر وأخبره أنك قد خططت لإفشال احتفال المدينة بهذه الذكرى المجيدة ! « وعند ذلك سقط القناع ، وبان ناظرنا شخصاً هينا ! وخاف وارتجف ، وتلعثم، ولف حول نفسه ودار، وكادت أن تميد به الأرض! وأمرني بأن أنادي الأستاذ سليمان كي نحضرا التلاميذ فوراً لتقديم الفقرات وهو يردد : « لا يا سيدي الضابط هذا شيء بسيط !! «» لا يا سيدي الضابط هذا شيء بسيط !! « وما كان ذلك بالأمر الممكن ، فاقتصر الحفل على الفقرات التي قدمت من مدرسة البنات والمدرسة المتوسطة ، وبعض الفقرات التي لا تحتاج إلى إعداد من مدرستنا . وعدنا إلى الدُور ، واجتمعنا على الغداء في منزل الناظر كالعادة ، والرجل واجم مهموم لا يشاركنا الحديث إلا فيما ندر . وسألنا في إشفاقٍ ظاهر : « كيف يا ترى سيكون رد فعل الحاكم العسكري عندما يرفع إليه الضابط الأمر؟ « . وأراد أحد الأساتذة الخبثاء أن يزيد من روعه فقال له : « إن هذا الحاكم لا ينجو منه من جاءه مظلوماً ، فما بالك بالظالم؟! « فبهت الرجل ،وكف عن تناول الطعام. لكن الأمر مر بسلام ، ولم يتصل الضابط بالحاكم العسكري؛ ربما أبت عليه شهامته ذلك ،فالأخ علقم رجل كريم وابن قبائل، أو ربما أشفق على الحالة التي ظهر بها أمامه السيد ناظرنا ،فرأى أن يكون أفضل منه؛ ونجا ناظرنا بجلده من ذلك الحادث ، ومنذ ذلك اليوم كفّ عن اللعب بالنار!

أما ذلك الأستاذ، الذي أراد أن يزيد من روع الناظر، فهو الأخ العزيز الأستاذ محمد شريف بلي، من أبناء الزيادية بمليط، وجاري في السكن، والذي جاءنا منقولا تلك السنة إلى مدرسو ام كدادة. وكان شخصية مرحة وساخرة لا بعد حد، لا يتكلم إلا همسا، ويتكلف الوقار، في كل لحظة، ويلبس نظارته متدلية إلى أسفل انفه، ويقلد الفلاسفة في كل حركاته وسكناته، لدرجة انه يبدو كواحد منهم. ويأتي إلى المدرسة صباحا، وهو ينوء بما يحمل من كتب عربية وانجليزية، وكأنه ذاهب لإلقاء محاضرة في جامعة كمبردج، وليست في مدرسة ام كدادة الأولية! ولا اقصد البتة انه كالحمار يحمل أسفارا! حاشا وكلا ، فالأخ محمد فعلا رجل مثقف، ويقرأ كثيرا، وواسع الاطلاع « بس مرات يزودها حبتين!!»

اذكر كنا ذات مرة عائدين من السوق ليلا، فلمحنا ونحن في طريقنا إلى منازلنا، جمهرة من الناس، وأنوار مضيئة في الفسحة التي تقع بقرب المجلس. فقال لي الأخ محمد» « ما رأيك في أن نذهب إلى هناك لنرى ماذا يجري؟» وعندما دنونا من مكان التجمهر، رآنا الشخص الجالس في المنصة، فاخذ الميكرفون وقال:» الآن نرحب بالمحاضر الأستاذ محمد شريف بلي الذي وصل لتوه !!!» ودوت الأيدي بالتصفيق. فقال لي الأخ محمد:» محمد شريف أنا؟! يا للمصيبة! الكارثة ليست هي نسياني للمحاضرة وموعدها، بل الأهم من ذلك نسيت عنوانها كذلك !!» فقلت له تقدم يا بطل وربنا. يهونها عليك!! ولحسن الحظ قبل أن يبدأ في إلقاء محاضرته، المجهولة الهوية بالنسبة له، وقف مقدم الحفل، وقال:» الأستاذ سيحدثنا الليلة عن سيرة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام فليتفضل.»ولا شك في أن صاحبنا قد تنفس الصعداء حين عرف عنوان محاضرته! وألقى محاضرة- كما يقول أخواننا المصريون-» أي كلام»! وعدنا إلى الدار بعد المحاضرة، ونحن لا نكف عن الضحك على هذا الموقف الحرج؛ حين أصبح العريس، الذي أقيم ذلك الحفل على شرفه، وهو آخر من يعلم! له تحياتي الكثيرة حيثما كان.وذكرتني الطريقة الفلسفية التي ينتهجها الأستاذ محمد شريف ، بأستاذنا في الفلسفة في جامعة الخرطوم لاحقا، البروفيسور شاهين. فكان لا يكتفي بالفلسفة أستاذا، بل يتخذ منها أسلوبا في الحياة. فتجده بسيطا في كل شيء، رجل تقدم به العمر، يمشي بخطى وئيدة، ويتحدث بصوت خفيض، و يخالط دائما الطبقات الكادحة، ويتبسط معهم في الحديث، لينفذ إلى داخلهم. وكان يسكن في بري؛ وليست له سيارة، ولا يركب تاكسي، بل يتخذ من البص

مركبا له وسط العمال، والبسطاء من الناس. ويحكى انه ركب البص ذات يوم غائظ. والناس في داخل البص يعانون من الأمرين الحر الخانق، و التكدس. وهم عائدون إلى دورهم بعد يوم عمل شاق، ينشدون شيئا من راحة .فالتفت البروفيسور إلى اقرب من يجلس بجواره، وسلم عليه، ثم سأله دون مقدمات: « ما رأيك يا أخ في أرسطو؟؟! » فما كان من ذلك الأخ» الزهجان» إلا أن قال للبروفيسور» يحرق ... و.... أرسطو! الناس في شنو وأنت في شنو!!» والعهدة على الراوي!

ويبدو أن سجل النظار في امكدادة حافل بالطرائف. فتذكر الروايات أن احد نظار مدرسة ام كدادة الأولية في زمن الانجليز كان يدّرس الفصل الرابع رياضيات، وزار مفتش التعليم الانجليزي المدرسة، ودخل الفصل، وكان الناظر يعطي التلاميذ الحساب الإملائي. فأراد الناظر أن يعكس للسيد المفتش مدى نباهة تلاميذه في الرياضيات. فما كان منه إلا أن أعطى التلاميذ عملية شفهية خرافية من شاكلة:(٧×٩ + ٨- ١٧ ÷ ٦ + ٢٤ يساوي كم؟؟) ، وقبل أن يجيب التلاميذ ،- وبالطبع كان الناظر سيقبل أي جواب يأتيه___ أشار المفتش بيده إلى التلاميذ آمرا إياهم بالسكوت، ثم التفت إلى الناظر قائلا :» كم الجواب أنت يا حضرة الناظر؟؟!» فوقف الشيخ في العقبة، واسقط في يده!!

وما دمنا في ذكر المواقف والرجال ، فلابد لنا أن نذكر موقفاً مغايراً تماماً لموقف ناظرنا، يدل على الشجاعة والاعتزاز بالنفس___ ولو أن الناس يختلفون في تفسيره___ والمسرح هو نفس المسرح ، والمناسبة هي قدوم نفس ذلك الحاكم العسكري. الذي أرهب مجرد سماع اسمه ناظرنا في زيارة إلى أم كدادة التي رأت أن تقيم حفلاً خاصاً تكريماً له . وجلس كبار الشخصيات ورؤساء المصالح الحكومية الذين رافقوه من الفاشر في مقدمة الصيوان ، وصغار القوم في مؤخرته ، ومن حولهم الرجرجة والدهماء ، وذلك من أجل أن يكونوا في استقبال (سعادته) عند وصوله إلى ساحة الاحتفال وبعد قليل ظهرت طلائع الموكب المهيب وبدأت الأكف تصفق والرقاب تشرئب ، والهتافات تشق عنان السماء . فلكل زمان طبوله ومغنوه . ووقف جميع الحاضرين من كبار الشخصيات والزوار في الصفوف الأمامية ، ونحن صغار الشخصيات في الصفوف الخلفية ؛ ولكن شخصاً واحداً لازال جالساً في الصف الأمامي ، يدخن سيجارة ، ويضع رجلاً على رجل ، وكأن الأمر لا يعنيه من قريب أو بعيد . واستعجب الناس ذلك واستنكروه ، ونظروا إليه شذراً . وظن البعض أنه لابد وأن يقف عندما يبدأ الحاكم العسكري في مصافحة كبار

مستقبليه . لكن خاب فألهم ! فهاهو الحاكم قد بدأ في مصافحة الجالسين في الصف الأمامي الذي يجلس فيه ذلك الشخص ، لكنه مازال جالساً وعندما وصل إليه الحاكم وأراد تحيته، اضطر للانحناء لمصافحته، إذ لازال صاحبنا في جلسته تلك !

واستمر الحفل بعد ذلك والكل يتساءل عن السبب الذي أقعد هذا المسؤول الكبير عن الوقوف . وبعد أن انفض الحفل، أسرع إليه المشفقون والفضوليون على السواء يستبينون حقيقة الأمر إذ خشي بعضهم أن يكون مكروه قد ألم به . عند ذلك أجابهم ذلك الرجل الشجاع الأستاذ عبد الله البشير نائب مفتش تعليم المديرية قائلاً : « قولوا لي بربكم كيف أقف لتلميذي الذي قمت بتدريسه في المدرسة الثانوية ؟ إن كان هناك من يقف منا للآخر فلابد أن يكون هو، أليس كذلك؟؟ !!» وانصرف الناس عنه مذهولين .

وامكدادة هي معقل قبيلة البرتي العريقة في دارفور، ومقر نظارتها، التي تعاقب عليها آل ضو البيت نور الدائم، كابرا عن كابر. وفي عهدنا كان الناظر هو إبراهيم ضو البيت، وكان شانه شان كل نظار، وملوك، وشراتي الإدارة الأهلية في كآفة أرجاء السودان، قمة في الكرم، والشهامة، والحكمة، والمروءة، وكل الصفات الحميدة. واعتقد أن من اكبر أخطاء حكومة نميري، هو إلغاؤها لنظام الإدارة الأهلية . وعلى الرغم من أن التراث السوداني مليء بقصص عظمة هؤلاء الناس، وتوقير واحترام الناس لهم إلا أنني لا استطيع إيراد أكثر من قصة واحدة، لأنني كنت فيها شاهد عيان.

أذكر في مرة من المرات ، كنت جالسا مع العم علي بدين في المسطبة المرتفعة أمام شركة شل في الفاشر، حيث يعمل العم علي، ومعنا صديقه الملك رحمه الله محمود ، الذي كان من أشهر رجالات الإدارة الأهلية في السودان، ومثل مدينة الفاشر في أكثر من دورة برلمانية ؛ وكان كذلك رئيس محكمة الفاشر الأهلية قبل إلغائها . وكان يجلس بصفته الشخصية فقط ، إذ لم تعد له أية صفة رسمية ، بعد إلغاء الإدارة الأهلية في عهد النميري.

و بينما نحن كذلك إذا بالناس يتصايحون حول شخص هائج، تشاجر مع آخر، فاستل سكينا وطعن بها المتشاجر معه، وعندما أبصر الدماء تسيل أصيب بالهيجان، وأصبح يهدداً كل من يحاول الاقتراب منه او يسعى لمساعدة المصاب بالسكين، مهددا إياهم بالقتل. وأسرع بعض رجال الشرطة بأسلحتهم، وأحاطوا به وطلبوا منه أن يرمي بالسكين، ولكنه رفض. و كلما حاول بعض رجال الشرطة أو المواطنين التقدم نحوه لوح

مهددا بأن الذي يقربه ستستقر السكين في أحشائه.

وكلما يتجه إلى ناحية يفر الناس من حوله ويدفعون بعضهم البعض. فيقع منهم من يقع على الأرض ويفر الباقون. وترك الكثير من الناس أعمالهم و بدأو ا يشاهدون هذه المناورة . كل هذا ونحن نشاهد ما يحدث أمامنا من المسطبة التي نجلس عليها أمام الشركة. وعندما تأزم الموقف، ولم يستطيع أحد من الناس أن يقبض على هذا الشخص الهائج، أو يهدئ قليلا من ثورته ، نهض الملك رحمه الله محمود وتقدم في خطى ثابتة، أعزل من كل سلاح، إلى حيث يتجمهر الناس . وبحكم منصبه سابقاً في المدينة كان يعرف الكثيرين فصاح منادياً ذلك الشخص : « فكى آدم ارم السكين دي، وتعال هنا يا مجنون!! « والتفت الشخص في غضب ليتبين هذا الشخص الذي تجرأ ووصفه بالجنون ، وعندما أبصر الملك ، ألقى بسلاحه أرضاً ، وتقدم في ذل و انكسار نحو الملك، وجلس أمامه أرضا، وهو يردد « الله يهديني ..... الله يهديني يا ابوى!! « وكأن الملك قد سحره برقية ما . ولكنه ليس السحر ، وإنما هي الهيبة، والوقار، والاحترام الذي وقر في نفوس الناس، والشجاعة من جانب الملك، الذي يشتم رجلا هائجا، ومسلحا، ويتقدم نحوه. ،وهو اعزل من كل شيء!! و قال له تعال معي، وأجلسه بقربنا، وأمر الشرطة بالانصراف، وأخبرهم بأنه سوف يرسله لهم بعد قليل، وفعلا جاء الفكي آدم وجلس أرضا بقربنا. كالحمل الوديع، وبعد مدة حذره الملك من أن يفعل هذا مرة أخرى، وصرفه، و انتهى بذلك كل شي.

يوم فتكت الأسلحة «الرشاشة» بالأخ علي!

لم تكن حياتنا في امكدادة تخلو كذلك من المواقف الحرجة . ولعل أكثرها حرجاً ما جرى لي ذات يوم بعد أن قادني الطريق صدفة إلى حفل شعبي ، أعتقد أنه كان حفل عرس . فوقفت مع من معي من الزملاء نتابع فقرات الحفل . وكانت فرصة لي أن أشاهد طريقة الجلد بالسوط وهو أمر يزاول في كثير من قرى دارفور ، وفي أجزاء أخرى من السودان. وسمعت عنه كثيراً إلا أنني لم أره قط من قبل، بوصفي من أبناء المدن. ويتمثل في التحدي بأن يلقي أحدهم السوط أمام أحد الأشخاص ، ويخلع ملابسه ويتقدم إلى وسط الحلبة و (يركز) . أي يقف وقفة معينة . طالباً من الذي ألقي أمامه السوط أن يقوم بجلده . ويجلده الآخر جلداً لا هوادة فيه ، والمجلود لا يحيد عن وقفته تلك أو يرتجف ، حتى ينال استحسان جموع النساء والشابات اللاتي من بينهن الأم والأخت والزوجة والحبيبة . ويعبر هؤلاء عن فرحتهن بشجاعة المجلود بإطلاق زغاريد الفرح وعبارات الإعجاب ويتحتم على الجالد أن يتبادل الدور مع المجلود أمام مرأى ومشهد من رواد ذلك الحفل الكريم .

وبينما نحن نشاهد ذلك في شيء من الدهشة والاستهجان ، إذ بأحدهم يلقي السوط فجأةً أمامي طلباً في النزال ! وأسقط في يدي إذ كيف أجلد أو اجلد دون سابق مشكلة ، أو حتى معرفة ، وسط هذه المعمعة من البشر التي تضم بين من تضم عدداً من تلاميذي الصغار! ولا أخال إلا أن بعضهم هلّل لذلك ، كيف لا وهم على وشك أن يروا ذلك الذي طالما قام بجلدهم ، يجلد اليوم أمام أعينهم شر جلدة . ولكن لحسن الحظ ، فهناك ذوو الخير الذين يتدخلون في الوقت المناسب . فسارعوا فوراً إلى التقاط السوط من أمامي وقذفوه بعيداً عني ، رافضين هذا المسلك ، محتجين بأن هذا المعلم ضيف عليهم وليس من أبناء المنطقة ، ولا ينبغي الزج به في هذا المعترك . واختلفت الآراء بين مؤيد ومعارض ، وساد الهرج والمرج ولغط كثير وأنقذت من ذلك الموقف ، ورجعت إلى الدار وأنا أتحسس ظهري الذي أريد به سوءاً عصر ذلك اليوم لولا تدخل (الأجاويد) .

وموقف حرج آخر يدور حول موضوع سبق وأن تعرضت له ، إلا وهو التسمم ، وإن كان التسمم الأول « بالعروق البلدية » حادثاً فريداً ، فإن هذا الذي أنا بصدده تسمم جماعي ، جعلنا نعيش لحظات قاسية .

كانت لنا لقاءات كثيرة في منزل مولانا فضيلة الشيخ مصطفى محمد عبد الله . القاضي الشرعي بأم كدادة ، حيث كنا نتناول وجبة الغداء معاً . وكان مجلسنا يضم إلى جانب مولانا الأستاذ الفاضل أحمد المصطفى من أبناء دار مالي بقرب عطبرة وزميلي في المدرسة ، والأخ عبد الصمد كاتب المحكمة، والأستاذ إبراهيم من أبناء المسعودية. زميل آخر في المدرسة، وابن مولانا (أحمد) وشخصي . وكنا نساعد الطباخ في إعداد الطعام لخلو المنزل من النساء . ولقد كانت تدور مناقشات أدبية كثيرة ، ومولانا مصطفى رجل له باع طويل في هذا المضمار. وأذكر كم أعجبتني ذات مرة صراحته . رغم أنها كانت لاذعة .

فقد كنت كغيري من الشباب في تلك السن ، أعيش حالة خاصة أحاول التعبير عنها شعراً عاطفياً جياشاً . ومن لم يحاول منكم قرض الشعر في مقتبل حياته حق له أن يهزأ بي!! . وكانت لي محاولات ومحاولات أذكر لطالما ضحكت عليها ، عندما تقدمت بنا السن ، ودرست علم العروض والقوافي في الجامعة على يد الأستاذ النحوي الكبير المصري الجنسية، الدكتور مكي الأنصاري ، وعند ذلك فقط تبينت وفهمت السر من وراء رأي مولانا مصطفى في محاولات الشعرية تلك !

فبعد أن تجمعت لدي عدة محاولات ، قلت لابد وأن أستشير مولانا فهو لن يبخل علي بالنصح . وذهبت إليه مساءاً وأفضيت له بالأمر ورحّب بالفكرة وطلب مني أن أقرأ عليه (قصائدي) . ولبث برهة وأنا أقرأ ، والرجل صامت ينصت ويصغى إلى . وبعد أن انتهيت من القراءة سألته عن رأيه . فقال لي : « أيها الأستاذ الجليل إن قولك هذا أشبه بمقال في صحيفة قسّم في منتصفه بمسطرة إلى قسمين كي يبدو كالشعر ! » ثم أردف بالعامية السودانية: « يا عم ده لا شعر ولا يحزنون!! » .

ويبدو أنني توقفت بعد ذلك عن تلك المحاولات . ولا أدري لماذا قمت بحرقها في إحدى الإجازات في الفاشر ، في يوم يشير إليه أخي وصديقي إبراهيم موسى. والذي حضر وأد تلك المحاولات. أي تم في يوم مشرق .SPLENDED DAY

لنترك الشعر جانباً لنرى ماذا أصابنا في ذلك اليوم ، حيث كان ضمن وجبة الغداء علبة من (السردين) أضفناها إلى غدائنا المتواضع دائماً، نظراً لأن أم كدادة تفتقر إلى الخضروات والفواكه والبقوليات . وتناولنا وجبتنا تلك بسلام ، وأردنا أن نخلد إلى الراحة . ولا أدرى من منا هو الذي أمسك بعلبة السردين الفارغة وبدأ يقلبها بين يديه

، وصرخ: « يا إلهي هذه العلبة مسمومة ! أنظروا إلى ما بداخلها من صدأ ! » ويا للهول ! فلقد رأينا طبقة بنية ظاهرة على جوانب وحواف العلبة . فأسرعنا إلى جمع كل ما في المنزل من ليمون. وهو شحيح. وقمنا بتقسيمه ومصه حتى يفسد ما استقر من سم في داخلنا . ولم نطمئن إلى جدوى ذلك ، ولكنه كان من قبل باب (أضعف الإيمان) . ومما زاد في روعنا أن أم كدادة ليس بها مستشفى في ذلك الوقت ، ولا توجد سوى (الشفخانة) الصغيرة والتي لاتسمن ولا تغني من جوع في حالة وجود تسمم جماعي كهذا . لكنها أفضل على أية حال من شفخانة جبل الحلة، القريبة من امكدادة، والتي يعمل فيها الأخ بليلة من أبناء الزيادية في مليط، والذي جاءنا ذات يوم وهو في طريقه إلى الفاشر، ليشكو إلى باشمفتش المديرية عن انعدام الأدوية في الشفخانة. وحرصا منه على استمرار الشفخانة في أداء واجبها، ولإحساسه بالمسؤولية، لم يغلق الشفخانة، لكن احضر « فكي» وجاء إليه بزجاجات الأدوية الفارغة بعد نظافتها، وطلب منه كتابة بعض السور على الألواح ثم عمل «محاية» ملئت بها الزجاجات، وكتب عليها اسم السورة، والحالات التي تصرف فيها، وعدد الجرعات! وبالطبع السور الكبيرة للأمراض الصعبة، وصغار السور للصداع، والآلام الخفيفة!! وشرح كل ذلك لمساعده، وسافر هو مطمئن على أن الشفخانة ستستمر في أداء واجبها!! وقد يضحك عليه البعض، لكنني انظر إلى ذلك كنوع من التفاني في أداء الواجب وبإخلاص شديد!، تماما كما كان الحالة مع المسؤول عن السجن في امكدادة، البتجاويش عبد ا لرحمن، الذي بلغ به إخلاصه في العمل، إلى أن يقضي إجازته الخاصة في كل يوم جمعة في مزرعة الحكومة التي تقع على ضواحي امكدادة، يقرأ سورة ياسين عشرات المرات، سائلا الله العلي القدير أن ينزل الغيث حتى ينبت زرع الحكومة، وينتج ذرة وفيرة، لا ينال هو من ريعها شيئا لنفسه! لكنه التجرد، والتفاني في أداء الواجب إلى الذهاب إلى حد ألا معقول! وهو ما يشبه تفاني اليابانيين في الواجب، الذي بزوا به العالم. هل منا اليوم من هو مستعد إلى الذهاب إلى هذا المستوى من التفاني في العمل؟؟!!

ونعود إلى تلك اللحظات القاسية التي دخلنا فيها بعد تناول علبة الساردين تلك ، وبدأنا نعد الوقت بالدقائق ، والتي بدأت تبطئ على غير عادتها ! وقلّ حديثنا ومزاحنا ، وارتسم على الوجوه شيء من الجدية والترقب الحذر . والابن أحمد كان أقلنا انزعاجا. فالطفولة نعمة. ودخل يلعب في غرفة مجاورة . وفجأة سمعنا صوت ارتطام شديد بالأرض صادر

من الغرفة التي يلعب فيها أحمد ، وتخيلنا أنه أغمى عليه فوقع على الأرض وتسمر والده مولانا في مكانه ، ولم يستطع الحراك! وأسرعت مع الأخ عبد الصمد لنرى ماذا أصاب احمد . ولكن لم يكن هناك شيء غير عادى ، كل ما في الأمر، هو أن أحد الكراسي وقع على البلاط فأحدث ذلك الدوي . ونظر إلينا أحمد في دهشة لا يدري سبب هرولتنا والنظرات في عيوننا . فعدنا أدراجنا إلى غرفة (الانتظار) . وطال انتظارنا وترقبنا ، وبدأت الأزمة تنفرج قليلاً قليلاً ، ولم يحدث لنا شيء، وفشلت بذلك تجربة أخرى من قصص التسمم . ونسأل الله الستر من قولة السودانيين (الثالثة واقعة !) . أما الابن أحمد فقد شبّ ونما وأصبح طبيباً ، يداوي المتسممين ضمن من يداوي . أين أنت الآن يا دكتور احمد مصطفى محمد عبد الله؟ لك تحياتي.

ومن المواقف الحرجة والخطرة في آن واحد ، والتي تعرضت لها إبان هذه الفترة ، ما حدث لنا عصر أحد الأيام مع مجموعة من التلاميذ ونحن نلعب كرة القدم في الميدان الشمالي الذي يقع ما بين المدرسة وبين منازل المعلمين ، وبالقرب من منطقة الآبار التي تكثر حولها الحيوانات من أبقار وجمال وثيران وأغنام ، وهي في حركة دائمة إما صادرة أو واردة .

فبينما كنا منهمكين في اللعب ، سمعنا فجأة صرخات تردد : « الثور ! الثور ! » وعندما التفتنا إلى مصدر الصوت ، رأينا ثوراً هائجاً يفر من منطقة الآبار ويجري في اتجاهنا . والناس يفرون أمامه على وجوههم بين صياح وصراخ النساء والأطفال . وبالمثل تشتت شمل التلاميذ مذعورين وكل يجري في جهة . وكانت الكرة بالقرب مني ، فالتقطها على عجل استعدادا لإطلاق ساقي للريح ، فهاهو الثور أصبح منا قاب قوسين أو أدنى . وفي اللحظة التي هممت فيها بالعدو صوب منزلي، شعرت بأحد التلاميذ يتشبث بي من الخلف حيث اختبأ وراء ظهري مستجيرا بي! عند ذلك تحول خوفي إلى شعور بالمسؤولية؛ ولا اعتقد أن اجبن شخص يمكنه الفرار في مثل هذا الموقف . ويترك الطفل فريسة ميسرة للثور . فالفرار عند ذلك لن يكون التماسا للنجاة ، وإنما يصبح جريمة نكراء في حق هذا المسكين الذي أعياه ما يفعل فلاذ بي أملاً في الحماية، فلا يمكن أن اهرب واتركه لقمة سائغة للثور! . وقررت وقتها البقاء إلى جانب الطفل ، ومواجهة المصير الذي يخبئه لنا القدر! و ما هي إلا لحظات واقترب منا الثور الهائج وهو يعدو بكل قوة نحونا مباشرة! وعندما أصبح الثور على بعد مترين أو أقل من حيث نقف ، لا أدرى ما

الذي دفعني إلى أن أقذف الكرة بكل قوة أمامه. لعل السبب أنها كانت « السلاح » الوحيد المتاح لنا. وضربت الكرة الأرض وارتفعت أمام أعين الثور، الذي فاجأته هذه الحركة فغير اتجاهه فجأة، وصار يعدو بعيداً عنا، وأنا لا أصدق ما أرى !! وشكرت الله كثيراً على تلك الرعاية الإلهية التي شملتني مع ذلك الطفل الصغير، وقد يكون ذلك لطفا من الله بهذا الصغير! واقبل نحوي التلاميذ وهم يصفقون ويشيدون بهذه الشجاعة النادرة. وما دروا أنني كنت خائفاً تماماً مثلهم، وقد أوشكت أن استبقهم عدواً إلى منزلي، حيث اختبأ معظمهم، ملتمساً النجاة، لولا هذا البريء الذي اضطرني للثبات !

وتذكرني هذه المناسبة، قصة طريفة شبيهة بهذه حدثت للأخ الصديق علي إمام الذي كان يعمل ممرضاً (بالشفخانة). ولقد كان علي هذا من أكثر الشخصيات مرحاً وخفة روح ممن تعرفت عليهم في مختلف أطوار حياتي. وكنا نكثر الجلوس إليه وهو يمتعنا ويتحفنا بحكاياته ونوادره التي لا تنتهي ونحن على الأبسطة التي بسطت فوق الرمال الناعمة أمام منزله الحكومي بقرب مركز الشرطة ،تدور علينا أواني الطعام والشاي، والقهوة، فالرجل كان كذلك في منتهى الكرم والذوق والنبل.

والغريب أنه يسخر من كل شيء حتى من نفسه، ولا يتحرج أن يحكي عنها كل شيء يحمل الآخرين على الضحك عليه. أذكر من ذلك أن حدثنا ذات مرة، أنه كان في زيارة إلى قرية بروش القريبة من أم كدادة بصحبة عمدتها الشاب ابن الشرتاي على مهدي سبيل، شقيق قومندان شرطة الخرطوم في الستينات - على ما اعتقد- الرجل العصامي مدني مهدي سبيل. وكان اليوم هو يوم السوق في القرية، يتجمع فيه الرجال والنساء من كل فج. وبينما هما في وسط السوق، أبصرا نعامة تعدو نحوهما. وعند ذلك أراد العمدة أن يضحك عليه، فأخبره أن هذه النعامة شرسة وإن ظفرت بهما فسوف تشق بطنيهما بركلات من أرجلها. والحل الوحيد هو الفرار. وهمّ العمدة بالعدو، فتأكد الأخ علي من صحة قوله ومن خشيته من تلك النعامة، فتوكل على الحي الذي لا يموت، وأطلق ساقيه للريح، والنعامة تعدو خلفه، وكل الناس في السوق يضحكون عليه ! ولقد كان ذلك مقلباً من العمدة. فالنعامة أليفة ولا تفعل شيئا، ولا تضر أحدا. وفوق ذلك يبدو أن صاحبنا على لم يسمع بالمثل القائل: « أجبن من نعامة »، الذي انطبق عليه في ذلك اليوم.

وكان الأخ على سيء الحظ في الامتحانات التي يجلس إليها رؤساء العنابر كي يصبحوا مساعدي أطباء . ولقد جلس مراراً لذلك دون أن يحالفه الحظ . وجاءنا ذات مرة وهو عائد من الفاشر يحمل ورقة أسئلة التعبير أو الإنشاء . وكان السؤال المطلوب الإجابة عليه هو : أشرح المثل القائل : «من فتح مدرسة أغلق سجناً» .

وسألناه عن مضمون الإجابة التي كتبها. فأخبرنا أنه دافع كثيراً عن هذا الشخص المظلوم الذي فتح مدرسة، وبدلاً أن يكافأ على هذا العمل الجليل أدخل السجن !! . وعندما أخبرناه بالمضمون السليم لهذه العبارة غرق في الضحك وأخبرنا أنه قرأ كلمة (أغلق) بضم الألف وكسر اللام !! . ولم نملك إلا أن نشاركه الضحك ، فالضحك كان ملازماً له في كل أطوار حياته .

ويحكي مرة أخرى عن نفسه ، أنه ذهب في مهمة رسمية إلى الفاشر . وفاتني أن أذكر أنه كان شخصاً وسيماً أصفر فاقع اللون أنيقاً يهتم بلبسه وهندامه عناية فائقة . وأراد أن يقابل باشمفتش الصحة الدكتور إبراهيم سليمان ، فارتدى بنطلوناً أحسن كويه، وقميصاً جميلا، والعطور تفوح منه، ودخل إلى مكتب الدكتور إبراهيم وهو في أحسن هندام . ولم يكن الدكتور إبراهيم يعرفه معرفة شخصية ، فهو واحد من مئات المرضين التابعين له والمنتشرين في أنحاء المديرية . واعتقد الدكتور أن هذا الزائر لابد وأن يكون من الشخصيات البارزة في المدينة - بالطبع ليس بروز أولئك الذين رآهم حموده حلاق جامعة الخرطوم المشهور، الذي تحاك على لسانه النكات، صدقا وزورا ــــ فيقال انه رأى مرة بص بري وهو ممتلئ عن بكرة أبيه بالركاب، حتى أن بعضهم برز خارج البص. فجاء يحكي لأصحابه قائلا: « كنت دائما اسمع عبارة» شخصيات بارزة» ولا ادري معناها. لكنني اليوم أدركت المعني عندما رايتهم رؤية العين ، وهم بارزين من بص بري!! «.

فلما رأى الباشمفتش هذا الشخص، الذي خاله بارزا، قام من كرسيه وتقدم نحوه مرحباً بكل بشاشة ، وصافحه بحرارة شديدة . وبعد أن جلس ضرب الدكتور الجرس منادياً (الفراش) كي يكرم مثوى هذا الزائر الأنيق . ويقول علّى أنه عند ذلك شعرت بحرج الموقف ، وتأكدت أن الباشمفتش لا يدري حقيقة من أكون ، وتملكني الخوف . ففضل أن يسرع بالإفصاح عن هويته حتى لا يتأزم الموقف أكثر فقال للدكتور إبراهيم

: « سعادتك أنا ممرض في أم كدادة و .... « وعند ذلك قاطعه الدكتور غاضباً : « ممرض ؟! أخرج من هنا حالاً يا...... « ولم يدعه يكمل باقي حديثه ، ونادى رئيس الممرضين وأمره أن لا يدخل عليه بعد ذلك اليوم ممرض إلا وهو في زيه الرسمي الأبيض المميز؛ وأمر بتشكيل مجلس تأديب عاجل للأخ علّى .

ومن نوادر الأخ على كذلك، أن ذهب إليه ناظر مدرستنا الأستاذ عبد الرحيم عوض الله، وهو رجل في وزن اقل من الريشة، نحيف ضعيف. وكان من اعز أصدقاء الأخ على، يمضيان الساعات الطوال في الهمس، والأنس والضحك. وأوشك الأخ على رغم كل هذه الصداقة المتينة، أن يودي بحياة الناظر!! فذهب ذات مرة إلى الشفخانة، وكان، يشكو من الإسهال. ولان عليا لا يأخذ المواضيع بجدية، ولا يركز ؛ وفي أثناء حكيه وضحكه، وحكاويه، التي لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد، تناول إحدى قوارير الأدوية من على الرف، وفتحها، وصب من الدواء فنجان ناوله للناظر، والذي شربه بطيب خاطر، وحمد الله. وبعد أن شرب الناظر، توقف الأخ على فجأة عن الحديث، وارتسم على وجهه شيء من جدية، وسأل الناظر: «أنت قلت لي عندك إسهال ولا إمساك؟» وأجاب الناظر بالطبع قلت لك إسهال! فامسك على رأسه بكلتا يديه، وهو يقول» يالمصيبة! أنا أعطيتك شربة ملح!!» ويومها، حمل الناظر سريره وبات فعليا أمام المرحاض! وأوشك أن يصاب بفقدان سوائل، وعندما عدناه صباحا، لم يستطع الحراك من السرير، إلا بعد حضور الأخ على وإعطائه عددا من زجاجات الجلكوز!

ومن حكاوي على أمام الكثيرة كذلك، اذكر أن احد التلاميذ لدينا في الداخلية، أكثر ذات يوم من أكل» القريقدان»، وهو ثمار بري حلو، احمر اللون، ذو نواة صغيرة صلبة، له خاصية اللزوجة والتماسك. وأصيب الولد بإمساك حاد من جراء ذلك. وذهب إلى الشفخانة، وأعطيت له المسهلات. وعند عودته إلى الداخلية، بدأت المسهلات تأتي بمفعولها. لكنه في كل مرة يذهب لقضاء حاجته، يفشل في إفراغ معدته؛ نظرا لان ذلك القريقدان اللزج والمتماسك، والجاف، سد عليه المخرج تماما!! وبعد أن تعب التلميذ كثيرا، أخذناه مرة أخرى إلى الشفخانة. وعندما حكينا القصة للأخ على، تفتقت عبقريته عن حيلة بارعة يريح بها هذا التلميذ المسكين من آلامه. وقرر أن يجري له عملية. فادخله إلى غرفة « الغيار»، وجلسنا نحن في الصالة نتجاذب إطراف الحديث. وجعل التلميذ يجثو أمامه على الطاولة، وجاء بجفت أو ملقاط صغير، وكذلك مشرط، استعدادا لإجراء العملية.

وبدأ في نزع النواة حبة حبة، ليحدث اختراقا في ذلك الجدار السميك الذي شكل سدا منيعا في مؤخرة التلميذ، ،وبينما هو منهمك في عمله، إذ بنافورة تنفجر فجأة، من بطن التلميذ، وبلا مقدمات، وباندفاع شديد مباشرة في وجه الأخ علي، وملابسه البيضاء الأنيقة!!! وفوجئنا بالأخ علي يخرج كالسهم جاريا صوب منزله وهو لا يلوي على شيء، فقط يردد بصوت عالٍ» لا حول ولا قوة إلا بالله..لا حول ولا قوة إلا بالله..!!«

مسكين الأخ علي، لم يكن يتصور أن هذا التلميذ- « المزنوق» على الآخر- يمكن أن تفاجئه الحالة في أي لحظة، وهو في هذا الوضع الاستراتيجي المريح، فلا يتوانى برهة في إطلاق صواريخه، وأسلحته» الرشاشة» في وجه كل من يقف وراءه، أو يقرب من منطقة الحظر!!!

ثم من بعد نعتذر للسادة القراء، من ذوي الخيال الخصب، الذين وصلتهم الروائح من خلال الأسطر!!

ولقد عرفت الأخ علياً طيلة السنوات الثلاث التي أمضيتها في أم كدادة ، فلا أذكر قط أنني رأيته في يوم من الأيام عابساً أو متجهماً، بل كان دائما هاشاً باشاً في جميع الأوقات، لا يرين الناس إلا تجملا ، نبا به دهر أو جفاه خليل، كان ملح الجلسات وفاكهتها بحق وحقيقة. لهف نفسي! ماذا فعلت الأيام بالأخ علي في هذا الزمن الصعب ؟ ألا زال مرحاً كعادته ؟ !! أم جفت ينابيع الفرح لديه؟؟ وللأسف لقد انقطعت إخباره عني منذ مدة ليست بالقصيرة، ولا ادري أين هو الآن؛ وكانت آخر الأخبار التي وصلتني منه، هي التي استقيتها قبل فترة طويلة من ابنه فيصل، الذي كان يعمل هنا في جدة. أتمنى له كل خير، مع ألف تحية.

أين ينتظر الناس (الفاهمين) بص الشنقيطي؟

أمضيت ثلاث سنوات في مدرسة أم كدادة الاولية أحاول جاهداً في كل سنة أن أنقل إلى الفاشر ، ولكن دون أن تكلل مساعي بالنجاح . وأقوم أثناء وجودي في الفاشر في فصل الأجازات بمقابلة الأستاذ والمربى الكبير عبد الرحمن أحمد عيسى - رحمه الله - من مواطني مدينة الأبيض، وباشمفتش تعليم مديرية دارفور آنذاك، الذي كان رجلاً إدارياً من الطراز الأول، ومنطقياً في تفكيره إلى حد بعيد ، وأشرح له ظروفي الخاصة التي من شأنها أن تؤهلني للنقل إلى الفاشر . وكان يجيبني قائلاً: « يا أستاذ أنت تظن أنك جدير بالنقل لأنك أدرى بظروفك الخاصة فقط ، ولكني أعرف ظروف المئات من المعلمين، فلذلك أنا في موقف أفضل منك يمكنني من المقارنة بين الذي يستحق والذي لا يستحق » . وأخرج من مكتبه لأعاود المحاولة في العام القادم .

وأخيراً تمت الموافقة على النقل في مارس عام ١٩٦٤م . وقد انطبق علي المثل القائل : « رب ضارة نافعة » . وكان للمنزل المزري الذي انتقلت إليه في سنتي الثالثة في أم كدادة أكبر الفضل في ذلك . والسبب الذي أدى إلى انتقالي إليه هو قدوم الأستاذ محمد شريف بلّي، الذي تقدم ذكره في حلقة سابقة، منقولاً إلينا في هذا العام الأخير ومعه أسرته، وكان لزاما علي أن اخلي له المنزل الذي اسكنه، فهو أولا متزوج ، وثانيا « سينير » علي، إذ اعتقد انه من دفعة عام ٥٧ بينما أنا أعزب، ومن دفعة عام ٦١ م. ولم يكن هناك بيت آخر بخلاف بيت الناظر . ودعاني الناظر كي أشاركه مسكنه، لأنه لم يحضر أسرته من الفاشر ، فقبلت على مضض بعد أن أخليت منزلي . لكن لم يدم بقائي طويلاً في هذا المسكن الجديد . فقد كان الناظر مولعاً برفع صوت المذياع بصورة شاذة ، وبرفع صوته بالغناء، وهو يسّبح في نفس الوقت بسبحته، التي لا تفارقه بتاتا!! وكان يسخر مني كثيراً عندما يراني أحاول التركيز في المذاكرة بين تشويش المذياع ، وأغانيه المفزعة! وكان يقول لي: « أنت إنسان خيالي يا أستاذ ، كيف تستطيع دخول الجامعة وأنت قد فشلت حتى في دخول المدارس الثانوية؟ » . وكنت دائماً أجيبه قائلاً: « ليس ذلك على الله ببعيد » . وكان هناك منزل ثالث ملاصق للمنزل الذي كنت أسكنه - خرب ومتهدم ومهجور - يتبع للمدرسة . ونظراً لعدم صلاحيته للسكن كان المجلس الريفي يستخدمه مخزناً لمواد البناء منذ فترة طويلة . وبعد أن طلبت من الناظر أن أنتقل إليه ، دخل في

مناقشات ومفاوضات مضنية مع عدوه (اللدود) ضابط المجلس الذي وافق أخيراً على أن يخلى المجلس الصالة كي أستغلها في السكن . وانتقلت إلى ذلك المنزل الكئيب ومعي التلميذ مصطفى علي الصديق الذي جاء من الفاشر لمواصلة دراسته في أم كدادة، والذي لم يسكن في الداخلية، كبقية التلاميذ، لان أهله في الفاشر أرسلوه بتوصية خاصة إلى الناظر، الذي تربطهم به صداقة . ولقد قتلنا الكثير من العقارب وبعض الثعابين التي تخرج بين الحين والأخر من الغرف المغلقة لسنين طويلة ومن بين الجدران المتشققة والأحجار، لدرجة أن قال لي مصطفى مازحا ذات مرة:» يا أستاذ أنا سوف آخذ سريري واضعه بين سرير الأستاذ محمد شريف وبين سرير زوجته!» . وأذكر أنني كنت عائداً ذات ليلة من نادي البلدة حيث كنا نحن الموظفين وأعيان البلد نمضى بعض الوقت في لعب الورق (والدومينو) والنرد وتنس الطاولة . وكنت أحمل معي دائماً عصا في يد (وبطارية) في يد أنير بها طريقي . وعند وصولي إلى الباب الخارجي للمنزل أردت أن أمسك على مقبض الباب كي أفتحه كما يحدث كل يوم تلقائياً ودون تفكير . لكن توقفت فجأة، وقررت أن أسلط ضوء البطارية على الباب أولاً . ولا ادري لماذا قررت ذلك ، لكنني شعرت بشيء ما في داخلي يدفعني إلى ذلك . وياللهول المفاجأة ! فقد حدث شيء أقرب إلى الخيال ! رأيت على ضوء البطارية ثعباناً مخططاً بالأصفر والبرتقالي . يعرف محلياً بـ (أم الدبايب) ملتفاً حول مقبض الباب ومطلاً برأسه ، وكأنه في انتظار هذا الذي يجرؤ على فتح الباب ! فعاجلته بضربة قاضية سقط على أثرها على الأرض وأتبعتها بثانية وثالثة حتى قضيت عليه تماماً . وأصابتني المفاجأة ببعض الخوف ، لكن ما لبثت أن خلدت إلى النوم . وفي صباح اليوم الثاني أزداد خوفي عندما حكيت القصة للأخ إسحاق الحارس المكلف من المجلس بحراسة المنزل . فقد أخبرني إسحاق أنه يعرف الكثير عن الثعابين وأن الذي حدث هو رفضها لاقتحامي لهدوئها وسكينتها ، وأن قتلي لذلك الثعبان سوف لن يمر دون انتقام من بقية الثعابين ! وبالطبع لم أصدق مثل هذا الهراء ، لكن كان الخوف يسيطر علّى كلما سألت نفسي : « لماذا اتخذ ذلك الثعبان هذا الوضع وعلى الباب الخارجي وعلى المقبض بالذات ؟ !! وكيف وصل إلى هناك؟؟ » ولكن لم أجد تفسيراً لذلك قط، وشكرت الله كثيرا على ما أولاني به من عناية و رعاية.

وهذه ثالث مرة أنجو فيها بفضل الله من المصير المحتوم في ام كدادة، بعد حادثة الثور،

إذ سبقتهما حادثة أخرى تكاد تكون أكثر خطورة من هاتين الحادثتين، والتي حدثت لي في منزل الناظر، عبد الرحيم عوض الله من مواطني النهود. كان لهذا الناظر صديق يسكن في بوادي غرب كردفان، فارع الطول،شديد بياض البشرة، وعربي الملامح، ويدعى الشريف. ولهذا الشريف هواية مفضلة، ألا وهي الصيد. فيمضي وقتا طويلا في رحلات صيده المتكررة هذه، متنقلا بين حدود كردفان ودارفور، ويمر علينا في ام كدادة بين حين وآخر، مع اثنين من معاونيه، يحملان ما اصطاد من طيور، وغزلان، وأرانب. وكان يوم مجيئه، هو بمثابة العيد لنا، لأننا نستمتع لأيام كثيرة قادمة بلحم الحبارى___ والذ به من لحم!- بالإضافة إلى لحم الغزلان، والأرانب. لذا كنا نتوق دائما لمجيئه، ونفرح به، ونحسن استقباله.

وأثناء إحدى هذه الزيارات، وبعد أن تناولنا غداءنا الدسم – على غير العادة- جلسنا نحتسي الشاي في صالة الناظر. واذكر أن بالصالة سريران، وبعض الكراسي. وجلست أنا في سرير مقابل للسرير الذي يجلس عليه الناظر،ومرافقا الشريف على الكراسي، والشريف جلس على فروته يتوضأ. واخذ الناظر إحدى بنادق الشريف، وبدأ يتفحصها. وأثناء ذلك قام بتصويبها نحوي مباشرة، وهي في موضع الانطلاق، والفوهة لا تبعد عن وجهي بأكثر من مترين تقريبا. ولكن لان الناظر رجل حريص للغاية؛ أو بالأحرى لأن عناية الله هي الغالبة، إذ به يسال الشريف، وهو مصوب السلاح نحوي، ، إن كانت الخزنة فارغة من الطلقات. فأكد له الشريف، انه يفرغ خزان البنادق أولا بأول، ولا يدخل منزلا، إلا بعد أن يفرغ خزانات البنادق، ويحفظ الطلقات في مكان آمن، فلا غضاضة في أن يجرب الزناد. ووضع الناظر إصبعه على الزناد ، و أراد أن يسحب الزناد، وكأنه يطلق طلقة! لكنه توقف مرة أخرى، ولم يفعل ذلك، رغم طمأنت الشريف له، بل انزل البندقية، وقام بفتح الخزنة، فإذا بطلقة تسقط من داخلها!!! عند ذلك هب الناظر واقفا من هول المفاجأة، وذهلنا جميعا!! وانفجر غاضبا مزمجرا في وجه الشريف وموبخا بأقسى العبارات، ونعته بعدم المسؤولية، والغفلة، قائلا له :»أتريد أن تلبسني جريمة قتل، يروح ضحيتها هذا الأستاذ المسكين» ! وألجمت المفاجأة الشريف، الذي قطع وضوءه، واخذ البندقية وبدا يتفحصها، وكأنه ينكرها! وقد أطبق عليه الصمت من هول المفاجأة! . وأثرت هذه الحادثة، وذلك التوبيخ الحاد على علاقة الرجلين، فبدأت تفتر تدريجيا، وقلت معهما تواتر الزيارات، وما لبثت أن توقفت، وحرمنا من أكل لحم

ونعود إلى ذلك المنزل المزري، الذي انتقلنا إليه، وكانت به فجوة كبيرة على الحائط من الناحية الغربية تأتى منها الرياح وذرات الرمال، خاصة وان المنزل هو آخر مبنى في المدينة من تلك الناحية . وأم كدادة تهب عليها رياح عاتية في فصل الشتاء لعدم وجود حزام من الأشجار يحميها من عوامل التعرية التي تحرك كثبان الرمال في اتجاه المدينة.

وقمت مع الأخ مصطفى بربط الشّمال(الابسطة المصنوعة من الوبر) لسد تلك الفجوة ، ولكي نحمى أنفسنا من الغبار والتراب اللذين يدخلان علينا عن طريقها . ولكن رغم ذلك ، فإن الغبار لا يكتفي فقط بالاستقرار فوق متاعنا وأثاثنا وطعامنا ، بل يتعدى كل ذلك إلى داخل حقائب الملابس التي تغسل (وتكوى) وعندما نخرجها لا نكاد نتبين لونها مما علق بها من غبار وذرات تراب، بعد أن تصبح بنية أو برتقالية اللون!! . وكان أمراً قاسياً ، شهد الله كم قاسينا فيه الأمرين . وما كان بقائي فيه إلا لأنه على الرغم من كل شيء يهيئ لي خلوة وهدوءاً يمكنني من مواصلة استذكار دروسي ، استعدادا للجلوس لامتحان الشهادة الثانوية، ولأنه يبعدني عن الناظر ومذياعه وتعليقاته المثبطة للهمم .

وحدث أن زار الأستاذ عبد الرحمن أحمد عيسى المدرسة وتفقد الداخلية ومنازل المعلمين. ولما دخل إلى مسكني سألني متعجباً: « أأنت تسكن حقاً هنا ؟! « فقلت: « أي والله نعم، ومنذ وقت ليس بالقصير! « . عند ذلك قال : « الآن فقط أرى أن ظروفك تفوق كل الظروف التي أعرفها سوءاً ، وأرى أنك فعلاً قد عانيت وقاسيت وصبرت، وأنت تستحق النقل إلى مدينة الفاشر ، وهذا وعد مني لك منذ الآن « وما كان لرجل مثله أن يخلف وعده . فعندما ظهرت كشوفات التنقلات في آخر السنة الدراسية وجدت نفسي منقولاً إلى مدرسة الفاشر الجنوبية الجديدة، و التي نقل إليها كذلك الأخ الصديق عبد الحميد احمد أمين.

ويُحزّ في نفسي كثيراً أن أودع أم كدادة الحبيبة بذكرى أليمة في النفس ، لم تحدث في أم كدادة ، وإنما بعد ذلك بسنوات طويلة لكن جذورها تعود إلى أم كدادة ، وهي تخص أحد تلاميذي الأعزاء،و يدعى الواثق، وللأسف نسيت اسمه بالكامل، ولكنه ينتمي بصفة قرابة إلى أسرة السيد عبد القادر حاج الصافي، التي سميت عليها ضاحية الصافية بالخرطوم بحري. لقد كان الواثق من أكثر التلاميذ تهذيباً ممن قابلتهم طوال فترة

عملي بالتدريس . لم يكن من أبناء مديرية دارفور كما أسلفت ، بل جاء مع جده ناظر المدرسة، الذي نقل إلينا تلك السنة من مدينة النهود، ليعيد في السنة الرابعة، وكان يسكن معه بالمنزل . لذلك كنا نلتقي كثيراً خارج المدرسة في أوقات الأكل ، وفي أوقات الأنس ، وكان الطفل الوحيد بيننا . وكان يقدم لنا الكثير من الخدمات ، وكنا نرسله من وقت لآخر لقضاء بعض الحوائج ، وما أبدى تذمراً قط . بل كان يفعل ذلك في رضا وطيب خاطر . فقد كان طفلاً يتمتع بتربية عالية ، وخلق كريم .وكان واحداً من هؤلاء الذين تراهم مرة واحدة ، فترتاح إليهم وتألفهم.

وأود أن أورد حادثة واحدة فقط تدل على حسن تربية وسمو أخلاق الواثق . وكان ذلك في بداية حياتنا في ام كدادة، ونحن نعيش في خضم مشاكلنا مع التلاميذ، واستفزازهم لنا، وتمردهم علينا . فحضرت ذات يوم عصراً إلى المدرسة ودخلت المكتب وناديت: « ياولد! » وكان بقرب المكتب في الساحة قرابة العشرين تلميذاً جالساً ، ولم يتحرك واحد منهم ، فكررت النداء مرتين وثلاثة لكن دون جدوى . وناديت الفراش سبيل وأمرته أن يقطع أفرعاً من شجرة نيم تقع خلف المدرسة ويدخلها بالشباك الخلفي خلسة ، وبعد ذلك قلت له قل لجميع الأولاد الأستاذ يطلب حضوركم . وعندما ملأوا المكتب قفلت المكتب وجلدتهم عن بكرة أبيهم واحداً تلو الآخر ، حتى لم أتمكن من النوم في تلك الليلة من الألم الذي ألمّ بذراعي ! وللأسف كان الواثق لحظه السيئ وسط هؤلاء التلاميذ ، وكنت أجلده وقلبي يكاد ينفطر عليه من الحزن ! فأنا أعلم في قرارة نفسي أنه في غاية الأدب والتهذيب، ولا يمكن أن يكون قد رفض تلبية ندائي عن قصد ، أو بسوء نية مبيتة . ولكن لا مجال هنا للاستثناءات. وبعد أن خرجوا، وكفكف الواثق دموعه، لم يفكر في أن يذهب ويشتكي إلى الناظر الذي هو أقربهم إليه ، إذ أنه (جده لأمه) كما يفعل الآخرون في تلك الفترة، بل قدم إلي يعتذر ! ويقول لي : « أنا آسف يا أستاذ! فقد كنت أريد تلبية ندائك من أول وهلة، ، لكن منعني الطلبة من ذلك، وهددوني، إن قمت، ونعتوني بالجبن! » فقلت له : « أنا كنت واثقا من براءتك، ولكن لم أجد مخرجا واحدا لاستثنائك ، لذا أنا آسف كذلك!»» .

ورغم أنها واقعة حزينة، إلا أنها تذكرني بحادثة طريفة حدثت لنجار « صديقنا العزيز » ابوبكر الصديق محمد المنصوري، الذي يعمل بالبنك الإسلامي بجدة، والخبير درجة أولى في إتحافنا بالنكات الراقية، وهو رجل فكه ومتفكه(والمتفكه هذه من تصريفاتي،

التي وزنتها على أنه ما دام المتفقه، هو الضليع في الفقه، لذا لابد أن يكون المتفكه ضليع كذلك في الفكاهة، وآمل ألا يتناوشني الضليعون في اللغة!!») . فحكى أنه حدث ذات مرة أن اشتكت امرأة تسكن في شارع الشنقيطي بأم درمان إلى أحد النجارين من أن باب دولاب غرفة نومها يقع أرضاً كلما يمر بص الشنقيطي الممتلئ بالركاب أمام المنزل من قوة الاهتزاز ، فأصلح النجار الباب وذهب . وجاء البص في اليوم الثاني، فوقع باب الدولاب مجدداً ! وعادت المرأة إلى النجار الذي صمم هذه المرة أن يعالج المشكلة من جذورها (كما يقول المسؤلون دائماً !) وبعد أن أصلح الباب، قرر البقاء في داخل الدولاب حتى يمر البص ، فيرى ماهو سبب المشكلة بالتحديد. وهو قابع داخل الدولاب ، إذ بزوج المرأة يدخل فجأة ويدلف إلى غرفة النوم ويفتح باب الدولاب ، ليجد النجار بداخله !! وقبل أن يقول الزوج كلمة واحدة، بادره النجار المسكين المغلوب على أمره، والذي وجد نفسه في موقف لا يحسد عليه، قائلا : «بس حسع لو قلت ليك أنا منتظر بص الشنقيطي تصدقني؟؟!! « . فهو برئ كالواثق ، لكن من هو القاضي الذي يستطيع تبرئته رغم اقتناعه بذلك؟؟ !! .

وكان الواثق كثير المرض ، وخاصة بالملاريا التي كانت تصيبه في السنة أكثر من مرة ، وتفسد عليه لعبه ومرحه وسروره، وتجعله طريح الفراش لأيام عديدة . وكانت تفقده الشهية ، فيضعف جسمه ويصاب بالهزال . وكان الناظر يحاول جهده متلطفاً مرة ، ومهدداً مرة أخرى كي يجعل الواثق يتناول شيئاً من الكبدة النية ، أو يلعق زيت السمك، علّ ذلك يعوضه بعض ما فقد. وأجاركم الله من زيت السمك ! فلقد أصبت كذلك بالملاريا مرارا وتكرارا في ام كدادة، وأرسل لي العم علي بدين ، ذات مرة « برطمانية» زيت سمك، كانت الملاريا ارأف علي منها! رحم الله العم عليا رحمة واسعة، واسكنه فسيح جناته، إذ مات وأنا اعد هذه الحلقة، فقد كان رجلا نادر المثال، وحق على مثله أن تبكي البواكي، فمثله من يفتقد في الليلة الظلماء، وما أكثر ما أظلمت الليالي في حياتنا ! وقد مر ذكر كريم خصاله، وطيب معدنه، وحصافة رأيه في كثير من هذه الحلقات، فلتطلبوا له المغفرة.

وكان الواثق لا يرغب في تناول كل ذلك ، ولكن لا يستطيع أن يرد لجده الشيخ طلباً، وكان يبتلع ذلك في كثير من الجهد وبصعوبة بالغة . وكم كنت أشفق عليه وأنا أراه طريح الفراش ، منهك الجسم، خائر القوى؛ ولم تكن هناك في الدار امرأة واحدة تتعهده

بالرعاية وتتولاه بالعناية . فلقد كانت أسرة الناظر بعيدة عنه في مدينة النهود ، وكنا نحن عزاباً ، بينما تفصله عن والدته وأخواته مئات الكيلو مترات في الصافية بضواحي العاصمة المثلثة، وهن لا يدرين بالذي يعانيه ويتكبده المسكين. ولكم صبر الواثق ، وتحمل كل ذلك في صبر وجلد ، وما طلب قط أن يرسل إلى ذويه رغم آلام المرض ومرارة الغربة، وحداثة عمره.

وصمد المسكين إلى أن انتهت فترة جده في أم كدادة ، ودخل المدارس المتوسطة ، وغادر مديرية دارفور . ومرت السنوات وغادرت أنا بدوري أم كدادة ومنها إلى الفاشر فالخرطوم . ولم أسمع بعد ذلك شيئاً عن الواثق ، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من الذين تجمعنا بهم دروب الحياة حيناً من الدهر قد يطول أو يقصر ، فنعيش معاً في وئام وانسجام ، ثم تتفرق بنا السبل، ويباعد بيننا الزمان ويلقى الدهر بكل منا في مكان ، ويفترق الجميع كأن لم يكن بينهم سابق عهد في يوم من الأيام ، أو كما قال الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ** أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وفي ذات يوم من صيف عام ١٩٦٩م ، أو ١٩٧٠م ، لا أذكر على وجه التحديد – وكنت وقتها طالباً في الجامعة – قادتني خطاي إلى مقهى المحطة الوسطى بالخرطوم لأروح قليلاً عن النفس ، وأغّير من جو الجامعة . وجلست وطلبت من (جرسون) المقهى اللطيف (الطيب) أن يحضر لي كوباً من الشاي . وبينما أنا أتجول ببصري على غير هدى في انتظار الشاي، وقع بصري على شاب في مقتبل العمر، وهو ينظر إليّ . فقلت في نفسي ربما التقت نظراتنا صدفة. وبعد لحظات تلاقت نظراتنا مرة ثانية. وإذا بي أعتقد أنني أعرف هذا الشخص لكن من يكون يا ترى ؟ وأين ومتى قابلته ؟ والتفت إلى جهة أخرى متجاهلاً، وأنا أحاول أن أتذكر من هو هذا الشاب. وعندما التقت نظراتنا للمرة الثالثة ، قام ذلك الشاب من مجلسه وجاء إليّ وسألني في أدب جم : « أأنت الأستاذ بدين ؟ « وما أن أرتبط الصوت عندي بالصورة ، حتى أجبته على الفور: « وأنت الواثق ! « . وكان سلام وعناق، ومهما وصفت لا يمكن أن أصف شعور المعلم عندما يلتقي بعد مدة بأحد تلاميذه النجباء. ولا أدرى لماذا أجد أن كثيراً من تلاميذي الصغار أصبحوا الآن بعد أن شبوا عن الطوق من أعز الأصدقاء رغم فارق السن. لعل السبب يعود إلى أننا نرى فيهم ماضينا ذاك الجميل، الذي كان حال لسان الشاعر السوداني المبدع محمد سعيد

العباسي:

أزمـان امـرح في برد الشباب على ** مسارح اللهو بين الخرّد العيـن

والـعـود اخضر والأيـام مشرقــة ** وحالة الأنس تغري بي وتغرينـي

وتجاذبنا أطراف الحديث طويلاً مع الواثق واجتررنا ذكريات أم كدادة . وسرني وأثلج صدري أن تغلب الواثق على تلك الملاريا اللعينة ، وقوي عوده وشب ونما . وعلمت منه أنه تخرج في مدرسة البريد والتلغراف ، وأنه منقول إلى مدينة كادقلي بجبال النوبة . وقررنا أنه لابد من أن نلتقي مرة أخرى قبل سفره وقدمت له دعوة لتناول العشاء في نهاية الأسبوع في احد مطاعم الخرطوم.

وجئت في نفس الموعد، وانتظرت الواثق طويلاً لكنه لم يأت. وقلت ربما حدث له عذر حال دون حضوره ، وكما يقولون : « الغائب عذره معاه « وانصرفت . ومرة أخرى انقطعت عني أخباره . وبعد مدة ، قابلت جده الناظر عبد الرحيم عوض الله . رحمه الله . في محطة البصات بالخرطوم . وبعد السلام والتحية والسؤال عن الحال والأحوال سألته عن الواثق . فوجم قليلاً وقال لي: « رحمه الله لقد مات قبل ما يقارب العام متأثراً بالملاريا!! « . وشهد الله لقد حزنت كثيراً على ذلك . وتألمت وكأنني فقدت أخاً شقيقاً . وبعد السؤال عن مجريات الأحداث علمت أن المرض لابد وقد ألم به بعد لقائي له بقليل ، ويبدو أنه هو الذي أقعده عن الحضور لتلبية العشاء . وشفي بعد ذلك وذهب إلى كادقلي . إلا أن الملاريا اللعينة أصرت إلا أن تلاحقه هناك، فداهمته وقضت على زهرة شبابه .

ويبدو أنني لم أكن لأحزن كذلك لو أنني لم أقابله قبل عام، فلم أكن أدري بوجوده طيلة هذه المدة ، وأكاد أكون نسيته تماماً ، ولكنه ظهر فجأة بعد قرابة العشر سنوات ، كأنما عزّ عليه الرحيل دون أن يودعني الوداع الأخير ، ألا رحم الله الواثق وأحسن إليه وأنزل على قبره شآبيب الرحمة ، فلقد كان مثالاً نادراً لحسن الخلق والتهذيب .

ويأبى الحزن أن يفارقني وأنا أودع ذكرياتي في أم كدادة دون التحسر على مستقبل خمسة من تلاميذي النجباء ، لمست فيهم ذكاءاً ونباهةً متناهيين ، خاصة في الرياضيات ، هذا إلى جانب حسن الخلق والتهذيب ، وكنت أتنبأ لهم بمستقبل زاهر . ولكن بعد سنوات طويلة افتقدتهم وسط أقرانهم الذين واصلوا تعليمهم العالي، وتلاقينا معهم مرة أخرى، وأصبحنا زملاء في الجامعة؛ ولكن ما زالوا يكنون لنا التقدير والاحترام، لدرجة إنني قابلت احدهم ذات مرة ، وهو الطالب والزميل عبد الله عثمان من بروش

بشرق دارفور، ولمحته من على البعد وهو يدخن سيجاره، فلما حانت منه التفاتة ورآني، قام على الفور بإطفائها، ورميها بعيدا. وشكرته على هذا الاحترام المتزايد، لكني قلت له إن الأكتاف قد تساوت الآن، وأصبحنا زملاء في جامعة واحدة، فلا داعي لهذا الاحترام المبالغ فيه. صحيح نحن في الفصول المتقدمة، وهم « برالمة»، لكن ذلك لا يعني شيئا! ولا ادري أين استقر المهندس عبد الله الآن، فآخر ما سمعت عنه انه كان في السويد؛ له تحياتي.

وعلمت من الذين لحقوا بنا في الجامعة، أن هؤلاء الذين افتقدتهم، تعثروا لسبب أو لآخر، ولم يتمكنوا من مواصلة «المشوار»، وقنعوا بوظائف دنيا هي أقل بكثير مما يستحقون . وهؤلاء التلاميذ هم بشير عبد الله حسن، ومحمد جار النبي، والتوم محمود، ومحمد عبيد الله، وحمد ....؟ لهم جميعا تحياتي.

النمر الذي لم يأكلنا!

إن كان العود دائماً أحمد ، فإن العودة إلى الفاشر هذه المرة هي أكثر حمداً، وجمالا، وإشراقا . فهي ليست كالعودات السابقة، وإنما هي عودة بلا رجعة، أو كما يقولون في دول الخليج: « خروج نهائي من امكدادة! ». وهذه هي المرة الأولى التي أستطيع فيها البقاء بقرب أسرتي بصورة مستمرة بعد انقطاع دام عشر سنوات، كنت في بدايتها أحضر إليها في نهاية كل أسبوع عندما كنت في داخلية الفاشر الأميرية الوسطى ، ثم أصبح حضوري مرتبطاً فقط بالأجازات السنوية عندما انتقلت إلى معهد التربية في الدلنج ومنها إلى أم كدادة .

ولقد كانت هذه الأجازة كمثيلاتها من الأجازات حافلة بالأفراح والمناسبات السعيدة ولقاءات الأنس والسمر، وبالمنافسات الرياضية، التي تقدم وصفها.إلا أن هذه الإجازة بالذات انفردت برحلة مع فريق المريخ إلى الجنينة، وتشاد، ورحلة أخرى طويلة قمنا بها إلى جبال مرة الساحرة الخلابة (سويسرا السودان)، بقدر ما كانت ممتعة وشيقة، كانت خطرة وكدت أن ألاقي فيها حتفي منفرداً مرة ، ومرة أخرى مع المجموعة .

فقد اجتمعنا نحن ثلة من الأصدقاء : مختار محمد على . رحمه الله .(آخر وظيفة عمل بها، كانت في منظمة الدعوة الإسلامية في الجنوب، حيث أصيب هناك بداء الكبد اللعين، الذي قضى عليه) وعبد الحميد أحمد أمين(المستشار القانوني، أمين ديوان الزكاة الأسبق) ، وسعيد أحمد أمين(الموجه التربوي السابق بتعليم الفاشر)وفاروق احمد الحريري(كذالك الموجه التربوي بتعليم الفاشر) ، ويحيى محمد محمود(الدكتور يحيى مدير الإدارة المالية السابق بالمصرف العربي بالخرطوم) ، وإبراهيم سليمان حسن(الفريق إبراهيم وزير الدفاع الاتحادي الأسبق، ووالي شمال دارفور السابق) ، وعباس عبد الرحمن خليفة(آ خر ما سمعت عنه كان وقتها لواء بالقوات المسلحة) ، وفاروق التجانى الشيخ(يعمل الآن في سلطنة عمان) ، وعباس إبراهيم عبد الجبار(الموجه التربوي بتعليم رابغ بالسعودية) . وقررنا أن نتوج الإجازة برحلة جماعية إلى الجزء الغربي من سلسلة جبال مرة ، وقد سبق لي مع الأخوين مختار وعبد الحميد أن رأينا الجزء الشرقي من هذه السلسلة عندما كنا في زيارة جماعية لإقليم جنوب دارفور من قبل معهد التربية في الدلنج في عام ١٩٥٩م، ونحن في الفصل الخامس،

بقيادة الأستاذين، احمد محمد نور، الملقب بـ «التاج» و الذي تقدم ذكره، والأستاذ هلال.
وعقدنا عدة اجتماعات ولقاءات للتحضير لهذه الرحلة، وقمنا بتخطيط كل صغيرة وكبيرة ، ودفعنا الاشتراكات، وقمنا بشراء كل ما نحتاج إليه من أشياء ومواد غذائية معلبة وجافة . وركبنا عربة كومر (انترناشونال) تابعة للمعونة الأمريكي(من دون أن نكون امبرياليين صغار!!) ، انطلقت بنا وهي تسابق الريح صوب نيالا التي وصلناها في وقت قياسي لا يتعدى الساعات، وهو شيء اقرب إلى الخيال في ذلك الوقت! وأخشى أن يكون أيضا في هذا الوقت! وأعتقد أننا أمضينا الليل في استراحة متواضعة قريبة من المسجد الكبير . وركبنا عصر اليوم الثاني إحدى سيارات الشحن الكبيرة التي تعمل بين نيالا وزالنجى مع غيرنا من ركاب الدرجة الخلفية في طريق وعر المسالك تتخلله الوديان والشعاب . وبعد أن أمضينا الليل بأكمله، وجزءاً من الصباح، وصلنا إلى مدينة زالنجى عاصمة منطقة الجبل . وقام الأخ سعيد أحمد أمين، والأخ يحيى محمد محمود بزيارة رئاسة هيئة مشاريع جبل مرة التي كان يرأسها المهندس بشير محمود جماع وزير الري فيما بعد في حكومة النميري، وبحثا مع المسؤولين هناك أمر تسهيل سفرنا إلى منطقة الجبل بواسطة إحدى سياراتهم العاملة هناك، إذ لا توجد سيارات تجارية تعمل فيها نظراً للارتفاع الشاهق للجبال، ولوعورة الطريق، الأمر الذي يجعل السفر إليها مجازفة كبرى . وبعد عدة أيام في زالنجى قضيناها في داخلية إحدى المدارس، نجح وفدنا في أن يضمن لنا الانتقال إلى منطقة الجبل على متن إحدى سيارات الهيئة بقيادة السائق الماهر (ود أحمد) ، وهو من أبناء الفاشر وجميعنا على معرفة طيبة به.
وكانت المحطة الأولى لنا هي (نرتتى) . وحططنا رحالنا في استراحتها وقررنا قضاء بعض الوقت فيها . وتركنا لانفسنا الخيار في أن نتجول على غير هدى على حدائقها الخلابة، ووديانها المخضرة، وسوقها العامر بخيرات الجبل، ولم يكن لنا برنامج محدد . وكانت الاستراحة تقع بالقرب من بركة كبيرة مشهورة تعرف باسم (بركة الفيل) . ويقال إنها اكتسبت هذه التسمية بعد أن ابتلعت ذات مرة فيلاً بأكمله ولم يبد له أثر ! ورأيت أثناء غدوي ورواحي مروراً بهذه البركة كيف أن الناس يجلسون على الحجارة الكبيرة التي تحيط بفوهة البركة ويأخذون منها بعض الماء في أوانٍ لهم ثم يستحمون. فاستهوتني الفكرة وقررت أن أمارس نفس الشيء . وتخيرت وقتاً تقل فيه حركة السابلة

، وأخذت جردلاً وصابونة وذهبت إلى البركة، وملأت الجردل بالماء، وجلست على حافة البركة فوق صخرة ملساء من تلك الصخور الكبيرة التي تحيط بها . وبعد أن غمرت كل جسمي بالصابون بدأت أدلق الماء من الجردل لأزيل رغوة الصابون من جسمي . ولكن يا للكارثة ! يا ليتني ما دلقت الماء !! فقد بدأت أنزلق رويداً رويداً مع رغوة الصابون في طريقي وإياها تجاه فوهة البركة ! يا الهي فقد أدركت أخيراً جداً . حيث لا وقت لا للإدراك أو للندم . أن الذين يستحمون هنا لا يستخدمون الصابون ! فانا ابن المدينة. الذي لا يدرك أصول اللعبة! ولكن ليس الوقت وقت ندامة فالموقف جد خطير ! الحجارة ملساء ، ورغوة الصابون على الحجار الملساء تشكل مزلقة مثالية! والثواني تمر وأنا أكاد أرى الموت رؤية العين ! ولا مجال للفرار أو حتى وقت للصراخ وطلب النجدة . ولاشيء حولي أتشبث به سوى هذا الجردل المملوء بالماء ، ولا شخص قريب يهب إلى نجدتي . فلقد تخيرت وقتاً تقل فيه حركة المارة القادمين من وإلى السوق . وكل لحظة تمر وأنا أقترب من الفوهة تدريجياً ، وكأنه الموت على طريقة السرعة البطيئة! وأنا على بعد اقل من مترين تقريبا من الفوهة ، هداني الله فجأةً إلى فكرة هي المحاولة الأخيرة ، إن نجحت نجوت ، وإن فشلت فعلى الدنيا السلام! فكيف خروجي من بركة ابتلعت فيلاً وأنا أجهل أبجديات السباحة ! ونفذت الفكرة بسرعة، فقمت بدلق ما تبقى من ماء في الجردل بكل قوة أمامي مزيلاً بذلك رغوة الصابون، التي تفصل بيني وبين فوهة الموت . وبحمد الله وتوفيقه نجحت الخطة ، وتوقفت عن الانزلاق والتدحرج نحو الفوهة، وأنا بحقٍ وحقيقة على شفا حفرة من الموت ! ولم ألتفت بعد ذلك إلى شيء ، أو اترك المجال لمزيد من رغوة الصابون أن تنزل من جسمي ، وتركت كل شيء ، الجردل، والصابون، ، وملابسي ، فقط ائتزرت بالبشكير، وعدوت كالمجنون إلى أصحابي في الاستراحة، وأنا ممسك بالبشكير حتى لا يسقط! وذهلوا عندما رأوني كذلك ، ورغوة الصابون تتساقط مني وأنا ألهث ، وظنوا أنني قد أصبت دون شك بلوثة! وبعد أن استجمعت أنفاسي حكيت لهم القصة ، فضحكوا كثيراً وحمدوا الله على سلامتي .

ونسينا موضوع بركة الفيل ، واقبلنا على الحياة في منطقة الجبل الخلابة ، ننتقل من مكان إلى مكان فرحين بجمال الطقس، وأريج الزهور والورود، ومأخوذين بروعة الطبيعة، ونضارة الأشجار والنبات ، ومستمتعين بخرير المياه التي تحملها الينابيع المتعرجة بين

الجبال وكأنها الثعابين ، وبتغريد الطيور وشقشقة العصافير، ذات الألوان الزاهية ، وباعتدال الجو، والسحب قد حجبت عنا الشمس، وبتناول كل ما لذ وطاب من الفواكه التي تحيط بنا أشجارها من كل صوب .

وما زلنا في حلنا وترحالنا حتى وصلنا ذات مساء إلى منطقة مرتفعة من الجبال بها قرية صغيرة تعرف باسم (قلول) بها شلالات مشهورة، يعرفها كل من زار جبل مرة. وكنا دائماً عندما نصل إلى قرية ما ، نسأل أولاً عن الاستراحة الحكومية لأنها المكان المناسب والمريح لإيوائنا . ولسوء حظنا في تلك الليلة كان هناك بعض الضيوف الرسمين قد سبقونا إلى استراحة (قلول) وهي لاتسعنا معاً ، وكان لابد من إيجاد مكان آخر مناسب نقضي فيه الليل . وبعد جهد جهيد عثرنا على (راكوبتين) متلاصقتين تقعان على قارعة الطريق وليس لهما سور أو حاجز . وكان لابد مما ليس منه بد ، فتوكلنا على الله وأنزلنا أمتعتنا وبدأنا في تجهيز العشاء . ولشدة ما برّح بنا الجوع أعتقد أن تلك الوجبة التي تناولناها في تلك الليلة، والتي كان قوامها الخبز الجاف(القرقوش) الذي بللناه بشربة ساخنة من العدس الذي اختلط به الكثير من النعناع في الظلام ، كانت من أشهى ما تناولنا من وجبات في تلك الرحلة ! ويبدو أن ذلك لم يسد رمق الأخ عبد الحميد، فأراد أن « يحنبك» ، وطلب أن يصرف له كل نصيبه من الطعام، وسوف يعود إلى الفاشر، ولن يستمر في رحلة تريد أن تقضي عليه جوعا !!

وبدأنا بعد العشاء نعد أنفسنا للنوم . وبينما نحن كذلك قدم إلينا رجل وهو في طريقه إلى قرية تقع في أعلى الجبل . وبعد السلام أخبرنا الرجل أن هذا المكان الذي اخترناه للمبيت ليس مأمون العواقب . وأفصح الرجل أكثر، فقال أن هناك نمراً شرساً يقطن في الجبال القريبة منا يهاجم القرية ليلة ويغيب أخرى، وان هاتين الراكوبتين تقعان في طريقه من والي القرية. وبالطبع أردنا جميعاً أن نعرف ما إذا كانت ليلتنا تلك من الليالي الموعودة بالزيارة ! وجاء ذلك بصورة غير مباشرة إذ سأل أحدنا الرجل : « هل تهجم عليكم النمر ليلة البارحة ؟ » . ولكن الرجل تهرب من الإجابة وقال لنا : « إن أبيتم إلا المبيت هنا، فيستحسن أن تناموا داخل (الراكوبتين) وليس في العراء كما أراكم تزعمون » . وودعنا الرجل وانصرف. وتقاسمنا (الراكوبتين) مع دجاجتين كنا قد اشتريناهما في صباح ذلك اليوم .

فدخلنا في راكوبة، وأدخلنا الدجاجتين في الراكوبة الملاصقة . وتجاذبنا أطراف الحديث

بعض الوقت، وما لبثنا أن خلدنا سريعاً للنوم من فرط ما ألّم بنا من تعب وإرهاق في ذلك اليوم، بعد سفر متواصل مضنٍ لعدة ساعات .

وصحوت فجأة في منتصف الليل على أزيز طائرة تعبر سماء (قلول) ، وكان يتخلل صدى الأزيز نباح بعض الكلاب . فحمدت الله كثيراً لسماع نباح الكلاب ، لأنها مادامت تنبح فإن الدنيا لا تزال بخير! فالمعروف عن الكلاب في مثل هذه المناطق التي تكثر فيها الحيوانات المفترسة، أنها عندما تحس بحركة، أو تشم رائحة حيوان مفترس كالأسد أو النمر ، فإنها تلتزم الصمت التام، وتدخل ذيولها بين أرجلها وتنكس رؤوسها، وترتعد خوفاً حتى تتبول على نفسها، وتبحث لها عن مكان آمن تلوذ به! فالخوف غريزة عند الحيوان كما هي عند الإنسان كذلك . ولكن مع الأسف لم تدم فرحتي بنباح الكلاب طويلاً ! فما هي إلا برهة، وسكتت كل الكلاب فجأة وكأن على رؤوسها الطير . وبعدت الطائرة وانقطع أزيزها، وساد المكان هدوء غريب كالذي يسبق العاصفة! وفجأة بدأت الدجاجتان تتصايحان وتتحركان كثيراً، وكأنهما تحاولان الإفلات من الوثاق الذي يربطهما . ووقتها لم أشك قط في أن النمر قد دخل أو على أقل تقدير وقف على باب راكوبة الدجاجتين ! وكانت رؤوس بعضنا . وأنا منهم . تقع في مقابل الجزء الذي به الدجاجتان ، ولا يفصل بينها وبين النمر إلا هذا الحاجز الواهي من القش والذي يمكن اختراقه باليد المجردة ! فإن قضى النمر على الدجاجتين، أو حاول ملاحقتهما فإنه سينفذ من خلال الحاجز إلى رؤوسنا مباشرة، لأننا كنا نفترش الأرض! وفاتني أن أذكر أنه ليس لدينا أي نوع من السلاح ، عدا الأخ إبراهيم سليمان ، الذي كان يلبس سكيناً على ذراعه، مما جعل أحد الزملاء – اعتقد الأخ سعيد-يرفض أن ينام بجواره، خشية أن يصحو الأخ إبراهيم مذعوراً ويتوهمه النمر، فيسدد له طعنة نجلاء بتلك السكين!! (ويبدو أن الأخ الصديق الفريق إبراهيم، بدأ التدرب على الدفاع عن نفسه بالسكين، قبل أن يصبح وزيرا للدفاع يدافع عن السودان بأكمله بكافة أنواع الأسلحة!) له تحياتي، وأمنياتي له بالنجاح في مساعيه الدؤوبة في جمع كلمة فصائل دارفور المتناحرة! وأخشى ما اخشي أن يكون الخرق قد اتسع على الراتق أخي إبراهيم!!

وأذكر أن الذي كان يرقد بجواري هو الأخ عباس إبراهيم عبد الجبار ، فقلت له بصوت خافت يكاد لا يسمع : « عباس ! عباس ! جاء النمر ! « فأجابني بصوت أكثر انخفاضا : « سامع .. سامع ! « . ولم يزد بكلمة . وبعد لحظة هدأت الدجاجتان وظننا أن الخطر

قد زال عنا وانقشع . ولكن إذا بي أسمع هذه المرة وبكل وضوح، شهيق وزفير النمر وهو بجوارنا على الجانب الآخر الذي به باب الراكوبة! وتجمدت أطرافي من شدة الخوف، وتسمرت عيناي على الباب مترقباً تلك اللحظة الرهيبة التي يدخل فيها النمر علينا ، لأني تأكدت وقتها من وقوع مجزرة بشعة داخل هذه الراكوبة التي لا تزيد مساحتها عن عشرة أمتار مربعة ! ولا أدري هل كان ذلك من حسن الطالع أم مجرد صدفة أن كان الجميع، عدا شخصي والأخ عباس، نائمين أو متناومين . ومضت اللحظات بطيئة، ولطف الله بنا ولم يدخل النمر راكوبتنا تلك أو حتى يفترس الدجاجتين، ونجونا بفضل الله من موت محقق. وعلمنا في الصباح أنه واصل طريقه إلى القرية وافترس بعض الدجاج .

وأمضينا ما تبقي لنا من أيام الرحلة في مرح وسرور ، وتنقلنا بين الكثير من القرى والأودية والحدائق ، وقمنا بزيارة حديقة الحاج محمد ـ رحمه الله ـ المشهورة في طرة ، وأطعمنا أرقى أنواع المانجو، وسجلنا أسماءنا في سجل الزوار الذي يحتفظ به في كثير من الفخر والاعتزاز ، وأذكر من ضمن ما ورد فيه من تعليقات ، تعليق للواء محمد طلعت فريد ، وكان وقتها وزيراً للاستعلامات والعمل بحكومة الفريق إبراهيم عبود، وكان تعليقه هو : « هذا هو المواطن الصالح الذي عناه الرئيس في خطبه « .

ثم عدنا إلى زالنجى فنيالا ومنها الي الفاشر لقضاء ما تبقى لنا من الأجازة .

لا أدري من القائل : « خذوا الحكمة من أفواه المجانين «؟ . ولو طبقنا ذلك لأصبحنا قطعاً وعلى أقل تقدير أنصاف مجانين . فالحكمة لا تصدر إلا من الحكيم الذي عرف الحياة وخبرها جيداً بعد أن عركته وصقلته فخرج منها بالكثير من التجارب، التي دفع مهراً لها سنين غالية من أيام عمره وشبابه.

ولقد قرأت الكثير من الحكم، وسمعت الكثير عنها ، ولكنني أزعم أن أحكم ما سمعت كان مصدره الوالدة ـ رحمها الله ـ ولا تصفوني بالتعصب وضيق الأفق ، بل تمهلوا حتى أروي لكم القصة بحذافيرها وبكل صدق ، وهي صادرة عن تجربة واقعية وغاية في البساطة والصدق .

فحينما قدمت إلى الفاشر في مارس من عام ١٩٦٤م ، كنت قد قطعت شوطاً بعيداً في الاستعداد للجلوس لامتحان الشهادة الثانوية . وكان على مواصلة الاستذكار والاجتهاد في الفاشر التي تتمتع بوجود المدرسة الثانوية العليا . وكان بعض أساتذتها الأجلاء

يتفضلون بتدريسنا بعض المواد التي تصعب علينا في أوقات فراغهم نظير حصة قليلة من المال كنا نستقطعه من رواتبنا شهرياً . وكنا نحن الثالوث (مختار وعبد الحميد وشخصي) نرتاد أماكن شتى في الفاشر لتلقي العلم . فتارة نلتقي عصرا في المدرسة المزدوجة ـ التي يعمل بها الأخ عبد الحميد ـ حيث نجلس إلى الأستاذ البريطاني فورستر ، ومن بعده فرانكو قرنق- شقيق جوزيف قرنق الذي اعدم إبان حكم النميري- نتلقى دروساً في اللغة الإنجليزية ، والي الأستاذ إبراهيم سوار حيث نتلقى دروساً في النحو والبلاغة ، وتارة في مباني مدرسة الفاشر الثانوية حيث نجلس إلى الأستاذ (خزنة) والأستاذ إبراهيم لتلقي دروساً في الرياضيات ، وتارة أخرى نجلس إلى الأخ والصديق العزيز محمود موسى محمود ـ الذي أصبح لاحقا مديراً لجامعة جوبا ثم لجامعة الفاشر .في دارهم العامرة حيث يدرسنا مادة الإنشاء الإنجليزية ، والأخ بروفيسور محمود من الكفاءات النادرة التي تستحق كل تكريم وتقدير، ولكن لأنه غير مسيّس، فقد تخطاه كثيرون، كان خطوهم وراءه حين يمشي على مهل! لك تحياتي أخي محمود. وكان الأخوان مختار وعبد الحميد قد تم نقلهما قبلي إلى الفاشر (الأول من الطويشة . والثاني من الكومة) ، وانضم إليهما الأخ الصديق أبوالقاسم محمود ، وقد سبقوني إلى حلقات العلم هذه . وأذكر أن هؤلاء الأصدقاء يحكون نكتة حدثت قبل أن انضم إليهم . فكانوا يذهبون عصراً من وقت لآخر إلى مدرسة الفاشر الثانوية التي تقع على مشارف المدينة من الناحية الغربية . وكانت وسائل المواصلات نادرة ومتعذرة ، لذا كانوا يركبون الدواب من خيل وحمير في طريقهم من وإلى المدرسة . وكان يرتاد هذا الطريق أو جزءاً منه نفر من سكان القرى الغربية المجاورة للمدينة وهم في طريقهم لقضاء بعض حوائجهم . فيحدث اختلاط بين دواب أصحابنا هؤلاء وبين دواب ذلك النفر من القرويين . وكان يصعب على أحدهم ـ أعتقد هو الأخ أبوا لقاسم ـ أن يختلط بهم كل هذا الجمع من الأنس والحيوان ، ويحز في نفسه كثيراً أن لا يفّرق الناس بين من هو ذاهب لتلقي العلم، ومن هو عائد من شراء ملح، وسكر، وشطة؛ فما كان منه إلا أن يصيح فيهم: « يا جماعة من فضلكم أخرجوا من موكب العلم هذا !! « . وكان ذلك بالطبع نوع من التندر يقطعون به طريقهم الطويل .

وعندما التحقت بهم عند عودتي من أم كدادة واصلنا معاً سعينا الحثيث في طلب العلم، وكل همنا هو أن نحرز شهادات تؤهلنا للدخول إلى جامعة الخرطوم التي كانت.وأحسبها

لا زالت . تتمتع بسمعة سحرية وسط رواد العلم وعامة المجتمع . اذكر أننا أردتنا احد بيوت الأفراح في الفاشر الكبير ذات ليلة، وكان معنا الأخ الصديق العزيز، يحي محمد محمود، الذي أحرز ذلك العام «قريد ون» ودخل جامعة الخرطوم كلية الاقتصاد بجدارة، وأول ما رأته مغنية السباتة- التي كانت تعرفه معرفة شخصية، لان العرس كان في حي فيزان، حيث يسكن الأخ يحي- غنت أغنية كانت مشهورة وقتها، لكن لا أحفظها، تمجد طلبة جامعة الخرطوم. ويومها زودنا المذاكرة» شوية» وسهرنا حتى الصباح!

وكنا نلتقي ثلاثتنا ونبدأ المذاكرة من أول الليل حتى منتصفه ، ثم يعود كل منا إلى داره ليواصل المذاكرة على انفراد ، ويمضي بنا الليل ، وتهدأ الحركة ، ويعتدل الجو ، ويسكن الجميع فتحلو المذاكرة . وكانت الوالدة تسهر جزءاً كبيراً من الليل بعد صلاة العشاء في العبادة والتسبيح . وكنت أحس بها من وقت لأخر تأتي إلى غرفتي وتقف برهة تنظر إليّ من خلال النافذة ، ثم تعود أدراجها وتواصل عبادتها وأواصل أنا استذكار دروسي .

وجاءت ذات ليلة كعادتها ووقفت على النافذة تنظر إلي وأنا منهمك بين الكتب ، وأطالت الوقوف وهي صامتة وكأنها لا تحب أن تقطع على مذاكرتي . فالتفت إليها وقلت لها:» تفضلي يا والدة بالدخول « . فقالت لي ببساطة شديدة وهي لا تزال في مكانها : « لقد سمعت يا بني مراراً أن الدنيا قد تغيرت ، ولكني لم أتبين ذلك بوضوح كما تبينته هذه الليلة « . فسألتها في لهفة : « وكيف ذلك ؟ « فقالت لي : « في سابق الزمان كان الآباء والأمهات يستطيعون في أي لحظة شاءوا أن يساعدوا أبناءهم وبناتهم في أي عمل يقومون به، لأن الآباء والأمهات بحكم التجربة والخبرة أدرى من أبنائهم وبناتهم بكل شيء يقومون به . أما الآن يا بني، فأنت تقوم بعمل أريد أن أساعدك فيه، ولكني لا أدري عنه شيئاً . وهذه هي أول مرة أقف عاجزة عن مساعدة أحد أبنائي أو بناتي رغم رغبتي في ذلك!! فتأكدت فعلاً أن زمانكم هذا هو غير زماننا وأن الدنيا التي عرفتها قد تغيرت! « .

وطيبت خاطرها وقلت لها : « إن شعورك الطيب هذا هو عين المساعدة ، ومساعدة أخرى تستطيعين أن تقديمها لّي هي أن تسالي الله لي في صلاتك ودعائك أن يوفقني ويكلل مسعاي بالنجاح « . وانصرفت مطمئنة القلب راضية لتواصل عبادتها . ذلك هو- قرائي الأعزاء- أحكم ما سمعت لما اتسم به من صدق وواقعية وإخلاص .

ولكن يبدو أن الدنيا قد تغيرت مرة ثانية!! فعندما أرى أبنائي الآن كيف يمرحون ويسرحون في النت، وأنا لا أكاد أحسن القيام إلا بالأبجديات، واستنجد بهم في كل

صغيرة وكبيرة، أقول رحمك الله يا أمي، فأنت لم تحضر تغير دنيانا كذلك!!

ملحوظة: على كثرة من اتصلوا بي مبدين إعجابهم بهذه الحلقات، أثار انتباهي قارئ معين! فالغالبية ممن اتصلوا بي يعرفونني معرفة شخصية، وانأ شاكر ومقدر لهم. لكن لان يكتب إلي أخ لا يعرفني، ولأعتقد انه من جيل الذكريات، وليس من دارفور حيث جرت إحداث هذه الذكريات، بل من ديار الشايقية، تلك القبيلة العريقة، التي لدي فيها من الأصدقاء من اعتز بصداقتهم؛ ويثني على الأسلوب، والقصص، ويقول: « ورغم إننا لم نكن معكم، إلا أننا اشتقنا إلى تلك الأيام.» ويضيف بسببها: «أصبحت حريصا حتى أطالع جريدة الخرطوم، ومن أول ما افتح هي صفحتك الغراء» فذلك ما هزني واخجل تواضعي. انه الأخ الكريم جمال عبد الرحيم من الرياض، له تحياتي وشكري.

الطبيب الإنسان، الدكتور حسين سليمان أبو صالح

لقد هزني في إحدى الإجازات، أثناء وجودي في الفاشر، موقف إنساني نبيل ، كان بطله الدكتور حسين سليمان أبوصالح ، والذي برهن على أن مهنة الطب هي مهنة إنسانية قبل كل شيء، عملاً وليس قولاً . فلقد كنت في مطار الفاشر ذات يوم، ورأيت جموعاً غفيرة من البسطاء وغيرهم من سكان المدينة على مختلف مشاربهم، وقد حضروا لوداع هذا الطبيب، على غير اتفاق، طواعية، ودون دعوة بالميكرفون، أو تنسيق! وقد حمل كل منهم هدية على قدر استطاعته، والتي كان من بينها، الدجاج، والبيض، والسمن، والمراكيب الفاشرية المشهورة . ولم تتمكن الخطوط الجوية السودانية من نقل كل تلك الهدايا في تلك الرحلة ، وكان لابد من توزيعها على عدة سفريات قادمة . وكان ذلك حرياً بأن يثير في النفس الفضول . فأردت أن أعرف كيف استطاع هذا الرجل الرزين والمتواضع، أن يكسب وُد كل هؤلاء البسطاء، الذين كان دافعهم صدق النية، والتعبير عن الشكر والعرفان ، لا تحملهم السيارات، بل أن معظمهم أتى ماشياً على قدميه أو ممتطياً دابته الهزيلة.

وكان خالي السنوسي- رحمه الله- يعمل لديه ممرضا في عيادته الخاصة بمدينة الفاشر . لذلك كان هو أول شخص سألته عن سر كل هذا الوفاء والعرفان . فأخبرني أنه حضر إلى العيادة ذات ليلة أحد البسطاء ومعه أبنه المريض . وبعد أن دفع استحقاق الكشف أدخل على الطبيب . وكتب له الدكتور حسين بعض الأدوية التي يحتفظ بها داخل عيادته، نظراً لعدم وجود صيدلية في الفاشر في ذلك الوقت . وأراد الرجل أن يدفع ثمن الأدوية ، فأخرج كل ما يملك لكنه كان أقل من المبلغ المطلوب . ونادى الرجل خالي السنوسي ، الذي له به معرفة . وأقسم بالله أمام الطبيب أنه لا يملك إلا هذا الذي أخرجه. وطلب من خالي السنوسي أن يكون ضامناً له لدى الدكتور حسين حتى يعود ببقية المبلغ غداً . ويمضي خالي السنوسي فيذكر أن الدكتور حسين سأله كيف يمكن له شراء طعام لأبنه المريض في صبيحة اليوم الثاني ، فأجاب الرجل في قناعة متناهية : « ربك كريم «. عند ذلك طلب الطبيب الإنسان من خالي السنوسي أن يعيد للرجل المبلغ الذي استلمه منه نظير الكشف ، وأخرج من جيبه مبلغاً آخر من المال أضافه إلى ثمن الكشف وأعطاه

للرجل ، ثم قال لهما : « أشهد الله أمامكما أنني سوف لن أفتح هذه العيادة بعد هذه الليلة ، فأنني أستحي أن أسلب المساكين قوت يومهم ». ثم أضاف : « وسوف أمضي نفس هذه الساعات التي كنت أمضيها في عيادتي الخاصة في المستشفى العمومي أعالج المرضى مجاناً لوجه الله تعالي !!».

لذلك لاغرو أن يتأثر كل الناس في الفاشر بنقله . فجاءوا زرافات ووحداناً ، رجالاً وتساءا بمحض اختيارهم لكي يعبروا عن شكرهم وتقديرهم لهذا الرجل الشهم الكريم اصدق تعبير. وليس هذا تلميعا مني للدكتور حسين، أو تملقا مني، فانا حتى اليوم لم أتشرف بمعرفته، أو حتى لقائه ولو مرة واحدة، لكن الأمانة العلمية تقتضي أن لا نغمط الناس أشياءهم!

وكم أثلج صدري ما سمعته عن الدور البارز الذي قام به الدكتور أبو صالح مع زملائه الأطباء في قيام انتفاضة رجب ١٤٠٥هـ . وما تقلده لوظيفة وزير صحة في الحكومة الانتقالية ١٩٨٥م ، ومن بعدها وظيفة وزير الخارجية في حكومة الإنقاذ، إلا القدر اليسير مما يستحق من تكريم .

ولا يضاهيه في إنسانيته - حسب علمي - إلا الدكتور عادل شاشاتي، الذي تقدم ذكره في الحلقة الأولى، والذي لم تكن له رسوم معلنة في عيادته في الستينات في الفاشر فكان بعد أن يعالج المريض يسأله : « كم باستطاعتك أن تدفع ؟ ». وقد تكون بضعة قروش يأخذها راضياً . ولقد كان إنسانياً إلى درجة بعيدة . أذكر أنه قد ألم بي ذات يوم من أيام الجمعة وأنا في سوق الفاشر مغص معوي حاد . وصادف أن رأيت الدكتور عادل في أحد المتاجر . فأسرعت إليه شاكياً ، فحملني بسيارته الخاصة إلى عيادته، وقام بفتحها وأعطاني شربة من الدواء أراحتني كثيراً من ذلك الألم . ولم يقبل أن يأخذ مني مليماً واحداً . وقال لي مازحاً : « بما أن اليوم إجازة عن العمل فأنا أيضاً في إجازة عن أخذ النقود ». وقد شاهدته بعد عشرين عاماً في عيادته المتواضعة بمدينة الثورة بأم درمان في عام ١٩٨٢م وهو لا يتقاضى إلا جنيهاً سودانياً واحداً ثمناً للكشف في وقت يأخذ فيه غيره من الأطباء عشرين ضعفاً لما يتقاضى!!

******

كانت الرحلات أثناء الإجازة السنوية من العاصمة إلى نيالا بالقطار ثم بالعربات إلى الفاشر وبالعكس فصلاً بحاله ! فهي أشبه ما تكون برحلة في المجهول . ولا أدري كيف كنا

نقوى على مجابهة كل تلك الصعاب والمشاق التي نتكبدها لمدة أربعة أو خمسة أيام من السفر المضني المتواصل في هذا الطريق الذي يزيد طوله على الألف كيلومتر، في قفص، يسمى مجازا (كابينة)، ضيقة، تضم خمسة عشر فرداً أو تزيد، بينما هي مخصصة أصلاً لستة أشخاص فقط كما تنص على ذلك لوائح السكك الحديدية! وكم من مرة اضطر التعب والنعاس بعضنا لحشر نفسه في الحيز الضيق المعد لوضع الحقائب الصغيرة في أعلى جوانب الكابينة، في محاولة يائسة للنوم، وما كان ذلك بالأمر الهين، ولكنه ركوب المضطر للصعب. فلا تمضى دقائق إلا ويتساقط النائمون على البقية المكدسة على أرضية الكابينة بين اللعنات والسخرية . ولا أظنني أبالغ كثيراً حين أقول أنه كان يصعب على الشخص منا في بعض الحالات أن يتبين تماماً أين تقع ساقاه وسط تلك الغابة من السيقان ، المتداخلة والمتشابكة بين بعضها وفوق بعضها الآخر! فالمرء لا يحس بساقه من فرط ما لحق بها من خدر، وتنميل لطول بقائها في مكان واحد، دون القدرة على تحريكها!! وكان من الصعب أن يجد أحد السائلين : « ساق من هذه ؟ « إجابة شافية إلا بعد أن تنزل ضربة قوية على تلك الساق مجهولة الهوية، تذهب عنها الخدر، فيحس أحدهم أن تلك الساق لابد وأن تكون ساقه !

وكانت كل مجموعة - أو سكان (كابينة) - يحاولون جاهدين كسب الأخ الصديق عابد السناري(المستشار القانوني لاحقا) إليهم، وذلك لما يتمتع به من جسم نحيل يمكنه في الخروج، والدخول بين قضبان النوافذ الضيقة، لشراء بعض الزاد عندما يتعذر الخروج عن طريق الباب الذي يتكدس بالأمتعة والناس ، ويصبح اجتيازهم أمراً محفوفاً بالمخاطر . فالويل كل الويل إن وطأت أحداً من العامة بقدمك أو أسقطت متاعه ! فأخلاق الرجال تضيق أشد ما يكون الضيق من جراء هذا السفر الشاق! أذكر أنه في مرة من المرات ترك أحدنا لحافاً صغيراً بجانب أحد الركاب وأوصاه أن يعيره انتباها إلى حين عودته . وعندما عدت معه لم يجد اللحاف، فسأل ذلك الراكب الذي أجاب في بساطة شديدة : « لا أدري قد يكون سرقه لص! « . فنظر إليه صاحبي طويلاً ولم يقل شيئاً وطلب مني أن ننصرف. فقلت له : « أتترك لحافك يضيع بكل هذه البساطة ؟ لماذا لا تحّمل هذا الشخص المسؤولية ؟ « فقال لي : « لقد فكرت كثيرا في ذلك فعلاً ، ولكني عندما رأيت سكيناً على ذراعه، وتذكرت صفحة الجريمة في الصحف، وتبينت ما يحدث في القطار من أن احدهم طعن آخر لسبب تافه ، قلت في نفسي ، خير لي أن أضيع مائة لحاف، ولا

تلحقني طعنة نجلاء من تلك السكينة! » . فقلت له : « أنت شخص عاقل !! ». وقد يتهمه شخص أو يتهمنا معاً بالجبن ، وقد يكون محقاً فهو لم يركب قطار نيالا يوماً !!.

وأذكر أن اضطرنا الحال ذات ليلة مع الأخ الصديق فاروق إسحق(مدير الدائرة التلفازية التعليمية بالمستشفى العسكري في الرياض) أن نشترى برشاً في هدأة الليل من محطة سنار من أحد الباعة المتجولين . وبالطبع عن طريق النافذة . لكي نستلقي عليه بضع لحظات في محاولة يائسة للنوم . ولكن لم نجد مكاناً يسع ذلك البرش غير مطبخ القطار . وبعد استئذان الطباخ بسطنا البرش على المكان الوحيد المتاح، وكان ذلك إلى جانب (قدرة الفول) . وكلما حاولنا أن يغمض لنا جفن، يصل إلى سمعينا صوت غليان الفول المصري ، فيهب كل واحد منا محذّراً الآخر من أن الفول أوشك أن يندلق عليه! فنبتعد في ذعر عن قدرة الفول . وبعد أن يزيد الطباخ الماء إلى الفول ، ويهدأ الغليان قليلاً نعود نطلب النوم في يأس ، ويعود الفول للغليان، ونصحو مذعورين، وتتكرر القصة. حتى يدركنا الصباح.

ولعل من أطرف المواقف ما كان يحدث من الأخ الصديق سليمان صالح فضيل(البروفيسور سليمان، عميد كلية الطب بجامعة الخرطوم الأسبق، ومدير مستشفى سوبا الجامعي سابقا، وهو من أبناء الفاشر البررة). وسليمان هذا شاب دمث الأخلاق. رقيق ومهذب، ولا يحب أن يجرح شعور أحد، وغاية في الكرم. وانا أتحدث عن تجربة. حين قمت بزيارته في مدينة برستول بانجلترا، عندما كان يحّضر لدرجة الدكتوراه في الباطنية، وأحسن هو وزوجته الأخت عائشة وفادتي، وأفاضا في إكرامي، وتكريمي. ورد لي الزيارة كذلك مشكورا في هامبورج بألمانيا، بعد أن أنهى تحضيره.

وكنا ننقسم إلى مجموعتين أثناء السفر في شهر رمضان خاصة . مجموعة تضم أولئك المغالين في الدين الذين يصرون على الصوم أثناء ذلك السفر الشاق ، ومجموعة أخرى، تضمنا نحن الذين نأخذ بالرخصة التي أباحها الله سبحانه وتعالي في محكم آياته : (فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ...) ، ونفطر في السفر . وكانت كل مجموعة تقوم بدفع اشتراكاتها، وشراء مستلزمات الأكل والشرب الخاصة بها. وكان الأخ سليمان من مجموعتنا، ولكنه لا يحب أن يجرح شعور أفراد المجموعة الثانية ، فيقوم بدفع حصتين من الاشتراكات ، معنا ومعهم . ولم يكن ينجو بالطبع من سخرية الأخ الطيب عبد المجيد اللاذعة التي قلما ينجو منها أحد حتى هو نفسه(اعني المستشار

الطيب، مدير الإدارة القانونية السابق في الهيئة العربية الزراعية بالخرطوم، وهو أيضا من أبناء الفاشر البررة). ولعل الأخ الطيب يضيف بعضاً مما عنده حتى يجعل الصورة أكثر إثارة للضحك . فهو زعم ذات مرة أن الأخ سليمان أوشك أن يصعقه تيار كهربائي، بعد أن قبض على سلك عارٍ . وتخلص بحمد الله من ذلك السلك ، إلا أنه تذكر بعد ذلك، انه إن أمسك بمادة عازلة فسوف تنجيه من الصعق ، فما كان من الأخ سليمان إلا أن وقع ضرباً بكلتا يديه، وركلا برجليه، على طاولة خشبية كانت قريبة منه بهدف إخراج ما تبقى من كهرباء من جسمه !!.

ونوادر الأخ الصديق الطيب عبد المجيد تحتاج إلى كتاب بحاله . فهو رجل قل أن يجود الزمان بمثله محدث بارع، ساخر، وضاحك ومضحك ، وواسع الإطلاع والثقافة ، ولا يمكن للمرء أن يمل مجلسه وإن طالت الساعات، وله قدرة فائقة على كسب الأصدقاء من كل أنحاء السودان، فان زرته في منزله العامر بالمنشية، تجده دائما يعج بأصدقائه من جميع إرجاء السودان. فالأخ الطيب رجل قومي وسوداني من طراز فريد، لا تهمه جهوية، ولا انتماءات سياسية ضيقة، ولا حتى انتماءات رياضية، من شاكلة هلال ومريخ. فهو يعامل أخاه الإنسان ، كانسان أولا وأخيرا، مجردا من كل الحواشي والرتوش، والمظاهر الخداعة، ديدنه في ذلك قول الشاعر إيليا أبو ماضي:

أنا حر ومذهب كل حر مذهبي ** ما كنت بالغاوي ولا المتعصب

ويصيغ كل تعليقاته الساخرة باللغة الإنجليزية التي يجيدها ويملك نواصيها . وفوق ذلك فهو شخص جم الأدب ومتواضع وأبعد ما يكون عن التيه والغرور .

وأذكر أنه كانت له قصة في إحدى هذه الرحلات الكثيرة مع (جرسون) القطار . فكان الأخ الطيب يحضر إلى (السنتور) ومعه شلة من الأصدقاء ، ويطلبون طلباً واحداً للشاي، وكان ذلك يكفى لأكثر من شخص . فيقومون بتقسيم (براد) الشاي عليهم الثلاثة أو الأربعة . وكان الجرسون يراقب ذلك في غيظ وحنق ويكتم غضبه . فهو يريد بالطبع أن يطلب كل واحد منهم طلباً خاصاً به ولكن لا يستطيع إجبارهم على ذلك . وعندما حان موعد الغداء سأل الطيب الجرسون : « كم يبلغ ثمن وجبة الغداء لديكم ؟ » ووجد الجرسون الفرصة التي يتمناها فأجابه ساخراً : « وجبة الغداء تكلف ثمانية عشر قرشاً ». ثم أضاف : « ولكنكم إن تقسموا الغداء بينكم كما تفعلون بالشاي فسوف

لن تشبعوا ! «. والطيب يعيد علينا ذلك مقلداً لهجة البرابرة التي يتحدث بها الجرسون فتكتمل الصورة ونغرق في الضحك !

وأذكر أن زرته ذات مرة في داخلية «التاكا» في البركس، حيث كان يقاسمه السكن في غرفته صديقه الأخ الزين محمد على. من أبناء رفاعة. وكانا لا يفترقان أبداً. ويدرسان في نفس الكلية، كلية الحقوق. ولا أدري ما الذي حدث بينهما في ذلك اليوم، إذ دخلت الحجرة وقد شب النزاع بينهما، وهما يتخاصمان أشد ما يكون الخصام ، وقد أرتفع صوتاهما بالسب والشتم ! وعبثاً حاولت تهدئة الموقف، أو معرفة السبب، لكنهما لم يعيراني اهتماما . وفي أثناء التراشق بالألفاظ قال له الزين: « أسكت يا غرباوي!» فما كان من الأخ الطيب إلا أن أطلق ضحكة من ضحكاته المعهودة وقال للزين : « متى كان لفظ (غرباوى) شتماً ؟ أنت لا تحسن حتى السباب! «. وضحك حتى أضحك صديقه الزين. وضحكنا جميعاً وشربنا معاً الشاي، وانتهى كل شيء، وخرجت معهما. وهما في أتم وفاق، ووئام. فقلب الأخ الطيب أصفى وأنقى من أن يضمر الشر لأي شخص ،ناهيك عن صديق!

ومن النوادر التي اذكرها، ما حدث في البيت الذي كان يستأجره الأخ الطيب في بداية حياته العملية في حي المزاد، في بحري، غربي شارع المعونة. فحدث أن دعا لفيفا من أصدقائه للعشاء كعادته دائما، فهو يقيم حفلة لوداع هذا، وأخرى لاستقبال ذاك، أو حتى بدون مناسبة، فالرجل مضياف متلاف! وبدأ الأصدقاء يصلون تباعا واحدا تلو الآخر، إلى أن وصل شخص لم يكن ضمن المدعوين. وهو مهندس تخرج من كلية الهندسة بجامعة الخرطوم، يدعى «م». وكان شخصية مثيرة للجدل، تعرفه كل الجامعة، وكثير الادعاء، لدرجة أن الطلبة كانوا يطلقون عليه لقب « مهندس عموم السودان»! وبان الضيق واضحا على الأخ الطيب. فاخبرنا أن وجود هذا الشخص في أي مناسبة، معناه انتهاء المناسبة بمشاجرة. فهو يريد من أطولنا بالا بان يجلس بقرب هذا المهندس، ليهدي من شطحاته، واستفزازه للآخرين، خاصة حين» ينبسط شوية!». فتبرع الأخ القاضي / المحامي عبد الحميد سليمان من أبناء نيالا، ودفعة الأخ الطيب في كلية الحقوق للقيام بذلك، والجلوس بقرب هذا الضيف غير المرغوب فيه، لامتصاص انفعالاته! والتأم شمل الأصدقاء، وهم يتآنسون. وبعد قليل « شعشع» الأخ ميم قليلا، فبدأ مناوشاته. وكنت اجلس بجوار الأخ عبد الحميد من الجانب الآخر، مما جعلني التقط كل ما يصدر من

قول. بدأ أولا بوصف الأخ عبد الحميد بالغباء، وبأنه أغبى محامي في السودان، ثم تطور إلى السب العنصري من شاكلة « يا غرباوي! « ويا إقليمي ويا شين... الخ». كل هذا والأخ عبد الحميد صامد، متمالك لأعصابه، يجيد الدور الذي أوكله له الطيب على أفضل وجه؛ ليبرهن على طول باله، ضاحكا تارة، ورابتا على كتف ميم تارة أخرى، ومتجاهلا فيما بين ذلك. وبعد فترة صمت قصيرة، إذ بالأخ ميم، وبلا مقدمات، يزيد من عيار السب كثيرا، ويسب الأخ عبد الحميد ، بسبة غاية في البذاءة ، تعتبر خطا احمر عند كل سوداني، وعند ذلك انفجر عبد الحميد فيه:» يا حلبي يا ابن الـ ......» وسبه بأقذع مما بادره به، ووقف، وكشف عن صدره، وشمر عن ساعديه استعدادا للعراك!! وتدخلنا جميعا، واحتوينا الموقف، لكن بعد أن كدر الأخ ميم صفاء الجلسة.

ولم اذكر إن رأيت الأخ الطيب غاضبا بحق، وخارجا عن طوره، سوى مرة واحدة! وكان وقتها يعمل مستشارا قانونيا لبنك الشعب التعاوني، الذي كان يعرف سابقا ببنك مصر. فزرته ذات مرة في مكتبه في البنك، ووجدته غاضبا مزمجرا في شخص يجلس في كرسي بالقرب منه، تبدو عليه آثار النعمة، ويبدو انه من كبار التجار. فهممت أن أعود إدراجي، إلا إن الطيب خاطبني غاضبا قائلا: « تعال لترى هذا الرجل الضلالي، الذي لا يخاف الله، يريد أن يرشيني!!» والرجل مطرق ينظر إلى أسفل وهو يردد:» أنا آسف سعادة المستشار!» وأفصح الأخ الطيب أن لدى البنك مديونية كبيرة على هذا التاجر، وماطل في السداد، فحجز البنك على كمية كبيرة من الذرة تخصه في القضارف، وجاء يعرض عليه رشوة كبيرة لفك هذا الحجز. وصرخ فيه الطيب: « اخرج من مكتبي فورا قبل أن أسلمك إلى البوليس!» وانسحب الرجل، وهو يتوارى خجلا!

أما قصتي مع الرشوة، فقد حدثت مرتين، مرة أرادت أحداهن رشوتي، ومرة أخرى أراد احدهم أن يرشي نيابة عني! ففي المرة الأولى، حين كنت مسؤولا عن الداخلية في مدرسة ام كدادة الأولية، جاءتني امرأة غبراء شعثاء ، يبدو إنها لا تملك من حطام الدنيا شيئا، تريد إدخال ابنها في الداخلية. فاعتذرت لها بأنه لا توجد خانة شاغرة في الداخلية. فما كان منها إلا أن فتحت محفظتها، وقدمت إلي أربعة قروش ونصف القرش! فقلت لها : « ما هذا ؟ « فأجابت» يمكنني أن أتم المبلغ إلى خمسة قروش!» وهو مبلغ تافه لا يساوي ثمن أكثر من ٥ من الارغف في ذلك الوقت!

والمرة الثانية حين ذهبت إلى بور تسودان في أوائل الثمانينيات، لكي اخلص سيارتي التي

أحضرتها من ألمانيا. وكنت انزل في « ميز» لبعض الإخوة الذين يعملون في السياحة، قبل أن انتقل إلى منزل الأخ الصديق المهندس يوسف محمد محمود، أيضا المتلاف المضياف، وواسع الاطلاع، هو وزوجته الأستاذة حياة أبو اليمن، التي تنتمي إلى إحدى اعرق الأسر في مدينة الفاشر . فأصر احد الذين يزورن الميز من وقت لآخر، ومن مدعي معرفة كل شيء ، على أن أوفر مبلغ الجمارك، وكل ما عليّ هو أن ادفع رشوة لأحد موظفي الجمارك الكبار، الذي يعرف بالتجربة بأنه يتعاطى مع هذه الأشياء. ورفضت أن افعل ذلك. وعند إصراري، اقترح على أن يقدم هو الرشوة بنفسه نيابة عني، ويمكن أن اذهب معه، حتى اتاكد بنفسي من دفع المطلوب. وذهبنا إلى الموظف الكبير، ولم ادخل مع ذلك الشخص المكتب، وبقيت انظر من خلال النافذة. فقابله المسؤول بكل ترحاب، ويبدو انه على معرفة به. وتقدم الأخ الراشي، ودنا منه كثيرا، و بدأ يهمس في أذنه، وفي نفس الوقت يسحب درج الطاولة تدريجيا، ويضع فيه المبلغ. عند ذلك هب ذلك المسؤول الكبير واقفا، وضرب الطاولة بيديه، حتى تطايرت الأوراق، وقال له ما هذا يا كلب! واخرج المبلغ وألقاه في وجهه، وهو يصيح فيه:» بره!!» وهربت انا، ولا ادري ماذا حدث له بعد ذلك، لكن التقيته بعد ذلك بمدة في ردهات الجمارك، وأعاد إلى المبالغ التي استطاع أن يجمعها وهو خارج على عجل ، ويعض على بنان الندم، بعد أن وقع في شر إعماله!!

وبما أن الحديث ذو شجون، اروي لكم قصة قصيرة، لكنها كبيرة في معانيها، مرتبطة برحلة بورتسودان هذه؛ تدل على الثقة التي كانت متوفرة بين الناس في ذلك الوقت! كنت واقفا في صف الركاب المسافرين إلى بور تسودان، في مطار الخرطوم، لإكمال إجراءات السفر، لتخليص سيارتي الآنفة الذكر. وجاء رجل وهو يتفرس في وجوه المسافرين، كأنه يبحث عن شخص معين. وفجأة توقف عندي وسلم عليّ، وقدم إلى ظرفا كبيرا كان بحوزته، مفصحا بان بالظرف به كذا ألف جنيه سوداني، لا اذكر الرقم تماما، لكنه أكثر من العشرة، وأضعاف ما احمله معي كجمارك لتخليص لسيارتي! وقال لي الرجاء تسليم هذا المبلغ إلى فلاني الفلاني ونسيت الاسم لكن اعتقد انه ينتهي بـ» ترك»؛-ويبدو انه من الشخصيات المرموقة في بورتسودان____ وهو سوف ينتظرك في فندق البحر الأحمر هذا المساء! فقلت له يبدو انك شبهتني. فقال لي:» لا، أنا لا أعرفك!». وسألته: كيف إذا تثق بي إلى هذه الدرجة، وأنت لا تعرف حتى اسمي؟ فقال لي:» أنا واثق من انك سوف

تسلم هذه الأمانة». قلت له إذا لحظة من فضلك، اكتب لك اسمي وعنواني. فأجابني قائلا: « لو ساورني ادنى شك فيك لحظة، لما توقفت عندك!.. وسلم لي عليه !» وودعني وغادر المطار!!. أتريدون أن تعرفوا النهاية؟ اليس كذلك؟ « طبعا أكلت الفلوس!!»

وكم مرة اضطرنا التعب والإرهاق خلال هذه الرحلات المتتالية إلى القيام بأي محاولة من أجل أن نخلد سويعات قليلة إلى النوم . من تلك المحاولات ، أذكر أننا كنا نعلم بالتجربة أن أحد أصحاب المقاهي في محطة (موسكو، بضم الميم) التي تقع بين الفاشر ونيالا ، لا يسمح بأن تستخدم أسرّته للنوم ما لم يقم الركاب بشراء بعض من أكواب الشاي والحليب . ووصلنا إلى المحطة بعد منتصف الليل نُعّساً منهكين ، ما بنا حاجة إلى شرب كوب من شاي أو حليب ، وكلما كنا نطمح فيه أسرّة نستلقي عليها ونومة هادئة تريحنا قليلاً حتى نواصل السفر في صباح اليوم الثاني وقد استعدنا بعضاً من نشاطنا . ولكن كيف المجال إلى ذلك وقد ألفينا المقهى وقد خلا من كل شيء، عدا صاحبه الذي جلس حول النار في وسط المقهى بعد أن قام بإخفاء كل الأسّرة داخل (الكرنك) عندما سمع صوت السيارة وهي تقترب من المحطة؟؟ فقررنا أن نأخذه بالمثل القائل : « (أياكي أعني وأسمعي يا جارة) . فوقفنا من حوله ونحن نحدث بعضاً قائلين:» ما رأيكم في أن نتناول أولاً شيئاً من الحليب ثم نتبع ذلك بالشاي ؟ « فأجاب الجميع : « أي والله هذا هو عين الصواب «. ولم نكد نكمل حديثنا، إلا وقام الرجل مسرعاً وأخرج كل ما أخفى من أسرّة، وبدأ في الاستعداد لإعداد الحليب والشاي، اللذين سوف يطلبان منه بعد قليل . ولكن ما هي إلا لحظات، وانطلق الأصحاب إلى الأسّرة وتدثروا طلباً للنوم ، وكل يكتم ضحكته، بينما الرجل يصيح : « ألا ترغبون في الشاي يا أولاد الحرام؟ « ولا أحد يجيب . فكال لنا الرجل ما استطاع من الشتم والسباب ، ولكننا واصلنا نومنا وغادرنا المحطة فجراً وهو نائم!!

بريدي: ودخل كذلك في دائرة المعجبين بهذه الحلقات، دون سابق معرفة بيننا، الأخ الكريم محمد سلمان الزبير، وأيضا يعمل في الرياض، ومن مواطني الخرطوم / البراري- امتداد ناصر، الذي يقول: «أتابع عبر جريدة الخرطوم صفحتكم العامرة والمشوقة...رغم إنني لست من طلابك، ولا من معارفك» ويخطب ودي، ويرجو التعرف

بي. فقلت يا سبحان الله! في هذا الوقت الذي يسعى الناس فيه لكسب ود ذوي المال، والجاه، والسلطان، يسعى الأخ محمد لكسب ود من يعتقد، مجرد اعتقاد- وقد يكون فيه مخطئا- إن أسلوبه شيق! وهو يدري أن لا مال لديه يهديه ولا خيل!!؟؟ ولا املك إلا أن أقول: أن ذلك لأمر عجاب!!

وأقول له:» شكرا أخي محمد، فمتى تدنو مني، تدنو منك مودتي ، كما قال الإمام الشافعي»

والي اللقاء مع ذكريات جامعة الخرطوم العريقة ، والتي ستكون الحلقات الخمس الأخيرة، التي نختتم بها هذا الجزء الثاني من الذكريات.

على أعتاب جامعة الخرطوم

اولا- توضيح هام جدا!!: لامني بعض القراء الأعزاء لظنهم إنني فعلا « أكلت فلوس» الرجل، التي أعطاني إياها في مطار الخرطوم وأنا في طريقي لبور تسودان، والتي وردت في الحلقة السابقة!! وبعضهم اعتقد أنني نسيت أن أضع حرف النفي«ما»!!. لا هذا ولا ذاك. إذ لا يعقل أن أتحدث عن الثقة التي كانت بين الناس في أول الفقرة ثم أخونها في آخر الفقرة، وعلى رؤوس الأشهاد ! لقد كانت مزحة مني، ويبدو أنها كانت ثقيلة على البعض! وليطمئنوا إنني سلمت المبلغ كاملا، ولم آكل منه شيئا. والله على ما أقول شهيد! ولهم شكري على قلقهم على أمانتي!!

******

كان من حسن الطالع أن نقلت إلى مدرسة جديدة بها صفان فقط في شهر مارس من عام ١٩٦٤م، وهي مدرسة الفاشر الأولية الجنوبية الجديدة كما ذكرت. وكانت قد بدأت قبل عام في مباني المدرسة المزدوجة العريقة، وبنظارة الشيخ إسحاق إبراهيم، والد صديقنا العزيز فاروق إسحاق، الذي تقدم ذكره، وهو أيضا من أبناء الفاشر البررة، له تحياتي. وانتقلت إلى مبانيها الجديدة في الطرف الجنوبي للمدينة في هذا العام الذي نقلت فيه إلى الفاشر، وكنا أثنين فقط من المعلمين في المدرسة ، الأخ عبد الحميد وشخصي . ولم تكن لدينا الكثير من الواجبات المدرسية أو التي تحتاج إلى تحضير وإعداد خارج أوقات الدراسة. لذلك كان لدينا متسع من الوقت للاستمرار في استذكار المقررات الخاصة بالامتحان .

******

وعلى الصعيد السياسي ، كان عام ١٩٦٤م ، وخاصة شهر أكتوبر يحمل في طياته تطوراً هاماً ومنعطفاً جديداً في الحياة السياسية السودانية . فقد شهد هذا الشهر مولد ثورة أكتوبر الخالدة التي جسدت تضامن وتكاتف الشعب السوداني في أسمى معانيهما . وكنا نتلقى الأخبار الشحيحة عن المظاهرات التي تندلع في عاصمة البلاد، والإضرابات التي يقوم بها الطلبة والأساتذة والمحامون والقضاء والعمال عن طريق القادمين من الخرطوم ، ومن بعض الأصدقاء في الجامعة ، كالأخ يحيى محمد محمود ، بواسطة الخطابات . وكنا نتلقى كل ذلك في حماس دافق وشغف بالغ . وتتابعت الأحداث سراعاً حتى أدت إلى

ذلك العصيان المدني الشهير الذي هّد أركان حكومة ١٧ نوفمبر .
ولم تكن مدينة الفاشر لتتخلف عن الركب . فهي مدينة لها تاريخ مجيد في النضال الوطني والكفاح المستميت منذ عهد الاستعمار، فأبناؤها حرقوا العلم الانجليزي في زمن الاستعمار، في عام ١٩٥٢م كما تقدم . وأذكر كيف أن مجموعة من رجال الشرطة الذين لنا بهم معرفة شخصية كانوا قد حفظوا النشيد الوطني : (صه ياكنار) للشاعر السوداني المبدع الصاغ محمود أبوبكر ، الذي جاء في مطلعه:-

صه ياكنار وضع يمينك في يدي ** ودع المزاح لذي الطلاقة والدّد
صه غير مأمورٍ وهات مدامعاً ** كالأرجوانة وأمضى غير مصفّد

وقرروا أن يخرجوا من مواقعهم وهم يرددون هذا النشيد للالتحام بأفراد الشعب صباحا، لولا أن حلت الحكومة . وكان الرأس المدبر لذلك هو الأخ آدم عبد الرحمن خريف، من أبناء مدينة تلس، حاضرة الفلاتة الفلانيين في دارفور، والتي تعرف في عموم دارفور ب» تلس بناتها سمحات وملس!!«
وانقضى الليل إلا أقله، ونحن نجوب شوارع المدينة نحمل معنا مذياعاً يردد الأناشيد الوطنية الخالدة مثل رائعة الشاعر الوطني الأستاذ يوسف مصطفى التني ، التي جاء في مطلعها:-

في الفؤاد ترعاه العناية ** بين ضلوعي الوطن العزيز

أو رائعة إيليا أبوماضى» وطن النجوم» التي يغنيها الفنان أحمد المصطفى، وجاء فيها»:
قالوا سلوتك ليتهم نسبوا إلي الممكنا
فالمرء قد ينسى المسيء المفتري، والمحسنا
إلى أن يقول: لكنه مهما سلا هيهات يسلو الموطنا
أو الأناشيد الحماسية التي يرددها الفنان عثمان حسين، وعثمان الشفيع، ومحمد وردي، وسيد خليفة ....الخ . ونتبادل التهاني مع الأفواج البشرية التي خرجت إلى الشوارع كي تعبر عن فرحتها بهذا الانتصار.
ولسوء حظ بعض أعيان البلد الموالين للنظام، أن أُذيعت تلغرافاتهم التي تحث الحكومة على : (ضرب العابثين بيد من حديد) . وبعد إذاعتها مباشرة أعلن الفريق عبود ـ رحمه

الله ـ التنحي عن الحكم . فخرجت جموع الثائرين ليلاً وشنت حملة شعواء على منازل وممتلكات هؤلاء الأعيان وألحقت بها أضراراً فادحة .

وقرر المواطنون في الفاشر التعاضد مع الانتفاضة والتعبير عن فرحتهم بحل الحكومة فقرروا الخروج في مظاهرة صاخبة. وكان اليوم الذي حُدد لخروج المظاهرة يوم ٣٠ أكتوبر، وهو يوم مرتبط بصرف الرواتب. وأذكر أن أحد الزملاء من المعلمين، احمد فضيل، بلغ به حرصه على الراتب إلى تقسيمه إلى ثلاثة أو أربعة أجزاء ، ووضع كل جزء في جيب أو داخل حذاء ، وذلك خشية أن يضيع الراتب الثمين وسط الحشد والزحام ، فإن كان لابد من الضياع فليكن جزءاً منه أو جزئين .

وبعد أن علت شمس ذلك اليوم، تجمّع المواطنون من كل صوب من المدينة ، رجالاً ، ونساء ، وشيوخاً ، وأطفالاً ، وساروا في مظاهرة صاخبة في اتجاه ثكنات القوات المسلحة . وعندما وصل الموكب إلى مباني رئاسة المديرية، حال الجنود دون تقدم المتظاهرين إلى مقر قيادة القيادة الغربية، فوقع الصدام، وأُطلق الرصاص، وجُرح بعض المتظاهرين ، وكانت إصابة أحد المواطنين ، الشهيد « منـزول « قاتلة ، وزرناه في المستشفى، إلا انه ما لبث أن فارق الحياة، رحمه الله.

ومما يؤسف له أن وسائل الإعلام السودانية لم تضعه يوماً في مصاف الشهيدين أُحمد القرشي وبابكر حسن الحفيظ، اللذين كان موتهما بمثابة الشرارة التي أشعلت ثورة اكتوبر الخالدة!

وبعد إطلاق الرصاص أنطلق الجميع طلباً للخلاص. ولقد اتخذتُ مع مجموعة من المواطنين ساتراً من الحائط الشرقي لمباني المديرية . وكنا في موقع إستراتيجي مكننا أن نشاهد جموع المواطنين وهي تفر بجلدها شرقاً صوب المدينة طلباً للنجاة ، والناس لا يلون على شيء! فمنهم من يهُز رأسه ذات اليمين ، وذات اليسار تجنباً لرصاصة طائشة ، ولا أدري من أخبرهم أن الرصاصة لا يمكن أن تأتى من الجهة، التي يكون فيها الرأس ! وبعضهم حشر نفسه حشراً في فتحات مواسير الأسمنت التي تتخذ جداول لجريان الماء ، وبعضهم قد بُهت فتسمر في مكانه ،أو منهم من لم يستوعب الموقف كالأخ «صعلوك»-من أبناء الجالية الليبية في الفاشر، والذين يعرفون بـ «الفيزان»، ومنها الأسرتان العريقتان، آل ابو صفيطة وآل تيباوي- ولا ادري لماذا كان يدعى بهذا الاسم؟ فلا احد في الفاشر يناديه بغير هذا الاسم! والذي علقت ملابسه بأسلاك سور المديرية، فأصبح يصيح» يا

أخ فك!!.. فك من فضلك!» اعتقادا منه أن شرطيا أو جنديا هو من يمسك به. فتقدم نحوه الأخ سعيد احمد أمين وخلصه ببساطة من السلك الشائك، الذي امسك بطرف ملابسه! وهناك من تعثرت خطاهم فانكبوا على وجوههم في ذلك المنحدر السحيق الذي يحف بالوادي . وفي الحقيقة كنا نشاهد لوحة محزنة، ومضحكة في نفس الوقت!

وبعد أن هدأ كل شيء ، واطمأن الجميع، بدأ الناس يحكون النوادر ويطلقون النكات على ما حدث، وعلى كثرة ما سمعت ، لازلت أضحك على رواية (باكمبا) . رحمه الله . وهو رجل معروف في الفاشر كان يعمل عند أحد كبار التجار بالمدينة ويتحدث (بلكِنة) محببة فيضحك القوم كثيراً . ويروي (باكمبا) قائلاً : « عندما احتدم الأمر وقد أُطلق الرصاص ، وانطلق الناس في كل اتجاه ،لم اخذ الأمر مأخذ الجد، وظننت أن الرصاص قد أُطلق في الهواء من قبل التحذير فقط . ولكن عندما رأيت الوُجهاء وكبار رجالات البلد وقد أطلقوا سيقانهم للريح قلت في نفسي :» يا (باكمبا) جهز نفسك ! فالموضوع جد خطير» . فأطلقت ساقاي وأنا أسابق الريح . والأغرب من ذلك كلما زدت من سرعتي كنت أرى عمي
(ع.أ.ح) لا يزال يسبقني ! وعمي (ع.أ.ح) هذا هو رجل منّعم وكبير في السن، ومترهل الجسم، يكاد يغلبه حتى المشي في الحالات العادية، بينما (باكمبا) شاب مكتمل البنية، مفتول العضلات، ويعمل حمالاً . ومنذ ذلك اليوم صار قول (باكمبا) : « يا باكمبا جهز نفسك « مثلاً يردده الناس في كل الملمات والمناسبات في الفاشر عند حدوث شيء جلل!

جلست لامتحان الشهادة الثانوية كممتحن خارجي من منازلهم في مارس عام ١٩٦٥م ، وأحرزت المرتبة الثالثة ، ولم أوفق في دخول الجامعة، لأنها كانت تعمل بنظام إحراز « جيد « في خمس مواد ، وقد أحرزت درجة جيد في أربع مواد فقط . وكان من المعلمين الذين جلسوا للامتحان ذلك العام ، الأخ الصديق سليمان محمد الحسين، زميلي السابق في مدرسة ام كدادة الأولية، ومدير بنك النيلين الأسبق، الذي حاز أيضا على الدرجة الثالثة، لكنه وفق في إحراز درجة جيد في خمس مواد، وتقدم باستقالته من التدريس، والتحق بالجامعة بكلية الاقتصاد.
وعاودت الكرة في العام التالي ، وتحسنت نتيجتي وأحرزت المرتبة الثانية، وكذلك الأخ

عبد الحميد، إلا أن الأخ مختار لم يوفق في ذلك العام، والتحق بنا في وقت لاحق في الجامعة. وكانت التفاصيل تأتى عادة بعد مدة من إذاعة النتائج . لذلك لم تكتمل فرحتي بعد ، فهناك من يحرزون الدرجة الثانية ولا تكون لديهم درجة جيد في خمس مواد فيحرمون من الدخول إلى الجامعة !

ومرت أيام الانتظار والترقب قاسية وبطيئة ، حتى استلمت أخيراً إشعاراً بخطاب مسجل من سكرتير امتحانات السودان . وذهبت إلى البريد واستلمت الخطاب وأنا أرتجف من أخمص قدمي حتى رأسي وفتحته ، بل مزقت الظرف سريعاً، وأخرجت الورقة بداخله، وبدأت أحدق بنظري باحثاً عن كلمة (Credit) ، محاولاً أن أحصيها لأرى هل بلغت الخمس أم لا . وكنت أفشل في كل مرة أن أكمل العد لشدة ارتباكي، وابدأ العد من جديد! . وأخيراً وبعد عدة محاولات تنفست الصعداء بعد أن تأكدت أني قد أحرزت (جيد) في خمس مواد ، وبذلك استحققت دخول الجامعة التي طالما منينا النفس بها ، وكم سهرنا وشقينا وثابرنا ليال طويلة من أجلها.

لكن لم تكن الفرحة الغامرة بدخول الجامعة فرحة مطلقة ، فلقد كانت تنغّصها بعض الشوائب ، وعلى رأسها المسألة المادية!! فكيف يتسنى لّي أن أتخلى عن الراتب الشهري ، وأن أترك ما أتحمل من مسؤولية، تتمثل في والدة، وأخ وأخت لا زالا في المراحل التعليمية، لا عائل لهم بعد الله غيري، وأصبح طالباً لا دخل له لمدة أربعة أو خمسة أعوام ؟ !!

لذلك رأيت أنه من الأصوب أن التحق بمعهد المعلمين العالي بأم درمان ، وهو أمر يسمح لّي بالاستمرار في الدراسة بنفس الراتب الذي كنت أتقاضاه، شريطة أن أعود بعد التخرج معلماً في المدارس الثانوية .

وحضرت معاينة الدخول إلى المعهد، التي كان على رأسها الأستاذ المربي الكبير محمد التوم التجانى - رحمه الله - عميد المعهد في ذلك الوقت . وكان علينا أن ننتظر ظهور النتيجة . وطال الانتظار وأوشكت الإجازة السنوية أن تنقضي، حيث يتحتم علّى أن أعود لمدرستي في الفاشر . فذهبت وقابلت مسجل المعهد استفسره إن كان علي البقاء حتى انتظار النتيجة ، أم أسافر ؟ وبعد أن سألني عن أسمي ألقى نظرة سريعة على بعض الأوراق التي كان يحتفظ بها في أحد أدراجه ، وأجابني قائلاً : « يمكنك أن تسافر « وعلمت أنني لم أقبل في المعهد!

ولم أسافر، وشقّ على الأمر ، فعدت مرة أخرى إلى الجامعة وقررت بيني وبين نفسي أن (أجمّد) تلك السنة حتى أتمكن من توفير بعض المال أدخره لمواجهة مسؤولياتي ، ثم أعود وألتحق بالجامعة في العام القادم . ولم أكن أعش تحت أي ضغط أسرى ، بل على النقيض من ذلك . فقد فرح كل أفراد الأسرة بقبولي في الجامعة ، وهونت علي الوالدة الأمر وخاطبتني قائلة : « لقد عشنا والحمد لله يا بني قبل أن تصبح معلماً، ويكون لك راتب ، وبإذن الله سوف نعيش كذلك بعد أن تترك هذا الراتب ، فلا تفقد هذه الفرصة وتضيع مستقبلك « . ولكن رغم هذا التشجيع الذي جئت به من الفاشر إلا أن البت في مواصلة تعليمي في الجامعة لم يكن سهلاً . وذهبت وقابلت الأستاذ محمد جبارة ـ رحمه الله ـ مسجل الجامعة آنذاك ، وشرحت له ظروفي ورجوته أن يحتفظ لّي بخانتي في كلية الآداب للعام القادم . ولكن الرجل أخبرني أنه لا أحد هناك يستطيع أن يضمن لّي القبول في العام القادم بنفس النتيجة التي أحرزتها لأن ذلك يكون خاضعاً للتنافس مع شهادات العام القادم التي لا يستطيع أحد أن يتنبأ بها . وحذرني من أن أضيع هذه الفرصة الثمينة .

وخرجت من مكتبه ، وقد أزداد فكري بلبلة . وفاقم الأمر سوءاً ما وصلت إليه حالتي المادية . فلقد أنفقت ما لدي من مال أثناء هذا الانتظار الطويل . وكنت أسكن في أم درمان ، أولاً في دار العم حسين محمد عبد الرحمن ـ رحمه الله ـ العامرة بالعباسية ، ثم انتقلت مع الأخ عبد الحميد إلى الثورة الحارة الرابعة، حيث سكنا مع والده العم أحمد أمين ـ رحمه الله ـ والعم عثمان إسحاق ، اللذين جاءا نائبين في البرلمان في ذلك العام، الأول عن دائرة الفاشر الشرقية، والثاني عن دائرة كتم الشمالية، على ما اعتقد، وكلاهما من حزب الأمة، وكانا يسكنان معاً . وكنت أحضر يومياً إلى مكاتب القبول وقهوة النشاط في الجامعة . وأذكر أنني قطعت المسافة من المحطة الوسطى بالخرطوم وحتى الجامعة مشياً على الأقدام ـ ولك أن تتصور عزيزي القارئ أن أمرا كهذا كان شاذا في ذلك الوقت!! ـ لأنني لم أكن أملك ثمن التذكرة التي كانت قرشاً ونصف القرش فقط! ولكن ذلك لم يؤلمني كالذي حدث لي في يوم آخر . فقد ركبت (البص) من المحطة الوسطى بأم درمان في طريقي إلى الخرطوم . وجاء صديق وجلس بقربي وأنا لا أملك إلا ثمن تذكرتي . ولسوء الحظ جاءني (الكمساري) قبل أن يمر عليه ، وتقتضى المجاملة السودانية والأصول ـ كما يقول صديقنا العزيز الأخ أحمد المصطفى عبد المطلب

ـ أن أدفع له قيمة التذكرة ، ولكنني فشلت في ذلك !

ومما يحز في النفس، أن أخاً استدان مني ذات يوم ، وقبل أن تسوء أحوالي المادية مبلغاً يسيراً من المال هو ربع جنيه . وبعد أن تأكدت أنه في حالة مادية طيبة طلبت منه أن يرد لّي ما اقترض مني. وما كان لي أن اسأل أخا اعرفه، أو حتى لا اعرفه أن يرد لي مبلغاً تافهاً كهذا ، ولكن كما يقولون : « للضرورة أحكام » . فما كان منه إلا أن ضحك بسخرية وأخبرني أنه لا يملك مليماً واحداً ! .

ولجأت إلى العم الشهم أحمد أمين ـ رحمه الله ـ وشرحت له ظروفي ورجوت منه أن يقرضني شيئاً من المال أتدبر به أمري حتى يفرجه الله علي . فأخرج محفظته ودفع لي مبلغ خمس جنيهات، وقتني شر الكثير من المتاعب، جزاه الله عني خير الجزاء.

وأخيراً جاء اليسر بعد العسر مصداقاً لقوله تعالي : « إن مع العسر يسرا » ! فكان من حسن الطالع أن اثنين من نظار المدارس الأولية من مديرية الخرطوم قُبلا في نفس العام في كلية الآداب . والتقيت بهما صدفة في الوزارة . وكانا يعانيان من نفس المشكلة التي أعاني منها، فكلاهما متزوج وله أطفال ومسؤول عن أسرة، ومن الصعب عليهما أن يتخليا عن الراتب. ولحسن الحظ كان الاثنان عضوين بارزين في نقابة المدارس الأولية ، ولهما معرفة شخصية وصلات طيبة بالسيد وكيل الوزارة؛ وهما الزميلان العزيزان، علي المبارك، و أحمد محمد حمري، وكلاهما من بري. وجرت عدة محاولات بينهما وبين الوكيل، وزيادة في حسن الطالع، فان الوكيل كان عم زوجة الأخ علي مبارك، المرأة الكريمة، أسماء، أم هنادي، التي تعرفنا عليها في وقت لاحق، وكان الأخ الشهم والكريم، علي المبارك، يكثر من دعوتنا لتناول الغداء بداره بين الحين والآخر. وأثمرت المفاوضات بموافقة الوزارة على استمرار معلمي الأوليات الذين قُبلوا ذاك العام في الجامعة، وبنفس رواتبهم وعلاواتهم، بشرط أن يعودوا معلمين في المدارس الثانوية بعد التخرج،؛ وكنا بذلك أول دفعة من معلمي الأوليات يطبق عليهم هذا النظام، واستفاد منه لاحقا الكثير من معلمي الأوليات والمدارس الوسطى.

واستفاد من هذه المكرمة الوزارية إلى جانب الناظرين ، حمري وعلي مبارك ـ اللذين أجريا المفاوضات ـ كل من الأخ عبد الحميد أحمد أمين، والأخ عبد الله حمد النيل من أبناء الهلالية، وشخصي . وكان هناك معلم سادس دخل الجامعة في ذلك العام ولكنه فضل أن يتقدم باستقالته من الوزارة، هو الأخ الصديق هنود أبيه كدوف من أبناء جبال

النوبة، والأستاذ الجامعي المرموق في إحدى كليات الحقوق في ماليزيا الآن على ما اعتقد، وكان قد تخرج معنا من معهد التربية في الدلنج في عام ١٩٦١ ، تحياتي للدكتور هنود. وتنفست الصعداء أخيراً وانتقلت إلى الجامعة في ضحى يوم من أواخر شهر يوليو من عام ١٩٦٦م، وأنا مطمئن القلب أردد قول الإمام الشافعي :

رب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً ** وعـنـد الله مـنـهـا المخـــرج
ضاقت ولما استحكمت حلقاتـها ** فُرجت وكنت أظنها لا تفرج

وكانت الدراسة قد بدأت في الجامعة أثناء المداولات بين النقابة والوزارة . وعندما تمت الموافقة والتحقت رسمياً بالجامعة ذهبت لتوي لحضور المحاضرة المفروضة عليّ ، وكانت في القاعة المشهورة ـ أو أشهر قاعة في الجامعة على الإطلاق ـ التي تعرف بـ (ون أو تو « ١٠٢ ») . وكان الأستاذ الإنجليزي (أبازا) يلقي درساً في الأدب الإنجليزي وموضوعه كتاب شكسبير : (حلم ليلة صيف) . وكان الدرس قد بدأ عندما وصلت إلى القاعة ، فدخلت في هدوء على أطراف أصابع قدمي ، وجلست في أول خانة شاغرة في الصف الأمامي . وصدف أن كان ذلك بجوار زميلة . وهذه أول مرة أعايش فيها الاختلاط التعليمي، لذلك كنت مضطرباً بعض الشيء . وازداد الأمر تعقيداً، أنه كان لابد أن أشارك تلك الزميلة كتابها ، لأنني لم أكن قد تسلمت الكتب المقررة بعد، مما اضطرني أن أدنو منها أكثر! . وأعتقد أنني لم أفهم الشيء الكثير في ذلك اليوم نظراً للطريقة التي يتكلم بها الأستاذ، ولصعوبة فهم الكلمات الجديدة ولشعوري بالاضطراب . وأصبت بخيبة أمل كبيرة، وتخيلت أن كل المحاضرات سوف تسير على نفس النسق . ولكن بدأ الأمر يتحسن تدريجياً بعد أن زال الاضطراب وتعودنا على نطق الخواجات .

ومن الطريف أن تلك الزميلة التي جلست أول مرة بجوارها ، وعرفت من بعد أن أسمها بخيتة باب الله ، والتي يحلو للطلبة أن يسمونها» بي.بي.»، صارت تناديني دائماً باسم (عوض) . فذكرت لها ذات مرة أن أسمي ليس هو (عوض) وأخبرتها باسمي الحقيقي . لكن الأخت العزيزة بخيتة ، والتي تتمتع بقدر كبير من خفة الدم ، والحضور الطاغي، أصرت على أن شكلي يوحي بأن أسمي لابد وأن يكون (عوضاً)! فان لم يطلق علي أهلي ذلك، فتلك غلطتهم!! وكان ذلك مبرراً لها في الاستمرار بمناداتي بهذا الاسم فترة غير قصيرة، لها تحياتي.

والغريب في الأمر أن هناك أخاً سودانياً تعرفت عليه مؤخراً ويعمل في أحد المتاجر الكبيرة في مدينة جدة، يناديني إلى يومنا هذا باسم (عوض)، على الرغم من أنني أعطيته كرتاً صغيراً به أسمي، وعنواني ذات مرة تجنباً لإحراجه مباشرة . وأخشى أن أكون كجحا الذي أراد خداع بعض الأكولين، ذاكراً لهم أن هناك وليمة في مكان أسماه ، ولما هرول الرجال، أعتقد جحا أن الأمر لا بد وأن يكون حقيقة، وخشي أن يسبقه الآخرون إلى الوليمة فهرول من خلفهم . لذا أخشى أن يأتي علي يوم أصدق فيه كلاً من الأخ (علياً) والأخت (بخيتة) أن اسمي هو فعلاً (عوض) !!

بريدي:

أود أن أشير هذه المرة إلى رسالة تلقيتها من احد أصدقائي، هو الأخ العزيزعطا التوم دفع الله، بالخطوط الجوية السعودية، يبدي فيها إعجابه بالذكريات، ويعتب علي باني لم أضع بريدي الالكتروني منذ بداية الحلقات، وانأ آ سف على ذلك. وأشير إلى أخ آ خر ممن لم أتشرف بمعرفتهم بعد، اعني الأخ محمد سيد، وهو حزين لأنه لم يحصل على بعض الأعداد، ويطري المقالات قائلا :» دعني اعبر لك عن إعجابي البالغ لمذكراتك القيمة التي تحكي عن تجربتك الثرة..... ويضيف قد أصبحت من المداومين على اقتناء عدد السبت» ثم يحثني على طباعة هذه الذكريات في كتاب. لهما جزيل شكري، وتقديري وامتناني.

في رحاب جامعة الخرطوم

مضت بنا السنوات سراعاً في الجامعة ، وانقضى الزمن الجميل سريعا كشأن كل جميل، تعرفنا خلاله على نخبة من أعز وأكرم الزملاء والزميلات ، وقضينا معاً أوقات قلما تنسى بين قاعات المحاضرات، والداخليات، وبين المدرجات، وردهات المكتبات، وفي وقهوة النشاط ، وفي المناشط الرياضية، والسهرات الفنية التي يغني فيها كبار الفنانين، من أمثال الفنان عثمان الشفيع، وخضر بشير، وعبد العزيز محمد داؤود..ألخ. واذكر أن الطلبة ضايقوا الفنان عثمان الشفيع ذات مرة في حفلة في كلية الهندسة، وصعدوا المسرح يبشرون، ويرقصون، وغضب الفنان لذلك، ونزل من المسرح، وأصر على انه لن يغني بعد ذلك قط في الجامعة! فتجمع حوله معجبوه ومعجباته من الزملاء والزميلات قائلين له»: هل تريد أن تخسر جمهور الطلبة في الجامعة يا أستاذ؟» فما كان منه إلا أن قال لهم:» إن شاء الله اخسرهم، هو اصلو أنا ناوي أترشح في الجامعة!!؟؟» أو الفنان خضر بشير الذي كان عندما يستبد به الطرب، وهو يغني في « البركس» ، لا يكتفي فقط بالرقص، والقفز، بل يأخذ الميكرفون، ويصعد به اقرب شجرة إليه، وهو يواصل أغانيه وحركاته!! واذكر مرة أن الفنان عبد العزيز محمد داؤود كان يغني في كلية الحقوق، وكانت الأغنية التي يؤديها، هي أغنية» منديلك المنقوش جانبه أو تذكرين؟ «، فما كان من احد الطلبة إلا أن اخرج منديلا من جيبه، وتقدم إلى المسرح، وهو يلوح به للفنان عبد العزيز، الذي توقف عن الغناء، وقال لصاحبنا احمد في الميكرفون:» ده منديل سوقي خالص يا أخ!!«

وكم استمتعنا في الرحلات البعيدة منها والقريبة في أيام الجمع ، والتي سوف يأتي الحديث عنها بتفصيل أكثر في حلقة قادمة إن شاء الله، أو في الندوات السياسية. ومن أظرف التعليقات التي سمعتها في إحدى هذه الليالي السياسية، ما جاء على لسان الأمير عبدا لله عبد الرحمن نقد الله ، الأنصاري الكبير ، الذي جاء إلى دار الاتحاد ذات مرة للمشاركة في ندوة سياسية؛ فنظر إلى إحدى اللافتات الكثيرة، التي تزين دار الاتحاد، وجاء فيها: « بالروح بالدم نحمي الثورة» فقال لنا: « يا أبنائي، الثورة التي تحتاج إلى حماية، لا تستحق أن تكون ثورة!» ثم جلس يستمع إلى خطب بعض الطلبة. وعندما صعد إلى المنصة علق تعليقا لاذعا، فقال: « أول ما جئت إلى الجامعة كنت أتهيب الحديث في

هذا المنبر، لكن عندما استمعت إليكم، ورأيت كيف أنكم تذبحون اللغة العربية ذبحا، قلت :» فليمدد أبو حنيفة رجليه» ثم أردف» : عيب والله يا أبنائي.. لازم تقروا!!» رحمه الله.

وتذكرني هذه الندوات، حادثة حدثت في البركس بالقرب من داخلية بحر الجبل حيث كان الإخوان المسلمون مجتمعين لمناسبة ما، وانقطع تيار الكهرباء، فعاد الأخ «ط.ن»، من مشوار خارج الجامعة، ولا يدري بما يحدث، ولم ير التجمع، ويبدو انه كان» مبسوط شوية!» فطفق يغني بأعلى صوته. وفاتني أن اذكر انه من أعضاء الجبهة الديمقراطية البارزين، ومعروف لدى الإخوان جيدا لكثرة مناكفاته معهم؛ وعندما وصل إلى مكان الاجتماع، فاجأته عودة التيار الكهربائي ، ووجد نفسه دون مقدمات وسط مجموعة الإخوان! فالتفت الجميع ينظرون باستغراب إلى الذي كان يغني، وهو بحالة غير طبيعية! وإصابته المفاجأة بالدهشة، فنظر إليهم ورفع يده وهو يهتف: « يعيش الله!!» فضحك الإخوان، وكان ذلك جوازه للمرور!!

واذكر كيف أن الأخ علي عثمان(نائب رئيس الجمهورية، وابن دفعتنا) ورئيس الاتحاد في ذلك الوقت، قد نجّى بفضل الله، الدكتور جعفر محمد علي بخيت، وكان المشرف على شؤون الطلاب، ذات مرة من موت محقق! فكان المشرف قد منع الاتحاد من إقامة ندوة سياسية في قهوة النشاط، وأصر الأخوان على ذلك، ووقف الأخ علي وهو يحمل الميكرفون، على المسطبة الشمالية في قهوة النشاط، وهو يريد مخاطبة الجمع المحتشد. فما كان من الدكتور جعفر إلا أن اخذ منه الميكرفون عنوة، ومنعه من الحديث. فجاء احد المتشددين ووقف على المسطبة، من وراء الدكتور جعفر، وهو يحمل كرسيا من الحديد، ، ورفعه عاليا وأراد أن يهوي به على أم رأس الدكتور جعفر! الذي كان جالسا في الأسفل قرب المسطبة! فما كان من الأخ علي عثمان إلا أن أسرع إليه، واخذ منه الكرسي، وهو يقول له:» حرام عليك!!» فأنقذ بذلك نفسا بريئة. والشاهد هنا، هو انك قد تختلف مع الأخ علي عثمان في الرأي، لكن لا تملك إلا أن تعترف له بان العنف ليس من طبعه! له تحياتي.

ثم هناك الأمسيات الشعرية، لعل أبقاها في الذاكرة تلك التي أقامها الشاعر الفذ نزار قباني في دار الاتحاد، ولقد سمعت بعد ذلك منه في مقابلة تلفازية أجريت معه قبيل وفاته، إلى إشادته بالمستمع السوداني، ذاكرا تلك الليلة ضمن الليالي، التي لن ينساها

ابدا ! ثم هناك المسرحيات وغيرها من النشاطات التي لا تحصى ولا تعد، والتي تصقل الطالب والطالبة، اجتماعيا، وأدبيا، وثقافيا، وسياسيا،وإنسانيا. وكاذب من قال انه تلقى فقط العلم في جامعة الخرطوم، بل قد يكون العلم هو اقل ما تلقاه! هذا دون القدح في المستوى الأكاديمي للجامعة!

وفي الجانب الأكاديمي، جلسنا إلى الفطاحلة من الأساتيذ من أمثال البروفيسور العلامة الدكتور عبد الله الطيب- رحمه الله رحمة واسعة- الذي درسنا (المفضليات) ، وسيرة ابن هشام ، والأستاذ مكى الأنصارى ، المصري الجنسية ، والذي درسنا (ألفية ابن مالك) ، وكان حاذقاً لعلمه ، فخوراً بنفسه ومعتزاً بها . ولكم قال لنا في نهاية كل محاضرة، بعد أن قذف بالطبشور بعيداً ، وأوسع قليلاً من ربطة العنق : « هل لديكم سؤال ؟ سلوا ما بدا لكم في الصغير والكبير ، فأنا الدكتور مكي الأنصاري، أتحدى الغموض!! » وكان إسلامي الهوى، يشتري جريدة الميثاق، ويخفيها في سرية داخل حقيبته! . وكان محباً للزميلات رؤوفاً بهن ، و يميل دائماً لإجراء المنافسة في الإعراب بين الزملاء والزميلات، واللائي كن في الغالب يفزن بقيادة الزميلة الشاطرة سيدة نصرالله ، التي يبدو أنها تأثرت بوالدها أستاذ اللغة العربية، لكنها غادرت الجامعة والتحقت بمهد المعلمين العالي. وقليلاً ما كان الزملاء يفوزون بقيادة الزميل الشاطر الصديق حسن المنقوري(الدكتور حسن الأستاذ بقسم الجغرافيا بجامعة الخرطوم) له تحياتي.

أما البروفسور عبد الله الطيب فلقد كان يتمتع بذاكرة نادرة، وخاصة فيما يخص الشعر الجاهلي، وأنساب العرب، وكان يتحفنا دائماً بالنوادر العربية . من ذلك أذكر أنه حدثنا ذات مرة أن بعض الرواة العرب يشتطون في الوصف، ويبالغون فيه وبعضهم كاذب . فأراد أحدهم أن يحدث الناس فقال لهم : « سأصف لكم اليوم الذئب الذي أكل سيدنا يوسف . فهو ذئب أغبر كثيف الشعر ، قصير أعرج ، بأذنه اليمنى كذا وكذا و....... » . وبعد أن استرسل في الوصف ، قال له أحد الحاضرين : « لكن أيها الشيخ الجليل إن الذئب لم يأكل سيدنا يوسف!! » . فاستدرك الراوي سريعاً وقال : « إذاً فالذئب الذي وصفته لكم، يكون هو الذئب الذي لم يأكل سيدنا يوسف !! »

ويبدو أن زوجته كذلك لا تخلو من روح النكتة؛ فمن الطرائف التي سمعتها من السيدة المصونة حرم البروفيسور عبد الله ، الحاجة جوهرة، البريطانية الأصل، عندما قدمت

إلى الحج العام الماضي، وأقامت لها مجموعة خيرة من السودانيين هنا في جدة، من المؤتمر الوطني بمشاركة منتدى الإمام عبد الرحمن المهدي حفلة تكريمية في مركز الشعلة، كان الحضور فيها قوميا، جمع السودانيين من كل طيف وصوب، وكانت آية في الإبداع، والوفاء، أحسن في تقديمها الأخ اللغوي الضليع، الأستاذ سيف الدين عيسى، احد طلاب البروفيسور عبد الله النجباء، الذي درّسه في المغرب، إلى جانب الصديق العزيز جماع مردس من قبل المنتدى. وحين اجتمع الكل لتقديم الهدايا، واخذ الصور معها ، كاد البعض أن يدمع، وأنا صادق لأني كنت واحدا من ضمن هؤلاء. وحين طلب منها أن تتحدث عن علاقتها بالبروفيسور عبد الله، قالت، وبالعربي: أعجبت به أول ما رايته في الجامعة في لندن. وكنا نتناقش مجموعة من الطلبة ذات مرة في صالة الطعام، وهو يهاجم الاستعمار، ويندد بما فعله بالشعوب المستضعفة، وانأ مشدودة انظر إليه في صمت وإعجاب، ومندهشة من ترتيب أفكاره، وسلاسة لغته الانجليزية، وقلت في سري ، بما معناه بالسوداني « خلي الفصاحة» أنا حاتزوجك، يعني حاتزوجك!!» وقد كان لها ما أرادت!

ولقد كان البروفيسور عبد الله الطيب سببا في جعلي أترك فكرة التخصص في اللغة العربية، والتي راودتني كثيراً بعد أن أحرزت فيها درجة الامتياز المرتفع في امتحان الشهادة السودانية، والتي يحلو للطلاب أن ينطقوها باللغة الانجليزية : « ديستينقشن ون» لتبدو أكثر فخامة!

وقد توصلت إلى قناعة في ذلك بعد أن تبين لي غزارة علمه وسعة إدراكه ، وذاكرته التصويرية ، فيئست من أن يأتي اليوم الذي أبلغ فيه القدر اليسير مما هو عليه ، وقلت لنفسي : « إن هذا بحر زاخر يحسن بك ألا تخوض فيه « خاصة وانأ كأستاذي محمد الواثق امرؤ «غير سباح»؛ فتركت الفكرة مكرها.

وكان إلى جانب ذلك يتمتع بقدر كبير من السخرية . أذكر ذات مرة أن صديقي العزيز محمد بشير محمود ، من أبناء الأبيض أصلا ، والعاصمي المنشأ، لم ينجح في امتحان اللغة العربية في سنة من السنين. والأخ محمد تخرج في مدارس (الكمبوني) التي تركز أكثر على اللغة الإنجليزية. فقال له البروفيسور عبد الله الطيب : « الأمر الذي يحيرني فعلاً هو كيف أنك حققت هذا الإنجاز يا بني؟ . فالسقوط في اللغة العربية يحتاج إلى عبقرية وأنت لست بعبقري !! « . ولا أدري كيف أفي أخي وصديقي محمد حقه من الوصف ؟ فإن

قلت كان شهماً، وكريماً، وفاضلاً، ومضيافا، وودودا، لم أقل في حقه شيئاً! كان يصر على أن يدعونا مراراً في شهر رمضان من كل سنة، لنتناول الإفطار مع أهله وذويه في دارهم العامرة بسكن السكة حديد جنوب محطة القطار بالخرطوم ، وفي غير رمضان، ويصر حتى على دفع قيمة مشوار التاكسي، وكان يعتبرنا جزءاً من أقاربه. فيدخلنا (أنا والأخ عبد الحميد، والأخ إبراهيم موسى) على أفراد أسرته حتى عرفناهم جميعا وألفناهم ، والدته الطيبة، وأخاه محمود، الذي كان يعمل في وزارة التجارة، وأخواته. ولم أقابل الأخ الصديق العزيز محمد بشير، منذ أن تخرجنا من الجامعة في أول السبعينيات. وشهد الله كم بحثت ، وسالت عنه في كل مكان، لكن دون جدوى؛ وقد يكون السبب هو بعدي عن السودان الذي زاد على الثلاثين عاما في اغتراب بين ألمانيا والسعودية!! وفترات الإجازة التي تتخللها تكون قصيرة ولا تسمح لك بمقابلة كآفة الأصدقاء والأحباب. وآخر ما علمته انه ترك العمل في وزارة الخارجية، والتحق بالعمل في منظمة الوحدة الإفريقية في أديس أبابا. وعندما ذهبت إلى أديس أبابا الجميلة، وشعبها المهذب الرقيق قبل عامين، كنت امني النفس بلقائه. فأول ما استقريت في الفندق، اتصلت بالمنظمة سائلا عنه. لكن للأسف أجابتني السكرتيرة بأنه قدم استقالته قبل عام وغادر إثيوبيا! فسألتها إن ترك عنوانا، فأجابتني بالنفي! فكان كأصحاب أستاذي الدكتور عبد الواحد يوسف« الذين رحلوا وما تركوا اثر»! وضاعت فرصة أخرى ثمينة للقاء . أين أنت أخي محمد؟ وأتوجه بالسؤال إلى القراء الأعزاء:» ما شفتو محمد؟؟» ولمن يدلني على عنوانه الشكر الجزيل، لك كل التحيات والأشواق أيها السوداني النبيل.

وأرى نفسي تواقة إلى المضي في وصف حميد خصال الأخ محمد، أو خصال الأخ الصديق علي مبارك الذي طالما أغدق علينا من كرمه الفياض في داره العامرة ببري كما تقدم، ولكن ذلك يخرجنا من الموضوع فلنترك ذلك مرغمين .

وهناك الكثير من الأساتذة الأجلاء الذين جلسنا إليهم في مختلف العلوم ، كالبروفيسور عثمان سيد أحمد البيلي - وزير التعليم العالي الأسبق - في التاريخ الإسلامي، والذي لا يتهاون مطلقا في تطبيق النهج الأكاديمي بصرامة في جميع الحالات. اذكر انه فرض علينا ذات مرة في احد السمنارات تحليل موضوع معين. وعندما اجتمعنا الأسبوع التالي، سأل إن كنا قد اعددنا التحليل؛ وجاءت الإجابة خجولة. عند ذلك بدأ يسال الصف واحدا تلو الآخر، والذي يجيب بالنفي يقول له « آوت». ولم يبق في النهاية سوى شخص

واحد هو الذي اعد الموضوع. ولسوء حظي كان ذلك الشخص هو العبد لله! فبينما خرج كل زملائي يستمتعون بشرب الشاي وبالأنس في قهوة النشاط، انفرد بي البروفيسور، ودرسني لوحدي كامل الحصة! وعندما خرجت قال لي احدهم ساخرا : « ها أنت قد أخذت مكافأة شطارتك!!» له كل تحياتي.

والبروفيسور البريطاني، عاشق السودان، والحجة في آثاره، أستاذي براين هكوك، والذي بالإضافة إلى انه موسوعة في تاريخ السودان القديم، كان يجيد العديد من اللغات منها الألمانية، والهيلوغروفية، والفرنسية على ما اعتقد. وكان بسيطا في كل شيء، ويقضي معظم وقته مع طلبته في قهوة النشاط. وكان مرحا يحب أن يروي النكات. وكان يستغرق في الضحك عندما يحكي لنا كيف أن الناس في المديرية الشمالية، التي يزورها كثيرا يداعبونه بقولهم : « امشي يا خواجة يا بخسةّ!» فيضحك حتى يهتز جسمه المترهل، وهو طويل القامة، ممتلئ الجسم، خفيض الصوت، ويغري شكله وطريقة حديثه، ومشيته الناس بأنه أبله! وزعم ذات مرة أن بريد الجامعة استلم مجلة» فرس» الأثرية، وهي مرسلة لكلية الآثار، فما كان منهم إلا أن أرسلوها إلى كلية البيطري في شمبات استنادا على اسمها!

وكان موته الذي حدث من جراء حادث، صدمه فيه احدهم وهو على الدراجة التي لا تفارقه أبدا، ، في طريقه ليلا إلى داره في سكن الأساتذة، حادثا مفجعا بكل المعايير. فقد أطاح به الجاني أرضا، وهرب ولم يسعفه، حتى وجد صباحا وهو ملقى على الشارع، ونقل إلى مستشفى الخرطوم، لكن بعد فوات الأوان! وأرادت الجامعة أن تنقل جثمانه ليدفن في لندن، إلا أن والدته أرسلت برقية، تفيد انه كّرس كل جهده للسودان الذي أحبه، فمن الأفضل أن يدفن في البلد الذي أحبه طيلة حياته، وكان لها ما أرادت.

والبروفيسور عون الشريف في الفكر الإسلامي، والدكتور صالح محمد نور ، والبروفيسور مكي شبيكة، وعثمان السمحوني- الذي غادر الجامعة وأصبح سفيرا في عهد النميري- في تاريخ السودان والدكتور حسّان تمام المصري الجنسية ، عالم الصوتيات الذي كان إلى جانب إجادته لمادته، وحسن أدائه، وشخصيته القوية، والجذابة، حطم ما كنا نعتقد في داخلنا، من أن الأساتذة المصريين غير ضلعين في اللغة الانجليزية، لدراستهم باللغة العربية. ولكن لله در البروفيسور حسان فقد خيب ظننا! فكان يملك نواصي اللغة الانجليزية ولا يقل عن إقرانه من الأساتذة السودانيين! والدكتور محمد الواثق في النقد،

و صاحب ديوان» امدرمان تحتضر»، والدكتور إبراهيم الحاردلو المتخصص في الأدب الأندلسي،والدكتور عز الدين إسماعيل، أيضا في اللغة العربية، والدكتور عبد الواحد يوسف في الأدب، ومؤلف قصيدة: أحبابنا أهل الهوى × رحلوا وما تركوا اثر

والذي طلبت منه ذات مرة إحدى الزميلات أن يستعرضها لنا في المحاضرة، فأجابها أن» هذه ليس مكانها المدرجاتّ!»

والدكتور أحمد محمد حاكم، والبروفيسور عبد القادر محمود في التاريخ القديم والآثار، والدكتور عباس إبراهيم و الأستاذ الأمين عبد الكريم في التاريخ الأوروبي. والدكتور عمر النقر ، والدكتور حسن عابدين . سفير السودان الحالي في بريطانيا . في التاريخ الأفريقي، والدكتور أحمد حران في التاريخ العثماني ، والبروفيسور شاهين، والدكتور مولر، والدكتور كمال شداد في الفلسفة ،ذاك الأكاديمي الألمعي، الذي أخذته اتحادات الكرة ومشاكلها الكثيرة!! والأساتذة والأستاذات البريطانيات في اللغة والأدب الانجليزي، منهم الأستاذ ابازا، والمس كوك في الأدب الانجليزي ، والبرفيسور ماكمايكل في اللغة، والأستاذة مسز بيفن في الدراما ، ولقد كانت علاقتها مع الطلبة يشوبها دائما التوتر، إن لم نقل عدم الاحترام، لأنها كانت في منتهى العنجهية! اذكر أنها قالت لنا ذات مرة « ليت الجامعة تسمح للأساتذة بإحضار عصي معهم في المحاضرات! « فما كان من احد الطلبة إلا أن قال لها باللغة العربية، كي لا تفهمه:» هذه العصا تستحق أن تعطى لزوجك في البيت!!» وبقدر ما حاولت الطلبة أن يترجموا لها ما قاله ذلك الطالب فشلت!! لهم التحية والتجلة ، والتقدير، والاحترام للأحياء منهم، والرحمة والمغفرة للأموات.

وتعرفت في الجامعة على أصدقاء أعزاء، وزميلات عزيزات من كل إنحاء السودان. ولا ادري لماذا أجد أن معظم أصدقائي من الدناقلة! بداء بالصديق ساتي محمد صالح. والذي يعمل الآن مع الخطوط السعودية هنا في جدة، وبينما كنا قلما نفترق، أصبحنا قلما نتلاقى الآن رغم أن كلينا هنا في جدة! انها الدنيا! ومن النوادر التي حدثت لي ذات مرة مع الأخ ساتي، اذكر أن ذهبنا إلى عرس احد أصدقاء ساتي، يدعى الرشيد في المزاد ببحري ، حيث كنا كثيرا ما نزور منزل خال ساتي والد عثمان. وقرر هذا الرشيد أن يتزوج بطريقة غريبة فعلا! فهو احد الكروت، واستقبل المدعوين في حفلة العشاء التي أقامها، وهو لم يحدد العروس حتى تلك اللحظة! كان كل همه هو أن يحصل على ما يبدو على مساهمات الأصدقاء ، ثم يسافر إلى مصر، ويحضر معه الزوجة المجهولة الهوية،

حتى ذلك الحين! وبعد أن تناولنا عشاءنا، وأردنا الخروج، وجدنا أن الباب الضيق قد سد بطاولة، جلس عليها من يمسك بدفتر وقلم، ويستلم « المعلوم»، ويفسح المجال فقط لمن يدفع! تماما كأننا تناولنا وجبة في مطعم! ولم نكن قد توقعنا ذلك، وكانت جيوبنا شبه خاوية! فرجع ساتي إلى الداخل، واستنجد بصاحبه العريس، وأكد له أننا سوف نسدد الحساب في وقت لاحق! فشفع لنا في الخروج. ومن يومها تبت من دعوات أصدقاء ساتي!! و أخوه محمد ، الذي يتحفنا بالنوادر، حيث يزعم أن له صديق من الغابة في الشمالية، ويدرس معهم بالفرع، ويسكن في الشجرة!! والأخ ميرغني محمد صالح، الذي تعرفنا عليه ذات ليلة في المواصلات بين داخلية معهد المعلمين العالي في ام درمان، وبين دار الاتحاد في الجامعة، انأ ومعي الأخ عبد الحميد، وكان بشوشا، ودودا من أول وهلة؛ وأخيه محمد على محمد صالح كبير مراسلي صحيفة الشرق الأوسط الآن بواشنطن حيث استقر، ومن أوائل الخريجين الذين التحقوا بالعمل الصحافي، ، والأخ الفاتح محمد على، حفيد الزبير حمد الملك، (دكتور الفاتح الذي مات في حادث حركة في أمريكا، وهو يستعد للعودة ا إلى السودان بعد نيله شهادة الدكتوراه) وشقيقه دكتور الفاضل (النطاسي البارع). والغريبة حتى هنا في جدة، أجد دائرة اعز أصدقائي تضم طائفة من الدناقلة كذلك، منهم الأخ المهندس احمد عيسى، والدكتور حسين شريف الخبير المالي بمجموعة شركات الشربتلي، وشقيقيه محمد شريف المحاسب بشركة دلة، وسيف الدين شريف كبير المحاسبين بشركة حليب السعودية، والأخ عبد الرحمن سعيد بالخطوط السعودية سابقا، والأخ عادل الشيخ، أخصائي الكومبيوتر، وأخاه رجل الأعمال، والقنصل الأسبق الشيخ محمد الشيخ، وغيرهم، ويطل صديق العزيز مصطفى سوركتي من دبي، والذي تعرفت عليه في هامبورج، قائلا « أنسيتني انأ؟؟ « ومثله من ألمانيا كذلك صديقي صفوت عبد الرسول.

وسؤالي موجه إلى المهندس ود عيسى: هل السبب هو أن هناك صلة ما، بين الفلانيين وبين الدناقلة؟ خاصة لو علمنا أن المراجع التاريخية، قد احتارت في أصل الفلانيين، فأرجعتهم تارة إلى العرب، وتارة إلى اليهود، وتارة أخرى إلى المصرين- وبصفة خاصة فرع أولاد على- ومرة إلى الفينيقيين، ومرة أخرى إلى الهنود، وتارة أخرى إلى الإثيوبيين، وفيهم من ملامح، وتقاليد هؤلاء الشيء الكثير؛ فلعلهم نسيوا أن يضيفوا الدناقلة!! « يعني تكونوا قرايبنا»، ونحن لا ندري ذلك؟؟!!

ومن غير هؤلاء اذكر الأصدقاء الأعزاء الأخ السفير احمد جعفر عبد الكريم، سفير السودان السابق في ألمانيا، وعميد السلك الدبلوماسي فيها، و« فردتي» في أسرة البركس المكونة من سرير فوق وسرير تحت، والمهندس المهذب مقبول الطاهر عبد الرحمن- الذي كان لا يذكر اسمي إلا يقرنه بالأخلاق، فكان دائما يخاطبني بـ « بدين الأخلاق!»، وكذلك أخوه المرحوم التاج، والأخ وليد نصر الحاج على، والسفير صديق أبو عاقلة، والأخ الدكتور مهندس عبد الغفار فقيري، القطب الاتحادي، الذي كان يجاورنا في البركس. اذكر أننا عدنا الي البركس ذات مرة وبدأنا في مذاكر معلقة أعطيت لنا في اليوم السابق، بينما هو منهمك في المعادلات الرياضيات الصعبة، واغتاظ من تركيزنا في أشياء مثل المعلقات، بينما هو مبتلى بالمواد المعقدة. فلما عدنا في اليوم التالي من الجامعة، سألنا ساخرا: « الم تلحن لكم المعلقة اليوم ؟؟!!» وتجاورنا مع الأخ عبد الغفار مرة أخرى في السنة النهائية في داخلية بحر الغزال الراقية، المطلة على شارع الجمهورية، حيث كان يشاركه الغرفة صديقه عصام.

وحدثت له ذات مرة حادثة طريفة، لكن ليست للنشر!!وعدنا وتلاقينا مرة أخرى هنا في جدة، قبل أن يقرر العودة النهائية والاستقرار في السودان، تحياتي للأخ الصديق دكتور مهندس عبد الغفار، وأتمنى له كل توفيق في مسعاه الجديد. والأخ صديقنا الصومالي محمد إبراهيم، الذي كان يتمتع بقدر كبير من الوسامة، فهو خلطة صومالية يمنية .اذكر أن جاء إليّ يوما، وقال لي لدي قصيدة أريد أن اسمع رأيك فيها. فبدأها قائلا: البنات حلوات، لا ادري × ماذا افعل، هل اطلع الجبل؟

فقلت له إلى هنا يكفي، وعندما تعود من الجبل، اسمعني الباقي! له تحياتي. والأخ الدكتور البيطري هاشم ورثمة، والذي اعتقد أن جذوره تعود كذلك إلى الصومال .اذكر أني وجدت معه زميلة له في كلية البيطري،شقيقة زميلتنا في الآداب سنية الجاك من مدني، تدعى هادية. فسألتها :» ما الذي جعلك تلتحقين بكلية البيطري؟ وكلها أولاد! « فأجابتني قائلة: « هو نفس السبب الذي جعلك تلتحق بكلية الآداب، وكلها بنات!!» فكانت بمثابة ضربة بضربة والبادي اظلم!

هذا بالإضافة إلى الأصدقاء من أبناء دارفور مما كنت لا اعرف سابقا،أو اعرف لكن العلاقة توطدت بيننا داخل الجامعة، كالأخ الطيب عبد المجيد، الذي تقدم الحديث عنه، والأخ الإداري عبد الباقي أبو سم بالهيئة الهيئة العربية للتنمية، والبروفيسور سليمان

صالح فضيل، والأخ فاروق إسحاق، وقد مر الحديث عنهم كذلك، ، والأخ الإداري تاج السر محمد بدوي، والمستشار عابد السنا ري، والإداريين عبد الرحمن محمد محمود، وآدم الزين مجمد، وجميعهم من أبناء الفاشر، والأخ يوسف محمد محمود، من أبناء زالنجي، المهندس الأديب الذي يحفظ الكثير من شعر وردس ورث ، وتي اس اليوت، وغيره من فطاحلة الشعراء الانجليز. واذكر انه زار جدة قبل بضعة سنوات، ومعه زوجته الأستاذة حياة أبو اليمن، والتي علقت أطرف تعليق على غربتنا الطويلة قائلة: « المشكلة يا بدين أن المغتربين لا يعدون السنوات!!» — واعتقد إنها محقة في ذلك! والأخ حامد عمر من جنوب دارفور، والجيولوجي الساخر إسماعيل مسبل من كبكابية ،والسفير حامد التني من الجنينة، والدكتور محمود أبكر من الطينة بشمال دارفور، والدكتور جماع عمر فائق، من الجنينة ، والدكتور إدريس الحاج من مليط، والاخ إبراهيم احمد إبراهيم، الأمين العام للمجلس الوطني، وأخيه النور المسؤول الكبير في حكومة شمال دارفور، والأخ حسن امام، وأخيه محمد احمد من كاس، والأخ الزراعي على محمدين، وأخيه الاستاذ ابراهيم من ام برو، وغيرهم وغيرهم ممن لم تسعفني الذاكرة في إيراد أسمائهم ، لهم العتبى حتى يرضوا !

بريدي:

اتصل بي الأخ الصديق العزيز البروفيسور ميرغني عبد العزيز كبير أخصائي الباطنية والمخ والأعصاب بمستشفى با قدو وعرفان بجدة، وهو من المتابعين الحريصين لمقالاتي، ويمتعني دائما بتعليقاته الذكية. وأبدى أيضا تقديره للدكتور سليمان ابو صالح، والذي تعرف عليه في مستشفى الفاشر في عام ١٩٦٥م، له شكري وتحياتي. ثم صديقي الأخ السنجك المحاسب ميرغني محمد الحسن، والذي يعتب عليّ اذ انه لم يعلم بأمر هذه الحلقات إلا أن عثر على الحلقة رقم ٢١، ، ويثني أحر الثناء على الدكتور سليمان ابو صالح، ويتحدث عن عدة تجارب له معه، له اعتذاري و تحياتي.

وأنا مدين لهذه الذكريات بان جعلتني اسمع صوت بعض الأصدقاء الذين لم نتقابل لأكثر من ثلاثين عاما! ومن هؤلاء أخي وصديقي وزميلي في متحف السودان القومي الأخ عثمان محمد عثمان من أبناء دنقلا، في الرياض، والذي عثر على رقم جوالي بعد بحث مضنٍ! ولقد سعدت بسماع صوته وبتعليقه على صدى الذكريات، وسيرد ذكره في حلقة

لاحقة ، له كل الشكر والتحية.

تصويب: اشكر الأخ العزيز عبد الله علقم الذي أرسل لي رسالة الكترونية، صوب ما ذكرته خطا من أن الشهيد الذي استشهد مع احمد القرشي هو « عبد الرحمن عبد الحفيظ» والصواب هو بابكر حسن عبد الحفيظ، وهو الشهيد الثالث كما يذكر، لان الشهيد الثاني هو مبيور أشول، العامل بكلية الآداب.واعتذر للقراء عن هذا الخطأ الجسيم!

كما أرسل لي رسالة سعادة المستشار صلاح نصر من الرياض، والذي لم أتشرف بمعرفته بعد ، وقد لفت نظري مشكورا إلى أن المدارس كانت تعرف في ذلك الوقت بالأولية وليس الابتدائية، والثانوية وليس الثانوية العليا كما ذكرت. لان هذا التغيير حدث في عهد النميري. ثم أثنى على المقالات وضم صوته إلى المنادين بطباعة المقالات في كتاب، وعن تشوقه للمقالة القادمة عن جامعة الخرطوم، وابشره إن الحلقات الثلاث القادمة كلها عن جامعة الخرطوم، له من الشكر أجزله.

جامعة الخرطوم ... قصص... ونوادر!

لم تكن جامعة الخرطوم دارا للعلم والثقافة فقط ، أو مسرحا للصراع السياسي، بل كانت دارا للألفة، والمودة، والحب البريء، والصداقة، تتبلور فيها العلاقات الإنسانية، والاجتماعية في أسمى معانيها، وتذوب فيها النعرات القبلية والعنصرية، والفوارق الطبقية، وتصهر الجميع في بوتقة القومية الرحبة، تغذي في طلابها الإحساس بالمسؤولية، وتزكي فيهم الروح الوطنية؛ يختلفون، ويتناحرون، إلا أن اختلاف الرأي لا يخسر لديهم للود قضية؛ إلا ما في ندر!

كانت الجامعة تضم بين جنباتها شاباتٍ وشباباً من مختلف أنحاء السودان، ممتلئين حيوية، وهمة، ونشاطا، كلهم يتطلع إلى غد مشرق، ومستقبل باهر ؛ يا ويحهم! ماذا حصدوا ؟؟!!!. وكانت كل واحدة منهن، وكل واحد منهم يعيش تجربة التعليم المختلط لأول مرة في حياته. وقد كان للاختلاط كما هو الحال مع كل التجارب الجديدة، جوانب البعض منها ايجابية، والبعض الآخر سلبية. وان سألتني رأي، فأقول ايجابياته أكثر بكثير من سلبياته!

وكان يتم في رحاب هذا الاختلاط،، الجديد على الطلاب، كما هو جديد على الطالبات، الكثير من اللقاءات خارج المدرجات ، لقاءات بعضها جماعية والبعض منها ثنائية . ويكون هناك نقاش وتبادل آراء وسمر ولهو برئ . إلا أن هذه اللقاءات الليلية ، والثنائية منها على وجه الخصوص والتي تتم في منتجعات (قهوة النشاط) حيث تكثر الأماكن الهادئة ذات الأضواء الخافتة ، كانت موضوع جدل ولغط من جانب بعض الفئات والأفراد.

ومما يروى أن مدير الجامعة في ذلك الوقت - العلامة المرحوم النذير دفع الله - رحمه الله - تطرق إلى هذا الموضوع في اجتماع من الاجتماعات المشتركة بإتحاد الطلاب . وكان رحمه الله ، رجلاً لبقاً يصل إلى ما يريد بأسلوب ساخر محبب . فعندما كثر الجدال حول هذا الموضوع قال : « يا أبنائي حدثوا إخوانكم الطلبة وأخواتكم الطالبات أنه لا غضاضة البتة في أن يتجاذبوا أطراف الحديث مثنى وثلاث ورباع متى وأينما شاءوا ، فقط عليهم أن يتجنبوا الأماكن المظلمة ، وعليهم بالجلوس في الأماكن المضيئة ، وهي منتشرة ، فالضوء يا أبنائي - حسب علمي - لا يسترق السمع! «.

ولم تكن الحياة الأكاديمية تستغرق جل وقتنا ، ولم يكن الوقت كله للتحصيل العلمي ، ولا

أظنني أجاـ في الحقيقة كثيراً إن قلت أن النذر القليل فقط ومن وقت الكثيرين هو الذي كان يكرس للاستذكار والدرس . وأظن أن الكثيرين منا كان يتذرع بالحديث القائل (روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت) لذلك كنا كثيري الخروج من المكتبة بين الحين والآخر بحجة تجديد نشاطنا ونشاطنا المفترى عليه برئ من ذلك . وأذكر (كاركتيراً) لطيفاً يصور أحدهم دخل المكتبة يحمل الكثير من الدفاتر والكتب والأوراق والأقلام وساعة المكتبة تشير إلى السادسة . وضع كل ذلك في عجالة وخرج لتوه وجلس مع الصحاب في (قهوة النشاط) ثم عاد إلى المكتبة وهي على وشك أن تغلق أبوابها وساعتها تشير إلى العاشرة . وحمل أوراقه وكتبه وخرج . وفي الطريق قابله زميل آخر فسأله : « كيف عامل مع العلم؟ ». فما كان منه إلا أن قال : « والله أخوك جالد العلم جلد ! ».

وكما كانت لي مع الزملاء، نوادر، وقصص، وحكايات، كان الحال بالمثل مع الزميلات الأخوات العزيزات، ممن تعرفت عليهن خلال هذه المرحلة الجامعية، ولكن لا داعي لذكر الأسماء تفصيلاً (عسى يزعل الأزواج!) على الرغم من أنه لم يكن هناك ما يشين، أو يستدعي الزعل. فالعلاقة بين الزميلات والزملاء كانت في منتهى الشفافية، والسمو الأخلاقي السوداني الأصيل، ولا يتجرأ كائن من كان في أن يقدح في سمعة أو سلوك أية زميلة، ولا يخطر ذلك على بال احد، فقد كن فوق الشبهات. كان الطلبة يعاملون زميلاتهم كأخواتهم تماماً، وهن ينظرن إليهم كذلك كالإخوة،- وهل هناك ما هو أسمى وأنبل من إخوة العلم، وأقدس واطهر من دور العلم!!؟؟- ليس فقط داخل الجامعة، بل حتى حين تجمعهم المناشط الأخرى خارجها، مثلاً في حالة السفر بعيداً عن الخرطوم.

أذكر أن جمعتني الصدفة ذات مرة، وأنا في طريقي لقضاء الإجازة في الفاشر، في قطار نيالا الشهير، مع مجموعة من طلبة وطالبات علم الأجناس بكلية الاقتصاد برئاسة الأخ المعيد الأستاذ / عباس (الدكتور في الكلية بعد ذلك) ، في رحلة علمية إلى غرب السودان. وكان الازدحام رهيباً، والتحرك داخل القطار مستحيلاً ، والأستاذ عباس وطلبته يتفانون في توفير أسباب الراحة لزميلاتهم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وفي نهاية اليوم الثاني للرحلة جاءتني الأخت العزيزة زميلتي في الآداب(ب. ي.ب الأستاذة الدكتورة حاليا في جامعة الخرطوم) مندوبة عن الطالبات، لأنها الأكثرهن جرأة وشجاعة أدبية، وقالت

لي : «إن أجسامنا قد تسممت !!» فقلت لها : «معاذ الله .. ماذا أكلتن أيتها الزميلات العزيزات؟!» فقالت لي: «ليس من الأكل !! وكان السؤال البدهي الآخر : «من ماذا إذاً؟» فقالت لي يعني لازم أقول لك صراحة: «أننا منذ أن غادرنا الخرطوم أمس وحتى الآن ما بـ .... !!» فقلت يا للمصيبة !! هذا لا يجوز! وذهبت إلى الأستاذ عباس وناقشت معه هذه المشكلة الخطيرة، وبحثنا عن الكمساري وأقنعناه بأن يسمح للطالبات بقضاء ليلة في درجة أولى حيث المرافق النظيفة والمساحة الواسعة، ولم يخيب الرجل ظننا بعد أن أخذ نصيبه من «التسهيلات» بلغة العصر!!

والشاهد في هذه القصة، أو ما أردت تبيانه، هو أن البساط بيننا كان بساطا احمديا إلى حد بعيد. فأي البنات يمكن أن تجأر بمثل هذه الشكوى لغير أخ، أو من تعتبره في مصاف الأخ مهما كانت الظروف؟! وعلى اختلاف ثقافات الشعوب، يلاحظ المرء حتى أن الشعوب الأكثر جرأة، وحرية، وصراحة- واتخذ الألمان هنا مثلاً- تتحرج نساؤها في مثل هذه المواقف، وتراهن يحمن ولا يردن، و يستخدمن شفرة خاصة في مثل هذه الحالات! فتقول الواحدة عندئذ:» إش مس (بضم الميم) « وتعني « وجب!». فما رأي السودانيات في استعارة هذه الشفرة الخفيفة على اللسان والمعبرة، عند الضرورة تجنبا للإحراج!!- اعني الشفرة المعربة « وجب»!!
وفي رحلة أخرى بالقطار كانت معنا الزميلة العزيزة « آ. ت.» وهي في طريقها إلى الجنينة على ما أذكر لزيارة بعض ذويها، ولأنها كانت تعاني من بعض الآلام في الكلى ولم تقو على شرب الماء «كدراً وطينا»، شهد الله كنا نسقيها ماء علب الأناناس من حر مالنا، حتى وجدنا ماء نظيفاً!! ولم نر في ذلك منة ولا مكرمة! اللهم إلا إن كان الأخ يمتن على أخته؟! فلقد كانت ببساطة أختنا! لها تحياتي.
وما دمنا في قطار نيالا، فلابد أن نذكر ما حدث لنا ذات مرة أخرى، وكنت أيضاً في طريقي إلى الفاشر لقضاء الإجازة السنوية، وكانت معنا هذه المرة الزميلة الأخت دينا شيخ الدين (الدكتورة في القانون، التي استقرت في أمريكا، لها أحر التحيات) ، وكانت في طريقها لزيارة ذويها في كاس بغرب دارفور، ووصلنا إلى نيالا، ونزلنا في الفندق، وذهبت معها عصراً إلى موقف السيارات لتسهيل أمر سفرها باللواري. ومحطة السيارات كما تعلمون هي قاع المدينة، تجمع كل من هب ودب إلى جانب السائقين والمساعدين. وكان

وجود الزميلة دينا بملابسها النظيفة الأنيقة، وكعبها العالي، وخطواتها الترنيمة، وسط هذا الحشد، ملفتاً للنظر، وجاذباً للانتباه، ومدعاة للتركيز. وبدأت «المشاغلات» تنصب علينا من كل حدب وصوب «يا بختك .. يا مضمنها .. يا أرض أحفظي ما عليك .. عيني باردة ! وبعد أن أتوا على كآفة أصناف هذه التعليقات، عّرجوا إلى التحلية: يا حلاوة .. يا سكر ...يا عسل... الخ»!! وقد أصبت بقدر كبير من الإحراج، أحدق في هذا. وأنظر شذراً إلى ذاك، وأصبحت أتلفت يمنة ويسرى كسائق التاكسي !! وحين رأت دينا ضعف حيلتي، وهواني على الناس، قالت لي بالدارجي السوداني : «يعني عايز تعمل فيها راجل وتشاكل السوق كلو ؟!» يا أخ سد دي بطينة، ودي بعجينة، وكأنك ما سمعت!»، وكم أراحتني بقولها ذلك، فحمدت الله على رجاجة عقلها، خاصة أن دينا مشهود لها بالذكاء والشطارة.
ولا أدري لماذا أجد أن «شهامة أخو البنات السودانية» هذه داء يعاني منه كل سوداني. سيان تدنت أخلاقه أم سمت ! ويمكن أن يفرط في أي شي، إلا في هذه! فهذه تشكل لديه خطوطاً حمراء لا يجوز تجاوزها بأي حال من الأحوال !!.

اذكر عندما وصلنا إلى ألمانيا في عام ١٩٧٤م، والتحقنا بمعهد جوته لتعلم اللغة الألمانية في مدينة بوبارت الجميلة على نهر الراين، كان المعهد يضم طلبة وطالبات من شتى أنحاء الدنيا، ومن مختلف السحنات والأجناس. وكان ضمن هذا المجموعة ثمانية أخوة من المصريين، وبينهم امرأة واحدة تدعى «بديعة» وكانوا مثلنا (أنا والأخ حسن منقوري ومحمود خليل) تخرجوا من الجامعات وحضروا لألمانيا للتحضير لدرجة الدكتوراه.
وبعد أن أمضينا في المعهد حوالي الشهر، جاءتني بديعة وقالت لي : «لدي موضوع أريد لو سمحت أناقشه معك» فقلت لها: «على الرحب والسعة» وجلسنا في طرف قصي من الصالة، وبدأت في سرد موضوعها، فذكرت لي أنها جاءت من مصر مع هؤلاء الزملاء، منهم من تعرف سابقاً، ومنهم من لا تعرف، وقالت على الرغم من أنهم من أبناء جلدتها إلا أنها صراحة لا تثق في أي منهم ! ثم أضافت: «إنني امرأة وحيدة هنا، وضعيفة، وأخشى على نفسي وشرفي في هذه البلاد الفالتة، وأفصحت أكثر وقالت لي: «أنا متزوجة حديثاً، وحامل في الأشهر الأولى، ولا يعلم بذلك حتى والداي، فقط أنا وزوجي وأنت الآن؛ لذا كثيراً ما أصاب بالإجهاد، والإعياء، والغثيان، وأحتاج إلى من يقف إلى جانبي في حالة ضعفي، و إلى من يحمي عرضي وشرفي. وأنت قد تعرفت عليك منذ شهر فقط،

وراقبتك طويلاً من على البعد، فأوليتك ثقتي، وقررت أن أطلب منك أن تكون لي هنا بمثابة أخي وتحميني وتكون سندا لي !! فهل يمكنك تلبية طلبي ؟!» فقلت لها: «بشراك بالخير يا ابنة الأكرمين، ستجدينني إن شاء الله من الفاعلين!!».

ولكم وثقت في بديعة بعد ذلك!! فتأتي إليّ في الشقة حيث اسكن، وتأخذ راحتها وقتما تشاء، عندما تكون مرهقة، وهي في طريقها من المعهد إلى شقتها. وحين تشتد عليها أعراض الحمل، وتغيب عن المعهد، أذهب وأزورها وأستفسر عن حالها، وأحضر لها الدواء، وأشتري لها بعض الأغراض التي تحتاجها، وأراجع معها ما فاتها من دروس. كل ذلك وأخوتها من المصريين يهمسون، ولا يفصحون، ويتعجبون مما يرون! ولم أفش لأحد سرها إلا الآن، حتى زملائي من السودانيين!!

ولقد أمضينا في المعهد ستة أشهر، كانت العلاقة فيها بيننا هي فعلاً علاقة أخ وأخت، ولكم أن تصدقونني هذه المرة أيضا، أنه على الرغم من أنها كانت أسما على مسمي، إلا أنني ما نظرت إليها قط بغير تلك النظرة التي انظر بها إلى شقيقاتي؛ فما أنا إلا أخ لأربع من البنات!!.

ولعل البعض يظن أنني أحاول تمجيد نفسي، وأن أضفي عليها الشهامة والمروءة، كلا ! فلا هذه ولا تلك، وليس لي من الأمر في شيء!! فلا أعتقد أن «أرذل سوداني»- واربأ بكم أن تضعوني في مرتبة دون تلك!- وضعه القدر في هذا الموقف، الذي تأتيه فيه شابة – دون الطلاب من جميع الدول الأخرى، عربيهم وأفريقيهم، مسلمهم ومسيحيهم، أبيضهم وأسودهم، وحتى أصفرهم- وتعترف له بضعفها، وتطلب منه أن يحمي شرفها وعرضها في بلدٍ، العربي والإفريقي فيه غريبا اليد واللسان، يمكنه أن يخون الأمانة، أو يفكر مجرد تفكير في استغلال الموقف ! وإلا لتبرأ منه السودان العظيم،- والأم الرؤوم التي أرضعتنا مكارم الأخلاق- قائلاً له: «أغرب عني فأنت لست مني !!» وآمل إخوتي وأخواتي الكرام أن نعض على هذه المثل والقيم بالنواجذ مهما قست علينا الحياة وظروفها، فأخلاقنا تتعرض الآن لزلزال عنيف! وان زلزلة الأخلاق لكما زلزلة الساعة شيء رهيب!! فان ذهبت أخلاقنا، ذهبت معها ريحنا، وأصبح أمرنا فرطا! ولن يصلح حالنا وقتها لا مال ولا بترول! فالأمم دوما الأخلاق ما بقيت!وآمل ألا يكون الأوان قد فات!! أو كما يقول الفرنجة: «too late»!!

ولأن المصريين أهل طرائف ونكتة، أذكر في نهاية فترتنا في المعهد، وإعلان بديعة لخبر

زواجها، درءاً للشبهات بعد أن ظهر حملها جلياً، سألها أحد زملائها ويدعي «سليمان» قائلاً: «ماذا تنوين أن تسمين مولودك يا بديعة؟» فأجابته إن كانت بنت أسميتها كذا (نسيت الاسم الذي ذكرته) وإن كان ولدا أسميته «يحى». فما كان منه إلا أن قال لها «هل أنت عبيطة يا بنت ؟؟ تسميه يحى، كي يقف في آخر طابور الجمعية؟ سمه «أحمد» حتى يقف في أول الصف وينال نصيبه من التموين مبكراً» . ولم يعجب قوله ذلك بديعة ، إذ يبدو أنها تنتمي إلى أسرة ارستقراطية!

و بعد انتهاء المعهد سافرت بديعة إلى جامعة بون للتحضير لدرجة الدكتوراه في الرياضيات، وسافرت أنا إلى هامبورج في الشمال. وبعد فترة وصلني منها خطاب رقيق تجزل لي الشكر على الموقف الذي وقفته معها، وختمت خطابها قائلة: «وأتمنى أن تبقى كما عرفتك، وألا يفسدك أولاد وبنات الحرام» ووضعت خطين تحت «بنات»!! تحياتي للأخت الدكتورة بديعة، أستاذة الرياضيات في أحدى جامعات مصر الحبيبة.

ونعود إلى سوداننا الحبيب، والي جامعة الخرطوم، جامعتنا العزيزة، لنرى كما أن للزملاء نوادر، خاصة في أيام الامتحانات والنتائج، على الرغم من أنهم يتكلفون التماسك لزوم الرجولة، نجد كذلك نوادر الزميلات خلال هذه الفترة التي تعد عصيبة على الجميع.

أذكر أننا كنا نقف ذات مرة أمام كلية الآداب في انتظار «تعليق» النتائج، وأحدى الزميلات اعتقد – إن لم تخن الذاكرة – أيضا بخيتة باب الله- قد تعبت أعصابها كثيراً من جراء الانتظار الممل، فلم تستطع أن تستقر على حال، وبعد قليل ظهر أحد المعيدين، فسألته في لهفة عن حالة الملاحق في إحدى المواد، فأكد لها أن الساقطين هم أربعة فقط وكلهم من الطلبة، وليست بينهم طالبة واحدة، فما كان منها إلا أن قالت: «والله حتى لو أولاد أنا واحدة منهم!».

أو الزميلة خديجة كرار (الدكتورة خديجة رائدة المجلس الوطني سابقا) عندما كنا نذاكر في قهوة النشاط، في أيام الامتحانات ذات ليلة، وجاءت مجموعة من القطط الصغيرة تلعب في حوض الزهور الذي أمامنا، فنظرت إليهن مليا ثم قالت لي:» أتدري ماذا أتمنى الآن؟» أتمنى أن أتحول إلى قطة كهذه القطط،والعب معها، وافلت من المذاكرة والسهر، والامتحانات، والهم، والغم! هذا على الرغم من أنها كانت من المبرزات في التأريخ؛ لها تحياتي.

أو الزميلة «خ» التي كانت قلما تحضر معنا محاضرات الفلسفة طوال السنة، وعندما حان موعد الامتحانات، أحتار بها الدليل، فجاءت تدعوني إلى قهوة النشاط. وبعد أن تناولنا الشاي قالت لي: «الرجاء أن تحكي لي ما درستموه في مقرر الفلسفة خلال هذه الفترة!!» فكدت أقول لها:» مقرر الفلسفة كاملاً بكوب من الشاي؟ حرام والله! ألا يحسن أن يكون «سندويتشا» من نادي الأساتذة، أو على الأقل زجاجة بيبسي ؟!» وبينت لها صعوبة ذلك، وأعتقد أنها خرجت بملحق مستحق في الفلسفة في ذلك العام.

أو الزميلة «أ» التي بينما كنا نجلس في نفس مكان انتظار النتائج، إذا بها تجلس مباشرة على الجدول الممتلئ بالماء أمام الكلية، دون أن تشعر بشيء غير طبيعي، حتى نبهها أحد الزملاء إلى ذلك. فقامت بعد أن ابتلت ملابسها تماماً، والتصقت بها، وكان منظراً مجّسما ومحرجاً بحق !! والامتحانات والملاحق كانت تشكل فعلاً بعبعاً وكابوساً مقلقاً لجميع الطلبة والطالبات، الأذكياء وغير الأذكياء، فلا عجب في أن يأتون بالتصرفات غير الطبيعية.

ولا غرابة كذلك في أن يقيموا المناحة الكبرى أمام قاعة الامتحانات في نهاية كل سنة، في أول شهر مارس، الذي يطلقون عليه «مارس شهر الكوارث»! فيجتمع لفيف منهم أمام القاعة، ويحرقون الدفاتر القديمة، ويتبارى الخطباء، و الشعراء الحلمنتيشيون، في ذم الامتحانات، ورفضها لأن فيها التجسس على قدرات الطلاب العلمية، فيقول أحد خطبائهم» يا معشر الأخوان والأخوات، قد يمر عليكم عام من الزمان، وبعضكم قد غادر هذا المكان!» فتعلو الأصوات بالبكاء، والعويل! وبالطبع كل ذلك تمثيل في تمثيل، ونوادر من نوادر الجامعة الكثيرة، يرفهون بها عن القلوب قليلاً!

أما الأخ(أحمد) فقصته قصة! كانت له هواية غريبة، ألا وهي تبيان ما يشين، وما ينتقص من الآخرين أمام الزميلات ، حتى يبدو مكملا، عملا بقول الشاعر دوقلة المنبجي في قصيدته « اليتيمة»، والتي يحدثنا الرواة أنها من عيون الشعر:

فالوجه مثل الصبح مبيض ** والشعر مـثل الليل مسـوّد
ضدان لما استجمعا حسـن ** والضد يظهر حسنه الضد

وحاول ذات مرة أن يمارس لعبته تلك مع الأخ عثمان السيد، زميلنا مدير الأولية، الذي

التحق بنا في الجامعة لاحقا. ويعرف الجميع أن الأخ عثمان، متزوج ورب أسرة . فكان الأخ (احمد) جالسا ذات مرة مع إحدى زميلاته المحببات إلى نفسه، عندما انضم إليهما الأخ عثمان. فأراد احمد الانتقاص منه كعادته، وبدا يحكي للزميلة أن عثمان هذا رجل» كّباب- أي كثير القراءة- وكثير الخشية من الامتحانات، وجرسة...و....و...» وبعد أن سكت، التفت الأخ عثمان إلى الزميلة قائلا ، وبلا مقدمات: «هل تعلمين يا زميلة أن الأخ (احمد) يسف تمباك؟؟!!» فتعجبت الزميلة من ذلك، وبهت الأخ احمد ، وأنكر ذلك بشدة!! فما كان من الأخ عثمان إلا أن استعمل الفيتو الخاص بالمتزوجين . بحيث لا يدع للأخ احمد من بعد أي مجال كي يفلت، قائلا»: على الطلاق بالثلاثة بسف؟؟ !!» وخسر احمد بذلك المعركة!! وهذه حكاها لي الأخ عثمان بنفسه . له تحياتي.

وتلقى الأخ احمد « دوشا» آخر من الزميلة «هـ. د.» في مرة أخرى. فكان معها في طريقهما إلى داخلية البنات، ومرا بقهوة النشاط. وفجأة أطلق احمد ضحكة من ضحكاته المجلجلة، لفتت أنظار الكثيرين في قهوة النشاط! فتوقفت الزميلة والتفتت إليه قائلة: « كيف تضحك هكذا وانأ الوحيدة معك؟ أتريد أن يقول الجالسون في قهوة النشاط: «ماذا قالت هذه البنت «السفيه» لهذا الولد حتى أضحكته إلى هذا الحد؟؟!!» هذا فراق بيني وبينك، وتركته وواصلت سيرها منفردة!! ولا يضاهي الأخ احمد في كثرة توصيله للبنات إلى الداخليات- حسب علمي- إلا زميلنا «ز»، الذي كان بعض الظرفاء يطلق عليه لقب:» تاكسي الغرام» لكثرة توصيله البنات إلى الداخليات! ويذكر انه كان يرافق ذات مرة ما يقرب العشر من الطالبات، وعبر بهن قهوة النشاط، ميممين صوب الداخليات، فما كان من احد الخبثاء إلا أن خاطبه من بعد قائلا : « يا أخ(......) دعهن يوصلنك أنت إلى البركس!!»

وكما اهتمت الجامعة بتربية العقول، والترفيه عن النفس، كان الاهتمام بصحة الأبدان. وقد كان المستوصف أو العيادة الصغيرة في البركس، بإشراف الدكتور الإنسان بشير حمد، ومن بعده الدكتور الإنسان كذلك يحي، والممرضة الجميلة «ف» والسكرتيرة الظريفة فوزية، والتي تزوجها في نهاية المطاف زميلنا «الشيخ» من كلية العلوم، يقومون بالواجب خير قيام. واذكر أنني أصبت في عام من الأعوام بالقرحة، فقرر لي الدكتور بشير « غذاء خاص» يوميا كان لا يقل عن الغداء في أي فندق درجة أولى في ذلك الوقت،

إضافة إلى كمية من البسكيوت المحشي الفاخر وارد انجلترا ، يصرف لي مرتين في الأسبوع! وقد حدثت معرفة شخصية بيني وبين الطباخ المسؤول عن إعطائي هذا الغذاء الخاص، وبالطبع عرف اسمي، ويسألني عن حالي من وقت لآخر. وحضرت إليه في يوم من الأيام كي استلم غدائي فقال لي: « والله جاءني واحد، وقال لي أنا بدين، فأعطيته الغداء!» فقلت له: لكنك تعرفني شخصيا يا عم عثمان! قال لي نعم لكن ماذا افعل! هو قال ذلك وأنا صدقته!! وعلمت لاحقا انه كان مقلب من احد أصدقائي! الذي ضحك على ذلك الطباخ البسيط. فأحضرت صورتي للطباخ في اليوم الثاني، وقلت له لو جاء واحد بدين ثاني- وأنا ادري انه لا يوجد من يحمل هذا الاسم غيري ـــ لا تكتفي بالاسم فقط، لكن لابد أن تتأكد أن شكله مطابق كذلك لهذه الصورة قبل أن تعطيه الطعام! وقد أكون أول من استعمل الصورة في ضمان الحصول على طعامه!!

وكان بعض المتشددين لا يحبذون أن تعطيهم المرضة الحقنة خشية الفتنة ! وفي ذات مرة وافق احدهم على مضض. وبعد أن أعطته تلك المرضة الحسناء الحقنة في الذراع، بدأت تدلك بلطف على مكان الإبرة. فاستسلم ذلك الأخ بكل أحاسيسه، وأيضا بخياله، لذلك الدلك الناعم، حتى غاب في دنيا أحلامه الوردية ! وبعد أن أنهت المرضة واجبها، وهو لا زال غارقا في أحلامه ، نبهته بكف رقيقة إلى انتهاء «العملية »، بان ربتت برفق على ذراعه. فلما أفاق، ما كان منه إلا أن دفع بيدها بعيدا عنه صارخا فيها «: ما هذا الفساد!!»

ويا لفتنة الأيدي الرقيقة!! الم يقل فيها العقاد:

ولما انقضى الليل إلا اقله ** وحان التنائي، جشت بالدمع باكيا
فاقبل يرعاني ويبكي، وربما ** بكى الطفل للباكي وان كان لاهيا
وزحزحني عنه بكف رقيقة ** وأسبل أهداب الجفون السواجيا

بريد القراء:

- اتصل بي الأخ الصديق الدكتور حسين شريف، كعادته مشجعا على الاستمرار، ومن طريف ما ذكره، قوله انه كان في البداية يحثني على طباعة الكتاب، أما الآن فهو يعلن عن مساهمته في الطباعة! له شكري وتقديري.
- واتصل بي الأخ العزيز جمال إبراهيم من الرياض، زاعما أن الطقس كان

باردا في الرياض، لكنه أول ما قرأ صدى الذكريات، شعر بالدفء، وزال البرد! تحياتي وشكري على هذا القول الجميل.

- واتصل بي الأخ الصديق ابوبكر الصديق محمد منصور، مستجيبا لسؤالي عن الأخ محمد بشير محمود، ودلني على انه يعمل مترجما فوريا في الأمم المتحدة في نيويورك؛ له شكري الجزيل.

- وأبدى لي الأخ البلولة، صاحب ملحمة وخضار بني مالك إعجابه بصفة خاصة بالحلقة التي خدعني فيها صحن الفحم واعتقدت انه لحم! فيبدو أن الكلام دخل حوشه!!

- واتصل بي الأخ الصديق عوض الطريفي من جدة ، مبديا إعجابه بهذه الذكريات، وطالبا أن أضيف شيئا عن طرائف العم حمودة حلاق الجامعة. ولقد ذكرت شيئا من ذلك في حلقة سابقة، تتعلق بتعريفه للشخصيات البارزة!

- واتصل بي الأخ الصديق صلاح عمران أيضا من جدة، مبديا بعض النقاط الجوهرية؛ من ذلك قوله إن المقال الخاص بمواطني الفاشر بدا وكأنه كشف مستحقي الأراضي ، أو دليل هاتف من كثرة ما شمل من أسماء! واستعان بصديق(هو الأستاذ إبراهيم دقش) لمعرفة مكان الأخ محمد بشير، فأكد له مشكورا نفس ما ذكره الأخ ابوبكر الصديق؛ ثم سألني عن رأي الشخصي في أصل الفلانيين. ولقد تعرضت لذلك باسهاب ممل في كتابي:» تاريخ الفلاتة الفلانيون في السودان» ، وفي شيء من إيجاز في مقالاتي الثلاث التي رددت بها على الأخ الدكتور عبد الحليم صبار في صحيفة الخرطوم قبيل البدء في نشر هذه الذكريات؛ فيمكن لمن أراد الاستزادة من ذلك، الرجوع إلى هذين المرجعين، مع شكري وتقديري.

- وأخيرا اعتذر للقراء نيابة عن جريدة الخرطوم، التي كررت سهوا العنوان» على أعتاب جامعة الخرطوم» في الحلقتين ٢٢ و٢٣ ؛ إذ أن الحلقة السابقة كانت معنونة « في رحاب جامعة الخرطوم، وقد لا يخفى ذلك على فطنة القارئ، ولكن فقط من قبل التنويه!!

جامعة الخرطوم نبع المودة، والحنان، والعاطفة النبيلة!

كم جمع الحب بين أصحاب القلوب المرهفة، في ذلك الجو الأخوي الصادق، والشاعري الملهم، والمفعم بالمودة النبيلة، وكم فاضت المشاعر أحاسيس دفاقة ، جاشت بها الصدور، وفاض بها الدمع ،فجادت القرائح باعذب الشعر وارقه، وكيف كتم بعضهم هذا الحب بين جوانحه،ولم يبح خشية العيون التي ترى، أو بلغة هذا الزمن الصعب» الشمارات!» وكيف سار الركبان بذكر بعضه الآخر، بين منحنيات الجامعة وأروقتها، وكيف تسرب البعض الآخر من الشعر، وتعدى أسوار الجامعة، ولحن، وتغنى به الفنانون، فأصبحت تلك القصائد أغانٍ خالدة في حياتنا ووجداننا!!

ولا أود أن انكأ جراح هؤلاء الشعراء المرهفين،وغيرهم من العشاق المتيمين، فيصيحون بي، قائلين:»كفى!!» كعمنا مهدي أبوبكر- رحمه الله- الذي لام صاحبه، الأستاذ منصور عبد الحميد حين ذّكره بقصة حب قديم، قائلا:

أثـــرت شجـــونا لا تزال تؤرق ** رفيـــق الصبا ألا تحن وتشـفق

واسهرتني ليلي فهلا رحمت ما ** يجيش به قلبي الشقي ويخفق

وأنت إن رأيت جموع الطلبة والطالبات، وهم يتهادون زرافات، ووحدانا في تؤدة وانسجام، هناك بين منعرجات الجامعة، وساحاتها، فقد رأيت بالفعل ما وصفه الشاعر المبدع شوقي حين قال:

إذا مـــا رايتهـــمو عـنـدهـــا ** يموجون كالنحل عند الربـي

رأيت الحضارة في حصنها ** هناك وعند جندها الأغلـــب

ومن رحم هذه الصومعة، خرجت إلى الوجود، أحلى وأعذب الكلمات، فكانت تلك القصة العاطفية، التي ترعرعت في مكان عزيز على الشاعر، وعزيز علينا جميعا، جمع بينه وبين المحبوب والأخر:

ذكرت مكانا عزيزا عليّ ** وأنت بها وأنا والأخر

ويقال انه قهوة النشاط، والشاعر أدرى! وكيف نرى أن شاعرنا المبدع خشي الإفصاح والبوح ، وبالغ في إخفاء قصته من عيون البشر، إلا انه أعلن الهزيمة أخيرا، وأعلن عن ذيوع وانتشار الخبر! فكانت :

حبيبة عمري تفشى الخبر وذاع وعم القرى والحضر

وكنت أقمت عليه الحصون وخبأته من فضول البشر

أو ذاك الذي خشي على من يعز أن يسافر ويتركه وحيدا ، فلم يجد ما يقسم به غير المشاعر، وانه لأرق قسم وربك! لم يقسم بأغلظ الإيمان. فالشاعر رقيق يتجنب الغلظة حتى في قسمه! تماما كما اقسم قبله الشاعر الفذ حسين بازرعة بالمعزة، وبالمودة. فكانت:

قلنا ما ممكن تسافر نحن حالفين بالمشاعر

لان الدنيا بما فيها ومن فيها من بعدها ما بها غير الشقاء!. أما كان يجدر بها أن تجبر بخاطر هذا الشاعر المرهف، وتؤجل هذا السفر ولو «شوية»؟؟

وسفر الأحباب لم يبتل به فقط الطلبة، بل تعداه إلى أساتذتهم الكرام. الذين فجعهم رحيل الأحبة، فكانت:

أحبابنا أهل الهوى ** رحلوا وما تركوا اثر

ولم يترك الشاعر جهة إلا وسألها عن هؤلاء الأحبة، حتى طير المشارق! عله يأتيه منهم بخبر. وحق له أن يسال عن الذين هم:

بيض الوجوه كأنهم ** رضعوا من سطح القمر

سود العيون كأنها ** شربت من ينابيع السحر

ثم هناك تلك الحبيبة، التي تكفي فقط بسمتها الوضاءة المشرقة إلى أن تقسم الدنيا إلى قسمين! فكانت « سيد الاسم»:

حبيبي وقتين يبتسم الدنيا يا ناس تنقسم!

في أي قسم نجد أنفسنا أخي كامل ؟! إن شاء الله نكون في قسمكم!وان أبيت، فسوف نحلفك ليس بعشرة الجامعة فقط، بل بالتي سبقتها في الفاشر الأميرية، حيث شاركتنا فيها مدرستكم كتم الأميرية!

أو ذلك الشاعر المبدع الذي تحسّر على «آماله» التي ضاعت، وفجع بطالعه، شانه شأن الكثيرين غيره في الجامعةّ! وليتها اكتفت بالضياع فقط، كلا، أنها خطفت أيضا معها عمر الشاعر، فكانت الآمال الضائعة:

هي «الآمال» ضاعت ** كيف ضاعت لست ادري

سراعا كن كاللمح الخفي ** غداة بنّ خطفن عمري

سرقن هناءتي وكسرن قلبي ** وفي الأحلام ضاق بهن صدري

أو ذلك الصديق الولهان من كلية الحقوق، الذي حكى لي ذات مرة، انه بينما كان منهمكا ليلا في المذاكرة في المكتبة، جاءت ليلاه« fresh ، أي لتوها» من الداخلية، في كامل أناقتها، وعطرها، ودنت منه من الخلف في خفة وهدوء، دون أن يشعر بها، وانحنت فوقه تنظر إلى الكتاب الذي يطالعه، وهي تقول له:» ماذا تقرأ يا«.....؟» فقال رفعت راسي، وعندما أبصرتها، صعقتني بساطع نورها، وغمرتني بشذا عبيرها الفواح، فبهت! وارتج علي! وفتحت فمي كي أجيب، لكنه لم يسعفني بكلمة واحدة مفيدة! إنما هي فقط همهمة وغمغمة، وأتممت الباقي بإشارات من يدي، وإيماءات بالرأس!! ويذكر الرواة– وهم كاذبون هنا – انه خرّ مغشيا عليه!! كيف لا، أليست هي أخت اللائي قال فيهن الشاعر:

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ** وهن اضعف خلق الله إنسانا

أو ذلك الشاعر من خارج الجامعة، الذي خلبت لبه الطالبة الجامعية الحسناء (ع)، التي ألف فيها– على ذمة الرواة – أغنية:

ظبية البص السريع ** همت بيك وأنا خايف أضيع»

وهو، وهي، والبص في طريقهم إلى مدينة كوستي.

وهذه لم تكن فقط ظبية البص السريع، بل كانت ظبية البصات من جميع السرعات، والجامعة وما جاورها! آية في الأناقة، وحسن الهندام، نافرة، نفور الظباء، دائما وحيدة، لا ولد حولها ولا بنت! قتلت الكثيرين كمدا، وهي لا يهمها هذا، ولا تكترث لذاك، كما الدهر الذي:

لا يبالي رضا المستريح ** ولا ضجر الناقم المتعب

بل تنام ملأ جفونها عن معجبيها، نوم المتنبي عن شواردها !!

وكانت في غاية الاعتداد والثقة بالنفس. اذكر جمعتنا في مرة من المرات، رحلة من رحلات الجامعة في يوم جمعة في إحدى الحدائق الخلابة بضاحية من ضواحي الخرطوم ،وجلسنا في دائرة لتأدية إحدى اللعبات، وكان يتحتم على كل واحد وكل واحدة منا اختيار اسم حيوان أو طائر. وعندما أتاها الدور تلكأت قليلا ٬ علها توفق في اختيار الاسم الذي يناسب كل هذا البهاء. فقطع احد الزملاء عليها حبل تفكيرها قائلا:» خلاص بقرة!» فما كان منها إلا أن قالت له سريعا» بقرة أنت!..... أنا فراشة!!» وما جافت الحقيقة!

وفي مرة أخرى كنا نجلس ليلا في مكتبة الجامعة الرئيسية حول الطاولات التي هي

مخصصة لأربعة من الطلبة. وكان يجلس إلى جواري طالب من زامبيا، يدعى جيمس، يدرس في كلية العلوم، ويجلس أمامي طالب آخر لا اعرفه، والكرسي أمام جيمس شاغر. فجاءت الزميلة» ع» وجلست أمام جيمس دون تحية أو سلام. وفتحت حقيبتها على الفور، ووضعت أمام كل منا نحن الثلاثة قطعة من الحلوى الراقية، دون كلام، وكأن قائد الأسطول يصدر امرا لجنوده: «كلوا يا عيال مساكين!». وحفتنا الأنوار، و غمرتنا الروائح، وتكهرب الجو، وما هي إلا برهة، ودنا مني جيمس قائلا ما ترجمته بالعربية:» هذه البنت تخيفني! فهذا الجمال كثير علي، وسوف يفتك بي من دون شك! لذا أني مغادر» وجمع كتبه على عجل وغادر المكتبة! وأثارت هذه الحركة فضول الزميلة، واصابتها بنوع من العقدة. فقالت لي همسا « يا زميل- وهي لا تقل اسمك، حتى لو تعرفه حق المعرفة! فكل الجنس الخشن لديها زملاء وكفى!- ماذا قال لك هذا الزميل؟ ولماذا غادر فجأة؟ قلت لها:» بصراحة قال لي انه يخاف منك!» فأجابت مستغربة» بالعجب! أنا ما خفت من شكله القبيح ده، هو يخاف مني؟؟!!» فأجبتها إن الخوف « خشم بيوت» أيتها الزميلة العزيزة! ويبدو أنها لمّاحة، وفهمت ما رميت إليه، فتبسمت!

رحم الله الزميلة الأخت «ع» رحمة واسعة، والهم زوجها، وذويها الصبر الجميل. فلقد قرأت نعيها قبل سنوات قليلة في إحدى الصحف وانا هنا في جدة. ويبدو أنها كانت مغتربة مثلنا في إحدى دول الخليج، بعيدة عن الأهل والسودان. وما أقسى أن تكون بعيدا عن الأهل والسودان! ولكن هذا قدرنا!.

ومن المحبين هناك فئة» كاتمي الصوت»، يعانون في صمت، يموتون كمدا، ولا يفصحون، لا شعرا، ولا نثرا، ولا بوحا لكائن من كان! فعرفوا كيف يخفون الحنين، ويواروه خلف ستار الحذر، تماما كما فعل المبدع الحسين، إلا أنهم لم ينهزموا أخيرا مثله، ويرفعوا الراية البيضاء، بل ظلوا صامدين!

لكن ما درى هؤلاء أنهم يحملون بدواخلهم قنابل موقوتة، قابلة للانفجار في أي لحظة! اذكر أن الزميل «ا» كان من ضمن هذه الفئة الصابرة. وكان متيما بإحدى حسناوات الشايقية، الزميلة الفارعة، «س»، وفي إحدى رحلات الجامعة ذات جمعة في ضاحية السقاي، تمدد بجوار هذه الزميلة، وأمضى كل الوقت وهو ينظر إليها، ولم ينبث ببنت شفه! وعلى الرغم من انه كان كالذي لم يقطف زهور خدودها، فقط « يعاين» بعيونه، إلا أن المحبوبة لم ترحمه ! فما كان منها إلا أن خاطبت من حولها بالدارجي السوداني

وهي موجهة كلامها إليه: « يا أخوانا الود ده مالو من الصباح راقد جنبي كده زي المرأة الحامل!!» وانفجر الجميع ضحكا، خاصة إذا علمنا أن الزميل إياه، كان مكتنزا لحما، وشحما، وحتى كرشا!!

ومن كاتمي الصوت هؤلاء، كذلك ذلك الأخ الورع البعيد عن الاختلاط والبنات، والمواظب على صلواته، وتبتله. وكان يكتم حبا جارفا لإحدى زميلاته. ويذكر الرواة، أن المحاضر وّجه سؤالا لهذه المحبوبة في إحدى المحاضرات. وعندما بدأت تجيب، أدرك المحاضر من أول وهلة إنها ملمة بالإجابة، فبدأ- كعادة بعض الأساتذة في هذه الحالة- يقاطعها بين الحين والآخر متمما إجابتها. والزميل يتململ في مقعده، وما لبث أن خرج عن طوره، مخاطبا الأستاذ، أيضا بلهجة الشايقية المحببة:» يا أخ خلها تتكلم.. الله لا كسبك!!» ويقال في رواية أخرى، انه سب له ......- والعياذة بالله- واخذ كتبه وانصرف!

ويذكر الرواة – و هم هنا أيضا كاذبون- إن وفدا من الزملاء، والزميلات، قام على عجل بمقابلة تلك المليحة – والتي زاد من فتكها عدم ارتدائها لخمار، لا اسود ولا ابيض!- واستنكروا ما فعلته بذلك الناسك المتعبد، وطالبوها أن ترد للمسكين صلاته، ونسكه، وناشدوها أن لا تقتله بحق دين محمد!!

ولله در رحلات أيام الجمعة تلك، التي كانت تنظمها الجمعيات على اختلافها بمناسبة، وبغير مناسبة ! فقد كانت النفوس تروح فيها عن ذاتها ترويحاً عظيماً ، وكانت تجد فيها المتعة والتغيير ، ويخرج الفرد فيها غالباً بعلاقات، وصداقات، وصلات جديدة تكون ذخراً للمستقبل . ولكم كانت تحدث في هذه الرحلات الكثير من النوادر والمفارقات والنكات . فكم منهم من ركب بصاً دون أن يعلم إلى أين يتجه هذا البص ، أو أى جمعية هي التي تنظم هذه الرحلة، على كثرة ما تنظم من رحلات في يوم واحد . فكل ما يهم هذا البعض أن (ليلاه) ركبت هذا البص ، والجميع كلف منذ قديم الزمان بالذهاب الي حيث تتجه (ليلاه) . وليس يهمه بعد ذلك في كثير أو قليل أن يتجه البص شمالاً ا إلى (الكدرو) أو جنوباً إلى (الكاملين) ! ولكن الذي يدريه هو أن البص لابد وأن يصل في النهاية مكاناً ما ينزل عنده الجميع . أما الجمعيات فما هي عنده إلا مسميات يراد بها التفريق بين الشخص ومن يحب . وأما الأكل فحدث ولا حرج ! فحيثما يصل البص فأنت واجد دون شك كل ما تشتهيه الأنفس وتستلذ له من طعام وشراب . لكل ذلك كان يوم الجمعة يوماً خاصاً ، ينتظر بفارغ الصبر ، يعد له الطلاب النفيس من الملبس، وعند

الطالبات فرصة لنفض الغبار عن الثياب الملونة والتي لا تجد فرصتها في المدرجات . فهناك الثوب الأبيض لها بالمرصاد.

وأذكر كم كان يطربنا الأخ المرحوم الشيخ خير الله بصوته الشجي ، في مثل هذه الرحلات وكان شخصاً ، خفيف الظل لطيف المعشر، ويتمتع بشجاعة أدبية فائقة . وكنا ذات مرة عائدين من رحلة طويلة من الكاملين ، وأصاب البص عطب ووقفنا إلى جانب الطريق في انتظار إصلاح ذلك العطب . وامتد بنا الليل، وبعضنا لا زال جالساً في مقعده داخل البص ، والبعض اشتد به الملل فنزل ينظر إلى المحاولات التي يقوم بها السائق ومساعدوه لإصلاح السيارة . وكنا من الذين بقوا داخل البص واقترحت الزميلة (خ.ز.) التي حباها الله بوجه سمح المحيا، حلو القسمات، طفولي الطلة، على الأخ الشيخ أن يغنى أغنية علها تذهب عنا السأم والملل . فقام الأخ الشيخ من مقعده في آخر البص وجاء إلى حيث تجلس تلك الشابة وجلس على المقعد المقابل لها مباشرة، وصار ينظر إليها ويغنى الأغنية السودانية :

أنا ما بقطف زهور خدودك ... بس بعاين بعيوني

ويعيد مقاطع خاصة ويكررها ويركز عليها مثل:

ملأ العيون نورك

كشف الظلام بسمك

وتجلى لي رسمك

شخصك ملأ عيوني .... أنا ما بقطف زهور خدودك

أو المقطع القائل:

يا الغالي موهوبك

يا العالي تعليمك

أنا من مظاليمك

ايه ذنبي ارحموني

والبنت تكاد تذوب خجلاً ، رغم أنها سُرّت في داخلها بدون شك أن تكون هي المعنية بتلك الأوصاف الواردة في الأغنية في تلك اللحظة بالذات!! « والبص » كله يردد الأغنية وراء الشيخ مما أضطر الزميلة نفسها أن تزيح ستار الخجل عنها وتشارك الجميع الغناء !! وفي مرة أخرى كانت رحلتنا إلى (السقّاي) شمال الخرطوم . وارتحلنا في بص الجامعة

المرسيدس الوثير، تشجى آذاننا الأغاني من (حقيبة) وحديثة ، تبارى في أدائها الذكور والإناث ، وتحمل إلينا نسمات الصباح الباردة الروائح الباريسية التي تفوح من كل جانب في البص . ويبدو أن روعة المشهد تذهب بالخجل من الكثيرين، فتكسو الخجول شجاعة أدبية ، وتزيد الشجاع جرأة وشجاعة.

وبعد رحلة ممتعة دامت قرابة الساعة وصلنا إلى (السقّاي) وحططنا الرحال في إحدى حدائقها الغناء على ضفة نهر النيل . وقضينا يوماً ممتعاً في لهو وسمر برئ ، حتى إذا انتهينا من تناول طعام الغداء ، دُعي الجميع إلى لقاء مشترك للبدء في برنامج ترفيهي يشترك فيه كل أفراد الرحلة . وكان من ضمن فقرات البرنامج فقرة محببة في كثير من الرحلات ألا وهي فقرة أخذ الأوراق من (القبعة) .

وتبادل الزملاء والزميلات في أخذ الوريقات ، وحكى بعضهم أطرف ما سمع من نكات، وحكى البعض الآخر أحرج ما مر به من مواقف ، إلى أن جاء الدور إلى بطلة قصتنا هذه (س.ت.) - أو سمها الضحية إن شئت . وهي شابة دمثة الأخلاق ، في منتهى التهذيب، وديعة الملامح ، اجتماعية تشارك في الكثير من النشاطات الجامعية وعلى علاقة طيبة مع الكثير من الزملاء والزميلات . وكانت تتمتع إلى جانب ذلك كله بصوت شجي وشجاعة أدبية نادرة . وتقدمت نحو القبعة في خطى ثابتة وأخذت لها وريقة . فلنرى ماذا كان يخبئ لها الحظ . إنها وريقة تقول : « غنى لنا أغنية تختارها أو تختارينها ».

ولنترك هذه الشابة تفكر فيما تختار من الأغاني ، ونعود قليلاً إلى الوراء لنلقي بعض الضوء على بعض الأحداث التي لابد من فهمها لأنها تعكس لنا الأسباب من وراء اختيار تلك الشابة لتلك الأغنية التي سنعود بعد قليل لسماعها .

ربطت بين هذه الشابة وبين زميل لها من نفس الكلية في الفصول المتقدمة علاقة حب قوية ، هي من كردفان الغرا أم خيرا بره ، وهو من بلاد دنقل، ما لبثت أن ترعرعت ونمت،وذاع الخبر وانتشر ، وسار بالحديث الركب في منعرجات الجامعة ومنحنياتها . وما لأمثال هذه القصص أن تُخفى ، وإن أكثر المحبوب من التخفي والتمويه ، وما أخالها إلا وقد خشيت هذا الإفصاح، فرددت كثيرا في سرها قول التي سبقتها في هذا الموقف قائلة :-

إذا جئت فامنح طرفك غيرنا

كي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

ولكن ما باليد حيلة ، فالصحاب والصاحبات تناقلوا الحديث بين قهوة النشاط وبين الداخليات . وما كان ذلك عندهم بالأمر المشين ، أو المعيب: فهو حدث قديماً وسيحدث في كل وقت وفي كل مكان . أهناك أجمل من عاطفة صادقة متبادلة بين اثنين في حب شريف يرضى فيه كلاهما بما رضي به جميل من بثينة في قوله :-

وإني لأرضى من بثينة بالذي
لو أبصره الواشي لقرّت بلابله
بلا ، وبان لا استطيع، وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضي
أواخره ،لا نلتقي واوائله

واستمر الحال حيناً من الدهر وأصبحا كالخطيبين ، حتى صار منظرهما مألوفاً عند الصحاب الذين انشغلوا عنهم بالجديد من القصص والمسرحيات . وجاءت إجازة من إجازات آخر السنة الدراسية ، وودع كل منهما الآخر وسافر إلى وطنه الصغير . وكان لابد للإجازة أن تنتهي حتى يعود الجميع ويتخذ بعضهم من المقاعد المنتشرة في فناء الجامعة ، والمتناثرة ما بين المكتبة (وقهوة النشاط) مقعداً يلقى كل منهم النظرة العجلى وغير العجلى إلى أسراب المحبين وهم يتهادون في تؤدة وانسجام بين ناكر وحاسد، ومعجب وناقد .

ولكن يا لهول الصدمة ! فلقد جاء الشاب من قريته وهو يلبس دبلة الخطوبة!! فلقد خطب هناك ، مطبقاً بذلك المثل القائل : (عندما يحب الطالب في الجامعة يتزوج في قريته !). ولقد شقّ الأمر على الفتاة ولقد فُجعت وغُدر بها . ومما يزيد الأمر قسوة أن ذلك حدث على رؤوس الأشهاد ، وعلى مرأى من رواد المقاعد ومنهم دون شك الشامت واللاحي . ولكنها لم تنهار ، فلقد كانت قوية ، وأخفت كل الجراح بين الضلوع وتذرّعت بالصبر الجميل . ولكن ما كان لها أن تنسى كلية . فالأمر ليس بالسهل . وما أظنها جاءت إلى هذه الرحلة إلا لتجد سلوى تتعزى بها ، وتروّح قليلاً عن نفسها . فلننظر كيف روّحت عن نفسها ، بل كيف انتقمت لها !!

ونعود مرة أخرى إلى الانضمام إلى رحلتنا تلك ، ونأخذ مجلسنا بين ذلك الجمع في انتظار

الأغنية ، فالكل متلهف لسماعها، ولقد أعطي القوس لباريها ، فالزميلة تجيد الغناء وأي إجادة! ولقد كان ذلك الشاب الذي غدر بها - لسوء حظه - من ضمن الحاضرين في ذلك اليوم، ومن المفارقات الغريبة أنه كان يجلس بجواري . قرأت الشابة الوريقة مرة أخرى ، وأصلحت من ثوبها ووقفتها وبدأت تغني بصوت شجي واضح النبرات أغنية الفنان عثمان الشفيع الخالدة (ظلمتني) ، التي يقول في مطلعها :-

ظلمتني يا ظالم .. ليه يا ظالم

وتمضي في أبيات الأغنية وهي تحاكي البلبل ، وفي ثبات ورباطة جأش في موقف صعب تنهار من دونه أعصاب الكثيرين :

كل من كان معانـا ** في صباحنا ومساءنا

لـو عارفين هـوانا ** يحـلفوا مـا برانـا

لكن بـراك بـراك ** ظلمتني يـا ظـالـم

ليه .... ليه... ياظالـم

والكل أدرك من أول بيت في الأغنية من تعني ومن تخاطب ، ولم ترد أن تكن كالقائل : « إياك أعني واسمعي يا جارة « ، بل أرادت أن تقول : « إياك اعني وإياك أردت أن أُسمع يا هذا « فكانت تحيد ولا تنظر إلا إليه ، وصاحبنا المسكين منكفئ على وجهه يذوب خجلاً لم يستطيع أن ينظر إليها قط، أو حتى يرفع رأسه !

وقد تعاطف معها الجميع لدرجة مذهلة ، فالأمر واضح وصريح، وكاد المسرح أن يتحول إلى صورة مأساوية ، ولقد أدمعت أعين البعض ، فالسودانيون شعب حنين سريع الانفعال . ولكن ما عليها فلقد وجدت فرصتها ، وهاهي عاتبته على مرأى ومشهد من الجميع ، وحمّلته المسؤولية كاملة ، وأخبرته بكل وضوح أنه ظلمها ، أيستطيع الإنكار ؟ لا أعتقد .

وانتهت رحلتنا تلك ، وانتهت من بعدها المرحلة الجامعية ، وسارت الأحداث سيرها العادي وغير العادي ، وتفرقت بنا السبل ، وباعدت بيننا دروب الحياة ، ولم تتبق لنا من تلك الحياة الحلوة سوى الذكريات . ولقد تزوجت هي غيره كما تزوج هو بأخرى . واليهما بعد كل هذه السنوات الطوال في غربيتهما ، مني ألف ألف تحية وسلام فكلاهما صديق ، وكل منهما مغترب خارج السودان. هي استقر بها الحال مع زوجها في إحدى الدول الأوربية الراقية، وهو أصبح سفيراً ينتقل من بلدٍ إلى بلد؛ وقد يأتي يوما إلى

بلدها سفيرا، فيجدها ضمن رعاياه! أيا ترى كيف يكون اللقاء؟؟!!! أيكون كلقاء الدكتور إبراهيم ناجي مع من كان يحب؟؟!!:

يا حبيبي كل شيء بقضاء ** ما بأيدينا خلقنا تعساء
ربما تجمعنا أقدارنا ** ذات يوم بعد أن عزّ اللقاء
فإذا أنكر خل خله ** وتلاقينا لقاء الغرباء
ومضى كل إلى غايته ** لا تقل شئنا إنما الحظ شاء

بريد القراء:

- اعتذر للأخ العزيز حسن كمال الدين أبو صباح من الدمام. والشقيق الأصغر لصديقي الصدوق الدكتور النور، لعدم الإشارة إليه، على الرغم من اتصالاته المتكررة. و اشكره على تعزيتي في عمي على بدين، الذي تعرف عليه من خلال هذه الذكريات. كما نقل لي مشكورا سلام وتحيات صديقي النور أبو صباح، والذي ستكون لي معه وقفة في حلقة قادمة إن شاء الله.

وداعا جامعة الخرطوم الحبيبة!

كم يحز في النفس أن نودع جامعتنا الحبيبة، وصورة الدبابات، والعربات المصفحة، والمدافع عالقة بالذهن ، حين أحاط بها رتل من هذه الدبابات والعربات من كل جانب في عصر يوم من شهر مارس من عام ١٩٧١م ، والذي كان يوما من الأيام الكالحة في تاريخ الجامعة، فهي لم تكن يوما ساحة للوغى، أو ميدانا للمعارك، بل هي احن وارق من ذلك.... كانت دارا للعلم، والثقافة، والأنس، والألفة، والمودة. ولكن ماذا نقول سوى:» قاتل الله السياسة!« إذ بدأت المشاكل السياسية تتفاقم شيئا فشيئا في الجامعة بعد قيام ثورة ٢٥ مايو١٩٦٩م بين الإخوان المسلمين، وبين الجبهة الديمقراطية، التي رأت في نظام النميري الجديد سند لها، فأرادت أن تستأسد به على بقية التنظيمات التي تخالفها الرأي، وخاصة الإخوان، حتى وصلت المشاكل إلى ذروتها في آخر سنة لنا في الجامعة، ونحن على وشك التخرج. وتطور الصراع تدريجيا، وكاد أن يؤدي ذلك إلى صراع رهيب في شهر مارس ١٩٧١م، يروح ضحيته الكثيرون، لولا لطف الله، وتغلب الحكمة، والدور المحوري، الذي قامت به الطالبات بوجه خاص. وقد تعرضت لذلك بشيء من التفصيل في حلقة سابقة، تحت عنوان:» يالشهامة النساء!! «.

ورغم النجاح الذي ختمنا به صراعنا مع العسكر، بعد المفاوضات بين رئيس لجنة الطلبة المستقلين التي تكونت على عجل، برئاسة الأخ الزميل الطيب السباعي، الذي توفرت فيه كل صفات القيادة، ــــ أين هو الآن يا ترى؟؟- من جانب، وبين المرحوم الرائد وقتها زين العابدين محمد احمد عبد القادر من جانب الحكومة، والذي أبدى مرونة، وحكمة جديرين بالإشادة، وبوساطة البروفيسور مصطفى حسن إسحاق، وخروج الطلبة وهم منتصرين، يرددون الأهازيج، والهتاف» سجل.. سجل.. يا تاريخ!!« وذهابهم إلى البركس، ومواصلة الاحتفالات حتى وقت متأخر من الليل....، أقول وعلى الرغم من كل ذلك، إلا أننا خسرنا وقتاً ثميناً من سنين التحصيل الأكاديمي. فبدلاً من أن نتخرج في شهر مارس كما هي العادة في كل سنة، أجلت الامتحانات وأغلقت الجامعة ولم نتمكن من التخرج إلا في شهر سبتمبر ١٩٧١م.

ولم نشأ أن نعود إلى الفاشر بعد إغلاق الجامعة، فقررنا نحن الثلاثة – عبد الحميد ومختار -رحمه الله- وشخصي البقاء بدار الأخ الصديق العزيز البروفيسور محمود

موسي محمود ، الأستاذ بكلية الطب البيطري بشمبات، حتى نكون قريبين من مكتبة الجامعة. وقد كان الأخ بروفيسور محمود، ابن خال الأخ عبد الحميد، وزوج شقيقته عالية احمد أمين، الدكتورة والأستاذة حاليا بجامعة الإحساء بالسعودية، مضيافين بشوشين كعادتهما دائما، و جوادين ،كأنك تعطيهما الذي هو أنت سائله.

واذكر أن الأخت العزيزة عالية، كانت وقتها تمضي الإجازة في الفاشر؛ فوجدنا الفرصة سانحة للعبث في مطبخها الأنيق. وكان المايسترو، أو الشف، هو الأخ عبد الحميد، الذي كان يجيد إطعامنا بكل ما لذ وطاب من طبخه الجيد. واذكر بصفة خاصة الفول المكشن بالبصل والصلصة، بينما أتولى انا والأخ مختار غسل العدة، ونظافة المطبخ، والبروف محمود يتولى ملأ الثلاجة «بالمطايب» من لحوم حمراء وبيضاء، وخضروات وفاكهة! ياله من زمان!!

ومن نوادر الصديق البروفيسور محمود أن كانت له سيارة تويوتا كرونه جديدة على الزيرو، آية في الجمال والمتانة أحضرها معه من أمريكا بعد أن حضر للدكتوراه هناك في جامعة كولومبس بولاية اوهايو. وكان فخوراً بها أيما فخر! والحق يقال أن سيارة كتلك. وفي ذلك الوقت كانت تعد من الكماليات التي لا يقدر عليها الكثيرون في السودان. وكان كعادته نظامياً في كل شئ، ويعتني بالسيارة عناية فائقة، ويبادر إلى إصلاح أي خلل يلحق بها فورا.

وأذكر أننا كنا نتجول ذات مرة بسيارته الفارهة تلك في شوارع أمدرمان ليلاً، وفجأة دخل أحد المشاة أمامنا في عرض الشارع وهو مسرع ولولا لطف الله، وتمكن الأخ محمود من الوقوف في الوقت المناسب لحدث ما لم يحمد عقباه! ورغم أن ذلك الشخص كان هو المخطئ، إلا أنه غضب جداً، غير أن جمال السيارة أنساه بعضا من غضبه، وهّدأ من انفعاله، فقال مازحاً، «عربية زي العروس وما عارفين تسوقوها كيف؟!» أردت أن أبرهن بهذه القولة على أنها سيارة شهد بجمالها الأعداء قبل الأصدقاء، لذا نجد العذر لصديقنا الأخ محمود في هذه العناية الفائقة.

وحدث أن فقد ذات مرة غطاء العجلة المعدني الذي يعرف (بالطاسة) ونغص عليه ذلك كثيراً وأراد إحلال أخرى محلها فوراً، وأعياه البحث عن البديل في كل أماكن بيع الأسبيرات نظراً لأن موديل السيارة جديد ولم تصل اسبيراتها بعد إلى السودان.

ورغم أنه ترك البحث وأوكل أمره إلى الله، إلا أنه لم ينس قط أمر الطاسة، وذهب في يوم من الأيام إلى التسوق في سوق نمرة (٢) بالخرطوم وترك السيارة على جانب الطريق ودخل إلى أحد الحوانيت، وعندما عاد إلى سيارته وجد صبياً صغيراً يقف بجانبها، ودار بينهما حوار قصير ذكر فيه الصبي أنه لاحظ أن السيارة تنقصها أحدى الطاسات، وأستبشر الأخ محمود خيراً حين علم من الصبي أنه يملك بالصدفة طاسة طبق الأصل ويمكن أن يبيعها له! واشتراها الأخ محمود وهو لا يصدق، وطار فرحاً إلى المنزل كي يزف هذا الخبر السعيد. ولكن عند وصوله البيت ونزوله من السيارة وقبل أن يبدأ في سرد القصة، أكتشف، ويا للمفاجأة أن طاسة أخرى من الجانب المقابل مفقودة! وعلم على الفور أن الصبي الصغير قد ضحك عليه وأخذ الطاسة من الجانب الأخر وباعها له !! وهو كلما يذكر هذه القصة يقول انه لم يتحسر على ضياع الطاسة ونقوده بقدر تحسره على ضحك الصبي الصغير عليه، وتأكد أن السرقة كالجنون فنون، وانطبق عليه المثل السوداني : (الحذر لا يمنع القدر).

ويحكي الأخ محمود- وهو رسمي جدا في تعامله مع الطلبة والطالبات___ عند عودته من أمريكا، انه وجد طالبة جعلت البساط بينها وبين الأساتذة احمدي لدرجة بعيدة، لجمالها، وخفة دمها، وحلو حديثها، وكسبت ود الكثير من الأساتذة! ولم يعجب ذلك الأخ محمود، إلا انه لم يقل شيئا. وفي العام التالي، أصبحت طالبة لديه، وكان لزاما عليها أن تمتحن امتحانا عمليا في المسلخ المركزي بامدرمان! فيذكر انه بينما كانا في طريقهما معا بتلك السيارة الفارهة إلى المسلخ، لم تكف طوال الطريق عن إتحافه بالنكات، والطرائف. وعند الوصول، طلب منها أن ترتدي الاوفرول، وأعطاها سكينا، وقال لها هلمي إلى تشريح إحدى الأبقار المذبوحة المعلقة! فسألته في استغراب:» أجاد أنت فعلا يا أستاذ؟» فأجابها نعم بالطبع! وعند ذلك ألقت بالسكين أرضا، وانخرطت في البكاء، قائلة له:» أنت داير تسقطني!» فقال لها :» أنا لا داير أسقطك، ولا داير أنجحك، إنما ذلك متروك لعملك فقط!!» فاضطرت المسكينة أن تخوض الصعب، وتتلوث بالدماء، وتجرب حظها!

وفي نهاية المطاف تخرج الكثيرون بشهادات، ولم يوفق القليلون- للآسف- في الحصول عليها، ومن هؤلاء من لم يقصر الشعراء الحلمنتشيون في التحسر على فراقهن! فيقول شاعرهم حزنا على فصل إحدى الزميلات الرائعات:

ليه العميد ما يؤلف كتاب جديد
ويخلي سطر لست الناس عشان تضيف
مالو العميد لو حكّم عقلو البليد
وجلد المصحح، ورفت المعيد
و ادى السمحة فرصة عشان تعيد

والقليل القليل من خرج إلى جانب الشهادات بشيء من حمص من هذا المولد! فتأبطا معه شريكة لحياته! وكما أن الزواج قسمة ونصيب- كما يقولون- كان الحال كذلك في جامعة الخرطوم! فكم من قصة سكبت من حولها الدموع.وفاضت المشاعر الجياشة شعرا رقيقا يقطع نياط القلوب، ثم فرق القدر بين المحبين، وتزوج كل منهما بغير حبيبه! كما على النقيض من ذلك تزوج البعض الآخر من زميلة له دون أن يمرا بكل هذه المعاناة التي تعرض لها الآخرون!

وبينما كانت الغالبية من «الموحدين»، على طريقة « كل زول بزولو»؛ إلا انه كانت هناك فئة « الشموليين» الذين يحبون أكثر من واحدة في آنٍ واحد، فتحدث «الجهجهة» . ويصبح الواحد من هؤلاء كصديقنا محمد الصومالي، الذي لا يدري ماذا يفعل. وهل يطلع الجبل؟! وكان يطلق على هؤلاء:» أصحاب القلوب الكبيرة!» ، لأنها تتسع لأكثر من واحدة. ومن باب الحديث ذو شجون، اذكر أن تعرفت على احد الإخوة من السودانيين المقيمين في جدة، وله ولد أرسله للدراسة في جامعة الإسكندرية بمصر. فذكر لي أن« قلبو اكلو» ذات مرة، فقرر أن يسافر فجأة إلى الإسكندرية ليرى إن كان ابنه « يلعب بديله ام لا!» فسافر إلى القاهرة، واخذ من هناك القطار إلى الإسكندرية ، ونزل في محطة سيدي جابر، ثم اخذ المترو إلى محطة الرمل، لأنها الأقرب إلى سكن ابنه. وأول ما نزل إذا به يقابل ابنه وجها لوجه، وهو متأبط اثنتين من البنات! يتمايل معهن ذات اليمين و ذات اليسار!! فما كان منه إلا إن قال لابنه: « ما هكذا تورد الإبل يا سعد! واحدة تكفي يا بنيّ!!» ويبدو أن الأب يئس كليا من الإصلاح، فأراد الخروج بأقل الضرر!!

وأعود إلى موضوع الزواج، وفي ذاكرتي قصة زيجة معينة، تمت بمنتهى السهولة واليسر، وأصبح من انجح الزيجات! ذلك هو الذي جمع بين الأخ «ف» و الأخت «ا». كان هو في الفصول النهائية في كلية الآداب، وهي طالبة في الفصول الأولى في الآداب كذلك. ويبدو انه نظر إليها ذات مرة، فأعجبته من أول نظرة! وبعد وقت وجيز التقيا في السلالم التي

تربط بين قاعة «ون او تو» والمكتبة، هو نازل من المكتبة، وهي صاعدة إليها، وسلم عليها، فما سكتت! بل ردت التحية بأفضل منها. ثم قال لها أيتها الزميلة، لو سمحت لدي موضوع أريد مناقشته معك، فهل يمكننا أن نجلس تحت في أحد المقاعد كي أصارحك به؟ إجابته: ليس لدي مانع، فقط لحظة أضع كتبي في المكتبة والحق بك، وقد كان. ففاتحها في الأمر، وطلبت مهلة للتفكير، ثم قالت له بعد فترة، أنا ليس لدي اعتراض، عليك فقط إقناع أهلي! وما كان ذلك بالأمر الصعب. وتم كل شيء على أروع ما يكون، لم يقل فيها شعرا، ولم يجلس معها الساعات الطوال في قهوة النشاط ، هي تصغي، وهو يشرح ، وكلما حدّث أصغت، وإذا قالت ترنح، بل ببساطة بطريقة: «امسك لي واقطع ليك! » لان ذلك كان في النصيب ! وأصبحت زوجة للسفير، لهما تحياتي.

وأيضا مجارة للمثل» لا صداقة إلا بعد عداوة!» رأينا في جامعة الخرطوم كذلك أنه في بعض الحالات» لا زواج إلا بعد عدم استلطاف!» هو كان دفعتنا في الفصول المتقدمة، الأخ الصديق العزيز» ي.م « وهي الزميلة «م» في بداية عهدها بالجامعة. وكان الأخ «ي» على علاقة جيدة بشقيقة «م»، الأخت العزيزة «ر» التي كانت دفعتنا كذلك. وكانت «م» وصديقنا كثيري المناكفة والمشاكسة، ولا يطيقان بعضها البعض، لدرجة اذكر كنا في إحدى رحلات الجامعة ذات جمعة، علها في حدائق البتري، وقفنا لأخذ صورة جماعية كانت فيها معنا الزميلة «م». وفي آخر لحظة انضم إلينا الأخ «ي». فما كان من الأخت «م» إلا أن خرجت من المجموعة مقسمة ألا تضمهما صورة واحدة معا قط!! ويا للأقدار! فبينما رفضت مجرد فكرة أن تضمهما صورة واحدة، ضمهما ما هو اكبر وأقدس من الصورة، ألا وهو بيت الزوجية السعيد!! تحياتي الحارة للصديق العزيز أبي ياسر والأخت العزيزة أم ياسر في غربتيهما!!

وأبت السياسة كذلك إلا أن تحشر انفها هنا و»تطرشق» بعضا من هذه العلاقات التي كانت موعودة بالنهاية السعيدة! كانت هي طالبة في الجامعة، وهو من خارجها، جمع بينهما الحب، كما جمعتهما صلة الرحم، وكانا ينتميان سياسيا لأحد اكبر الأحزاب السياسية، ولبيت من اكبر بيوتات السودان! لكن ما لبث أن انشق الحزب، فوجدت نفسها في جناح، ووجد نفسه في الجناح الآخر! ويبدو أن ضغوطا مورست من الأسرة على من تحب، فحصل الشقاق. لكنها ــــ مثل تلك الزميلة التي غدر بها في الحلقة السابقة- لم تستسلم، ودافعت عن حقها بكل ما تستطيع، ، وعلى الملا! فما كان منها

إلا أن وجهت سؤالا محرجا لرئس الحزب، الذي هو شقيق من تحب، في لقاء عام، عندما شارك في ندوة سياسية في الجامعة ، فقالت له بما معناه، لماذا يتدخل الحزب في العلاقات الشخصية لأعضائه، ويفرق ولا يجمع ؟؟!! أيبني الحزب أم يدمر؟ وأين هي المبادئ؟؟ ولم يفتح الله على الزعيم بإجابة مقنعة، فتذرع بعدم الخوض في الشؤون الخاصة في لقاء عام !!

أما إذا سألني احد» الخبثاء» المتربصين بي طيلة هذا الوقت قائلا :» وأنت؟ بعد كل هذا الحكي، أين كان موقعك من الإعراب من كل هذا المولد!؟؟» فاجبه بما أجاب به نجار بص شارع الشنقيطي الزوج: « بس لو قلت ليك هذا ما نسيته تماما. هل تصدقني؟؟!!» وحتى لو استعان بصديق؛ ولو كان صديقي الصدوق في الجامعة وأخي ساتي محمد صالح القاضي؛ فسوف لن يخرج بشيء، لان ساتي الكتوم، لن يكون رأس الفتنة. كما كان الحال مع الأخ والصديق محمد بن إدريس! (القاضي لاحقا)، ومحمد من أبناء بحري ومن أسرة الادارسة العريقة والمشهورة. فقد روى لنا ذات مرة انه كان يركب مع زميل آخر في سيارته، وبينما هما يسيران تورطا في حادث حركة ليلا في احد شوارع الخرطوم، وكان الخطأ يقع على السائق الآخر. فنزل الجميع من السيارتين، وكان مع السائق الآخر، الأستاذ عبد الوهاب بوب المحامي المشهور. وأراد بوب أن يرهب الأخ محمد وزميله السائق، فقال لهما: « لولا نحن في عجلة من أمرنا، لاستدعينا لكم الشرطة، لأنكما ارتكبتما الخطأ الذي تسبب في الحادث، لكن لا داعي لذلك ويمكنكما أن تذهبا.» فما كان من الأخ محمد بن إدريس إلا أن قال: « سعادتك أحسن نستدعي شرطي المرور، ليحدد بنفسه من هو المخطئ!» عندها أدرك الأستاذ بوب أن الأخ محمد كشف دوره، وهو لا يدري انه طالب قانون نهائي. ويذكر محمد وهو يضحك بشدة حتى يهتز جسمه، أن الأستاذ بوب أشار إليه حينئذ قائلا :» هذا القصير هو رأس الفتنة!!» ومن يومها أصبحنا نمازحه حين ينضم إلينا قائلين: « جاء القصير رأس الفتنة!» ولا يملك الأخ محمد إلا أن يضحك، فالضحك ملازم له كظله! تحياتي الحارة للأخ الصديق العزيز القاضي محمد بن إدريس.

ومن المواقف الخطرة التي، تعرضنا لها في الجامعة، وكدنا أن نودعها محمولين على آلة حدباء، ما حدث لنا ذات مرة في حوض السباحة! إذ قررنا ذات مرة أن نتعلم السباحة ! وكما تعلمون فان الغرباوي حجر في الماء! ولكن بما أن لكل قاعدة شواذ، فقد شذّ عن

ذلك الأخ الصديق آدم الزين من أبناء الفاشر، الإداري القدير الذي كان ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة، على ما اذكر، في كافة أنحاء السودان، ممن بدأ بهم الدكتور جعفر محمد على بخيت، مشروعه المسمى» الترقية بالزانة»، عندما كان وزيرا للحكومات المحلية، والتي كانت تعتمد على الكفاءة في الترقية وليست الاقدمية. والدكتور آدم الزين الأستاذ حاليا بجامعة الخرطوم، هو أول معلمي المدارس الأولية من مديرية دارفور، من الذين تمكنوا من الالتحاق بجامعة الخرطوم دون دراسة المرحلة الثانوية كما تقدم ذكر ذلك. وكان لنا المثل والقدوة! وبرع في السباحة، حتى أصبح رئيسا لنادي الزوارق في الجامعة! هذا ما كان من أمر الغرب الأقصى، وان أتينا إلى الغرب الأدنى»كردفان»، نجد كذلك أن الأخ الدكتور بشير عمر ، وزير المالية الأسبق،

و المستشار حاليا بالبنك الإسلامي للتنمية بجدة ،سار على نفس النهج، وأصبح كابتن فريق السباحة، ورئيس نادي الزوارق كذلك. وكانا بذلك في حكم الشاذ الذي يؤكد القاعدة!

كنا نذهب إلى المسبح ، ونبدأ التدريب على السباحة في الطرف الشمالي من الحوض الذي كان ضحلاً ، ثم يتدرج الحوض في العمق كلما اتجهنا جنوباً . ولم نكن جادين في ذلك، بل كنا نتخذ الأمر هزواً ولعباً . ولم نكن ندرى أن هناك من هو أكثر جدية منا في هذا الشأن ، ألا وهو مدرب السباحة.

وذات يوم مارسنا لعبتنا تلك فترة من الزمن ، ثم خرجنا ووقفنا في منتصف الحوض على الحافة ننظر إلى بعض أصدقائنا من السباحين المقتدرين وهم يقطعون حوض السباحة جيئة وذهاباً . وأثناء وقفتنا تلك ، جاء المدرب خلسة من خلفنا ودفعنا بقوة حتى سقطنا في وسط الحوض . وهو مكان عميق لم نصله من قبل ، وكان كفيلاً بإغراق من كان مثلنا في أطواره السباحية الأولى! وكانت تجربة مريرة وصدمة عنيفة، وصراع مستميت من أجل الخروج من الحوض حتى لا يبتلعنا الماء، وكنا اثنين أو ثلاثة على أغلب الظن . ووقف المدرب في الخارج ينظر إلينا وأخيراً عندما تحرج موقفنا وأدرك خطورة ذلك التصرف ، قفز إلينا في داخل الماء بعد أن نادى اثنين من الذين كانوا في داخل الحوض ، من أجل أن يهبا لمساعدتنا!!

وأسرعوا إلينا جميعاً وانتشلونا من الماء بعد لأي وجهد جهيد ، وجذبونا إلى خارج الحوض ونحن لا نصدق أننا حقاً قد نجونا من الغرق! ولقد كان ذلك آخر يوم تطأ فيه

قدمي ذلك المكان . ومنذ ذلك اليوم آثرت أن أطبق حكمة الأخ الصديق د. يحيى محمد محمود عندما كان يلح عليه أصحابه في الجامعة كي يذهب معهم إلى الحوض حتى يتعلم السباحة ، فكان يجيبهم : « إن أهلنا في غرب السودان . حيث يشح الماء أحياناً . يحذروننا من أن لا نشرب الماء إلا ونحن حقاً عطشى . فما بالكم باللعب فيه ! ».

وأثارت هذه الحادثة ما كان يختلج في صدري من العداء المستحكم من الماء!

فمن الأشياء التي ظللت طوال حياتي أرهبها وأتهيبها هو ركوب الماء . وكم سافرت بالبحر في داخل السودان وخارجه ، وهذا الشعور الغريب الممزوج بالخوف والرهبة ينتابني بين حين وآخر ، ويقلق راحتي ويفسد على التمتع بالرحلة . ولا يهدأ لي بال إلا وأنا على اليابسة مرة أخرى .

ولكم احتقرت نفسي لهذا الإحساس والشعور ، وأنا أقرأ حديثاً كتاب (Tim Severin : The Sindibad Voyage) وهي الرحلة التي عبر فيها في أوائل الثمانينات ، بسفينة شراعية سبعة بحار من ميناء سحر في سلطنة عمان . وحتى ميناء كانتون في الصين ، في رحلة مائية متصلة دامت أكثر من سبعة أشهر . يخرج خلالها من بحر إلى مضيق ، ومن مضيق إلى محيط ، لم يهن منه العزم هو ورفاقه على الرغم مما صادفوا من أهوال وعواصف ومخاطر تشيب من هولها الرؤوس!!

ولعل أول تجربة قاسية مررت بها مع الماء ، هو ما حدث لي ذات مرة ونحن على ظهر (المعدية) في طريقنا إلى جزيرة توتى . ولعلها كانت المرة الأولى التي أركب فيها البحر . ولا أدرى كيف أقنعني بعض أصدقائي في الجامعة ، بركوب البحر، لزيارة تلك الجزيرة الخضراء في يوم عيد من الأعياد . وبعد أن تكدسنا في المعدية بالمئات ، تحركت بنا المعدية صوب الطرف الآخر للنيل . وبعد أن قطعت نصف المسافة تقريباً ، توقفت الماكينة!! وجن جنوني ، ولكن حاولت جاهداً أن أتماسك حتى لا يلاحظ على الأصدقاء شيئاً من ذلك ، تمشياً مع ما قاله الإمام على كرم الله وجهه :

ولا ترين الناس إلا تجملاً ** نبا بك دهر أو جفاك خليل

وسألت بسرعة : « ماذا حدث ؟ لماذا توقفت المعدية ؟ » وتنفست الصعداء ، حيث علمت من الملمين ببواطن الأمور أنه نظراً لقصر المسافة إلى البر ، فإن الربان أوقف المعدية حتى يتمكن الشخص المكلف بقطع التذاكر من المرور على كل هؤلاء البشر ، قبل أن تصل المعدية جزيرة توتى ، فينزل البعض دون أن يكون قد دفع ثمن التذكرة . ولو كان

في مقدوري لكنت أخبرت الربان بأنني على استعداد لدفع حساب الجميع فقط عليه أن يسرع في إخراجنا من ذلك اليم !!

ومرة أخرى جمعني القدر مع (المعدية) ، ولكن هذه المرة في المديرية الشمالية ، حيث كنا في رحلة دراسية مع مجموعة من الزملاء والزميلات . وكان علينا في مرحلة من المراحل أن نركب معدية كرمة، متجهين صوب جزيرة بدين،(التي ليس لي منها إلا الاسم!!) والنيل هنا واسع وعريض ، وليس كالنيل الأزرق ؛ وكان هائجاً في عصر ذلك اليوم. وأصبحت الأمواج تعلو وتتلاعب بالمعدية ، التي أصبحت كالريشة في مهب الرياح . ولم يكن بها الكثير من الركاب ، وانتابني ذلك الشعور القديم المخيف . ولكن للغرابة تحول فجأة إلى ثبات وشجاعة ، عندما تقدمت نحوي الزميلة رشيدة إبراهيم . والتي أصبحت وزيرة الرعاية الاجتماعية والزكاة في حكومة الصادق المهدي الأخيرة . وقد ملك الخوف عليها زمام أمرها ، وارتعدت فرائصها خشية من غرق المعدية . عند ذلك هان على أو هوّنت على خوفي ، وامتلأت شهامة (أخو البنات المعهودة) فحاولت أن أهدئ من روعها قليلاً ، وأخبرتها أن هذا شيء طبيعي، وليس هناك أدنى خطورة ، وسنصل بعد لحظات إلى بر السلامة بإذن الله . وهدأت الأخت رشيدة واطمأنت قليلاً ، وصدّقت قولاً كنت أنا قائله أكثر الشاكين فيه!!

وتجربة أخرى عشتها في جمهورية مصر العربية في أواخر الستينات ، وكان معي هذه المرة الأخ الصديق عبد الحميد أحمد أمين . وكنا مع مجموعة من الزملاء في رحلة من قبل جمعية تطوير الريف السوداني بجامعة الخرطوم . ورأينا ذات يوم أن نزور القناطر الخيرية . وركبنا ما يعرف (بالأتوبيس النهري) . وكانت رحلة ممتعة على النيل ، وسار كل شيء على ما يرام ، وأمضينا يوماً سعيداً في القناطر الخيرية . وعند العودة حدث ما لا يحمد عقباه! ويبدو أن ربان (الأتوبيس النهري) لم يكن شخصاً في مستوى المسؤولية . فترك مكانه لمساعده ، وجاء وجلس بقرب بعض الركاب في مؤخرة الاوتوبيس حيث نجلس ،يتجاذب معهم أطراف الحديث . وبعد فترة قصيرة رأينا أن (الأتوبيس النهري) بدأ ينزل تدريجياً إلى أسفل . وتبادلت النظر في صمت مع الأخ عبد الحميد الذي لم يكن بأحسن حالاً مني في الأحوال . أو الأهوال . المائية على الأصح!! وتحرج الموقف فجأة ، وبدأ سطح الماء يلامس نوافذ (الأتوبيس النهري) ، وانتبه الإخوة المصريون فجأة إلى ذلك، فاخذ المصريون يتصايحون:

(غرقتنا يا ابن .....) . وعند ذلك نهض الربان مسرعاً وجرى إلى مركز القيادة ، وأبعد مساعده بان دفعه دفعة قوية ، وأوقف الماكينة وبدأ (الأتوبيس النهري) يطفو تدريجياً على سطح الماء ، حتى إذا ما عاد إلى وضعه الطبيعي ، أدار الماكينة مرة أخرى واستمرت بقية الرحلة في أمنٍ وسلام.

وبالرجوع بذاكرتي إلى عهد الطفولة ، وجدت جذوراً لهذا العداء المستحكم والخوف المتأصل من الماء . وتبين لي السبب وراء هذه الرهبة والهيبة منه . فقد كانت بعض الأسر في دارفور تطبق عقوبة صارمة في تربية أطفالها ، إلا وهي العقوبة (التحقين) أي الإغراق المتعمد بالماء!(والذي طبقه الأمريكيون مؤخرا في سجن غوانتناموا!) . وأجاركم الله من التحقين وشرور التحقين ! وكانت الوالدة -رحمها الله- تطبق في بعض الحالات هذه العقوبة. فكما هناك عقوبات صغيرة وكبيرة تصل حد الإعدام، فان التحقين هو بمثابة الحكم بالإعدام! عند ذلك تأخذ الوالدة الواحد أو الواحدة منا ، وتدخله في مكان مظلم تكون قد أعدت فيه مسبقاً جردلاً مليئاً بالماء ، وتطرح المذنب أرضاً ،

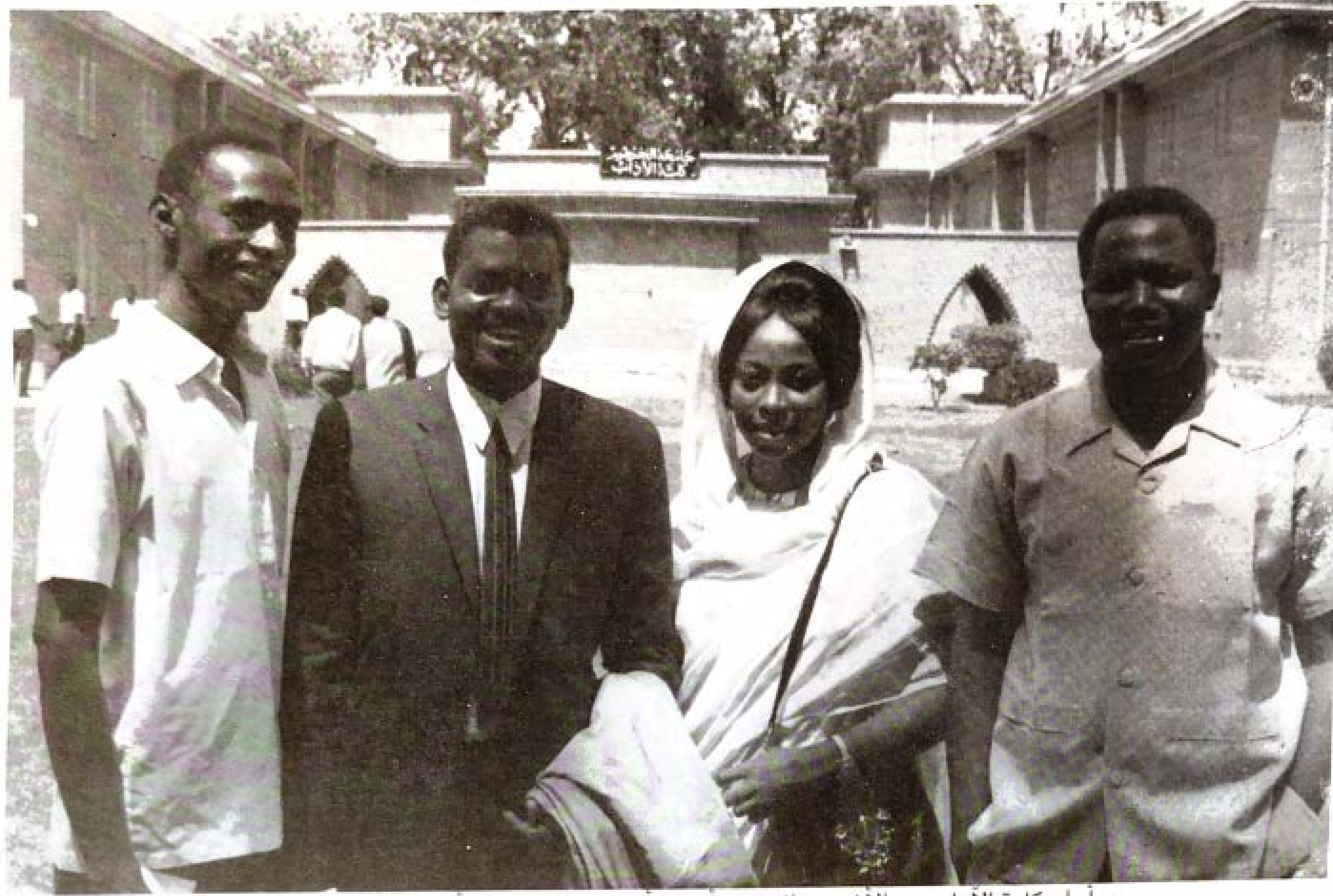
وتثبت المذنب جيدا على الأرض حتى لا يفلت ، ثم تصب عليه الماء مدراراً في فمه وفي وجهه . فيدخل الماء من الفم والأنف والأذن ، وكلما فتح المطروح فمه ليصرخ أو ليتنفس ، يدخل المزيد من الماء ، ويصعب التنفس والرؤية ، وتنتفخ بطنه من جراء ما شرب من الماء قسراً !! وبعد أن تفرغ عليه كل ما في الجردل من ماء تترك المسكين بين الحياة والموت!! حقاً لقد كاد التحقين أن يودي بحياتنا ونحن صغاراً لولا لطف الله ورعايته . وعندما كبرنا وبدأنا ندرك ، وجدت كل العذر للوالدة . فليس من السهل على أرملة تعول خمسة من الأطفال ، مات والدهم في مرحلة قاسية وأكبرهم لم يتجاوز التاسعة من عمره ، أن تربيهم تربية حسنة، ما لم تكن قوية وحازمة. ونحن شاكرون لها . من بعد الله . لما أوصلتنا إليه ، جزء الله الوالدة عائشة إبراهيم على عنا خير الجزاء، ورحمها وأحسن إليها.

ولم تقف قصتي مع الماء عند هذا الحد ، فيضاف إلى كل ما تقدم ، ما كان يصيبنا من خوف في الخريف ، عندما تهطل الأمطار . فلقد كانت الفاشر تتمتع بقدر كبير من الأمطار في فصل الخريف ، تجرف المساكين وتملأ البيوت . وكثيراً ما نكون نحن الأطفال وحدنا في المنزل أثناء هطول الأمطار ، إذ أنه من المعروف أن الأمطار تهطل عادة بعد

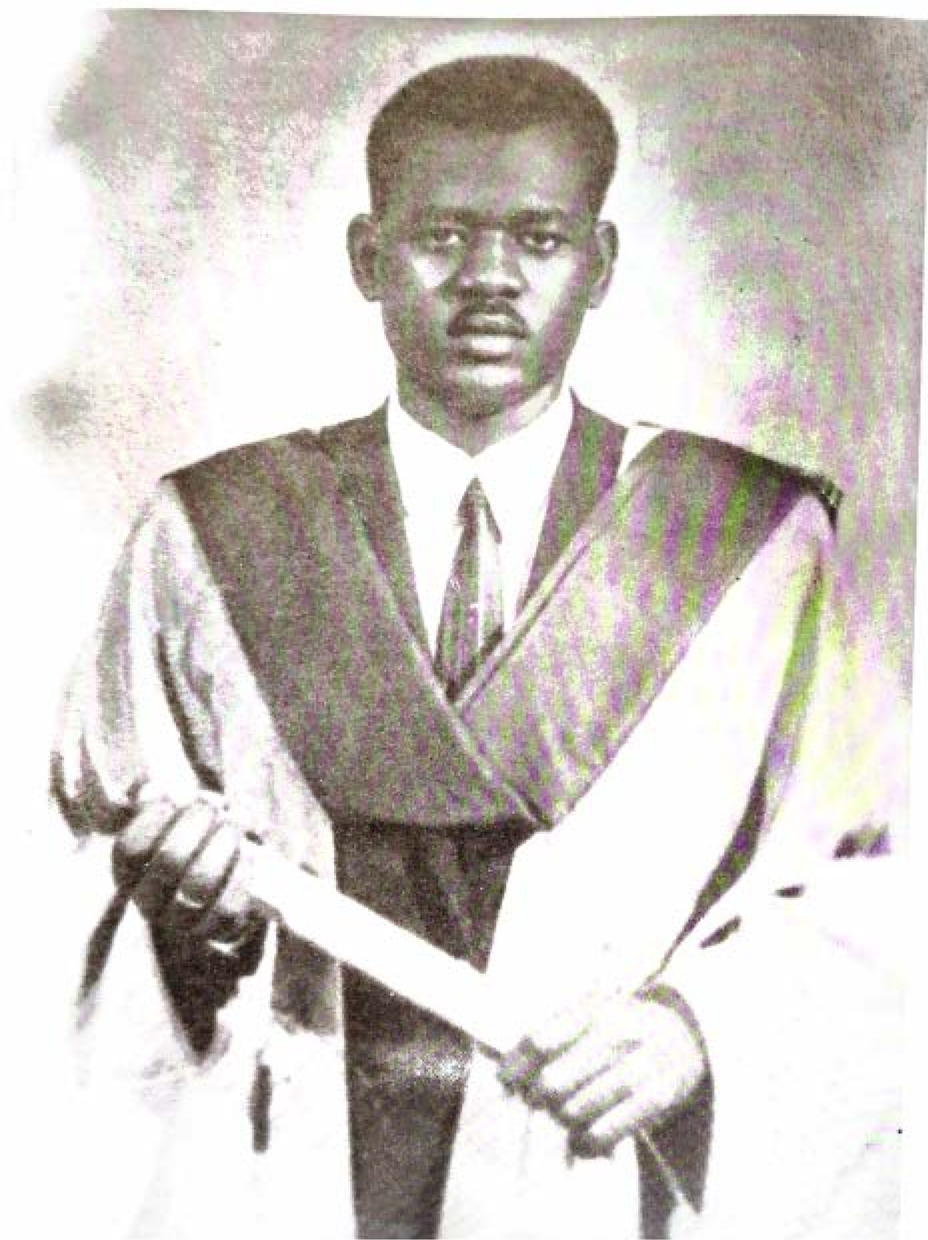
منتصف النهار في البلاد الحارة . وتكون الوالدة غائبة عنا ، تحاول أن تكسب رزقاً يكون عوناً لها في تربية هؤلاء الصغار عن طريق التجارة البسيطة . وكانت تنوب عنها أختي الكبرى مريم في رعاية شؤوننا ، وهي أيضاً لا تزال طفلة ، إذ تكبرني بأربعة أعوام فقط . وكنا نقيم في بيت من الطين به ثلاث غرف وفرندة ممتدة على طول هذه الغرف، ويعتبر من سكن علية القوم في المدينة في ذلك الوقت؛ ولكن عندما تهطل الأمطار ، كنا نحسد البسطاء ساكني بيوت (القش) على حالهم . فلم نسمع أبداً أن بيتاً من القش (قطية) هوى على رؤوس ساكنيه من جراء هطول الأمطار . ولكن ما أكثر ما سمعنا عن سقوف الطين التي تنهار وتسقط على قاطنيها ، فتكون النهاية المؤلمة! ومما يزيد في مخاوفنا ، أن تلك الغرف لم تجد الصيانة الكافية منذ مدة طويلة بعد وفاة الوالد- رحمه الله- فيبدأ تسرب الماء إلى الداخل مع بداية نزول الأمطار ، ويأتي الماء تارة من السقف ، وتارة من شرخ في الجدار ، ويفتت الخوف قلوبنا ، فتأمرنا الأخت الكبرى بالجلوس على النوافذ ، إما لأنها غالباً لا تسقط علينا كالسقف ، أو لأننا يمكن أن نهرب إلى الخارج عن طريقها عندما نحس أن السقف على وشك السقوط . فنظل لساعات طويلة جالسين على النوافذ ، متهيبين سقوط الغرفة علينا في كل لحظة . وبكل تأكيد إن شعوراً كهذا يعيشه طفل صغير مرات ومرات في حياته ، لابد وأن يترك أثره وبصماته عليه وهو كبير!!



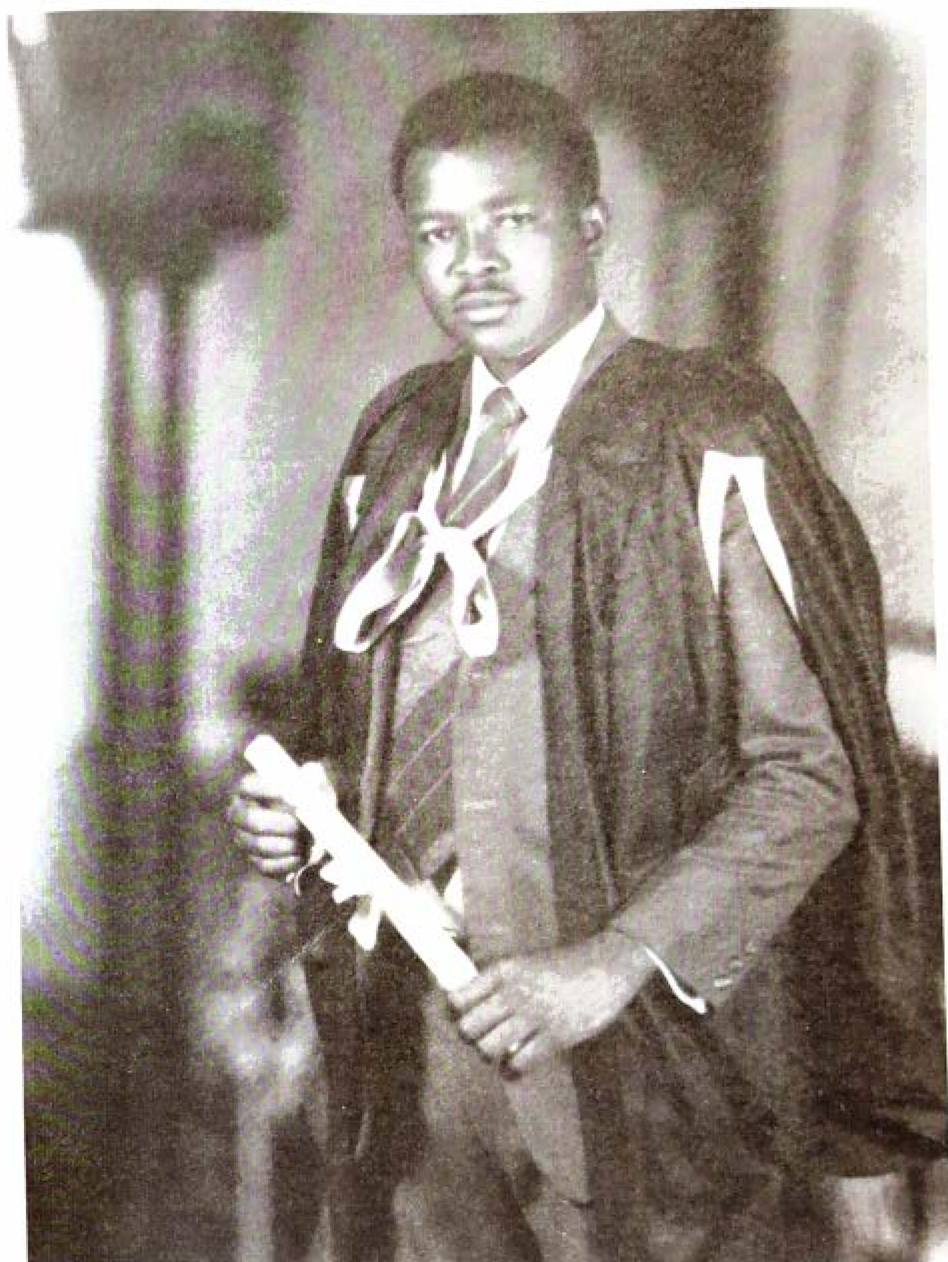
التخرج في عام ١٩٧١م من جامعة الخرطوم مع الأخوة من اليمن: الطيب عبد المجيد علي محمدين، وفاروق اسحق.



أمام كلية الآداب مع الأخ عبد الحميد أحمد أمين من اليمين، الأخت مريم محجوب كرم الله والأخ المرحوم مختار محمد علي.



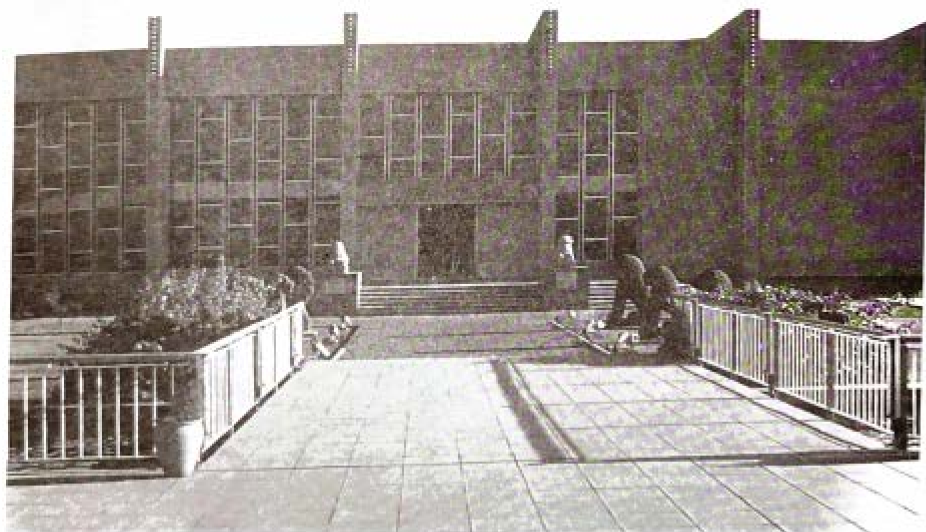
صورة منفردة للتخرج أيضاً.



صورة تخرج الأخ علي عبد الرحمن، ابن خالي ورفيق الطفولة، وأحد **أبطال صدى** الذكريات.



صورة لمكتبة جامعة الخرطوم العريقة.



صورة لمدخل المتحف القومي السوداني.



الأخ ميرغني محمد صالح.



الأخ صفوت عبد الرسول (من زملاء ألمانيا)



الأخ الصديق أحمد جعفر عبد الكريم (سفير السودان حالياً في دولة الإمارات)



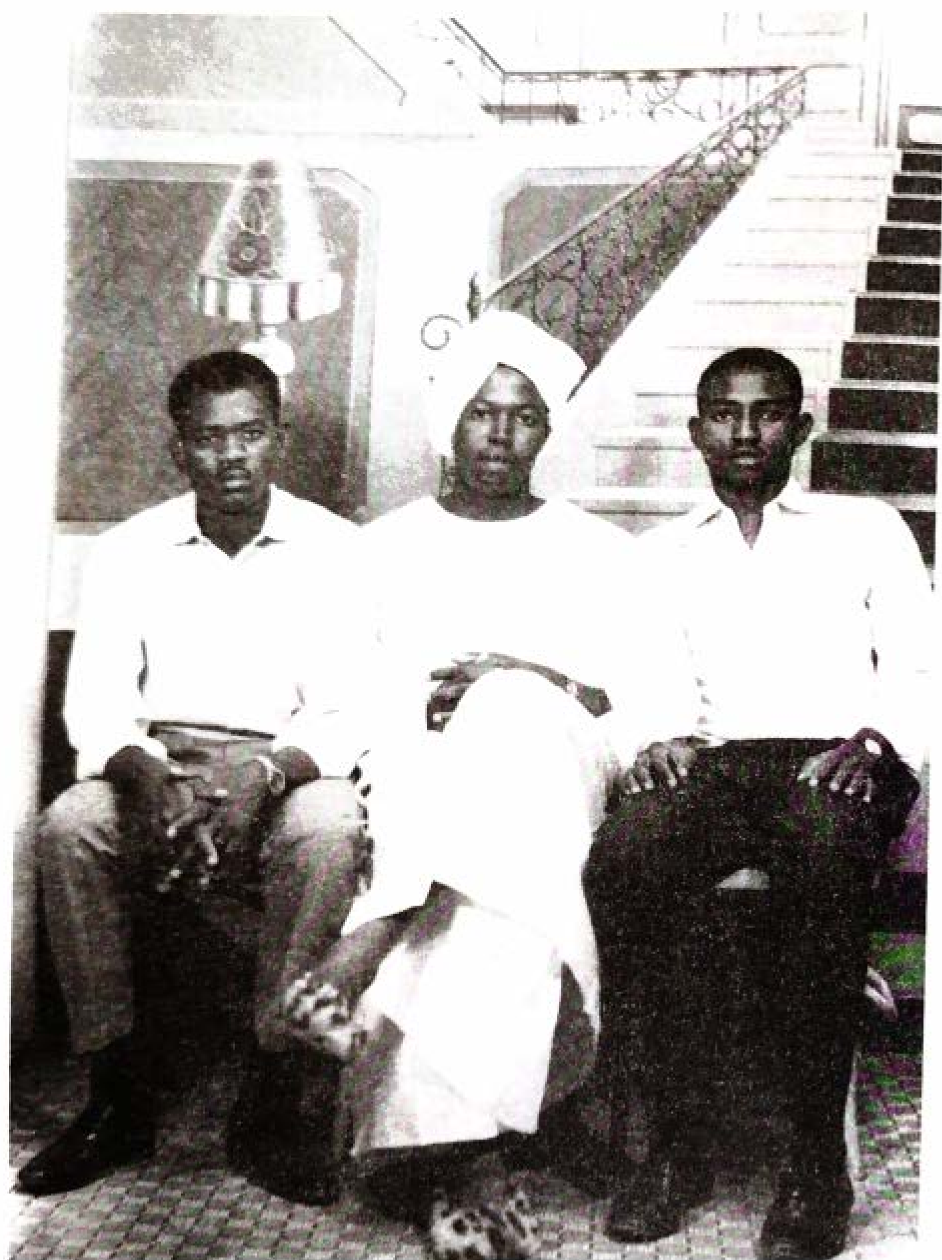
في سوق خيري في مدينة ود مدني اقامته جمعية تطوير الريف السوداني، أحدى أنجح الجمعيات الجامعية.



في إحدى رحلات الجامعة الشهيرة التي تقام في أيام الجمعة مع مجموعة من الزملاء والزميلات.



مع الأخ عبد الرحمن نصر في رحلة نظمها أفراد المتحف القومي إلى المقرن.



مع الأخ إبراهيم موسى على اليمين والأخ عبد الحميد أحمد أمين في الوسط.

الجزء الثالث

المحتويات

الجزء الثالث

إنما الدين المعاملة

طرقنا باب الحياة مرة أخرى في سبتمبر من عام ١٩٧١م بعد انقطاع للعلم والتحصيل دام قرابة الخمسة أعوام ، وتفرق الصحاب والزملاء والزميلات بين مختلف الأجهزة الحكومية ، وفي أجزاء شتى من أرض السودان الحبيب ، أطباء ، مهندسين ، محامين ، معلمين ، ضباط ، إداريين ..... إلخ . ورجعت إلي وزارة التربية والتعليم ، وانتدبت للاشتراك في لجنة كتابة بحث عن ثورة ١٩٢٤م ، وأبطالها على عبد اللطيف وصحبه الأبرار ، وكان مقر اللجنة في شعبة أبحاث السودان التابعة للجامعة . وتعذر العمل في اللجنة ، وعدت مرة أخرى إلى الوزارة طالباً تعييني في وظيفة تليق بمؤهلي الجديد ، ولكني قوبلت بالصد والرفض ، وأغلقت كل الأبواب في وجهي . وأذكر أن أحد المسؤولين قال لي بالحرف الواحد : « أنتم معلمي المدارس الأولية عندما تحسن إليكم الوزارة وتدخلكم الجامعة ، تتعالون عليها عندما تتخرجون « . وحاولت مراراً مقابلة مساعد الوكيل لشؤون الموظفين (......) ، والذي انطبق عليه عملياً المثل السوداني القائل «الفي يدو القلم ما بكتب نفسو شقي». فهو مخترع الكادر الحالي الذي قسم الوظائف على الأرقام بعد ما كان مقسما على الحروف الإنجليزية. وبالطبع أعطى نفسه أعلى درجة ثم وزع ما تبقى من الفتات على العباد !!

وكنت دائماً أجد باب مكتبه مغلقاً، وأمامه فراش وورقة تقول : « ممنوع الدخول ، المكتب في اجتماع . « وواظبت على الحضور طيلة أيام الأسبوع وفي أوقات مختلفة ، ولكن كان يقابلني نفس المنظر ، الفراش الجالس ، والورقة الملصقة، والباب الموصد . وبعد أن نفد صبري ذات يوم ، دفعت الباب دفعة قوية ولم ينجح الحارس في إثنائي عن الدخول رغم أنه تشبث بي في محاولة مستميتة لإيقافي . ولم أصدق ما رأيت ! سعادة الأستاذ جالس وحوله عدد من سكرتيرات مكتبه وربما المكاتب المجاورة في الأرائك التي في صدر المجلس ، يشربون الشاي والقهوة وهم مستغرقون في الضحك والأنس!! وفوجئ الجميع بدخولي بتلك الصورة غير المتوقعة ، فسكتوا وكأن علي رؤوسهم الطير! وسألني سعادة مساعد الوكيل في ارتباك ظاهر :» ما هي الخدمة التي يمكن أن أقدمها لك ؟» ونظرت إليه طويلا، وإلي من حوله وقلت في سري : « أكيد أنك لن تقدم لي شيئاً. « فقلت له : «

لا شكراً سيدي « وخرجت. وعدت مرة أخرى إلى شعبة أبحاث السودان.
وكنا مجموعة من الباحثين وبعض الموظفين نستغل غرفة واسعة كمكتب لنا، وكان مدير المركز يمر علينا من وقت لآخر، فيبالغ الباحثون والموظفون في تقديم فروض الطاعة والولاء. ويبدو أن ذلك كان يروق السيد المدير الدكتور كثيراً ! ولم أكن أشارك في هذا الاحتفاء المبالغ فيه، الأمر الذي لم يصادف رضا لدي مدير المركز. فأرسل بعد فترة أحد الفراشين طالباً مني المثول لديه. وذهبت إليه في المكتب ووجدته متكلفاً الانهماك في مطالعة بعض الأوراق. فألقيت عليه التحية، ورد ببرود شديد، ولبث مدة طويلة لم يعرني أدنى انتباه، متظاهرا بانشغاله بأوراقه؛ وأنا واقف في صمت كالصنم، وأخيراً رفع رأسه وسألني : «أين تعمل أنت الآن؟» فقلت له: «بالطبع منتدب لديكم هنا في المركز من قبل الوزارة كما ترى» فأجابني لا أنت لا تعمل معنا !! أنت تحضر يومياً وتخرج ولا تهتم إلا بعملك الخاص ! أما إذا أردت أن تعمل معنا، فعليك الانتظام من غد في العمل بنفس الصورة التي يعمل بها زملاؤك من الباحثين الآخرين، وعليك الالتزام بشروط العمل لدينا (يبدو أن من بينها تقديم فروض الطاعة والولاء!) وألا فسوف أتصل الآن بالدكتور محمد خير (وزير التربية والتعليم آنذاك) وأقول له أبحثوا عن معلمكم «محمد أحمد بدين» فنحن لا نعرف عنه شيئاً منذ ما يزيد على الشهر!! فقلت له: وأرجو أن لا تنسى أن تضيف : «وسوف لن أراه بعد الآن!!» وقفلت الباب وخرجت من المركز ولم أعد إليه قطاً
ولقد تصرفت معه بعد ذلك في حفلة عشاء أقامها الأخ عبد الرحمن محمد محمود الضابط الإداري في بري حيث يسكن، تصرفاً غير حميد ! وأنا أخجل منه حتى الآن، وأعتذر له حتى بعد هذه السنوات الطويلة عن ذلك وها على رؤوس الأشهاد!! فقد أتيت إلى حفلة العشاء متأخراً بعض الشيء، وبدأت في مصافحة الزوار الذين وقفوا لتحيتي واحداً واحداً. وعندما وصلت إليه- وكان ضمن الواقفين- مد يده لمصافحتي، إلا أنني لم أمد له يدي، بل تعديته وصافحت الشخص الذي يليه !! ورغم أن العلاقات بيننا تحسنت بعد ذلك، إلا يبدو انه ما زال في نفسه شيء من «حتى»، ورّد لي به الصاع صاعين، وأنتقم مني بعد أن عدت من ألمانيا، ووضعته مرجعاً عند تقديمي لوظيفة أستاذ في الجامعة، بعد أن اعتقدت أن الأحوال بيننا عادت إلى طبيعتها، !! لكن قدم بعد ذاك إلى المملكة العربية السعودية قبل بضعة سنوات لاداء العمرة، وقابلته وقمت نحوه بالواجب، وصادف ذلك رضا في نفسه، وطوينا صفحة الماضي، وعدنا بحمد الله طبيعيين.

وتقدمت للدراسات العليا في شعبة الآثار بالجامعة، وتحصلت علي منحة للتحضير لدرجة الماجستير، بإشراف أستاذي الدكتور احمد الحاكم، وبدأت في جمع المصادر، وسافرت في رحلة علمية متعلقة ببحثي إلى دارفور مع الأستاذة النرويجية في الشعبة راندي، وزوجها في كلية الاقتصاد الدكتور قونار هولاند، وهي الرحلة التي مر ذكرها من قبل.

وبعد أن قطعت شوطا كبيرا في ذلك، ظهرت وظائف جديدة في متحف السودان القومي، فتركت أمر الماجستير وتقدمت إلى المتحف، وتم تعييننا مع أربعة آخرين ضباطا للآثار في أواخر عام ١٩٧٢م، هم الأخوة : عثمان محمد عثمان، الرجل المهذب من دنقلا، والذي تقدم ذكره في حلقة سابقة، وعثمان سليمان، الرجل الظريف من مدني، والأخت الطيبة سعدى البكرى ابو حراز من امدرمان، وكلهم من جامعة الخرطوم، والأخ المرح بكري ميرغني من كوستي ومن جامعة وارسو ببولندا، وكان كثيرا ما يدعونا إلى منزله في الامتداد، حيث يكرمنا غاية الكرم مع زوجته البولندية بربارة مع ابنهما الصغير بشرى؛ واعتقد انه عاد الآن مع زوجته واستقرا في بولندا. وكانوا جميعا نعم الإخوان والزملاء، لهم أحر التحيات حيثما كانوا. وقضينا وقتاً جميلاً في المتحف، لعل أروع ما فيه الاستمتاع بوجبات الفطور «المدنكلة» تلك من سمك، وكبدة، وكباب، وفول مصري مصلح مما يتفنن الطباخ الماهر ملك ومساعده ابرسي في تجهيزه في بوفيه المتحف، مما جعل البوفيه يشتهر بسمعة طيبة لجودة طعامه، وتدني أسعاره، فكان يرتاده موظفو قاعة الصداقة والهيئة العامة للكهرباء، ووزارة الزراعة، والمصالح المجاورة. وأذكر أنه كان معنا ذات مرة أحد الزوار من الأوربيين دعوناه لتناول طعام الإفطار معنا، وعندما أتينا لغسل أيدينا وجدنا أن الماء مقطوع. وبقدر ما حاولنا أن نشرح ذلك للخواجة إلا انه لم يفهم! وقال: «كيف افهم ذلك، وهاهو النيل على مرمى حجر منكم، يمكنكم أن توصلوا الماء حتى لو تحفرون بأيديكم المجردة، المعذرة أنتم أناس كسالى!!»

وهذه تذكرني نادرة حكاها الدكتور الطاهر محمد عوض الله الأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز بجدة سابقاً. فذكر انه عندما كان يعمل في مجلس الوزراء أثناء حكم النميري، أصطحب معه أحد الخبراء اليابانيين إلى مدني بالسيارة لدراسة بعض المشاريع على الطبيعة . ولفت نظره أنه أول ما خرجت السيارة من العاصمة، بدأ الخبير الياباني ينظر إلى جهة النيل ويطيل النظر ويهز رأسه دون أن يقل شيئاً !وعند الوصول إلى مدني قال

للدكتور الطاهر :«آسف لا أحد يستطيع تقديم مساعدة فنية لكم وأنتم بهذه الحالة !! فأنني لأول مرة في حياتي أرى نهراً، وبجواره أرض يباب قفر ! كيف يستقيم هذا ؟؟ هذه حالة ميئوس منها، إني راجع إلى بلادي !!» وقد كان.

******

أما علي الصعيد السكني، فلقد أستقر بي الحال بعد التخرج في (ميز) بمنطقة امتداد ناصر مع نخبة من خيرة الزملاء المهندسين الذين تخرجوا معنا في تلك السنة .

كان سكننا يقع جنوب محطة ١٠، وهو عبارة عن منزل يتكون من ثلاث غرف، وفرندتين وباحتين شمالية وجنوبية. ولقد كان منزلاً حديث البناء ، أنيقاً ونظيفاً ومريحاً سعدنا فيه كثيراً مع الأخوة الأعزاء النور كمال الدين أبو صباح ، وعبد الرحمن نصر شعيب . ومحجوب عثمان محجوب ، والصادق موسى عامر ، وعدلان الصديق الخليفة الماحي . ومن بعد الأخوة - أحمد الطيب والنعيم قسم السيد، الذي نلقبه بـ «ود حمد».

كانت تجاورنا من الشرق أسرتان، أسرة الأخ عيسي، الذي كان يعمل في القوات المسلحة. والذي اعتقد انه من جبال النوبة، وأسرة أخرى تتكون من والدة وبناتها الشابات العاملات، وأعتقد أنهن ينتمين إلى إحدى قبائل شمال السودان التي عاشت في مصر لفترة، لأنهن يتحدثن باللهجة المصرية. ولم تكن لنا معهن صلات أو علاقة نظراً لأن ليس بالبيت رجل يمكننا التعامل معه. واذكر أن الأخ عيسي تعرض ذات مرة لموقف محزن، فلقد وضعت له زوجته ولداً كان الأول على ما أعتقد، وكان فرحاً به غاية الفرح، وذات ليلة أصيب الصغير بإسهال حاد، وللآسف لا وجود لشفخانة في امتداد ناصر، والمواصلات قد توقفت، ولم يكن لدى أحد منا في الميز سيارة في ذلك الوقت. لذا كان الحل الوحيد هو أن يحمله على يديه سيراً على الأقدام إلى بري أو للحصول على اقرب مواصلات تأخذه إلى الخرطوم. وبعد أن قطع شوطاً بعيداً، عاد به إلى المنزل جثة هامدة، إذ مات الصغير وهو بين يديه وقبل أن يتمكن من إسعافه!! شفع الله به لوالديه.

وكان يجاورنا من الغرب الأخ عبد القادر من كردفان والذي كان يعمل في المساحة إن لم تخن الذاكرة، وأخوه (نسيت اسمه) وأسرته، وكان رجلاً بسيطاً طيب القلب، نقي السريرة. ومن الناحية الشمالية كان هناك فضاء أو قطعة لم تبن بعد. أما من الناحية الجنوبية كان الشارع يفصلنا عن جارينا العم أحمد، والعم إسماعيل. والعم أحمد أبناؤه كانوا صغاراً في السن، أما العم إسماعيل فله مجموعة من الأبناء والبنات الشابات، وقد

قابلته العام الماضي هنا في مطار جدة حيث قدم لزيارة أحدى بناته المتزوجات في جدة، ورغم أنه بلغ من السن عتياً، ولم نتقابل لأكثر من ثلاثين سنة، إلا أن ذاكرته لا زالت قوية، واستطاع أن يتذكرني، وسألني عن بقية أفراد الميز!

ولكن كانت هناك قصة في انضمامي إلى هذا الميز! فلم أكن أعرف من كل هؤلاء الزملاء غير الأخ الصادق موسى عامر الذي تزاملنا معا في مدرسة الفاشر الأميرية الوسطى ، ولي معرفة طفيفة بصديق عمره الأخ عدلان الصديق. ولقد علمت عن طريق الأخ الصادق عن وجود خانة شاغرة «بميزهم»، وهم يبحثون عن شخص لهذا الغرض حتى يكتمل عددهم ستة . وطلبت منه أن أشاركهم السكن ، فوافق مشكوراً . وانتقلت إلى الميز، وكان من نصيبي أن أشارك الأخ النور غرفته . ومن الطبيعي أنه ليس من السهل أن يجد الشخص نفسه يسكن في غرفة واحدة مع شخص لم يره قط من قبل . ويبدو أن وقع الأمر كان أهون عليّ من الأخ النور ، فلقد كنت أبحث عن سكن عاجل بأي شكل ، وبالطبع لم يقل لي الأخ النور شيئاً عن شعوره أو إحساسه ، ولكني أحسست بذلك ، وبدأت أرى حركة غير عادية من أفراد الميز ، يجتمعون خلسة ويتجادلون وترتفع أصواتهم فترة غير قصيرة ، وعندما أدخل عليهم يسكتون فجأة . وشعرت أن الأمر يتعلق بي ، ولكنني لم أتدخل أو أسأل عن شيء لم أشرك فيه . ولقد كاد الميز أن يتشتت . كما علمت مؤخراً . لولا أن عالج الزملاء الموضوع بحكمة وروية ، وصمد الميز .

ثم مرت فترة هدنة ، انقلبت بعدها الأحوال، وأصبحنا كلنا كأسرة واحدة ، وأصبح الأخ العزيز النور كمال الدين من أعز الأصدقاء وأحبهم إلي نفسي . وهو شاب يتمتع الحديث، ونتبادل النكات، حتى يدركنا النوم . ولقد حكى لي الأخ النور ذات ليلة قصة غيرت مجرى حياته ، وبرهنت لي فعلاً أن « الدين هو المعاملة « . فلقد كان في أول عهده في الجامعة . كما روى . يعيش حياته كبقية السواد الأعظم من طلبة الجامعة ، من حيث الذهاب إلي النادي، والسينما ، والحفلات لتمضية أوقات الفراغ . وفي عام من الأعوام أسكن معه أحد الزملاء الأفاضل من الأخوان المسلمين . كان إماماً للمسجد في الجامعة ويدعى إسماعيل . ولقد كان هذا الزميل على النقيض منه تماماً ، متدين وملتزم ، لا يرتاد الحفلات والسينما ، ويمضي جل وقته في قراءة القرآن والتعبد والمذاكرة، ولا يسهر بل ينام مبكرا. ولم يرق الأخ النور ذلك ، فقرر بينه وبين نفسه أن يثقل على هذا الأخ بشتى الطرق ، حتى يدفعه إلى طلب تغيير سكنه . وبدأت المضايقات من قبل الأخ

النور بأن يأتي ليلاً بعد أن يكون ذلك الأخ الفاضل قد أخلد إلى النوم بوقتٍ طويل، فيقوم بإضاءة كل الأنوار في الغرفة ، ويفتح حنفية الماء في الحوض إلى أقصى درجة ، ويزيد على ذلك بأن يترنم ببعض الأغاني بصوت مسموع، كل ذلك ليغيظ هذا الزميل . ولكن كل ذلك لم يكن يثر الأخ إسماعيل، ولم يطلب منه قط أن يكف عن الذي يفعل ، أو حتى أن يذكر شيئاً من ذلك في صباح اليوم التالي . ويذكر الأخ النور أنه تمادى في ذلك فترة من الوقت دون ظهور ردود فعل من الزميل أياً كان نوعها .

ولكن حدث شيء غريب لاحظه الأخ النور! فصدف أن كان ذات ليلةٍ مستلقياً على سريره عند الفجر ، وكان الأخ إسماعيل يحسبه نائماً ، فإذا هو يراه وقد قام لأداء صلاة الفجر ، وهو يمشي على أطراف أصابع قدميه ، ويتحسس أشياءه في الظلام . خشية أن يحدث صوتاً ، أو ينير ضوءاً يزعج الأخ النور، ويتجنب أي حركة قد تزعج الأخ النور الذي حسبه نائماً! فعزّ ذلك في نفس الأخ النور كثيرا ، وتألم جداً وندم على كل ما بدر منه . ولام نفسه كيف يفعل كل ما من شأنه إزعاج هذا الأخ ، الذي يتحاشى أبسط الأشياء حتى السير على قدميه بالطريقة العادية خشية أن يزعجه!! وسأل نفسه السؤال الذي غير مجرى حياته :» لماذا يتصرف هكذا ؟» ومرت فترة توقف فيها عن الإزعاج والمضايقة .

وبدأ التقرب تدريجياً من الزميل إسماعيل ، وتأكد له أن الدين هو الذي شذ به وهذبه ، وزادت الألفة بينهما، وانقلبت إلى صداقة قوية متينة جذبت الأخ النور جذبة قوية نحو الطريق القويم ، وحفظ القرآن الكريم ، وأصبح مثالاً يحتذى به في الخلق والتدين.

ولان الأخ النور رجل وفي، ويحفظ الجميل، لذا قلما كان يذكر اسم الأخ « إسماعيل» مجردا، بل دائما يقول: « مولانا شيخ إسماعيل». والحق يقال إن الأخ إسماعيل رجل في غاية الأدب والتهذيب، والتواضع، فلقد تعرفت عليه أيضا شخصيا عن طريق الأخ النور.

وعلمت مؤخرا من الأخ العزيز حسن ابو صباح شقيق الأخ النور، أن العلاقة والصداقة بين الأخوين النور وإسماعيل لا زالت كما كانت، وأنهما يعملان الآن معا أساتذة في جامعة الجزيرة، لهما أحر التحيات.

وهذه قصة أثّرت كثيراً في نفسي ، وأردت أن أرويها هنا حتى دون استئذان الأخ النور، لأنني أردتها أن تكون هادياً لكل الذين يغلظون ويتشددون في الدعوة إلى الدين وليتهم يتدبرون قوله تعالى : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك «. فلتكسبوا الناس بسلوككم وأخلاقكم قبل أن تكسبوهم بوعيدكم وتهديدكم أو حتى ترغيبكم . قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق « صدق الرسول الكريم.

من الأمثلة الرائعة لانعكاس الدين على التعامل، أتذكر أننا كنا ذات ليلة داخل إحدى حافلات النقل الداخلية في جدة في أول سنة حضرت فيها إلى السعودية، وعند توقف الحافلة في إحدى المحطات دخل اثنان من رجال الشرطة من البابين، وطلبا منا إبراز بطاقات الإثبات «الهويات». وفعل الجميع ما طلب منه. إلا أنهما توقفا عند أحد الأشخاص لم تكن معه بطاقته، وذكر أنه نسيها في البيت. فطلبا منه النزول لاصطحابه معهما إلى الحجز. وبينما الرجل يهم بالنزول، وقف شخص آخر في آخر الحافلة، وقال لرجلي الشرطة :» لو سمحتما، هل يمكن لي أن أخذ عنوان منزل هذا الرجل كي أذهب وأحضر إقامته لديكم في المركز، حتى لا يضطر إلي المبيت بعيداً عن بيته وعياله؟؟ فقال له أحد الشرطيين :» هل تعرف هذا الرجل معرفة شخصية ؟» قال :»نعم هو أخي». وكان واضحاً من السحنة والتقاطيع، أن الاثنين لا ينتميان إلي أصل عرقي واحد ، بل كل منهما من جنسية مختلفة. وأمعن الشرطي النظر في الاثنين ثم قال له:» كيف يستقيم ذلك؟ هو أكيد ليس أخوك». فقال الرجل :» نعم هو أخي في الإسلام !!» هنا أسقط في يد رجلي الشرطة، وأثر فيهما هذا القول، وصرفا النظر عن موضوع الإقامة، و تركا الرجل وانصرفا. وقد يكون الرجل كاذباً، ولكن الآخر ظن به خيراً. واليس هذا ما يوصينا به الإسلام أيضا؟؟ فهذا الرجل أعطى الجميع درساً في الأخوة الإسلامية بالبيان لا بالقول المنمق ، ألا وهو التعاضد، والتكاتف، ومساعدة بعضهم البعض. فهو طبق ما يؤمن به فعلا ، وليس تمشدقا. وكان لهذا التطبيق الرائع فعل السحر في الشرطيين.

وقصة أخرى شبيهة بهذه، شاهدتها ذات مرة في أحد البرامج التلفازية في ألمانيا في وقت لاحق. وكان مقدم البرنامج يزور أسر بعض الألمان الذين دخلوا الإسلام، ويسألهم عن رأيهم وانطباعاتهم. فدخل مقدم البرنامج إلي منزل أحد هؤلاء، وقابل والدته، ودار بينهم الحديث. وأذكر أن المرأة قالت:» أنا مسيحية ملتزمة وعارضت دخول أبني الإسلام بشتى السبل، لكن هذا خياره وأنا أحترمه. أما إذا سألتني عن انطباعي، فأقول لك بكل صدق وأمانة، إن ابني هذا كان يثير لنا الكثير من المتاعب، ويأتي المنزل متأخراً ثملاً، ولا يبدي لنا أي احترام، ويثور في وجهي وفي وجه أبيه لأتفه الأسباب، و كلنا نخشى بأسه!

أما الآن ـ والحق يقال ـ فقد أصبح دمث الأخلاق، يودعنا عند خروجه، ويعود مبكراً، ويجلس معنا، ويبدي لنا غاية الاحترام والتقدير، وأصبح الكثيرون يحترمونه ويقدرونه.» وأضافت أنا لا أعمل دعاية هنا للإسلام، ولكن أقول بصدق ما لمسته وعايشته !! فهذا الابن كسب إعجاب والديه بسلوكه القويم وحاز على رضائهما لان الدين انعكس على سلوكه وتعامله، وأصبح يطبق ما قد تعلم من الإسلام عملا!

وعلى النقيض من ذلك، وكمثال سيء للبون الشاسع بين القول والفعل. أتذكر حكاية أخرى حدثت أيضا في جمهورية ألمانيا الاتحادية، وبالتحديد في مدينة برلين، حين كان أحد الأخوة السودانيين يقطن مع صديقة له من الألمانيات في بيتها. وعلى الرغم من أنه كان لاهياً، عابثاً، معربداً، إلا أنه في بعض لحظات صفائه يحدث الألمانية عن الإسلام، وفضائل الإسلام. وأصبحت هذه الألمانية تقرأ عن الإسلام من باب الفضول، وتدريجياً، مال قلبها إلى الإسلام، واعتنقت الإسلام، وتغيرت في كل شيء. والألمان شعب جاد يأخذ كل شيء مأخذ الجد. أما صاحبنا فلا زال سادراً في غيه. لكنه فوجئ بأنها صدته عندما راودها عن نفسها ذات ليلة شتوية باردة، وقالت له: «أنا الآن مسلمة، ولن أعاشرك معاشرة الأزواج إلا بعد أن تتزوجني إن أردت ذلك». ولم يتقبل الأخ هذا الوضع الجديد، واستعصت عليه، واستعصمت بدينها، فحاول اغتصابها بالقوة!! جرت المسكينة ولاذت بالمطبخ وأغلقت الباب من خلفها، ولان كيد الشيطان أقوى من جميع الأبواب، لاحقها الأخ وكسر الباب، وأخذ سكيناً وحاول قتلها. ولم تجد تلك المسلمة مجالاً إلا أن تقفز عن طريق النافذة من الطابق الثاني إلى الأرض لتنجو بدينها وبجلدها! لكنها للأسف وقعت وكسرت رجلها. وعندما سمعنا بالقصة بعد عدة أيام قمنا بزيارتها في المستشفى ؛ وأخبرتنا أنها على الرغم من أن الأخ (....) حاول قتلها، إلا أنها لا تنسى له فضل أن هداها إلى الإسلام، لذلك لا تريد أن تؤذيه وتشتكيه في المحاكم، خاصة وهو لا يحمل إقامة! فقط طلبت منا أن نطلب منه أن يرحل عنها، وقد كان !! أي تناقض هنا بين القول والفعل؟؟ أما كان ينبغي أن يدفعه سلوكها القويم إلى العودة إلي الإسلام عوداً حميداً؟؟ لكن للأسف هذا هو الواقع المرير، وهذا هو حال الكثيرين منا، نقول شيئا ونطبق ما هو مغاير تماما! لذا ظهرت بيننا الطائفة التي نسجت من حولها النكتة السياسية البليغة: «دّلونا إلى الجامع، وعقبونا إلى السوق!!» وهو نفس ما عناه الطغرائي في لاميته المشهورة ب» لامية العجم» في شطر احد الأبيات: «وانفرجت مسافة الخلف بين القول والعمل»

بريد القراء:

-الشكر والتقدير للأخ الصديق الدكتور استشاري الأطفال بمستشفى الجدعاني، فيصل احمد عبدالرحمن، على إطرائه المستمر، وتأييده لنشر المقالات في كتاب، لأنه بقدر ما يحتفظ بالجريدة، يكتشف أن الخادمة قد تخلصت منها! والشكر موصول كذلك لزوجته الأستاذة زينب عصام حسون أستاذة اللغة الفرنسية لنفس الاهتمام، وللأخ السوداني من زبائنه، والذي حمّله لي وصية ، حين وجد الدكتور فيصل يقرأ مقال «صدى الذكريات» الأخير، وعلم منه أن بيننا علاقة مصاهرة ، فطلب منه أن يبلغني باحتجاجه على نشر المقال في يوم السبت، مما يكلفه دائما دفع ريال زيادة! فأقول له شكرا على حرصه على متابعة المقالات، أما توقيت نشرها- فللأسف- ليس في يدي!

-والشكر موصول أيضا للأخ الذي لم أتشرف بعد بمعرفته، و هاتفني عن طريق الأخ الصديق صلاح عمران ـــ الخبير في النكات من جميع العيارات، وخاصة الثقيلة منها!- وهو الأخ عبد الرحيم عز الدين الحبر من الجريف / العليفون، وخريج دفعة ١٩٧٦م من جامعة الخرطوم، والذي من شدة إعجابه بالحلقات الخاصة بالجامعة، والتي رجعت به القهقرى إلى تلك الأيام المورقة، حذرني من التوقف، وإلا قام القراء المعجبون بمظاهرة ضدي، قد تؤدي إلى حرق مسكني!! ولا ادري هل ادعوه تعالى قائلا: « اللهم أجرني من القراء!!» له عظيم شكري وتقديري.

- والشكر كل الشكر للأخ العزيز عبد الله علقم، على مداخلته الهاتفية المطولة، والظريفة، وهو بالمناسبة « جراب معلومات» لكل ما يتعلق بالحياة الاجتماعية في جامعة الخرطوم في عصرها الذهبي. وأكد على صحة نسبة أغنية « ظبية البص السريع»، وإضافة إليها إحدى أشهر أغاني ود الامين؛ ولما لا؟ « يعني ألا يحق للشعراء المرهفين أن يقولوا للناس الحلوين حين يمرضون، كفارة، وبعد الشر عليكم، لأنهم ببساطة ما شبه المرض؟؟!!! «

- واستلمت رسالة رقيقة من الأخ الدكتور السنوسي إبراهيم صابر ، استشاري الجراحة والمناظير بالمستشفى العسكري بالظهران، والذي لم أتشرف بعد بمعرفته، بدأها قائلا:» سرتني مقالاتك في الخرطوم، وأرجو أن تداوم عليها، وحبذا لو كتبتها في كتاب». ثم ذكر انه يحب الشعر، وقرضه في وقت سابق، لكن الطب طيّر عليه شياطين

الشعر، ثم أورد مشكورا رواية أخرى تختلف قليلا لبيت الشعر الذي أوردته عن «منح الطرف للغير»، وهو على حق. وأتحفني بشيء من الشعر الحلمنتيشي الذي تبارى فيه طالب من البيطرة، وآخر من الزراعة، وثالث من الطب، كل في وصف ليلاه من منظوره المهني!! له كل الشكر والتحية على هذه المداخلة اللطيفة.

- والشكر موصول كذلك للأخ عوض عمر من أبناء ام روابة، الذي يعمل في إحدى الشركات الخاصة هنا في جدة، والذي سعى مشكورا للتعرف علي. وكان «العربون» دعوة رمضانية استمتعنا فيها بعصيدة كردفانية لذيذة، إلى جانب كل ما لذّ وطاب. حضرتها وأنا لم ار صاحب الدار من قبل! واجتهدت كثيرا في معرفته وسط من دعاهم في ذلك اليوم! ولسوء حظي لم يكن موجودا داخل الدار وقتها! فصرت بعد ذلك لا اعرف. هل القادم الجديد صاحب الدار ام ضيف جديد؟! و قد أثنى بشدة في اتصال هاتفي على الأسلوب الأدبي الجيد- حسب ما يدعي- الذي كتب به المقال قبل الأخير، لأنه من هواة الأدب، وله كتابات أدبية لم تر النور.

وأود هنا أن اعبر عن عظيم شكري وامتناني بصفة خاصة لهؤلاء الإخوة الذين لا يعرفونني ولم أتشرف بمعرفتهم من قبل، ويبدون إعجابهم بما اكتب، ويرسلون تعليقاتهم. صحيح أكن نفس الشعور لأصدقائي ولمن اعرف. لكن هؤلاء الأخيرين قد تكون شهاداتهم مجروحة. وهذا التشجيع هو زادي في الاستمرار؛ كما أن الاهتمام بما اكتب، دفعني لأضع رقم جوالي بعد هذا، في نهاية كل مقال لمزيد من التواصل مع القراء الأعزاء، ومن اجل التصويبات التي تصلني بين الحين والآخر. لهم جميعا شكري، وفائق تقديري. و سنواصل الحديث عن ميز امتداد ناصر في الحلقة التالية إن شاء الله.

يا ضيفنا لو جئتنا... ماذا تجد؟

أصبح الأخوة الأعزاء البروفيسور مهندس عبد الرحمن نصر شعيب من البرداب بجنوب كردفان ، والأستاذ حاليا بكلية الهندسة بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالمملكة العربية السعودية، والدكتور مهندس النور كمال الدين أبو صباح من الهلالية، ونائب مدير جامعة الجزيرة، والأخوان المهندس الصادق موسى عامر من تبلك بشرق دارفور، والذي يعمل حاليا في احد المرافق الحكومية في الرياض، والمهندس عدلان الصديق الخليفة الماحي من الجزيرة الفيحاء، الذي تقاعد الآن من العمل بوزارة الإسكان، والدكتور مهندس محجوب عثمان محجوب من كسلا ، والدكتور مهندس أحمد الطيب من كسلا أيضا، واللذان كان آخر عهدي بهما حين كانا محاضرين في جامعة الخرطوم ، والذين ضمنا الميز في امتداد ناصر في النصف الأول من السبعينات، أصدقاء العمر ، رغم أن الزمان قد باعد بيننا كثيراً، بعد أن مر علينا وقت كنا كالأشقاء لا نفترق أبداً ، وبعد أن أمضينا ثلاث سنوات معاً لم تحدث بيننا قطيعة قط ، وافترقنا وكل عن الآخر راضٍ وله مشتاق .

ومما اذكر في هذا المجال ، هو أن ميزنا كان يقع وسط سكن البسطاء من الناس من السودانيين الطيبين كما ذكرت ، وكانوا يرون فينا الاتزان والاستقامة ونعم الجوار، والاستنارة . وقويت بيننا العلاقات إلى درجة كبيرة . وكنا نخرج جميعاً في رمضان ونتناول طعام الإفطار في الساحة التي أمام منزلنا، ومعنا الجيران الأخ عبد القادر ، والعم أحمد والعم إسماعيل وأبناؤهما ، والأخ عيسى، سويا مع الضيوف الذين يحلون علينا أو عليهم، أو الجيران الأباعد الذين ينضمون إلينا في بعض الأيام. وكنا نشاركهم في أفراحهم وأتراحهم ، وكانوا يستشيروننا في كثير من مشاكلهم ، حتى في الخلافات الزوجية، يكون دارنا الملاذ الذي يُلجأ إليه لحل الخلاف. واذكر أن تدخلنا جميعنا ذات مرة لفض اشتباك قوي، نشب ليلا داخل منزل احد الجيران، اشترك فيه الأب وألام، والأبناء ، والبنات، وحتى الأطفال داخل ذلك البيت الكبير، الذي يضم جيلين، بالإضافة إلى زوج الابنة، الذي يشاركهم السكن. وأرسل من يطلب حضورنا فوراً! وكاد يؤدي إلى طلاق وخراب بيوت، لولا أن وفقنا الله في حله، بقيادة حكيم الميز الأخ عدلان

الصديق، الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم. ومن اغرب ما أتذكر أن الزوجة الشابة التي دخل زوجها في خلاف حاد مع أبيها، كانت تقف ظاهريا مع أبيها، وتلعن الزوج وتسبه، ثم تأتينا خلسة من الخلف إثناء تلك « الجوطة»، والهرج والمرج، ورفع الأصوات، ودفع الناس بعضهم بعضا، وتقول لنا بصوت أشبه بالهمس، أنا مع زوجي، لكن أخشى أبي، فأرجوكم ألا تتركوه يخرج من البيت، بعد أن رأت أن الزوج قد أزمع على مغادرة المنزل! كم هي مسكينة المرأة السودانية!! إلى متى تكتم إحساسها وشعورها، ولا تستطيع أن تعبر عن رأيها صراحة!!

وأذكر أن كان لنا جار كان أشبه بحلاق الجامعة ، العم حموده ـ رحمه الله ـ الذي يحكى عنه الكثير من النوادر . فكنا جالسين ذات مرة في مناسبة من المناسبات على الابسطة خارج الميز ، والحديث يدور سجالاً بيننا ، وأراد جارنا أن يدلى بدلوه في الحديث . ويبرهن على فهمه ووعيه بالأمور –رغم ضآلة تعليمه ـ فقال فجأة وبدون مقدمات : « أتدرون ؟ أن هذا السودان لم يكن ليتقدم هكذا لولا الجغرافيا والتاريخ !! » وصمت. وكاد الأخ عبد الرحمن نصر يطلق ضحكته المعهودة ، ولكن نجح في كتمها وآثر الدخول فوراً إلى الميز حتى لا يحرج جارنا الطيب!

وأذكر أننا كنا ننام ذات مرة في الفسحة الجنوبية للدار، ومعنا ضيفنا أخ النعيم قسم الله- الذي انضم إلينا في وقت لاحق في الميز، ومن أبناء الهلالية كذلك- الضابط في القوات المسلحة وحديث التخرج «محمد قسم الله»، بينما النعيم ينام في الجانب الآخر من المنزل. وكان محمد مسافراً إلى شندي لمأمورية رسمية في صبيحة اليوم التالي. فأستيقظ فجراً وأعد عدته، وأخذ معه السرير، واللحاف الذي كان ينام عليه – وهو في الأصل سرير أخيه النعيم ود حمد – وغادر المنزل. وفوجئنا بالأخ النعيم يصحو صباحاً وهو في غاية الانزعاج وينادي «محمد !! محمد»! فقلنا له أن محمد قد سافر. فارتدى ملابسه على عجل، وخرج جارياً من المنزل للحاق به، دون أن نعرف السبب في ذلك! وفي آخر النهار عند عودتنا من العمل، أخبرنا أنه لحق به في محطة السكة حديد في بحري قبل أن يغادر القطار. أما السبب هو أن اليوم السابق كان آخر الشهر، وقد أستلم الأخ النعيم راتبه، وبعد أن فكر طويلاً في حفظه، اهتدى إلى فكرة جهنمية، بأن أبعد الغطاء

من أسفل رجل السرير، وأدخل الراتب بكامله داخل رجل السرير ثم أعاد سد رجل السرير، ونام غرير العين !! فلما أدركه الصباح اكتشف أن أخاه سافر بخزنة نقوده!! وبالطبع لم نرحمه، وسخرنا منه بشدة، ونعتناه بالتخلف، لكن كل ذلك لم يعني له شيئيا في مقابل فرحته باستعادة راتبه ، وفي رواية أخرى للأخ النور، كان المبلغ داخل اللحاف! تحياتي للأخ العزيز النعيم قسم الله الملقب بـ» ود حمد» .

كما أذكر أن الأخ النعيم أيضا جاءته بعثة قصيرة إلى براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا سابقا- إن لم تخن الذاكرة- وكان في أشد الفرح، وأمضى أسبوعاً بحاله في استخراج الجواز، والحجز، وقطع التذاكر، والتحويل الخ...، ولم يتبق لسفره سوى يوم واحد. وحضرت إلى الميز كالعادة بعد انتهاء ساعات العمل في المتحف، ووجدته مستلقياً على السرير، وفي حالة يرثى لها، ويحدق في أعلى الغرفة، ويضرب يدا بيد ويردد « لا حول ولا قوة إلا بالله !! لا حول ولا قوة إلا بالله !!» فقلت له ماذا حدث؟ فأجابني أن البعثة طارت، وضاع كل شيء! وسألته في استغراب عن الذي حدث، فأجابني أن حقيبة اليد الصغيرة التي بها الجواز، والتذاكر، وأوراق التطعيم، والشيكات، سرقت منه في السوق العربي، ولم يتبق لسفره سوى يوم واحد! وحضر إفراد الميز تباعا، وعلموا بالقصة، وهوّنا عليه، وقلنا له سوف تسافر إن شاء الله في موعدك بعد بكرة! فسخر منا ولم يرد بشيء! وجّند جميع أفراد الميز أنفسهم، وقررنا أن يتصل كل منا بأصدقائه، ومعارفه، وأقربائه، في الإدارات المعنية بشؤون السفر، لإعادة إكمال استخراج وثائق السفر المفقودة. وتمكنا بفضل الله من استخراج كل هذه المفقودات التي تعب أسبوعا في استخراجها في يوم واحد فقط، وسافر الأخ النعيم ود حمد في موعده ! وتعيش الواسطات!!

قال الشاعر زهير بن أبي سلمي:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ** وان خالها تخفي على الناس تعلم

كان يعمل عندنا في وقت من الأوقات، خادم بالميز، رجل فاضل اسمه اسحق، قدم إلى العاصمة من المنطقة الحدودية بين دارفور وتشاد، وكان مهذباً، هادئاً، ومنضبطاً في عمله وغاية في النظافة والأمانة. ولقد عمل لدينا قرابة العامين، كنا راضين عنه كل الرضا، وكان الزملاء جمعيهم يحسنون معاملته كأنه واحد منا لأنه ببساطة وفر لنا كل

أسباب الراحة التي ننشدها من طبخ، ونظافة، وغسل، وكي. ولقد أوليناه ثقتنا بحيث يعطيه رئيس الميز النقود كي يشتري حاجيات المنزل، يصرف ما يصرف، ويعيد ما تبقي ويتصرف بمنتهي الحرية. وبما أن عددنا ستة وكل منا له العديد من «البناطلين»، والقمصان، كانت تختلط في الغسيل والكي، وقد يفقد أحدنا قميصاً أو بنطلوناً، ويعتقد أن أسحق نسيه ووضعه في غرفة أخرى، فلا ندقق كثيراً في ذلك. وأذكر أنني تحسرت ذات مرة على بنطلون معين، لأنه كان «فردة» بدلة كاملة، وبحثت عنه لكن لم أجده، ونسيت الموضوع.

وفي آخر سنة لنا في الميز قرر الأخ اسحق أن يسافر إلى موطنه كي يتزوج، وأجتمع الأخوان وساهموا معه بمبلغ عشرة جنيهات على ما أعتقد، وهو مبلغ محترم في ذلك الوقت الندي، وفوض الميز الأخ المهندس الصادق موسي عامر لإيصاله بسيارته إلى موقف السيارات المغادرة إلى الجنينة، وودعناه بحرارة وغادرنا. وبعد عدة أيام حكى لي الصادق حكاية غريبة! أخبرني أنه عندما أوصل إسحاق إلى موقف السيارات في امدرمان، وقبل أن يركب السيارة، جاءت مجموعة من زملائه الذين كانوا يسكنون معه في بيت واحد في بحري وهم يهرولون، ومعهم شرطي، متهمين الأخ اسحق بأنه سرق ملابسهم وحاجياتهم، وأصروا على أن يفتش الشرطي « شنطة» ملابسه!! وبالطبع أنكر اسحق تلك التهمة بشدة. ولكن عند إصرار زملائه فتحت» الشنطة!» وكانت المفاجأة!! إذ وجدوا كل ملابسهم المفقودة ! لكن المفاجأة التي ألجمت الصادق كما يقول، هي رؤية العديد من «قمصاننا»، و»بنطلوناتنا» وبنطلوني بالذات، الذي افتقدته، داخل «الشنطة» ! إلا أنه لم يقل لإسحاق أو للشرطي شيئاً، وآثر أن يستره ، إن تبقى له ما يستر!! بعد أن أصيب بالصدمة وخيبة الأمل !! ولم يسافر إسحاق بالطبع، بل أقتاده الشرطي معه إلى التحقيق!!.

ومن الأسباب التي جعلت ميزنا من أنجح الميزات، هو تقارب رؤيتنا للأشياء، دون مغالاة أو تطرف، وأننا جميعاً لم نكن ننتمي لأي تنظيم عقائدي، أو حزب سياسي، لا في الجامعة ولا خارجها، وكنا نميل أكثر إلى الوسطية، مما ترك لنا مساحة من حرية، نكر ونفر داخلها، ونبدي رأينا بصراحة في كل ما يجري حولنا، دون أن نرهن حريتنا لأحد،

زعيما كان أو قائدا، أو رئيسا.

وكان الاتحاد الاشتراكي في ذلك الوقت في أوج مجده وعزه في عهد النميري، وكنا كثيري الانتقاد لممارسة ذلك النظام، وبلغت بنا السخرية، بأن نجتمع بعد الغداء، ونقرر كتابة «العناوين البارزة» في جرائد الغد !! لمقارنتها بما هو في الواقع صبيحة اليوم التالي! وكلها تدور حول قابل، ودع، صرح الرئيس، وما شاكلها! وطبعاً لا نجدها مطابقة ١٠٠٪ لكن نجد ما يقاربها إن لم يكن طبق الأصل. إلا أن الحنق، والضيق لم يصلا بنا ما وصلا بذلك الموظف الكبير في بنك السودان! إذ يحكي احد أصدقائي، الذي كان يجاور ذلك الموظف الكبير في الامتداد، أنهما كانا يجلسان في بعض الأمسيات أمام منزل ذلك الموظف، يتسامران، ويستمعان كذلك في سخرية إلى بعض من الأخبار، من راديو صغير يمتلكه ذلك الموظف. وفي ذات مرة زار وفد طبي سعودي السودان، وأجرى مع فريق طبي سوداني عمليات قلب مفتوح. فقال المذيع:» وزار الرئيس نميري الفريق الطبي، ورحب به في السودان، وهنأه على نجاح العمليات التي أجراها، ثم زوده بتوجيهاته!» وما أن نطق المذيع ب» ثم زوده بتوجيهاته!»، إلا واخذ ذلك الموظف الراديو ورفعه عاليا، وهوى به على تلك الأرض الصلبة، فتطايرت أحشاؤه سلكاً سلكاً، ومسماراً، مسماراً، واخذ كرسيه وتوجه إلى داخل المنزل، وهو يقول: « رحّب بهم جميل، هنأهم رائع، بس زودهم بتوجيهاته دي تتبلع كيف؟؟!! «

و كانت من هواياتنا المفضلة كذلك أن نضيف بعض الأبيات إلى بعض الأغاني «الهايفة» مثال :»تمر أيام وتتعدى ونقعد نحسب في المدة»، نضيف إليها «ثم نتعشي ونروح نبيت في امبدة»!! والكثير الكثير من هذه الملح التي كنا نرفه بها عن أنفسنا.

وفي غمرة انتقاداتنا لممارسات الاتحاد الاشتراكي، كنا ذات يوم جالسين بعد الغداء نستمع للأخبار، وبعد انتهاء الأخبار قال المذيع:» يسرني الآن أن أذيع عليكم أسماء المواطنين الذين انضموا مؤخرا إلى الحزب الاتحادي الاشتراكي بامتداد ناصر، المحطة ١٠». ثم أذاع أسماءنا الستة كاملة مكملة!! هل تصدقون هذا العبث؟!! وبقدر ما غضبنا من هذا التزوير الفاضح، كانت حيرتنا أشد في معرفة من هو الذي فعل بنا ذلك؟! ورغم أننا لم نصل إلى نتيجة، إلا أن أصابع الاتهام كانت تتجه نحو سيدة تسكن بالقرب منا، ومن الناشطات في الحزب، وكانت تعلم بأننا من المعارضين له، ولم يسرها ذلك بالطبع،

فدبرت لنا هذا المقلب! أو المكيدة! ورغم أننا تعرضنا للكثير من المقالب في حياتنا، إلا أن هذا المقلب بالذات كان أشدها إيلاما، لأننا لم نحسب له حساب، وأخذنا على حين غرة!! ولأننا أصبحنا ببساطة - وعلى أقل تقدير - « منافقين» في نظر من يعرفون موقفنا من الحكومة!!.

ومن نوادر الأخ العزيز النور، أذكر أن له قريب يسكن في أمدرمان يدعى الفرضي، تعرفنا عليه بواسطة النور. وهذا من محاسن ميز امتداد ناصر، إذ تعرفنا على مجموعة خيرة من أقرباء وأشقاء أعضاء الميز. فمن جانب الأخ النور تعرفنا على الفرضي. الذي كان يعمل في التجارة، وعلى الأخ العزيز الدكتور بشرى بكلية العلوم. وإلى الأخ الأصغر للنور والمهذب» حسن»، الذي التحق أيضاً بالجامعة ، ومن جانب الأخ عبد الرحمن نصر تعرفنا على شقيقيه الأخ محمد – رحمه الله – الطالب في الجامعة الإسلامية وقتها. والأخ الصديق الصغير محمود الذي التحق أيضا بالجامعة، وعلى مجموعة طيبة من أقرانه وأقربائه من قريتهم البرداب، الزاخرة بأهل العلم والعلماء. والتي تقع بالقرب من كادوقلي، أذكر منهم الأخ المحامي عبد الله يوسف، وأخيه الدكتور البيطري إبراهيم. والبروفيسور إبراهيم باني الخبير بهيئة الصحة العالمية، والدكتور محمد الشريف الطبيب بجنوب المملكة العربية السعودية، والأخ عمر بالقوات المسلحة، كما تعرفنا على أخ عدلان «محمد»، ومن جانب الأخ محجوب تعرفنا على أخيه المرحوم محمد عثمان محجوب، الإسلامي البارز، والسعيد عثمان محجوب مدير بنك النيلين الأسبق، والأمين العام السابق للخرطوم عاصمة الثقافة العربية، واذكر كيف كان يوسطني لإقناع أخيه محجوب كي يعطيه ثمن تذكرة السينما! وكانا وقتها أيضا طالبين بالجامعة. وعلى صديقهم الدكتور محمد أحمد بجامعة الخرطوم، ومن جانب الأخ الصادق، على صهره، وشريكه في الأعمال التجارية « عبد القادر»، ومن جانب الأخ النعيم على أخيه الضابط محمد. ومن جانبي تعّرف الأخوان على أخي المهندس عبد الله احمد بدين، والأخ المستشار عبد الحميد، والأخ الدكتور إبراهيم موسى، والأخ مختار الذي كان ضمن من حملوا راية الميز مع الأخ العزيز أبو بكر الصديق محمد منصور وبقية الشلة من بعدنا كجيلٍ ثانٍ للميز.

ونعود إلى قصتنا مع الأخ النور، عندما دعانا الأخ الفرضي للإفطار معه بأمدرمان ذات

مرة في رمضان. وبما أنه أعزب، ذهب النور مبكراً ليساعده في إعداد الإفطار. وعندما وصلنا البيت وأذن للصلاة، وجلسنا حول مائدة الإفطار ، رأى البعض- وهم الأغلبية- أن نواصل الإفطار ثم نؤدي الصلاة. لكن الأخ النور أصر على أن يصلي بعد أن تناول شيئا من تمر، ثم يلحق بنا في الإفطار. فجلسنا نتناول طعامنا، والنور بقربنا يصلي المغرب. وفجأة قال أحدنا:» الفول ده مسيخ!!» وإذا بالأخ النور وهو راكع يقول:»والله أنا طّعمته»!! فقلنا له إذا كان ذلك كذلك، تعال وكل معنا ثم نصلي سوياً!! وضحكنا وضحك النور وأنضم إلينا ثم أمّنا للصلاة بعد ذلك.

ومن طرائف الزملاء في الميز، ما كان يحدث مع الضيوف، والذين كانوا يزورونا من وقت لآخر. وبحمد الله لم يكن أحد من أفراد الميز بخيلاً، أو ضجرا بهؤلاء الضيوف، بل كان كل واحد منا يرحب كل الترحيب بضيف الآخر ويعتبره ضيفه، وبدون أية مبالغة كان الجميع- دون استثناء- يتمتعون بأخلاق عالية، وغاية في النبل، والشهامة. وعندما يصادف ذلك موعد الغداء، لم تكن المشكلة أبداً، في الأكل، فهو متوفر والحمد لله، بما في ذلك «التحلية» اللذيذة من الباسطة الفاخرة من «بابا كوستا» . إنما المشكلة كانت تكمن في «القيلولة» التي يحرص عليها الزملاء بعد تناول الغداء، ولا يفرطون فيها. و «السراير» محدودة، وهي لا تسع أصحاب الدار والضيوف!! إذاً ما هو الحل لعدم ضياع هذه «القيلولة»؟؟!! الحل يكمن في بيت شعر بسيط، كنا نستغله لضمان راحتنا! فكنا نقول لضيوفنا بعد تناول الغداء والتحلية والشاي، قال الشاعر:

يا ضيفنا لو جئتنا لوجدتنا * * نحن الضيوف وأنت رب المنزل

ولأننا ضيوفكم يا أرباب المنزل الأعزاء، أسمحوا لنا أن نستلقي قليلاً على أسرتكم !! وننطلق إلى الأسرة لا نلوي على شيء!! وأعتقد هذا ما يعرف في علم البديع بحسن التخلص !! والله أعلم.

وأذكر أن الأخ محجوب كان «مهوساً» بالكرة، وكان مريخي الميول، وكثيراً ما يذهب لمشاهدة مباريات المريخ في الإستاد. وعلى الرغم من أنه رجل هادئ الطبع، وودود، ومسالم، ولا يؤذي نملة، إلا أنه لا يتورع في الخروج من هدوئه في سبيل الدفاع عن المريخ. أذكر أن أقنعني ذات مرة بأن أذهب معه لمشاهدة مباراة في إستاد الخرطوم بين المريخ وفريق آخر لا أتذكره الآن ؛ وأنفرد أحد المريخاب بالكرة وهو في طريقه إلى المرمي،

ومحجوب، وقف على قدميه، وهو يشجع بحرارة، ويقول «شوط. شوط. دّخل الكرة» فما كان من أحد المشجعين من الجالسين بجواره، إلا أن قال له: «يدخلها وين يا طيرة؟؟» فجاءت إجابة محجوب قوية ومدوية: «جوه عينك!!» وعند ذلك وقف الرجل، القوي البنية، وأطبق بكلتا يديه على رقبة الأخ محجوب، الذي هو أقل من وزن الريشة، لو رأيته لأشفقت عليه من أن تذره الرياح!! وخشيت فعلاً أن تفيض روحه الطاهرة بين يدي ذلك المشجع المتعصب من الفريق المناوئ! وبعد لأي، وجهد، وبهدلة، ومساعدة من ذوي الخير، ويا أخ صلي على النبي، خّلصنا رقبة صديقنا محجوب من براثن ذلك الرجل، وغادرنا الإستاد ولم أعاود الدخول إليه مرة أخرى!

أما الأخ (......) فقد جاءني ذات يوم عائداً من الجامعة وهو في غاية الارتباك! فسألته عن سبب هذا الارتباك، فقال لي: «زارني أحد أصدقائي في المكتب وبعد أن تجاذبنا الحديث وشربنا الشاي، قال لي: «لدي موضوع أحب أن أفاتحك فيه»، فقلت له تفضل: «فذكر أنه يريد أن يتزوج أختي»، وعندها أصبت بالخجل، وبحرج عظيم، وارتباك، ولم استطع أن اجب الرجل بشيء، وساد بيننا صمت رهيب، ولبثت اعبث ببعض الأوراق والأقلام التي على مكتبي، حتى انصرف الرجل!! فقلت له هل لديك أي اعتراض على شخصية الرجل أو أخلاقه؟ فقل لي لا والله، هو صديقي وأخلاقه طيبة، ووضعه المادي جيد! قلت له إذاً لا داعي للحرج والخجل، فكل أخوات الرجال الأشاوس يتزوجهن الآخرون ! وأنت أيضاً سوف تتزوج أخت واحد « ابو شنب!»، فما الخجل؟؟!! و أخيرا اعترف لي انه نظر إلى الموضوع من زاوية ضيقة جدا!! وفي نهاية المطاف تم الموضوع بخير!!

أما الأخ عدلان الصديق، الرجل النزيه، « أبو سارة» ، الذي عمل طوال حياته في وزارة الإسكان، وأوشك أن يخرج من المولد دون حمص، ولم يحصل أخيراً على أكثر مما يستحق!! فهو نسيج وحده! ولم يدر بخلد أحد منا قط أن يطلب منه التوسط لديه في الحصول على قطعة أرض سكنية! كان ذلك في الوقت الذي يوزع فيه البعض من أقرانه قطع الأراضي كهدايا خاصة يمتلكونها! وأنا أقول ذلك ليس رجما بالغيب، بل عن تجربة حقيقية حدثت لي مع أحد أصدقائنا، من الذين تزاملنا في كلية الآداب، الأخ «م» والذي أصبح ضابطا في الحكومة المحلية في إحدى مدن العاصمة المثلثة بعد التخرج، وزرته

ذات مرة مع الأخ الطيب عبد المجيد، الذي أصبح فيما بعد المستشار القانوني في الهيئة العربية للاستثمار والإنماء الزراعي، في مكتبه، كما تقدم ذكره. فعرض علينا أن يمنحنا قطعتين سكنيتين من القطع التي بداخل درجه في إحدى المناطق بالعاصمة! وفرحت كثيرا بذلك، لكن الأخ الطيب لم يدع تلك الفرحة تدم طويلا، إذ رفض العرض بشدة، وشكره وانصرفنا مع حيرة وتعجب ذلك الأخ ضابط المجلس! وحيرتي أنا كذلك! وعندما خرجنا لمت الأخ الطيب على ضياع تلك الفرصة، لكن الأخ الطيب القانوني الضليع والنزيه قال لي: «لا تورط نفسك في المشاكل، فأن لم تأتك الآن ستلحق بك لاحقا، وحينها لا ينفع الندم!!».

وواصلنا السعي بين مكاتب الوزارة لاهثين لسنين عددا بعد التخرج، وحتى بعد العودة من البعثة، للحصول على قطعة أرض، وحتى بعد أن أحتل الأخ عدنان منصباً كبيراً في الوزارة، إلا أننا لا نمر على مكتبه قط من اجل هذا، بل فقط من اجل التحية، والمجاملة، وشرب كوب من شاي، لأننا ندري بالنتيجة سلفا إن فاتحناه في الأمر!

أما الأخ الفارس «الكلس» عبد الرحمن نصر، الذي لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً، والذي كان يعمل مديراً للإنتاج بمصنع ثلاجات ادميرال بالمنطقة الصناعية ببحري، فله قصة أخرى! فذات يوم بعد أن تناولنا الغداء، إذا بنا نسمع طرقا خفيفا على الباب الخارجي، وعندما فتحت الباب، وجدت رجلاً لا أعرفه يسأل عن الأخ عبد الرحمن. فأخبرت عبد الرحمن بذلك، وذهب وقابله، وتحادثا في همس لفترة، ثم ودع الرجل الأخ عبد الرحمن وأنصرف. لكني أرتبت في الأمر! فالرجل غريب علينا، والوقت غير مناسب للزيارة، والحديث الهامس آثار شكوكي أكثر! وسألت الأخ عبد الرحمن عن هذا الموضوع، لكنه هّون على وقال لي موضوع بسيط، ولكن تحت إصراري- وعبد الرحمن لا يخفي عني شيئا- اخبرني أن هذا الرجل عامل معهم في المصنع، وأخبره أن العمال اجتمعوا، وأجمعوا أمرهم على ضرب المهندسين عند انتهاء وردية مساء ذلك اليوم!! ويضم المصنع إلى جانب الأخ عبد الرحمن، الإخوة المهندسين: عمر بكري أبو حراز (رئيس الاتحاد الأسبق) وإسماعيل......، و محمد عبد الرحيم. وشارك هذا العامل الطيب في الاجتماع، لكن ضميره لم يسمح له بان يترك الأخ عبد الرحمن وزملاءه فريسة لهؤلاء المتآمرين، فجاء إليه، وترّجاه ألا يذهب في تلك الأمسية! وشكره الأخ عبد

الرحمن على شعوره الطيب. وعندما سألت الأخ عبد الرحمن عن رأيه، وماذا يريد أن يفعل، أصر على الذهاب مهما كانت النتائج! وبقدر ما حاولت إثناءه عن ذلك فشلت! وعند إصرار الأخ عبد الرحمن على الذهاب، قلت له :« إن أبيت إلا الذهاب، فسوف لن تذهب وحدك، وسوف أذهب معك وليحدث ما يحدث!» ووافق بعد لأي. وفعلاً ركبت معه سيارته «الفيات ٢٤ »، وخرجنا إلى المصنع في تمام الساعة الخامسة على ما أعتقد، عزلاً من كل سلاح، متوكلين فقط على الله! وعندما وصلنا إلى المصنع في المنطقة الصناعية في بحري ودخلنا المصنع، وجدنا العمال متجمهرين في مجموعات صغيرة ، ويتحدثون في صوت منخفض لكن كأنهم يتجادلون، وسلمنا عليهم، وبالكاد سمعنا منهم رداً، بينما نظر إلينا بعضهم نظرة تنم عن عدوانية ! وصعدنا إلى مكتب المهندسين في الدور الأول. وأثار تجمهر العمال بتلك الصورة المريبة استغراب بقية المهندسين! واخبرهم الأخ عبد الرحمن بالقصة التي نقلها إليه ذلك العامل! فما كان من الأخ المهندس عمر بكري أبو حراز، إلا أن اتصل مباشرة بشقيقه مرتضى ابو حراز الذي كان وقتها نقيباً –على ما اعتقد– بشرطة العاصمة، ونقل إليه الخبر. ولم يمض وقت طويل، وإلا بسيارات شرطة مكافحة الشغب المدججين بالعصي الغليظة تحيط بالمصنع من كل جانب! . وبهت العمال، وفشلت خطتهم، ولم يستطيعوا تنفيذ ما اجمعوا أمرهم عليه! وعلمت لاحقا من الأخ عبد الرحمن أن الإدارة أجرت بعد ذلك تحقيقا، واتخذت إجراءات تأديبية صارمة ضد رؤوس الفتنة. ومن يومها لم يعودوا للعلب بالنار، بعد أن علموا أن لحم المهندسين مر، ودون أكله خرط القتاد!!

بريد القراء:

أما إذا جئت إلى استعراض ما وصلني من القراء هذه المرة، سواء عن طريق الرسائل الالكترونية، أو الجوال، أو الرسائل القصيرة، لأصابكم العجب العجاب من هذا الشعب المطلع، النهم بالقراءة، وبجميع طبقاته، وليس قصرا على المثقفين!! فقد بلغت ما يربو على الثلاثين اتصالا خلال هذه الثلاثة أيام! وكالوا لي من المديح والثناء ما يفوق التصور! ولو أردت استعراض ما سمعت لاحتجت إلى حلقة كاملة! ولتقديري البالغ لهذا الإحساس الذي تشعر انه صادق وأمين ونابع من القلب، سوف لن أتجاهلهم، لكن أحاول استعراض تعليقاتهم في إيجاز على عدة حلقات، كلما سمح المجال بذلك إن شاء الله.

- اسمحوا لي قرائي الأعزاء بان أبدأ، نيابة عنكم، وبالأصالة عن نفسي ، بتقديم ضيفين عزيزين علي، وعلى كل السودانيين ، ألا وهما الأخوان السعوديان، عامر احمد الشهري من المجاردة في الجنوب، والذي يتابع صدى الذكريات، وهاتفني في يوم صدور الجريدة السبت، وقال كلاما عجبا عن السودان والسودانيين! وكال لهم من المديح والثناء ما تنوء بحمله العصبة من أولي العزم!! وكم ندمت أن لم أسجل ذلك الكلام الذي ينضح بالصدق والإخلاص، وتحس بأنه نابع عن القلب، لا رياء فيه ولا نفاق! واخبرني انه مسكون بحب السودان والسودانيين، وبمتابعة ما يكتبون في الصحف، وغيره من الكتابات، وسألني – لو تصدقوا –عن الشاعرين عالم عبالس محمد نور، ودكتور بشرى الفاضل! وكلفني حمل تحياته لهما! والأغرب من ذلك انه اخبرني بأنه يجمع بصفة خاصة المعلومات عن الصروح التعليمية السودانية العريقة، كبخت الرضا، وجامعة الخرطوم من قبل التوثيق! وان ما جمعه حتى الآن عن بخت الرضا ما فيه الكفاية، لكن يحتاج لمن يمده بالمزيد من تاريخ وإنشاء جامعة الخرطوم! هل تجيبون على ذلك قرائي الكرام؟ ولولا خشيتي من إعطائكم رقم جواله___ لأنه لن ينوم بعدها– لفعلت! اشكروا هذا الأخ الكريم على صفحات جرائدكم، وبادلوه جميلا بعرفان. والأخ السعودي الثاني هو سعود المنصور من الدمام، والذي لم يقرأ سوى المقال السابق:» إنما الدين المعاملة« عن طريق الأخ حسن كمال الدين، وذكر لي في الهاتف انه من شدة إعجابه سيحرص على اقتناء الحلقات القادمة إن شاء الله.

يوم فضحتني الصحافة!... وبالصور!!

كان من ضمن الأعمال التي نقوم بها في المتحف القومي السوداني مرافقة البعثات الأجنبية الكثيرة التي كانت تنقب عن الآثار في أجزاء مختلفة من السودان كل شتاء؛ وخاصة في شمال السودان، ومنها البعثة الفرنسية، والايطالية، والسويسرية، والبولندية، والألمانية. وأمضيت الموسم الأول مع البعثة البولندية التي كانت تنقب في منطقة الكدرو برئاسة البروفيسور ليك من متحف بوزناك ببولندا .

وكانت البعثة قد اتفقت مع سائق سيارة أجرة مهذب يدعى «عوض» لنقلنا إلى موقع الحفريات. وكان من المتفق عليه أن يمر علّي يومياً في الصباح الباكر في (الميز) في امتداد ناصر، وبعد أن يأخذني نمّر على أفراد البعثة التي استأجرت لها منزلا في الشعبية في بحري، ونذهب سوياً إلي الكدرو ، ونعود معاً في آخر النهار. وسار العمل سيراً حسناً ردحاً من الزمان . وفي ذات صباح جاءني عوض كعادته مبكرا للذهاب إلى الكدرو ، وكنت في غاية الإرهاق، فطلبت منه أن يعتذر لرئيس الفريق لتغيُبي في ذلك اليوم، ويخبره بأنني سوف أواصل في صبيحة اليوم التالي إن شاء الله .

و صحوت فجر اليوم التالي استعدادا للذهاب؛ و جاء السائق عوض في موعده، وتحركنا نحو موقع العمل، ووقفنا كالعادة عند (كشك) الجرائد في محطة البصات رقم ١٠ لشراء بعضاً منها . وأصابتني المفاجأة إذ وجدت في الصفحة الأولى لجريدة الأيام بالسطر العريض : « الأجانب ينقبون عن آثارنا ومصلحة الآثار تسجل غياباً تاماً »!! ثم العديد من الصور عن الموقع والبعثة البولندية ولقاء مع رئيس الفريق !

ولعنت هذه المصادفة العجيبة ، إذ أنني لم أغب طوال ما يقارب الخمسين يوماً ، سوى يوم واحد ، وفي هذا اليوم الواحد يأتي صحافيو الفضائح وكأنهم يتربصون بي ليفضحونني أمام الملأ وبهذه الطريقة البشعة والمدعمة بالصور !!

ولقد حزّ في نفسي أن يعتقد مدير الآثار الذي أوكل إليّ هذه المهمة لتمثيل المصلحة أنني لم أكن في مستوى المسؤولية، وأن يعتقد أن هذا ليس هو الغياب الأول لي، وتوقعت أن يعقد لي مجلس تأديب فوراً.

وفعلاً استدعاني المدير صبيحة اليوم التالي ، ولكنه لم يعتب علىّ بل قال لي مازحاً : « إن حظك أسود ، ألا تغب إلا في يوم يأتي فيه الصحفيون ؟ » وأخبرني أنني لازلت موضع ثقته

، ويريد أن لا تؤثر عليّ هذه الحادثة ، فقط طلب مني في حالة غيابي أن أخطر المصلحة حتى يتمكن من إرسال من ينوب عني. فشكرت المدير الأستاذ النوبي الشهم نجم الدين محمد شريف، الذي يعد من الكفاءات النادرة في مجال عمله – وسيأتي الحديث عنه في حلقة قادمة إن شاء الله- وعدت إلي موقع العمل .

وبعد انتهاء حفريات الكدرو أخبرني السيد مدير المتحف أن الموسم القادم سوف أذهب مع البروفيسور الأمريكي دزموند كلارك إلي منطقة النيل الأبيض وأواسط كردفان ، لأنه ينوي أن يطلب منه أن يقدم لي بعثة للتحضير في الجامعة التي يعمل فيها بأمريكا ، وهى جامعة بيركلي بكاليفورنيا .

وجاء الموسم ، وخرج كل زملائي مع البعثات الأجنبية وانتظرت مجيء البروفيسور كلارك ، ولكنه تأخر كثيراً عن موعده . وأثناء ذلك حضر البروفيسور الألماني هلموت زقرت الذي كان قد أمضي الموسم السابق في المسح الأثري في مديرية دارفور بمنطقة جبل مرة . وعند ذلك طلب مني المدير أن أرافقه هذه المرة إلي دارفور، وصرف النظر عن موضوع البروفيسور كلارك الذي وصل بعد يوم من تقديمي للبروفيسور زقرت!

حيث تمرح الأسود والنمور!!

وسافرت مع البروفيسور زقرت بالطائرة إلى نيالا، ثم ركبنا اللواري إلى زالنجى، ومنها استأجرنا «لاندروفر» صعدنا به إلى سلسلة جبال مرة الغربية، وأنزلنا متاعنا في استراحة قلول، المشهورة بشلالاتها ، حيث اتخذنا منها مقراً لنا ، ننطلق منها كل صباح إلي جهة ما لإجراء المسح الأثري .

وفي ذات ليلة بعد أن تناولنا عشاءنا المكون من الدجاج والفاكهة ، وبينما نحن نرتشف الشاي في استرخاء ، بدأنا نتجاذب أطراف الحديث مع البروفيسور زقرت في المواضيع العامة والخاصة. فسألني عن رأيي في مواصلة دراستي العليا في ألمانيا ، فأجبت بكل سرور بالطبع . وأخبرني أنه عندما يعود إلى هامبورج سوف يسعي جاهداً لكي أتحصل على منحة من الهيئة الألمانية للتبادل الأكاديمي (DAAD). ثم دخل كل منا إلي غرفته استعدادا للنوم . ولكن لم أنم تلك الليلة ، وسرحت بعيداً في محاولة لتصور الحياة في ألمانيا، وكيف سيكون المستقبل ، وإلي أي مدى يمكن أن أنجح في دراستي هناك رغم جهلي التام باللغة الألمانية ، وهل ..... وهل ...... وألف سؤال . وفجأة قطع عليّ حبل

تفكيري صوت عراك أو ارتطام جسم كبير بقرب نافذة غرفتي بصورة مزعجة ، وكانت النافذة مغلقة، وخشيت أن افتحها فأرى ما لا يسرني! وبعد لحظات سمعت طرقاً على الباب ، وكان الطارق هو البروفيسور زقرت الذي يسكن في الغرفة المجاورة . وأخبرني أنه سمع حركة غريبة ، وعندما أضاء (البطارية) رأي حيواناً غريباً لم يتبينه جيداً ، ولكنه ضخم ، فعليّ أن أحسن إغلاق النوافذ والباب ! وما كان ذلك بمجدٍ بالطبع لو أراد حيوان كذلك اقتحام الغرفة؛ لكن وبحمد الله لم يحدث شيء بعد ذلك . ولطالما تعرضنا مع البروفيسور زقرت إلي بعض المشاكل من قبل الحيوانات المتوحشة والمفترسة . ولقد كانت تفصلنا من منطقة الحفريات في « كالو »، التي تقع في منطقة غير مأهولة بالسكان، وسط الأحراش، والجبال، والغابات، عدة كيلومترات ، نقطعها يومياً ذهاباً وإياباً . ولم يكن طريقاً بالمعنى المعروف ، بل خطاً متعرجاً عرضه أقل من متر ، وسط الأعشاب الكثيفة، والطويلة، والحجارة ، ولا يكاد الشخص يبصر شيئاً من حوله أو أمامه لأكثر من بضعة أمتار، وتحس بالرهبة وأنت تسير فيه، ولا تستبعد في أي لحظة مقابلة حيوان مفترس أمامك وجهاً لوجه، لان المنطقة تعج بها، كما علمنا ذلك من السكان المحليين. وكنا نسمع كثيراً عن الأسود والنمور التي تمرح طليقة في هذه المنطقة . وقد تأكدنا من وجود النمر ذات ليلة ! فبينما كنا نجلس داخل الاستراحة ليلاً ، إذا بنمر ينقض على دجاجة كنا نحتفظ بها في طرف من الاستراحة ، وولى بها هارباً. ولا ادري ما هي العلاقة بينه وبين النمر الذي لم يأكلنا قبل حوالي الثمانية أعوام في نفس هذه المنطقة، وعلى بضعة أمتار من هذه الاستراحة، التي لم نتمكن من النزول فيها في عام ١٩٦٤ن لأنها كانت محجوزة؛ كما ورد ذلك في حلقة سابقة! ولكن لم نتشرف برؤية ملك الغابة عيانا بيانا، رغم أننا كنا قاب قوسين أو أدنى من ذلك! . فبينما كنا ذات صباح، ونحن في طريقنا إلي الحفريات ، وفي منتصف هذا الطريق المتعرج المتداخل ، قابلنا أثنين من الأطفال يسيران في الاتجاه العكسي لنا . وسلما علينا وأفسحا لنا الطريق ، ومضى كل إلى وجهته. ولكن بعد عدة أمتار توقف البروفيسور الذي كان يسير في المقدمة فجأة ودقق في الأرض ، وقال لي : « أنظر ! أنظر ! » وتملكنا الرعب مما رأينا ! فقد رأينا أثر أقدام الأسد فوق أثر أقدام الصغيرين الذين قابلناهما قبل ثوان معدودات! إذا لا بد وأن يكون الأسد قريباً جداً منا ، ولكن لا ندرى أهو أمامنا ، أم خلفنا ، على اليمين أو اليسار ، فكل ذلك أمر جائز! لان الحشائش الكثيفة من حولنا تحجب الرؤية. ولقد أصبنا

بالحيرة والخوف ، فلم تكن بندقية «الماغنام» التي احضرها البروفيسور من ألمانيا معه ، ولا أي نوع آخر من السلاح في تلك اللحظة . ويبدو أن الأسد كان جائعا، وإلا ما أقتفى أثر هذين الطفلين! وتدبرنا أمرنا سريعاً ماذا نفعل ؟ هل نواصل السير إلي الحفريات أم نعود أدراجنا إلي الاستراحة ؟ واستقر الرأي على أن نواصل السير لأننا لا نعرف أين يختبئ الأسد ، فقد يكون أمامنا أو خلفنا! وقبل أن نواصل سيرنا أخرج البروفيسور آلة التصوير والتقط صورة أو صورتين لهذا الأثر. وأذكر كيف أنه كان يتباهى عندما كان يعرض ذلك في شرائح في وقت لاحق في جامعة هامبورج في كثير من المناسبات ، كي يدلل على أنه توغل في مجاهل أفريقيا حيث الأسود والنمور تتجول حرة طليقة !

ومنذ ذلك اليوم قرر البرفيسور زقرت استئجار أربعة من سكان المنطقة المحليين الأشداء من حاملي الحراب كحرس خاص « بودي قارد» يكونون في حراستنا من وإلي منطقة الحفريات ، اثنان يسيران أمامنا واثنان من خلفنا .

وكان البروفيسور زقرت مولعا بصفة خاصة بالعثور على الكهوف ، لأنها تحتفظ بالآثار في حالة جيدة ، بما في ذلك الصور والنقوش التي على الجدران ، نظراً لان يد الإنسان لم تصل إلى الكثير منها بعد . وذات مرة علمنا بوجود كهف في أحد الأماكن النائية من بعض الناس فأخذنا دليلاً منهم وقصدنا الكهف وعثرنا عليه، وكان مدخله ضيقاً يكاد لا يسمح بدخول « كلب « ناهيك عن إنسان . ولكن لان البروفيسور يحب المغامرة ، أصر على الدخول زحفاً على بطنه . وبعد أن زحف وأصبح نصفه داخل الكهف ، والنصف الآخر خارجه علق تماما ، ولم يستطع التحرك لا إلى الإمام ولا إلى الخلف!! وبعد لأيي وجهد جهيد ، ومحاولات استمرت لفترة، وجذبه تدريجياً، وإبعاد جزء من الرمال، التي ضيقت المدخل بفعل التعرية، تمكنا من إخراجه من ذلك القبر؛ ومن يومها لم يسأل مرة أخرى عن الكهوف!

احذر أن يرميك جمل!!

ومن التجارب المضحكة التي أتذكرها في منطقة جبل مرة ، ما حدث لنا عندما أردنا أن نتحرك من منطقة (روكيرو) إلى نيالا . وكانت هناك سيارة تأتى مرة واحدة في الأسبوع بانتظام من نيالا طوال بقائنا في تلك المنطقة . وحددنا اليوم الذي نغادر فيه؛ ولسوء الحظ كان ذلك هو اليوم الوحيد الذي تغيبت فيه السيارة، تماما كذاك اليوم

الوحيد الذي تغيبت فيه عن حفريات الكدرو!! . وليس هناك من سبيل للبقاء لمدة أسبوع آخر في انتظارها ، لان البروفيسور مرتبط بمحاضرات في هامبورج. وليست هناك أية وسيلة أخرى يمكن أن تخرجنا من هذه المنطقة الجبلية الوعرة غير الجمال . التي يمكن أن تحملنا لأقرب محطة تأتى إليها سيارات من الفاشر وهى (دربات) التي تقع في مكان مرتفع جدا، وأكثر وعورة . وكان الطباخ الذي أخذناه من نيالا « أحمد » يتباهى بأنه سعيد بعدم حضور السيارة ، لأنه يعشق السفر بالجمال . أما البروفيسور وشخصي فلم تكن لنا قط سابق معرفة بهذه التجربة، وكنا مكرهين على ركوب الصعب! وحاول أحمد أن يطمئننا ويرينا عمليا كيف نركب الجمال دون أن نخشى السقوط . فالتففنا من حوله مع عدد آخر من العمال كانوا يعملون معنا في الحفريات . وامتطى صاحبنا ظهر الجمل، ووقف الجمل ولكنه أطاح بأحمد بعيداً حتى طارت عمامته وحذاؤه !! ولقد ضحك عليه العمال ، أما نحن فلم نشاركهم الضحك، إذ أشتد بنا الخوف ! فإذا كان هذا هو حال الخبير المجرب ، فكيف يكون حالنا ؟ ولكن لحسن الحظ مرت التجربة بسلام ، رغم رحلة دامت ساعات طويلة قد تصل إلى العشر، بمجموعة من ثمانية جمال تحملنا مع ثلاثة من العمال، والطباخ، وجمل لحمل الأمتعة، وآخر أصر البروفيسور أن نأخذه احتياطيا لاستخدامه إذا تعب احد الجمال، أو أصابه مكروه! وكنا نصعد التلال والجبال ونهبط الأودية، ونتأرجح ذات اليمين وذات اليسار ونحن في طريقنا إلى دربات.

وهناك مثل سوداني شهير يقول : فلان يتصرف» وكأنو جمل راميهو!» ويبدو أن الذي يقع من الجمل يأتي فعلاً بتصرفات غريبة ! أذكر بعد هذه الحادثة بسنوات أن جمعتنا الظروف بالأخ الشهم العميد بالجيش وقتها محمود توفيق في ألمانيا، والذي كان يمضي فترة التدريب للحصول على شهادة الأركان حرب، من الأكاديمية الألمانية المرموقة في حي بلاك نيزى الفخم في هامبورج؛ وجاءت مناسبة ذكر هذا المثل ، فحكى لنا الأخ محمود أنهم كانوا ذات مرة في جبيت وزارهم ضابط عظيم . كما يقول رجال القوات المسلحة . وكان لهم بعض الجمال التي يستعملونها في التنقل في تلك المنطقة النائية . والضابط الزائر من أبناء المدن وليست له خبرة بركوب الجمال ، وأصر على أن يركب جملاً ! ولسوء حظه اختار أكثر الجمال شراسة . ويقول الأخ محمود أنهم حاولوا جاهدين أن يثنوه، أو على اقل تقدير يختاروا له جملاً آخراً عندما رأوا إصراره على الركوب ، ولكن العناد تغلب وأصرّ على رأيه ، وركب الجمل الذي وقع اختياره عليه . وكان كما توقع

بقية الضباط أطاح به الجمل أرضاً ووقع وقعة مفزعة ! وبالطبع لم يستطع المتفرجون الضحك على الضابط العظيم ، وذهبوا إليه لكي يتأكدوا أنه بخير . فما كان منه إلا أن بدأ في سلامهم فرداً فرداً بالأحضان ، وبحرارة، وكأنه غائب عنهم سنين طويلة !!

فقراء لكن عزيزي النفس!!

ونزلنا في منتصف النهار في طرف إحدى القرى الصغيرة، التي تقع على سفح احد الجبال، كي نأخذ قسطاً من الراحة ، ونتناول شيئاً من الطعام . وبعد أن أنزلنا متاعنا، رأينا أن نخلد فترة للراحة، قبل أن نتناول طعامنا. وإذ بنا نفاجأ بعد مضي بعض الوقت بوصول مجموعة من نساء القرية ، أربع أو خمس، يصفقن ، ويجلسن أرضا لتحيتنا بأدب جم، وهن يحملن على رؤوسهن أوانٍ، كانت بداخلها- كما توقعنا عصيدة. وعلى الرغم من أن لدينا ما يكفي من الزاد الجاف إلا أننا حبذنا تناول تلك العصائد «السخنة» في ذلك الجو البارد ، والتي وزعناها بيننا وبين العمال . وبعد الانتهاء من تناول طعامنا اخرج البروفيسور زفرت قدراً من المال وأعطاني إياه لأعطه للنسوة كثمن لما اسماه بـ « round food» أي الطعام المدور! « فقلت له إن هذا «الراوند فود» لا يباع ولا يشترى هنا ، وإنما احضر لنا من قبل الضيافة ! ولكنه لم يصدقني، وأصر على رأيه. وعند إصراره رضخت، وأخذت منه المبلغ وقدمته لتلك النسوة الفقيرات البائسات. وكان كما توقعت انا، وليس هو! إذ رفضن في إباء وشمم اخذ ذلك المبلغ ، ولسان حالهن ــ رغم عدم إفصاحهن- : « نحن فقراء.. نعم.. لكننا لا نبيع الضيوف طعامنا!!» : وكنت في قرارة نفسي أتمنى أن يأخذن ذلك المبلغ الكبير، فانا اعلم بحاجتهن إليه، وهن في تلك الحالة من البؤس والشقاء! وهو يعني الكثير لهن، بينما لا يعني شيئا للبروفيسور. وتوصلنا إلى حل وسط بعد أن أقنعهن احد العمال الذي تولى أمر الترجمة بيننا، أن هذا المبلغ ليس ثمناً للطعام وإنما هو هدية من « الخواجة « ، فكما قبل هو هديتكم من الطعام، يطلب منكن قبول هديته! حينذاك قبلن به شاكرات! يا لروعة الأخلاق!! وتعجب البروفيسور جداً من أن يأتنا أناس بطعام مجاناً ، وليس بيننا وبينهم سابق معرفة، فقط لأننا نزلنا في طرف قريتهم! ويرفضون اخذ المقابل المادي الذين هم في أمس الحاجة إليه ! فذكرت له أن هذا هو حال السودانيين، وأكون كاذبا لو قلت في دارفور فقط، بل في كل أنحاء السودان ، الذي طفت الكثير من أجزائه ورأيت ذلك رؤية العين! قد يكونون

فقراء، لكن الكرم عندهم مقدس. فهؤلاء قوم جبلوا على الكرم. الذي ليس له لديهم معايير، فحتى الشح الذي توجبه الضرورة. لا يجب أن يقعد بهم عن إكرام الضيف.... فثقافتهم المترعة بذلك علمتهم أن «الجود بالموجود»! مهما كان الموجود قليلا! ولو كانت «نبقة» يتقاسمونها فيما بينهم! وقد يكون هناك فضل من طعام. لكنه بائس لا يشرف الضيف ، أو كما يقولون» ليس على قدر المقام»! أيضا ثقافتهم لا تجد لهم مخرجا عن التقاعس في هذه الحالة، لأنها علمتهم أن :» عيب الزاد.. ولا عيب سيدو!!» .. فإكرام الضيف مقدم على كل ما سواه،! وكلما زاد تعجب وإكبار البروفيسور زفرت لذلك . كلما رددت في داخلي في فخر واعتزاز:» هؤلاء هم عشيرتي!»

انتخابات أيام زمان!!

والخلافات مهما كان نوعها، لا دخل لها كذلك في واجب إكرام الضيف! اذكر في منتصف الستينات، حينما كنا معلمين في المدارس الابتدائية، كنت عضوا في لجنة ثلاثية، تضمني مع الأخ الصديق الأستاذ التوم محمد بدوي من الفاشر كعضوين، وبرئاسة الأخ الأستاذ علي أوهاج ناظر مدرسة الفاشر الغربية الأولية ، من شرق السودان رئيسا؛ وكنا مشرفين على الانتخابات التي أعقبت ثورة أكتوبر في إحدى دوائر شمال دارفور، كتم الشرقية. وطفنا بمراكز الاقتراع، مثل الصياح، ومدو، والقرى المجاورة، إلى أن حللنا ذات يوم في مليط، تلك الواحة الخضراء التي قال فيها الشاعر السوداني العظيم محمد سعيد العباسي قصيدته المشهورة « مليط»، وجاء في مطلعها:

حياك مليط صوب العارض الغادي ** وجـاد واديك ذا الجنات مـن واد
فكم جلوت لنا من منظر عجب ** يشجي الخليّ ويروي غلة الصادي

وهي موطن المرشحين وقتها، رجل الأعمال الأستاذ مصطفى موسى، مرشح الحزب الوطني الاتحادي، و الأستاذ ناظر الأولية ، وأستاذي في الفاشر الأولية المزدوجة سابقا ، آدم اسحق، مرشحا عن حزب الأمة. واستمر الاقتراع ، حتى إذا انتصف النهار، وصلتنا صينية طعام كبيرة، يحملها اثنان، وضعاها بقربنا داخل مركز الاقتراع؛ والروائح المنبعثة منها تنبيك عن ما بداخلها من جيد طعام أهل دارفور، ومن بينه « دجاج دارفور «المكرفس» المشهور ولا شك! وعلمنا أنها جاءت من قبل السيد مرشح الحزب الوطني الاتحادي. وحين حان موعد الغداء، طلب رئيس لجنة الانتخابات الأستاذ علي

أوهاج، من المرشحين وأعوانهما الخروج برهة، لأنه يريد الاجتماع بنا أعضاء اللجنة، وقوة الحراسة التي كانت مكونة من ثلاثة من جنود القوات السودانية البواسل، والذين قدموا من سلاح المدفعية من عطبره لدعم القوات التي تقوم بحفظ صناديق الانتخابات في مديرية دارفور، بقيادة الرجل المهذب الشاويش عوض. وعندما أصبحنا لوحدنا، اخبرنا الأخ الأستاذ أوهاج، انه مثلنا يتوق للانقضاض على هذه الصينية ، لأنه لا وجه مقارنة بينها وبين البديل الذي يمثله غداؤنا المتواضع من النواشف! لكن موقفنا كلجنة انتخابات تتطلب منا الحياد، حتى لا نعدلي مجالا لأحد كي يشك في نزاهتنا، و يتهمنا بأننا قبلنا هدية___ أيًا كان نوعها- من مرشح دون الآخر! واعتذر لنا ذلك الهدندوي السوداني الأصيل، من أن يكون قد حرمنا من تناول ذلك الطعام الدسم ونحن جوعى! إلا أننا وافقناه على صواب رأيه في ما ذهب إليه. ثم طلب من احد الجنود أن يطلب من المرشحين وأعوانهما الحضور. وعند عودتهما، شكر الأستاذ أوهاج مرشح الحزب الوطني الاتحادي على شعوره الطيب، لكنه اعتذر له بلطف من أن موقفنا كلجنة محايدة لا يسمح لنا بتناول ذلك الطعام!! وقبل أن يجيب مرشح الحزب الوطني الاتحادي، انبرى مرشح حزب الأمة، مقسما علينا بأغلظ الإيمان إلا أن نتناول جميعا، بما فينا هو ذاك الغداء؛ وليس ذلك وحسب، بل إننا مدعوّن غدا على الغداء على مائدته، حيثما كان موقع مركز الانتخابات!! ثم أضاف الرجل:» نحن نكبر فيكم تقديركم لهذه المسؤولية، ولحرصكم على الحياد. لكننا قبل هذا وذاك، وفي المقام الأول سودانيون، فرئيس اللجنة، والجنود ضيوف علينا في دارفور أولا، ثم في مليط ثانيا؛ وعضوا اللجنة ضيفان علينا كذلك في مليط، لأنهما من الفاشر، وأظنكم توافقونني على أن إكرام الضيف يعلو على أية قوانين أخرى انتخابية كانت أو سواها!!!؟؟» وحمدنا الله كثيرا على هذه الأخلاق السودانية السمحة، التي لم تدع مجالا لذلك الدجاج «المكرفس» ، وتلك اللحوم، والادامات، والكنافة، كي تفلت من بين أيدينا، بل ضمنت لنا الغداء في قرية بعيدة من مليط في اليوم التالي، كان شواءاً و«مناصيص» على الطبيعة؛ حيث كّلف مرشح حزب الأمة في وقت مبكر، من يقوم بذبح خروف وتجهيز الغداء في مركز التصويت الريفي الذي حللنا به صبيحة اليوم الثاني!!

كان ذلك- إخوتي الكرام- في وقت لم يدر بخلد الناس أن يكتبوا على صفحات جرائدهم، جهارا نهارا، محذرين من التزوير في الانتخابات، ومعبرين عن خشيتهم من انعدام

الشفافية فيها!! أنسير نحن إلى الإمام أم نتراجع إلى الوراء؟؟!! لأستاذي الجليل آدم اسحق وللسيد مصطفى موسى، كل التقدير والاحترام.

ووصلنا إلى دربات بعد رحلة مضنية، وأخذنا منها السيارة إلى الفاشر هذه المرة، حيث أخذنا طائرة الخطوط الجوية السودانية إلى الخرطوم.

لكنني وجدت العذر كل العذر، لعدم تفهم البروفيسور زقرت لمثل هذه التصرفات «الكرمية» في أول شهر وصلت فيه إلى ألمانيا! اذكر انه أثناء كورس اللغة في بوبارت، كنا نتناول في الفسحة الشاي، والقهوة، من كافتيريا داخل المعهد. نصطف طلبة، وطالبات، وأساتذة من اجل ذلك. وفي ذات مرة بعد أن أخذت طلبي. حانت مني التفاتة إلى الوراء. فرأيت أستاذي في الفصل، الهر(السيد) قريل يقف خلفي مباشرة وسمعته يطلب قهوة، وقبل أن أتحرك أخرجت ماركا أو ماركين، لا اذكر، وهو مبلغ زهيد. ودفعتهما للبائعة ثمنا لما طلبه أستاذي. لكن الأستاذ رفض دعوتي بشدة؛ وليته اكتفى بالرفض فقط، بل إعطاني درسا في الاقتصاد؛ إذ اخذ الماركين واعطاني إياهما قائلا لي: « يمكنك إضافة مارك آخر على هذا المبلغ، وتحصل بذلك في آخر النهار على وجبة غداء محترمة! فانا لدي ما ادفعه ثمنا لقهوتي!» فأخذت نقودي، وشكرته على « توجيهاته» التي لا أظنها تختلف كثيرا عن توجيهات الرئيس نميري للفريق الطبي!! لكن إحقاقا للحق، وجدت بعد ذلك من الألمان، ما يمكن أن أصفه بالكرم، مثل صديقي مفتش الآثار الهر آوست؛ وحتى البروفيسور زيقرت نفسه بعد أن توالت زياراته للسودان، وإصابته العدوى، إذ يبدو انه انطبق عليه المثل السوداني:» من عاشر قوما أربعين يوما صار منهم» وسيأتي الحديث عن ذلك في وقت لاحق إن شاء الله.

رسائل القراء:

- كإتمام لموضوع الأخ النور كمال الدين والأخ إسماعيل الذي ورد في مقال:» الدين المعاملة»، والذي جعلت أعين الكثيرين تدمع- كما ذكروا ذلك حرفيا والله___ فهذا شعب قلبه مفعم بالإيمان، فلا ترهقوه حفظكم الله! أقول لهم إن الأخ العزيز حسن كمال الدين ابو صباح، أعطاني الاسم الكامل للأخ إسماعيل، فهو البروفيسور إسماعيل حسن حسين مدير جامعة الجزيرة الحالي، والذي وقف ذلك الموقف المشرف فيما يتعلق بتمديد سن المعاش للأساتذة في الجامعات السودانية، لو تابعتم ذلك على صفحات

الجرائد! والأخ الدكتور النور كمال الدين ابو صباح، كما رأيتم في صدر المقال السابق، أصبح نائبا لمدير جامعة الجزيرة، أي ملازما لرفيقه، حتى بعد قرابة أربعين سنة من العشرة! والرجلان أهل لذلك، ولتهنأ جامعة الجزيرة بان على رأس إدارتها رجلان وليس ككل الرجال!

- وكان فخري الأكبر ليس برسالة بروفيسور، أو دكتور، أو أستاذ! فقد يكون هذا شيء متوقع، لكن عندما يتصل بك شخص قائلا» أنا ليس جامعي أو مثقف، وتعليمي على قدر حالي، واعمل ميكانيكيا للسيارات، لكن أتابع» صدى الذكريات»، لأنها « تشدني ــــ كما قالها حرفيا» !! كيف يكون شعورك؟؟ وهذا ليس تقليل من شانه، بل اعتبره تعلية لمقامه، فأي من الميكانكيين في بلاد الله الواسعة يهتم بقراءة ومتابعة ما ينشر في صحف بلاده!! لك التحية والاعزار أخي عبد الرحمن هارون احمد من الجزيرة أبا بالرياض، ويشرفني التعرف عليك، والتحية والإعزاز بالمثل للأخ سيف الدين الخير ساتي من أبناء حنتوب الجميلة، وصاحب ورشة لتصليح السيارات في جدة، الذي عبر لي عن نفس الشعور.

- واعتذر هذه المرة أيضا للسواد الأعظم من القراء، الذين اتصلوا بي أو كتبوا إليّ، والذين بلغوا الخمسين حتى الآن! لكني أعدهم بأنني سوف اخصص جزءا كبيرا من الحلقة القادمة إن شاء الله لاستعراض ما وصلني منهم ، وان لم يسع المجال، سيتم الرد على البقية الباقية ، ولو إلى حين؛ وأقول لهم حتى ذلك الحين» القومة ليكم أيها القراء الكرام!!»، فقد طوقتم عنقي بجميل قولكم، وصادق تعبيركم، ونقاء سريرتكم، وبساطة عباراتكم، وأخجلتم تواضعي!!

ليلى المريضة بالعراق!

علمتني التجارب أننا نظلم الناس كثيراً عندما نحكم عليهم بمعايير بيئتنا وظروفنا دون الاعتبار لظروفهم وبيئتهم التي يعيشون فيها. فلقد كنا نستعين في كل منطقة نحل بها في منطقة جبل مرة، بشيخ القرية ، أو دليل كي يقودنا إلي المواقع الأثرية النائية وسط الجبال والأحراش . ويأتي إلينا الرجل في المعسكر ، ويتم الاتفاق على المكافأة وعلى مواعيد الحضور ، وكانت عملية مضنية ، فأغلب سكان هذه المناطق لا يتحدثون اللغة العربية في ذلك الوقت ، بل يتكلمون بلغة الفور التي أجهلها كل الجهل . فتتم الترجمة أولاً من لغة الفور إلي اللغة العربية، ثم أترجمها إلي اللغة الإنجليزية للبروفيسور وبالعكس . وعادة يكون الخروج من المعسكر مبكراً حتى لا تشتد الحرارة علينا ونحن في الطريق . فيتفق البروفيسور مع الدليل أو الشيخ على الحضور. مثلاً . الساعة السادسة صباحاً ، ويوافق المخاطب على ذلك ، وأنا أعلم علم اليقين أنه لن يأتي لا في تمام الساعة السادسة ولا السابعة ، فهو ليست لديه ساعة أولا ، والوقت لديه متسع ثانيا . ولكن البروفيسور يصحو مبكراً منذ الخامسة، ويستعد ويأخذ كل معداته الخاصة، وينظر إلي الساعة بين الحين والآخر منتظراً حلول الساعة السادسة، وتأتى الساعة السادسة ولا يأتي الرجل ، ويمضي ربع ساعة ويسألني البروفيسور في استغراب: «لماذا تأخر الدليل ؟» فأقول له : « ليس المسؤول عنه بأعلم من السائل! « . ويمضي الوقت وتصل الساعة إلي السابعة ولا أثر للدليل . وهنا يثور البروفيسور ثورة عارمة وينطق بالكثير من الكلمات الألمانية التي لا أفهمها . وأذكر أن هناك كلمة معينة يرددها بكثرة عندما ينفعل ، وكنت أظنها من ألفاظ السباب المقذعة. وعندما تعلمت اللغة الألمانية كنت أتوق لمعرفتها ، وهى كلمة (MENSCH منش) . وخاب ظني! فلم تكن من ألفاظ الشتم أو السب ، بل تعنى فقط (آدمى أو إنسان)!! .

وكان مما يزيد من غضب البروفيسور أن يرانا نحن السودانيين غير منزعجين لهذا التأخير ، بينما نحن نعجب من ثورته وانفعاله لذلك. وكان يعجب أشد العجب حين يراني مستلقياً على سريري داخل خيمتي في الأمسيات استمع لبرنامج «ما يطلبه المستمعون» على مدار ساعة كاملة ، «دون أن أفعل شيئاً مفيداً» كما يقول !

ولكن عذرته كل العذر عندما عشت في ألمانيا وعلمت بأهمية الوقت الذي نذبحه ذبحاً

عندنا في الشرق.

وبعد أن ذهبت إلى ألمانيا وتوطدت بيننا أواصر المعرفة والصداقة أكثر مع البروفيسور ، رأيت أن أحكي له نكتة عن الزمن المهدور عندنا في السودان . فذكرت له النكتة السودانية المشهورة، أن ثلاثة من الأصدقاء تواعدوا على اللقاء في مكان ما في تمام الساعة السادسة مساء ، وحضر اثنان منهم الساعة السابعة وبعد أن تأكدا من عدم حضور الثالث ، سأل أحدهما الآخر : « ماذا نفعل ؟ « فأجاب صاحبه : « ننتظر حتى تمام الثامنة ، فإن لم يحضر في التاسعة نغادر المكان في العاشرة!! « وضحك البروفيسور حتى بانت نواجذه .

وعدنا مع البروفيسور إلي الخرطوم بعد انتهاء الموسم ، وواصل هو سفره إلي ألمانيا، وبقيت سنة كاملة من بعد ، أكملت الاستعدادات الخاصة بالبعثة بعد الكثير من الإجراءات المعقدة بين إدارة البعثات، والسفارة الألمانية، ومصلحة الآثار . وأخيراً تم كل شيء على ما يرام، وحدد سفرنا ليلة الاثنين الموافق ٧/١٠/١٩٧٤م ، وأقام لي الزملاء في الميز حفل وداع وعشاء فاخر في فندق صحارى بالخرطوم ، ثم ذهبنا مباشرة من الفندق إلى المطار حيث لحقت ببقية الأخوة الذين قُبلوا كذلك في منح دراسية لتلك السنة في ألمانيا ؛ وهم الأخ حسن منقورى دفعتي بكلية الآداب بجامعة الخرطوم ومن أبناء السوكي ، والأخ محمود خليل، الذي ليست لي به معرفة من قبل، ومن شمال السودان، مبعوث وزارة الزراعة، وخريج جامعة الإسكندرية ، والأخوان المهندسان محمد عبد الرافع،(لا ادري للأسف أين هو الآن) والأخ الطيب إبراهيم الشوش، مدير جامعة الأزهري حاليا ؛ وكلاهما من جامعة الخرطوم كذلك. أما الأخ السادس فهو الدكتور عباس الشيخ الذي تخرج من جامعة هامبورج، ولم يأت معنا لدراسة اللغة لأنه يجيدها بحكم دراسته الجامعية في ألمانيا، والتقينا به بعد ذهابنا إلي هامبورج، والذي يعمل حاليا استشاريا للأمراض الجلدية والتناسلية بمستشفى بخش بجدة. وودعت زملاء الميز ، وبعض الأصدقاء والأقارب وداعاً حاراً ، وكذلك مندوب السفارة الألمانية الذي جلس معنا حتى غادرنا الصالة الداخلية متوجهين إلي الطائرة.

ما أروع بلاد ما بين الرافدين!!

في سينيته المشهورة والرائعة التي مطلعها:

صنت نفسي عما يدّنس نفسي ** وترّفعت عن جدا كل جبس

يقول البحتري :

ذكرتنيهمو الخطوب التوالي ** ولقد تذكر الخطوب وتنسى

هذه الخطوب التي عصفت ، ولا تزال تعصف بالعراق هذه الأيام . وهذه الصورة المأساوية التي اعدم بها الرئيس السابق صدام حسين ، ومن باب « اذكروا محاسن موتاكم»، خاصة عندما يتم ذلك بكل هذا التشنيع، والتشفي، وشماتة الأعداء، التي استعاذ منها رسولنا الكريم؛ أعادتني إلى أيام خلت قضيناها في العراق في أواخر عام ١٩٧٩م . حيث قدمنا مجموعة كبيرة تعدت المئات من الطلبة والطالبات العرب الدارسين في أوروبا، وأمريكا إلى بغداد عاصمة الرشيد ، ومنارة المجد التليد، بدعوة من الرئيس صدام حسين لقضاء أعياد رأس السنة (١٩٧٩ / ١٩٨٠) في العراق ، ولمشاهدة التقدم الذي تم إحرازه في العراق في مختلف الميادين . وأرسلت الحكومة العراقية الطائرات العراقية الخاصة إلى العديد من العواصم الأوروبية ، والى أمريكا ، لنقل الطلاب . وتجمعنا – الطلبة والطالبات ، المتزوجين والعزاب من كل ألمانيا في مطار فرانكفورت الدولي حيث حملنا الطائر الضخم الميمون إلى مطار بغداد الدولي . وفي المطار قوبلنا بالبشر والترحاب من جميع موظفي المطار . واذكر أن العلاقات بين صدام والنميري كانت متوترة في ذلك الوقت ، فاقترح مسئولو الجمارك علينا نحن السودانيين- (كنت أنا وزوجتي فقط من ألمانيا في تلك الرحلة القادمة من فرانكفورت) وقابلنا فيما بعد الأخ الدكتور بشير عمر المستشار بالبنك الإسلامي بجدة ، ووزير المالية في حكومة السيد الصادق الأخيرة، الذي قدم من بريطانيا حيث كان يحضر للدكتوراه- أن لا تضع الأختام العراقية على جوازاتنا خشية أن يسبب ذلك حرجا لنا عند عودتنا إلى السودان ! وكانت تلك أول مرة ندخل بلداً دون أن يتم التأشير على جوازاتنا !

ومن الطرائف التي اذكرها عند وصولنا إلى مطار بغداد الدولي، أن ساد الهرج والمرج ، واختلط الحابل بالنابل. وجرى البعض ليقف في الصف الأمامي حتى ينهي إجراءات سفره مبكراً. وحدث بعض التدافع ، وبعض الملاسنة . فما كان من احد الطلبة إلا أن صفق بيده طالباً الهدوء لسماع خبر مهم ! وعندما هدأ الضجيج قليلاً قال:« قبل سويعات قليلة كنا نحن أنفسنا في مطار فرانكفورت، وكنا في غاية الهدوء والنظام، وآخر تصرف

حضاري حتى ركوب الطائرة؛ فما الذي حدث الآن ؟ أم انتابكم الشعور بعودتكم إلى حظائركم، فتغلبت عليكم العقلية العربية : اخجلوا قليلاً من أنفسكم!! «.

والتقينا في بغداد ببعض السودانيين المستقرين هناك ، اذكر من بينهم المرحوم الشاعر عثمان خالد ، شاعر « ياحليلو قال ناوي السفر» ، وبعض الطلبة والطالبات من السودانيين، الدارسين هناك. وأعد لنا برنامج حافل زرنا فيه جميع أنحاء العراق ، ومعالمه الأثرية والسياحية ، وكنا نتحرك في موكب مهيب يتكون من حوالي ٣٠ حافلة كبيرة تتقدمها سيارات ومواتر الشرطة تفسح لنا الطريق . وأنزلنا في فنادق خمس نجوم في منتهى الفخامة ، ولازال فندق الحبانية بالذات، المقام على ضفاف بحيرة الحبانية ، المتفرعة من نهر الفرات عالقاً بذهني لأبهته وروعته!

وحين نحل في موقع الزيارة ، ويحين وقت الطعام ، نجد الموائد قد مدت على مدى البصر ، غالبا على ضفاف دجلة أو والفرات- إن كان موقع الزيارة قريب منهما - حافلة بالخراف المحشوة بكل ما لذ وطاب ، واللحوم البيضاء ، والسلطات ، أما التحلية، بما في ذلك المني والسلوى! فحدث ولا حرج ! لقد كان شيئاً يخلب الألباب! وعند وصولنا جاءنا مندوب حزب البعث ، الذي نقل لنا تحيات صدام ، وصرف لكل واحد منا ٧٥ ديناراً عراقياً هدية ؛ في وقت كان فيه الدينار العراقي يقارب العشرة دولارات ! ولم نكن نعرف في أي شيء نحتاج إلى هذا المبلغ ؟ فالتذاكر ، والسكن ، والأكل ، والتنقل كله كان مجاناً . والأغرب من ذلك انه لم يمض وقت طويل ، وإلا ونفح كل واحد وواحدة منا مرة أخرى نفس المبلغ ، لان الرئيس شعر أننا « فلسنا « كما نقل ألينا مندوب الحزب ! وحصلت بذلك أنا وزوجتي على مبلغ ٣٠٠ دينار ! أنفقت نصيبي وجزءاً كبيراً من نصيبها في شراء الكتب من مكتبات بغداد العامرة في شارع المتنبي . (وأخشى أن يشي بنا احدهم لدى الأمريكان، فيعتبرونا ضمن الذين أكلوا أموال العراق، ويعقدوا لنا محاكمة عاجلة!!)

ووجدنا العراق العظيم وقد قطع شأوا بعيداً في التقدم ، زراعياً وصناعياً ، وثقافياً ، ووجدنا العراقيين قوماً في منتهى الشهامة والكرم والطيبة . أما الناحية الأمنية، فذلك أمر آخر!

أذكر أننا كنا نمر في ذلك الموكب المهيب ذات يوم أمام القصر الجمهوري ؛ وإذا بأحد الطلبة من البص الذي كنا فيه يخرج كاميراته ويأخذ صورة من على البعد للقصر .

و ما هي إلا لحظات ، وسيارات الحرس المضيئة بالأنوار والإنذارات تنطلق من ورائنا ، وتوقف كل البصات . ونزل ضابط من إحدى السيارات . ولم يدخل أي بص من حوالي الثلاثين بصاً ، غير البص الذي كنا فيه . ولم يسأل أحدا من هو الذي اخذ الصورة ، بل ذهب مباشرة إلى الطالب الذي اخذ الصورة ، وطلب منه تسليمه الفيلم الذي بداخل الكاميرا ، واعتذر لنا في لطف ، بعد أن اخبرنا أنهم في الحالات العادية يدمرون الكاميرا ، ويعتقلون المصور، وأضاف:» لكننا نكتفي فقط بمصادرة الفلم هذه المرة، لأنكم ضيوفنا». وودعنا وانصرف ، وواصلنا سيرنا .

ولم أر دقة أمنية كهذه إلا في برلين الشرقية أيام حكم الشيوعيين! فقد قمنا مجموعة من السودانيين المقيمين في ألمانيا الغربية، بزيارة برلين الشرقية. عاصمة ألمانيا الديمقراطية آنذاك، وصعدنا إلى برج التلفزيون الدائري، وقضينا وقتاً ممتعاً . ونظراً لان الإقبال على هذا المعلم السياحي كان كبيراً ، وهو دائماً مكتظ بالرواد . لذا لا يسمح بالبقاء طويلاً لرواد البرج بالجلوس طويلاً ، ولابد لهم من إخلاء مقاعدهم لآخرين ينتظرون في الأسفل . فجاء إلينا احد المسؤولين، ونبهنا إلى انقضاء الوقت المسموح لنا به ، واعتقد انه كانت ساعة . فجادله الأخ حسن منقوري أننا لم نكمل الساعة بعد . فما كان منه إلا أن قال لنا: « انتم جلستم هنا في تمام الساعة الثامنة وسبعة عشر دقيقة بالتمام والكمال ، وانظروا الآن إلى ساعاتكم فقد تعديتم موعدكم المقرر بدقيقتين!! » فما كان من الأخ حسن إلا أن قال لنا:» لنخرج سريعا من هذا المكان الذي يعدون فيه بقائنا بالدقيقة ، قبل أن يخبرونا كم عدد الأنفاس التي أخذناها!!»

وفي آخر يوم لزيارتنا إلى العراق ، أقيمت ليلة ترفيهية بهيجة لوداعنا في المسرح القومي . وإذا بنا نفاجأ بقدوم السيد الرئيس صدام حسين ! وقبل أن يجلس ،وقف طويلاً يرد على هتافات الطلبة والطالبات» وجلس في الصف الأمامي ، على بعد أقل من مترين من حيث أجلس، وكنت اجلس في الصف الثالث، خلف حراسه مباشرة! . واذكر جيداً أنه قبيل أن يجلس، وبعد أن هدأ الهتاف، التفت إلينا والى من حواليه قائلاً بصوت سمعته بكل وضوح قائلا: « لم أركم تقدموا شيئا للضيوف! أكرموا الإخوان! « يا ترى مَن مِن أولئك الحاضرين كان يتصور أن ينتهي صدام بعد كل ذلك المجد والعز، والسؤدد، ، هذه

النهاية المأساوية!! حقا إنها الدنيا: « من سره زمن ساءته أزمان»!
ولشاعرنا الذي أراد مداواة ليلاه بالعراق والقائل:
يقولون ليلى بالعراق مريضة ×× فيا ليتني كنت الطبيب المداويا
أقول هل بوسعه إن كان عاش إلى زمننا هذا، أن يتصور كم ليلى وكم سعدى مريضة أو مثخنة بالجراح الآن بالعراق؟؟ وهل في وسع كل أطباء الدنيا مداوة جراح حرائر بلاد ما بين الرافدين!!!!؟؟

بريد وطرائف القراء

- اتصل بي للصدفة الغريبة، البروفيسور محمود موسى محمود- وهو الرجل الذي طارت «طاسة» سيارته- مع الاعتذار لصديقنا الدكتور بشرى الفاضل وعصافير بنته التي طارت!- وورد ذكره في حلقة سابقة، من مكة بعد أن حضر من السودان لأداء فريضة الحج، والذي لم أقابله لفترة طويلة جدا، وأثنى ثناء عطرا على الحلقة الوحيدة التي عثر عليها، والخاصة بالجامعة نبع الحنان والمودة، وزوته بالحلقة التي ورد ذكره فيها عندما وصل إلى جدة، وذكر أن سيارته كانت كرونة وليست كرولة.

- واتصل بي الأخ الصديق العزيز ابوبكر الصديق محمد منصور من البنك الإسلامي للتنمية بجدة، وذكر أن إيجار ذلك الميز الفخم في امتداد ناصر في أواسط السبعينات، من بعدنا كان ٣٦ جنيها في الشهر، بزيادة ٦ جنيهات مما كنا ندفع، وان نصيب الميز للفرد كان لا يتعدى ١٢ جنيها في عهدهم، وكان يقل عن العشرة في زمننا! والأغرب من ذلك اذكر عندما حدثت مشكلة بين المقاول، وصاحب البيت، عرض للبيع بمبلغ ٣٠٠٠ الف جنيه سوداني فقط!! ولو أضفت الآن- قارئ العزيز- ٥ أصفار إلى ذلك المبلغ، اشك في انك تستطيع الحصول على ذلك المنزل! اعتقد أن على علماء الاقتصاد أن يخترعوا مصطلحا جديدا لهذه الحالة يسمونه: « تضخم التضخم!!». كما صحح مشكورا اسم:» الهيئة العربية للاستثمار والإنماء الزراعي» الذي ذكرته خطأ، وان جد الأخ عدلان هو «الخليفة» وليس الشريف. له الشكر والتقدير لهذا الاهتمام.
- ومن محاسن هذه الذكريات أن جعلتني استمع لصوت أصدقاء من قدماء المحاربين الذين لم استمع لصوتهم لأكثر من ربع قرن من الزمان، كالأخ الأستاذ الدكتور

اسماعيل الشايب من أبناء دلامي بجبال النوبة. الذي تزاملنا معا في جامعة الخرطوم. والأستاذ حاليا بكلية الزراعة بجامعة الملك سعود بالرياض، ومن النشطين في موضوع جامعة المغتربين، وفقه الله وصحبه الكرام.

- واتصل بي الأخ صلاح الدين حسين صالح من الرياض . والذي لم أتشرف بعد بمعرفته، مبديا إعجابه بما اكتب، وهو قاريء نهم، تعّرف كذلك على الأخ عبد الله علقم عن طريق كتاباته في الخرطوم. ولما علمت انه من الرباطاب. طلبت منه نكتة. إلا انه بخل بها عليّ! يعني» طالبينك نكتة.. طالبينك نكتة يا صلاح!» شكري وتحياتي

- وشكري وتقديري كذلك للأخ محجوب محمد صالح. من خريجي جامعة الخرطوم عام ١٩٧٩ ، من الدمام، وهو من الحريصين على متابعة هذه المقالات، له كل الشكر والتقدير.

ولفت نظري تفاوت أعمار القراء الذين اتصلوا بي. فمنهم من أبناء جيلي. وأصغرهم من مواليد ١٩٧٤م، وكذلك اختلاف مواطنهم في السودان، والتي شملت معظم أنحاء السودان، ومن خارج السعودية من ابو ظبي، الأخت زوجة الأخ الفرضي – رحمه الله – شاكرة ما قلته في حق زوجها.

وأود أن أشير بصفة خاصة إلى الذين تأثروا غاية التأثر بقصة الأخ النور والأخ إسماعيل التي وردت في حلقة «إنما الدين المعاملة» وقد أدمعت أعينهم تأثراً. أذكر من هؤلاء الأخ خضر عبد الرازق آدم من أبناء شبشة الشيخ برير ، ويعمل بشركة هيرفي بالرياض، والذي يبدو من حديثه أنه رجل مثقف وواسع الإطلاع، وكثير الأسفار داخل السودان، ومن الذين حزنوا للحالة التي آلت إليها جامعة الخرطوم، وقال : إن الأخ النور والأخ إسماعيل يمثلان: « الدين يمشي على الأرض» ثم أقترح عند صدور صدى الذكريات في كتاب أن يسمي «ذكريات الزمن الجميل» كما هزته قصة النساء اللائي أكرمن البروفيسور زقرت في دارفور .وتقديري للأخ خضر الذي لم أتشرف بمعرفته حتى الآن، وشكري على استعداده لاستقبالي في مطار الرياض متى ما أصل إلى هناك.

- وتأثر بهذه القصة أيضاً الأخ الصديق/ عوض الطريفي من جدة وذكر أن الأخ النور كان زميلا له في مدرسة حنتوب، وسكنا معاً في داخلية «أبو عنجة» وحملني له تحياته.

- ثم هناك الأخ جمال الدين بابكر من أبناء العلياب ويعمل في الدمام، وذكر أن هذه

القصة أبكته.

- وكذلك من الذين «عّيطوا» من التقوى في حالات كثيرة، ولكن ليست على طريقة الممثل عادل أمام الساخرة في فلم» الكباب والإرهاب»، بل «عن جد» كما يقول الشوام: الأخ عزالدين أمين شريف من القنفذة، والذي كثيراً ما تغالبه الدموع في مواضيع أخرى كثيرة في صدى الذكريات، ثم ذكر أمراً لم أتعبينه بوضوح ألا هو اعابته عليّ وعلى السودانيين بصفة عامة «التواضع المبالغ فيه» مقارنة مع بقية الأمم من حولنا!

- وأيضاً بخصوص التواضع، تحدث الأخ محمد الحسن على الحاج من المحس من المنطقة الشرقية، ومن أبناء جيلنا وعمل لفترة طويلة في دارفور، ويتحدث بأسى بالغ عن الأحوال الآن في دارفور عندما يقارنها بذلك الزمن الطيب، حيث كانوا يجوبون الجنينة، ليلاً لا يسترعي انتباههم شي سوى حلقات القرآن المتناثرة، وعن طيبة الناس ورخاء المعيشة.

ثم وصفني بالتواضع، مستشهدا بصفة خاصة بقولي في أحدى المقالات،» أن الوالدة رحمها الله-تكون غائبة عن المنزل أثناء النهار لعملها في التجارة البسيطة لتساعدها في إعالة أبنائها اليتامى» وهو يقارن ذلك بقول من ذكر له هنا في السعودية قبل فترة أنه بصدد إرسال اسبيرات لسيارة والدته المرسيدس المتعطلة في الخرطوم!! أقول للأخ محمد الذي يتعجب أن يعترف إنسان -»في مكانتي كما يقول- بهذا!!» عن أية مكانة تتحدث أخي محمد ؟؟ وأين نحن من مكانة أعظم الخلق رسولنا الكريم عليه صلوات الله وسلامه، الذي عندما جاءه أحد الرجال في مكة، ولاحظ الرسول خيفة واضطراب الرجل وتهيبه في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فأراد أن يطمئنه ويزيل عنه الرهبة، فما كان منه إلا أن قال له: «إنما أنا أبن امرأة كانت تأكل القديد في مكة!!» أليس لنا في رسول الله أسوة حسنة أخي محمد ؟.

- من نوادر القراء، ذكر الابن يوسف مختار على من مواليد ١٩٧٤م ومن قرية قرب القطينة، ومعه حسن عبد الباقي من الدويم، أن المشكلة التي تواجههم هي أنهم مجموعة كبيرة يسكنون معاً ويشترون عدداً واحداً يوم السبت(دكتور الباقر يزعل منكم ياشباب!)، فمن هو الذي يقرأ أولاً وثانياً ..و.. الخ، قلت له ليقرأ أحدكم وتستمعون

إليه، قال لي: «لا كل واحد يريد أن يستمتع بمفرده». ويبدو انه يتمتع بقدر كبير من الظرف وخفة الدم ، وسألني في عفوية تامة: «هل حجيت السنة دي يا دكتور ؟» فأجبته بالنفي فقال: «الحمد لله أنا حجيت، وربنا قبل دعائي فلقد سألته تعالي أن أعثر على رقم هاتفك أو جوالك، وأول ما عدت إلى موقع عملي وجدت رقم جوالك منشوراً في الجريدة!!» أيه رأيك المرة الجاية تدعو لينا بحاجة أكبر شوية يا يوسف!! كل هذا ولم أتشرف بعد بلقائه، وفرحته بالعثور على رقم جوالي لا يقل عن فرحة الأخ محمد الحسن بذلك ،والذي ذكر انه لو كان في الفاشر أو الجنينة لذبح خروفاً ابتهاجا بحصوله على رقم جوالي، لتدني أسعار الخراف هناك، ده كان زمان يا شيخنا!! و ذكر كيف انه لا يستطيع الانتظار قليلا عندما تتأخر الجريدة يوم السبت، فيقود سيارته لمسافة ٢٩ كيلو مترا إلى مركز تجاري اكبر حتى يضمن الحصول على نسخة!

- ومن الذين يقرؤون الجريدة وهم مجموعة كذلك لسبب خاص « ما تخافو يا شباب.. سركم في بير!»، ويحتارون أيضاً في من يقرأ قبل الآخر، الأخوان التجاني المؤمن من مواطني النيل الأبيض، والرشيد سليمان من الهلالية وبعض من زملائهم في مهد الذهب، شكراً لكم على هذا الاهتمام.
- ومن الذين دمعت أعينهم كذلك الأخ عبد الرزاق محمد عبد الرحيم من أبناء دنقلا بجدة، والذي من شدة تأثره بهذا المقال، قرأه ليلاً، وصباحاً وقرر أن يأخذه مساءاً إلى دار الجمعية ليجعل الذين يجتمعون للعب الورق ويتشاجرون ويتناحرون، أن يتعظوا بهذه الأخلاق الإسلامية الرفيعة، وحمد الله على حصوله على رقم جوالي لأنني وفرت عليه مشوار الذهاب إلى مستشفي الجدعاني في حي غليل للحصول عليه من الدكتور فيصل. والأخ الميكانيكي عبد الرحمن هارون من الرياض الذي مر الحديث عنه في الحلقة الفائتة في بريد القراء سألني أن كنت يوم العيد في الرياض؟ لأنه رآني أقف مع مجموعة أمام أحد المحلات، ولما تمكن من إيقاف سيارته بعد مسافة، عاد ما شياً كي يسلم علّي، لكنه وجدنا قد تفرقنا، فقلت له «يخلق من الشبه أربعين» فأنا عيدت في جدة، لكن سلامك وصل!

شوية كلام في السياسة!!

قصدت من هذه الإحصائية البسيطة أن أزعم إن دل هذا على شيء فإنما يدل- حسب رأي المتواضع- على وحدة الوجدان القومي السوداني الذي شكلته وصهرته ثقافات، وموروثات، وقيم مشتركة، رغم التباعد المكاني، والزماني، والتشرذم السياسي. فعل الرغم من أن الجزء الأكبر من هذه الذكريات، وخاصة الأجزاء الأولى منها دارت في دار فور، إلا أن الذين أعجبوا بها، وتفاعلوا معها، كانوا على النقيض من ذلك تماماً، فأكثر من ٩٠٪ من الذين اتصلوا بي هم من خارج مديرية دار فور!! وهذا يدل على أنهم عاشوا نفس الطفولة، ومروا بنفس التجارب، والذكريات، وتشربوا نفس المثل، والمبادئ، والأخلاق، فرأى كل واحد من هؤلاء في شخصي نفسه. ولم يلقوا بهذه المقالات أرضاً ويقولوا : « مالنا ومال دارفور!! « ، في وقت أشتد فيه الاستقطاب القبلي، والإقليمي؛ ولا أبريء هؤلاء الذين عمدوا إلى تقسيم التسع مديريات التي عرفها السودان إلى ٦٠ حتة- كما قال الوحدوي الأصيل السيد / محمد نور الدين- فبدلاً من أن يصبح الانتماء إلى حيز اكبر هو المديرية، ضيقوا واسعا، وأنكمش الانتماء إلى «محليات» اصغر فاصغر، وأسماء ما أنزل الله بها من سلطان، فأصبحت كل محلية تضم قبيلة واحدة في الغالب، بعد ما كانت المديرية تضم عدة قبائل، فاستبدلوا الانتماء الجغرافي بالانتماء العرقي، وأصبح ابن كل محلية ينظر إلى أبن المحلية المجاورة له كأجنبي! وأضاعوا هيبة مدير المديرية ، ومفتش المركز! وكما أضاع النميري من قبل هيبة الإدارة الأهلية!! « أضاعوا هم هيبة الإدارة الحكومية؛» وتمت الناقصة» كما يقولون! لذا لاغرو أن عربد الانفلات الأمني، وأصبح الناس يتناحرون ويتقاتلون في الكفاف!!. ولا أدري ما هي الحكمة في ذلك؟ هل هي سياسة فرق تسد؟! إن كان الأمر كذلك، فللأسف، تفرق أولئك، لكن لم يسد هؤلاء، بل تفرقوا مثلهم أيضاً! فأصبح الجميع في التفرقة أخوانا، بعضهم انزوى داخل السودان، وبعضهم استعصم ببلاد «كفر» تأويه!! بعد أن اتخذوا من السودان حقلا للتجارب، يجربون فيه كما قال شوقي:» كتجربة الطب في الأرنب» !

ولم أتهم بالعنصرية الثقافية، أو الثقافة العنصرية، بل كان تقبل القراء لهذه المقالات، من جميع أنحاء السودان أمرًا مدهشا وشيئاً يفوق التصور! وهذا هو السودان الذي يتشرف المرء أن ينتمي إليه، ولا يجب علينا- إخوتي الكرام- أن ندع مجالاً لما يفرقنا

هذا ما كان من أمر الاختلاف المكاني، إما من جانب التفاوت الزمني في أعمار من اتصلوا بي، فإنما يدل على أن ما أتحسر عليه ليس هو» نستالجيا«- أي حنين إلى الماضي- أو بكاء على التابوت، أو تغريد خارج السرب، على ما مضى وأندثر كما يدعى بعض (المثقفاتية) . فها هو الجيل الذي يصغرنا بعدة أجيال، والذي يمثله في نظري الابن العزيز يوسف مختار علي الذي تقدم الحديث عنه- وهو في عمر ابني البكر حاتم- وعن اقرأنه، هل نعتبرهم أيضا يبكون على الماضي؟! إي ماضٍ نعني وهم لا يزالون في ريعان الصبا وعمر الزهور؟!! وهذا يجعلنا نطمئن أن السودانَ لا يزال بخير. وأن كثيراً من موروثاته وقيمه لا زالت مستأصلة في النفوس وجارية في العروق تماماً كالشجرة التي وصفها الله سبحانه وتعالى في محكم آياته: «كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء».

وآمل أن يعيننا هذا على التغلب على حالات اليأس والقنوط التي تلم بنا من حين إلى آخر، حتى كدنا أن نفقد بوصله التوجه، وإنا على رأسكم!!

في بلاد الألمان.. وأولى الصدمات الحضارية !

هبطت بنا طائرة الخطوط الجوية الألمانية اللوفتهانزا بوينج (٧٣٧) في مطار فرانكفورت بعد ظهر يوم الاثنين ١٩٧٤/١٠/٧م ، بعد رحلة دامت قرابة الثماني ساعات، توقفنا خلالها في كل من القاهرة ، وأثينا، وميونيخ . وفي ميونيخ نزل الأخوان محمد عبد الرافع والطيب إبراهيم الشوش لكي يتجها إلي مدينة اشتدقارت مقر صناعة سيارات المرسيدس- ولفائدة القراء، ومن قبل العلم بالشيء، وليس من قبل الاستعراض، فان كلمة :لوفت، تعني بالألمانية جو أو هواء، وهانزا كانت رابطة تجارية لحماية المدن التجارية في شمال ألمانيا، تأسست في القرن الرابع عشر الميلادي وأصبحت مملكة مشهورة في أجزاء كبيرة من ألمانيا؛ فلوفتهانزا تعني بذلك الخطوط الجوية لمملكة هانزا- وفور مغادرتنا الطائرة في مطار فرانكفورت لفحتنا موجة من الجو البارد ورزاز المطر الذي كان يتساقط ، فعلمنا تواً أننا في جو مغاير تماماً للذي قدمنا منه .

وأول حادثة ، أو سمها صدمة حضارية حدثت لنا في المطار ! وكان ذلك بعد أن أخذنا كل متاعنا من حقائب وكراتين وأردنا أن ننزل إلي الدور تحت الأرضي لكي نأخذ القطار إلي مدينة بويارت على نهر الراين حيث نتعلم اللغة الألمانية في معهد جوته . وكنا نحاول تقليد الآخرين في الأشياء التي لا نعرفها من قبل . فأخذنا عربة من عربات حمل الأمتعة ووضعنا عليها كل أمتعتنا وأردنا النزول كما يفعل الآخرون. وكان لا مفر من أن نستعمل السلم الأوتوماتيكي النازل ، وهو شئ جديد علينا تماماً . فوضعنا العربة في أول السلم كالآخرين ، ولكن فات علينا أن نظل ممسكين بها ، بل تركناها لوحدها ، وتصورنا أنها سوف تنزل بسلام إلي الدور الأسفل . ولكن خاب ظننا ، فبدأت العربة تتأرجح مع كل حافة ، وفي آخر المطاف انقلبت على الأرض ، وتناثرت الأمتعة ، وانفتحت بعض الكراتين وتبعثرت بعض المحتويات وامتلأ المكان بأشيائنا المبعثرة . وكان ذلك في العشر الأواخر من رمضان، فلك أن تتصور- عزيزي القاريء- منظر الحلو مر، والابرى الأبيض، والكعك، والبسكويت المتناثر على ذلك البلاط الأبيض النظيف اللامع!! وبحمد الله لم يكن الحلو مر مبلولا؛ وإلا لأصابنا من التحقير ما أصاب احد الإخوة السودانيين المبعوثين في انجلترا، والذي بعد أن صفى الحلو مر، القى بالتفل في سلة القمامة. وعندما حضرت صاحبة المنزل ورأت تفل الحلو مر، قالت له: لو سمحت الحمام من هنا على يسارك!!

وضحكنا على أنفسنا ، وشاركنا بعض الألمان الضحك. ثم هبوا لمساعدتنا في جمع ما تبعثر من متاعنا ، واعدنا ترتيبه ، وواصلنا سيرنا حتى محطة القطارات .

ولهذا النوع من السلالم أيضاً قصة طريفة مع الأخ الصديق نبيل سعيد . حدثت بعد هذا التاريخ بعدة سنوات في هامبورج، عندما كنا نسكن بالقرب من محطة كيفتزمور للأندرقراوند . وقدم الأخ نبيل حديثاً إلي ألمانيا وأسكن في داخلية قريبة منا ، وكان يأخذ الأندرقراوند من وإلى المعهد حيث يتعلم اللغة . ويكون السلم عادة في الساعات الأولى للصباح في اتجاه الصعود ، وفي بعض الأحيان يقلب ليكون في اتجاه النزول في حالات الذروة، عند رجوع الناس من أعمالهم في الساعة الخامسة مساء .

ووصل نبيل ذات يوم متأخراً عن مواعيده العادية عائداً إلي الداخلية . وأبصر الناس أمامه ينزلون بنفس السلم الذي صعد به في الصباح ، فلم يشك لحظة أنه نزل عن طريق الخطأ في محطة غير محطته ، وقفل راجعاً لكي يواصل رحلته . ولكنه استفسر بعض الذين كانوا في المحطة، وتأكد أن هذه هي فعلاً المحطة التي يقصدها ، وتوكل على الله ونزل السلم الذي أراد أن يضيع عليه مكان سكنه!

ولابد من وقفة صغيرة عند الأخ نبيل، الذي كان اسما على مسمى بحق . فمن محاسن الغربة في ذلك الوقت، وعلى أقل تقدير في الغرب، نسبه لقلة المغتربين، أن العلاقات تكون متينة بين السودانيين لدرجة بعيدة. ولعل السبب في ذلك هو شعور المغترب بقول القائل:

أخي أنا غريبان هاهنا ** وكل غريب للغريب نسيب.

وكانت علاقتي مع الأخ نبيل من هذا النوع. جاء إلى ألمانيا وهو يصغرنا ببضعة أعوام، فاحتضناه كالأخ الصغير، ولأنه سوداني وأصيل، قدر هذا المحسي النبيل ذلك، وبادلنا محبه بمحبه، وزاد عليها تقديراً ما بعده تقدير.

أذكر أنه حدثت ذات مرة بيني وبين أحد الألمان مشادة كلامية حامية الوطيس في محطة كيفتزمور ، وفجاه دخل نبيل المحطة. ولما رآنا على تلك الحالة، أسرع نحونا، وزحزحني جانباً من أمام الرجل، ووقف في مواجهته، وقال لي بالدارجي السوداني: زح لي سيبني ادبو ليك!! فقلت له : لا تؤدبه ولا يؤدبك!! أنت أولاً لا تعرف المشكلة، ولا تفهم حتى ما نقول! ولم يكن وقتها يجيد الألمانية بحيث يفهم ما كنا نتبادل من كلام، لأنه قدم حديثا. فقال لي : ليس المهم عندي أن أفهم الموضوع، ما يهمني هو ألا يرفع صوته عليك يا

خال!!! - وكان يخاطبني بـ خال في بعض الأحيان، إمعانا في التقدير والاحترام ونبيل، ما شاء الله، وتبارك الله، وعيني باردة ، وربنا يحفظه، شاب في ريعان الصبا، فارع الطول، متناسق الجسم، قوي البنية، لو رأيته لحسبته ملاكماً! وكان مجرد منظره ، ووقوفه في وجه الألماني، كفيل بأن يجعله يغادر المحطة سريعاً أن لم أقل يهرب! وأنا لعل ثقة تامة أن نبيل كان مستعداً لضربه ولو أدى ذلك إلى دخوله السجن في سبيل الدفاع عني! فنبيل كان يحبني ويقدرني بصوره لا يمكن تصورها! والعلاقة بيننا كانت فعلا علاقة أشقاء! فهو ذلك الأخ الاصغر- عزيزي القاريء- الذي لم تلده أمك!حياك الله، وكلأك برعايته وحفظه أيها النوبي النبيل!!

وبما أن الأخ العزيز نبيل شاب مكافح، ويعمل في الإجازات، كان أن عمل ذات مرة في إحدى إجازاته في السفن التي تبحر في أعالي البحار. ويحكى أنه كان نائماً ذات مرة داخل كبينته، وفجأة شعر أنه نائم واقفاً!! وذلك من شده ميلان السفينة على جانب! -عكس ما قاله الأخ الدكتور الساخر محمد عبد الله الريح ذات مرة ، عندما جمعتنا الظروف في دعوة عشاء في منزل الدكتور الاستشاري في أمراض السكر والغدد الصماء، الدكتور التجاني محمد عمر بمستشفى بقشان، هنا في جدة، وبعد أن قال احدهم: هذه أكلة تستحق قيام الليل ، فقال له ود الريح : أنا اخشي من أن تقوم الليل راقداً!! – فخرج نبيل مسرعاً إلى حيث وجد بعض البحارة مجتمعين يعاقرون الجعة، فقال لهم محذراً : السفينة أوشكت على الغرق! وما كان منهم إلا أن قالوا له: أرجع واصل نومك أيها الزنجي، فأنت لم تر شيئاً بعد!!!.

وتزوج نبيل من الشابة الألمانية المهذبة أوشي، ورزق منها بولدين وبنتين، وحصل على الجنسية الألمانية، ويعيش الآن هناك. وأذكر أنه قدم لأداء فريضة العمرة قبل ثلاثة أعوام تقريباً؛ وكم كانت فرحتي كبيرة بلقائه بعد طول غياب؛ وكان معه ابنه الكبير طارق الذي يبلغ الخامس عشرة من عمره، والأصغر- أظن اسمه الفاتح- وعمره حوالي ٧ سنوات. وأخذتهم إلى مكة لأداء فريضة العمرة. وكان أمر صلاتنا المتكررة غريباً على أبناء الألمانية، فما كان من الابن الأصغر إلا أن قال لي- لحسن الحظ بالألمانية حيث لم يفهمه احد-: ما هذا؟؟!!! اليوم كله صلاة ... صلاة!!! متى ينتهي هذا ؟؟ فنهره والده ! تحياتي الكثيرة إلى الأخ العزيز نبيل الخلق والأخلاق، وإلى زوجته العزيزة أوشى وابنيه وبنتيه.

نزلنا إلى محطة القطارات في الدور تحت الأرضي في مطار فرانكفورت الدولي. وركبنا قطاراً نظيفاً أنيقاً لا يجمع بينه وبين قطار نيالا أو كريمة سوى الاسم ! وأخذنا بروعة المناظر من حولنا ، من حقول وبساتين وحدائق وقلاع ومنازل. و بساط من الخضرة يغطي الأرض على الجانب الأيسر ، والمراكب وهي تمخر عباب نهر الراين على الجانب الأيمن ، واستمتعنا برحلتنا تلك غاية الاستمتاع . وبعد ساعتين وعند مغيب الشمس وصلنا المحطة وسمعنا ميكرفون المحطة يعلن: بوبارت .... بوبارت . فأخذنا حاجياتنا على عجل ونزلنا من القطار . ووجدنا بوبارت الجميلة مدينة صغيرة أو قرية بعرف الألمان ، وهي تضم حوالي١١ ألف نسمة ، هادئة وأنيقة ونظيفة . وهي ترتاح من عناء نهاية الأسبوع وتستعد لاستقبال الليل .

وأخذنا سيارة من سيارات الأجرة إلي مباني المعهد التي تقع في مكان مرتفع من المدينة . وهناك جلسنا مع غيرنا من الطلاب الأجانب القادمين من شتى بقاع الأرض . وتولت فراو-أي السيدة- صادق ومساعدتها المرحة، والتي يبدو أنها كانت مبسوطة شوية . لذا تضحك بسبب وبدون سبب! مهمة توزيعنا إلى الأسر التي نسكن عندها. وألحق الأخ محمود بعجوز شمطاء قد جاوزت الثمانين تسكن وحيدة في منزل لها ليس ببعيد من المعهد ، بينما كان نصيبي ونصيب الأخ حسن منقوري السكن في ضاحية بُوخيناو الحديثة التي تبعد نسبياً عن المعهد . وسكن الأخ حسن مع مجموعة من الأخوة المصريين - أولئك الإخوة الثمانية الذين مر ذكرهم في حلقة سابقة- مع أسرة تمتلك بيتاً واسعاً وأنيقاً، تسكن هي في الدور الأرضي ويسكن بقية الطلبة في الدور العلوي . وألحقتُ أنا بأسرة يبدو من أسمها أنها من أصل شرقي ، ربما من الألمان النازحين من بولندا أو روسيا . وكانت لها غرفتان في الدور الأرضي ، واحدة يسكنها طالب ياباني لم أره خلال سكني الذي أمتد لشهرين سوى مرة أو مرتين ، رغم أن غرفتينا متلاصقتين ونستعمل نفس المرافق الصحية .

وأذكر بينما كنا في طريقنا من المعهد إلى المنازل ، سألنا السائق الذي كان يقود سيارة مرسيدس طويلة بيضاء ويسير بسرعة جنونية بين المنحنيات والمنعطفات لكنه يتحكم جيداً في عجلة القيادة ، بينما نحن نتساقط تارةً ذات اليمين وتارةً ذات اليسار : سألناه عن مكان يمكن لنا أن نتناول فيه طعام العشاء بعد أن أشتد علينا البرد وبّرح بنا الجوع

. وأخبرنا أنه بعد أن ينزل كل منا متاعه في مقره الجديد ، سوف يأخذنا إلي مطعم جيد يعرفه .

وكان اللقاء مع كل أسرة قصيراً ومقتضباً وبارداً . ثم تقديم وُريقة من المعهد تحمل أسم وجنسية الساكن الجديد والمدة التي يريد قضاءها . وبعد وضع الأمتعة استلمنا المفاتيح وخرجنا مع السائق المتخنفس كي يأخذنا إلى المطعم . وكان المطعم يقع في أعلى قمم جبال بوبارت تقود إليه طريق متعرج يلف ويدور حول نفسه ، لو سار فيه الشاعر عمر ابن ربيعة لما درى حقاً أهو غادٍ أم رائح من دار آل نعمي! وأذكر أنني حاولت طوال فترة بقائي في بوبارت الذي أمتد لحوالي ستة أشهر أن أعرف مكان ذلك المطعم الذي أخذنا إليه السائق في أول ليلة لنا في بوبارت، لكن دون جدوى !

ووصلنا المطعم أخيراً ، ووجدناه مطعماً صغيراً تديره سيدة في الأربعينيات تقريباً ، وهو ملحق بمنزلها ، ولم يكن به أحد ساعة وصولنا إليه . وبعد محادثة مضنية - فنحن لا نعرف شيئاً عن اللغة الألمانية ، ولم تكن المرأة بأحسن منا حالاً بالنسبة للغة الإنجليزية - ووصف بالأيدي والإشارات وحتى الأصوات ، ورسم على الورق تمكنا من تناول عشائنا الذي لم يكن شهياً ولا دسماً ، ولم يكن مستصاغا ، لكنه كان كثيراً ودافئاً وسد رمقنا ، وكان ذلك هو الأهم . ويخالجني شك - قد أكون مخطئ فيه - أن تلك المرأة أخذت منا في تلك الليلة من النقود أكثر مما تستحق. فقد كنا نجهل فئات النقود جهلنا باللغة ، ولم يمض على استلامنا للماركات الألمانية غير سويعات . وعند دفع الحساب طلبت منا أن نخرج ما لدينا من نقود حتى تأخذ حسابها ، وكانت تختار الأوراق الكبيرة ، وبعد أن اختارت ما شاءت ، ردت لنا الباقي ، ونحن لا ندرى كم أخذت وكم أبقت!

ولم أكن سعيداً مطلقاً في سكني مع تلك الأسرة في ضاحية بوخيناو . فلقد كنت أعاني من وحدة قاتلة ، زادت من حدتها الشعور بالحنين إلي الوطن والأهل والأصحاب الذين فارقتهم لتوي . وأذكر أنني كتبت في ظرف شهر ما لا يقل عن مائة وخمسين كرتاً وخطاباً إلي السودان ! ولم أكن أرى أحداً من أفراد الأسرة سوى طفلهم وطفلتهم الصغيرين مرة أو مرتين كل ثلاثة أو أربعة أيام . ولقد حاولت الأسرة رغم كل ذلك البرود والتباعد أن تقدم لنا دعوة لتناول الشاي لديها ذات مساء مع الأخ الياباني . ولم يكن الحديث بيننا طويلاً أو ممتعاً ، وكنا نستعين بقاموس إنجليزي- ألماني - إنجليزي تحتفظ به الأسرة لمثل هذه الملمات! نضع أيدينا على الكلمة الإنجليزية التي نعنيها ، ويضعون هم أصابعهم

على الكلمة الألمانية التي يعنونها وهكذا . ولقد كانت الزوجة أحسن حالاً من زوجها في معرفة اللغة الإنجليزية .

والصدمة الثانية كانت عند دخولي الحمام! صدقوني دخلت وخرجت ولم أجرؤ على استخدام الحمام___ أو على الأصح تلك التحفة الرائعة بكل المقاييس!- شيء زهور، شيء صور! شيء مرايا على جميع الجهات، ونظافة من شدة البياض واللمعان تبهر النظر، وعطور تزكم الأنوف، وخشيت أن أكون قد دخلت صالون تجميل سيدة المنزل خطأ !! وقلت لنفسي، إذا كان هذا حمام، : طيب العندنا في السودان يطلع شنو؟؟ وأخيرا لعنت إبليس، ولم أجد بدا من تدنيس ذلك الحمام، بعد أن تأكدت انه مكتوب على بابه من الخارج دبليو سيWC !! ولا اذكر من قال لي ذات مرة: إن تحضر الأمم يقاس بنظافة حماماتها! ، ولا ادري مدى صحة ذلك!

اللبن المسكوب والرحيل!!!

ولم تكن التدفئة كافية في الغرفة ، وبدأت أشهر الشتاء بحلول نوفمبر ، ولم يجد الغطاء ، وكان الأمر قاسياً على شخص مثلي قادم من المناطق الحارة ، وكان لابد من الشكوى إلي الأسرة . واستجابت الأسرة مشكورة وقامت بشراء مدفأة كهربائية خاصة بغرفتي. خففت عليّ كثيراً من وطأة البرد . ولكن الأسرة كانت شحيحة جداً في استعمال الكهرباء ، واشترطت عليّ عدم استعمال أي معدات كهربائية ، وبالطبع لم يكن مسموحا لي باستخدام المطبخ ، فكان لابد من الخروج خاصة في نهاية الأسبوع في البرد والمطر للذهاب إلى المطاعم في وسط المدينة . وكنت أحسد الأخ حسن كثيراً في سكنه . فلقد كان لهم مطبخ خاص بهم ، وكانوا يعيشون في مجموعة، ويسمح لهم بمشاهدة التلفاز ، وكانوا يعيشون حياة جماعية لطيفة . وحتى الأخ محمود بالرغم من أنه كان يسكن وحيداً مع تلك العجوز الشمطاء، إلا أن مسكنه قريب من وسط المدينة الذي يمكن أن يصله ماشياً على قدميه في أي وقتٍ يشاء، بينما نحن في بوخيناو مقيدون ببص معين، وأوقات محددة ،إذ يتوقف الباص بحلول الساعة العاشرة مساء وتنقطع صلتنا بالمدينة .

وقررت أنه لابد من تغيير هذا السكن وإنهاء هذه المعيشة الموحشة المقفرة . وكان في نهاية كل شهرين ينتهي كورس، ويحضر طلبة جُدد إلي المعهد ويغادره المتخرجون ، وتكون

هناك حركة تنقلات بين المنازل التي تخلو والتي تضاف لأول مرة . وزاد تفكيري في ذلك ذات يوم بينما كنت أصلي صلاة المغرب ، كنت قد تركت شيئاً من اللبن على السخان الذي احتفظ به سرا ، وعند غليانه تدفق وأحدث اللبن المحروق رائحة نفّاذة ، ما لبثت أن صعدت إلى الدور العلوي ، فجاءت الأسرة كلها مهرولة وهى تظن أن البيت قد أحترق! وحظروا عليّ منذ ذلك اليوم استعمال ذلك السخان الصغير . عند ذلك أزمعت فعلاً على الرحيل .

وبدأ الكورس الثاني ، وتقدمت بطلب لإدارة المعهد بُغية تغيير السكن ، وأُعيد توزيعي من جديد وكان نصيبي مع زميلين أحدهما من أثيوبيا ويدعي تكما والآخر من اليابان ويدعي اتو أن نسكن مع أسرة تؤجر غرفها لأول مرة للمعهد ، هي أسرة الهر مازر. وسلمنا أوراق السكن في نهاية الأسبوع ، وكان السكن الرسمي يبدأ في يوم الاثنين التالي مع بداية شهر ديسمبر١٩٧٤م ، وكانت هناك مشكلة واجهتني في البداية ، وهى تتمثل في أين أقضي نهاية الأسبوع؟ فقررت أن أضع متاعي في المنزل الجديد وأمضي نهاية الأسبوع في بيت الشباب أو في أحد الفنادق الصغيرة . ووصلت إلى الدار الذي يحمل الرقم ٦ في شارع همبردنك ، ولا يبعد عن المعهد كثيرا. وقرعت الجرس ، وفتحت لي الباب امرأة شابة ترتدي مريلة بيضاء فوق الفستان ، وبجوارها طفل يبلغ حوالي سبعة أعوام وطفلة لها من العمر حوالي الثمانية أعوام . وبعد التحية قدمت نفسي، وتقدمت لها بوريقة المعهد ، وأخبرتها أنني أنوي فقط ترك متاعي لديها حتى يوم الاثنين عندما أحضر للسكن رسمياً . وسألتني في استغراب شديد لماذا ؟ فأجبتها أن المعهد لن يدفع الإيجار إلا إبتداءاً من يوم الاثنين ، لذلك سوف أمضي هذين اليومين : السبت والأحد، في مكان آخر . وضحكت المرأة في طيبة شديدة وقالت لي : دعك من هذا الهراء ، وادخل وأنا سأدفع إيجار هذين اليومين ! ولقد كانت لتلك المقابلة الهاشة الباشة الكريمة أطيب الأثر في نفسي، وكانت فراو مازر امرأة مرحة في غاية الذوق والطيبة ، وكانت تدير المنزل لأن زوجها يعمل صباح مساء في هيئة البواخر. وكنا نسكن في الطابق الأرضي وتسكن الأسرة في الدور العلوي. وكان هناك لحسن الحظ مطبخ خاص بنا وكذلك غرفة عامة للجلوس . وكنا نتبادل الطبخ ، يوم أكل ياباني ، ويوم أكل أثيوبي ، ويوم ثالث أكل سوداني.

كرنفال نهر الراين الرائع!!!

ولقد قويت العلاقة بيننا وبين هذه الأسرة لدرجة بعيدة ، وكان الفرق شاسعاً بينها وبين تلك الأسرة الأولى . كانوا يكثرون من دعوتنا في المناسبات وغير المناسبات ، ويقدمون لنا الدعوة للخروج في نهاية الأسبوع ، ويقدمون لنا المساعدة في دروس اللغة الألمانية . وكانت سيمونة الابنة واشتفان الابن يقضيان جل وقتهما معنا . ولقد كانت لهذه الأسرة ، وخاصة فراو مازر ، لفتات إنسانية رائعة كثيرة . من ذلك كانت تشاركنا همومنا أثناء امتحان الفترة ، وتساعدنا في المذاكرة، وتسألنا كل يوم عند العودة عن الكيفية التي أجبنا بها على الأسئلة وتناقشنا في الأجوبة وهكذا. وعلمت منا بيوم النتيجة النهائية . وذهبنا خائفين إلى المعهد ، ولقد نجحنا . بحمد الله . نحن الثلاثة. وكنا فرحين بهذا النجاح وأسرعنا العودة كي نفاجئ فراو مازر بهذا النجاح : ولكن قد سبقتنا هي إلى المفاجأة! فقد اتصلت ودون أن نعلم بمدير المعهد وعلمت بنجاحنا من نتائجنا! ووجدنا على الطاولة في غرفة الجلوس باقة جميلة من الورود، وكرتاً بهيجاً تزجي لنا فيه أطيب التهاني بالنجاح، وتتمنى لنا دوام التوفيق مع دعوة للعشاء !

ومن هذه المفاجآت التي كانت تأتي بها فراو مازر ، أذكر أنه في عيد الكرنفال الشهير على نهر الراين الذي يُحتفل به في فبراير من كل عام ، وتمتلئ الشوارع والساحات بأسراب الحسان والصبية والصبايا ينشرون الورود والزهور والحلوى، والسرور، والفرح على المارة ، ويشارك الجميع في البهجة فيغنون ويرقصون ويمرحون ، وتتحول المدينة كلها إلى مهرجان رائع خلاب ، يأخذ بمجامع القلوب ، ولا يقدر على وصفه إلا شاعر مبدع فنان كالشاعر المصري المهندس على محمود طه في رائعته الشهيرة : أغنية الجندول ، والتي يغنيها الفنان المبدع الكابلي، الذي وصف فيها مهرجاناً شبيهاً بهذا في مدينة البندقية بإيطاليا:-

أين من عيني هاتيك المجالي ** يا عروس البحر ، يا حلم الخيال
أيـــن عــشاقك سمار الليالي ** أين من واديك يا مهد الجمال
مـوكب الغيد وعـــيد الكرنفال ** وسرى الجندول في عرض القنال

ولقد كانت فراو مازر عضواً بارزاً في اللجنة المنظمة لهذا المهرجان . ودُعي كل أعيان البلدة والوجهاء والطلبة والطالبات إلى حفل الافتتاح الذي أقيم في قاعة الاحتفالات

الكبرى بالمدينة. وجاء رئيس اللجنة عمدة المدينة، وألقى كلمة الافتتاح وذكر أن اللجنة رأت أن تكرم في هذا العام العلاقة الألمانية الأفريقية؛ وبما أنها لا تستطيع منح ميداليات لكل الأفارقة الموجودين في البلدة ، وقع اختيارها على أفريقي واحد يكرم في شخصه الجميع ، وهذا الأفريقي المختار هو الطالب : محمد أحمد بدين من السودان وعليه أن يتقدم لنيل الميدالية !! ولقد فوجئت أشد المفاجأة، وكذلك زملائي السودانيون، ووقفت وكادت أن تتعثر قدماي . فهذا شرف كبير لي ولوطني لم أكن أحلم به ، إذ أصبحت ممثلاً لأفريقيا جمعاء في تلك اللحظة . وتقدمت نحو المنصة؛ وقلدني رئيس اللجنة الميدالية وسط تصفيق وتهنئة المئات. وبينما اغرق الولدان والحور الليل في ينبوع نور في البندقية، أغرقوني في بحر من القبلات، والورود في بوبارت! وكنت أعجب كيف ولماذا استحقيت هذا الشرف ؟ وكنت أناقش ذلك بعد عودتي إلي الدار مع فراو مازر وبقية زملائي . وابتسمت فراو مازر في خبث، وأخبرتني أنها كانت وراء هذا الاختيار!

ملحوظة:١- اعتذر للقراء بالنيابة عن صحيفة الخرطوم، لكثرة تداخل حرفي السين والزاي في كثير من الكلمات في المقال السابق، مما لا يخفى على فطنة القارئ، رغم التشويش الذي سببه. والسبب هو خطأ فني، إذ حول الكومبيوتر عند الطباعة كل الأقواس، إما إلى حرف السين أو الزاي؛ وحتى لا يحدث ذلك مرة أخرى سوف أتجنب استعمال الأقواس، لذا لزم التنويه.

٢- ورد زوجة الأخ المرضي خطا، في الحلقة لسابقة والصواب هو : زوجة الأخ الفرضي فالمعذرة.

بريد القراء:

إن كنا رأينا في الحلقات السابقة كيف طّوق القراء الكرام عنقي بجميل قولهم، فسنعرض هذه المرة إلى الذين كسروا رقبتي عديل ! حتى كدت أصبح في عداد المفقودين، لأن المديح الذي كالوه كفيل بقصف رقبة أتخن تخين!!

وأبدا بالأخ عادل محمد الحسين من مواطني الحوش، ويعمل بالخبر. والذي يبدو أنه واسع الثقافة، أمتعني بقراءة شعر سوداني جميل، ويبدو أنه مسكون بحب السودان. ولم يكتف وحده بقراءة مقال : الدين المعاملة . بل دعا زملاءه في العمل من السوريين إلى قراءته كذلك ، وحملوه نقل إعجابهم إلي. ثم قال لي: أنت السودان .. والسودان هو

أنت!! لهم ولك جزيل الشكر.

ثم هناك الأخ كمال حسن من خميس مشيط. والذي أرسل لي رسالة يقول فيها: إلى أبن السودان البار، وصاحب القلب الطيب. والعقل المنير! رفقاً بي قليلاً أخي كمال فهذا كثير عليّ!!.

والأخ صلاح عابدين بخيت من أبناء مدني ويعمل في الرياض. ختم حديثه بدعاء: حفظك الله ذخراً للبلاد. أن شاء الله جمعاً أخي صلاح.

والشكر كذلك للأخ محمود مصطفى عبد الرحمن من أم دوم. والذي أتصل بي وأرسل لي رسالة الكترونية دعى لي فيها بالسعادة الدائمة . وكذلك على اتصالاته الهاتفية المتكررة للسؤال عن أحوالي.

طرائف القراء:

من أطرف ما سمعت الرواية التي حكاها لي الأخ قاسم علي شنان من أبناء الجزيرة ويعمل في الرياض. فقد ذكر أنه افتقد عدد يوم العيد، ولم يجده. على الرغم من انه متأكد أنهم مجموعة عذاب أشتروا جريدة الخرطوم ذلك الصباح. ولما أعياه التفتيش أو شك على أن يجعل أفراد الميز يقسمون على المصحف الشريف أنهم لم يخفوا مقال صدى الذكريات!! وعندما حان وقت الغذاء ذهبوا لتلبية دعوه أحد أقاربهم. وأول ما دخل الصالون رأى جريدة الخرطوم، فهرول نحوها، وفتح صفحة صدى الذكريات إلا أنها لم تكن موجودة! فبحث عنها في كل أركان البيت حتى القمامة! وعندما دخل المطبخ، أذا به يرى ربة البيت وقد فرشت الكمونية على عمامتي! فأسرع وأنقذني من براثن الكمونية، ونشف الجريدة، وقراء المقال! قصة ولا آلف ليلة وليلة، والمكضب يمكنه الحصول مني على جوال الأخ قاسم لا بعاد تهمه الكذب عني!!.

والأخ توفيق أحمد محمد من حلفا الجديدة القرية ٢٧، قال أن من أهم الوصايا التي تركها عندما نوى الذهاب إلى الحج هذا العام، أن ترك مبلغاً من المال لشراء عدد السبت الذي صادف يوم العيد، حتى لا يفوته مقال صدى الذكريات! ثم ذكر أمراً طريفاً، إذ طلب من أن أخصص جزءا من صفحة المقال لأكتب فيه عن الرياضة أيام زمان، لأن ما يقرأه الآن على صفحات الرياضة من خلافات، ومشاكل جعلته يزهد في قراءتها! وأعتذر بشدة للأخ توفيق وأقول له أن كل خبرتي بالرياضة تنحصر في وظيفتي كحارس مرمى

للفريق الثاني للمريخ في الفاشر أيام الشباب في الستينيات!!

وأقول للأخ أحمد يس من المحس وخريج جامعة القاهرة فرع الخرطوم ٧٩، والذي أعاب عليّ ذكر جميع خلق الله في ذكريات سوى « المحس « ... أقول له إلا يشرف الأخ نبيل سعيد هذا، ليس كل المحس بل كل السودانيين!! وإن لم أذكر أحداً منكم- رغم إنني فعلت- سواه لكفاكم به وبنا فخراً!! لك تحياتي وشكري أخي احمد، ومع المزيد من اتصالات القراء في الحلقة القادمة إن شاء الله.

السوادنة .. والخواجات... من يدرس من!

من حوادث بوبارت التي لازالت عالقة بالذهن. حادثة مع أخ سوداني عزيز. وأخرى مع الأخ الأثيوبي تكما الذي كان يشاركنا السكن في نفس المنزل كما تقدم ذكره في الحلقة السابقة. فلقد كان معنا في نفس المعهد أخ سوداني جاء مبعوثاً من أحد البنوك السودانية لفترة قصيرة في ألمانيا. ولقد كان الأخ واقعياً إلى أبعد درجة، وخاصة في كل ما يتعلق بالناحية الاقتصادية، فكان أن صمم أن لا يضيع ماركاً واحداً سدىً. وقرر أن لابد له في خلال هذه الفترة القصيرة أن يعود إلى السودان وقد أشترى السيارة وكل الكماليات التي يحتاج إليها، وخاصة هو مقدم على الزواج.

وكان ذلك يعنى أنه لابد أن يُقتّر على نفسه قليلاً. ولكن البرد - قاتله الله - لا يرحم. فهو يحتاج إلى غذاء دسم حتى يستطيع الجسم أن يقاوم ويصمد في وجهه. وكنا نلاحظ باستمرار أن الأخ يفقد شيئاً من وزنه تدريجياً، وأصيب بالهزال، وألمت به نزلة برد شديدة ألزمته الفراش، بعد أن حاول الاستمرار في الدراسة متدثراً بكل الملابس الصوفية الثقيلة ولكن بلا طائل.

وكان لابد لنا من أن نعوده في مسكنه؛ وذهبنا إليه ذات يوم ووجدناه شاحباً يرتجف من شدة الهزال. وبعد التحية والترحاب من جانبه طلب منا أن يخرج أحدنا ويتناول له دواء من الصيدلية القريبة من داره. وعند ذلك انبرى له الأخ حسن منقورى الذي لا يخش كذلك في الحق لومة لائم ووجه إليه الحديث قائلاً: أسمع يا علي إن مرضك هذا ليس هو مرض دواء أو طبيب، بل هو مرض الجوع، وأهلنا في السودان يقولون: الجوع كافر، فأنت لا تحسن تغذية نفسك بالقدر الكافي وتريد أن توفر المارك على حساب صحتك وعافيتك. وإن بقيت هكذا سوف يقضى عليك الجوع. ثم نحن - أيها الأخ العزيز - لا نريد أن تشّوه صورة بلدنا هنا عندما يتحدث الجميع في المعهد أن طالباً سودانياً قتله الجوع !!.

ولقد صدق الأخ المريض كل ما قاله الأخ حسن، وذعر من ذكر الموت، فقام مسرعاً وأخرج خمسين ماركا دفعه إلي حسن قائلاً أذهب إلى السوق واشترى لنا لحماً وخبزاً وفاكهة وخضاراً الآن، ولنعد وليمة كبيرة هنا اليوم. فأخذ الأخ حسن المبلغ وأخذني معه

إلي السوق ، وقال لي ضاحكاً في الطريق : اليوم عيد ! هذه وجبة دسمة نزلت علينا من السماء ورزق ساقه الله إلينا . وأحسن الأخ حسن إعداد وجبة حلة العزابة اللذيذة ، أو كما تعرف أيضا باسم القطر قام ، وهو طباخ ماهر لا يدانيه إلا صديقنا الأخ عبد الحميد؛ وأكلنا وفرحنا، وقضينا يومنا في سرور وحبور. ولقد أمضى الأخ علي فترته القصيرة تلك ولم يقض عليه الجوع كما تنبأ الأخ حسن ، بل نجح في تحقيق كل ما يصبو إليه واشترى كل ما يحتاج إليه تقريباً كما كان يأمل هو، بما في ذلك السيارة.

يبدو أن الله قد وهب الزميل الصديق حسن منقوري- الذي أصبح أستاذا بكلية الآداب بجامعة الخرطوم- عقلاً نظيفاً. فبينما كان يفوز في مسابقات الإعراب التي يجريها الدكتور مكي الأنصاري في الجامعة بين الزملاء والزميلات كما تقدم ذكر ذلك في الحلقات الخاصة بجامعة الخرطوم، تعلم كذلك اللغة الألمانية بسرعة مذهلة، على الرغم من أننا بدأنا تعلم اللغة سوياً، وأصبح بعد أشهر معدودة المترجم بيننا وبين الألمان! وأذكر أن جمعتنا الصدفة ذات مرة في أحد المطاعم مع بعض الشباب الألمان، وبعد التحية والسلام جلسنا سوياً وبدؤوا السؤال عن أصلنا، وفصلنا، وماذا نفعل في مدينة بوبارت. فأخبرناهم بمساعدة الأخ حسن أننا نتعلم اللغة الألمانية في بلدتهم لمدة ٦ أشهر، ثم نغادرها للالتحاق بالجامعات. وما أن سمعوا ٦ أشهر حتى استغرقوا في الضحك، حتى استلقى بعضهم على قفاه! ثم قالوا لنا: المعذرة! ماذا قلتم؟ فكررنا ما قلنا، وعادوا مجدداً للضحك ثم الاعتذار! ولما رأوا دهشتنا وحيرتنا من هذا الضحك غير المبرر، قال لنا أحدهم: المعذرة، فأنا ألماني الأصل والمنشأ، وعمري الآن يربو على العشرين سنه ولم أتعلم اللغة الألمانية حتى ألآن، فكيف لكم أن تتعلموها في ظرف ستة أشهر؟؟!!.

فقلنا لهم إن شاء الله سوف يعلمنا لها: الذي علم الإنسان ما لم يعلم! وما كان ذلك على الله ببعيد. فلم نتعلمها وحسب، بل قمنا بتدريسها في نهاية المطاف في معهد جوته بالخرطوم بعد نهاية البعثة وعودتنا إلى السودان، وكذلك هنا في السعودية. وما دام الحديث ذو شجون، أذكر أنني كنت أدّرس ذات مساء بعض الطلبة والموظفين اللغة الألمانية في القنصلية الألمانية في جدة، وكان الفصل مطلاً على شارع جانبي، وله نوافذ زجاجية عريضة. وكان يضم جنسيات مختلفة، من بينهم بعض الأمريكيين،

والأوربيين . وإذا بي أسمع طرقاً خفيفا على الباب. وعندما فتحته وجدت أثنين من شرطة أمن السفارات من الأخوة السعوديين. فسألانني: ماذا تفعلون هنا؟ فقلت له : ندرس اللغة الألمانية. ثم نظرا إلى جلبابي وإلى عمامتي.وإلى بعض الخواجات الجالسين أمامي، فسألني أحدهما في استغراب: ومن هو الأستاذ؟ فقلت له: ألا ترني أقف موقف الأستاذ من طلبته؟؟ فما كان منه إلا أن قال في دهشة: ما شاء الله عليكم بالسوادنة.... تدّرسون الخواجات!! وودعانا وأنصرفا!!

الثور الإثيوبي الهائج!!!

أما الحادثة الثانية فهي مختلفة تماماً عن الأولى. ولقد حدثت لي مع الأخ الأثيوبي تكما. ولقد كان الأخ تكما يكبرنا في السّن كثيراً ، فقد تعدى منتصف الأربعين. وكان قد تحصل على درجة الماجستير في الهندسة في براغ. وعمل أستاذاً في إحدى جامعات أثيوبيا . وجاء في منحة من الهيئة الألمانية للتبادل الثقافي - D.A.A.D كي يحضّر لدرجة الدكتوراه . وكان وقوراً قليل الخروج من المنزل . وكنا نلح عليه في أن يصحبنا في نهاية الأسبوع إلى أحد الملاهي الكثيرة المنتشرة على نهر ضفاف الراين. كي يرفه عن نفسه قليلاً، ولكنه كان يرفض باستمرار . وذات يوم وافق على الذهاب معنا بعد إصرار من جانبنا . ولكنه أخبرني أن لديه عادة سيئة هي التي تمنعه من الذهاب . وهى أنه عندما يجد نفسه في جو صاخب بالموسيقى يكثر من الشرب، وعند ذلك يفقد رشده ويتشاجر ويضارب . فطلب مني بصورة خاصة أن أراقبه وأمنعه من الإكثار من الشرب . وذهبنا سوياً وجلس كل منا في مكان نتجاذب أطراف الحديث، ونستمع إلى الموسيقى، ونرفه عن نفسنا . ونسيت للأسف موضوع الأخ تكما تماماً . وفجأةً انتبهنا إلي أصوات مشاجرة وعراك في ركن من أركان ذلك المكان . وعند ذلك فقط تذكرت تكما، وهببت مذعوراً متمنياً أن لا يكون طرفاً في تلك المشاجرة . ولكن قد خاب ظني فهو مسببها ! وكان أن تشاجر مع زميل من شيلى وتضاربا ضرباً مبرحاً حتى سالت الدماء . وحاولت جاهداً إيقاف تكما ولكنه أصبح كالثور الهائج، يضرب كل من يقترب منه، حتى شخصي فقد ألحقني لكمة قوية أبعدتني عنه وكادت إن تطرحني أرضا! وهو على رغم تقدمه في السن، إلا انه كان يتمتع ببنية افريقية قوية، وكذلك الزميل الشيلي. وطلبنا من صاحب المحل أن يستدعي الشرطة كي يفض تلك المشاجرة . وخرجا إلي الشارع ، وذهب الطالب

الشيلي ، وحاولنا أخذ تكما معنا ولكنه رفض وأصر أن يبقى في مكانه . وعدت إلى المنزل مع الأخ الياباني ايتو، وانتظرنا وصول تكما، حتى غلبنا النعاس ولم نره إلا في صباح اليوم الثاني . وقد صبّ جام غضبه عليّ، لأنني لم أف بوعدي وأراقبه ! ولقد هزت في نفسه تلك الحادثة فأصبح أكثر انطوائية، ليس فقط في المنزل بل حتى في المعهد ، وتأسف كثيراً على ما أتى به من تصرفات .

أما الأخ الياباني ايتو، فكان شابا، وسيما، مرحا لطيفا لا بعد حد، وغاية في التهذيب كغالبية اليابانيين. ويبدو انه ينتمي إلى أسرة واسعة الثراء، فكان لا يرتدي إلا فاخر الثياب، ولا يتناول إلا أغلى الطعام من شاكلة الكافيار، ولا يشرب إلا النبيذ المعتق. ودائما بعد أن يتناول عشاءه في هدوء، يطلب مني ومن الأخ تكما الانضمام إليه بقصد الأنس؛ وكان يحب النقاش، خاصة إذا علمنا انه يحضر دكتوراه في الفلسفة، وفي المنطق بالذات؛ إلا أن له بعض الأفكار الإلحادية!

وداعا بوبارت!!

وفي نهاية فترة الدراسة بالمعهد رأينا أن نقيم حفلة وداع صغيرة أكراماً لأسرة الهر مازر التي أكرمتنا طوال فترة بقائنا في بوبارت، وقررنا دعوة جارنا الطيب، الهر كلاوس وزوجته. ووقع الاختيار عليّ كي أذهب إليهما وأوجه لهما الدعوة نيابة عنا نحن الثلاثة. ولأنني حديث عهد باللغة ، كتبت الدعوة ثم حفظتها عن ظهر قلب؛ وذهبت إليهما وسّمعت الدعوة تماماً كما حفظتها! و لأننا كنا نتوقع أن يتقبلا الدعوة بصدر رحب؛ لذا لم أحفظ ما أرد به في حالة اعتذارهما! وشكرني الهر كلاوس على الدعوة، لكنه للأسف اعتذر بتهذيب، لأن ذاك اليوم الذي اخترناه للحفل لديهما فيه ارتباط مسبق. فرأيت أن أقول لهم المقابل لعبارة « يا خسارة « بالألمانية- والتي لم أذاكرها!- فقلت لهما : شا........Sch ! وعند ذلك قال لي الهر كلاوس: لا يا هر بدين! أنت تقصد SCHADE - شاده! فقلت له نعم! نعم! تماماً هذا ما أقصده بالضبط! واعتذرت للرجل بشدة، وقبل عذري، وأرجع ذلك إلى عدم تمكني من اللغة بعد. أتدرون ماذا تعني الكلمة الأولى الشبيهة بكلمة شاده في النطق؟ هي كلمه لا يقولها الناس المحترمون لأنها تتعلق بالمراحيض وما إليها!! والغريبة حتى في اللغة الانجليزية تبدأ بنفس حرف الشين.وبعد مضى أربعة أشهر مع أسرة الهر مازر الفاضلة ، انتهت دراستنا في المعهد،

وتفرقنا في المدن الألمانية للالتحاق بالجامعات . فتوجه الأخ حسن إلى جامعة برلين ، والأخ محمود إلى جامعة جيسن ، والأخ تكما إلى جامعة آخن . والأخ اتو إلى جامعة بون ، وكان عليّ أن أذهب إلى جامعة هامبورج . ولقد سافر كل هؤلاء الأصدقاء قبل ميعاد سفري . ولقد أخذت فراو مازر كلاً من اتو، وتكما ، كلاً على حده في يومين مختلفين إلى محطة القطار ، وكنا جميعاً في وداع المسافرين . وقبل موعد سفري بيوم واحد أحضرت لي فراو مازر التلفاز الخاص بالأسرة من الدور الثالث إلى الأرضي حيث مقر سكننا نحن الطلبة ، لأنني أصبحت وحيداً بعد سفر أصدقائي. ولا تريدني أن أعاني من الوحدة حسب قولها ، لذلك تأمل في أن يزيل عني هذا التلفاز وحشتي . وشكرتها على شعورها النبيل . وكان عليّ أن أغادر بوبارت صبيحة اليوم الثاني في تمام الساعة العاشرة . وجاءت فراو مازر قبيل موعد المغادرة بقليل ولم تكن منشرحة كعادتها دائماً . بل كانت على غير العادة قليلة الحديث . وعندما حان وقت الوداع لم تقو تلك المرأة الشهمة على التحكم في إحساسها ، واغرورقت عيناها بالدموع، وهى تقول لي : لا أقوى على أن آخذك بالسيارة إلى المحطة ، وكذلك لا أريدك أن تستأجر سيارة أجرة ، لذلك فقد اتصلت بزوجي ورجوته أن يحضر كي يأخذك إلى المحطة وهاهو قادم . وهى تودعني، أكاد أسمع صدى صوتها من بعد كل هذه السنين، وهى تقول لي جملة واحدة كررتها مرتين أو ثلاث وتعنى :» أرجوك لا تنس أن تكتب .... أرجوك لا تنس أن تكتب !« وقدمت لي هدية عبارة عن صورة رائعة لمدينة بوبارت، بالأبيض والأسود، كتبت عليها من الخلف عبارة تعنى: «إنه لشيء رائع أن تتعرف على أناس ظرفاء !!»

ويبدو أن موقفا شبيها بهذا دفع الشاعر لكي يقول:

تقول التي من بيتها خف مركبي ** عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب ** بلا إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بـوادر ** جرت فجرى في جريهن عبير

وامتدت الاتصالات بيننا ، لدرجة عندما قدمت زوجتي من السودان، بعد أن استقريت في هامبورج، أصرت فراو مازر على أن انزل من القطار في بوبارت وأنا في طريقي من هامبورج لاستقبال زوجتي في فرانكفورت، وأخذتني بسيارتها إلى مطار فرانكفورت، وهي مسافة تتعدى ١٥٠ كيلومتر، لتكون معي في استقبالها! لكن الخطوط الجوية السودانية- كعادتها دائما – لا تقصر؛ وأعلنت عن تأخر وصول الطائرة لصباح اليوم

الثاني؛ فودعتني وعادت فراو مازر أدراجها إلى بوبارت! ولقد اتصلت بيننا الكتابة مع هذه الأسرة لعدة سنوات ، إلى أن حالت المشاغل- التي نعرفها وتعرفونها- دون مواصلتها، وما لبث أن توقفت بعد عدة سنوات من قدومي إلى السعودية.

السودانيون والتبذير!!

يبدو أننا السودانيون شعب مُبذّر متلاف للمال بحقّ! ومن رافعي شعار» اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب!» ولقد تبينت ذلك بوضوح عندما انقضت فترة الستة أشهر التي أمضيناها في بوبارت . فقد كان هناك عدد لا بأس به من المبعوثين من عدة دول ، ويتقاضون نفس الإعانة المالية التي نتلقاها من الهيئة الألمانية الأكاديمية للتبادل الثقافي . وعندما ودعنا بوبارت وتوجهنا إلى محطة القطار ، كان الطلبة يحملون معهم المسجلات، والكمرات، والراديوهات الكبيرة، وغيرها من الأشياء الثمينة، التي أشتروها مما توفر لهم من مال . أما نحن الطلبة السودانيين ، فقد خرجنا صفر اليدين لا نحمل سوى حقائبنا المتواضعة التي حضرنا بها من السودان، والتي كانت تتوارى مثلنا خجلاً من الحقائب الفخمة الجديدة، التي استبدل بها معظم الطلبة حقائبهم القديمة!!

التوهان في شعاب هامبورج!!

وقبل وصولي إلى هامبورج بوقت كافٍ، كنت على اتصال بالبروفيسور زقرت؛ وأخبرته بموعد وصولي، ووعدني أنه سوف يكون في استقبالي عند المحطة الرئيسية في هامبورج. و بعد رحلة ممتعة دامت حوالي ست ساعات بالقطار وصلت إلى هامبورج، ووجدتها تختلف عن بوبارت في كل شئ : مدينة كبيرة صاخبة تعج بمن فيها وبما فيها . ونزلت من القطار والتفت يميناً ويساراً. وأُصبت بخيبة أمل ورهبة في نفس الوقت، إذ أنني لم آر البروفيسور زقرت من بين جموع المستقبلين! وخرجت خارج المحطة وأنا أتفرس في الوجوه بحثاً عنه . وإذ أنا كذلك قدم نحوي شاب أفريقي سلم عليّ وسألني إن كنت من السودان واسمي محمد ؟ فأجبته بالإيجاب . وأخبرني أن البروفيسور زقرت يبحث عني في الجانب الآخر من المحطة، بينما أوكل إليه مهمة البحث عني في هذا الجانب ؛ فحمدت الله على ذلك ، وأخذني إلى حيث يقف البروفيسور زقرت الذي قابلني بحرارة . واستقليت معه السيارة ومعنا الأخ الأفريقي الذي قّدمه لي كطالب زميل معي في نفس القسم أسمه : ابراهام أوسو أنسا من غانا وهو يحضر مثلي للدكتوراه معه . ولقد أخذنا

إلى الداخلية التي يسكن فيها ابراهام، وهى داخلية : باول سودك هاوس الواقعة على تقاطع شارع بارمبك مع فيذاندام اشتراسا.
ومن الأشياء التي أثارت انتباهي وتعجبي طوال الطريق من المحطة إلى الداخلية، هو أن البروفيسور كان يقف بعد كل هنيهة ويلقي نظرة فاحصة على خريطة المدينة التي معه حتى يتبين الطريق جيداً إلى موقع الداخلية! وكان سبب تعجبي هو أن البروفيسور من سكان المدينة، فتعجبت كيف لا يعرف طرقها وأزقتها ! ولكن زال تعجبي عندما استقريت في هامبورج، ورأيت شوارعها، ومداخلها ومخارجها المتشعبة . وكيف أنني بعد أن اقتنيت أول سيارة في هامبورج، وكانت بيجو ٢٠٤ حمراء اللون. في وقت لاحق اضطررت في أول مرة أقودها من الداخلية إلي الجامعة، أن أتركها في الشارع، وأعود بدونها إلى الداخلية بواسطة القطار الأرضي، الأندر قراوند!! والسبب هو أنني تهت بين دروب هامبورج الكثيرة ! وعلى الرغم من أنني كنت احمل رخصة قيادة من السودان. إلا إنني فضلت أن ادخل مدرسة قيادة في هامبورج حتى أتدرب جيدا على الشوارع ، وعلى قوانين الحركة. وحتى بعد حصولي على الرخصة الألمانية، كنت أذاكر الطرق كمذاكرتي للدروس! فأقوم بعد منتصف الليل بعد أن تهدأ الحركة، وأقود سيارتي في الطريق الذي ينبغي علّي غدا المرور به، واعرف أين أقف، وكيف ادلف يمينا أو يسارا !! واشتريت خريطة المدينة. ودرست طريقي في ذلك اليوم جيداً من الداخلية وحتى الجامعة، وحفظته عن ظهر قلب ، ووصلت إلى الجامعة في سلام . لكن لم يدر بخلدي وأنا أقود سيارتي في ذلك اليوم السعيد ، أن جزءاً من هذا الطريق هو لاتجاه واحد ، يقودني إلي الجامعة ولكن لا يرجعني إلى الداخلية! وبعد نهاية اليوم الدراسي، وارتياد المكتبة ، أردت الرجوع مساءاً ، فسلكت نفس الطريق الذي حضرت به صباحاً. وبعد أن قطعت شوطاً كبيراً منه، وجدت نفسي في طريق مقفول ، وممنوع الدخول فيه لأنه للاتجاه المضاد! وهذا لم أكن قد وضعته في الحسبان! وليس لدي الوقت للتفكير، فالسيارات المسرعة منطلقة من كل جانب ، ولم يكن لي خيار سوى أن أدلف يميناً أو يساراً . فتوكلت على الحي الذي لا يموت وقلت : فليجعلني الله من أصحاب اليمين! ودلفت في ذلك الطريق الذي لا أدري أين يبدأ وأين ينتهي؟ أو حتى ما هو أسمه . وظللت أقود السيارة قرابة الساعة وأنا أدور في حلقة مفرغة . وأخيراً وجدت نفسي بقرب محطة قطار أرضي. وكنت أعرف شبكته جيداً . فأوقفت السيارة في طرف من الشارع وأغلقتها جيداً وأخذت عنوان الشارع وأسم

المحطة وذهبت إلى الداخلية، وكانت الساعة قد قاربت الثامنة مساء . وفي صباح اليوم الثاني اصطحبت معي صديقاً ألمانياً أدرى منى بشعاب هامبورج ، وركبت بجواره وقاد السيارة حتى أرجعناها إلي قواعدها سالمة .

واذكر في مرة أخرى أن طلبت مني فراو كريسكو، سكرتيرة البروفيسور زقرت، بعد انتهاء المحاضرات أن أوصلها بسيارتي إلى منزلها الذي يبعد نسبيا عن الجامعة، لأنها كانت في عجلة من أمرها في ذلك اليوم. وكنت لا أزال حديث عهد بالقيادة، وبشوارع هامبورج، والليل في أوله، وبدأ المطر يهطل بغزارة، وابتلت الشوارع، وبدأت أنوار السيارات تنعكس على الإسفلت فتضعف الرؤية، وزاد الطين بلة أن الوقت كان وقت الذروة، والازدحام في أشده. فأصابني الارتباك، وأصبحت في كرب عظيم! أو ضربت لخمة، كما يقول المصريون! تقول لي فراو كريسكو : يسار، ادلف يمين! تقول لي: يمين، اطلع على طول! ونحن نقترب من نهاية شارع يتفرع يمين ويسار، ظلت تردد من مسافة بعيدة: يسار! يسار. يسار وأنا أقول: طيب! طيب! طيب! وعندما وصلنا المفرق، تصوروا!! دلفت نحو اليمين!! وللأسف كان ذلك بداية الطريق السريع! عند ذلك، ربّعت فراو كريسكو يديها على صدرها، واراحت ظهرها على المقعد، وأغمضت عينيها، وقالت لي: « قوتى فارت!» وتعني: رحلة سعيدة! ولاذت بالصمت العميق! وقدت السيارة مسافة تقرب من العشرين كيلومترا، حتى أول مخرج، وهدأت أعصابي قليلا، ونجحت بعد ذلك في إتباع توجيهاتها حتى وصلنا إلى بيتها، بعد أن بلغت الروح الحلقوم!! وبعد أن قضيت وقتا، شربت فيه كوب الليمون، الذي زعمت انه يهدي من أعصابي قليلا، وذاكرت خريطة هامبورج- التي لا أزال احتفظ بها كتذكار عزيز حتى الآن- عدت بحمد الله سالما إلى الداخلية. وكنت بعد ذلك أمازح فراو كريسكو من وقت لآخر قائلا: إلا تريدين أن أوصلك اليوم إلى منزلك ؟؟ فتقل لي:» ناين دانكيه___ أي لا شكرا- مرة وليست مرتين!!

ولكن هذه السيارة وعلى قدر ما أدخلتنني في كرب، إلا أنها أدخلت على نفسي ذات مرة المسرة والبهجة! كانت « البلابل» صاحبات الأصوات الشجية الفتانة في زيارة إلى عمتهن فوزية زوجة الأخ الصديق عامر موسى في هامبورج- رحمه الله. وفي يوم مغادرتهن لألمانيا طلب مني الأخ عامر أن أوصلهن إلى مطار هامبورج. وركب الأخ عامر بجواري في المقعد الأمامي، والبلابل على المقاعد الخلفية، وبينما نحن في منتصف الطريق ، إذ بأصوات شجية تنساب من المقاعد الخلفية وهي تغني: « يا سائق البيجو قم بينا بالدرب

التحت!!» وبلغت بي الهاشمية مبلغا عظيما، حتى خلت أن السيارة قد تطير بنا من فرط السرعة!

نهاية أليمة!!

ونعود مرة أخرى إلى داخلية « باول سودك هاوس » التى وصلناها عند مغيب شمس ذلك اليوم. وأخذ ابراهام متاعي إلى غرفته وأعد لي عشاءاً من البيض والجبن والزبدة واللبن ، وأخبرني بعد تناول طعام العشاء أنه يعرف أحد الطلبة السودانيين يسكن في الجناح الآخر من الداخلية ولكن لا يدري ما أسمه . فطلبت منه في شغف أن يأخذني إليه . ووجدته الأخ العزيز عمر سيد أحمد البيلي، المحاضر في كلية القانون بجامعة الخرطوم فيما بعد -شقيق أستاذي في جامعة الخرطوم البروفيسور عثمان سيد احمد البيلي. والذي شرفنا بالزيارة ذات مرة في هامبورج، لهما عاطر تحياتي- وكنت أعرفه من جامعة الخرطوم، وهو يحضّر للدكتوراه في القانون، ولم أكن أدري بوجوده في هامبورج. فكان اللقاء حاراً والسلام مطولاً . ويبدو أن فرحته بقدومي لا تقل بحال من الأحوال عن فرحتي بلقائه ، فلقد كان في حاجة لمن يؤنس وحشته . وأصر على أن أمضي الليلة معه في غرفته. وشكرت الأخ ابراهام الذي ودعنا وانصرف لحاله.

وكان قدومي إلى هامبورج في عطلة نهاية الأسبوع والمشرفة على الداخلية كانت في إجازة . ولكن الأخ الفاضل مصطفى سوركتى. الذي تعرفت عليه في صبيحة اليوم الثاني بغرفة الأخ عمر . اتصل بالمشرفة في منزلها وحضرت وأسكنتني في غرفة في جناح آخر من الداخلية تحمل الرقم ٣٤ .

و اشعر بالحزن العميق عندما أتذكر الحالة التي آل إليها الزميل ابراهام! كان الأخ ابراهام يتمتع بذكاء حاد؛ لكنه للأسف لم يواصل التحضير للدكتوراه، إذ أصيب بلوثة من الجنون! وأعيد إلى موطنه! ومن إرهاصات تصرفاته الغريبة نحوي، بعد هذا اللقاء الأول بسنة أو أكثر، إن قابلني ذات مرة في مكتبة الجامعة الرئيسية في شارع قرندل الى، وكنت قد دعوته للغداء معي في الداخلية في اليوم السابق للقائنا، واعدت لنا زوجتي وجبة سودانية شهية، وكنت كعادة السودانيين، أعطه قطعة طعام من هنا، وأخرى من هناك، وأصر عليه أن يتذوق صنفا معيناً، إلا انه كان يرفض ما ادعوه إليه! فقال لي في المكتبة: أنت أردت أمس أن تسممني في منزلك! فلقد كنت تصر على أن أتناول أصنافا معينة وضعت عليها السم لتقتلني!! لكن لم تنطلي عليّ مكيدتك فنجوت بفضل الله ورعايته لأنه

يحبني- وكان مسيحيا متعصبا- من الموت!!! فقلت له: تالله انك لمجنون !! اغرب عن وجهي! عافاك الله!! وفعلا ساءت حالته بعد ذلك ، مم اضطر البروفيسور إلى إرجاعه إلى موطنه في أكرا!! مسكين ابراهام، ماذا حل به يا ترى بعد ذلك؟؟!!

نوع آخر من الاختلاط!!

وإن كنا قد تعودنا بعض الشيء على الدراسة المختلطة في جامعة الخرطوم، وعلى اختلاط أكثر في معهد اللغة ببوبارت ، إلا أنه كان يتحتم علينا التعود على نوع آخر من الاختلاط ألا وهو السكن المختلط!! فلقد كانت خمساً من غرف الطابق العشر تحتلها طالبات يشاركننا المطبخ، والغرفة العامة، والمرافق الصحية . ولقد كانت تجربة جديدة وصعبت عليَّ في أول الأمر ، ولكن ما لبثت شأنها وشأن كل جديد أن تعود الإنسان عليها وأصبحت شيئاً عادياً لا يثير أدنى اهتمام . وأذكر أن إحدى الطالبات الألمانيات كانت تسكن في الغرفة المقابلة لغرفتي، تعلق على بابها دائماً لافتة تقول باللغة الألمانية ما معناه :» الرجاء قلب اللافتة عند حدوث حريق ! « وكنت أعجب من هذا الأمر كثيراً ، وأقول ماذا تفيد هذه اللافتة في حالة نشوب حريق؟؟!! وقررت أن أقلب تلك اللافتة في يوم ما . وبعد أن تأكدت من خروجها ذات مرة، قلبتها فإذا بي أقرأ ما معناه :» يا غبي ! لا تفعل ذلك إلا عند وقوع الحريق !!» ، وعرفت أنها تقليعة من تقليعات الغربيين الكثيرة! وهاندا قد شتمت نفسي بنفسي من جراء فضولي!!

ومن المقالب التي تحصل في مثل هذا السكن المشترك، حكى لنا الأخ الدكتور أسامة سيد الفيل، الذي وجدناه قد تخرج من كلية الطب قبل وصولنا إلى ألمانيا، وآخر عهدي به كان يعمل في المدينة المنورة، وكانوا هم مجموعة من الأطباء السودانيين، اذكر منهم الدكتور عفيفي محمود من ابناء بحري، والدكتور عصام حماد توفيق، رئيس قسم الأشعة الآن بمستشفى سليمان فقيه بجدة، لهم جميعا تحياتي. فيذكر الدكتور أسامة أنهم عندما كانوا طلبة في كلية الطب كانوا يقومون بإعداد طبخة سودانية «مدنكلة» ليلا يحتفظون بها في الثلاجة المشتركة، لتناولها في نهار اليوم التالي. لكنهم يجدون من طاف عليها، وهم نائمون، وتركها خاوية على عروشها! وبعد أن تكرر ذلك مرارا ؛ قرروا الانتقام من هذا اللص. فاحضروا معهم ذات يوم دواء مسّهل من المستشفى، وبعد إعداد الحلة قاموا بإضافة ذلك الدواء المّسهل ! وحضروا ثاني يوم ووجدوا الحلة كالعادة فارغة!

فجلسوا في الغرفة العامة حيث يجتمع الطلبة والطالبات ليلا ، وبدأوا في مراقبة الطلبة. فلاحظوا أن واحدا منهم لا يعود من الحمام إلا ليسرع مرة أخرى في الدخول إليه، من جراء الإسهال الحاد الذي ألمّ به! فواجهوه بالقصة. واعترف لهم بأنه لص الحلة. وبعد أن فضحوه وسط الطلبة، أعطوه دواء مضادا للإسهال. وحذروه من الاقتراب مرة أخرى من حلتهم!!

وتذكرني هذه الحادثة بحادثة مشابهة حدثت بعد ذلك بمدة في داخلية كيفتز مور. حيث دعاني مع زوجتي الأخ الصومالي/ اليمني شريف وزوجته دينا إلى طعام العشاء. وكان بالداخلية أشعب ألماني، لا يرى الناس مجتمعين حول الطعام. إلا ويحوم من حولهم كي يدعوه! وعلى الرغم من إننا كنا نتناول عشاءنا داخل الشقة. إلا انه وقف على الشباك وحيانا. فما كان من شريف إلا أن قال لنا: اليوم سوف اودبه لكم!! فقال له: تفضل يا.. نسيت اسمه. فدخل مهرولا. وكان هناك صحن صغير به الشطة الاثيوبيه الشهيرة «دليخ» مخلوطة بالليمون. فقال له شريف: جرب هذه السلطة. فهي شهية جدا! وملأ الرجل ملعقة كبيرة وتناولها! وشهق الرجل، وفتح أزرار قميصه كأنه يشق صدره طلبا للهواء، واخرج لسانه، وصرخ صرخة منكرة وجرى خارجا، وفعلا خشينا أن يصيبه مكروه، فلحقنا به ومعنا كوب كبير من العصير، وهدأ قليلا بعد تناوله، وانصرف دون أن يقل شيئا!!

ومن الطرائف التي يحكيها الأخ الدكتور أسامة والأخ الدكتور جيولوجي قاسم الجرافي، إنهما كانا يسكنان مع طالب الطب المتقدم عليهم عبد الرحيم حسين من الجريف، والذي أصبح من كبار أخصائي الأمراض الجلدية في السودان، وكانت ظروفهم المادية لا تكون جيدة في بعض الأوقات، فينامون من دون عشاء. ويحاولون النوم في ذلك الشتاء القارص، لكن لا سبيل إلى ذلك والبطون خاوية، فيكثرون من التقلب في أسرتهما، بينما الأخ عبد الرحيم يغالب الجوع بالمذاكرة! وفجأة يقذف الأخ عبد الرحيم كل واحد منهما بكتاب قائلا لهما، هاكم اقرؤ يا شباب !! ثم يقول بأعلى صوته:

تموت الأسد في الغابات جوعى × × ولحم الضأن تأكله الكلاب!

ولكنهم لم يلحقوا بالأسود، وصبروا، ونجحوا، وظفروا؛ لهم تحياتي.

مع السلامة.. أيها الزنجي الأسود!

لا أحب أن أدخل في التفاصيل الدقيقة لبقائي في هامبورج ، فذلك أمر ممل ولاشك ، وهي عادية ولا جديد فيها غالباً . ولقد بقيت شهرين في داخلية باول سودك هاوس ، غادرتها بعد ذلك إلى داخلية تابعة للأكاديمية الكنسية البروستنتانية في منطقة أوتمارشن الارستقراطية الهادئة ، تقع على شارع كالكرويت فيق، ثم انتقلت منها بعد سنة تقريباً وسكنت لفترة قصيرة في شقة خاصة في ايزي اشتراسه أيضا رقم ٦- ولها قصة ستأتي لاحقا___ ومن بعد إلى منطقة كيفتز مور حيث استقريت أولاً في داخلية تحمل نفس اسم المنطقة ، وأخيراً انتقلت إلى داخلية هرمان الا هاوس ، وهي لا تبعد كثيرا عن داخلية كيفتز مور التي بقيت فيها حتى مغادرتي نهائياً إلى السودان. وسأحاول أن أجمل ذكرياتي عن الغربة تحت بعض العناوين ، لأنها شتيت ومتنوعة .

وحدثت قصة جديرة بالذكر في داخلية كيفتز مور. فلقد كانت الداخلية مقسمة إلى عدة شقق، تتكون كل شقة إما من غرفتين، ثلاث أو أربع غرف وصالة كبيرة، ومطبخ مشترك. وكنت مع زوجتي نسكن في شقة من ذات الأربع غرف نستغل غرفتين، وتشغل الطالبة الألمانية سيبلا غرفة ثالثة، والطالب الألماني توماس الغرفة الرابعة . وكانت زوجتي تمضي في ذلك الوقت فترة دراسة اللغة الألمانية في معهد جوته في مدينة لونا بورج ، التي تبعد حوالي ١٠٠ كيلو من هامبورج، وتسكن مع أسرة ألمانية هناك، وتأتي إلى هامبورج في نهاية كل أسبوع. وذات مرة وأنا منهمك في القراءة إذ بي اسمع طرقا خفيفا على الباب، ولما فتحته وجدت سيبلا على الباب. ودخلت طالبة استشارتي في موضوع خاص. وأخبرتني أنها تحب احد زملائها من الطلبة الألمان، وهو يبادلها نفس الشعور. فقلت لها : إذا ما هي المشكلة؟ فأجابت المشكلة تكمن في أن زميلها هذا- أو صديقها على الأصح- متزوج! وهي لا تريد أن تفعل شيئا من وراء ظهر الزوجة؛ لذا قررت أن تقدم لها دعوة في الشقة للتعارف، وتطلعها على الأمر، وتتطلب منها تقبل الأمر الواقع، وان يصبح الثلاثة أصدقاء!! فحذرتها من الإقدام على ذلك! لكنها ضحكت وقالت لي إن عقليتكم مختلفة عن عقليتنا، وهذا أمر طبيعي لدينا، فنحن على قدر كبير من التحضر في هذه المسائل! ولو كانت تفهم الحكي السودني لقلت لها:» يابت خلي الطرطشة!«- لان هذا هو القول الابلغ في مثل هذه الحالات- فالحضارة شيء، « وراجل المرأة ده شيء تاني، وان

كان حلو حلا!!» وعندما رأيت إصرارها، وتسفيهها لرأي، طلبت منها أن تخبرني بيوم الدعوة حتى أكون موجودا في الشقة على اقل تقدير. ولقد استحسنت ذلك، ويبدو أن مجيئها إليّ كان بقصد الطلب مني أن أكون موجودا في يوم الدعوة- وإن لم تفصح- حتى لو احتدم الأمر تستغيث بي!! وجاءت الزوجة المغدورة في موعدها، واستقبلتها في الغرفة العامة، ثم دخلتا غرفة سيبلا، ودخلت غرفتي! وقد أكرمت سيبلا وفادتها، إذ أعدت جاتوه، لم تنس أن يكون لي منه كذلك نصيب؛ ولم يكن توماس موجودا حينئذ. وبعد حوالي نصف ساعة، وبينما أنا أتناول ذلك الجاتوه اللذيذ مع كوب من الشاي المقنن، إذ بي اسمع فجأة صراخا عاليا صادرا من غرفة سيبلا! فهرولت إلى الغرفة ودفعت الباب، ورأيت المسكينة مطروحة على السرير، والزوجة ممسكة بشعرها بيد وضاغطة بركبتيها عليها في السرير، وتكيل لها اللكمات بيدها الثانية من كل جانب!! ولم تستطع سيبلا قط أن تدافع عن نفسها بغير الصراخ. خاصة أن ليس هناك تكافؤ في بسطة الأجسام! فسعيت بكل ما أوتيت من قوة كي ابعد عنها الزوجة. ونجحت بعد جهد جهيد، في تخليص سيبلا؛ والتي لم تصدق أنها نجت، وفتحت باب الشقة وهربت لا تلوي على شيء!! ولم أرها إلا في آخر الليل. فقلت لها: لو كنت متخلفة قليلا مثلنا، لما تعرضت لهذا الضرب وهذه الإهانة، فللتخلف أيضا فوائد كما رأيت!! لكن يبدو أننا تحضرنا أخيرا، وأصبحنا مثلها نتغنى بحلاوة أزواج المحصنات!!!

الصدق والأمانة لدى الأطفال

يبدو أن هناك خللاً ما في تربيتنا نحن السودانيين والشرقيين بصفة عامة للأطفال. أقول ذلك وأنا عرفت الأطفال عن كثب خلال فترة من العمر زادت على الخمس سنوات، حينما عملت معلماً في المدارس الأولية في الفاشر وامكدادة. وعندما أتاحت لي الظروف أن ألتقي بأطفال أوروبيين، وعلى وجه الخصوص ألمان عن قرب، لمست الفرق في التربية والتصرف بين هؤلاء وأولئك.

فلقد كنت أسكن في بداية عهدي بألمانيا مع أسرة ألمانية لها من الأطفال اشتفان وسيمونة كما تقدم. ولأن الأوروبيين ليس لديهم الكثير من الوقت لقضائه مع الآخرين، ولأن المغترب أو الغريب في الجانب الأخر لديه الكثير من الوقت، فلا يجد بداً من التحدث إلى الأطفال، الذين لديهم الوقت بالإضافة إلى حب الاستطلاع الغريزي لمعرفة شيئ

ما عن كل غريب ، إنساناً كان أم آلة . ومن أين ولماذا أتى هذا الغريب وكيف يعيش وأي لغة يتكلم.

ولا أود هنا أن أدخل في مقارنة مفصلة بين تربية أطفالنا وتربية أطفالهم . فأنا أعرف أسباباً كثيرة للفوارق تجعل مثل هذه المقارنة مجحفة ، أو كما يقول الإنجليز « انفير Unfair » . ولكن كل الذي أتمناه هو أن يكون أطفالنا ، وبالذات في ناحية الصدق والأمانة مثلهم . وأحب أن أتغاضى ولو للحظة عن المثل القائل : فاقد الشيء لا يعطيه . فلطالما كذبنا على أطفالنا وخدعناهم . وفي اعتقادي المتواضع أن الصدق والأمانة من أهم الأركان الأساسية التي تقوم عليهما التربية السليمة . فالألمان يكرهون ويمقتون الذي يكذب عليهم أو خاصة على أطفالهم . وأذكر ذات مرة أن دعتنا سكرتيرة الكلية، فراو كريسكو، التي تقدم الحديث عنها في الحلقة السابقة، أنا ومعي أخ سوداني من خارج الجامعة يعمل في تجارة السيارات، لتناول الشاي في منزلها ، وكان هذا الأخ يطلق الحديث على عواهنه، ويتحدث بصوت عالٍ تتخلله ضحكات عالية كذلك .

وعندما وصلنا إلى الدار ، جاء إلينا أطفال الأسرة وبدؤوا في براءة شديدة يوجهون إلينا الأسئلة المعقولة وغير المعقولة . وكان من بين الأسئلة التي وجهت إلينا: لماذا أنتما أسودا البشرة هكذا؟ فما كان من صاحبي، إلا أن قال لهم، أن السبب يكمن في أن أجسامنا ليست كأجسامهم ، وهي تحوى بداخلها حطباً وفحماً ، وهذا السواد هو انعكاس للفحم الداخلي !! وعند ذلك حدث ما لم يحمد عقباه ، إذ انفجرت السيدة كريسكو غاضبة وثائرة وقالت لصديقي : كيف تقول مثل هذا الكلام الفارغ لطفل صغير ؟ إنك إنسان غير مسؤول وأنت جاهل ... وأنت ...الخ. « وفي لحظة انقلبت الدعوة إلى شكلة ، وعبارات الترحيب إلى سباب، وتدخلت حمية الأخ فأقسم أن زوجته طالق إن بقينا دقيقة أخرى في ذلك المنزل! وخرجنا وأنا أتحسر على أكواب الشاي والقهوة و الكوخن -اي الجاتوه ومشتقاته - الألماني اللذيذ الطعم الذي حرمنا منه ذلك الصديق نتيجة لحماقته وسوء تصرفه . أتذكر كل هذا ، وما إليه رميت أولاً ، ولكن كما يقول المثل : الحديث ذو شجون. فبخاطري قصة أخرى تتصل بالأسرة التي كنت أسكن عندها ، وبطفلتها سيمونة ، وهي تدور كذلك حول الصدق والأمانة والثقة . فلقد كانت سيمونة التي تقدم ذكرها ، تبلغ من العمر حوالي التسعة أعوام ، وقد ملئت لحماً وشحماً ومنعها الطبيب من تناول السكريات . وكنا نجلس ذات مساء نشاهد مباراة مهمة بين ألمانيا وبين إحدى الدول

في غرفة المعيشة لدى أسرة الهر مازر. وهي تعادل عندنا غرفة الاستقبال أو الجلوس. وطلبت الأم من أبنتها أن تعد لنا الشاي . ودخلت سيمونة المطبخ : وبعد قليل سألت أمها من الداخل : ماما هل أضع قليلاً من السكر في كوبي ؟ فلم تثر الأم أو تقطع حديثها بل أجابتها في اقتضاب شديد :الطبيب قال لا. ولم تزد على ذلك واستمرت معنا في الحديث . ولكنني قاطعتها قائلاً : هل هذا القول كاف لمنع الصغيرة من وضع السكر في كوبها ؟ فقالت : نعم ! وقلت لها: لا أعتقد . فالطفلة وحيدة داخل المطبخ . والسكر لذيذ ومغر وهو معها بالكوم، ولا أحد يراقبها . وقالت لي فراو مازر : أنتظر وسوف نرى. وبعد قليل أحضرت لنا سيمونة الشاي والسكر ووضعت كوباً أمامها . وافتعلت الأم للصغيرة مهمة في جزء آخر من المنزل. وعندما غابت سيمونة عن نظرنا أعطتني الأم كوب أبنتها طالبة مني أن أتذوقه حتى أتحرى من وجود سكر بداخله أم لا . ولقد كان كما توقعت هي . لا كما توقعت ، مراً كالحنظل ! وعندما رأت انعكاس المذاق المر على وجهي قالت لي : لو كنا أجرينا رهاناً لكسبت!

وهذه الحادثة. أو سمها الدرس. جعلتني أتعلم أنه بالإضافة إلى الصدق والأمانة . يجب أن نفهم الصغار أنهم موضع ثقتنا . فذلك أمر يقوي من ثقتهم بأنفسهم . فرأيت أنها لم تتهم أبنتها ظلماً ، ولم تسألها مباشرة : هل وضعتين شيئاً من السكر في كوبك ؟ حتى لا تجرح كبرياءها، ولم تقم بتذوق الشاي أمامها حتى لا تظن الطفلة أن والدتها لا تثق فيها . أما نحن. وأستميحكم العذر. إن حدث لنا ذلك ، لتربصنا أولاً بالطفلة داخل المطبخ حتى نقبضها متلبسة بالجريمة، التي نكون قد اقتنعنا سلفاً أن الصغيرة سوف ترتكبها . وعندما تخرج لقلنا لها أنت كاذبة فلقد وضعت السكر في الشاي ! وعندما تنكر المسكينة هذه التهمة الزائفة ، نقوم بتذوق الشاي أمامها وأمام الحاضرين . فنحطم في نفسها الصغيرة الكبرياء والثقة وتفقد هي بدورها الثقة فينا !!

وحادثة أخرى صغيرة كذلك ولكنها كبيرة في مضمونها . فلقد كنت داخل الحانوت المجاور لمنزل هذه الأسرة أتجول داخل الممرات الصغيرة أختار بعض اللوازم . ودخل طفل صغير لا يتجاوز السابعة وعلمت أنه يريد أن يشتري حلوى بمبلغ مارك . فقالت له صاحبة الحانوت : أدخل وهناك على يسارك تجد بغيتك، وخذ خمس قطع . ودلف الصغير إلى المكان ، وتظاهرت بأنني أقرأ بعض ما كتب على المعلبات ، ولكن كنت أراقبه

بطرف خفي ، وهو لم يعرني أدنى انتباه . وملأ يده الصغيرة بالحلوى وهم مسرعاً بالخروج ، وتنفست الصعداء ، إذ وجدت أن واحداً من صغارهم يمارس السرقة ، ولا يختلف كذلك عن بعض صغارنا . ولكن خاب ظني ! فرأيته وهو خارج يعد ما أخذ من الحلوى ، وقبل أن يصل إلى صاحبة الحانوت، رجع أدراجه وفي عفوية تامة أرجع بعضاً مما أخذ بعد أن أختار الخمس قطع المطلوبة . فالتفت إلى ناحية أخرى وتمتمت في سري : حتى أنت يا بروتس الصغير !! وفوق ذلك فان صاحبة الحانوت لم تتحر عن عدد قطع الحلوى التي أخذها الطفل! ما أحلى أن تقوم المعاملات على الثقة!

العجوز الماكر!!

وجرياً وراء هذه الموجة الجارفة من الصدق ، شاء الله أن يجعلنا كذلك من الصادقين! ففي صيف عام ١٩٧٩م ، جاءنا ضيف عزيز من السودان، هو خال زوجتي الأخ سيد الحاج مكي وزوجته الدكتورة ابتسام أمين قريش، والصغيرة الحلوة رحاب ، التي أصبحت قبل فترة وجيزة: الأم رحاب! مبروك وتحياتي. وخرجنا سوياً ومعنا عائلته في زيارة عمل وشراء إلى مونقابرق اشتراسا ، الشارع التجاري الرئيسي في هامبورج، والذي هو بمثابة شارع الشانزليزيه في باريس، واكسفورد استريد في لندن. ودلفنا بالسيارة إلى مكان خاص لتخزين السيارات . وبعد أن أوقفنا السيارة أخذت الكرت الخاصة بالموقف ، ونظراً لأنني شخص كثير النسيان قمت بتسليم الكرت لزوجتي كي تقوم بحفظه .

ودخلنا السوق ، وبعد جولة طويلة أحست الطفلة بالإرهاق ، فرأينا أنه من الأفضل أن تعود مع والدتها وزوجتي إلى المنزل وأكمل مع الضيف بقية المشوار . وبعد مضي بضع ساعات أنهينا المهمة وقررنا الرجوع . وعندما توجهنا نحو موقف السيارات ، تذكرت فجأة أن زوجتي أخذت معها الكرت! وفكرت طويلاً في الحل : هل أذهب إلى المنزل وأحضر الكرت ؟ ووجدت ذلك أمراً في غاية الصعوبة ، فالمنزل يبعد بما لا يقل عن خمسة عشر كيلومتراً عن السوق . ثم فكرت في أن أخترع كذبة معقولة عساها أن تفدني لدي البواب . وكنت أستشير ضيفي في ذلك ، كأن أقول مثلاً : لقد أضعت الكرت أثناء تجوالي في السوق ، أو أن أتهمه بأنه نسي ولم يسلمني الكرت أصلاً ، ولكن اتفقنا أخيراً أن نطبق المثل السوداني القائل : « الصدق لو ما نجاك، الكضب ما بنجيك!» وقررنا أن نحكي له الموضوع كما حدث تماماً وليحدث ما يحدث .

ووصلنا البوابة ووجدنا الرجل العجوز داخل الغرفة الصغيرة ينظر إلينا من خلال نظارته نظرة ترقب ولم ينبس ببنت شفة . وبدا لي المكر الشديد من خلال النظارة . وبدأت أحكي له القصة بحذافيرها . ولم يقاطعني قط . وأول ما انتهيت من سرد القصة قال : رِشتش ! وتعني بالألمانية صحيح . وأخرج الكرت !! وتعجبت لأمرين . أولاً كيف علم أن ما ذكرته صحيحاً ، وثانياً لماذا سكت كل هذه المدة وتركني أسرد القصة رغم علمه بها؟ يبدو أنه أراد أن يختبر مدى صدقي . فلقد علمت زوجتي أول ما انصرفت أن الكرت معها ، فطلبت من سائق عربة الأجرة التي أقلتهم، أن يعرج بهم إلى موقف السيارات ، حيث قامت بتسليمه إلى هذا العجوز . فحمدت الله أن أدخلنا في زمرة الصادقين، ونجونا من أن يضحك علينا ذلك الشيخ الماكر وينعتنا بالكذب .

ومن أنواع التربية التي تعلمتها من الأطفال، أذكر أن كنت ذات مرة في الاندرقراوند في طريقي من الداخلية إلى الجامعة. وكان يجلس في مواجهتي طفلان قد يكونا دون العاشرة. وعلى الرغم من أنهما يتحدثان بصوت منخفض- وهذا الصوت المنخفض له كذلك قصة مع الأخ العقيد منصور سليمان نؤجلها قليلاً - إلا أنني حاولت أن أسترق السمع لأعرف ما يناقشه هذان الصغيران! فقال أحدهما للآخر: أنني سوف لن أتمكن طوال هذا الأسبوع من تناول طعام الإفطار في المدرسة. فسأله الآخر: لماذا ؟ وكانت إجابة صاحبه: أنني قضيت على علبة المربي بكاملها في ظرف يومين، فحكم علّي أبي أنه لابد أن اشتري علبه بديلة من مصروفي الخاص!! وبقدر تعجبي من حكم هذا الأب، ولا أعرف رأى التربويين في صوابه أم خطئه، كان تعجبي أكثر من أجابه صاحبه. أذا أجاب بكلمة واحدة فقط (LOGISCH) لوقيش - أي منطقي!! فهو لم يبد استغرابه، لأنه تعلم أن أي خطاء لا بد له من عقاب، لذلك عندما يكبر سوف لن يكون من حزب عفا الله عما سلف!!.

أما الأخ الصديق العزيز العميد معاش بالشرطة منصور سليمان من أبناء سنجة، كان في دورة تدريبية في هامبورج، وهو نعم الأخ، وغاية في الكرم مع زوجته الأخت الفاضلة فاطمة. والأخ منصور يتمتع بصوت جهوري، من الذي أذا تحدث أسمع وأفاض! وكنت أجلس معه ذات مرة أيضاً في الاندرقراوند، وكانت العربة خاليه لأن اليوم كان يوم أحد، وما بالعربة غيري ومنصور، وامرأة ألمانية تجلس في آخر العربة وبجانبها طفل لم يتعد عمرة الثالثة. وبدأ منصور يحكي لي بذلك الصوت الجهوري، الذي تردد في كل العربة

صداه. فما كان من الطفل الصغير إلا أن جاء ألينا، ووقف أمام الأخ منصور، ومع انه لم يتعلم الكلام بعد، إلا انه أراد أن يسكت الأخ منصور بطريقته الخاصة، فما كان منه إلا أن عبر عن ذلك بوضع إصبعه على فمه بمعنى اسكت!! لكن الأخ منصور صرخ فيه قائلا له أمشي من هنا يا أبن الكـ......!! فهرول الصغير جزعا إلى أمه! فهذا من نعومة إظفاره لا يحب الضوضاء! تحياتي للأخ الصديق منصور.

ومن الأشياء التي أعجبتني في تربية الألمان للأطفال، اهتمامهم بما يسمى بـ سوق الأطفال ، الذي كان يقام من وقت إلى آخر في أحد ميادين كل حي، أو في شارع يقفل ذلك اليوم لهذا الغرض، ويعلن عن ذلك قبل وقت كافٍ. ويكون البائعون والمشترون كلهم من الأطفال بالإضافة إلى بعض ذويهم. وهذا السوق يبيع فيه الأطفال ألعابهم القديمة، وكتبهم. فهم لا يرمونها أو يكسرونها بل يحضرونها إلى السوق بهيئة نظيفة وجميلة. وكم مرة تجولت داخله، وشاهدت كيف يتم البيع، والذي يكون في العادة بطريقة المساومة على الطريقة الشرقية، وليس هناك سعر ثابت. كما لاحظت أن بعض الأطفال يمارس البيع بالمبادلة، فيستبدلون كتبهم وألعابهم بأخرى من أقرانهم. ويستمر السوق لفترة غير قصيرة يفرح، ويمرح، ويتبايع فيه الأطفال، وحتى السندوتشات يقومون هم بإعدادها وبيعها لرواد السوق. ويعودون في نهاية اليوم، إما مع ذويهم أو فرادى إلى دورهم، بعد أن يقوموا بنظافة موقع السوق، وبعد أن يكون كل واحد قد أضاف مبلغا من المال إلى حصيلته ، أو استبدال ألعابه وكتبه بأخرى!!، وتعلم درسا عمليا في عملية البيع والشراء، واتخاذ القرار بنفسه!

وبالطبع أنا أقول دائما إن المقارنة بنا قد تكون مجحفة، وربما من يرد عليّ قائلاً : هل لدى أبنائنا أصلا العاب أو كتب يبيعونها أو يستبدلونها ؟؟ أقول نعم معكم حق، ولكن التشبه بالرجال فلاح لمن يملك!!

والمعادلة الصعبة التي لم أستطع فهمها جيداً، هي المعاملة الكريمة الطيبة، والتربية التي يوليها الألمان لأبنائهم، وكيف أنهم يغدقون عليهم الحب والحنان والعطف، ولكن عندما يشبون عن الطوق، ويقوى عودهم يفرون بعيداً ولا يأبهون بوالديهم!

ولعل مرجع هذا العطف الزائد على الأطفال هو أدراك الكبار جيداً، بأن هؤلاء الأطفال ما هم سوى ودائع مؤقتة، وسوف يفقدونهم مستقبلاً طال الزمن أو قصر. فخشيتهم من

ذلك هي خشية العقاد من فقدان حبيبته. والتي عبر عنه أصدق تعبير بقوله:-
كأنا نَزوُد البين بالقُرب بَيننا ×× فنشتد من خوف الفراق تدانيا
أذكر ذات مرة كنت واقفا ضمن مجموعة من الألمان في محطة كيفتزمور في انتظار القطار الأرضي، وكانت تقف بجواري أم ألمانية شابة. وتمسك بيديها طفلين صغيرين لا يتجاوز عمر الواحد منهما خمسة أعوام. فسأل أحدهما أمه في براءة قائلاً: ماما... ماما لماذا نحن صغار هكذا وبقية الناس كبار؟ فشرحت له السبب في بساطة واقتضاب. وأردف الطفل قائلاً: وهل سنصبح ذات يوم كباراً كهؤلاء ؟ . فأجابت الأم: نعم . وأردفت في تحسر واضح: ولكن أحب إليّ كثيراً أن تظلا دائماً صغارا هكذا ! وأشاحت بوجهها بعيداً، أخالها تفكر في ذلك الواقع المرير الذي تتوقعه. وذلك المجهول الذي تخشاه!!
لكن حب الاستطلاع الغريزي لدى الأطفال، قد يدفعهم في بعض الحالات- لا استطيع أن أقول إلى الوقاحة- لكن إلى صراحة قد تكون لاذعة!! اذكر كنت ذات مرة في دورة تدريبية بمتحف مدينة اشليزفيك الرائعة في الشمال. ولم أر في المدينة أسود غيري. لذلك كان أمر وجودي ملفتاً للنظر أينما حللت. وكان ذلك أمراً جديداً على الأطفال في الحي الذي سكنته. وكانوا يسيرون خلفي لمسافات طويلة دون أن يخرجوا عن حدود التهذيب والأدب. وذات يوم استجمعت طفلة صغيرة منهم لم تتعد السادسة بعد شجاعتها، وتقدمت نحوي وألقت عليّ التحية، وسألتني ببراءة شديدة: لماذا أنت أسود هكذا ؟ وفرحت وقلت هذه فرصة حسنة عليّ أوضح لها السبب وأقنع واحداً في المليون وأبعده عن العنصرية. فبدأت أشرح لها ببساطة شديدة أننا جنس مختلف وطقسنا حار و...الخ . فبدأت تسألني مرة أخرى: وهل والدتك وجدتك سوداوان مثلك كذلك؟ فأجبتها بالإيجاب. وكانت تبدي اهتماما شديداً بإجابتي. وفرحت لأنه بدا لي أنها بدأت تتفهم بعض الشيء. لكن يا فرحة لم تتم!! إذ بها تفاجئني عندما أرادت أن تذهب بأن قالت لي مع السلامة- ليس فقط أيها الزنجي – بل مع إضافة، قائلة: مع السلامة أيها الزنجي الأسود!
وذات يوم كنت أتجول مع الصديق الألماني بيتر في حديقة الحيوانات بهامبورج، فتقدم طفل صغير نحوي مشيراً إليّ بأصبعه قائلاً بصوت عال: زنجي Niger! ولم أتأثر أو أثور، ولكني رأيت الألم والإحراج باديين على وجه مرافقي وكأنه هو الذي أذنب. فضحكت وخففت عليه الموقف بأن حكيت له قصة حدثت لي في السودان قبل حضوري إلى ألمانيا، تتلخص في أنني أحضرت ذات مرة بنات أختي الكبرى مريم إلى المتحف

القومي السوداني بالخرطوم، وبعد أن طفنا بأقسام المتحف المختلفة، جلسنا ننشد شيئاً من الراحة في الكفتيريا؛ وبينما نحن كذلك رأت حميدة - والتي لم تبلغ من العمر السادسة من عمرها بعد- أوربياً قادماً نحونا، أبيض اللون، له لحية طويلة، وشارب كث، وشعر متدلي على فوديه، فصاحت قائله : خالي...خالي. أنظر إلى هذا القرد! وهبت مذعورة من مقعدها تريد أن تنجو بنفسها. و قلت لبيتر: أظنك توافقني على أن زنجي أخف وطأة من قرد ! وفوق هذا وذاك، هؤلاء أطفال لا تثريب عليهم ، فضحك بيتر وزال عنه الحرج.

بريد القراء:

اسمحوا لي أن استعرض بعض القراء، الذين بقوا طويلا في الانتظار، معبرا لهم عن الشكر الجزيل، والتقدير والعرفان لكلماتهم الطيبة، التي كان لها أطيب الأثر في نفسي، وهم:

كمال شرف الدين احمد ابراهيم القاضي من أبناء امدرمان، ويعمل في الرياض، والذي يقترح فكرة إنشاء جمعية أصدقاء صدى الذكريات، وهي نفس الفكرة التي ذكرها الأخ العزيز حسن عبد الباقي من أبناء النيل الأبيض، ويعمل في ينبع___ والذي مشكورا لم يفتأ يتصل بي من وقت لآخر- والأخ المحامي عبد الباقي الطيب من أبناء الدامر وأبن عم الرجل الموسوعة في الفن السوداني السر قدور، ومن كتاب جريدة الخرطوم ويعمل في الرياض- عبد الماجد خليفة بمحايل ومن أبناء منطقة الشيخ طيب ود السائح- لؤي عثمان من محايل - دفع الله محمد نور من الرياض، والذي وصف الذكريات بأنها « واحة في صحراء الغربة «- ذو النون الكاروري من الوجه، والذي ذكر أن له ذكريات شبيهة مابين كسلا وأم درمان و أم روابه- عماد الدين محمد حامد من مواطني شندي بالرياض، والذي ذكر أن ذكرياتي تنم: عن قلب طيب ، - الأخ احمد حاجاب من بورتسودان وشيخ المترجمين بجدة -الدكتور طبيب بيطري النور يوسف من القريات وأخته المحاضرة في أحدى الكليات هناك- كمال حسن من سنار التقاطع وصديقه عوض إبراهيم عوض عبد الكريم من أبناء حفير موشو- الأخ على مروح إبراهيم من المرابيع بالجزيرة، والذي أتصل بي مشكورا أكثر من مرة، ويرى أنه لا يحسن بنا أن نكثر من وصف السودانيين بالصفات الحميدة حتى لا يصابوا بالغرور، لكني- أخي علي-

اني أميل إلى قوله تعالى « ولا تبخسوا الناس أشياءهم ».. وليسمح لي القراء أن ادخل الحوش، وأزجي الشكر لصهري وصديقي المهندس زراعي نبيل عيسى الفاضل من أبناء امدرمان ويعمل في رحيمة، والى ابني الأصغر الدكتور طبيب احمد. وهو الذي منحته حق السنسرة في هذه المقالات ، فهو آ خر من يقوم بقراءتها قبل إرسالها إلى النشر! وقد استأنست كثيرا بآرائه الصائبة رغم حداثة سنه. لأني أردت أن اعرف ماذا يرى الجيل الأصغر في الذي فعله الجيل الأكبر!! واطمئنوا. إذ كان بكم حفياً. ولم يحرمكم من شيء يذكر- حتى الآن على الأقل!!___ ثم جاء دور أبناء الفاشر: أخي وصديقي التجاني محمد احمد الفه، والأخ الصديق فاروق إسحاق . ويعملان بالمستشفى العسكري في الرياض ، وكذلك الأخ العزيز حسن عثمان حمزة من جدة- ونادر عجب من الرياض. والشاعر الفحل عالم عباس محمد نور، ومن الجنينة الأخ ابوالقاسم محمد أبو القاسم (الشيخ)، ومن نيالا الأخ إبراهيم ادم سليمان.

والأخ عزام الطريفي من المدينة عرب ،الذي اتصل مشكورا أكثر من مرة. وأرسل أكثر من رسالة الكترونية جاء في إحداها: أنت مش بدين، انت متين كمان ومتين في ذكرياتك. ومشتاقين وننتظر كل يوم سبت- والأخ رشيد إدريس موسى من الرياض. والذي أثنى على المقالات الخاصة بجامعة الخرطوم التي كان يرتاد مكتبتها أثناء تحضيره لشهادة زمالة المحاسبين في لندن؛ وذكر أن الشخص الذي ينتمي إلى الغابة، ودرس في الفرع، وسكن في الشجرة هو السباح الدولي كيجاب! - والأخ بابكر احمد ابراهيم الطاهر من أبناء مدني ويعمل بالطائف- الأخ الطيب محمد احمد من أبناء ابو زبد، ويعمل في الرياض- عبد العظيم مصطفى، من أبناء مدني ويعمل في عسير- الأخ الصديق جمال محمد احمد الدنقلاوي، من مطعم الخرطوم بجدة، والذي أبلى بلاء حسنا في توزيع كتابي:« الفلاتة الفلانيون في السودان» مع أخيه الكريم الذي يصر على إكرامي كلما ارتدت مطعم الخرطوم لهما الشكر- الأستاذ محمد محمود من أبناء البرداب، ويعمل في القويعية-والأخ فيصل محمد ابراهيم من مدني، الذي عمل فترة طويلة في زالنجى في حقل التمريض، ويشير بصفة خاصة إلى الأمن المستتب في ذلك الوقت الندي، وكيف كان يسافر بالحصان لإحضار الدواء من زالنجى إلى قور، دون ان يخشى شيئا- وكذلك محمد سعيد علي من مواطني دنقلا، الذي عمل ابنه في رهيد البردي (معقل قبيلة

التعايشة) وتعلق قلبه بها أكثر من موطنه في الشمالية! -والأخ عبد الملك عبد القادر بريقع من ابناء رفاعة، ويعمل بالمدينة المنورة، واتصل مشكورا أكثر من مرة، ومعجب ببساطة كلمات صدى الذكريات، وبصفة خاصة المقال الذي ورد فيه قصة المرحوم الشيخ عبد الرحيم البرعي مع الأخ السعودي الذي زاره في الزريبة. لكم جميعا مرة أخرى ألف ألف شكر وتحية.

واختتم بالأخ السعودي، الأستاذ فؤاد محمد الصبحي، أخصائي المختبرات في مختبر جدة الإقليمي، ومن المعجبين والمتابعين لصدى الذكريات، وهو شاب في منتهى التهذيب والأدب، ومتقد الذكاء، وهوايته العلم ثم العلم ثم العلم! فهو بجانب تعلمه للغة الألمانية، يواصل تعلم اللغة الإنجليزية، ويتعلم اللغة الفرنسية، وكذلك اللغة الروسية، في نفس الوقت! وبلغ به شغفه بالعلم أن سافر من السعودية إلى ألمانيا لإحضار كتاب في قواعد اللغة الألمانية نادر الوجود هنا!! تمنوا له التوفيق والنجاح. واعتذر مرة أخرى لبقية القراء، الذين سوف استعرض رسائلهم في الحلقات القادمة إن شاء الله، لضيق المجال.

«إن تنصروا الله ينصركم ويثبت إقدامكم»... صدق الله العظيم

هذه حادثة تعود إلي شهر مايو من عام ١٩٧٦م ، وكان مسرحها مدينة باد سيقي بيرق الواقعة في شمال جمهورية ألمانيا الاتحادية . وكنت أسكن وقتها في داخلية تقع في شارع كالكرويت فيق في حي اوتومارشن الراقي، تابعة لإحدى المنظمات المسيحية . ورأت هذه المنظمة . والتي تشرف علي عدة داخليات في هامبورج . أن تعقد ندوة حول :» صحوة أفريقيا السوداء» ، وبدأت الاستعدادات الأولية لتلك الندوة في إحدى هذه الداخليات . ودُعي إلى اجتماع حضره كل الطلبة الأفارقة الذين يسكنون في داخليات هذه المنظمة من جانب ، ووفد من الأكاديمية الأفانجليكية بولاية اشليز ليش هولشتاين التى تنظم الندوة من جانب آخر . وضم الاجتماع طلبة أفارقة من زائير ، زامبيا ، تنزانيا ، أنجولا ، غانا . وكنت الطالب الوحيد من السودان بينهم في ذلك الاجتماع ، وكذلك في نفس الوقت المسلم الوحيد بين هؤلاء الأفارقة المسيحيين.

وكان الغرض من هذا الاجتماع المشترك هو اختيار وتحديد المواضيع التي سوف تطرح في الندوة . واختيرت مواضيع دينية وسياسية واجتماعية عديدة . واخترت أن أتحدث عن انتشار الإسلام في غرب أفريقيا . وبدأت معارضة ناعمة من داخل الاجتماع، وأرادوا أن يبعدوني عن الاشتراك في الندوة بحجة أن السودان لا ينتمي إلى أفريقيا السوداء ، وأنهم إن قبلوا اشتراكي فلابد أن يقدموا الدعوة كذلك لطلبة من أفريقيا الشمالية ، وهم يرغبون فقط في حصر الموضوع في أفريقيا السوداء ! ودار نقاش مستفيض وقف فيه إلى جانبي المشرف على الداخلية التي أسكن فيها ، الدكتور كمباوسن ، والذي أصّر على إشراكي في الندوة محتجاً على أن السودان هو أكبر قطر في أفريقيا ولا يُعقل أن يحرم قطر كهذا عند الحديث عن أفريقيا . ثم التفت إلى الذين حاولوا أن يقفوا موقفاً وسطاً، وهم الذين قبلوا اشتراكي في الندوة إلا أنهم اعترضوا على موضوعي ، قائلاً : انه لا يمكن لأحد أن يحدد حرية اختيار المواضيع ، ثم أن موضوعاً كهذا من شأنه أن يجعل الندوة أكثر حيوية لوجود أكثر من ديانة ؛ ووافق المجتمعون على مضض .
وغادرنا مدينة هامبورج في نهاية الأسبوع الأول من شهر مايو إلى مدينة باد سيقي بيرق ونزلنا في ضيافة الأكاديمية . ووزعت المواضيع على أربعة أيام نلتقي صباحاً ومساءاً

للاستماع إلى المحاضرات والنقاش وكان هناك جمع غفير من المستمعين . وجاء دوري في يوم الأحد ١٩٧٦/٥/٩م؛ ولأن موضوعي كان باللغة الألمانية التي لم أتقنها جيدا بعد ، لذا قرأته عدة مرات حتى كدت أن أحفظه عن ظهر قلب . وتقدمت إلى المنصة وكنت أعلم جيداً بصعوبة موقفي ، فالناس من حولي يتهامسون، ويرمقونني شذراً ؛ كيف لا وأنا أريد أن امجد الإسلام في عقر دارهم، في إحدى الأكاديميات المسيحية!! وسوف أقف وحيداً بين المئات من المسيحيين المتعصبين. لأن أغلبهم من رجالات علم اللاهوت والقساوسة، حتى أن ثلاثة من الطلبة الأفارقة الذين قدموا معي من هامبورج هم قساوسة . وكنت وأنا في طريقي إلى المنصة أقرأ سراً الآية الكريمة «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت إقدامكم». ولقد أزال الله عني كل خوف وتردد، وأنزل السكينة والطمأنينة على قلبي ، ووفقت في تقديم المحاضرة بصورة طيبة . وما انتهيت من موضوعي وفتح باب النقاش حتى اشرأبت الأعناق ، وارتفعت عشرات الأيدي طالبة منحها فرصة الحديث ، الأمر الذي لم يحدث مع أي من المتحدثين الآخرين قبلي ، عندما كان يعقب اثنان أو ثلاثة أو يثنيان على المتحدث، ويشكرانه على ما قدم . ولا أستطيع أن أعيد هنا كل ما دار من نقاش مستفيض في ذلك اليوم ، ولكن أتعرض لبعض ما قيل حتى يعلم المسلمون ماذا يفهم الآخرون عن الإسلام.

الذي أعطي الفرصة الأولي أراد أن يرهبني بعض الشيء ، فقال في بداية حديثه : أنا أعرف السودان جيداً، وقد تنقلت كثيراً في ربوعه ، وقبل أن أبدأ سؤالي أريد أن أعرف هل أنت من شمال أم جنوب السودان ؟ فقلت له : عندما يقل لي ألماني هو ألماني الجنسية ، فلا يفيد بعد ذلك في قليل أو كثير إن كان من بفاريا في الجنوب أو سكسونيا السفلى في الشمال ، لذا سؤاله هذا ليس بذي أهمية بالنسبة للموضوع الذي دار حوله النقاش، وقلت له هذا ما يوصف بالانجليزية بـ « اوف بوينت!» . ثم تحدث بعد ذلك حديثاً مستفيضاً عن التعصب الديني في السودان . وأجبته قائلاً : أنا لا أتهم بلادك ألمانيا بالتعصب ، ولكن كنت أتمني أن أرى المساجد بجوار الكنائس كما رأيت أنت ولاشك في كثير من مدن السودان ! وتمتم ببضع كلمات وجلس .

سائل آخر هو قسيس إفريقي من زائير قال لي إن الإسلام دين دموي لم ينتشر إلا بحد السيف والقتل والتعذيب . فذكرت له أن ما قتله المسيحيون الأسبان سواء من المسلمين في أسبانيا أو في بيرو من السكان الوطنيين باسم المسيحية يفوق كل ما هو مفترى على

الإسلام . ثم سألته : وماذا عن الحروب الصليبية ؟ هل قادها كذلك المسلمون ؟.
وسائل ثالث أجزم على أن الإسلام دين متحجر وليس لديه فكر ولا يقبل النقاش، وهو دين تعصب وإرهاب . ولحسن الحظ أذكر أنه في ذلك الوقت قد دعا العقيد معمر القذافي إلى ندوة للحوار بين المسلمين والمسيحيين: عقدت في ليبيا . فما كان مني إلا أن قلت لسائلي : أنت تقرأ الجرائد وتشاهد التلفاز ، ولاشك قد نما إلي علمك أن هناك الآن ندوة للحوار بين المسلمين والمسيحيين في طرابلس . فقل لي بربك هل أخذ هؤلاء المسلمون ـ الذين يفتقرون إلى الفكر كما تزعم ـ معهم سيوفاً ورماحاً أم بنادق ومسدسات لإقناع المسيحيين الذين يحاورونهم ؟ ألا يدحض هذا وحده إدعاءك الفاسد ؟ !! .
ودار النقاش سجالاً بيننا ، وأعتقد أن الله أيدني فيه بقوة . وكم أثلج صدري أن شهد شاهد من أهلها ، وكأن الله قد سخّر من هو أغزر مني علما وثقافة، وأفصح مني لسانا وبيانا لنصرة دينه، ألا وهو الدكتور كمباوسن!! فهو مسيحي، وفوق ذلك محاضر في الجامعة متخصص في علم اللاهوت ، وأدرى مني بالخفايا « وبيت الكلاوي» : ولكنه متحرر جدا وشديد الانتقاد للمسيحية . فكنت كلما أنتهي من رأى ما ، يعقب هو ذاكراً المزيد من الأدلة والبراهين وحتى الأرقام مؤيداً لما ذكرت ، وملقما الآخرين حجرا!
ثم جاءت ثالثة الأثافي، وقاصمة الظهر بالنسبة للآخرين في آخر يوم للندوة عندما أقيم احتفال بهيج لوداعنا . ففي نهاية الاحتفال طلب أحد الحاضرين أن يذكر كل واحد من هؤلاء الأخوة الأفارقة انطباعه عن ألمانيا . وبدأ كل واحد من الطلبة المشتركين يقول في ألمانيا وفي الألمان ما لم يقله مالك في الخمر ! وذكروا من سفه الحديث وسفاسف الأمور ما يندي له الجبين، ويربأ به المقام من أن يقال في مجلس خاص ، ناهيك عن محفلٍ عام ، وحفل كريم ضم النساء والرجال!! وذُهل الألمان وصمتوا وكأنما علي رؤوسهم الطير!
وجاءتني الفرصة للحديث ؛ وما كنت أريد أن أنافق ، ولكن ما كنت كذلك أريد النزول إلى هذا الدرك الأسفل من الحديث . فقلت في اقتضاب شديد: إن المرء يتأثر دائماً بالانطباع الأول الذي يلاقيه في البلد الذي يأتيه لأول مرة ، فإن كان هذا الانطباع إيجابياً، جاء تقييمه ونظرته للأشياء من بعد ذلك إيجابية ، وإن كانت التجربة الأولي سلبية فإنها تلون كل الأحداث من بعد ذلك بلون أسود قاتم . ثم أنه لمن الصعوبة بمكان أن نصف شعباً بأكمله بحسن أو بسوء الخلق ، فالخيرون والأشرار موجودون في كل بلاد الدنيا .

وأشهد الله صادقاً، ما أن أنهيت حديثي، حتى وقف واحد من أكثر الأشخاص تعصبا في الرأيّ، ومشاكسة في النقاش، ومقاطعة لي في الحديث ، وقال بصوت جلي واضح النبرات، لا لبس فيه ولا غموض، واسمع كلا من كان في القاعة : الآن فقط اقتنعت أن الإسلام دين تهذيب !!! فهذا الأفريقي المسلم هو أيضاً أفريقي أسود البشرة كهؤلاء الأخوة المسيحيين الذين تحدثوا إلينا عن انطباعاتهم ، ولابد أنه قابل أيضاً الكثير من المضايقات العنصرية ، التي لا يمكن لنا أن ننكرها ، كما قابل أقرانه الآخرون . ولكن منعه الحياء والتهذيب من جرح شعوركم وإحراجكم كما فعل إخوتنا المسيحيون! ألم تقتنعوا مثلي أن الإسلام دين تهذيب ؟ وصمت الحاضرون ، وكأنهم بصمتهم هذا قد قالوا : نعم !!

ولقد جاء إليّ ذلك الشخص بعد نهاية الحفل ، وعّرفني بشخصه ، وكان أسمه الهر كورت، وأعطاني عنوانه ورقم تليفون منزله في مدينة كيل عاصمة ولاية اشليز ليش هولشتاين ، وقدّم لي دعوة مفتوحة لقضاء نهاية أي أسبوع تناسبني مع أسرته . ولقد تحادثنا مراراً بعد ذلك هاتفياً ، ولكن حالت مشاغل الحياة دون استمرار تلك العلاقة. وأكاد أجزم أن الهر كورت لو وجد التشجيع المستمر لدخل الإسلام ؛ واشعر أنني قد قصرت في ذلك فاسأله تعالى ليّ المغفرة!

أما الإخوة الأفارقة المسيحيون الذين قدموا معي، وكانوا يسخرون مني طوال الطريق من هامبورج، مستقوين بمنظمي الندوة من إخوانهم في الدين، فقد نزل عليهم قول الهر كورت نزول الصاعقة! فهذا المسلم الوحيد بينهم، وهم عصبة ، والذي كانوا يحسبونه الحلقة الأضعف، قد خرج منتصرا عليهم انتصارا معززا، وبشهادة شاهد من أهلها، الذي نعتهم ضمنيا بعدم التهذيب!! وما كان لهذا العبد الفقير إلى الله من الأمر في شيء، لكن كان ذلك توفيقا من الله، ونصرا لدينه، ومصداقا لقوله : «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت إقدامكم»..... «ومن اصدق من الله قيلا» ؟؟» – صدق الله العظيم.

التنصير والتبشير

وبعد كل هذا، هناك من تأتي في آخر المطاف، ونحن في آخر سنه لنا في هامبورج، من تريد لنا أن نرتد عن ديننا ونقبل غير الإسلام دينا!! بدأ الأمر بمنتهى العادية والبساطة؛ كنا نسكن في داخلية هيرمن الس هاوس، القريبة من محطة كيقتز مور في شمال هامبورج

كما تقدم، وكانت تجاور داخليتنا دار للعجزة والمسنين. وكنا نقابل، أنا وزوجتي ونحن في طريقنا بين البيت والاندرقراوند ذهاباً و إياباً مجموعة من هؤلاء العجزة. رجالاً و نساءً يتمشون أو يأخذون الاندرقراوند. وتطورت العلاقة بيننا وبين امرأة مسنة معينة، وكانت تحيينا بحرارة، وتحاول أن تدخل معنا في حديث. وكنا نبادلها نفس الشعور وتطور الأمر إلى المزح، فكانت إذا قابلتنا يوم الخميس، تسألنا ببراءة « أي يوم هو هذا اليوم؟!» فنجيبها هو يوم الخميس، ويعني باللغة الألمانية يوم العاصفة أو الرعد « دونرس تاك»! فتجيبنا « لكنه لم يرعد بعد؟!» ونتبادل الضحكات وتودعنا وتنصرف.

وذات مرة أصرت على دعوتنا لتناول الشاي معها حيث تسكن في دار العجزة. وقمنا فعلاً بزيارتها من قبل المجاملة، ولشعورنا أنها تعاني من الوحدة التي يعاني منها من كانوا أمثالها. وبعد تناول الشاي والكيك، بدأت تحدثنا عن فضائل المسيحية. وأخرجت مجموعة من الكتب التبشيرية وعرضتها علينا، وطلبت منا صراحة أن نترك الإسلام ونعتنق المسيحية!! لأنه الدين القويم و.....الخ. فقلنا لها إننا أساساً لم نكن لنلبي زيارتك لولا ديننا يحثنا على المعاملة الطيبة، والعطف على المساكين بصرف النظر عن معتقدهم، وشعورنا بوحدتك هو الذي دفعنا لذلك؛ فقلنا نؤنس وحدتك ولو لبعض الوقت. أما الآن فقد ذهبت بعيداً، ولا بد أن نقول لك إلى هنا يكفي! وودعناها وانصرفنا. ولم تعد تلاطفنا بعد ذلك! بعد أن كانت تأمل أن تدخل الجنة عن طريقنا وفق اعتقادها!!

وهذا يقودني إلى الحديث عن نشاط التنصير والتبشير بالذات في غرب إفريقيا. أذكر أن جمعتني الصدفة قبل بضع سنوات مع أحد الألمان من المهتمين بالشأن الأفريقي في حفل عشاء بدار القنصل الألماني هنا في جدة. وتطرقنا إلى موضوع التنصير الذي كان على أشده في ذلك الوقت وسط القبائل الرعوية في غرب أفريقيا. فأشار الرجل إلى النجاح الذي أحرزه المبشرون هناك، وأن أعداداً غير قليلة من المسلمين صبأت عن دينها، وأن الكثير من الوثنين اعتنقوا الديانة المسيحية! لكنه ذكر ان هذه الأعداد الكبيرة لا تعني بالنسبة له شيأ عند ما يقارنها بالقلة من المسيحيين الذين يدخلون الإسلام. فهؤلاء المسيحيون عادة ما يكونون من المستنيرين ،والعلماء، والشخصيات البارزة، الذين لا يمكن أن نقول قد تم إغراؤهم بالأساليب المادية والهدايا كأولئك المسلمين الضعفاء والوثنيين في غرب أفريقيا؛ بل دخلوا الإسلام عن طريق الحجة والإقناع، فالعبرة عندي – كما قال- « بالنوعية و ليس بالكمية »! لذا إذا عقدنا مقارنة بسيطة بين الأعداد

الكبيرة التي اعتنقت المسيحية، والعدد الأقل الذي يدخل الإسلام، نجد أن النتيجة في صالح الإسلام من حيث المردود؛ لان تأثير الأقلية التي تدخل الإسلام أكثر، نظراً لمستوى تعليمهم وثقافتهم! ومما يثير تعجبي كما قال: « أن الجهات المسيحية تبذل أضعاف أضعاف الأموال والجهود في التنصير مقارنة بما يبذله المسلمون في سبيل ذلك، فكيف يفسر المرء ذلك؟!». فقلت له ليس لدي تفسير سوى اعتقادي أن هذا هو أتمام النور الذي عناه الله في محكم آياته على الرغم من هذه الجهود التي تبذل لمحاربته، والأموال التي تصرف لإخماده ، في قوله تعالى:

(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)

ومن المساعي التي كان يستعملها نكروما للتنصير، كما قال لي أحد الطلبة المسلمين من غانا، انه كان يزور مدارس الأطفال في المناطق الإسلامية ويقول لهم : أدعوا ربكم أن يعطيكم غداً حلوى وفاكهة ، ثم يذهب، ويعود في اليوم التالي ويسألهم هل استجاب لكم ربكم؟ وعندما تكون الإجابة « لا « يقول لهم أدعوا رب نكروما أن يعطيكم ذلك غدا! ويغدق عليهم العطاء في صبيحة اليوم التالي! وعندما يغدق عليهم ذلك يخبرهم أنه من الأجدى لهم أن يتبعوا رب نكروما ؛ لأنه هو الذي يستجيب لهم، ويعتنقوا المسيحية !!! والعهدة على الراوي.

الفنان احمد المصطفى!!

لا تعجبوا وتعتقدوا أنه كان طالباً معنا! لم تكن لي معرفة مسبقة بهذا الفنان العظيم ! ولكن تعرفت عليه في هذه الداخلية في اوتومارشن. كنت في مطار فرانكفورت ذات مرة في وداع زوجتي التي أرادت أن تمضي إجازة قصيرة في السودان . وتلاقيت في المطار مع أعضاء السفارة السودانية بقيادة الأستاذ موسى عوض بلال سفير السودان آنذاك في المانيا، والذي على الرغم من أنه يعتبر من أبناء الفاشر، التي استوطنها أهله القادمون من الشمال منذ مدة طويلة، و كان شقيقه حسن من أعز أصدقاء عمي علي بدين ، ودائما يقضيان الأمسيات إما في منزل عمي علي او في دارهم؛ وكنت على معرفة جيدة به، إلا انه لم تكن لي معرفة شخصية بالأستاذ موسى عوض بلال. ووجدت معهم الفنان أحمد المصطفى في المطار ، وأمضينا بعض الوقت معا، حتى غادرت الطائرة السودانية. وسألني السفير من إي مدينة أنا في ألمانيا؟ فقلت له من هامبورج! فقال لي أن الأخ

أحمد سوف يصل إلى هامبورج الأسبوع القادم، ويا حبذا لو قدمتم له المساعدة. فقلت له هو من الآن ضيفي؛ وما وجودي هنا في فرانكفورت إلا لوداع زوجتي، مما يعني أن شقتي خالية، ويشرفني، ويسعدني أن أستضيفه عندي. ولقد كان، قابلته في المحطة، وتم كل شيء على أروع ما يكون، وأمضى الأستاذ أحمد معي أياما حلوه في هامبورج، تعرفت فيها على المزيد من أخلاقه الفاضلة، ومعرفته الواسعة بالأنساب، و الأفراد، وبالمدن والبلدات السودانية. وأذكر أنه قال لي في أول ليلة يمضيها عندي: حذاري أن تدعني أنام قبلك! فسوف لن تستطع أن تنام بعد ذلك! ولما سألته قال لي « أنا أشخر سوداني!!» وضحكت، ولم اخذ الأمر مأخذ الجد؛ لكن عندما خبرت ذلك أول ليلة. علمت انه لم يجاف الحقيقة كثيرا!!! ومن حينها، كان يقول لي عندما يتقدم بنا الليل في الأنس : باقي لي ساعة على النوم – يله مع السلامة على سريرك!

وكنا خارجين ذات مرة من الشقة في طريقنا إلى المحطة الرئيسية حيث كان ينوي السفر إلى السويد بالقطار، وخرج قبلي، وعندما لحقت به وجدت قربه أخاً مصرياً يسكن معنا في الداخلية اسمه (سلامة) فحييت سلامة؛ إلا أن الأخ أحمد المصطفى قال لي: لا تحدثه بالعربية فهو غير عربي! فقلت له كيف عرفت ذلك؟ قال لي سألته: هل الأخ عربي؟ فأجابني نافيا ذلك بالانجليزية! فعجبت من ذلك وقلت للأخ أحمد هذا الأخ مصري، واسمه سلامة، ويسكن في الجناح المقابل! وغضب الفنان احمد المصطفى جدا من ذلك، ووجه إليه الحديث قائلا: نحن غنينا لبلدكم ، وقلنا فيه شعرا ، وتغزلنا بجماله ، وها أنت تتأفف في أن ترد علي السلام وتنكر انك عربي!! و شعر سلامة بحرج عظيم، وصغر من وقتها في عيني.

هات الشومة يا فرج!!

لكن هذا لا يعني شيئا بالنسبة لشعور المصريين نحونا، ولا يمثلهم سلامة بحال من الأحوال. فهم من أكثر الشعوب تقبلا لنا، ويعاملوننا في كثير من الحالات بقدر كبير من الاحترام، سواء على الصعيد الرسمي أو الشخصي، مع علمي التام أن هناك ما يختلف معي في ذلك..... أردت زيارة مصر في شهر أغسطس الماضي مع زوجتي لحضور حفل تخريج ابني احمد، ولم أكن متأكدا من إلغاء تأشيرة الدخول إليها بالنسبة للسودانيين،

فذهبت مستفسرا إلى القنصلية في جدة، وكانت الإجابة من قبل المسؤول: ازاي تحتاج إلى فيزا ؟؟.. دي بلدكم يا بيه!! وفي القاهرة أردت أن افتح حسابا بالعملة المصرية، فذهبت إلى البنك الأهلي المصري الفرع الرئيسي في شارع شريف، وطلبت من الموظفة المسؤولة عن ذلك فتح حساب. فأجابتني في تهذيب أنها آسفة لأنه غير مسموح للأجانب بذلك! فما كان من الذي يجلس في طاولة كبيرة ليس بعيدا عنها، ويبدو انه رئيسها، إلا أن وجه إليها الخطاب مستنكرا : وهو ده أجنبي!!؟؟ ففتحت لي الحساب مع الاعتذار. المهم كلام يطيب الخاطر! ولقد لمست عندهم الكرم كذلك! ففي زيارة أخرى سابقة لمصر ، دعاني الأخ المحاسب عصام عجوة، زميل ابن عمي عثمان احمد آدم في قصر خزام بجدة سابقا، إلى تناول طعام الغداء في قريته شبين الكوم التي لا تبعد كثيرا عن القاهرة. واعدت لنا والدته وأخواته وجبة دسمة، تناولناها في الصالون الذي بينه وبين المطبخ كوة، ونحن جلوس على الطبلية؛ فكلما أكلنا قليلا، مدت لنا الأم تارة أو أخواته المزيد من السمك من الصاج مباشرة، أو الدجاج، وكل ما لذ وطاب من منتجات الريف المصري، وبصورة مبالغ فيها، مع الإصرار على المزيد. وعند مغيب الشمس، بسطوا لنا الابسطة بقرب الشاطئ الذي لا يبعد كثيرا عن القرية، واتوا بكمية من الذرة الشامي للشواء، مع أكواب الشاي والقهوة التي لا تنقطع، وسط إخوان، وأصهار، وأصدقاء الأخ عصام. لكن للأسف لم نستمتع بتلك الجلسة كثيرا! فما هي إلا لحظات وتنادى القوم : احمد..... حسنين....فرج.. هات الشومة وأسرع!! وحدث هرج ومرج في القرية، علمنا منها أن مشاجرة نشبت بين مجموعة من قرية عصام والقرية المجاورة، وتدخل بقية سكان القريتين! ورغم ذلك الضجيج كان اهتمامهم بي اكبر! فتداعى إخوة عصام لحمايتي، قائلين اخرجوا الدكتور محمد فوراً من الكفر! وصحبني ثلاثة أو أربعة منهم بعصيهم الكبيرة (الشومات) ، وأحاطوا بي كالحرس الخاص على طريق جانبي وسط الحقول خلف القرية، وأوصلوني إلى محطة مواصلات تقع على طرف القرية، وتبعد عن المحطة الرئيسية ، والتي كانت المعركة محتدمة فيها! وأبيت إلا أن أعود في اليوم التالي إلى شبين الكوم للاطمئنان على الأخ عصام وأهله، ولشكرهم لحمايتي كواحد منهم! وبحمد الله تدخلت الشرطة، كما علمت، في الوقت المناسب ولم تحدث إصابات تذكر. وما هذه إلا أمثلة قليلة، فلقد زرت مصر أكثر من سبع مرات، كانت بدايتها في أواخر الستينات عندما كنا أعضاء في جمعية من انجح الجمعيات الاجتماعية في جامعة

الخرطوم، ألا وهي جمعية تطوير الريف السوداني. التي أسستها مجموعة خيرة من طلبة كلية الاقتصاد بزعامة الأخ احمد ود الريح، والأخ الصديق سليمان محمد الحسين، وأصحابهما الميامين، وآخرها كانت قبل بضعة أشهر. اشهد أنني لم أضار فيهن ولا مرة واحدة، أو يساء إلي خلالهن!!

ونعود مرة أخرى إلى داخلية اوتو ماشن. التي تعرفت فيها أيضا على شخصية قومية أخرى، ألا وهو الأخ الصديق العزيز نصر الدين الهادي المهدي. والذي كان يمضي جل الوقت معنا، في الوقت الذي كان مطلوب فيه القبض عليه من حكومة النميري. والتي كانت تبحث عنه في كل مكان لاتهامه بالاشتراك في حركة حسن حسين!! والأخ نصر الدين رجل في غاية الأخلاق ودماثة الخلق، وكان يدرس في الكلية التحضيرية في هامبورج، ومن المبرزين في دروسه. وكان كثيراً ما يفسحنا في هامبورج بسيارته البيجو الرمادية ٢٠٤ أول ما وصلنا إليها. وكان احد الطلبة الأجانب القلائل الذين. اجتازوا امتحان الدخول إلى الطب، لكنة فضل السياسة قاتلها الله! له كل التحيات. والى زوجته العزيزة سليلة الاتحاديين من آل علي وحسن عوض الله: ويبدو إنهما طبقا الوحدة الوطنية فعلا لا قولا!!

ومن أطرف ما كان يحدث في هذه الداخلية: أنه في نهاية الأسبوع يأتي بعض السودانيين الذين يعملون في القرى القريبة من هامبورج لقضاء نهاية الأسبوع في ضيافتنا. وكان الأخ مهندس المرسيدس القدير حسن خيري، يحرص على إحضار عشائه معه دائماً، وغالباً ما يفيض عن الحاجة، فنتناول معه وجبة طيبة. وكان عدد الأسرة محدوداً، تماما كما كان الحال في ميز امتداد ناصر! والنوم يسبب مشكلة؛ لذا كان خيري حريص على ارتداء بجامة سرية تحت ملابسه، وأول ما نقول هيا استعدوا للنوم، يخلع الملابس الخارجية ويسرع إلى أول سرير، بينما الآخرون ينشغلون بتغيير ملابسهم، فيضطر بعضهم للمبيت على الأرض!.

مع القراء:

عملا بالمثل الانجليزي: ليدس فيرست- السيدات أولا، نبدأ بتوجيه التحية والشكر للأستاذة نوال، من جدة ومن أهالي الحصيحيصا، التي كسرت- كما قالت- حاجز التردد والخوف من اقتحام بريد القراء، الذي استولى عليه الرجال، وعبرت عن إعجابها الشديد بالمقالات، وبسلامة اللغة بصفة خاصة، وأنا أعطي اعتبارا خاص لهذه الجزئية، لأنها خريجة آداب تخصص لغة عربية، وشهادتها لا ترد!

أتصل بعض القراء يعبرون عن إعجابهم بذكريات ألمانيا، ويرون في أنها تضيف إليهم جديداً، ويمثلهم في هذا الرأي الأخ عبد الرزاق محمد عبد الرحيم من جدة. ولا أدري لماذا ذكرني بشطر بيت الشعر « ويحب ناقتها بعيري!» بقوله أنه أول ما يفتح صفحة المقال يتأمل، خمس دقائق في عمامتي قبل أن يقرأ المقال! فجال بخاطري : ويحب قارئها عمامتي!! تحياتي الخالصة لأخي عبد الرزاق، الذي يواصل مشكوراً الاتصال بي من وقت لأخر، ولم تكن لي به سابق معرفة غير صدى الذكريات. وكذلك الأخ جمال عبد الرحيم من الرياض الذي يقول أنه أصبح يتابع ذكريات ألمانيا وكأنه عاش هناك فعلاً، وبالمناسبة هو أول من أرسل رسالة من القراء مبدياً إعجابه بصدى الذكريات.
ومن مناصري ذكريات ألمانيا الأخ العزيز البلولة بابكر عبد المجيد، زبوني صاحب ملحمة وخضار بني مالك بجدة، وخاصة لأنه عمل بشركة ألمانية في ليبيا، ورأى تعاملهم الراقي مع بني الإنسان.

ولعل زعيم المناصرين لحلقات ألمانيا هو الأخ الصديق النكتة صلاح عمران من جدة، والذي حّملني وزر قطع صلاته!! فذكر أنه بعد إن أنهى قراءة مقال « السوادنة والخواجات » وضع الجريدة وقام يصلي المغرب، وفجاه تذكر قصتي مع الهر كلاوس والدعوة، والخلط في اختيار الكلمة المناسبة للاعتذار، والإحراج الذي وقعت فيه، وخاصة عندما قال لأنه يعرفني شخصياً، فكاد يراني رؤية العين وأنا في تلك الحالة المزرية فغلبه الضحك! نقول له: يا أخ صلاح أبعد عنا وسواويسك وخنانيسك يا رجل!!
بينما يقف في الجانب الآخر معجبو صدى الذكريات ممن اسموا أنفسهم بالغلابة، وهم زبائن الأخ الدكتور/ فيصل أحمد عبد الرحمن بغليل بجدة، والذين فوضوه التحدث بلسانهم، فأرسل لي الدكتور فيصل رسالة بالفاكس جاء فيها:» صوت لوم أرسله لك

من الغلابة من زبائني المهتمين بالمقالات يقولون: كف عنك يا دكتور عن ذكريات أوربا بصقيعها وبروده أهلها. وهم مازالوا عطشى لذكريات السودان لربوعه وجباله. والميز، وجبل مرة، وفول أبو العباس وأهله الطيبين. وأضاف : و أضم صوتي إلى صوتهم.. اللهم هل بلغت اللهم فأشهد!».

فلا أدري هل نستفتي السادة القراء بوصفنا شعب ديمقراطي!! ونرى لمن تكون الغلبة؟؟ مع أم ضد؟؟ ما رأيكم دام فضلكم؟؟ والأخ الدكتور فيصل يرى أن لمقالات صدى الذكريات كما ذكر: « بجانب هدفها التوثيقي، والأدبي والنفسي، أنها «.. أصبحت ملاذاً للباحثين عن الأصدقاء والزملاء. فقد كانت السبب في أن اتصل به صديق دراسة افترقا قبل أكثر من ٢٩ عاماً عندما كانا في مدرسة وادي سيدنا الثانوية. هو الأستاذ أحمد البشير الأستاذ بالمنارات بجدة، والذي أتصل به عندما علم بموقع عمله في صدى الذكريات. وبالمثل ذكر الأخ حسن عبد الباقي من ينبع، الذي ذكر في الهاتف أن المقالات الخاصة بجامعة الخرطوم جعلت أحد أصدقائه من زملاء الجامعة يتصل به بعد أكثر من ٨ سنوات من الفراق عندما هيجته الذكرى، التي لا زالت تؤرق!

أما الأخ عبد الملك عبد القادر بريقع من المدينة المنورة، اتصل بي هاتفياً من المدينة المنورة مستنجداً : « ألحقنا يا دكتور ! الناس دليناهم إلى صدى الذكريات كملوا علينا الجرائد...فلم أجد جريدة الخرطوم اليوم.!» وحاولت إرسال نسخة من المقال إليه لكن المحاولات باءت بالفشل لأسباب فنية، إلا انه بحمد الله هاتفني مرة أخرى ونجح في استلاف جريدة من أحد أصدقائه!

ومن طرائف القراء أيضاً الرسالة الإلكترونية التي وصلتني أيضا من الأخ حسن عبد الباقي ويقول فيها « يا دكتور الوداك تقلب اللافتة شنو؟! لكن لو ما قلبتها كنا مشين قلبناها ليك»!! و يضيف أنه عندما رأي تجاوب القراء مع هذه الذكريات، اطمأن على أن السودانيين لا زالوا يقرءون بعد أن كاد يفقد فيهم الأمل. والى المزيد من تداخلات القراء في الحلقة التالية إن شاء الله.

ما أجمل بلاد اليونان!

دخلت مكتبة الكلية كالعادة ذات صباح يوم شتوي من عام ١٩٧٧م فاسترعى انتباهي تجمع عدد من الطلبة والطالبات حول لوحة الإعلانات الداخلية. ودلفت نحوها، ووجدت عليها مذكرة تشير إلى أن جامعة أثينا سوف تقوم بالاشتراك مع جامعة باريس بحفريات أثرية في جزيرة كريته باليونان أثناء الأجازة الصيفية، ومطلوب اشتراك اثنين أو اثنتين من جامعة هامبورج، وأن الكلية سوف تتكفل بمصاريف السفر، وجامعة أثينا تتكفل بالإعاشة والسكن؛ فمن يأنس في نفسه الكفاءة يقوم بتسجيل أسمه أسفله؛ وفي النهاية سوف يقوم البروفسور زقرت- عميد الكلية آنذاك – باختيار من يراهما مناسبين لهذه المهمة. ورجعت أدراجي وجلست في أحد الأماكن المعدة للاستذكار، لأنني لم أكن أتطلع أن أكون ضمن اثنين من الكلية التي بها ما يربو على تسعين طالباً وطالبة. فأنا لأذلت في السمستر الرابع، وهناك العشرات من هم في السمسترات النهائية، والذين أوشكوا على أكمال الماجستير أو الدكتوراه. وعندما أردت الانصراف في نهاية اليوم الدراسي، ورأيت ذالك الجمع قد أنفض من حول اللوحة بعد أن زينت الورقة بعشرات الأسماء، قلت في نفسي ماذا يضير هذه الورقة لو أضفت عليها اسمي؟ ففعلت وكنت آخر واحد في القائمة أو أكاد.

وراعني بعد أسبوع أن يكون اختيار البروفسور قد وقع علّي وعلى طالبة ألمانية تدعى مونيكا اشتيف! والحق يقال شعرت بحرج عظيم، وعلمت أن البروفسور زقرت قد حباني بعطفه وفضلني على من هم أكثر مني كفاءة واستحقاقا في هذا المجال! ولكن أحدا من الزملاء أو الزميلات في الكلية لم يشعرني بذلك، ناهيك من أن يسمعني ما يجرح شعوري! بل على النقيض من ذلك، أزجوا لي التهاني على هذا الاختيار؛ مما زادني ضعفاً أكثر.

وفي نهاية الأمر عند حلول الأجازة، أجريت مع الزميلة مونيكا اتصالات مكثفة مع مكاتب السياحة والسفر في هامبورج، ووجدنا أن هناك شركة طيران دنمركية تغادر كوبنهاجن إلى أثينا مباشرة، ويقل ثمن التذكرة لديها كثيراً عند مقارنتها بنظيراتها من الخطوط الأخرى، حتى بعد إضافة تكلفة السفر من هامبورج إلى كوبنهاجن بالقطار والباخرة.

ومن حسن الحظ كنت قد تعرفت في العام السابق على أخ سوداني كريم في هامبورج،

هو الأخ عمر عز العرب من أبناء أبي زبد، وكان يدرس الطب في جامعة كوبنهاجن. وعندما أخبرته بموعد حضورنا أخبرني أنه سوف لا يكون موجوداً في ذلك التاريخ في كوبنهاجن، ولكنه قام مشكورا بإرسال مفتاح شقته بالبريد مع وصف واضح للوصول إليها. وقد كفانا ذلك مشقة البحث عن فندق والصرف الإضافي. أين أنت يا دكتور عمر الآن؟؟ لك تحياتي حيثما كنت.

وبعد قضاء يومين في كوبنهاجن، زرنا فيهما معالم المدينة كحديقة ترفولي الشهيرة، وبعض المتاحف، ركبنا الطائرة إلى أثينا. ولقد كانت الزميلة مونيكا خائفة بعض الشيء لأن هذه أول مرة في حياتها تسافر جواً! ولسوء حظها، ونحن نطير فوق سماء يوغسلافيا أضاءت الطائرة التحذير الذي لا يحبه كل ركاب الطائرات «أربطوا الأحزمة». وأضاف المتحدث من داخل الكبينة أننا سنواجه بعد قليل عاصفة هوائية. ولا تسأل عن حال مونيكا! ولكن رغم كل شيء بدأت متماسكة، وأغمضت عينيها ولاذت بصمت رهيب. وعلى الرغم من أنني لم أكن أقل منها خيفة، إلا أنني حاولت جاهداً أن أهون عليها الأمر. إلا أنها لم ترد قط. وانتظرنا وطال الانتظار ولم يحدث سوى بعض الهزات البسيطة العادية، وبعدها أطفئت الأنوار وزال الخطر، وعادت مونيكا إلى حالتها الطبيعية. وكان خط الطائرة كوبنهاجن- أثينا- تل أبيب؛ لذا تم تفتيشنا بدقة متناهية قبل الصعود! وكان الجالس إلى جانبي من الناحية الأخرى طالب نرويجي ظريف جدا. تعرفت عليه في صالة المطار؛ واخبرني انه واثق من أن الطائرة سوف تختطف! وكان يخشى من شابين تبدو عليهما الملامح العربية. وقال لي علينا مراقبة هذين الشابين، فان أبديا أي حركة غريبة، علينا الانقضاض عليهما! وفعلا كان تصرف احد الشابين غريبا! يطيل النظر إلى الخلف ، ونحن في منتصف الرحلة وقف ذاك الشاب، وتلفت يمنة ويسرى، وتحرك نحو المقدمة، فقال لي الطالب النرويجي: حانت ساعة الانقضاض عليه! فقلت له لن أكون أول الضحايا! وذهب الشاب إلى شخص في المقدمة وعاد أدراجه إلى مقعده، واستسلم إلى النوم، وفشلت قصة الاختطاف!!

ووصلنا مدينة أثينا بعد منتصف الليل، وكان الموسم موسم أجازات وسياحة، والفنادق مشغولة عن بكرة أبيها بالمصطافين من أوربا وأمريكا وبعض الدول العربية. وبعد بحث مضنٍ عثرنا على فندق في غاية التواضع، ولا توجد به سوى غرفة كبيرة كان بها قبلنا مجموعة من النزلاء والنزيلات يغطون في نومهم حين دخلنا. ووضعنا أمتعتنا وأخذنا

لنا مكاناً وسط ذلك الحشد النائم من البشر. واستلقيت على السرير أحاول جاهداً أن أخلد للنوم ولكن لم أفلح. واسترعى أنتباهى أنه بعد كل مدة يصحو أحدهم، ويحمل معه كل أمتعته وهو بلباس النوم، ويخرج ويمكث قليلاً ثم يعود بأمتعته ويستمر في نومه أو في استلقائه. وكنت أعجب من ذلك أشد العجب، وحاولت جاهداً معرفة السبب. وعرفت السبب أخيراً بعد أن تكرر صوت « السيفون ». فلقد كانوا يدخلون الحمام، ولم يكن أحد منهم يأمن الآخرين على أمتعته! فهو خير له أن يدخلها الحمام معه بدلاً من أن يتركها عرضة للنهب و السلب. وتعجبت لانعدام الاطمئنان الذي وصل إليه هؤلاء القوم، يخشون حتى من النائم، فما بالك بالصاحي!!! وانتقلنا صباح الغد لفندق أحسن حالاً.

ما كل الأفارقة سودانيون!!

ومن ذكريات أثينا اللطيفة، أذكر أننا كنا نجلس ذات مساء في أحد مقاهي أثينا الكبيرة الرائعة في ميدان الأمونيا، وكان يجلس بالقرب منا بعض الأخوة السودانيين. فحدث سلام وحديث، وانضممنا إليهم، ولم تكن لنا بهم سابق معرفة. ولكنهم ككل السودانيين في الخارج، يتمتعون بقدر كبير من الشهامة والكرم والطيبة، وحدث تعارف سريع، وأصروا علينا أن نزورهم في مقرهم بالداخلية في اليوم التالي لتناول طعام العشاء. وكانوا طلبة يدرسون في اليونان، ويسكنون في الداخلية.

وذهبنا إليهم في الموعد المحدد، وأحسن الأخوان عبد المنعم، وإبراهيم، اعتقد أنهما من كسلا، وبقية زملائهم استقبالنا. وتجاذبنا أطراف الحديث وأمتد بنا الليل، ومدت الموائد، وقدموا لنا طعاماً سودانياً شهياً، جيد الطبخ، مليء بالبهارات، أعجبت مونيكا به أيما أعجاب، وأكثرت من الأكل حتى خشيت أن يصيبها مكروه. ولم تكتف فقط بالأكل، بل أخرجت ورقة وقلم وطلبت من الأخوة « وصفة » كاملة لكل صنف، حتى تحاول طبخها عندما تعود إلى هامبورج. ومن الطريف بعد ذلك، أن أصبحت مونيكا كلما ترى أفارقة في أحد شوارع أثينا تسارع وتحتني على تحيتهم عسى أن يكونوا سودانيين ويدعوننا إلى وليمة كتلك التي استمتعنا بها!! فكنت أضحك وأقول لها : إن هؤلاء ليسوا بسودانيين. وكانت تعجب مني كيف أعرف السودانيين بين كل هؤلاء الأفارقة بمجرد النظر إليهم. وهذا أحد عيوب الأوربيين، فهم يعتقدون أن كل السود هم جنس واحد، و كأن أفريقيا ليست قارة وإنما قطر.

وهذه تذكرني بحادثة ذكرتها في أول حلقة من هذه الذكريات. ومتعلقة بالسودانيين الذين كانوا يزورونني في مستشفى اوتومارشن أثناء مرضي. وكيف اعترف لي احد المرضى الألمان بأنه عنصري ولا يحب السود. وذكر عدة أسباب لذلك. لكنه اعترف أن الأفارقة الذين يزورونني يختلفون في تهذيبهم وتصرفاتهم عن الباقين. وسألني من أي بلد نحن؟؟!!

وما قصدت بسردي هذا أن أميز السودانيين من سواد الأفارقة الآخرين. أو من قبل الاعتزاز والفخر، ولو كان يحق لكل شخص أن يفتخر ويعتز بأصله. و لكن يجب أن تكون هناك حدوداً وحواجز لهذا الاعتزاز والفخر. و إلا انقلبا إلى التعصب والعنصرية البغيضة. فأنا إن قلت إننا أحسن من بقية الأفارقة؛ أكون عنصرياً مثل صاحبي هذا. ولكن أقول أن بعض الأفارقة – بما فيهم بعض السودانيين – يسيئون كثيراً بتصرفاتهم الرعناء والهوجاء، ليس فقط لأشخاصهم بل إلى أوطانهم. فالغريب نكرة لا يعرف باسمة بل بجنسه وعرقه. ولذلك فهؤلاء يسيئون لكل السود بصفة عامة. وأريد أن أذكر هنا أنني ما صادفت في حياتي شخصاً أكثر تهذيباً من الصديق الزائيري العزيز جداً على نفسي كانمبا ميساقو، الذي كان يحّضر أيضا مع البروفيسور زقرت. أو زوجته الأخت الراقية مونيكا، وكانا لنا من خيرة الأصدقاء والجيران، وأعز وأحب الناس. ومثلهما في ذلك كمثل الكثير من أصدقائي الأفارقة. كفيلكس من غانا. والذي دعاني ذات مرة للغداء معه، وكنا نجلس في المطبخ، واعد وجبة لحمة بالخضار. فاحت منها الروائح الشهية! وأول ما انزل الحلة من النار فتح عليها علبتين ساردين! فقلت له حرام عليك يا فيلكس!! وفريدي من بنين، وتاميلا من تنزانيا، وبانياكو من زائير وعلى من مالي وغيرهم كثر. وانتقلنا من أثينا أو مينائها بيرس إلى إراكليون – عاصمة جزيرة كريته – على ظهر إحدى السفن السياحية ذات يوم مع جموع الشبان والشابات من السواح، الذين أحالوا ظهر السفينة إلى حفل راقص، وأضفوا عليها جواً لطيفاً من اللهو والمرح.

وبعد رحلة دامت قرابة اثنتي عشرة ساعة، وصلنا أراكليون مع شروق الشمس. ووجدناها مدينة نظيفة تحتضنها الجبال، والمروج الخضراء، تحف بها من كل جانب. و غادرناها في نفس اليوم إلى قرية أخانس التي تجري فيها الحفريات ولا تبعد كثيراً عن العاصمة.

ومررنا في طريقنا بكنوسوس عاصمة المينويين العريقة. ووجدنا أخانس قرية صغيرة وادعة، تحتضنها شجيرات الزيتون والعنب التي نمت حولها في السهول والروابي، وبدأت وكأنها بساطاً أخضر تتوسطه قلادة بيضاء، هي منازل القرية النظيفة والأنيقة؛ وبدأنا الحفريات الأثرية في صبيحة اليوم الثاني.

وقصتي مع الحفريات أو التنقيب عن الآثار قصة! كنا نشارك في حفريات لا تبعد كثيرا عن هامبورج ذات مرة ، نخرج صباحاً ونعود في المساء إلى الداخلية. وذات مرة عدنا من هذه الحفريات بملابسنا المتسخة، ووجوهنا المغبرة، ونرتدي أحذية البوت الكبيرة المليئة بالطين، وحالتنا مزرية بكل المعاني. فلما رآنا الأخ الصديق قاسم النو، قال لي: والله أنا أخشى أن يضحك عليكم الألمان ذات مرة، ويأخذونكم لحفر الاندرقراوند بحجة التنقيب عن الآثار! وعندما عدت من حفريات جبل مرة التي مر ذكرها ، قالت لي الوالدة- رحمها الله-: يا ولدي أنت ما لقيت ليك دراسة غير حفر القبور ده!! ولقد صادفت ذات مرة في حفريات أخرى في مدينة بلاكنيزه الجميلة في شمال ألمانيا، رجلا اعتقد أن الله ابتلاه بقدر لا يستهان به من الغباء ! كان الهر يورقن يعمل معنا عاملا في هذه الحفريات؛ ونجلس للإفطار سويا نتجاذب أطراف الحديث، وسألني فجأة في غمرة الحديث عن الأشياء التي أنوى أخذها معي إلى السودان بعد انتهاء دراستي في ألمانيا. فقلت له: بعض الأجهزة الكهربائية، والسيارة وتلفزيون.. وعند ذلك سألني في استغراب: تلفزيون؟؟ فأجبته بنعم. فقال لي: لكن هل الناس في السودان يفهمون اللغة الألمانية؟؟!!

وما أجمل بلاد وجزر اليونان! كلها خضراء يانعة، البشر والسرور يعلوان الوجوه، والناس يعيشون حياتهم وهم يمرحون ويغنون ويرقصون، وتتخلل الأجواء روائح الأطعمة اليونانية الشهية، والموسيقى اليونانية المميزة. وإذا حلت العصارى سوى في خانيا، كونيا او ريثمون ترى الطاولات وقد مدت في الشوارع على مدى البصر، وملئت بكل ما لذ وطاب من مأكل ومشرب ، خاصة المشويات، والسلطات بجبنة الماعز، وزيت الزيتون النقي ؛ والصبية والصبايا، والكبار والصغار، قد اتخذوا مقاعدهم من حولها ، يأكلون ويتسامرون على أنغام الموسيقى ، يتراقصون معها ويتمايلون! والجو قد تعطر بروائح الأزهار، والورود، والليمون، واللارنج التي تحملها إليك النسيم من المروج والحدائق، وتصاب بعدوى الفرح والبهجة فتضحك مع الضاحكين بسبب او حتى دونما سبب! فالوجوه العابسة

المكفهرة لا تمنح تأشيرة الدخول إلى هناك! وعند حلول الليل يصبح لسان الكل: ليت هذا الليل لا يطلع فجره!!

وأنا مدين لجزيرة كريتة بان علمتني أكل البطيخ! فأول مرة أذق فيها طعم البطيخ كان في كريتة! وكنت قبل ذلك لا أطيق مجرد رائحته ناهيك عن طعمه! فكنا مجموعة من الطلبة والطالبات قررنا في يوم إجازة أن نتجول بحرية حول اخانس. وأخذنا جمال الجزيرة بعيدا عن القرية؛ وشعرنا بالجوع، ولم نجد بقربنا أي مطعم أو كافتيريا نتناول فيه شيئا. وفجأة رأينا بعض النسوة يعملن في مزرعة بطيخ، وجدن علينا ببعض منه. وكما يقولون: المضطر يركب الصعب، والجوع كافر، وتناولت معهم البطيخ. وندمت على الوقت الذي ضاع مني سدى ولم أتذوقه! ولكن يبدو أن ليس كل البطيخ بذلك الطعم اللذيذ! ومن يومها تعلمت اسم البطيخ بالإغريقي: « كربوسي» وصرت لا ادخل مطعما إلا أقول للجرسون: واحد كربوسي براكولو- أي من فضلك! ويحق لطالبي النجيب في اللغة الألمانية، وأستاذي في اللغة اليونانية، عمر كمال إبراهيم الأمين تصويبي إن أخطأت في ذلك!

وعلى الرغم من اختلاف اللغات التي تتحدثها كل فئة من هذه الفئات المشتركة في الحفرية، من يونانية، وفرنسية، وألمانية، أصبحت اللغة الانجليزية هي لغة التخاطب. ورغم كل هذا ساد الوئام أفراد البعثة، وسار العمل على أحسن وجه، وتمت المعرفة في أقرب وقت، وقضينا أوقات سعيدة بين ربوع أخانس الرائعة.

الغيرة العمياء!!

ولم تمض بضعة أيام على هذا الوئام والألفة والسعادة في اخانس، حتى حدثت ذات ليلة حادثة عكرت علينا جميعاً صفاء المعسكر! فبعد أن أكملنا يومنا العملي المعتاد، وتلقينا قسطاً من الراحة في مقر السكن، تحركنا في المساء على غير اتساق أو اتفاق نحو المقر الرئيسي للبعثة، وهو منزل واسع يستغل البروفسور اليوناني المشرف على الحفريات مع زوجته جناحا منه، بينما تسكن الطالبات المشتركات في الحفريات في جناح آخر، واستغل جزء منه لأعمال الحفريات الكتابية؛ بينما كنا نحن الطلبة موزعين على فندقين في المدينة.

دخلت المنزل ولم أجد أحدا في فناء الدار على غير العادة – سوى البروفيسور وزوجته.

وبحثت عن بقية الزملاء والزميلات فوجدتهم جميعا في غرفة أحدى الطالبات اليونانيات وأسمها « نينا ». وهي بنت غاية في التهذيب، دمثة الأخلاق، مرحة، وجميلة. وكانت تعمل كالنحلة في الحقل وفي المنزل، تشارك في الحفريات، وتعد الخرائط والرسومات، وتسجل المعلومات، وتقوم من وقت إلى آخر بأعداد « السندوتشات » والشاي، وتوزع ذلك علينا في الحقل، وقلما تراها دون عمل. وعندما دخلت الغرفة وجدتها جالسة على السرير وبجانبها صديقها « نكولا » ومن حولها زملاؤها من الإغريق، وكانوا يتحدثون في غضب وبأصوات مرتفعة، بينما استرسلت نينا في البكاء! ولم أفهم شيئاً مما حدث، فلقد كانوا يتحدثون باليونانية. فأصبحت كما نقول في السودان: « كالأطرش في الزفة » – ولكن توقعت أن يكون قد وصلها خبر محزن من مدينتها أثينا، ورأيت من قبل المجاملة أن استفسرها عن السبب حتى أواسيها. وكانت تتحدث اللغة الانجليزية بصعوبة، فأجابتني عند سؤالها عم حدث قائلة: أنا مريضة – أيام سيك! وتعجبت لماذا لم يأخذها أقرانها إلى المستشفى أو يستدعون الطبيب؟ ولكن أحد زملائها شرح لي السبب وأوضح أكثر. فأخبرني أن زوجة البروفيسور معروفة لديهم بالغيرة الشديدة والحسد، وتسيطر تماماً على زوجها. وقد أحست أن نينا سعيدة مع صديقها نكولا، منشرحة ومحبوبة من الجميع، فساءها ذلك، وأرادت أن تنغص عليها سعادتها. وربما كانت تخشى على زوجها من جمالها ورقتها، فاتهمتها أمام الجميع بأنها بنت كسولة و « مدلعة » ولا تعمل شيئاً سواء في الحقل أو في المنزل، وطلبت من زوجها أن يرجعها صباح اليوم الثاني إلى أثينا، وان تستبدل بطالبة أخرى من الجامعة أكثر نشاطاً وحيوية، أي بطريقة أخرى، يبعدها عن المعسكر! والتفتت المسكينة إلّي والدموع تنهمر على خديها، وصديقها يمسح دموعها بكف وممسك بيدها شادا من أزرها؛ تسألني في شفقة ظاهرة بانجليزية متكسرة: أصحيح أنا بنت كسول يا محمد، ولا أؤدي أي عمل في الحقل والمنزل؟ فأجابتها أن هذا لا يحتاج إلى جواب أو برهان، فالكل يدري ذلك بما فيهم البروفيسور وزوجته.

ولكن لله در الطلبة والطالبات الإغريق! فلقد برهنوا على ترابط وتضامن الزملاء في أسمى معانيهما؛ وآزروا نينا ، ووقفوا إلى جانبها وقفة رجل واحد، وذهبوا إلى أستاذهم البروفسور وأخبروه أمام زوجته أن ما ذكرته الزوجة منافٍ للحقيقة، ومجافٍ للواقع، وفيه ظلم وإجحاف بحق نينا، ولا يجوز أن تبعد عن الحفريات تحت أي ظرفٍ من الظروف!! وثارت الزوجة ثورة عارمة وخرجت من الاجتماع. وأخبرني الصديق بنيوتي الذي كان

يترجم لي، أن الزوجة قالت لزوجها أن البيت لا يسعها مع نينا. والخيار متروك لزوجها إما أن تبقى هي أم نينا! ولم يتراجع الطلبة قيد أنمله في موقفهم. بل صعّدوا الموقف وأخبروا الأستاذ، إن هو أصر على أبعاد نينا، فسوف لن نذهب وحيدة إلى أثينا: ولكنهم جميعاً سيعودون معها! وأسقط في يد الأستاذ، فذلك يعني فشل المهمة التي كرس لها الوقت والمال، وتعقد عليها ثلاث جامعات، أثينا، وباريس. وهامبورج نتائج علميه باهرة. فما كان أمامه إلا أن تراجع، وذهب شخصياً إلى نينا في غرفتها وطيب خاطرها وأعتذر لها، وكما أن الظلم قصير حبله، تراجعت الزوجة الغيور وأصيبت بالانكسار. ولم تغادر المنزل كما هددت. وكم سرني وطيب خاطري، أن تلقيت خطابا من الزميل بنيوتي. وبعد حضوري إلى جدة بوقت طويل، يذكر لي أن نينا و نكولا قد أصبحا معلمين في المدارس الثانوية وتزوجا وهما في غاية السعادة.

الهدية والاعتذار!!

وكان عهدي بجزيرة كريته، - كشأن كل جميل – قصير. فانتهت الحفريات. وشددنا الرحال إلى إراكليوت التي سوف نأخذ منها السفينة إلى مينا بيرس بأثينا. وقررنا قضاء يوم أو يومين في إراكليون لزيارة متحفها وبعض معالمها. وكانت تصطحبنا طالبة يونانية من البعثة وتتمتع بذكاء خارق، ووقور ألا أن ريعان الصبا يكثر من استفزازها! وتدعى هيلين. وكان رغم حداثة سنها تتحدث أكثر من ثلاث لغات بطلاقة، وكانت تتولى في كثير من الحالات الترجمة بيننا نحن الطلاب الأجانب وبين أقرانها الإغريق، مترجمة تارة من الألمانية، وتارة من الفرنسية إلى الإغريقية او الانجليزية وبالعكس .وكنت قد علمت أن هذه المدينة هي مولد الكاتب الإغريقي الساخر» نيكوس كزنتاكيس « الذي أخرجت له السينما قصته المشهورة « زوربا الإغريقي « فطلبت من هيلين أن تأخذني إلى إحدى مكتبات المدينة علني أشتري بعضاً من مؤلفات هذا الكاتب الشهير. ووجدت بغيتي لدي إحدى المكتبات، ووقفت عند كتاب للمؤلف باسم (إعادة صلب المسيح)، وقررت شراءه. ولكني ذهلت عندما علمت بثمنه، فلقد كان باهظاً شديد الغلاء، وترددت كثيراً في شرائه. وكانت هيلين تثنيني بشدة أن لا أشتري ذلك الكتاب الغالي الثمن، وتركته وانصرفت.

وجاء يوم الوداع كي نودع زملاءنا وزميلاتنا من جامعتي أثينا و باريس، وذهبنا إلى أحد

المقاهي أو التافرنا كما يسميها الإغريق عند الضحى لنتجاذب أطراف الحديث، ونمتع النفس بنسيم الشاطئ. وكان علينا أن نغادر المدينة مع مونيكا عصر نفس اليوم على ظهر أحدى السفن المتجهة إلى بيرس. وكنت أنظر إلى بحر ايجة والذي كان في ذلك اليوم على غير عادته هائجاً، تعلو أمواجه وتتلاطم. وعاودني خوفي القديم من الماء، فأطلت النظر إلى الماء، وكسى الوجه مسحة من الحيرة الممزوجة بشيء من الرهبة، ولذت بالصمت أفكر في مصيري بعد ساعات داخل السفينة، وهي تمخر عباب هذا البحر الهائج، وتذكرت كل ما كنت أحفظ مما قاله الخائفون من الماء، بدءا بالقائل:

لا أركبُ البحَر أخَشى على نفسي مِنه المعَاقِب* *طين أنا وهو ماءٌ والطينُ في الماء ذائِب

ومروراً بقول أستاذي محمد الواثق:-

أما السفينةَ قُل لي كيف أَركُبها ** فقد أبَحَرت بَغتةً من غير مَلاحِ
كَيف النــجاةُ إذا المَوجُ مالَ بِها * * أخشىَ الهَلاكَ وإني غيرُ سَبـاحِ
إن كان يونُس بِطَن الحوتِ أزعَجه** فَمـا قـراري بِهـا في فِك تمسَاحِ

ويبدو أن الرفاق من حولي من أبناء وبنات الإغريق لاحظوا ذلك، فالتفتت إلى هيلين وقالت لي ساخرة ضاحكة:» يبدوا أنك خائف اليوم من ركوب البحر! « فأجبتها مسرعاً « كلا...كلا « فقط حزين على مفارقتي جزيرتكم الساحرة « وما درت أنها أصابت عين الحقيقة بقولها ذلك. وحان وقت الوداع، وودعنا زملاؤنا وزميلاتنا الإغريق وغيرهم وداعاً مؤثراً عند الميناء عصر ذلك اليوم، ولا زال منظرهم وهم يلوحون لنا بأيديهم والسفينة تبتعد قليلاً قليلاً ماثلا في خاطري. وعدنا إلى أثينا، وفضلنا هذه المرة أن نعود إلى ألمانيا بالقطار حتى نرى كلاً من يوغسلافيا، والنمسا، ونخترق ألمانيا من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال.

وبعد أسبوع واحد فقط من وصولي إلى هامبورج، جاءني إشعار من البريد بأن لدي طرد قادم من اليونان. وذهبت واستلمته، وكانت المفاجأة حين وجدته نفس ذلك الكتاب الذي لم أشتره، مرسل من الأخت هيلين وعليه بطاقة صغيرة تقول: « ليكن هذا الكتاب ذكرى لأيامك في جزيرة كريتا، وأطلب العذر إن حرمتك متعة شرائه!! «. هي تهديني الكتاب وتعتذر! اللهم نسألك أن تمنحنا القليل من هذا السمو الأخلاقي!!.

زينبٌ بنتٌ مصريةٌ !!

هذه متفرقات تتعلق بالتفرقة العنصرية؛ وما كنت أود أن أخوض في موضوع بغيض إلى النفس كهذا، لولا أنني آليت على نفسي منذ أن بدأت كتابة هذه الذكريات أن أسجل بكل أمانة وصدق كل التجارب التي مررت بها وهي صالحة للنشر، إذ أنه غني عن الإشارة، أن هناك الكثير من الخصوصيات التي لا مجال للخوض فيها جهراً وعلى رؤوس الأشهاد! وبما أن الحياة مليئة بالأزهار والأشواك في آن واحد، كان لا بد أن تضم هذه الذكريات جوانب مشرقة وقاتمة في آن واحد.

وقد اتهمنا – نحن السود – مراراً من قبل أخواننا أصحاب البشرة البيضاء بأننا أكثر حساسية من المعقول، ونحّمل كثيراً من الأشياء فوق ما تطيق، وننظر إلى كل تصرف يؤتى حيالنا بمنظار التفرقة الكريهة. وقد يكون هؤلاء محقين بعض الشيء؛ وقد يكون عند بعض السود الشعور بأنهم أقل من غيرهم. أذكر ذات مرة أنني شاهدت برنامجا في التليفزيون عن التفرقة العنصرية في أمريكا، وأعجبت أيما أعجاب بأحد المتحدثين السود، الذي قال: « ربما كان البعض منا لديه الشعور بالنقص، فأنا لا يعقل مثلاً أن أكون جالساً في وسيلة مواصلات عامة ، وأنظر إلى الرجل الأبيض الذي يجلس أمامي وأعتقد طوال الوقت أن هذا الشخص ينظر إلى باحتقار فقط لأنني أسود! فمثل هذه الأوهام – كما استرسل المتحدث - تعشعش فقط في رؤوس المصابين بعقدة النقص. وأضيف من جانبي، أن الاعتزاز والثقة بالنفس، يزيلان هذه العقدة، وعندها يصبح الواحد منا طبيعياً لا يثيره فقط إلا التصرف العنصري المقصود مع سبق الإصرار - كما يقول رجال القانون – وعند ذلك يحدث الانفجار.

وقصصي مع التفرقة العنصرية كثيرة ولكنها ليست خطيرة، وربما زاد فعلا فيها الحساسية المسبقة، وتحمل الموقف ما لا يطيق. ولما أتعب الواحد منا نفسه وأرهق أعصابة في أمور تافهة كهذه لو تمثل بقول الشاعر المبدع ايليا أبو ماضي:.

لي أن أَردَ مساءة بمســاءة ** لـو أَنَني أرضَ ببَرقِ خُـلبِ
حَسبُ المسيِء شُعورُه ومَقالُه ** في سِـره يا لَيتَني لم أُذنِـبِ

أذكر من ذلك أنني كنت ذات يوم داخل محطة القطارات الرئيسية في هامبورج، وأردت أن أركب القطار الأرضي فلم أجد لدي عملة نقدية لقطع التذكرة من ماكينة التذاكر

التي لا تقبل العملة الورقية. فأخذت عملة ورقية صغيرة وطلبت من صاحب احد المحلات المنتشرة في المحطة أن يعطيني « فكه »؛ ولكنة أجاب ببرود: « ليست لدي فكه ». وغضبت جداً، لأنه من غير المعقول أن لا يكون لدى محل كهذا عامر بالمشترين بضعة ماركات نقدية! وقلت في نفسي إن هذا الشخص عنصري ويمقت السود! وضايقني هذا التفكير كثيراً وكاد أن ينّغص علي بقية يومي. ولكنني عدت قليلاً إلى نفسي وقلت لها أنها حملت الموقف فوق ما يستحق، فيحدث مثلاً أن أدخل محلا تجاريا في الخرطوم طالباً مثل ما طلبت ويرد علي صاحب المحل بمثل هذا الرد؛ فهل أعتبره أيضاً عنصرياً ؟!! و أراحتني هذه المقارنة كثيراً، وقللت من أخذي كل صغيرة وكبيرة بعد ذلك بمفهوم العنصرية الضيق.

وقد تظهر العنصرية في بعض الحالات من غير قصد، وعندما يريد البعض إخفاءها ويحاول إشعارك بأنه أبعد ما يكون عن ذلك، وينسى في ذات الوقت المثل القائل: « ما فات حده انقلب إلى ضده .» أذكر من ذلك أن ذهبنا ذات ليلة مجموعة من الطلبة والطالبات من الداخلية إلى أحد المسارح في فيلد اشتر اسه وجلسنا في بداية صف من الصفوف، وكنا قد أتينا مبكرين ولم يكتمل عقد الرواد بعد. وبدأ بعد قليل الرواد يصلون زرافات ووحدنا. وكان لزاماً علينا في كل مرة أن نقف حتى يتمكن هؤلاء من الدخول إلى مقاعد الوسط، لأن المسافة بين الصفوف ضيقة، ولا تسمح بمرورهم ونحن جالسين. وفي كل مرة نقف فيها – وكنا حوالي السبعة أفراد وأنا الأسود الوحيد بينهم – أول ما يصل الشخص الذي وقفنا من أجله أمامي يلتفت إلى باسماً وهو يقول: « شكراً...شكراً » بينما لا يقل شيئاً من هذا لبقية زملائي وزميلاتي الألمان، وكأنه يبرهن لي أنه لا يحتقر السود بل يحترمهم! ولكن دون أن يدري قد خصني وحدي دون الآخرين بهذا الشكر، لأنه يرى أن تصرف الآخرين شيئاً عادياً، أما بالنسبة إليّ كشخص قادم من أفريقيا، فهو تصرف حضاري كبير استحق عليه الشكر والثناء إن لم تكن التهنئة، وذلك عين التفرقة!!

ومن الصور العنصرية البشعة، ما حدث لي ذات مرة مع طالب أمريكي أبيض كان يتلقى معنا دروسا في اللغة الألمانية في الجامعة. وكان ينظر دائماً بتعالٍ إلى الطلبة السود، ويتفادى الحديث معهم أو الجلوس بقربهم، وكان الجميع يهمسون بذلك ولا يفصحون به. وتعمدت ذات مرة أن أثيره، فتربصت به، وبعد أن جلس معظم الطلبة،

جاء واتخذ مكاناً خالياً. وعندما دخل الأستاذ أسرعت وجلست بقربه، أي في المقعد الذي يليه مباشرة. ورمقته بطرف خفي، فإذا هو يتململ في مكانه وينظر شذرا نحوي. وبعد مدة قصيرة قال لي وهو يتصنع التكلف: عفواً أنني شخصياً لا أملك شيئاً ضد السود، ولكن احتفظ بهذا المكان الذي جلست أنت عليه لصديقي. وهذا الاصطلاح :« لا أملك شيئاً ضد السود» ، سواء كان بالانجليزية أو الألمانية تعبير يستعمله العنصريون كثيراً ويحاولون أن يوهموا السود بذلك، رغم أنها تحمل بين طياتها كل معاني العنصرية. فلماذا السود بالذات كنوعية أو جنس ؟ ولكنني لم أمهله بل ألقيت عليه قنبلة لم يكن يتوقعها من أسود، أخذ بعدها كتبه وخرج من الفصل: إذ قلت له: عفواً فإنني أيضاً لا أملك شيئاً ضد البيض، ولكن هذا المكان يروقني، و سأخليه فور وصول صديقك !!

ومن أكثر القصص التي تفوح منها رائحة العنصرية الكريهة و أغضبتني بحق. ما حدث لي ذات ليلة وأنا أحمل معي في السيارة الأخ الصديق العزيز الدكتور مضوي الترابي الباحث الأكاديمي والسياسي الاتحادي المرموق، وأظنه كان قادما من بولندا. وبصحبته ضيف كريم آخر هو السيد محمد داؤود الخليفة، احد زعماء حزب الأمة الكبار: قدما لزيارة هامبورج، فخرجنا ليلا وأردت أن أريهما بعض ملامح المدينة والأماكن السياحية. ووصلنا إلى أحد الأماكن وأردت أن أوقف سيارتي . ولم أصدق عيني أن وجدت مكاناً فسيحاً يتسع لعدة سيارات في ذلك المكان المزدحم، وليس به سوى سيارة حمراء يجلس بداخلها شخصان. وعندما أوقفت سيارتي بقرب تلك السيارة لفت نظري وجود لافتة كتب عليها : ممنوع الوقوف . وأردت أن أعود أدراجي، وحدث أن لامس طرف سيارتي تلك السيارة الحمراء التي تقف، ولم تحدث بها أي ضرر أو حتى خدش. وأعدت وضع عجلة القيادة كي أخرج بطريقة أفضل. وعند ذلك خرج أحد الشخصين من السيارة الحمراء وأراني بطاقة تدل على أنه من البوليس الجنائي، وطلب منا إيقاف السيارة والنزول، وأن أره كل الأوراق الرسمية الخاصة بالسيارة من ملكية وترخيص وتأمين، إلى جانب رخصتي للقيادة وبطاقة تعريف أو جواز سفر. وكان ينظر إلينا في ازدراء غريب! وعندما وجد أن كل شيء مكتملا وفقاً للقوانين والنظام، توقعت منه أن يرد لي أوراقي، ولكنه أبقى عليها وقال لي في استفزاز: تركبون السيارات ولا تحسنون قيادتها ؟ وأضاف : انك ارتكبت حادث حركة ضد عربة حكومية ولا يمكن أخلاء سبيلك، وسوف أقوم بتسليمك إلى شرطة الحركة الذين سوف أتصل بهم من سيارتي عن طريق الراديو

!! وعبثا حاولت إقناعه أن ليس هناك أي حادث، وأن هذا الذي يفعله أنما هو أضاعه للوقت، وإثارة للأعصاب، ورجوته أن يعيد إليّ أوراقي، لكنه رفض وأصر على موقفه. وما كان منا إلا أن ننتظر. وبعد لحظات وصلت سيارة شرطة المرور بصوتها المزعج مثيرة فضول بعض المارة الذين التفوا بعد ذلك من حولنا. وأول ما نزل شرطي المرور تقدم نحوه ذلك الشخص الذي أوقفنا وأخذه بعيداً عنا وبدأ يتحدث معه. ولقد برهن السيد محمد داؤود الخليفة على أنه يتمتع بقدر لا يستهان به من الحكمة وبعد النظر. فدفعني قائلاً: أنت تحسن لغة القوم فأذهب واستمع لما يرويه .

ولقد صدمت لأول مرة أن أجد شخصاً يكذب كذباً صريحاً بهذه الصورة الفاضحة، وكاد أن يعكس الصورة المشرقة التي أخذتها عن الشعب الألماني!! فقال الرجل وهو يشيرً إلي: إن هذا الشخص أرتكب حادثاً ضد عربة حكومية، وعندما أشرت إليه بالوقوف اعترض وحاول الفرار، وعند التهديد أذعن ووقف !! ولحسن الحظ كان الشرطي الآخر أفضل منه كثيراً. فسألني في تهذيب شديد أن أروي له ما حدث. وبعد ذلك طلب من الذي استدعاه أن يريه أثر الحادث على السيارة الحكومية. ولم يجد صاحبي سوى آثار خدش بسيط.عند ذلك قال له شرطي المرور: ليس هناك أي أثر وهذا ليس بحادث . ولم يكتف بذلك بل لقنه درساً في الأخلاق قائلاً له: أيها الزميل العزيز لقد أضعت علينا وقتاً ثميناً فيما لا طائل منه، فأنت تدري أن هناك مئات الآلاف من السيارات في هامبورج، فإن كنا نقف لتحرير مخالفة لكل حادث مزعوم كهذا، أظنك توافقني على أننا سوف لن نتمكن من أداء واجبنا !! وودعنا وأنصرف بعد أن تأكد من أنه أعاد إلي كل أوراقي الرسمية، و الأخ المشتكي يتميز غيظاً، ولكن لم يستطيع أن يفعل شيئاً، فالقانون لديهم فوق كل شيء. وهّون علينا ذلك التصرف السليم من جانب شرطي المرور، بعد أن طلعنا « درون!!»

وللمناطق الارستقراطية أيضا قصة! اذكر أن احد الإخوة السودانيين جاء في زيارة قصيرة إلى هامبورج ، واحضر معه جلد نمر بقصد بيعه، وأخذته إلى احد أماكن بيع الفراء الراقية في شارع نوي فال، القريب من بحيرة الالستر الرائعة بوسط هامبورج، و الذي لا يرتاده إلا علية القوم. ووجدنا صاحبة المتجر امرأة قد تكون في العقد السادس من عمرها، وأخرى شابة، عرفنا لاحقا أنها ابنتها. فاحتارت المرأة أين تدخلنا، أو تخفينا على الأصح! تقول لنا تعالى هنا، وبعد قليل لا... لا هنا! وأخيرا أدخلتنا غرفة

ضيقة وخرجت. فجاءتنا الشابة مستضحكة، وقالت لنا: هل لاحظتما شيئا غريبا؟؟ وقبل أن نجيب أردفت: أمي العنصرية تحاول إخفاءكم من زبائنها العنصريين! وهي وهم كلهم خنازير!! لأنهم لو علموا أن الزنوج يتعاملون مع متجرنا، فسوف لن يدخلوه مرة أخرى!! وغضبنا لذلك وخرجنا، رغم أن صاحبة المتجر لاحقتنا إلى الباب، قائلة لنا: أنا اشتري منكما بالسعر الذي تطلبانه! لكن الحماقة السودانية كشرت عن أنيابها، ورفض صاحب الجلد أن يعيرها أدنى انتباه! وفي مرة أخرى عندما كنا في طريق العودة من الحفريات في اليونان، التي تقدم الحديث عنها في الحلقة السابقة، وبينما كنا نعبر بالقطار الحدود النمساوية الألمانية، دخل مفتش التذاكر لمراجعتها. وكانت الكبينة ممتلئة بالمسافرين وأغلبهم من الألمان. وكنت أجلس في آخر الصف بقرب الشباك وبجواري امرأة مسنة. وأول ما دخل المفتش و ألقى التحية، أمر بإخراج التذاكر. وبدأ الجميع في أخراج تذاكرهم. لكنه لم يطلب من أي من الجالسين تذكرته. ليتأكد منها. بل أشار إليّ من على البعد طالباً أن أريه تذكرتي. وعندما مددت يدي كي أناوله إياها. قبضت المرأة العجوز التي كانت تجلس بجواري على يدي ومنعتني من أن أسلمها له! ثم قالت له: أنت شخص عنصري !! لماذا طلبت فقط رؤية تذكرة هذا الإفريقي. وهو آخر شخص في الكابينة! أنه سوف لن يريك تذكرته إلا بعد أن تتفحص تذاكر كافة الذين يجلسون قبله في الصف! وأصاب قولها المفتش بالمفاجأة فلم يصر على رؤية تذكرتي بل خرج على التو! وهنا أيضا يمكن أن أقول النتيجة تعادل واحد عنصري مقابل واحدة غير عنصرية!!

لوننا الخادع!

يمكن أن نسمي هذه عنصرية سالبة أو خادعة! فلوننا يخدع الكثير من أخواننا العرب خاصة عند تصنيفنا، وينتهي بهم المطاف إلى الإحراج ثم الاعتذار! أذكر كنت ذات مرة في محطة القطار الرئيسية في هامبورج في طريقي مع زميلتي الألمانية إلى الدنمرك كما تقدم، وجلسنا داخل الكبينة في انتظار مغادرة القطار نتحدث؛ والمحطة تعج كالعادة بجموع المسافرين، والمودعين، والقادمين والمستقبلين، إلى جانب الفضوليين! وكانت تقف على الرصيف بالقرب منا مجموعة من هؤلاء الفضوليين من الأخوة العرب، وأخذوا راحتهم في الحديث عنا – دون أن يدور بخلد أحدهم أنه يمكن لي أن افهم شيئاً مما

يقولون! وكلها تنصب حول هذه الألمانية- التي وصفوها بالامورة- والتي لم تجد من تجالسه أو تسافر معه غير هذا الزنجي! ثم التحسر؛ مستعجبين: هل يمكن أن يكون صديقها؟ ام جمعتهما الصدفة؟ وأكثروا من: حرام والله!! والتعليقات السلبية، وأنا صامت أنظر إليهم. وعندما أوشك القطار على المغادرة ، وبدأ يتحرك رويداً رويداً قلت لهم : مع السلامة يا أخوة العرب ؛ رسالتكم وصلت!! ثم أردفت: عيب ياشباب!!! ولا يمكن أن تتصوروا مدى الحرج والخجل الذين بدا عليهم ، فمنهم من أنصرف فوراً، ومنهم من طأطأ رأسه خجلاً، ومنهم من حاول الاعتذار، ومنهم من ألجمته المفاجأة فصمت!!

وقصة أخرى شبيهة بهذه، حدثت أيضا في هامبورج. كانت الزميلة الألمانية إيلا، صديقة الأخ السوداني « ع « تتعلم اللغة العربية للناطقين بغيرها. ونظراً لانشغال الأخ « ع « بالامتحانات في ذلك الوقت، طلبت مني أن أرافقها ذات مرة إلى إحدى هذه المحاضرات لأرى طريقة المعلم، وطبيعة المنهج حتى أقدم لها المساعدة الممكنة. وذهبت معها إلى قاعة المحاضرة التي تضم العشرات من الطلبة والطالبات من مختلف الفئات والأجناس من بيض، وسود،وصفر، وجاء الأستاذ وهو مشهور في مادته في الجامعة، لأنه ألّف عدة كتب في هذا المضمار، مصري الجنسية، اسمه توفيق بورج. ويبدو من طريقته في الإلقاء أنه تخرج من الأزهر، أو دار العلوم الله أعلم! وكان يتحدث إلى الطلبة بلغة عربية فصحى مع التشكيل، يعاني منها الطلبة صعوبة في النطق و صعوبة في القراءة. وأذكر أنه كتب هذه الجملة على السبورة:

« زَيـنَـبٌ بـنـتٌ مِـصـريـةٌ «

وطلب من الطلاب والطالبات قراءتها! ويقف الواحد ويتهجى الكلمة حرفاً حرفاً، ويعيد ويكرر- أو بالسوداني يلت ويعجن ، وأخيراً يفشل في قراءتها بالصورة المطلوبة أو حتى قريبا منها، والأستاذ واقف مزهوا بهذا الذي يتقنه، بينما يعجز العشرات من الجالسين أمامه في الإتيان بمثله!! وما أكثر حُمر وأتن الشيخ التي وقفت يومها في العقبة!

ولسوء حظه أشار إليّ ضمن من يشير إليهم طالباً مني قراءة تلك الجملة فقراتها له بلسان عربي مبين مع التشكيل وحتى التلحين على الطريقة الأزهرية!: (زَيـنَـبٌ بـنـتٌ مِـصـريـةٌ).

ففوجيء الرجل أيما مفاجأة، وقطب من جبينه ثم فتح عينيه واسعة، وأول جملة قالها

لي « الأخ سوداني! » فقلت له أي نعم ! فسألني ما الذي جاء بك إلى محاضرتي؟؟ وأعتقد أنه خشي أن أكون أتجسس عليه أو شيء من هذا القبيل! فقلت له إن هذه المسكينة التي تجلس بجواري، استعصى عليها فهم طلاسم هذه اللغة، فاستنجدت بي! افلا بجدر بي أن أغثها ؟؟ فاطمأن قلبه وتبسم! ولو كان المجال غير المجال لاستطردت قائلا: إن كان شاعر الحقيبة المبدع أبو صلاح قد طلب من الجنس اللطيف الاستغاثة في رائعته الخالدة: (يا رشا يا كحيل غثني.. هواك سباني) ؟؟ أفما يجدر بالجنس الخشن أن يرد الجميل عند الطلب! رغم أن « ابو صلاح» ضرب عرض الحائط بنصيحة زميله الشاعر الآخر:

فما حسنا أن تأتي الأمر طائعاً ** وتجزع إن داعي الصبابة اسمعا

يعني بصريح العبارة وبالسوداني :(براكم تجو.. وبعدين تتجرسو!!؟؟؟)

وهناك مشكلة تواجه الأجانب الذين يحاولون تعلم اللغة العربية، وهي أننا ندرس الأجانب لغة عربية فصحى غير تلك المتداولة في الحديث العامي. ولعل هذا السبب الذي يجعل الكثيرين من الأجانب لا يستمرون طويلاً في تعلم اللغة العربية، وكثيرا من الذين يواصلون يفشلون كذلك. أذكر بعد عودتي للسودان كنت أدرس اللغة الألمانية في معهد جوته ، خارج دوام أو «بارت تايم،» كما تقدم، ثم أفتتح المعهد قسماً لتعليم اللغة العربية للأجانب، و أوكله إلي. وكان من بين طلبتي أحد الفرنسيين هو مدير البنك السوداني الفرنسي. وكان غاية في الاجتهاد، ويحاول ألا تفوته كلمه من دون تدوينها. وفي ذات يوم رأيته على غير العادة، لا يبدي أي اهتمام بما أقول، ولا يدون شيئاً في كراسته، وباختصار» نفسه مارقة!! « فسألته في استغراب: ما بالك اليوم يا مسيو بيير لا تبدي اهتماماً بما نقول ؟ فقال لي: « أنت تدرسنا كلاماً فارغاً! وقالها بالانجليزية «ننسنس!» فأنفجعت كما يقول الأخوة السعوديون! وقلت له وكيف ذلك!! قال لي: ذهبت أمس إلى سوق الخضار وقلت للبائع « من فضلك أعطني تفاحاً وبرتقالاً « فما كان من البائع إلا أن قال لي: يا خواجة يا مغفل أتكلم سوداني!!.

و لعل أطرف ما سمعت في هذا المجال، ما قاله لي الهر الدكتور اشتفان كلير القنصل العام الألماني السابق في جدة، والذي أصبح الآن سفيراً لبلاده في السودان، وكان شخصاً مرحاً خفيف الظل . قال لي ذات مرة في مكتبه بجدة : لقد حاولت مراراً تعلم اللغة العربية لكن دون جدوى، فيما ألاحظ أن خادمتي الأجنبية تعلمتها في وقت وجيز عندما

كانت تعمل مع أسرة عربية، دون أن تبذل نذرا يسيرا مما بذلت أنا من مجهود! فما رأيك يا هر بدين أن تجد لي وظيفة شغالة في بيت إحدى الأسر العربية!! «.

وبلغت العنصرية ذات مرة بامرأة عجوز في جزيرة كرينه أن استعاذت مني بالله ليس كزنجي بل كشيطان!! فلقد خرجت ذات صباح باكر في أخانس قاصدا الذهاب إلى موقع الحفريات، وفي أحد أزقة القرية الضيقة، قابلتني عجوز فجأة، فما كان منها إلا أن رسمت علامة الصليب بيدها على صدرها، وتمتمت ببعض الكلمات مستعيذة بالله، ورجعت أدراجها ودخلت منزلها وأغلقت الباب من ورائها! ولا أخالها خرجت من بعد في ذاك اليوم! ولعلها تشاءمت بي، تماما كما كان الحال مع الشاعر أبن الرومي، مضرب المثل في التشاؤم، مما جعل بعض الخبثاء يستغل فيه ذلك. فيأتي في الصباح الباكر ويقرع باب ابن الرومي؛ وعندما يسأل أبن الرومي: من الطارق ؟ يجيب:أنا غراب أو حنظله أو أي أسم قبيح! فيتشاءم أبن الرومي ولا يخرج طوال ذلك اليوم من منزله!

بريد القراء:

- شكرا للقراء الأعزاء الذين اتصلوا بي مستفسرين عن عدم نشر المقال الأسبوع الماضي، وأخص منهم بالذكر الأخ خضر عبد الرازق من الرياض، و الأخ قاسم شنان من الجنوب، والذي يصر على أن أوجه كلمة للشباب أحثهم فيها على المثابرة، والاجتهاد، تأسيا بالجيل الذي سبقهم، وفي ظروف لم تكن مواتية كظروفهم، فهلا سمعتم يا أبنائي نصيحة عمكم قاسم؟؟ وأرجو ألا تخذلوه وتخذلوني! والأخ عبد الماجد خليفة من محايل، والكابتن سبت دودو من جدة، والذي فاجأني متحدثا بلغة ألمانية سليمة!! والأخ الصديق محمد العوض محمداني، مدير المشتريات بشركة دلة البركة بجدة وزميلي في جامعة الخرطوم، والأخ عزام الطريفي من المدينة، والأخ عبد الرازق محمد عبد الرحيم من جدة والذي زارني معزيا، ولم أكن بالمنزل، ولما حضرت سلمت عليه، وبالطبع لم اعرفه، فكانت المفاجأة أن قال لي: أنا عبد الرازق! والأخ عصام بلولة، من الباحة، والأخ عبد العظيم مصطفى من عسير. وكما أوضحت لهم كان ذلك بسبب وفاة والد زوجتي العم عيسى الفاضل عيسى بامدرمان الأسبوع المنصرم وانشغالنا مع المعزين ، وإجراءات سفر الزوجة إلى السودان. هذا بالإضافة إلى الأخ الصديق الشاعر عالم عباس والأخ الصديق التجاني الفة بالرياض، والذين كانا على علم بذلك. والغريبة أنني أخبرت

جريدة الخرطوم بذلك قبل وقت كاف وطلبت منهم الاعتذار للسادة القراء. لكنها «صهينت!!»

ألا رحم الله العم عيسى الفاضل رحمة واسعة وادخله فسيح جناته. فلقد كان من الأخيار.

- إن كنا قد رأينا في مقال سابق كيف أن الأخ عبد الرزاق يبدأ بأعلى الصفحة، و يتفرج على العمامة أولاً، فهناك من يفعل على النقيض من ذلك. إلا وهو الأخ جمال محمد أحمد الدنقلاوي ، الذي أول ما يفتح صفحة الذكريات، يبدأ من الأسفل. وينظر إلى آخر سطر في المقال، ولا يطمئن له بال إلا بعد أن يقرأ « إلى اللقاء في الحلقة القادمة! » فهو- كما قال- يخشى كل الخشية أن تكون الحلقة التي يقرأها هي الأخيرة!

- ولكن خشيته من انتهاء مقالات صدى الذكريات أخف وطأة من خشية الأخ عزام الطريفي، الذي أرسل رسالة اليكترونية أقسم فيها بالله ثلاث مرات. أنه من شدة تعلقه بهذه المقالات، التي يعتبرها مدرسة، يخشى أن يدرك الأجل أحدنا: أنا قبل إتمام كتابتها أو هو قبل أكمال قراءتها! ويتضرع لله العلي القدير أن يمد في أجلينا حتى أكملها ويستمتع بذلك! اللهم آمين. (لكن الشيء البجيب الأجل ده أحسن نبلشو يا عزام!! ايه رأيك؟؟).

- أما الأخ صديق فضل المولى من المخازن الكبرى بجدة، فقال انه يحتفظ بمقالات قديمة للأستاذ المحامي احمد سليمان تحت عمود: «على مسؤوليتي » و للدكتور محمد عبد الله الريح، وأضاف إلى أرشيفه الآن ذكرياتي ؛ لك الشكر. ثم ذكر أن ما يؤلمه كثيراً هو كيف أن السودانيين درّسوا مختلف الشعوب، اللغة العربية، والانجليزية، والفرنسية، والألمانية، وما لقوا غير الجحود من هؤلاء! نقول للأخ صديق المثل السوداني البسيط (يلقوا قدام!!). ومشكور أيضا زارني معزيا، وهي أول مرة اراه كذلك!

- وأختم بالقاريء الأخ محمود النور من جدة، الذي أرسل رسالة يسألني إن كنت على معرفة بزملاء في الجامعة من أبناء توتي. للأسف لا أعرف الكثير منهم، لكن تربطني صداقة وطيدة بالأخ الدكتور محمد بابكر إبراهيم، الذي يعيش الآن في أمريكا، ولأنه كان معلماً في المدارس الأولية مثلنا قبل دخول الجامعة، لذا ازدادت الألفة بيننا، إذ جمعت بيننا زمالة العمل، وزمالة الدراسة. وكثيراً ما كان يدعونا إلى دارهم العامرة في توتي الخضراء الجميلة لتناول الطعام. لكن يشرف أهالي توتي، بل جميع نساء

السودان، الطالبة» الفارس « بدور محمد حمزة، وأعتقد أن والدها كان من كبار رجالات التربية والتعليم وكانت في كلية الآداب، وكنت على معرفة طفيفة بها، لأنها دفعة أخي و صديقي المرحوم مختار محمد علي. ولقد لعبت دوراً مميزاً في تشجيع الطلبة في ذلك الاعتصام الشهير في عام ١٩٧١م في الجامعة- كما أشرت إلى ذلك في الحلقة الثالثة من هذه السلسلة- هي ومنيرة بنت اللواء معاش حمد النيل ضيف الله، الطالبة وقتها بكلية الهندسة، وفاطمة بابكر، وفوزية عمر عبد الغني، وزميلاتهن الماجدات، وكيف أنهن اقسمن عندما احتدم الأمر، وأوشك العسكر على الفتك بالطلبة المعتصمين داخل الجامعة، على ألا تدخل الدبابات الجامعة إلا على أشلائهن!! ووقفن أمام الدبابات يحلن بينها وبين الطلبة المعتصمين، ودفع الحماس الزميلة الشجاعة- بنت ابوها- منيرة بان خلعت ثوبها وأصرت على احد الطلبة ، و الذي كان لا يزال مصراً على أن يدخل العسكر الجامعة بدباباتهم، طالبة منه أن يلبسه لان موقفه هذا لا يليق بالأخلاق السودانية!! هذا على الرغم من أنها تنتمي إلى نفس التنظيم السياسي الذي ينتمي إليه! وعندها تقدمت بدور، وأكاد أراها رؤية العين من بعد كل هذه السنين، شاقة طريقها بين المصفحات والدبابات ومتجهة نحو زملائها المعتصمين داخل الجامعة، مطلقة زغرودة طويلة تحثهم على الصمود!! ولقد كان لذلك فعل السحر لدى الطلبة! وكادت تهوي بهم البوابة من شدة تدافعهم نحوها!! وكّن على أتم استعداد للدفاع عن زملائهن حتى بأرواحهن، لان عرى الزمالة كان عندهن فوق كل خلاف!! ألا ما أروع وأقدس زمالة العلم سواء كان ذلك في جزيرة كريته أو في جامعة الخرطوم العريقة !! ، لكم الشكر جميعا قرائي الأعزاء، والى استعراض المزيد من رسائلكم في الحلقة القادمة.

ليلة الهروب من النوم!

هذه محطات متفرقة، منها الفكهة، والمحزنة، وكذلك المخزية: نتوقف خلالها عند بعض الشخصيات. ومحطتنا الأولى عند إحدى الشخصيات الفاضلة التي تعرفنا عليها في هامبورج، ألا وهو الأخ الشهم الكريم (أ.ف) الذي انتهت حياته بمأساة! كان أول لقاء لي معه عندما زرناه مع الأخ العميد شرطة منصور سليمان من أبناء سنجة. في منزله في ليلة شتاء باردة. ومع أنها أول مره نزره، وزوجته كانت غائبة عن المنزل. والوقت متأخر، إلا أنه طبخ لنا دجاجة وأعد لنا وجبة عشاءً لذيذة كنا في أشد الحاجة إليها.

والأخ (أ) من ضحايا الزواج بأجنبية. لم تكن المشكلة في الزوجة. فالحق يقال إنها كانت إنسانه محترمة، ومهذبة للغاية، وتعيش في وئام ومحبة مع زوجها. ولكن المشكلة كانت في البنات! وهذه مشكلة كانت تؤرق الكثير من المغتربين في الدول الغربية بصفة عامة، لدرجة أن بعضهم كان يجوب ألمانيا بحثاً عن زوج لإحدى بناته. والمقتدر منهم مستعد على أن يدفع كامل كلفة العرس! وللأسف هناك من العزاب من استغل ذلك مثل الأخ (ش) الذي أخذ الفلوس وزاغ! ولم يرجعها إلى الطبيب (...) والد البنت. إلا بعد أن هدده بالقتل!! لكن المشكلة هي أن الآباء والأمهات في جانب، والبنات في جانب آخر: وغالباً ما يحدث الصدام الذي لا مفر منه، فحرية الاختيار هي الفيصل، وليس للأب أو الأم دور فيه من قريب أو بعيد!

زرنا الأخ (أ) ذات مرة بعد أن «كبرت العيال»، فوجدناه في شجار عنيف مع أبنته (نون) حتى خرج عن طوره وصفعها لأنها اتخذت لها ألمانياً خليلا!!! ورأينا أن الوقت غير مناسب للزيارة، وحاولنا الانسحاب، إلا أنه أصر على بقائنا. وبعد قليل عادت البنت بعد أن كفكفت دموعها، وقالت لوالدها: هل يمكن أن نتناقش في هدوء يا أبي؟ ووافق الأب. فسألته الابنة سؤلاً صعباً قائلة: « أنت أول ما وصلت من السودان، وقبل أن تتزوج بأمي ألم تكن صديقتك في البداية ؟! فما المانع إذاً أن يكون لي صديق، أتزوجه في نهاية المطاف؟؟» وأطبق علينا جميعاً الصمت!!

وبعد أن غادرت ألمانيا، وبمتابعة البرامج الألمانية في التلفزيون، رأيت كيف أن (نون) ذهبت بعيداً جداً، وأصبحت أخبارها ترد في برنامج الـ في آي بي (الشخصيات المهمة جدا) وفي صحف ومجلات الأزياء والفضائح!! خاصة بعد أن أصبحت في جمال ولون

خلاسية محمد المكي إبراهيم، ولوليتة محمد سعد دياب – رحمه الله -؛ كنتيجة حتمية لتلاقى الشرق والغرب! وغرق الأخ (أ) في الشرب أكثر فأكثر ، إلى درجة انه بدأ يفقد شيئا من ذاكرته! أذكر آخر مره اتصلت به من السعودية قبل بضع سنوات، قال لي من فين تتصل؟ فقلت له : من جدة . فما كان منه إلا أن سألني :» وجدة دي وين!!؟ « عندها أدركت فداحة الخطب! وانقطعت أخباره عني، وقبل عامين تقريباً نعى لي أحدهم موت الأخ الكريم (أ) ، الذي دمره الواقع المرير! رحمه الله رحمة واسعة، وادخله فسيح جناته؛ فلقد كان مثالاً نادراً للسوداني الشهم الأصيل، ولابن البلد الذي لم تفسده الغربة، ولم تؤثر فيه الحياة المادية، لكن أصابه السهم في مقتل من اقرب الناس إليه! ولقد حاول جهده أن يتماسك، بعد أن زعزعه الدهر، إلا أن الخطوب كانت أقوى منه فصرعته!!

يا فرحة لم تتم!

في المحطة الثانية نتوقف عند الأخ الصديق الألماني آرني، الذي كان شخصاً لطيفاً، واجتماعيا، وكثير الأصدقاء. يعود في أصلة إلى جنوب ألمانيا، وبالتحديد إلى مدينة ميونيخ، عاصمة ولاية بافاريا؛ مهد صناعة الـ بي ام دبليو، وكان وحيد والديه، ويحضّر أيضا مع البروفيسور زقرت. كان آرني يحب الطعام حباً جماً، وهوايته المفضلة هي الطبخ. سكنت معه لفترة في شارع ايزي اشتراسة، المتفرع من شارع قريندل اليه، بالقرب من كوبري يقام أسفله كل نهاية أسبوع سوق للخضار، يحضر المزارعون ويبيعون منتجاتهم الطازجة مباشرة إلى المتسوقين. وكان الاندرقراوند يمر كل عشر دقائق فوق هذا الكبري، ويحدث تلامس العجلات الحديدية مع كبري الحديد صوتا مزعجا، يشكل اكبر معضلة خاصة في الليل حين يعز النوم! وبعد أن أمضيت أسبوعا لم اهنأ خلاله بنومة هادئة، تعودت بعد ذلك على هذا الصوت المزعج والمتكرر، وأصبحت أكاد لا أحس به مطلقا! وهذه من نعم الله على الإنسان، اعني التأقلم. اذكر إنني قمت في النصف الثاني من الستينيات بزيارة الأخ التجاني معروف زوج أختي الكبرى في» أبو كارنكة« بدار المعالية في جنوب دارفور، حيث كان يعمل كاتبا في الدونكي (البئر الارتوازية). وفي أول ليلة وضعنا أسرتنا بقرب «الوابور»، وبالطبع لم انم لحظة واحدة من شدة الدوي الهائل الذي كان يحدثه، بينما انظر في استغراب إلى الأخ التجاني الذي كان مستغرقا في النوم. سألته في صبيحة اليوم التالي كيف ينام مع هذا الصوت المزعج؟ فضحك واخبرني

انه أمضى الأيام الأولى دون نوم حتى خشي على نفسه من الانهيار! وأضاف. أما الآن فاستغرق في النوم من أول دقيقة؛ والغريبة أول ما يتعطل «الوابور»، وينقطع الصوت أصحو من النوم!!

وعند غروب الشمس يستعد المزارعون للعودة إلى قراهم، فيبيعون ما تبقى لديهم من خضار بسعر زهيد، وكانت هذه فرصة سانحة لآرني! فنذهب معاً ونشتري من كل نوع من الخضار حبتين، ولديه في الشقة حله كبيرة يضع فيها من كل خضار نوعا، كأنها سفينة سيدنا نوح، ويكثر من التوابل، ويحصل في نهاية المطاف على حلة لذيذه سوبر مشكل خضار. وهداه تفكيره ذات مره إلى أن يقدم الدعوة لوالديه اللذين انفصلا لأكثر من خمسة عشر عاماً، وكل منهما يعيش في مدينة، إلى قضاء نهاية أسبوع لدينا في الشقة، علّه يذيب شيئا من الجليد في العلاقة بينهما ؛ لكن لم تجر الرياح بما تشتهي السفن! فبعد أن حضر الأب وحضرت الأم، كانت حلة الخضار جاهزة، وجلسنا نتناول طعامنا في هدوء. وبينما نحن كذلك ، قال الأب لطليقته: يا ترى كم كان يكون لدينا من البنين والبنات لو أستمر زواجنا حتى الآن؟! فأجابته والدة آرني: كنت أكون وقتها في عداد الموتى بعد أن كان قد قضى عليّ الهم! والغم! فقال لها والد آرني:» ماذا تقولين يا نعجة ؟!» فاستنكرت ذلك وقالت له: « أنعجة أنا ؟! وأجابها: بل و بقرة كذلك! وطارت الشكلة ! وتنابذا بالألقاب حتى كاد الأمر أن يتحول إلى اشتباك بالأيدي! وجمعت الأم أغراضها على عجل وأصرت على مغادرة المنزل، ولم يمض على وصولها سوى سويعات! وفشلت كل مساعينا مع آرني لتهدئتها أو أثنائها عن المغادرة، بعد لقاء قصير مع زوجها السابق عقب فراق زاد على الخمسة عشر عاماً!!.»

اختبار قوة الأعصاب!

في المحطة الثالثة يقابلنا أستاذي الجليل البروفسور زقرت، الذي كان يبالغ في رعايتي وتسهيل كل ما يعترض حياتي من مشاكل، أكاديمية أو غير أكاديمية. وكان يكرم حتى ضيوفي الذين يأتون من السودان، فيأخذهم بسيارته الخاصة بجولة ليس فقط في مدينه هامبورج، بل في كل الشمال الألماني على شواطئ بحر البلطيق، في جولة تستغرق اليوم بكاملة، ويصر على أن لا يدفع أحد سواه ثمن كل الوجبات، والمشروبات الباردة، والساخنة، التي نتناولها طوال اليوم! ويبدو انه كان يفعل ذلك وفاءا لتلك النسوة ،

اللاتي أكرمنه بذلك الراوند فود « العصيدة» – كما يسميها___ في جبل مرة! وكان دائما يسألني عندما نتقابل: هل لديك مشكلة؟ ويفرح جدا عندما أقول له نعم! عندها يقول رائع! ويدعوني للجلوس حتى احكي له المشكلة، وهو يستمع في تلذذ ! فهو شخص يحب التصادم؛ حتى في ابسط الأشياء. اذكر كنت مسافرا معه بسيارته لحضور مؤتمر علمي في مدينة آخن في غرب ألمانيا؛ وبينما كنا في الخط السريع إذ بالطريق يضيق فجأة بسبب وجود أعمال حفريات، وأصبح مسارين فقط. فتزاحمت السيارات، وحاول احدهم تخطي البروفيسور بكل السبل، إلا أن البروف لم يدع له مجالا. وفي لحظة أصبح الاثنان متوازيان وتقاربا حتى كادت السيارتان أن تتلامسا! ففتح البروف النافذة وقال له: سنرى اليوم من هو الأقوى أعصابا منا!! فما كان من السائق الآخر إلا أن تراجع! وبالمثل كان يحزن عندما أقول له: الحمد لله ليست لدي مشكلة! فكنت أهم أول ما أراه قادما من على البعد، واختلق سريعا مشكلة، حتى اجعل أساريره تنشرح!

أذكر عند التحضير لدرجة الدكتوراه كان هناك قانون في الجامعة يفرض على الطالب معرفة اللغة اللاتينية في هذا التخصص الذي احّضر فيه، وأسقط في يدي! ولكن البروفسور زقرت قدم حجة قوية إلى مجلس الكلية، ذكر فيها أن اللغة العربية الكلاسيكية القديمة بالنسبة للعرب هي في مقام اللغة اللاتينية لدى الأوربيين، ولا بد أن تحسب للناطق بالعربية كما تحسب اللغة اللاتينية للأوربي. وبعد شد وجذب، وافق مجلس الكلية، لكن أشترط على أن يؤدي هذا الطالب المعني امتحاناً في اللغة العربية. وبقدر ما حاّجهم البروفسور زقرت أن هذه هي لغته الأم، ولا يعقل أن يمتحن الإنسان في لغة أمه للتأكد من أنه يجيدها، إلا أنه فشل هذه المرة، وأصر المجلس على الامتحان.

وذهبت إلى قسم المستشرقين لأداء الامتحان ؛ وكان الممتحن ألمانياً من أصل لبناني. واذكر أن أول سؤال وجّهه إلي كان: ما معنى « عنقريب!! « فعجبت وقلت له هذه كلمة عربية فصيحة؟؟ فضحك الرجل، وقال لي أنا أعرف أنها سودانية، وبالطبع أنا متأكد من إجادة السودانيين للغة العربية، فقط من باب الأمانة أقول امتحنته ونجح في الامتحان؛ فنجحت بكلمة واحدة هي « عنقريب! «.

ينصر دينك يا ابو عمير!!

ومحطتنا الرابعة مع الأخ صفوت . كان الأخ « صفوت» كدأب اقرانه من السودانيين في هامبورج كريماً، مضيافا، وبشوشا، وداره ملتقى الأصدقاء. لكن له عادتان غريبتان؛

هما كرهه للألمان، وخشيته من الامتحانات. ولا ادري سبب كرهه للألمان لهذه الدرجة على الرغم من انه عاش بين ظهرانيهم فترة طويلة، ويلقى منهم كل معاملة كريمة. اذكر جمعتنا ذات مرة حفلة خاصة في دار احد الزملاء مع بعض الألمان. فسأل صفوت المرأة الألمانية التي تجلس بجواره إن كانت متزوجة. وعندما أجابت بالإيجاب سألها عن جنسية زوجها؛ فقالت له ألماني. عند ذلك قال لها صفوت: هل أنت غبية لدرجة تتزوجين فيها ألمانيا؟؟ وغضبت المرأة، وتكهرب الجو، ولكن نجحنا في تهدئته. بعد أن أصرت المرأة على أن لا تجلس بجواره بعد ذلك!

أما خشيته من الامتحانات فلا ادري السبب من ورائها ، على الرغم من أنه رجل ذكي، واسع الاطلاع، ومثقف. ولكن عندما يأتي الامتحان تلم به حالة أشب بالخوف المتجّذر من الامتحان، فيقوم بتأجيل امتحانه، مره تلو المرة. طلب مني ذات مره أن أذهب. وأقابل البروفسور الذي هو في انتظاره لأداء الامتحان، وطلب مني أن أخبرة بأنه مريض، ولا يستطيع أن يحضر للامتحان. فذهبت إليه في مكتبه، ووجدته في انتظار صفوت. واذكر أن الامتحان كان في مادة الكيمياء العضوية. وبدأت حديثي قائلا: إنني قادم مندوباً من الأخ « صفوت «.... فأكمل البروفيسور بقية القصة: « مريض، ولا يستطيع الحضور، ويطلب تأجيل الامتحان... أليس كذلك؟! « فقلت له لم تماما، لم تنقص ولم تزد!!

وكان الأخ الإثيوبي عمر، صديق صفوت يمازحه من وقت لآخر قائلا له « أنا أخشى أن تنزل المعاش وأنت طالب، وتدخل بذلك التاريخ !!».

وعمر هذا لنا معه كذلك قصه! هو كما تقدم أثيوبي، متزوج من ايطالية، ويسكن بالقرب من محطة اشتيرن شانزيه، ويكبرنا في السن، ترك الدراسة منذ فترة طويلة، و أصبح يعمل في حلقة للخضار، وكان كثيراً ما يجود علينا بكراتين الخضار والفواكه من وقت لآخر. وعيبه أنه يكثر من الشرب بصورة مزعجة! وكان أن زارني أبن عمتي- تمر البقيع بدين- الأخ إبراهيم موسى (الدكتور إبراهيم موسى الأستاذ في جامعة صنعاء) أثناء تحضيره للجزء الأول من رسالته في جنيف بسويسرا، بينما أكمل الدكتوراه في جامعة كمبردج بانجلترا. ورأى الأخ عمر أن يقيم دعوة عشاء على شرفه، وأحسن الرجل وفادتنا وأكرمنا، واستمتعنا بالبتزة والمكرونة الايطالية الشهية. وبالطبع لم ينس الأخ عمر نصيبه من الشرب! ثم أصر أن يأخذنا مع إبراهيم بجولة بسيارته حول هامبورج. وأثناء سيره بقرب خط القطار، علق فجاه في خط «السكة الحديد» وأصبحت السيارة

الفولكس واجن، التي تجلس فيها زوجته بجواره، بينما أنا والأخ إبراهيم في المقاعد الخلفية، نصفها داخل خط السكة الحديد والنصف الآخر خارجه!! وأصبنا بالرعب الشديد لأن القطار يمكن أن يصل في أي لحظة! فصرخت فيه أن يحاول إخراجنا بسرعة من هذا المأزق. وفوجئت بالأخ إبراهيم يشجعه قائلاً : ينصر دينك يا أبو عمير! سر بنا كما تشاء ! وحيثما تشاء، ونحن معك ! ثم مال نحوي وهمس في إذني قائلا: يا محمد لا تصرخ في وجه شخص سكران فالنتيجة تكون عكسية!!

وبفضل من الله خرجنا من ذلك المأزق قبل أن يلم بنا مكروه! ولا ادري من أين لك هذه الخبرة يا أبا واصب؟؟!!! لك تحياتي الكثيرة.

جنود الوطن!

في هذه المحطة الخامسة تعرفنا عن كثب على مجموعة خيرة من رجالات القوات السودانية البواسل في هامبورج، وكلهم كانوا رجالاً بمعنى الكلمة، يشرفون القوات المسلحة، ويشرفون السودان، يتمتعون بأخلاق رفيعة، وحس وطني عالٍ ، وكرم حاتمي فياض؛ وحق للأخ الصديق العزيز محمود دليل أن يهيم بهم إعجاباً! ويستحق الأخ محمود أن يمنح رتبة فريق فخرية من الجيش، لما كتبه ولا يزال يسّطره عن هذا الجيش بدقة متناهية! والغريب أن الأخ محمود لم يلتحق بالجيش مطلقا ! ذكر لي ذات مرة أن اللواء معاش عمر محمد الطيب قابله ذات مرة في جدة، وكان يعتقد انه من منسوبي الجيش سابقا! كان هؤلاء الضباط يأتون إلى التدريب في الأكاديمية العسكرية الألمانية المرموقة في بلانكينزا بـ هامبورج، والبعض الآخر- وأذكر منهم عضو مجلس قيادة الثورة السابق اللواء التجاني آدم طاهر- كانوا في منطقة أخرى بقرب فرانكفورت على ما اعتقد، وقام ذات مرة بزيارة زملائه في هامبورج. لكن الغالبية كانوا يتدربون في هامبورج. ولم يأتوا جميعاً في وقت واحد، بل كانوا يأتون على دفعات، أذكر من هؤلاء الأخوة الأصدقاء الكرام العقيد وقتها عثمان رأفت، والعقيد محمد إبراهيم، والعميد محمود توفيق، والعقيد محمد عبد الله، والعقيد الخواص، والنقباء صلاح وعثمان (الهلالابى القح) ومصطفى يوسف التني. وكانوا يقدمون لنا الدعوات في حفلات التخرج الرائعة التي تقام على شرف تخرجهم، وغالباً ما يحضرها السفير السوداني والملحق العسكري من بون؛ وكان لفترة طويلة اللواء حمادة عبد العظيم عضو المجلس العسكري

الذي كونه المشير سوار الدهب لاحقا.

أذكر أن الأخ عثمان رأفت، وزوجته العزيزة منى سليلة آل زروق العريقة. وابنه علي، وابنته نهى ، كانوا يسكنون بجوار امرأة ألمانية كبيرة في السن مزعجة تدعى « فراو يانكي ». فاتصلت بنا ذات مرة، وأخبرتنا أن منى تبكي أحر البكاء. بعد أن وصلها خبر من السودان مفاده أن أباها قد توفى إلى رحمة الله تعالى! وذهبت مع زوجتي فوراً لتقديم العزاء. ووصلنا الدار، وقابلتنا منى كعادتها دائماً هاشة باشة. ولم يكن زوجها في المنزل حينذاك وهي تضحك؛ ونحن محرجون لا ندري ما نقول، إذ لا يعقل أن يكون أباها قد مات وهى تضحك! فأخبرناها صراحة أننا قدمنا للتعزية بناء على ما نقلته إلينا « فراو يانكي » فقالت لنا :» أبوي مات من زمان وهذه المرأة مخّرفة! «.

ودخلت ذات مرة هنا في جدة في موقف مشابه لهذا إلا أنه أكثر إحراجا. فكانت هناك أسرة من الفاشر تسكن في جدة لنا بها صلات وعلاقات ونتبادل الزيارات من وقت لآخر. وذات ليلة اتصل بنا من لا نشك في صدق قوله وأخبرنا أن والد الزوجة توفي في الفاشر. وذهبت مع الأخ الصديق عالم عباس وزوجته، الأخت نعمات علي يوسف- التي هي أيضا من صديقات « صدى الذكريات»- لتقديم العزاء.

وفتحت لنا الزوجة الباب، فرفعنا أيدينا بالفاتحة، وما كان من الزوجة إلا أن صرخت « أبوي مات ؟؟؟!» وأصيبت بالانهيار، ودخلت في نوبة من البكاء! واسقط في أيدينا؛ ولم يكن الزوج وقتها في المنزل ويبدو أنه سمع خبر وفاة والد زوجته، إلا أنه لم يخبرها وخرج ليتصل بالفاشر كي يتأكد من ذلك بنفسه . وبينما كنا في حيرتنا تلك، نردد كلاماً غير مقنع من قبل « الله يكضّب الشينة!» وصل الزوج وأكد لزوجته خبر الوفاة. ولأول مرة حمدنا الله على عدم تكذيبه للشينة، حتى لا نطلع كذابين بهذا المستوى الرفيع!

وهناك الأخ العميد محمود توفيق من أم درمان ومتزوج بالأخت فاطمة من أم روابة. ولقد كانت امرأة جدعه إلى حد بعيد -ليست عنصرية منى لأنها من الغرب- بل بحق وحقيقة! ترحب وتكرم الضيوف بكل السبل سواء كان زوجها موجوداً أم لا، وامرأة عفوية وشجاعة. أذكر كنت معها مرشدا ذات مرة في بداية عهدهم بهامبورج، للتسوق في سوق التونا، بعد أن طلب مني الأخ محمود مرافقتها لانشغاله ببعض الواجبات العسكرية، وتخلفت ورائي قليلاً، وعندما التفت نحوها رأيتها تصفع أحد الأتراك صفعة رهيبة حتى ترنح الرجل! خاصة وفاطمة ما شاء الله فارعة الطول متناسقة الجسم . وهي

صفعة لا تشبه إلا صفعة ذلك الأخ السوداني، والذي قال- للأسف- مفاخرا لمقدم البرنامج التلفزيوني الشهير.» افتح قلبك» جورج قرداحي، يصف صفعة ألحقها بأخته الكبرى المتزوجة: «اديتها كف تعجبك يا جورج!!» ولحسن الحظ جاء معتذرا لتلك الأخت المسكينة التي انهمرت الدموع على خديها وهي تتحدث!

فأسرعت نحو الأخت فاطمة مستعجباً من تصرفها! والرجل لم يقل شيئاً بل طأطأ رأسه وهم بالانصراف! وعندما سألتها قالت لي: هذا الرجل التافه حاول أن» يتلعبث» فأوقفته عند حده! وفي مرة أخرى كنت في قسم العناية الخاصة في مستشفى التونا أعاني من نزيف في القرحة، وصدف أن أجرت فاطمة عملية في نفس الوقت في نفس المستشفى؛ وبلغها خبر وجودي في هذا القسم الذي يوضع فيه من هم في حاله خطرة. وأذكر أن الأطباء طلبوا مني توقيع موافقة مقدما على إجراء عملية في حالة دخولي في غيبوبة من جراء النزيف، الذي كانوا يقيسونه بتلون الماء في زجاجة صافية. وأذكر أنهم ربطوا كرة مطاطية في يدي، وطلبوا مني أنه بمجرد ما أحس ببوادر الإغماء، أن أقفل يدي، لان هذه الكرة مرتبطة بجرس في العملية وسوف تنبههم إلّي فيسرعون إلى نجدتي! وعندما جاء الليل لم أستطع النوم من جراء الأنبوبة التي أدخلت إلى معدتي من خلال حنجرتي. وذكرت للممرضة أنني لا أستطيع النوم. فجاءت وأخرجت أحدى الحقن من يدي وأعطتني حقنة. وما هو إلا برهة، وبدأ جسمي يسخن، أو هكذا بدا لي! فأصبت بالرعب والانفعال، وبدأت كافة الأجهزة المتصلة بجسدي ترتفع مناسيب قراءتها، ومنها ما أضاءت بالون الأحمر، ومنها ما أصدرت رنيناً كالجرس!! وخيل إلي أنني على شفاء حفرة من الموت! فصرخت في المرضة: « خلاص ضيعتيني يا بنت الك...» — ومن شدة الارتباك قلتها لها بالعربي! وهرولت هي إلى الخارج منادياً « يا دكتور! يا دكتور! « وجاء الدكتور ووجدني في تلك الحالة المزرية، وفي ذلك الانفعال؛ فقال لي: « أخطر شيء عليك هو هذا الانفعال ! فعليك أولاً أن تهدأ « ولقد كان هو في منتهى الهدوء مما طمأنني قليلا. ثم سأل المرضة: « ماذا أعطيته؟ « وعندما أخبرته قال لها :» هذا خطا! لأنه لا يجوز في مثل هذه الحالة « ثم أعطاني حقنة في العضل، وخرج . والطريف في الأمر بعد ذلك، بعدما كنت اطلب النوم بكآفة السبل، أصبحت الآن أهرب منه أيضا بكآفة السبل! فكلما الّم بي النعاس، اعتقدت أنها ستكون النومة «الياها!» فأهب مذعورا كما العصفور بلله القطر ! ولكن لان النوم سلطان فقد غلبني على الرغم عني! والغريبة- لو تصدقو-

صحوت في صباح اليوم التالي!!
ونعود إلى الأخت فاطمة، التي دخلت عليّ الغرفة، وهي تتحامل على نفسها. وتتوكأ على عصى، و عندما رأت تلك الأجهزة والأنابيب تحيط بي من كل جانب، فزعت وصاحت: « سجمي ...سجمي!» وأردت أن أطمئنها فقلت لها « أنا كويس والحمد الله » فما كان منها إلا أن قالت : «والله أنت ما كويس .. أنت غبيان ساكت! » وأصرت أن تمكث معي، إلا أن الدكتور رفض ذلك. تحياتي لأم نزار ولزوجها الشهم الأخ العميد معاش محمود توفيق. فلقد كانت سودانية أصيلة.

أعوذ بالله.. منافق!!!!

ومحطتنا الأخيرة ستكون مع الأخ بيتر الطالب ألماني من مدينة فرانكفورت.الذي كان يسكن معنا في الداخلية في هامبورج، وهو صديق كل السودانيين تقريباً، وبيتر هذا كان يطلعني دائماً على بعض الحيل. فلقد كانت له سيارة – على قدر الحال- وذهبت معه ذات يوم إلى المحطة الرئيسية. ولم يجد مكاناً نقف فيه، وبعد جهد أوقف سيارته في مكان ممنوع الوقوف فيه. فقلت له سوف تحرر لك مخالفة! فقال لي أنتظر وسترى. ودلف إلى أقرب سيارة بجوار سيارته، وعلى زجاجها ورقة مخالفة، فأخذها ووضعها على زجاج سيارته! وقال لي عندما يأتي الشرطي سوف لن يحرر لسيارتي مخالفة لأنه يرى أن عليها ورقة مخالفة من قبل!!.

وذات مرة قرأت أعلاناً في اللائحة في مدخل الداخلية، يعرض فيها بيتر سيارته للبيع، بمبلغ زهيد يكاد لا يصدق، كان أقل من ١٠٠ مارك!! فاستعجبت لذلك وذهبت استفسره. فوجدته قد باعها بالفعل! وعندما سألته عن السبب قال أنه وجد جهازاً موسيقياً رائعاً أعجبه فقرر أن يشتريه، ولكن كان ينقصه نفس ذلك المبلغ الذي باع به السيارة، فقرر فوراً بيعها دون تردد، لأن تفكيره في ذلك الوقت كان منحصرا فقط في اقتناء الجهاز، وكيفية الحصول على ذلك المبلغ، ثم بعد ذلك يمكن أن يفكر في اقتناء سيارة أخرى!!

ومن «الاعيب» بيتر كذلك، كنا عندما نحس بملل في الداخلية نقرر تنظيم حفلة، فيأتي أحد الحاضرين بصحن، ويضعه في منضدة وسط صالة الغرفة العامة كي يجود كل واحد بما يستطيع. فمنا من يضع ماركاً، أو ماركين أو خمسة، كل حسب استطاعته. وأخبرني بيتر أنه يستغل هذا الظرف فيضع ماركاً ويأخذ ماركين، موهماً الآخرين أن

ليس لدية فكه وهو يريد التبرع بريال فقط! أو يضع ماركين ويأخذ خمسة ماركات! لذا يحب هذه الحفلات لأنه هو دائما الرابح!

ولا أنس ما جرته على مثل هذه الحفلات العشوائية من متاعب ذات مرة! فبعد أن جمعت الفلوس، تم توزيع الأعباء، بين تجهيز القاعة، والموسيقى، والإضاءة، وشراء متطلبات الحفل... الخ. ووقع الاختيار عليّ وعلى زميلة أخرى لنذهب لشراء هذه المستلزمات من السوبر ماركت. وبعدما اشترينا كل ما في القائمة، وامتلأت العربة من حلال وحرام، ونحن نتقدم في تؤدة ، وندفع العربة أمامنا إلى الكاشير؛ إذا بنا نقابل وجهاً لوجه الأخ (م) من الجزائر، وهو رجل متدين وملتزم وكنا نتقابل كثيراً في المسجد أو المركز الإسلامي قرب بحيرة الستر، ويحترمني كثيرا؛ وتوقف أمامنا فجأة، بعد أن وجدني – حسب اعتقاده متلبسا بالعديد من الجرائم في آنٍ واحد!– فأشاح بوجهه بعيدا قائلا: أعوذ بالله.. منافق!! (والحمد لله لم يكن ذلك وقت جز العنق! وإلا لكان جزّ عنقي!!) وبالطبع لم يدع لي مجالا للدفاع عن نفسي أو توضيح الموقف. وصحيح انه حّق علي يومها لعنة شاريها، وحاملها– واسأله تعالى الذي يغفر الذنوب جميعا أن يغفر لي ذلك___ إلا بحمده تعالى لم أكن قط يوما من شاربيها أو حتى مدخنيها!!

بريد القراء:

وأود في الختام أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل القراء الأعزاء اللذين اتصلوا بي معزين، واذكر منهم الأخ السعودي عاشق كتابات السودانيين، والذي اخبرني انه يحتفظ بحلقات ذكرياتي الست والثلاثين، الأخ عامر احمد الشهري من المجاردة في الجنوب، والأخ الزبير صالح من الرياض، والأخ الصديق عبدالله علقم من الدمام، والأخ ذنون الكاروري من الوجه، والأخ بدر الدين احمد من الجنوب، والذي ذكر انه كلما يقرأ هذه الذكريات، يرثى لحال الأميين لأنهم محرومين من متعة قراءتها! والأخ كمال شرف الدين من الرياض، والأخ رشيد خالد إدريس من الرياض، والأخ حسن كمال الدين ابو صباح من الدمام، والأخ عزام الطريفي من المدينة، والأخ فيصل محمد إبراهيم من جدة، والأخ حسن عبد الباقي من ينبع، والذي أبى إلا أن يعطيني زوجته وعمه الذي كان معهم بالمنزل ساعة اتصاله ليعزيانني! ويأتي على رأس هؤلاء، الذين اتصلوا بي من أقاربي، ومعارفي، وأصدقائي، ومن تكبد منهم مشاق الحضور شخصيا للتعزية ، والمجال

أضيق من أن يسع ذكرهم فلهم الشكر الجزيل.

ونكتفي بهذا القدر مع الاعتذار للسادة القراء من استعراض تداخلاتهم لضيق المجال، مع أمل اللقاء الأسبوع القادم إنشاء الله، لكن ليس قبل أن أشير إلى أن دائرة المعجبات بصدى الذكريات من الجنس الآخر بدأت تتسع بدخول كل من السيدة الفضلى والدة الأستاذة زينب عصام حسون، زوجة صديق الذكريات الدكتور فيصل احمد عبد الرحمن، والأستاذة سمية أبو القاسم زوجة الأخ الصديق ابوبكر الصديق محمد منصور بالبنك الإسلامي، والأستاذة عفاف محمد الحسن زوجة صديق الذكريات القديم الأخ الصديق الدكتور(الونّاس) أزهري قاسم كذلك بالبنك الإسلامي. والذي يمازحني عندما يقابلني قائلا « أهلا بالرجل الذي لم يأكله النمر!! «

يوم كَد الألمان العظام كَداً !

نواصل التوقف عند بعض المحطات، كما فعلنا في الحلقة السابقة. محطتنا الأولى في هامبورج، شهر كان فبراير من عام ١٩٨١م، ونحن في خضم الترتيبات للتحضير لسماية الابن - المهندس الآن- ياسر،حين دخلنا في مغامرة صغيرة كادت أن تؤدي بنا إلى الهلاك! وبطل القصة هو الأخ المصري جمال الذي يسكن في الداخلية المجاورة لنا في كيفتز مور. وكان جمال خريج الأزهر- على ما اعتقد- ويحّضر للدكتوراه في ألمانيا ، رجل متدين جداً وملتزم، ومتزوج بألمانية دخلت الإسلام وسميت نفسها عائشة. وأعتقد أنها من أوائل الألمانيات اللاتي تحجبن حجاباً كاملاً، ولم تكترث لنظرات الاستغراب الحادة في أواخر السبعينات، حين كان منظر امرأة محجبة بتلك الصورة في ألمانيا أمراً غريباً وشاذا، ولها بنت صغيرة محجبة أيضاً. وكان الأخ جمال كثيرا ما يزور صديقه حسنين الذي يسكن معنا في الداخلية، ومبعوثا للتحضير من جامعة أسيوط، ومتزوج كذلك من الألمانية أورليكا، كما تقدم ذلك في حلقة سابقة. وكنا كثيراً ما نلعب « الوست » ; جمال وحسنين زملاء، وأنا وأورليكا زملاء، وزوجتي متفرجة. ويثور جمال ويغضب جداً عندما نغلبهما! ويأخذ الأمر بمنتهى الجدية.

عندما قررنا إقامة السماية، كان همنا يتركز حول أين نجد خروفاً، ومن يقوم بذبحه على الطريقة الإسلامية؟ وأخبرني جمال انه على معرفة ببعض الفلسطينيين يقيمون في قرية تبعد قليلا عن هامبورج، ويربون الأغنام ويذبحونها على الطريقة الإسلامية. وأقترح مشكوراً أن يأخذني إلى هناك. فركبنا سيارته البيجو ٣٠٤ البرتقالية اللون، وأخذنا الخط السريع المتجه من هامبورج جنوبا.ٌوبينما نحن في الطريق تخطانا أحد الأشخاص بسيارة مرسيدس. وفجأة استشاط الأخ جمال غضباً، وقال كيف أدع هذا الأرعن يستفزني ويتخطاني بهذه الصورة! والله لن أتركه! وتغيرت ملامحه، وانتفخت أوداجه، وزاد من سرعة العربة بدرجة كبيرة! ولك أن تتخيل شخصاً يقود عربه بيجو مستعمله، يطارد مرسيدس تكاد تكون آخر موديل! واعتقد أنها كتلك السيارة التي حكى لي عنها صديقي آوست ذات مرة، من أن سائقها كان يقودها بسرعة تزيد على ٢٤٠ كيلو في الساعة! وعندما استوقفته دوريات الطرق، بادر السائق شرطي المرور- مستعبطا___

:هل كنت أسير بسرعة زائدة؟؟ فما كان من الشرطي إلا أن أجابه : كلا! كنت تطير منخفضا قليلا!!

وحاولت أن أهدي من انفعال الأخ جمال قليلا، ولكن دون جدوى. ثم حاولت أن أخاطب فيه الجانب الديني، قائلا له: لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة يا أخ جمال! فكان رده لي : الآجال بيد الله يا أخ محمد ! وعندما وصل به التهور منتهاه، حتى كان يفقد السيطرة على السيارة، وأعيتني الحيلة، لا أدري لماذا أدرت فجأة مسجل السيارة!- لعل ذلك من قبل الارتباك الذي يلم بالإنسان فيتصرف تصرفا ليس له أي معنى، أو هي حيلة العاجز ــــ و بالصدفة ولحسن الحظ كان الشريط داخل المسجل للمقرئ المصري المشهور محمود خليل الحصري. ويا سبحان الله! ومصداقا لقوله تعالى:» ألا بذكر الله تطمئن القلوب» فأول ما بدأ الرجل يقرأ، هدأ جمال فجأة، وكأن ماءا باردا قد صب عليه! وقلل من سرعة السيارة، وعاد إلى حالته الطبيعية، وترك سائق المرسيدس وشأنه!! وكنت بعد ذلك عندما أحس بعربة تحاول أن تتخطانا اشغله بأي شيء حتى لا يعيرها انتباهاً. وقد وصلنا المزرعة وتم كل شيء على ما يرام، وعدنا بحمد الله سالمين غانمين إلى هامبورج .

وتذكرني هذه بحادثة أخرى مماثلة، حين قررت الكلية القيام بزيارة إلى متحف مدينة هانوفر، وتم توزيع الطلبة على الذين لديهم سيارات، وكان نصيبي وطالبتان أن نركب مع طالبه معنا متزوجة وتكبرنا كثيراً في العمر، وكانت تقود السيارة بسرعة فائقة؛ وكنت أركب بجوارها والطالبتان في المقعد الخلفي. ومن الطبيعي أن يلتفت السائق لحظة إلى من بجانبه، ولكن من غير الطبيعي أن تكون السيارة تسير بسرعة ١٤٠ كيلوا متر وتستدير تلك المرأة استدارة تامة إلى الخلف وتحكي مع البنتين، ثم تقول لهما بعد قليل « لحظة من فضلكن أنظر إلى الشارع قليلا!!» وفوضت أمري إلى الله، ولزمت الصمت! وبعد أن انتهت الزيارة أرادت مني أن أرجع معهن، ولكن قلت لها: شكراً سأمكث قليلاً في هانوفر . وفي الحقيقة لم أمكث هناك، بل ذهبت مباشرة إلى السكة الحديدية ورجعت بالقطار؛ فالمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين.

وكانت دعوة السماية عبارة عن وجبة غداء كبيرة شاركنا فيها الكثير من الأصحاب والأصدقاء السودانيين. وإذ نحن كذلك قدمت إلينا مجموعة من الأطفال الألمان ووقفت

بقربنا تنظر في استغراب إلى هؤلاء الناس الذين يفترشون الأرض، و يأكلون بأيديهم بشهية مفتوحة، ومن آنية مشتركة، ويقهقهون ! فدعوناهم إلى مشاركتنا الأكل. ولم يرفضوا الدعوة، بل انضموا إلينا سريعاً، وبدءوا الأكل مثلنا بأيديهم، وتلطخت أيديهم وأوجههم وملابسهم بالايدامات، وخاصة بملاح المفروك! وبعضهم وقع كدًّا في العظام، عندما رآنا نفعل ذلك! وفجأة جاء بعض أهل هؤلاء الأطفال، وفزعوا عندما رأوا الأطفال وهم يأكلون بهذه الطريقة- الهمجية في عرفهم- ومستغرقون معنا في الضحك، والأنس، وملابسهم وأوجههم قد اتسخت، وأصبحت أوجههم الصغيرة كالخريطة الملونة، احمر في اخضر في اسود! فصاح بنا أهلوهم « ناين بيتي!! «» أي لا من فضلكم «! ونادوا الأطفال، الذين رفضوا الانصياع لهم، فما كان منهم إلا أن شاركوا أطفالهم الضحك!! بعد أن شعروا أن أطفالهم كانوا في غاية السعادة بهذه التجربة الجديدة عليهم!! وتركوهم يواصلون معنا الأكل، فالأطفال هم أطفال في كل زمان ومكان.

سارة التي خشيت أن نأكلها!!

أما قصة الزميلة الألمانية « سارة « مع أكلات السودانيين فأشد خطورة! قمنا ذات مرة برحلة مع مجموعة من الأطباء السودانيين العاملين في هامبورج وضواحيها إلى مزرعة خارج هامبورج، وأيضاً أحضر أحدهم لحم الخروف بعد ذبحه وتجهيزه في مكان آخر. وكانت في المزرعة غرفة صغيرة شبة معزولة، تقع في الدور الأول لمباني المزرعة. وأعد بعض الأخوان « المرارة « في تلك الغرفة. وسعى الدكتور عفيفي محمود بين السودانيين هامساً في أذن كل منا بأن المرارة جاهزة في تلك الغرفة، وكان يتجنب أن يعلم الألمان بشيء من ذلك، لذا كنا نذهب في مجموعات صغيرة، مجموعة تلو الأخرى، ونتسلل فرداً فرداً إلى الغرفة! لكن الفضول دفع الزميلة الألمانية « سارة «، التي لاحظت تحركا غريبا وسط السودانيين إلى أن تصعد إلينا في تلك الغرفة دون مقدمات. وعند دخولها ورؤيتنا نأكل اللحم النيئ ، انهارت وسقطت مغشي عليها!! وهب الأطباء لإنعاشها بكل السبل! وبعد أن عادت إلى وعيها حزمت أشياءها وأصرت على أن لا تبقى لحظة واحدة معنا؛ ويبدو أنها خشيت في قراره نفسها من أن يأكلها هؤلاء « العبادة « في نهاية المطاف!!

سيارتي السببت لي أزاي!

المحطة الثانية في السودان، بعد العودة من البعثة. كان من ضمن الأشياء التي حرصت على إحضارها معي من ألمانيا ،السيارة. فأحضرت معي سيارة فيات ١٣١، أنيقة، ذات لون فيروزي ميتا ليك، وكانت إيطالية بمواصفات ألمانية. لذا كانت آية في الجمال، وكم أبدى الكثيرون إعجابهم بها جهرا وسرا! لكن رغم ذلك كانت السبب في أزاي! فعندما عدنا إلى السودان في أول الثمانينات كانت أزمة البنزين على أشدها. ووجدت أن الناس يمضون الليل في سياراتهم. وقررت أن أفعل نفس الشيء، وطبعاً لم تكن لي خبرة بهذا النوع من النوم! وعند الفجر والناس بدأت تتحرك لم أستطع الحراك! فلقد أصابني (العقيل او التعقيل لا ادري!) من شدة ثني ركبتي في حيز ضيق! وأذكر كان ورائي الأخ الصديق المهندس جلال عثمان حمزة من أبناء الفاشر فناديته، وحضر ومعه آخر وسحباني سحباً من داخل تلك السيارة التي سببت لي كل هذا الألم وأنا لم أستخدمها لأكثر من شهر بعد، وإذ بي اخرج منها مجروراً!

والأكثر إيلاما من ذلك إنها وصمتني « بالنحس »! ففي مرة أخرى كنا نصطف في « محطة شل للبنزين » القريبة من مقابر شرفي بطريق كرري ، والصف طويل، ونحن نتحرك ببطء. وفجأة صاح أحدهم:» والله أنا لا أقف في صف به هذه العربة الفيات ١٣١!! فهي سيارة نحسه جداً! كم مرة كنت معها في الصف في أماكن كثيرة من محطات البنزين في العاصمة، وأول ما يصل الدور إليها ينفد البنزين! وقاد سيارته وخرج من الصف! وضحك من ضحك، وسخر منه آخرون. وبدأنا نزحف ونزحف، ولم يبق لدوري سوى سيارة واحدة أمامي، فإذا بالعامل يعلن أن البنزين قد نفد!! فصاح أغلبهم «الراجل معه حق!!» هذه سيارة نحسه- وتأدبا منهم لم يقولوا « شخص نحس!!».

وفي مرة أخرى أضاعت علّي فرصة تأجير بيت «لقطة» في امتداد الخرطوم، نسيت رقم الشارع. وقد عثرنا على هذا البيت بعد جهد جهيد، وبحث مضني. وعلمنا أن صاحبته قبطية تعمل في بنك النيلين، فذهبت إليها وقابلتها في مكتبها في البنك، وحددت لنا موعداً لرؤية البيت مع زوجتي. وذهبنا إليها في الموعد المحدد، وأرتنا البيت بالتفصيل، وأعجبنا به، واتفقنا على كل شيء، حتى الإيجار. وهممنا بالانصراف على أمل الحضور في اليوم الثاني لإحضار الفلوس وتوقيع العقد. وهي تودعنا إلى باب المنزل إذ بها ترى

سيارتي. فصاحت: أهذه سيارتك؟! مستحيل! قلت لها لماذا: قالت لي أول مرة أرى هذه السيارة كان في شارع الجمهورية، ومن يومها وأنا أحاول أن اعرف صاحبها لأشتريها منه بالثمن الذي يطلبه! فأجدها أمام بيتي! ثم أضافت هذه السيارة نزل عليها « دستوري »! وشرطي الأساس الآن على تأجير المنزل لك، هو أن تبيعني هذه السيارة أولاً ثم نكتب العقد ثانياً. فضحكت لأنني ظننت أنها تمزح! ولكن تبين لي أنها جادة فيما تعنيه! وأصرت على شراء السيارة. وبالطبع رفضت ذلك، فقالت لي إذا « مع السلامة فلن أؤجر لك بيتي!! » هل تصدقون الآن أن سيارتي سببت لي أزاي!!!

السوداني المجنون!!

محطتنا الثالثة في مستشفى المجانين، والعياذة بالله! أتصل بي ذات مرة هاتفياً أحد الأصدقاء، وأخبرني أن الأخ « ف » أدخل مستشفى المجانين باوكسن ثول في الضاحية الشمالية لهامبورج! فقلت له كيف ذلك وأنا قابلته أمس وهو في أتم صحة وعافية؟! قال لي لا أدري ماذا حدث ولكنه الآن في المستشفى. فقررت الذهاب بنفسي لأرى حقيقة الأمر. وذهبنا معاً وقابلنا إدارة المستشفى، وأكدت لنا وجود الأخ « ف» في المستشفى وهو يخضع لفحص دقيق، ثم يقرر له العلاج. فطلبنا من الشخص المسؤول أن نراه إن كان ذلك مسموح به. فقال على مسؤوليتكما؟ فوافقنا على ذلك. وذهبنا إليه وقابلنا ووجدناه يضحك وأكثر من طبيعي! فقلنا له هل أنت مجنون؟! وكيف ومتى حدث ذلك؟! فقال لنا ليس مجنون وانصح منهم! والموضوع ببساطة كنت في مركز إدارة الأجانب - والأخ « ف « كان طالب لجوء سياسي – ودخلت في نقاش حاد مع الموظف المسئول بشأن جواز سفري، وأثار حفيظتي ، فانفعلت، ومزقت الجواز ورميته به على وجهه!! ولم أحس وإلا بهم يقبضون على قائلين أنت مجنون!! فلا يعقل أن يمزق شخص عاقل جوازه ! وأخذوني إلى هنا!! وحاولنا أقناع المسؤول بأن هذا ليس جنوناً ولكنه نوع من الابتلاء السوداني يعرف « بالحماقة السودانية »! وقلنا له نحن مستعدون لأخذه معنا ولو دعا الأمر إلى توقيع أوراق رسمية نتحمل فيها المسؤولية! لكنه رفض بشده، وقال لابد من مراقبته وفحصه لمدة يومين، وإذا اقتنعنا بأنه غير مجنون، فسوف نطلق سراحه! وقد كان؛ فأطلق سراحه. تحياتي للأخ المجنون الصغير « ف » فهو يصغرنا كثيراً - ولقد تزوج بعد ذلك بألمانية واعتقد أنه نال الجنسية الألمانية ويعيش الآن هناك.

ولقد وقعت أنا مرة كذلك تحت طائلة « الحماقة السودانية »! كنا نقوم بحفريات تعليمية في بريمن هافن، وقسمنا إلى مجموعات، وكنت والأخ الغاني إبراهيم أوسو أنسه في مجموعة ترأسها طالبة في السمسترات المتقدمة تدعى « انجليكا ». ولاحظت أنها ومجموعة من البنات كن يسخرن من إبراهيم، ويلعبن بشعره، وباختصار يتخذنه أضحوكة دون أن يثور الأخ إبراهيم، وقد يكون هذا والله أعلم من الأسباب التي أدت إلى أصابته بالجنون كما مر ذكر ذلك في حلقة سابقة – وكنت أظهر امتعاضا ظاهرا من ذلك، ولم يعجب ذلك انجليكا بالذات. فبينما كنت منهمكاً في عملي داخل المربع المخصص لنا، إذا بها تصيح بي من بعد، : يا أيها الإفريقي الكسول دع الكسل وأعمل بجد! هذا التكاسل لا مكان له لدينا هنا في ألمانيا « ولم أحس إلا وبي أقذفها بالمسطرينة التي في يدي، وبحمد الله «زاغت» في الوقت المناسب، وإلا لكنت شججت رأسها! وتركت العمل كلياً وجلست خارج موقع الحفريات. وإذا بها تهب مسرعة وتذهب مشتكية إلى البروفيسور زقرت الذي كان مع مجموعة أخرى. وناداني البروفيسور وحكيت له الموضوع. ولأنه – للأسف يقف دائماً في صفي ظالما أو مظلوما– وجه اللوم إلى انجليكا، قائلاً « أنا ألاحظ معاملتكم لإبراهام، لكن الأفارقة ليسوا كلهم سواء. وأياكي أن تستفزي السوداني، فأنا أعرف هؤلاء وأعرف هؤلاء إذ عملت في غانا وفي السودان؛ وذهبت انجليكا منكسرة. ولكن عدت في نهاية اليوم إلى نفسي وخطاتها على هذا التصرف الأحمق، وعلى « المحاباة « من جانب البروف، فذهبت إلى انجليكا واعتذرت لها. ولقد قدرت ذلك جداً، لدرجة أن علاقتنا أصبحت قوية إلى درجة أنه عندما تقيم حفلة أكون مع زوجتي أول المدعوين في القائمة!.

النزاهة، والحيدة والتجرد!!

وفي المحطة الرابعة نقف إجلالا وتقديرا للأستاذ الفاضل/ نجم الدين محمد شريف، مدير هيئه الآثار السودانية سابقاً – رحمة الله – ولقد كان يتمتع بكفاءة عالية، وثقافة غزيرة، وتفانٍ في أداء الواجب. ولكن للأسف ارتبطت مغادرتي المتحف بمشكلة بيني وبينه، يبدو أنه أتخذ الأمر شخصياً، وأصابني العناد، فخسرنا بعض! والموضوع كان يتعلق بأمر التحاقي أستاذا بكلية التربية التابعة لجامعة الخرطوم بعد عودتي من البعثة. وكان الأمر يتطلب موافقة المتحف لأن البعثة كانت مخصصة للمتحف. فرفض الأستاذ نجم الدين فكرة التحاقي بالجامعة. ورفعت الأمر لوزير الثقافة وقتها د. محمد

عثمان أبو ساق، الذي كوّن لجنة من ثلاثة أشخاص للبت في هذا الموضوع. وكانت اللجنة برئاسة الأستاذ محمد خوجلي صالحين – رحمة الله – وكيل الوزارة حينذاك على ما اعتقد . وأقرت اللجنة أنه لا مانع من ذلك، فهذا المبعوث وقع عقداً مع حكومة السودان، والمتحف والجامعة كلاهما ينضويان تحت حكومة السودان، ولعل الأفيد الاستفادة من هذا المبعوث العائد في الجامعة. وعلى رغم ذلك رفض المدير قرار اللجنة! وأصرعلى بقائي في المتحف، فقلت له لن أبقى بعد هذا لا في المتحف ولا في السودان! ودخلنا في تحدٍ! وأقسم أنه لن يدعني أخرج؛ وأقسمت أنا على الخروج من السودان! وأخذ الهاتف وتحدث مع الوزير قائلا له: أن هذا الموظف مبّيت النية على مغادرة السودان والإخلال بشروط العقد الذي وقعه، وطلب منه الإيعاز إلى جهات الاختصاص للحيلولة دون ذلك!.

وامتثالا لقوله تعالى: (ولا يجرمنكم شنأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا انه اقرب إلى التقوى) أقول رغم هذا الموقف الذي اتخذه حيالي، إلا أن الأستاذ نجم الدين كان مثالاً يحتذى في النزاهة، والحيدة،والتجرد، وتحمل المسؤولية.

أذكر ذات مرة، وقبل مغادرتي ألمانيا، إي في بداية عهدي بمصلحة الآثار، أن أعلنت المصلحة عن حاجتها إلى موظفين جامعيين للعمل كضباط للآثار وأمناء للمتحف في الصحف اليومية، وكونت المصلحة لحنة للمعاينة لفرز المتقدمين واختيار من هو مناسب. وكانت اللجنة برئاسة الأستاذ نجم الدين محمد شريف، وكنت عضواً فيها – وبدأ المتقدمون والمتقدمات الدخول إلى اللجنة تباعاً. وفجأة نظر السيد نجم الدين إلى الورقة التي أمامه، ووقف وقال لنا: المتقدمة التالية ابنة شقيقتي وتسكن معي بالمنزل، وأنا في هذه الحالة أصبحت شخصاً غير محايد، ولا يحق لي البقاء في اللجنة، وقال لي: أنا أوكل إليك يا بدين رئاسة اللجنة، وأحملك المسؤولية أمام الله يوم القيامة، لو فضلتها على من هو أو هي أجدر منها لصلتها بي!! وخرج من اللجنة! وللأسف لم توفق تلك الشابة في المعاينة، نظراً لأن دراستها الجامعية كانت باللغة العربية، والعمل في الآثار يركز كثيراً على اللغة الانجليزية للتعامل مع البعثات الأجنبية في الحفريات، وعلى التعامل مع زوار المتحف من الأجانب. وتقبّل الأستاذ نجم الدين قرار اللجنة بكل بصدر رحب! ولم يتغير قط تجاهنا! يا ترى ألا زال هناك بين ظهرانينا اليوم بقية من أتقياء انقياء كالأستاذ نجم الدين أم أصبحوا من المنقرضين؟؟!!

ولا أود أن ادخل في التفاصيل الدقيقة ، وكيف خرجت من السودان؛ ولكن عندما عدت

بعد ذلك في أول إجازة لي من السعودية وجدت الأستاذ نجم الدين قد أصيب بالشلل من جراء حادث حركة أليم، فذهبت إليه وعدته في منزله، وأكبر ذلك كثيراً. وتسامحنا، وعادت المياه بيننا إلى مجاريها.

والسندة الأخيرة ستكون مع الأخ العزيز عبد الله علقم، الذي قرأت له مقالاً رائعا عن الأستاذة فاطمة أحمد إبراهيم، في صحيفة الخرطوم مؤخراً بعنوان:« نبع النور العظيم»

وهو محق في كل ما ذهب إليه، وذكرني قوله بالذات أنها: « رفضت للفتاة السودانية أن تكون مجرد وجه أو جسد جميل « بأني سمعت ما يؤيد ذلك حرفياً ذات مرة من الأستاذة فاطمة. فلقد قادتني خطاي ذات مرة بالصدفة إلى أحدى القاعات في كلية الحقوق ذات أمسية، وعندما دخلت وجدت كل الحضور من النساء، والمتحدثة هي الأستاذة فاطمة أحمد إبراهيم. وهممت بالرجوع، لأني لم أر رجلاً واحداً وسط هذا الحشد من النساء! فما كان من الأستاذة فاطمة إلا أن قالت لي: تفضل وأنضم إلينا، فجلست في آخر القاعة؛ ولحسن الحظ وجدت مقعدا خاليا بجوار زميلة تربطني بها علاقة جيدة. مما أضفى عليّ بعض الطمأنينة، وهي الزميلة، المهذبة، والطيبة جدا أسماء النقر الطالبة بكلية الاقتصاد، وأخت أستاذي الدكتور عمر النقر، رحمها الله رحمة واسعة. وأذكر أن الأستاذة فاطمة قالت للحاضرات : تصوروا يا بنات أن الرجال لا ينظروا إليكن إلا بعين القائل:

وما النساء إلا رياحين خلقن لنا
ومن منا لا يشتهي شم الرياحين!

يعني أنت يا آنسة بجلالة قدرك لا تعدو أن تكوني ريحانة تشم ثم ترمى! ولم أجرؤ بالطبع أن أدافع عن الجنس الخشن وسط هذا الحشد الهائل من بنات حواء!!!

وكما قال أخي علقم» قد يختلف الناس حول طرح فاطمة السياسي» لكن لا تملك إلا أن تحترم فيها الصمود، والثبات على الرأي، والدفاع عن ما تؤمن به من مبادئ، وهو امتحان سقط فيه للأسف الكثير والكثير جدا من الرجال في زمننا هذا الصعب!!

بريد القراء:

رأيت أن اخصص البريد هذه للمرة لخطاب واحد فقط، لما ورد فيه من الصدف

الغريبة، التي تكاد لا تصدق! قارئ من ألمانيا، لم يجد من سلسلة هذه المقالات إلا مقالتين بالصدفة في ألمانيا؛ وفي هذه المقالتين، وعلى الرغم من أننا لا نعرف بعضنا بعضا، هناك الكثير من الأشياء ، والأشخاص، والأماكن التي ضمتنا معا، في ألمانيا، وفي العراق، وفي السودان!! وأكد صحة إحداث رويتها لمعرفته الشخصية بها! والأفضل أن تقرؤوا الخطاب كما ورد بحذافيره، حتى لا احرق عليكم الفلم!

بسم الله الرحمن الرحيم

مدينة برلين. الموافق ١٧ مارس ٢٠٠٧م

السيد الأستاذ: د. محمد احمد بدين

التحيات والسلامات يا أخي العزيز. أسمح لي بمخاطبتكم بالأخ العزيز من دون سابق معرفة. بالصدفة اطلعت على مقالين في صحيفة الخرطوم الأول بتاريخ ٦/ يناير/ ٢٠٠٧م وعنوانه (أنما الدين المعاملة) والثاني بتاريخ ٢٧/يناير/٢٠٠٧م وعنوانه (ليلي المريضة بالعراق) هما لأسفي الشديد من سلسة لمقالات من حلاقات كثيرة لم أحظى بالاطلاع عليها كلها وأتمنى من المولى عز وجل أن أتصفحها ككتاب في المستقبل القريب إن شاء الله. أهو بعد القراء الممتعة عزمت على نفسي أن أخاطبكم بالأخ العزيز. ومن المصادفات العجيبة والغريبة أن تقع يدي على مقالين من سلسلة طويلة تفوق الثلاثين حلقة أن أجد نفسي جزء منها. وطبعاً هذه مفارقات لا يمكن أن تتكرر إلا بين السودانيين وفي بلاد السودان الحبيب بلد المليون ميل مربع (جغرافياً) وأحياناً ممكن يكون بمساحة المربوع الذي سكنت فيه سيادتكم في الميز بحي ناصر في الخرطوم (إنسانيا) ووصفك للجيران وأسرهم من الاتجاهات الأربعة، بأسمائهم ومناطقهم المختلفة في ربوع المليون ميل مربع على حسب ما ورد في مقالتكم.

دعني أبدا بالعنوان الأول (إنما الدين المعاملة) والأسطر الأولى منه، ووزارة التربية والتعليم التي بدأت فيها معلماً للمدارس الأولية وبمجهودك الشخصي أتممت الشهادة الثانوية وتأهلت للدراسة في جامعة الخرطوم، وطبعاً بموافقة الوزارة وحقك المشروع على حساب لوائح الخدمة المدنية آنذاك، نفس المشوار مشاه رجل عزيز على جداً وعلى ما أعتقد يمكن أن يكون دفعتك، وهو خالي وأستاذي أقصد مدرسي ومعلمي في المدرسة

الأولية بقرية قندتو جنوب مدينة شندي، في النصف الثاني من خمسينيات القرن الماضي وهو الأستاذ محمد خير ميرغني، وأمشي شويه لقدام في مقالك وأنت تحكي عن سكنك في الميز في امتداد ناصر وإذا فعلاً الذي عرفته بالنعيم ود حمد. هو أخي وصديقي النعيم قسم الله من أبناء الهلالية وخريج جغرافيا جامعة الخرطوم وكان يعمل وقتها في وزارة الإسكان في شارع النيل، أكون أنا قد قضيت في هذا الميز وضيوفي من زملائي الطلاب الألمان أجمل وأسعد الأوقات ونحن قادمين من برلين لقضاء العطلة الدراسة الصيفية في بلاد السودان آنذاك، نمشي شويه لقدام في المقال ونصل لفترة دراستك في ألمانيا الاتحادية وذكرت أسم أخي وصديقي الأستاذ حسن عبد الله المنقوري. والأخ حسن وكما يحلو لنا تسميته بالعمدة، حضر إلى برلين في النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي، وزوجة الفاضلة علوية لتحضير الماجستير والدكتوراه. وقتها كنت طالب أدرس بجامعة برلين الحرة الاقتصاد وإدارة الإعمال، وحينها كانت برلين تعج بالمبعوثين للدراسات العليا من جامعة الخرطوم، وفنيين من التدريب المهني، والإذاعة والتلفزيون السوداني ، ومجموعة من ضباط البوليس، وكذلك مجموعة من أطباء التخصص في الشرق والغرب، وكنت يومها ضمن عدد قليل من الطلاب الذين يدرسون على حسابهم الخاص.

كانت برلين يومها مركز حضور سوداني أكاديمي على مدار أشهر السنة، للسمنارات، وورش العمل، والكورسات، والمنتديات، وهنا كان أخونا المنقوري، نعم العمدة والعمودية، رجلاً مضيافاً كان يستقبل كل هذه المجموعات القادمة والذاهبة شرقاً، ولذا كنا دائماً نردد المثل البقول وراء كل رجلاً عظيم أمراة، وبعد رجوعه للسودان بعد البعثة كنت أزوره دائماً في عطلاتي، في منزلة آنذاك بالصحافة وكان الحال نفس الحال ما كان علية في برلين والبيت دائماً يعج بالأهل والضيوف، وأنا متأكد بأنك كنت ضيفه في برلين، والراجل ما زلنا نذكره بالخير لأن فضلة كبير وخيره كبير و كثير على المقيم والزائر وعابر السبيل، برضة نمشي لقدام في المقال ونصل قصة الألمانية التي أسلمت فقط بحديث صديقها عن الإسلام لا عن أعماله وأفعاله وبقية المسرحية وطبعاً هنا أجزم وأكد القصة، وأنا أعرف البطل حق المعرفة لأن الواقعة حدثت عندنا في برلين وكنا ملمين بالحدث وتابعناه وعشناه.

هنا نمشي للمقال الثاني (وليلي المريضة بالعراق)، أنت سافرت للعراق من مطار

فرنكفورت، وأنا سافرت للعراق من مطار شونا فيلد ببرلين الشرقية، إلى بغداد وكانت مجموعتنا تضم طلاب من تونس والجزائر والمغرب واليمن ونزلنا في فندق فلسطين في شارع أبو نواس وعلى ضفاف دجله وهناك تعرفت أيضا على الدكتور بشير عمر وأكان ما أخاف الكذب كان يسكن معنا في نفس الفندق، وكذلك تعرفنا على الأستاذ بدر الدين مدثر، وإخوة آخرين كثار. كانت أيام جميلة بحق وحقيقة والبعثيين حببونا في بلدهم. ووقتها قررت العودة مرة أخرى أنا وزوجني الألمانية للاستقرار والعمل في العراق ووقتها كانت زوجتي حامل في شهرها السابع وعرفنا من الأطبة أن المولود القادم ولد. وقررت أن أطلق عليه أسم صدام، لأني في اللقاء به في القاعة إياها كنا أنا والأخ رمسيس عطا الله نجلس خلفه مباشرة، ولا أنسى وجه حرسه الخاص الذي كان يقف يبني وبين الأخ رمسيس، تصور كنا على بعد سنتيمترات من هذا الرجل الأسطورة، ومازلت أذكر أيام الحبانيه وتوزيع الدينارات وللأسف كان الوقت ضيق، والشيء الوحيد كان شراء الكتب من ذلك الشارع العجيب، ورجعنا بالباقي دولارات غيروها لنا في المطار ونحن في حاله السفر للرجوع، ووصلنا برلين ورزقت بولد وسميته عبد الكريم. يا أخي الحديث شيق ومقالاتك أشوق، وأتمنى لك التوفيق، وأتمنى أن نتعرف على بعض أكثر وأن شاء الله عبر السطور.

مع تحياتي

أخوك جعفر قسم الله سعد

الأخ جعفر محق في كل ما ذهب إليه؛ والأخوان الذين ذكرهم من خيرة أصدقائي: محمد خير ميرغني، والدكتور حسن منقوري، وورد كثيرا في الذكريات، وكذلك الأخ النعيم قسم الله، هو نفس النعيم، والميز هو نفس ميز امتداد ناصر الذي مر ذكره في هذه الحلقات. ولا يملك الواحد إلا أن يقول ياللصدف!!

تحياتي لجميع القراء الأعزاء، على أمل اللقاء بكم الأسبوع القادم إن شاء الله.

بيت الطاعة على الطريقة الألمانية !!

من الدروس التي تعلمتها من الطلبة الألمان، وتأكد لي أن هناك خللا ما في تربيتنا الوطنية، ما حدث في صيف عام ١٩٧٦م. ففي صيف ذلك العام قررت الحكومة الألمانية بأن ميزانيتها لا تسمح بإيجاد وظائف للطلبة أثناء الأجازة الصيفية، مما يترتب عليه فقدان الكثير من الطلبة لدخل هام يعتمدون عليه كثيراً.

وجلس الطلبة في الغرفة العامة وهم يتناقشون في غضب ويتحدثون عن آثار مثل هذا القرار عليهم. وكنت استمع إلى كل ما يدور في الغرفة، وقلت لماذا لا أدلي بدلوي في هذا المجال فقلت لهم: « لماذا لا تنظمون إضرابا أو تسيرون مظاهرة صاخبة محتجين على هذا القرار؟ « فصمتوا فجأة ونظروا إلى في تعجب ظاهر، وقالوا لي: « لماذا نظاهر أو نضرب؟ وما جدوى ذلك؟ فلو كانت الميزانية تسمح لما رفضت الحكومة. وإن لم تكن الميزانية تسمح سوف لن توجد لنا وظائف حتى ولو قلبنا الدنيا رأساً على عقب !!»

وما كان مني إلا أن لذت بالصمت، ورجعت بذاكرتي إلى السودان الذي ننعته بالحبيب. ونأتي حياله بكل ما هو غير حبيب! وكيف كنا ونحن طلبة في الستينات في جامعة الخرطوم نتظاهر ونضرب بسبب وبغير سبب! وأذكر من تلك المظاهرات المجهولة الهوية التي كنا نُسيرها، أن حدث صدام بين طالب وآخر في الداخلية، سدد أحدهما طعنة نجلاء بسكين للآخر، نقل أثرها إلى ألمستشفى حيث فارق لحياة. فخرجنا في مظاهرة صاخبة نندد بالمستشفى وننادي بسقوط وزير الصحة للإهمال الذي لقيه ذلك الطالب. وأذكر أن أحد البسطاء في الشارع علق على مظاهرتنا تلك تعليقاً – وضح لنا فيما بعد أنه موضوعي – فلقد قال ذلك المواطن: « غريب أمر طلبة هذه الجامعة؛ يتقاتلون فيما بينهم، ويقتل أحدهم الآخر ثم يخرجون إلى الشارع ينادون بسقوط وزير الصحة؟! «.

وعلمت أن مشكلتنا تكمن أساساً في الثقة المفقودة بين الحاكم والشعب، وفي التربية السياسية الخاطئة، والتخبط الذي تقع فيه الحكومة حيث تذعن لضغوط الطلبة، الذين يصبحون بعد ذلك كالطفل الذي لو نجح مرة في الحصول على ما يريد، فإنه يواصل هذه السياسة ويبكي أكثر لأنه يدرك بأنه سوف يحصل على ما يريد بالبكاء حسب تجربته السابقة، أو كالنفس التي وصفها البوصيري بقولة:-

والنفُس كالطفلِ إن تهمله شَب

على حبِّ الرضاعِ وإن تَفْطِمُه يَنْفطم

وأنا أعلم بأن قولي هذا سوف يغضب جماهير الطلبة! وأجد لهم العذر في ذلك، فكلنا كنا في هذه السن ممتلئين نشاطاً وزهواً وحماساً، (لا يعجبنا العجب ولا صيام في رجب !) ولا نقبل أن يسمعنا احد من الناس مثل هذا الاتهام!

السوداني الذي ولد مرتين!!

أما الدقة عند الألمان فحدث عنها ولا حرج. وقلما تفوت عليهم صغيرة أو كبيرة في هذا الصدد. ومن أطرف ما أذكر في هذا الجانب أن أحد الأخوة السودانيين قام بجولة طويلة في أوروبا وكان ختامها في ألمانيا، ولكن لم تكن أبداً مسك الختام كما كان يتوقع! فالأخ قد قارب الأربعين عاماً، ولكن لأن كل شيء جائز لدينا نحن شعوب العالم الثالث، فقد أخرج وثيقة تحق له أن يسافر بتذاكر الشباب التي تمنح تخفيضاً للشباب ما دون الثلاثين سنة، على الرغم من أن تاريخ الميلاد في جوازه مختلف عن الذي كتبه في هذا « الأورنيك « الخاص. وقام وسافر، وارتحل، وأنتقل، من بلد إلى بلد، وعند نهاية « المشوار « طلب مني أن أصحبه إلى مكاتب الحجز الألمانية حتى يحجز للعودة إلى السودان. وتصفح الموظف المسئول « الأورنيك « ثم طلب جواز السفر. وعندما تصفحه، طلب مني أن أوجه لصاحبي سؤالاً غريباً : « سيدي هل أنت ولدت مرتين؟ « وبادر الصاحب مستغرباً: كيف ذلك؟ « فأجاب الموظف: « أرى أنك ولدت مرة أولى عام كذا في الجواز، ثم ولدت مرة لاحقة عام كذا في هذا « الأورنيك «!! وأنت رجل نصاب ومزور ولابد من اتخاذ الإجراءات القانونية ضدك. و لم تشفع كل المحاولات، ولم يخل سبيل صاحبي إلا بعد أن تدخلت السفارة السودانية واعدة بأنها ستخطر السلطات السودانية في الخرطوم لاتخاذ العقاب المناسب ضده!

وحادثة أخرى وقعت لصديقنا المصري حسنين الذي نال درجة الدكتوراه في علم النفس لتوه وأراد العودة إلى وطنه الأم مصر. ولقد كان يسكن معنا في نفس الداخلية، ومتزوج من ألمانية في غاية التهذيب والطيبة تدعي أورليكا كما تقدم.

فبعد أن تحصل على شهادته، بدأ يعد العودة لمغادرة هامبورج. وكان يقضي جل يومه ذهاباً وإياباً بين الداخلية والسوق والميناء. وفي آخر الأسبوع قام بشحن سيارته الخاصة، وطلب مني أن أخذه بسيارتي إلى الميناء، لمتابعة شحن سيارته. وقام بوضع جهاز موسيقي

كبير فاخر « استيريو » كان لديه بالمنزل في الصندوق الخلفي لسيارتي على أمل أن نأخذه بعد الميناء، إلى مكان آخر داخل المدينة حيث يتم شحنه إلى مصر.

و لقد فات علينا ونحن في غمرة الإشغال أن نعلن لدى سلطات الجمارك لدى البوابة عن الجهاز المحفوظ في صندوق السيارة عند دخولنا ميناء هامبورج العملاق. وأشرف الأخ حسنين على شحن سيارته، و عندما يممنا صوب البوابة الخارجية في طريقنا إلى قلب المدينة، أوقفنا مسئول الجمارك لدى الباب، وفي أجراء روتيني طلب مني أن أفتح الصندوق الخلفي للسيارة. وعندما رأى الجهاز سألنا إن كنا قد أعلنا عنه لدى دخولنا؟ فأخبره حسنين أنه نسى ذلك تماماً، ثم أن هذا الجهاز لا يقل عمر عن ثلاث أو أربع سنوات كما يشهد هذا المرافق، وأكدت ما ذكره. ولكن المسئول أصر على إنزال الجهاز أو أبراز ما يفيد بملكية حسنين له، أو بمعنى آخر « الفاتورة » التي اشترى بمقتضاها هذا الجهاز، وإلا فأن سلطات الجمارك سوف تصادره!

وهنا جن جنون الأخ حسنين، ونسي كل ما تعلمه من حسن أسلوب التخاطب في ألمانيا. وأنقلب شرقياً على أصله، وأمطر الموظف بوابل من الشتائم المقذعة، ونعته بالعنصرية. وبالنازية وبكل ما هو كريه. وأنا أحاول جاهداً أن أهدي من ثورته ولو قليلا. لكن دون جدوى. وأما الموظف فلم يرد ولا بكلمة واحدة، ووقف في برود ينظر إلى حسنين الذي تملكه انفعال شرقي شرس.

وعندما أعيت حسنين الحيلة لدى إصرار الموظف على إنزال الجهاز أو عدم السماح لنا بالمغادرة، سأله: « أين رئيس القسم ؟ » فأجابه أنه في الطابق الأول. وطلب منه حسنين أن يأخذه إلى رئيسه. وقادنا الرجل في هدوء إليه. وكنت أخشى في سري أن يستشهد بي الموظف لدى الرئيس لما لحقه من صديقي من شتائم مقذعة، ويضعني في موقف حرج. هل أكذب؟ أم هل أصدق فأورط زميلي ؟ ولكن ذلك الموظف برهن على أنه فوق الصغائر، فلم يذكر شيئاً عن السباب وكل ما قاله في اقتضاب شديد هو: « أننا وجدنا لدى هذا الشخص جهازا لم يسبق أن أعلن عنه لدى دخوله، وأمرنا بإحضار الفاتورة أو مصادرته فطلب مقابلتك ». فلم يزد رئيس القسم على ذلك بل قال: « هذا هو القانون والموظف على صواب ». وقال حسنين محتجا: « كيف لي أن أجد فاتورة جهاز اشتريته من قبل ثلاثة أعوام أو أكثر ؟» فأجابه الرئيس: « هذه ليست مشكلتنا وإنما هي مشكلتك وعليك أن تجد لها حلا »! وخرج حسنين ناقماً ساخطاً. وطلب أن أرجعة فوراً

إلى الداخلية، فأعصابه لا تتحمل أكثر في ذلك اليوم، ويريد شيئاً من الراحة، ولنؤجل ما تبقي من مواضيع لصبيحة اليوم التالي. فاليوم يكفيه ضياع جهازه الذي يعتز به، والذي طالما أمتعنا جميعاً بالموسيقى الكلاسيكية، التي يحبها حسنين جدا، ونحن نلعب الورق في شقة حسنين ونتناول « كوخن « أورليكا الفاخر اللذيذ. لذلك تحسرت عليه أنا أيضاً.

ووصلنا الشقة وقابلتنا زوجته – كعادتها دائماً مرحة باشة – وهالها العبوس على وجه زوجها. وعندما استفسرته عن السبب، أجابها بأنهم قد صادروا جهاز الموسيقى! فقالت في ثقة تامة: « هذا غير معقول!» فأجابها حسنين:» أنهم طلبوا مني المستحيل، طلبوا مني الفاتورة التي اشترينا بمقتضاها الجهاز قبل عدة سنوات «. وأجابت الزوجة: « ذلك ليس بمستحيل يا عزيزي، فالفاتورة موجودة عندي! «. ففتح حسنين فاه متعجباً وهو لا يصدق ما سمع. وقامت أورليكا وتناولت ملفاً من الملفات الكبيرة التي على المكتبة، وما هو إلا دقائق وأخرجت الفاتورة المطلوبة، قائلة له: « أنني أحتفظ بكل فاتورة مهما صغرت ومهما تقادم عهدها «. فأخذها أو خطفها حسنين مسرعاً وهب واقفاً ورفض حتى أن نتناول شيئاً بارداً بعد هذا « المشوار « الطويل. ورجعنا إلى الميناء وأخذنا الجهاز الذي لولا دقة هذه الألمانية لضاع إلى الأبد.

وقصة أخرى متشابهة لهذه، حدثت لي بعد عودتي من رحلة اليونان التي تقدم ذكرها. فلقد كانت الجامعة صرفت لنا مبلغاً من المال مع الزميلة مونيكا اشتيف للصرف منه على هذه الرحلة. وبعد العودة من الرحلة بثلاثة أو أربعة أشهر وصلني خطاب من المدير المالي للجامعة يطلب تفصيلاً دقيقاً مرفقاً بالفواتير لكل أوجه الصرف أثناء رحلتنا إلى اليونان. وأخذت الخطاب وبحثت عن مونيكا، ووجدتها بداخل « المنزا « تتناول وجبة الغذاء. فأخبرتها في سخرية عن مضمون الخطاب الذي وصلني واستحالة ذلك بعد كل هذه المدة، فكيف لي أن أتذكر ثمن تذكرة باص من إراكليون إلى خانيا، أو ثمن وجبة في خليللي، أو فاتورة فندق في قونيه ؟ وتماماً كما أجابت أورليكا، قالت لي : « نعم ذلك ممكن، فأنا أحتفظ بكل التفاصيل في كراسة خاصة، وكذلك كل الفواتير بما قي ذلك تذاكر الباصات الداخلية من مكان لأخر داخل المدن والقرى وسأحضرها غداً، وسنعد تقرير بذلك « ولقد أنقدتني بصفة خاصة من الإحراج مع البروفيسور زقرت.

بيت الطاعة!!

والألمان يأخذون كافة الأمور بجدية، وصراحة، خاصة فيما يتعلق بشعورهم وإحساسهم

تجاه الآخر. لذا : « إن كرهك الألمان مشكلة وأن أحبوك مشكلتين »! كان احد زملائنا من السودانيين له صديقة ألمانية تسكن معنا في نفس الداخلية. وبما أن الأمور بين المحبين لا تكون دائما عسل في لبن، حدث ذات مرة بينهما ما يحدث بين المحبين من جفوة وشقاق، أديا إلى القطيعة. وجاءتنا الصديقة تشكو لنا صديقنا، وأخبرتنا أنها تحب هذا الرجل حباً جماً، ويستحيل أن تتخلى عنه مهما كانت الظروف. وتطلب منا السعي لتنقية الأجواء بينهما، حتى تعود المياه إلى مجاريها. وذهبنا إلى صديقنا. ونقلنا له ما قالته صديقته. لكنه أصر إصراراً شديداً على أن لا يعيد علاقته معها مهما كانت الظروف! فالموضوع بالنسبة له أصبح منتهياً، ولا مجال البتة للخوض فيه. وركب الأخ رأسه! وعدنا إلى الزميلة، ونقلنا لها ما ذكره الزميل، محاولين أقناعها أن تنسى الموضوع. وتفوض أمرها إلى الله. فما كان منها إلا أن صعدت إلى الدور العاشر. ووقفت على الشرفة. وعندما صعدنا وراءها قالت لنا : أنا مقدمة على الانتحار: لكن ليس قبل أن أترك مكتوباً أحمل فيه الأخ « .... « وأنتم معه كذلك بالاسم مسؤولية موتي!! وبقدر ما حاولنا أقناعها بالنزول من الشرفة لم ننجح، وأصرت على رأيها! واسقط في أيدينا، وتشاورنا سريعاً. وطلبنا منها مهلة لبضع دقائق قبل الانتحار لنقوم بالمحاولة الأخيرة! وهرولنا إلى صديقنا، ونقلنا له خطورة الموقف؛ واحتمال أننا جميعا « سنروح فيها» وارد!! . فسألنا في إشفاق ظاهر: « وما هو الحل في رأيكم ؟؟!! فقلنا له الحل هو أن نأخذك إلى بيت الطاعة، وقد كان!! واعتقد أن هذه أول مرة يؤخذ فيها رجل بكامل وعيه وقواه العقلية إلى بيت الطاعة!!!

ولكنهم يذهبون إلى درجة اللامعقول والمغالاة في هذه ألدقه تماماً كما في حالة الصدق. فبعد أن ركبنا السفينة من إرالكيون في ذلك اليوم العاصف متجهين نحو بيرس، والبحر هائج والسفينة تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، ولا يستطيع المرء أن يستقر على حال، يحاول الجلوس فيهب مسرعاً واقفاً، ويقف فلا يهدا له بال كذلك. وكنت أكثر الناس قلقاً على تلك الحالة، لعدائي المستحكم مع الماء! وإذ نحن كذلك أخرجت مونيكا كتيباً صغيراً به مواعيد وصول ومغادرة القطارات الداخلية بمدينة هامبورج. وبعد تدقيق وتمحيص، التفتت إلى تسألني: « عندما نصل إلى هامبورج هل ننزل في المحطة الرئيسية أم ننزل في محطة دامتور القريبة من الجامعة ؟» ونحن لا نزال في وسط البحر تتلاعب بنا الأمواج، وأمامنا ليلة كاملة في هذا الخضم المتلاطم، ثم القطار الذي يقطع بنا كل

اليونان تقريباً، من أثينا حتى سلونيكا، ثم يوغسلافيا، ثم النمسا، ثم كل ألمانيا من جنوبها في ميونخ إلى هامبورج في الشمال؛ وهي توجه إلّي مثل هذا السؤال السابق جداً لأوانه! فقلت لها في تبرم شديد: « لنخرج من هذا البحر أولاً، وبعد ذلك فلننزل في واق ألواق »!!

ولعل وصمة الألمان، والأوربيين بصفة عامة هي معاملتهم القاسية وغير الإنسانية لكبار السن والعجزة. والمعادلة الصعبة التي لم أستطع فهمها جيداً، هي المعاملة الكريمة الطيبة، والتربية السليمة التي يوليها الألمان لأبنائهم، وكيف أنهم يغدقون عليهم الحب والحنان والعطف، ولكن عندما يشبون عن الطوق، ويقوى عودهم يفرون بعيداً ولا يأبهون بوالديهم! أو ياخذنوهم إلى دور العجزة عندما يتقدم بهم العمر.

وأذكر حادثة صغيرة حدثت لي في شتاء عام ١٩٧٤م بمدينة جنيف بسويسرا، عندما كنت في زيارة صديقي وابن عمتي الأخ إبراهيم موسى، الذي كان يحضر هناك كما تقدم في حلقة سابقة. ورغم أنها صغيرة ولكن هزني مدلولها جداً! فلقد كانت المناسبة الاحتفال بأعياد الميلاد، وكانت الداخلية قد خلت من معظم ساكنيها، ورأت المشرفة على الداخلية أن تقيم عشاء فخماً بهذه المناسبة تدعو إليه بقية الطلبة. وكانت لها مساعدة كبيرة في السن، كانت أكثر الناس فرحاً تلك الليلة لقدوم أبنها لزيارتها. ودعينا إلى الجلوس على طاولة العشاء التي حفلت بكل ما هو لذيذ. وجلسنا على غير هدى، ووجدت نفسي قد جلست بجوار هذه المساعدة العجوز التي جلست على أول الطاولة. فالتفتت إلى وقالت في تودد شديد: « عذرا؛ أنني لا أرى أبني طوال السنة إلا في هذه المناسبة، وأتوق لأن يجلس بقربي، فهل لك أن تتيح لي هذه الفرصة ؟ «. فأجبتها: «بكل سرور « وقمت من مقعدي لأبنها. وظللت طوال العشاء أفكر في هذه العجوز التي تنتظر عاماً كاملاً تتطلع لهذه السويعات القليلة لتنعم فيها بجلسة هادئة بقرب أبنها، ثم تودعه على أمل اللقاء به في العام القادم ، على الرغم من أنهما يسكنان في نفس المدينة!!

وأمّر وأقسى من ذلك ما شاهدته ذات صباح في حي « أتومارشن « الهادي بهامبورج، الذي يسكنه علية القوم. فقد رأيت سيارة الإسعاف البيضاء تقف أمام منزل أو فيلا فاخرة، أُخرج من داخلها امرأة مسنة تجلس وسط السرير وهي محمولة على الأعناق، وتصرخ بأعلى صوتها: « أنا لا أريد الذهاب إلى الملجأ!! أرجوك يا بني أن ترجعني إلى الدار، فأنا لا أسبب لكم أي مشكلة « وهذا الابن المُخَاطَب يدفع بالسرير مع الآخرين

في رفق ويطمئنها في بسمة مصطنعة قائلاً: « لا تخش شيئاً يا ماما. سنكون دائماً في زيارتك! » وما هي إلا لحظات وقد أودعت المرأة السيارة البيضاء. رغم توسلاتها. وأغلقت الأبواب واندفعت السيارة لا تلوي على شيء!

وحدث أن شاهدت ذات مرة برنامجاً تلفزيونياً عن بيوت العجزة والمسنين (الملجأ) فرأيت وسمعت ما يصيب الإنسان بالذهول! امرأة لم يزرها أبناؤها منذ عشر سنوات أو أكثر، وبعد ذلك لا تغضب منهم ولا تلعنهم بل تقول إن كانوا أشداء يتمتعون بصحة جيدة فهذا كل ما ترجوه، وترسل لهم سلامها من خلال البرنامج.

و تحركت الكاميرا نحو امرأة مسنة، وبجوارها شابة تتحدثان. فقالت العجوز للشابة: « أشكرك جداً على هذه الزيارة الكريمة، فمنذ مدة طويلة لم يزرني أحد ». وتلت ذلك فترة صمت، ثم سألت العجوز الشابة: « هل والدتك على قيد الحياة ؟» فأجابت الشابة: « ماما..ماما.. أنت أمي يا ما ما!! » فأجابت العجوز: « معذرة لقد نسيت ذلك !» وقد يكون كبر السن والخرف سبب في ذلك، ولكن هذه الوحدة القاتلة، والجفوة الطويلة. والبعد الذي يدوم أعواماً طويلة وسط هذه الجدران الصامتة، لكفيلة بأن تفقد الإنسان ذاكرته. وكما سمعت – أجارنا الله وإياكم – أن من أقسى الأشياء هو الحبس الانفرادي الذي يدوم أعواماً.

وأذكر أن سألت زميلة تسكن معنا في الداخلية، بولندية الأصل تدعى « جيزلا ». ذات مرة في سياق الحديث عن والدها وأين يعيش ؟ فصمتت برهة، وحاولت جاهدة أن تتذكر وتركز لبعض الوقت، ثم أجابت: حقا لا أدري أحي هو أم ميت؟ ولكن أعتقد أنه يعيش في برلين ! ثم ما لبث أن واصلت حديثها ومرحها وانشراحها، وكأن شيئاً لم يكن! ولما رأت الاستغراب لا زال مسيطراً علّي، ذكرت أنها لم تر والدها منذ صغرها، وأول مرة تقابله كان بعد أن بلغت الثامنة عشر، وقدم الوالد نحوها في شوق أبوي ليحتضنها. فإذا بها تدفع به تلقائيا بعيداً عنها، مدفوعة بغريزة الأنثى التي شعرت بأن هذا شخص غريب ولا يحق له أن يفعل ذلك بها، فإحساس الأبوة من جانبها نحوه صفر! ثم اختفى الأب ومضى كل إلى غايته ولم تعد تسمع عنه شيئاً! ولا يهمها إن كان حيّا أو ميتاً!!

ومن هذه المآسي الإنسانية، استلمت خطاباً بعد وداع هامبورج بأكثر من خمس سنوات من نفس هذه الزميلة، تحكي لي في أسى بالغ أنها أصيبت بمرض « السل »، وقد تخلى الكل عنها، حتى والدتها – التي كانت كل شيء في حياتها – رفضت أن تقابلها أو حتى

أن تقوم بزيارتها في المستشفى! مسكينة « جيزلا » ما الذي حل بها الآن !! فلقد كانت بنتاً في منتهى الذوق والتهذيب، وعفوية التصرف في كل شيء. وكان تعرفي بها أيضاً من قبل تصرفاتها العفوية هذه. فأذكر أنني كنت أقف مع ابن خالي إبراهيم عبد الرحمن الذي قدم من ليبيا لزيارة ألمانيا، في انتظار إجراء مكالمة هاتفية في شارع روتن باوم القريب من الجامعة بقرب إحدى « الكابينات » العامة. وكانت بداخلها طالبة تجري محادثة. وفجأة هطل المطر. فإذا بنا نفاجأ بتلك الطالبة تضع السماعة وتخرج إلينا وتجذبنا بقوة كي نحتمي معها داخل تلك الكابينة الضيقة التي تسع بالكاد شخصا واحدا! ولم تكمل محادثتها إلا وحدث التعارف بيننا.

جانب آخر أحب أن أتحدث عنه ألا وهو « موضوع الزيارة لدي الأوربيين. فمعظم الأوربيين يعتبر الزيارة حدثاً هاماً وكبيراً، لا يأتي كما نفعل عفواً، أنما يتم له الاستعداد والتجهيز، والدعوة المسبقة، وشراء الهدايا والزهور وإعداد المنزل و .... الخ. أما الزيارات الفجائية أو شبه الفجائية فلا مكان لها في الأعراب لديهم «.

وبقدر ما كنا نسعد عندما تقدم لنا دعوة لزيارة أسرة ما، كنا نخشى ذلك كذلك، بالنسبة للمجهود العلمي والذهني الذي ينبغي لنا تسخيره في الاستعداد لهذه الزيارة، وكأن الواحد منا قادم على امتحان! فالألمان يحبون بطبعهم أن يعرفوا كل صغيرة وكبيرة عنك وعن بلدك، وعاداتك، وتقاليدك ومعتقداتك، وهلم جرا. وليس لديك مجال للخلط في المعلومات، فقد تصاب بإحراج عظيم عندما يقومون بتصحيحك !فهم عندما يتقدمون لك بالدعوة يذهبون إلى المكتبات ويقرءون كل ما يخص بلدك، ليس من قبل امتحانك بالطبع، ولكن من قبل العلم بالشيء أولاً، وثانياً لإيجاد مادة دسمة تساعد على استمرارية الحديث والأنس، حتى تكتمل البهجة والمسرة اللازمتان للحفل.

وقديماً جاء في المثل: « من عاشر قوماً أربعين يوماً صار منهم «، وجميل أن يتأثر الإنسان بالجوانب الايجابية في مجتمع ما، ولكن غير الجميل أن يتأثر بالجوانب السلبية كذلك. ولقد هالني أن ينطبق هذا التأثير بالسلبيات على أصدقاء لنا عرب!

فلقد كنا عل صلات وطيدة مع أسرة فلسطينية المنشأ، سورية الإقامة، تسكن معنا في نفس الداخلية. وكنا نلتقي كثيراً في كل مكان، وتوطدت بيننا أواصر الصداقة وامتدت جذور الألفة. ودعوناها ذات مرة إلى تناول طعام العشاء عندنا؛ وبعد انتهاء العشاء، أصر الزوجان على أن نرد لهما الزيارة، وأضاف الزوج أنه في ذلك الأسبوع يستعد

للامتحان، والأفضل أن تتم الزيارة في الأسبوع الذي يليه. وبعد انتهاء الأسبوع الأول فكرنا في الزيارة، و اخترنا وقتاً مناسباً هو أول المساء، ونظرنا إلى نوافذ شقتهما في المبنى المقابل لنا، ورأينا الأنوار ساطعة دليل على وجودهما. وأخذنا « الهدية » وذهبنا إليهما. وطرقنا الباب وفتح لنا الزوج « خالد » الباب هاشاً باشاً، ولكنه لم يأذن لنا بالدخول. وبعد ثوان قليلة وصلت زوجته « ليلى » وحيتنا كذلك بنفس الحرارة. وقدمت لها زوجتي الهدية التي تلقتها شاكرة ومقدرة. وكل ذلك ونحن واقفين أمام الباب في انتظار كلمة « تفضلا » وإفساح المجال كي ندخل إلى الشقة. ولكن الأخ العزيز – الزوج – قال لنا: « نحن والله في غاية الأسف فزيارتكما اليوم لا تناسبنا. ونرجو أن تحضرا إلينا غداً مساءاً إن شاء الله ». فشكرناه على هذا « التوجيه النميري الكريم!! » وعدنا لا نصدق آذاننا، نجرجر ذيول الخيبة والانكسار، وأنا أضحك من عجائب الدنيا. وأحاول أن أهون على زوجتي التي ذرفت دموعاً سخينة، وأضافت أنها لا تبكي لأنها « طردت » إنما تبكي على ظروف الغربة التي تفرض عليك الأصدقاء – أو من تحسبهم أصدقاء – وتشتاقهم وتزورهم، فيصدون الباب في وجهك!!

بريد القراء:

أعود مرة أخرى لاستعراض رسائل القراء الأعزاء، التي لا زالت تنهمر بكافة الوسائل، إما شفاهة ، أو هاتفيا، أو بالفاكس، أو بالرسائل الالكترونية؛ فلكم قرائي الأفاضل من الشكر أجزله. والغريبة أن كل واحد يقول كلاما أحلى من الآخر! كنت الأسبوع الماضي في السفارة السودانية، وجلست في البوفيه أتناول سندوتشا. وإذا بأحد الجالسين في طاولة مجاورة يطيل النظر إلي، ثم يأتي ويسألني: هل أنت قريب الكاتب- سبحان الله خلاص عملتونا كاتب!!- دكتور بدين (يبدو أن ارتدائي للزي الإفرنجي أشكل عليه قليلا!) وبعد أن تعرفت على الأخ الفاضل/ على عجب حاج علي من منطقة جبل أولياء، ، حاولت أن اطلب له شيئا، لكنه أصر هو على إكرامي بكوب من الشاي قائلا: أنت تكرمنا كل يوم سبت، ألا يحق لنا أن نكر كمك يوما واحدا!!

– و الأخ شمس الدين بشرى حمزة من المحيريبة، ويعمل في الرياض، الذي أرسل رسالة، يعبر فيها بكلام جميل كيف انه فضل البقاء لقراءة الذكريات على الخروج في إجازته نهاية الأسبوع، فبعد أن أحسن هندامه استعدادا للخروج للقاء الأصدقاء، يقول:» أطالع

وجهي في المرآة ملقيا نظرة الإعجاب قبل الأخيرة! ينعكس قرب وجهي رتل من العدد الأسبوعي بأعلى الدولاب، تذوب في داخلي رغبة الخروج! فاستلقي على سريري مع صدى الذكريات زاهدا في صحابي والعشاء!»

- أو الأخ عادل محجوب ابوريدة من أبناء شندي ويعمل في الدمام، والذي ذكر أن طموحي- على حد قوله - كان الدافع له في أن يستأنف مواصلة إكمال رسالته للماجستير بعد توقف دام ثماني سنوات!» مع التوفيق والنجاح أخي عادل. كما وعد بان يطبق كل ما ورد من معانٍ جميلة في التربية خلال هذه الذكريات في تربية أطفاله. وهو يتفق في ذلك مع الأخ عبد الملك بريقع الذي اقترح تغيير اسم صدى الذكريات إلى « مدرسة الذكريات». ويتفق معهما في ذلك الأخ خضر عبد الرازق آدم من الرياض، الذي يضيف أن هذه التربية تصلح كذلك للكبار، وليس فقط للصغار.

- وللأخ الصديق العزيز، الكاتب بصحيفة الخرطوم الطيب حاج مكي، والذي زارني في المنزل مع وفد كريم من حزب الأمة، ضم كلا من الأخ مولانا حسين عثمان، و الأخ كمال سيد احمد، والأخ إسماعيل موسى، لتقديم العزاء، جزاهم الله خيرا. ولقد اشتكى مولانا حسين من طول مقالات الذكريات، ويوافقه في ذلك كل من الأخوين العزيزين الدكتور بشرى الفاضل ومحمد الحسن هواري- والشكر موصول كذلك للإخوة من أصدقاء ومتابعي صدى الذكريات: الصديق إبراهيم محمد، ومحمد الجيلي احمد، واحمد طه الزين، الذين حصلوا على رقم جوالي بعد جهد جهيد، وجميعهم من أبناء الطلحة ريفي الجنيد العاملين في المدينة المنورة- ولكل من الأخ عبدالله عبد الحميد عبدون من الشمالية بجدة، والأخ بلة بابكر عبد المجيد، والأخ احمد بخيت بجدة – وللأخ عصام محمود من منطقة السوكي، ويعمل بالباحة، ويصف نفسه بانه من مدمني صدى الذكريات- وللأخ الصحفي اللامع خالد الجزولي، وهو الذي قام مشكورا بإرسال الحلقة الأولي من هذه الذكريات لجريدة الخرطوم مع صورتي، والتي اخبرني انه لا يزال يحتفظ بها! مين عارف يمكن عايز يبيعها في المزاد العلني للقراء!! بس ما تنسى نصيبي يا خالد!! - أما الأخ عوض الكريم محمد البشير ضبعة، خريج معهد شندي، ويعمل في الرياض، ذكر انه من شدة انفعاله واندماجه مع هذه الذكريات، بينما كان يقرأ قصة ذلك التلميذ المهذب « الواثق» الذي كان معنا في امكدادة، لم يحس إلا ودمعته قد سقطت على الجريدة عندما قرأ في نهاية القصة:» رحمه الله!» ويا سبحان الله! أنا

شخصيا على كثرة ما كتبت، فان قصة الواثق بالذات هي أكثر ما تهزني!!

- وما أكثر الذين يصرون على أن أفكر منذ الآن على موضوع آخر أواصل فيه الكتابة، فهم لا يتحملون فكرة توقفي عن الكتابة بعد انتهاء الذكريات. ومن هؤلاء الأخ المثقف، والمواصل هاتفيا، كمال شرف الدين من أبناء امدرمان، ويعمل في الرياض. والذي يقترح علي الكتابة عن» حقيبة الفن». لقد أصبتني في مقتل أخي كمال: فانا أذوب. وأموت، وأتلاشى في حقيبة الفن، لكن حبها شيء والكتابة عنها شيء آخر تماما!!- أو الأخ عبد الرازق محمد عبد الرحيم، الذي يطالبني بالعودة مرة أخرى إلى السودان وسرد المزيد من الذكريات، تماما كأصحاب الدكتور فيصل بغليل في جدة .

واعتذر لبقية القراء لضيق المجال، وسوف استعرض مداخلاتهم في الحلقة التالية إن شاء الله.

الغربة بين الايجابيات والسلبيات!!

أود أن أتحدث هنا عن الغربة في الغرب بصفة خاصة؛ ولربما يثير هذا الموضوع الكثير من الجدل، وخاصة لدى الذين اكتووا بنار الغربة. ولعل الكثير منهم يخالفني الرأي، وهذا شيء طبيعي. فلا بد أن يكون لكل واحد منهم تجربة مختلفة عن الآخر، وكذلك انطباع مغاير، فلا يعقل أن يتفق الجميع في موضوع متشعب كهذا. وأعتقد أن الخلفيات و الأفكار التي نكّونها مسبقاً قبل مغادرتنا لأوطاننا تلعب دورا كبيراً في تصرفاتنا وردود أفعالنا مستقبلاً.

وأحب أن أتحدث هنا عن بعض تجارب غربتي الأولى التي امتدت لقرابة السبعة أعوام في جمهورية ألمانيا الاتحادية بصفة خاصة، وفي أوربا بصفة عامة. ولا أريد أن أبدا بالحديث عن السلبيات – وهي كثيرة – وقد لا تثير عجباً لدى أي شخص، فهي التي كنا نتوقعها سلفاً قبل مغادرتنا للسودان. ولكن أحب أن أتحدث عن الاشراقات والايجابيات التي لم نكن نحلم بها من قبل، لما سمعنا من أن المادية هي كل شيء عند الأوربيين، وأنه لا وجود للعلاقات الإنسانية بينهم. ولكن تجربتي الشخصية نفت لي ذلك. فالإنسان هو الإنسان في أفريقيا و أوربا، وان فوارق الجنس، واللون، واللغة، والتقاليد، و الانتماء، والدين تلعب دوراً سلبياً في كثير من الأحوال. ولكن عندما يحدث التعارف، وتقوى العلاقات الشخصية بين الناس، تذوب كل هذه الفوارق، وعند ذلك يتعامل الإنسان مع أخيه كإنسان، وتبرز الصورة الإنسانية المشرقة في أبها وأحلى صورها.

روعة الإحساس!!

وأحب أن أورد هنا ثلاثة أمثلة فقط من هذه الاشراقات الإنسانية – وهي كثيرة – لما كان لها من اثر بليغ في نفسي. ولا أظنني أنساها في يوم من الأيام، فأنا امرؤ يكبلني ويأسرني الإحسان، وأدخل في زمرة الذين عناهم الشاعر بقوله:-

أحسنْ إلى النّاسِ تَستَعبد قُلوُبهَم ** إذ طَالَما استَعبَد الإحِسَانُ إنَسانَا

حدث أن لزمت سرير المستشفى في عام من الأعوام في هامبورج، وقام بزيارتي عدد كبير من السودانيين وزملائي وزميلاتي الألمان كما تقدم، ولقد كان لذلك أثر طيب في نفسي لأنهم روحوا كثيراً عني، وخففوا علي وطأة الألم. وإلى هنا كنت أعتبر ذلك أمراً

طبيعياً. ولكن الذي هزني هو ما علمته بعد خروجي من المستشفى. فلقد حضرت إلى مكتبة الكلية ذات صباح، ولفتت نظري ورقة على لوحة الإعلانات بها الكثير من الأسماء. وشدني الفضول فقرأتها، وعلمت وقتها كم أن هؤلاء الأصدقاء والصديقات لهم أحساس وشعور نبيل! فلقد كتبت إحدى الزميلات – باربرا - في أعلى الورقة ما ترجمته: « لقد سمعتم دون شك بمرض الزميل محمد، ولعل معظمكم – أن لم يكن كلكم – ترغبون في زيارته؛ ونحن نخشى أن تذهبوا جميعاً في الأيام الأولى، و لربما يطول بقاؤه في المستشفى وتكون الزيارات قد انقطعت فيحس بالملل والفراغ. لذلك نقترح تنظيم ذلك لمدة أطول. وتحديد الذين يزورونه يوميا، حسب الجدول الموضح؛ فالرجاء تسجيل اسمك في اليوم الذي يناسبك ». ولقد تم ذلك في أروع وأبهى صورة. ومكثت قرابة الثلاثة أسابيع ما انقطعت عني الزيارات قط، تأتيني في يوم كل زيارة أفواج من الزملاء والزميلات وفقا للجدول، زرافات ووحدانا، حاملين الزهور، والورود، والبسمات، والهدايا. وكأنني وسط أهلي وعشيرتي!

الحادثة الثانية حدثت بعد خروجي من المستشفى مباشرة. فقد كنت تركت شقتي- قبل حضور زوجتي- في رعاية أخ سوداني هو الأخ الشهم، والصديق العزيز يوسف مسعود من أبناء كسلا، وسيأتي الحديث عنه في حلقة قادمة؛ وكان جيراني في الداخلية يرغبون منذ مدة في إخراجي من الشقة لأنهم يريدونها لأسرة صديقة لهم. فسعوا بالوشاية إلى الشخص المسؤول في الداخلية، وأخبروه بأنني أخلّيت بشروط الإيجار، وقمت بإيجار الشقة من الباطن لبعض السودانيين. وقام هؤلاء الجيران بصب كميات كبيرة من القاذورات بقرب شقتي، وادعوا أن هذا من عمل هؤلاء السودانيين؛ وأضافوا أن هؤلاء السودانيين، لا يكفون عن الإزعاج ليلاً ونهاراً. ولقد كان المسؤول عن الداخلية في ذلك الوقت طالباً حديث التخرج، ضعيف الشخصية، خلف الدكتور كمباوسون، ويدعى قيهرد. فما أن حضرت من المستشفى إلا وأن وجه إلى إنذارا لإخلاء الشقة في ظرف أسبوع واحد، بناء على الاتهامات الجائرة التي ساقتها إليه هذه الأسرة التي لم تراع حق الجوار! وساءني جداً أن يكونوا من الإيرانيين. فالطلبة الإيرانيون من أكثر الناس تهذيباً في الخارج، وحسن معاشرة. ولقد كان لي أصدقاء أعزاء منهم، اذكر منهم علي رضا الذي كان يصغرنا كثيرا ، ولم يلتحق بالجامعة بعد، وكان يدرس في الكلية التحضيرية، ويسكن مع شقيقته المتزوجة معنا في نفس الداخلية. وحدث أن زاره والده ووالدته في

هامبورج، وأصر على أن أتعرف عليهما، ودعاني لتناول الغداء معهم. ففوجئت بوالدته وقد أحضرت حلة الطعام إلى الصالون، وأصرت أن نأكل جميعا من الحلة مباشرة! لان ذلك يعني في عرفهم إننا أصبحنا كأسرة واحدة! ثم طلب مني والده أن أرعى عليا كأخي الأصغر، ولو دعا الأمر إلى ضربه لتأديبه! لكن عليا كان من ذلك النوع الذي لا يمكن حتى أن توبخه؛ فقد كان في منتهى التهذيب والأدب. ولكن لكل قاعدة شواذ! فلقد شذ جيراني، عباس وزوجته ثريا!

ولم أرد أن أذعن لهذا التلفيق، فأخذت كل أوراقي، ومستنداتي، وإيصالات دفع الإيجار، وذهبت إلى محام خاص بالطلبة واستشرته في الأمر. وبعد دراسة صيغة العقد، وشرح كل الملابسات، أجابني أن الحق في جانبي ونصحني بأن لا أذعن لهم وأبقى في شقتي وأتركهم يشتكونني إلى القضاء. ولكن بعدما تدبرت الأمر، ورأيت أنني خرجت منهك القوى من المستشفى، ولا حاجة لي أن أنهك ما تبقى لي منها في صراع بين المحاكم والمحامين، لذا قررت أن اخلي الشقة.

والمشكلة التي واجهتني هي إلى أين أذهب؟ فأمامي أسبوع واحد وهو غير كاف على الإطلاق لإيجاد سكن مناسب أو غير مناسب في هامبورج، فما العمل؟ قررت أولاً أن أتصل بكل أصدقائي الألمان وأسألهم عسى أن يجدوا لي مخرجاً. واتصلت ضمن ما اتصلت بالزميلة باربرا، التي تقدم ذكرها، وأخبرتها بما حدث. فأجابتني أنها شخصياً لا تدري بوجود شقة خالية. واقترحت علّي أن تأتي في صباح اليوم التالي وتأخذ متاعي بسيارتها إلى حيث تسكن، واسكن أنا في غرفتها، وهي سوف تنتقل إلى غرفة صديقتها الأمريكية التي تقاسمها الشقة، وتدعى» بل «، وهي أيضا طالبة معنا في نفس الكلية، وأبقى حتى أتمكن من إيجاد حل لمشكلتي! وشكرتها على شعورها النبيل الذي دعاها لأن تتنازل لي عن غرفتها الخاصة! وأخبرتها أنني لا يمكن لي أن أحل مشكلتي مسبباً مشكلة، أو أحلها على حساب الآخرين، وودعتها وقفلت الخط، وكانت الساعة قد قاربت التاسعة مساءً. وكررت المحاولة مع زملاء آخرين، ولكن أحدا منهم لم يعلم بوجود شقة خالية، ووعدني الجميع بأنهم سوف يبذلون جهدهم في الأيام القليلة المقبلة لإيجاد حل لهذه المشكلة.

وبعد أن أردت أن أخلد إلى النوم، دق جرس الهاتف وقد قاربت الساعة منتصف الليل. وكان المتحدث في الطرف الآخر الصديق العزيز آرني، الذي مرّ ذكره في الحلقة قبل

الأخيرة، يتحدث إلّي من مدينة ميونيخ حين كان يقضي أجازته السنوية. وأخبرني أن الزميلة باربرا اتصلت به من هامبورج وحكت له مشكلتي. وأخبرني قائلاً: « أعتبر المشكلة قد انتهت الآن » وأفصح أكثر وأوضح أن لديه شقة في أيزي اشتر اسه رقم (٦) والمفتاح لدى صاحب الحانوت أسفل العمارة، وسيخبره غداً صباحاً بأن يسلمني المفتاح، وأن أرحل إلى شقته، فهو لن يعود إلى هامبورج قبل شهرين. قائلاً: « وما عليك إلا أن تدخل وكأن البيت بيتك » - وهي الشقة التي تقدم ذكرها. وتشاجرا فيها والد آرني ووالدته. وقد تم الأمر كأحسن ما يكون وبقيت هناك إلى أن انتقلت إلى داخلية كيفتز مور عندما وصلت زوجتي من السودان.

التعامل الإنساني!!

الحادثة الثالثة تتعلق ببداية التحاقي بالجامعة، عندما اكتشفت أن مدة الستة أشهر التي قضيناها في تعلم اللغة الألمانية لم تكن كافية لمتابعة المحاضرات! ولقد كانت صدمه كبيرة بالنسبة لي. وأذكر أن أول محاضرة دخلتها كانت في مادة الجيولوجيا. التي لم أدرسها من قبل، وأخذتها كمادة فرعية. وكان المحاضر بروفيسور له باع طويل في مادته وألف عدة كتب. واذكر أن أخذنا ذات مرة لزيارة بعض مناجم الفحم الحجري في منطقة الرور؛ لكن لحسن الحظ كان النزول بالمصعد إلى باطن الأرض اختياريا، فقلت له أنا أفضل استخدام المصعد فوق الأرض وليس في باطنها! ولم أكن الوحيد الذي عزف عن النزول إلى المنجم!

وفي تلك المحاضرة الأولى، جلست في الصفوف الأمامية وجهزت الدفتر وأكثر من قلم حتى لا تفوتني كلمه مما يقول الأستاذ دون تدوينها. وبدأ الرجل « يرطن » وأنا كالأطرش في الزفة. لا أكاد أفقه حديثاً، وممسك بالقلم وأنظر إليه، ولم أدون كلمة واحدة! والطلبة والطالبات من حولي لا يكادون يرفعون رؤوسهم من شدة انهماكهم في التدوين. وانتهت المحاضرة، وخرجت صفر اليدين! لم أكتب شيئاً، ولم افهم شيئا، وفي اشد حالات الإحباط، وأقول لنفسي: ما الذي دعاك إلى الدخول في هذه الورطة؟ وهل هناك مجال بعد هذا « للحنبكة» و طلب العودة إلى السودان؟ و.....الخ. وبينما أنا كذلك جاءت طالبه وسلمت على وسألتني « عساك بخير أيها الزميل؟؟ » فقلت لها – الحمد الله – قالت لي أنا كنت أجلس خلفك، ولاحظت أنك طوال المحاضرة « سارح » ولم تكتب

شيئاً، هل لديك مشكلة؟! فحكيت لها إن مشكلتي لا تتعلق بالسرحان، ولكن باللغة! وقد أصيبت بالمفاجأة، عندما أخبرتها أن علاقتي باللغة لا تتعدى ستة أشهر فقط! ثم قدمت نفسها قائلة أنا أسمي « انجليكا »، وأجبتها:» وأنا محمد ومن السودان « وأوضحت لي أنها تجيد اللغة الانجليزية، لأنها أمضت فترة دراسية في أمريكا في تبادل أكاديمي بين جامعة هامبورج وإحدى الجامعات الأمريكية. وعرضت علي أنها متبرعة بأن تشرح لي المحاضرة وتلخصها لي كل مرة باللغة الانجليزية، حتى يقوى عودي في اللغة الألمانية، اذهب إليها في سكنها أو تحضر عندي في الداخلية حسب ما اتفق. ولقد تم ذلك على أروع ما يكون، ولمدة أكثر من فصل دراسي تقريباً، دون أي مقابل مادي! ودون أي سابق معرفة بيننا! وقبيل الامتحان كنا نذاكر ونراجع سوياً، وبحمد الله لم أخذلها فقد اجتزت الامتحان، وان كان بدرجة مقبول فقط!

وما هذه إلا أمثلة بسيطة من كثير، ولان رأيت أن أتحدث عن أسرة الهر مازر في بوبارت، أو أستاذي الجليل البروفيسور زقرت أو صديقي الدكتور هانس آوست مفتش الآثار في بيدر كيزي، الذي كنا نقضي التدريب العملي في الحفريات في المنطقة التي يشرف عليها، خاصة وهو على معرفة جيدة بالبروفيسور زقرت الذي حضّر معه الدكتوراه. وكان يتصل بي أنا وزوجتي من وقت لآخر هاتفياً من مدينته التي تبعد عشرات الأميال عن هامبورج ليلاً، لأن مناسبة أو احتفالاً ما سيقام في مدينته، وسوف يحضر بسيارته لأخذنا. وبعد قضاء وقت طيب معهم، يرجعنا صباح اليوم الثاني إلى هامبورج بعد أن نكون قد أمضينا الليلة معه ومع زوجته الفاضلة روزيته في بيتهما . وفي بعض الأحيان عندما تكون لديهم هناك مناسبة، وزوجتي في معهد اللغة في لونا برج، يطلب من ابنه الطالب في الجامعة معنا ويدعى فيرد، كي يمر بسيارته لأخذ زوجتي و إحضارها معه إلى بيدر كيزا، بينما يأتيني هو بسيارته في هامبورج ويأخذني إلى مدينته مباشرة. وفي الصباح تستشيرني زوجته ومعي ابنها فيرد فيما نفضل أن تطبخه لنا في الغداء، وغالبا يقع اختيارها على ما أفضله أنا، ولا تجد اعتراضات فيرد أذنا صاغية لديها!! وكانت تجيد بصفة خاصة طبخ الكبدة. اذكر بينما كنا نقضي عندهم الليل في مسكنهم ذات مرة، صحوت فجأة صباحا على من يناديني بأعلى صوته! ولبثت برهة كي أدرك أين أنا، ومن يناديني؟ وفي صحو أو حلم أنا؟؟ وتأكدت انه صوت آوست، صادر من الدور الأول! وخشيت أن يكون قد حدث مكروه! فصعدت السلم في عجل إليه. ووجدته داخل الحمام؛ فسألته عن المشكلة،

واخبرني أن المفتاح، قد انكسر داخل الكالون، ولا يستطيع الخروج. ولديه موعد مهم! وطلب مني أن اذهب إلى بيت والده المجاور واطلب منه الحضور لفتح الباب. ورغم أن الوالد لم يكن نجارا، بل معلم في المعاش، إلا انه اخذ صندوق النجارة الخاص به، وجاء معي، وأطلق سراح ابنه بحرفة واقتدار كأي نجار. ولو أردت أن أتحدث عن كل ذلك، لضاق المجال وأدركنا الصباح فالخير كل الخير أن نسكت عن الحديث المباح!

ومن الأشياء الغريبة التي لاحظتها أثناء عملنا في الحفريات، أن آوست كان يكن تقديرا خاصا لأحد العمال، يدعى «كلاوس»؛ وليس فقط آوست لكن كثيرا ممن يمرون بنا من أهل المدينة يخصون كلاوس بتحية خاصة. فدفعني الفضول أن اسأل آوست عن سر هذا التقدير، فقال لي: هذا الرجل الذي تراه يعمل لدينا باليومية، كان حتى قبل عام، مدير الشرطة، والمسؤول الأول عنها في هذه المدينة، وقد نزل المعاش الآن؛ وهو لا يعمل من اجل المادة، فوضعه المادي جيد، ولديه مسكن محترم وسيارة؛ لكنه لا يريد أن يركن إلى الكسل، فيعتبر هذا العمل بمثابة رياضة له، بالإضافة إلى حبه للعمل كعمل!! وهذا شيء ملاحظ جدا في الألمان. اذكر في مرة أخرى كنا نجري حفريات في مدينة اشليزفيك الرائعة في شمال ألمانيا، وكانت هناك مشكلة في إيجاد العدد الكافي من العمال، نظرا لاتساع نطاق الحفريات. فقرر مدير المتحف هناك الدكتور فوقل الاستعانة بالمساجين. وذهبت معه بسيارته إلى السجن ، وتحدث مع مدير السجن؛ وعلى الرغم من توفر وسائل الراحة داخل السجن، إلا أن حب العمل ــــ رغم قساوته- جعل من الصعب اختيار العدد المطلوب من شدة تدافع المساجين للاشتراك في هذا العمل! مما حدا بمدير السجن أن يخبرهم انه في كل يوم سوف تذهب مجموعة، بحيث يمر الدور عليهم جميعا!

النمر القابع في غرفتي!

لقد أعجبتني لدى الألمان صفات كثيرة، منها الصدق، والأمانة، والصراحة، والدقة، والإخلاص في العمل. وقد يبالغون أحياناً في حبهم للصدق، حتى يكادوا يذهبوا إلى درجة اللامعقول.

اذكر من ذلك أنني كنت أمتلك حذاءا مصنوعاً من جلد النمر، أتبختر به من حين إلى آخر في هامبورج، تماماً كما كان يفعل أستاذنا الواثق الذي يصف نفسه في الغربة قائلاً:

وكنتُ إذا ما دَعاني الزهُو آونةً
أَمشي العرضنة في أثوابي الجُددِ

وذات يوم ونحن جلوس في الغرفة العامة بالداخلية، سألتني زميلة تسكن معنا في نفس الجناح تدعى سابينا عن حذائي وهل هو بحق جلد نمر حقيقي فقلت « آي نعم «. وأبدت أعجاباً ودهشة وفغرت فاها وصارت تتحسس الحذاء بيديها. فقلت في نفسي لماذا لا أزيدها دهشة وأضحك عليها. فقلت لها أن النمر شيء طبيعي جداً عندنا في السودان لدرجة أنني أحضرت معي نمراً صغيراً قابع الآن في غرفتي! وهي قد « أصغت ورنت «، كما قال الشاعر المصري المبدع المهندس علي محمود طه. ثم هبت واقفة ترجوني في إلحاح أن آخذها إلى غرفتي لكي ترى النمر لأنها لم تره حياً قط في حياتها!! وعند ذلك ضحكت وقلت لها: « هل هذا معقول؟ هل تصدقين حقاً يا سابينا أنني أحتفظ بنمر في غرفتي؟ « فأجابتني بمنتهى البساطة: « نعم أصدقك لأنه إذا لم يكن لديك نمر في الغرفة فلماذا « تكذب « ! عند ذلك تبينت أنهم لا يعرفون غير الصدق والكذب؛ أما ما نسميه بالمزاح أو « الهزار « فلا مكان له لديهم، وقلت لها « نعم ، قاتل الله الكذب حتى لو كان مزاحاً «!

وبالرغم من أن الألمان لا يحبون أبداً الدخول في شؤون الغير، إلا أنهم يفعلون ذلك عندما يرون أن ظلما قد حاق بالبعض، أو أُجحِف في حقه. عند ذلك يبدأ التدخل لإحقاق الحق.

أذكر أنني كنت جالساً ذات يوم مع عدد من الرجال والنساء الألمان في غرفة الغسيل العامة بشارع» قرندل الا « في انتظار انتهاء غسيل ملابسنا التي كانت تغسل أوتوماتيكيا في الماكينات الكبيرة أمامنا. ودخلت شابة تركية الملامح - والأتراك أكثر الناس بغضاً إلى الألمان – ووضعت قطعة معدنية في ماكينة النقود، ولكن لم يخرج لها « الفيش «الذي يوضع في ماكينة الغسيل. وباءت جميع محاولاتها بالفشل. كل ذلك يحدث على مرأى ومشهد من الجالسين ولكن أحدا لم يتدخل. وعندما أعيتها الحيلة، تلفتت ذات اليمين وذات اليسار، ووجدت رقماً هاتفياً يتصل به في مثل هذه الحالات؛ واتصلت بالرقم، وجاءها الشخص المسئول سريعاً، وحاولت من جانبها أن تشرح له في ألمانية ركيكة ما حدث. وفهم قصدها وقام بفتح ماكينة النقود، ولكن الغريب لم يجد قطعة النقود عالقة! وقال لها كما ترين ليس هناك أي قطعة نقود، فهي أما تَعْلَق أو تنزل، وعند ذلك تسقط

قطعة « الفيش » من تلقاء نفسها. وأعتذر لها في لطف وقال لها: « أن حظك اليوم سيء « وهم بالانصراف. عند ذلك نهضت امرأة عجوز ووقفت أمامه وقالت له: « لا يمكن أن تذهب دون أن تعطي هذه الشابة أما قطعة نقودها أو« فيشاً » تغسل به ملابسها ». ثم ألتفتت إلينا موجهة السؤال إلينا فردا فردا إن كنا قد رأينا فعلاً أن البنت ألقت بقطعة النقود في الماكينة؟ فأجبنا جميعاً « بنعم ». وعند ذلك ما كان من الرجل إلا أن أنصاع لأمر هذه المحكمة الفورية وسلم الفتاة « فيشاً »!!

غربة النفس!!

ومن سلبيات الغربة إن المرء ينقطع فترة غير قصيرة عن أهله وذويه وأصدقائه. ويكتسب صفات وعادات جديدة تتطلبها البيئة الجديدة، ويتخلى عن صفات أخرى لا تقبلها هذه البيئة. وأول ما يعود إلى وطنه تنشأ المشاكل. فهو قد تغير في نظر الذين يعرفونه. وكذلك في نظرته إلى أشياء كثيرة. اذكر عندما عدت إلى السودان لأول مرة بعد غيبة دامت ثلاثة أعوام، سألت أختي الكبرى مريم؛ إن كانت لاحظت عليّ تغييرا يذكر؟ فقالت لي: نعم؛ أصبح كلامك مقتضبا ، و صرت كثير الصمت!

وربما فسر البعض هذا التغيير بأنه نوع من التعالي. ولكن أعتقد أن في ذلك شيء من الإجحاف. لان من سلبيات الغربة أن الأنس والحديث اللذين كانا موصولين بين الأصدقاء ينقطعان، وعند اللقاء مرة أخرى لا يستمر الحديث كما كان قديماً طويلاً ومتنوعاً. بل يصبح قصيراً مقتضباً محصوراً فقط في العموميات. فبعد الإنسان لا يميت العاطفة والمودة، ولكن فقد الإنسان لعنصر هام في الأنس والحديث، ألا وهو عنصر المعايشة والمتابعة، يكون سبباً في برودة العلاقة بين المغترب العائد وبين أصدقائه، و لربما يؤدي إلى موت هذه العلاقة موتاً بطيئاً.

ومن هذه الأشياء المحزنة أن المغترب قلما يلم بكل التفاصيل الاجتماعية التي تحدث أثناء غيابه من فرح وترح. وقد يؤدي هذا الجهل في كثير من الحالات إلى الإحراج. ولقد تعرضت شخصياً لهذا النوع من الإحراج وذلك لدى عودتي إلى السودان ، عندما ذهبت ذات مرة إلى زيارة أسرة صديقة من غرب السودان تسكن أمدرمان، ولي بها صلة، هي أسرة الأخ العزيز مالك الزاكي صالح، مدير معهد القرش سابقا. فسألت الزوجة أمام زوجها وبقية أفراد أسرتها:» وكيف حال العم عمر؟___ الذي هو والد ها. فسكتت

ونظرت إلى الأرض، وصمت الجميع، وأدركت أنني أساءت السؤال. وعالج الأخ مالك الأمر بأن قال لي: « يبدو أنك لم تسمع بوفاة العم عمر التي حدثت قبل قرابة العام !» فلا تدري في هذه الحالة هل تعتذر أم تقدم التعازي، فتنكأ الجراح، وتثير في النفس الأحزان و الآلام مجددا ؟؟

والأدهى والأمر أنك تجد نفسك قسرا تقارن وتباين بين الأشياء في وطنك وبين الأشياء التي عرفتها في الغربة. وتختلط عليك المفاهيم، وتعيش في حالة عذاب نفسي عندما تحاول أن تحدد أيهما الصواب وأيهما الخطأ. وتتوالى الأسئلة كيف ولماذا؟ فالشخص عندما يكون سجين بيئته يكون قانعاً بكل شيء لأنه لا يعرف سواه؛ تماما كما قال الشاعر نزار قباني:» بكل ما في لوحنا المحفوظ قانعون». ولكن الويل له كل الويل عندما تتيح له الظروف ليتعرف على أشياء ومفاهيم متغايرة تماماً لما ألف وخبر. عند ذلك تبدأ رحلة الرفض الداخلي التي تقود الكثير من المغتربين العائدين- خاصة من الغرب- إلى أن يتقوقعوا بداخلهم ويعيشون أقسى أنواع الاغتراب، ألا وهو غربة النفس، أو ما يعرف بالانجليزية بـ (الايلينيشن). فما أقسى أن تعيش في مجتمع ما بجسدك فقط!! وان كان هذا الاغتراب النفسي قد أفرغ أحلى أنواع القصائد في نظري، وعلى رأسها تلك التي ضمها ديوان أستاذنا الشاعر محمد الواثق: « أمدرمان تحتضر « وآمل الا يتناوشني أبناء امدرمان، مراعاة لحرمة النسب!!

بريد القراء:

ابدأ هذه المرة بالقاريء الظريف جدا محمد سلمان الزبير، خريج جامعة امدرمان الأهلية، من أبناء امتداد ناصر، ويعمل في الرياض- وترتيبه الشخص الثاني في سلسلة القراء الذين اتصلوا بي من بداية هذه الحلقات، والتي احتل المرتبة الأولى فيها الأخ جمال عبد الرحيم من الرياض كذلك- والذي لا يفتأ يتصل بي مشكورا من حين إلى حين. اتصل بي ذات مرة وحكى لي نكتة، تذكرها عندما كان يقرا في المقال الخاص بتلك المبعوثة المصرية التي كانت معنا في ألمانيا، وكيف أنها طلبت مني الحماية، على الرغم من وجود العديد من أبناء جلدتها معنا! فقال لي: أنت مشكورا قد رفعت رأس السودان عاليا، ولم تكن كذلك الملاكم السوداني الذي مثّل السودان في إحدى المنافسات الدولية، ونال الضربة القاضية من خصمه من أول وهلة؛ وإذ هو منبطح يحاول جهده القيام،

والمشجعون من السودانيين يشجعونه:» قم يا بطل ...ارفع رأس السودان عاليا!» فما كان منه إلا أن قال لهم:» أنا ما قادر ارفع راسي! كيف ارفع رأس السودان؟؟!»

وأرسل لي مرة رسالة الكترونية لطيفة، أيام عيد الحب، بدأها بقوله: دكتورنا العزيز الغالي بدين « بالعمة ترباس إلا ربع!!» .. ويستمر : تحياتي وأشواقي وكل سنة وأنت طيب، وكل حاجة طيبة وأنت طيب، إلا عيد الحب أنت ما معانا لانو حق الناس الصغار قدرنا.... « سنسرة من الرقابة الذاتية!!». ويسترسل قائلا: بالمناسبة رابطة أصدقاء صدى الذكريات كانت مخمرة في رأسي لكن ما لقيت صاح اعوس فيه... لكن دعوتك أو زيارتك للرياض هي ملك حر لي وإنشاء الله عبر المقال دعوة للإخوان بالرياض علشان نعزمك في استراحة بالرياض ويكون الكلام حلو من خشم سيدو!!» أقول: لا أيها العزيز: الكلام من خشمك أجمل وأحلى! وأنا أتوق إلى التعرف عليك.

- وللأخ كمال عباس، من مروي، ويعمل في الرياض، والذي جدد الدعوة لي كذلك لزيارة الرياض، وأبدى استعداده على استضافتي والتعرف عليّ عن قرب. لك الشكر كل الشكر أخي كمال، على الدعوة وعلى التواصل الهاتفي - وللأخ حيدر السماني عثمان. الذي أرسل رسالة الكترونية ظريفة جاء فيها:» أي رجل أنت.. وأية ذكريات!!» - وللأخ محمد أحمد حامد من المدينة – من الجزيرة أبا ، والذي درس في مصر، ويشبه أسلوبي بأسلوب كبار الكتاب المصريين! رفقا بي يا رجل!! ويقرأ المقال مرتين.

- وللأخ الأستاذ الأديب سيف الدين عيسى مختار، الكاتب بصحيفة الخرطوم، للكلمات الطيبة التي قالها لي مرة عن صدى الذكريات - والأخ المهندس إسماعيل عبد القادر من الفاشر، ويعمل هنا في جدة، وزميله الأخ المهندس عبد العزيز عمر الطاهر، من الدامر، والذي يشبه يوم حصوله على العدد الذي به الذكريات، بالذي عثر على كنز!- وللأخ بله با بكر عبد المجيد- وللأخ احمد السنهوري رئيس الحسابات بدلة- وللأخ عبد الله عبد الحميد عبدون- وللأخ عصام محمود من الباحة – منطقة السوكي____ وللأخ جماع مردس، من معجبي العمامة كذلك- وللأخ خالد الجزولي -وللأخ الزبير صالح الزبير من حفير مشو لكن عاش في عطبرة، ويعمل في شركة بها مطبعة، وعرض مشكورا المساعدة في طباعة الكتاب- وللأخ علي رجب حاج علي– والشكر موصول للأخ عوض الكريم ضبعة، والذي ذكر أن كلمة إن» أهملته» التي أوردتها في البيت الذي استشهدت به للبوصيري، خطأ، والصواب هو إن» تتركه»، لكن بعد مزيد من التحري، اتضح لي

أن الكلمة الصحيحة لا هذه ولا تلك، إنما هي إن «تهمله؛ وقد صححها لي الخ الأستاذ المستشار عبد الحميد احمد أمين مشكورا. وقد يكون هناك اختلاف في الروايات- وللأخ مصطفى البرناوي من جدة، والذي أرسل رسالة الكترونية يسألني عن تاريخ قبيلة البرنو. ولا املك إلا أن قول له إن البرنو من القبائل العريقة في السودان وفي خارجه، والتي ولعبت دورا بارزا في انتشار الإسلام في غرب إفريقيا، وله في المراجع الكثيرة التي كتبت عنهم من عربية، وانجليزية، وفرنسية الملجأ والملاذ.

وللأخ خالد مصطفى عمر من جدة، والذي قصته قصة مع مقالاتي! إذ ذكر انه كان يتابع المقالات الخاصة بالفلاتة الفلانيين في جريدة الخرطوم قبل حوالي ثلاث عشرة سنة، ومن شدة تعلقه بما كتبت عن هؤلاء القوم، قام بزيارة العديد من مناطق الفلاتة الفلانيين في النيل الأزرق للالتقاء بهم على الطبيعة، رغم انه ليس لديه بهم أية صلة! فهو ينتمي إلى قبيلة الشاقية ومن الزومة بقرب كرمة! وتواصل الإعجاب بصدى الذكريات من جانبه؛ وكم مرة حاول الاتصال بي، ثم عدل عن ذلك خشية إزعاجي، فهو كما قال «يخاف علي حتى من أن تزعجني النسمة!!» تحياتي الحارة أيها السادة القراء الأعزاء، والى اللقاء في الحلقة التالية إنشاء الله.

حان الفراق... وأزف الرحيل... فهل تطيق وداعاً أيها الرجل!

لِكلِ شيءٍ إذا مَا تَمّ نُقصانُ ** فَلا يُغَر بطيبِ العَيشِ إنسَانُ

وبما أن هذا سنة الحياة، فكان لا بد لأنسنا، وهنائنا، ومرحنا، وحبورنا، في هامبورج أن يصيبها النقصان بعد أن اكتملت، وأينعت، وترعرعت. وذاك يعني فقدان كل الأصدقاء والصديقات الذين عشنا معاً كأسرة واحدة وكأننا نعرف بعضنا البعض منذ نشأتنا الأولى! كان لزاما علينا توديع الزوجين أشتفان و فريدة (الأمريكي من أصل مجري و المكسيكية من أصل انجليزي)، والزوجين كانمبا و مونيكا(التوتسيان من زائير) والطالبتين جزلا و جزلا (البولندية والألمانية)، والبروف زقرت وآوست مفتش الآثار الألماني، والزوجين حسنين و أورليكا (المصري والألمانية) والزوجين يوسف و أريكا (السوداني و الألمانية)، و صفوت عبد الرسول، وإبراهيم فراج، و مصطفى سوركتي. وعبدالله عبد المجيد، وقاسم النو، والصديق الساخر المرح عباس حسن ادريس. والأخت إجلال مبارك سنادة (وجميعهم من السودان) والزوجين سفيان و شذى (من العراق) و بربارة و مونيكا، وبئاتي، و بيتر و هيكا، و انجلا و انجليكا، و آرني وصديقته الشيلية أقني، و فراو كرسكو و أسرة الهر مازر و هنري (وكلهم المان)، و فوليا (من تركيا) والزوجين عبد الفاتح و فاطمة (من تونس) والزوجين نبيل و أوشي (السوداني والألمانية)، و عشرات من الأصدقاء الأجانب والألمان، و السودانيين.

اشتفان وفريدة ومن هؤلاء الأعزاء، لنا وقفة خاصة مع الأخ اشتفان وزوجته فريدة ؛ وكان أول لقاء لي بأشتفان، ونحن في بداية عهدنا في هامبورج ندرس اللغة الألمانية المكثفة في فصول الجامعة في الأمسيات. وكان هذا الشاب النحيل الجسم، الشاحب اللون، الخجول، قليل الكلام، ضمن مجموعتنا التي تضم حوالي الخمسة عشر طالباً وطالبة. وطلب منا الأستاذ اللطيف دلماس ذات مرة أن نحّضر موضوعاً عن « الماس ميديا « – أي الوسائل السمعية والبصرية من جرائد ومجلات وإذاعة وتلفزيون – نقوم بمناقشته في الفصل بعد أسبوع. واجتمعنا وبدأنا نتناقش ويدلي كل منا بدلوه. وقد كان أشتفان طوال الوقت صامتاً، يستمع في هدوء لكل ما يدور في الاجتماع. وعندما أتيحت له الفرصة، تحدث حديثاً منطقياً علمياً واضحاً، وأبان الكثير من النقاط الجوهرية في ترتيب واتساق، وكأنه يقرأ من كتاب. ولقد أخذ الجميع بحديثه الممتع

وأحسنوا الإصغاء إليه. ومنذ ذلك اليوم، قررت بيني وبين نفسي أن أسعى لصداقة ذلك الأخ، وأن اطلب كسب وده بكل السبل. ووجدته شخصاً سهلاً، لين العريكة، في منتهى البساطة، والشهامة، وآية في الذكاء؛ لكنه يعاني بلبلة فكرية شأنه في ذلك شأن كل عبقري. وقد حصل على درجة جامعية في الفلسفة من جامعة دلاس بالولايات المتحدة، وواصل في هامبورج دراسة الفلسفة لفترة، ثم تركها إلى دراسة اللغة الفرنسية، ثم تحول إلى دراسة العلوم السياسية، وهكذا لا يستقر على حال. وكان يسافر بين الحين والآخر ميمماً صوب مكتبة» فويلز « اللندية الشهيرة ويحضر معه ليس فقط أمهات الكتب، بل حتى جداتها. ويمضي الساعات الطويلة في المطالعة والقراءة. وكنت قد حكيت له قصة الجاحظ الذي يزعم أنه مات من جراء وقع الكتب عليه. ولقد أطلقت عليه أسم « جاحظ القرن العشرين «. ولقد كان حلو المعشر، وكذلك زوجته فريدة التي تدرس معنا في نفس « الكورس «.

وأذكر ذات مرة أن أجريت لي عملية صغيرة في أحد أصابعي، وكانت زوجتي في السودان . وأصرا على الذهاب معي لمستشفى هايدبرج القريب من الداخلية، وأعاداني إلى شقتهما، وأصرا على أن أمضي الليلة معهما لأنني في حاجة إلى رعاية، وإلا سوف يحضران ويمضيان الليلة معي بشقتي. وما كان لي إلا أن أقبل عرضهما الأخوي. وأذكر أنني لم أغمض جفني طوال تلك الليلة من الألم، وكنت أحس بأحدهما أو كليهما بعد كل ساعة تقريباً ماشيان على أطراف أصابعهما، ويدخلان عليّ الغرفة في هدوء حتى يتأكدا من أنني بخير. وكنت عندما أحس بحركتهما، أتحايل بالنوم، واسترسل في شهيق متكلف حتى أجعلهما يطمئنان ويواصلان نومهما في هدوء. وما كان كل ذلك بكافٍ لمنعهما من الحضور المتكرر!! وعند الصباح ذهب اشتفان إلى الجامعة، وكان يتحتم على فريدة أن تذهب كعادتها صباحاً للعمل بضع ساعات في منازل بعض الأثرياء، حيث تقوم بالنظافة حتى تزيد من دخلها - لأنهما يدرسان على نفقتهما الخاصة - ولكنها أصرت أن تضحي بأجر ذلك اليوم وتصبحني إلى المستشفى حتى تتأكد من أن كل شيء أصبح على ما يرام.

وكان أشتفان كثير الانتقاد للحضارة الغربية وخاصة لمجتمعها الاستهلاكي. وكان يعيش على ما يشبه الكفاف، لا يشتري إلا ما هو ضروري. وكان يقتصد في كل شيء إلا شراء الكتب. أما عدوه اللدود فهو رجل « البوليس». فهو دائما يتصيد الأخبار التي تسيء إلى

رجال هذا الجهاز، ويأتي يحكيها لنا في كثير من التندر و التلذذ. وأذكر ذات مرة كنا نشاهد مباراة مهمة منقولة على « التلفزيون » لدى الأخ العراقي العزيز سفيان رزاق: وفجأة أشار أشتفان وقال: « أنظروا إلى كل هؤلاء « البوليس » وإلى كلابهم هذه ! الم أقل لكم إن هذه الدولة في طريقها لأن تصبح دولة بوليسية ؟ !! فقال له الأخ سفيان:» مالك أنت كالذي لا يرى إلا الشوك في الورود؟؟ فأن لم تكن المباراة تعجبك. فلماذا لا تنظر على أقل تقدير إلى هذه الإعلانات الجذابة على أطراف الميدان. وتترك « البوليس » وكلابه في أمان «! ولا زالت زوجتي إلى اليوم، وكلما تذكرنا اشتفان تردد قولا كان يكثر منه اشتفان عندما نقوم بزيارتهما مخاطبا إياها:» نوال.. موشتست دو فيلايشت مرملادا؟؟» اي هل لك في شيء من المربى؟ فلقد كان يصنع جردلا من المربى يأكل منه شهورا، من قبل التوفيرا!! ولا تزال تتذكر أيضا كيف كاد اشتفان أن يودي بها ذات مرة إلى الهلاك! فكان يدربها على ركوب الدراجة فوق مسطح لموقف سيارات في الدور الأول بالداخلية؛ وهي لا تزال في أطوارها الأولى أرادت أن تنزل وراءه من المنحدر الذي تنزل به السيارات، وهي مندفعة إلى أسفل إذ بسيارة صاعدة وفقدت السيطرة على الدراجة من شدة الخوف والارتباك، وكادت أن تصطدم بالسيارة، لكنها وقعت بعيدا عنها بحمد الله! ولم تصب إلا ببعض الكدمات.

وأنا مدين للأخ اشتفان بإجباري دائماً على القراءة والاطلاع، لبعض الكّتاب الذين يهديني كتبهم، من أمثال جورج أورول، وألبرت كامو، وفانون، وت. نافرن. وتوماس مان. وهاينرش بول، وغيرهم من الكتاب.

وللأسف كانت هذه العلاقة الإنسانية والثقافية والاجتماعية قصيرة، وكانت بمثابة شمعة مضيئة في ظلام الحياة، أو كوقفة في محطة من محطات الحياة الكثيرة. انطلق بعدها قطارنا صوب السودان، وأخذ اشتفان وفريدة القطار إلى مدينة المكسيك ولم نعد نسمع شيئاً عن بعض. وكم أحزننا خبر الزلزال الذي ضرب قلب المكسيك قبل عدة سنوات، وكل ما نتمناه، أن لا يكون مكروه ما قد ألم بالعزيزين اشتفان وفريدة.

وما اشتفان وفريدة إلا مثالا واحدا فقط لهؤلاء الأصدقاء الذين ورد ذكر أسمائهم في بداية هذا الفصل. ولقد كانوا لنا نعم الأخوة، والأهل، والعشيرة. وكانوا خير عوض لنا عن الأصدقاء، والأهل، والعشيرة، الذين تركناهم في السودان. وإن أردت أن أتحدثً عنهم فرداً فرداً لما وسعنا المجال، ولطال الحديث ومل القاري. فكل واحد من هؤلاء

اشراقة وضاءة في هذه الحياة، تألفه النفس وترتاح إليه، قضينا معهم سنوات من أحلى سنوات العمر وأمتعها على الإطلاق. وهم يذكرونني دوماً بقول إيليا أبو ماضي:-

قَالوا ألاَ تصفَ الكريمَ لنَا فقلتُ على البَديه

إن الكريمَ كالربيع تُحَبه للحُسنِ فيــه

تهِشُ عِنْد لقَائه ويُغِيبُ عَنك فَتَشْتَهِيــه

ومن هؤلاء مونيكا الزائرية زوجة صديقي كانمبا، والتي علمتها زوجتي مبادئ اللغة الألمانية أول ما حضرت من زائير؛ فحفظت لها ذلك الجميل، لذا كانت دائما تصر على أن أتعشى يومياً معهم بالدار عندما تكون زوجتي في السودان، وعندما أحاول التملص من ذلك تقول لي: « اذًا أنا سوف أتحمل عبء عمل العشاء ، وعبء حمله يومياً إلى شقتك، وعليك أنت أن تتحمل عبء طردي وإغلاق الباب في وجهي! » وهي تدري الإجابة مسبقاً !

وجه سوداني مشرق!

ورغم ذلك لا يستقيم الحال دون قولة حق في أخ سوداني نادر المثال وبلا ادني مبالغة، فلقد كان هو حاتم زمانه بلا منازع. شاب وسيم التقاطيع، سمح الأخلاق، حلو المعشر، عزيز النفس، واسع الثقافة، يفيض بشراً وكرماً ومرحاً، تألفه النفس وترتاح إليه، من الذين تقابلهم صدفة في دروب هذه الحياة، فتنطبع صورهم في مخيلتك ولا تفارقك ابدا. وفوق هذا وذاك، يتمتع بذكاء نفاذ، ووعي وإدراك، ، وكان لا يحلو له قط أن يتناول طعامه وحيداً في داره الواسعة بفيلد اشتراسه. فان لم يحضر إليه أحد، خرج- بعد أن يكون قد اعد وليمة دسمة، خاصة وهو يجيد الطبخ- إلى المحطة الرئيسية باحثاً عن الأصدقاء أو الغرباء من السودانيين والعرب، ويصر عليهم للذهاب وتناول الطعام معه! ذلكم هو الأخ الصديق العزيز ابن القبائل، يوسف مسعود من أبناء كسلا، والذي تعرفنا عليه ضمن من تعرفنا في هامبورج. وهو وجه مشرق يحق لنا جميعاً أن نفخر ونعتز به، وهو لايزال يعيش هناك مع أسرته. أو الأخ الشهم صفوت الذي يفتح داره لكل السودانيين، أو الأخ العزيز إبراهيم فراج، الذي لا يقل شهامة وكرما.

أما الأستاذ دلماس – الذي تقدم ذكره – فقد كان من أظرف الأساتذة الذين جلست إليهم. كان غاية في المرح والطيبة، محبوب من جميع الطلبة والطالبات الأجانب الذين

يدرسون اللغة الألمانية في الجامعة. وكان ذلك يسبب ضغطاً غير طبيعي عليه، وإحراجا لبقية زملائه وزميلاته معلمي اللغة الألمانية. فلقد كان فصله يكتظ بعشرات الطلبة والطالبات، بينما لا يرتاد بقية الفصول سوى قلة لا تتعدى أصابع اليد.

وكان كثير الشكوى من هذا الازدحام عليه، ويهدد في كل يوم أنه سوف يعقد امتحانا صعباً، وكل الذين يسقطون فيه، عليهم مغادرة فصله فوراً إلى غيره من الفصول. وأذكر من تعليقات الأستاذ دلماس اللطيفة أثناء الامتحان، وعندما يلاحظ أن البعض يحاول نقل الإجابة من جاره: « أيها الأصدقاء : يستحسن أن يكتفي كل واحد منكم بأخطائه الخاصة ولا أرى داعياً أن يضيف إليها كذلك أخطاء جاره !». وتجمع الأوراق بعد الامتحانات بالعشرات، ويمر أسبوع وآخر والهر دلماس لم يصحح الأوراق. وعندما يكثر عليه الطلبة الاستفسار يرد عليهم قائلاً: « كلكم ناجحون في الامتحان، وأنا الساقط في التصحيح! ».

ومن أطرف التعليقات التي سمعتها منه على لسانه ذات يوم – وكنا قد التقينا في المصعد – وكان الوقت يقارب الساعة الواحدة ظهراً، وأرادت زميلاه لنا هندية من كلكتا أن تكسر حاجز الصمت المخيم على المصعد، فالتفتت إلى الهر دلماس وسألته من قبل المجاملة: « أقادم لتوك من تناول الطعام ؟» فأجاب: « على العكس تماماً !!» ولم يزد هو، ولم تستفسر الزميلة أكثر، ولكننا فهمنا ضمنياً ما يعني !! وكان للهر دلماس أسلوب فريد في معاملة الطلبة. من ذلك أنه أثناء الامتحان النهائي للغة، التقينا في قاعه كبيرة ضمن أكثر من (٢٥٠) طالب وطالبة ينتمون إلى أكثر من عشرة أقطار متباينة، وكان المراقب هو الأستاذ دلماس. وبعد مضي بعض الوقت طلب احد الطلبة منه أن يأذن له بتدخين سيجارة – على الرغم من التحذير في كل الجدران « ممنوع التدخين ». فسألنا جميعاً إن كنا نوافق على أن يدخن هذا الطالب سيجارة فأجبنا جميعاً: « بأننا موافقون على ذلك ». ولكن طالباً يابانياً يجلس أبعد ما يكون من مكان هذا الطالب المعني، حبّ إلا أن يَشُذّ عن الجميع، ورفع أصبعه قائلاً: « أنا أرفض ذلك ». فما كان من الهر دلماس إلا أن منع الطالب من التدخين نزولاً على رغبة واحد من (٢٥٠) طالب وطالبة. ولا أدري لماذا لم يأخذ عند ذلك برأي الأغلبية، ربما انحاز إلى الرأي القائل بضرورة احترام رأي الأقلية!

ومن الغريب أن الصلات التي كونتها خلال العامين الأولين في جامعة هامبورج في فصول

اللغة الألمانية للأجانب، أصبحت من أقوى الصداقات التي استمرت حتى بعد تخرجنا من الجامعة. وربما كان السبب هو إننا جميعا غرباء، نعاني من اختلاف الطقس، واللغة، والبيئة، ولكننا نستطيع فهم بعضنا أكثر لأننا نتحدث اللغة الألمانية ببطء تسهل معه المتابعة، ولا يخجل الواحد منا أن يخطئ، فالجميع يفعلون ذلك في هذه اللغة الجديدة.

الوداع... الوداع!!

وقد كان وداعنا لمدينة هامبورج في نهار يوم الثلاثاء ١٩٨١/٠٧/٢٨م وداعاً مؤثراً وموجعاً بحق وحقيقة! وصورة نادرة للوفاء انطبعت في الذاكرة، لا تريد أن تفارقها إلى يومنا هذا! بدأ مع الزميلة البولندية جزلا مازور، التي تعرفنا عليها في كابينة الهاتف كما تقدم؛ والتي قَدِمت إلينا لتوديعنا قُبيل مغادرتنا الداخلية. وطلبت من زوجتي مرافقتها، وخرجتا دون أن ندري إلى أين؟ وغابتا طويلاً، وأزف وقت الرحيل، وبحثت عنهما في كل شبر، حتى خشيت أن تفوتنا الطائرة! وأخيراً وجدتهما مختبئتين تحت السلم أسفل المبنى، تحتضن كل منهما الأخرى وتجهشان بالبكاء! لان في تلك اللحظة سقطت كآفة الفوارق... فهي سودانية، وتلك بولندية، هذه مسلمة، وتلك مسيحية، تلك بيضاء وهذه سمراء (خشيت أن أقول زنجية، فتزعل الحرمة!!) لم يبق بينهما هناك جامع غير الإنسانية، والإحساس والشعور المتبادل!!. وبعد لأي نجحت في « فض الاشتباك « وودعنا هذه الصديقة الرقيقة وخرجنا إلى المطار.

ولقد أخذنا البروفسور زقرت ومعه كل أفراد أسرته في سيارته إلى المطار، وصحبنا كل من الأخوان اشتفان و فريدة، و كانمبا و مونيكا، و الأخ سفيان، و أنظم إلينا في المطار الأخت فاطمة التونسية، و جزلا الألمانية، و الأخ يوسف مسعود. واختلطت الدموع بعبارات الوداع، وأن أنس لا أنس قط، كيف أن الموقف أصاب الأخت العزيزة فاطمة التونسية بالذات بنوع من الصدمة لم تستطع معها قط الكلام! فهي تفتح فاها، ولكن لا صوت يخرج، واكتفت فقط بأن تؤمي برأسها، وتشير بيدها تارة، وتارة تخلع بها نظارتها لتمسح دموعها. أما الزميلة الألمانية « جزلا « التي كان يحلو للأخ يوسف تسميتها « أم الهررة « – لأنها تحفظ في شقتها بعدد لا يستهان به من القطط – فقد لعبت دور المصور، تلتقط لنا صورة في كل وقفة أو التفاته، وقامت بإرسال الصور أول ما وصلنا السودان مع رسالة رقيقة. أما أستاذي الجليل البروفسور زقرت، فكان معي حتى آخر

لحظة، يسدي إليّ النصح، ويوصيني بمواصلة البحوث العلمية ويحدثني عن مشاريعه المستقبلية في السودان، وبالذات في دارفور التي هو متيم بحبها وبأهلها. يا لهفي نفسي! أصبح الصبح فلم يجن من ذلك سوى السراب!! وأما أخي أشتفان. فقد تغلب – أو كذا بدا – على الحزن وتماسك، وبدا ضاحكاً مبتسماً. وأنا أدرك تماماً أنه يتمزق حزناً في داخله. فالرجل كان غاية في الرقة والإحساس. أما الأخت العظيمة مونيكا الزائرية. حسناء التوتسي، وعارضة الأزياء في كنشاسا، قبل اقترانها بالأخ الصديق كانمبا، والإفريقية الأصيلة، فحاولت جهدها أيضاً أن تتماسك. وكلما نظرت نحوها أشاحت بوجهها بعيداً نحو نوافذ الصالة، حتى لا أبصر اثر الدموع على وجهها. أو خشية أن أرى الحزن الذي خيّم على ذلك الوجه الصبوح الذي ما عرف العبوس يوماً.

وكم حمدت الله أن وهبني الصبر واستطعت أن أتماسك في تلك اللحظات القاسية. ونابت عني زوجتي في مجارة المودعات والمودعين إحساسهم بالدموع. وأصبحت تماماً كالأخ اشتفان ضاحكاً هاشاً وباشاً وفي الحلق غصة، وفي القلب حسرة وحزن وألم. لفراق هؤلاء الذين كانوا وكنا لا نفترق صباحاً أو مساءاً، واصحبنا كالأسرة الواحدة. ولطالما أكلنا « الكسكسى « التونسي لدى الأخت الزميلة فاطمة وزوجها عبد الفتاح. و« الفندو « الفرنسية لدى الأخت جزلا الألمانية، أو « القلاش « الألماني لدى هيكا وبيتر، وما لذ وطاب لدى أسرة البروفسور زقرت أو الدكتور أوست، أو « الفلافل « لدى الأخ الفلسطيني فريد. و دروته و « الكوخن « لدى الأخ الصديق حسنين و زوجته أورليكا ، و « الشربة الزائرية « لدى مونيكا، أو « المن والسلوى « لدى الأخ العراقي سفيان، أو « الطبخ السوداني « الشهي لدى الأخ يوسف، ولطالما استمتعنا بفاكهة « الأفكادو « المكسيكية لدى أشتفان وفريدة، ولطالما شاركنا هؤلاء الأصحاب بدارنا « اللقيمات والطبايخ» السودانية؛ وها نحن الآن نقف – على الرغم منا – في مفترق الطرق، نودع بعضنا بعضاً، وداعاً ربما كان هو الأخير، وذلك أمر ليس هو بالسهل أو الهين، ولو كان لنا الخيار، ما أبدلنا حياتنا تلك بكل كنوز الأرض! لكن كما قال الدكتور طه حسين: «ولكنها الدنيا، ولكنه القضاء، وهذا لعمري مثل تلك لغريب !!»

وكأن موظفة الخطوط الألمانية « اللفتهانزا « أيضاً تعاطفت معنا في ذلك اليوم، وتأثرت بهذا الموقف الوداعي الإنساني الرائع. فلقد كان لدينا متاع يزن أكثر من استحقاقنا الرسمي كثيراً ويربو على المائة كيلوجرام. وكنت أطمح في أن أتحصل على بعض

التخفيض. وتفرست في وجوه أكثر من سبع عشرة فتاة جلسن وراء طاولات الوزن، وتوسمت الخير لدى واحدة شقراء تبدو عليها البساطة والطيبة، وقررت أن أكمل إجراءات سفري لديها. وبعد أن فرغت من وزن العفش وأعادت إلى التذكرة، وقفت في انتظار تحرير قسيمة – بالوزن الزائد « ولكنها لم تكتب شيئاً، فسألتها: كم ينبغي أن أدفع – « راجياً إياها بأن تخفض لي ذلك ما استطاعت« – فأجابتني بذوق وأدب: « ليس عليك أن تدفع حتى ماركاً واحداً، فالطائرة - « يا سيدي – تكاد تكون خالية من الركاب. ونحن نعتبر متاعك الزائد هذا متاع الركاب الذين لم يقطعوا تذاكر أصلاً « وشكرتها بحرارة وانصرفت. وودعت هامبورج ولسان حالي قول العقاد:-

إن كانَ لِي فِي مُقْبِل العيشِ مُدة ** فيَا ليتَ يغدُو مُقبِل العَيش مَاضِيا

وكان عليّ أن أغير خط سيري وكذلك الطائرة في مطار فرنكفورت. وواصلت زوجتي سفرها إلى الخرطوم، ومعها الصغير ياسر، وتخلفت يومين زرت خلالهما كلا من الأخ الصديق محمد آدم بخيت من أبناء كتم في قرية قريبة من فرانكفورت، وكذلك الأخ الصديق نبيل سعيد في مكان آخر. وفي يوم مغادرتي فرانكفورت إلى الخرطوم، تعرضت لموقف صعب، فلقد كنت في حركة دائمة بين صالة الركاب وصالة الشحن، وكنت أحتفظ بحقيبة صغيرة بداخلها كل أوراقي المهمة من جواز سفر، وتذاكر وأوراق صحية، ونقود و..... الخ. وبعد أن أنهيت إجراءات الشحن، وتبقى لإقلاع الطائرة أقل من ساعة، اكتشفت فجأة أنني أضعت حقيبتي التي بها كآفة الأوراق المهمة! وكاد أن يجن جنوني، ولكن تذكرت مقولة مأثورة للأخ اسماعيل عمر بالفاشر يقول فيها « إن مالك ضاع فينبغي أن لا يضيع عقلك معه! ». فقلت لأترك فكرة السفر هذا اليوم، ولأبحث عن الحقيبة. وخرجت إلى عرض الشارع العام الذي يفصل بين الصالتين، والأمطار تنهمر، والليل قد أرخى سدوله، والسيارات مسرعة من كل جانب وقد أضاءت أنوارها الساطعة وانعكست آثارها على الماء، فلم أعد أرى شيئاً. وتقدمت في بطء وأنا أنظر إلى الرصيف الخاص بالمشاة، فإذا بي ألمح شيئاً صغيراً أسود في حجم حقيبتي، وعندما دنوت منه، وجدتها هي بعينها. وحملتها وعدوت كالمجنون حتى ألحق بالطائرة، ووصلت، وعند دخولي الصالة نودي النداء الأخير لركاب الطائرة المتجهة من فرانكفورت إلى الخرطوم، وحمدت الله أن وفقت في اللحاق بها.

هل العود احمد؟؟!!

ولدى عودتي إلى السودان، وجدت أن معظم أصدقائي الذين أعرفهم، هاجر منهم من هاجر، ونقل من نقل إلى الأقاليم. ووجدت أن ظروف الحياة القاسية أخذت الناس أخذة قوية، فهم يجلسون معك بأجسادهم، وعقولهم مشغولة بكل مشاغل وصعاب الحياة. ووجدت من الصعوبة بمكان التأقلم على هذا الجو الذي تغير كثيراً مما تركته عليه.

ولكن الله العلي القدير كان رحيماً بي، فلقد هيئ لي فرصة تدريس اللغة الألمانية بمعهد جوته بالخرطوم كعمل أضافي. ولقد كانت هذه أول فرصة لي لمزاولة التدريس المختلط. ولكم أذهب عني ضجر وملل وسأم الخرطوم ما لقيته من هؤلاء الشباب النيرين والشابات النيرات من تقدير واحترام: وانس وألفة: ذهبت ذات مرة لعيادة الأسنان بمستشفى الخرطوم ، وبينما كنت أقف في الصف، إذ بالدكتورة نادية إبراهيم. التي كانت طالبة عندي في معهد جوته، تخرج من مكتبها ، وتأخذني من يدي من آخر الصف تقريبا لإدخالي للعلاج! فاحتج الناس وعلت أصواتهم! فما كان من الدكتورة نادية- والتي تعطيك دائما الانطباع الايجابي بثقتها المتناهية بنفسها- إلا أن قالت لهم: هذا أستاذي، ألا يحق لي إكرامه؟ ويا لروعة الشعب السوداني! فقد أجابوها بصوت واحد « معك حق يا دكتورة! « ثم أفسحوا لي المجال قائلين في رضًا وطيب خاطر: تفضل يا أستاذ!!

أعاد لي صلاح الطالب من بحري ، وصلاح الضابط بالقوات المسلحة ، وصلاح أيضا النقيب بالشرطة، ومحمد صالح، وعبد الحميد، وسليمان، وعميد الشرطة السابق، ناظر قبيلة البرقد حاليا الأخ موسى جالس، وخالد، ونادية وزميلتها الدكتورة نجوى، وإيمان أبو العلاء، وآمال النارشي بلوفتهانزا، ودرية، وحكمت، وعزيزة، والشامة بمكتب العمل، ومنى محجوب من كلية التربية، وزميلاتهن وزملائهن من الطلبة، الذين يضيق المجال عن ذكرهم ولا يتسع، بعضا مما فقدت من ثقة بالنفس، وكانوا لي أكثر من مجرد طلبة وطالبات، وكنت اخذ البعض منهم ممن يسكنون في طريقي إلى امدرمان او بحري بسيارتي، ويمتعونني في الطريق بالحكايات والنكات، حيث كانت العلاقة بيننا أكثر من علاقة أستاذ بطالب. اذكر كنت دائما أرى إحدى الطالبات في رفقة احد الطلبة،يأتيان سويا، ويخرجان معا؛ وكان هناك تشابه في ملامحهما، فسالت الطالبة ذات مرة» هل هذا قريبك؟» فقالت لي انه أخي. وذات مرة غاب « أخوها» فسألتها: أين أخوك اليوم؟

فقالت لي:» يبدو يا أستاذ انك طولت من السودان!! أنت صدقت انو أخي؟ في بت اليومين ديل بتمشي مع أخوها؟؟!!.. ثم أردفت:» خليك فاهم يا أستاذ!!» وليت الأمر توقف عند المشي فقط! إذ تطور الأمر جدا في زمننا هذا وذهب ابعد كثيرا من مجرد» مشي!!».

كما كان لي في الأخوة الأستاذة معي في المعهد، مصطفى سوركتي والسبطي- رحمه الله- و حافظ تربال، وعصام نعم الأخوة والزملاء والأصدقاء، وكذلك الأستاذة فراو نصير. ولا يمكن أن أنس كذلك فراو سنهوري السكرتيرة التي كانت في غاية التهذيب والطيبة؛ والمسؤولة المالية، التي كانت تصرف لنا الراتب مقدما في حالة الفلس المبّكر؛ وما أكثرها من حالة!!

ولكن سارت الأمور على الصعيد الرسمي للعمل في مصلحة الآثار على النقيض من ذلك، وتعذر العمل، وما هو إلا وقت قصير، وقادتني خطاي إلى غربة جديدة، لا أدري إلى كم سنة سوف تمتد؟ ولكن ذلك موضوع آخر. وان أمد الله في الآجال، أتمنى أن أتعرض لذلك في يوم من الأيام بعنوان:»ما بين غربتين».

بريد القراء:

وهذه هي آخر مداخلة في بريد القراء، وهي من نصيب الذين اتصلوا بي بعد المقال الأخير.. وهم: عبد العظيم مصطفى الذي اتصل من عسير مستفسرا عن صدور جريدة الخرطوم في ذلك اليوم، لان الموزع اخبره بأنها لم تصل، وعندما قلت له نتدبر لك المقال بطريقة ما، أجاب لا.. ده انا أجي جدة عشان اشتريها!! واتصل بي الأخ خضر عبد الرازق آدم من الرياض، وتحادثنا طويلا، وختم حديثه بتجديد الدعوة لي لزيارة الرياض، لك جزيل الشكر أيها الأخ المواصل، وكان هناك كالعادة الأخ الكريم حسن كمال الدين أبو صباح، واتصل بي عن طريقه كذلك أخوان آخران؛ هما كناني مبارك سليمان من أوائل الأساتذة بكلية المعلمات بنيالا؛ وهو من أبناء الرهد أبو دكنة، ويعمل في الدمام، والثاني هو الأخ صديق إبراهيم من القصيم، والذي أرسل رسالة يقول فيها انه مدمن صدى الذكريات وكذلك صدى الملاعب في التلفزيون، فهواه مع كل» صدى»! ثم كان هناك الشاعر الرقيق شرف الدين بشرى الذي أتحفني هذه المرة أيضا بقصيدة «حلوة» أجزل الشكر أخي شرف؛ كما اتصل الأخ ذو النون الكاروري، والذي اثني على فضيلة الصدق بصورة خاصة. ومسك الختام كان من الكابتن سبت دودو، الذي أبدى

رغبته في زيارتي في المنزل لمناقشة نقاط معينة في هذه السلسلة، فمرحبا بك أخي سبت في أي وقت والبيت بيتك.

توديع القراء!

ولكم سادتي القراء الأعزاء جميعا، نساء ورجالا، كل الشكر، والتقدير، والإعزاز، لتفاعلكم الطيب معي طوال هذه المدة، ولتعليقاتكم اللطيفة، والنابعة من القلب، ولتبسطكم معي في الحديث، ولشعوركم الطيب ، ولصحبتكم الجميلة؛ وكم أسعدني أن أضفت إلى معارفي وأصدقائي مجموعة خيرة من الأصدقاء من أبناء وطني الطيبين البسطاء من كافة أرجاء الوطن ، الذين يحبونك، لا لمالك، ولا لجاهك، ولا لسلطانك، ولا لشيء آخر سوى أن كتاباتك وجدت هوى في نفوسهم! فأنت لا مال لديك تهديه ولا خيل، وان ملكت ما بخلت!- وآمل أن لا تنتهي العلاقة معكم بانتهاء « صدى الذكريات» ، وآمل كذلك أن أفي بوعدي لكم بإصدارها قريبا بإذن الله تعالى في كتاب : كما اعتذر للذين قد يكونون اتصلوا بي وسقطت أسماؤهم سهوا ولم اشر إليهم في هذه المداخلات. و سوف اهدي إليكم في اقرب برنامج ما يطلبه المستمعون، أغنية سيد خليفة: « أودعكم! أفارقكم! لا.. لا .. أنا ما بقدر!!» ودمتم جميعا في رعاية الله وحفظه.

وللأسف يا أخ جمال محمد احمد الدنقلاوي، لن يكون هناك لقاء في الأسبوع القادم! والحمد لله يا أخ عزام الطريفي أن أمد الله في اجلينا حتى نهاية الذكريات! ويا أخ عبد الرجيم حسين آمل أن لا تشارك في المظاهرة، التي أنذرتني بان القراء سيشنونها على منزلي إذا أوقفت سرد هذه المذكرات!



ميز امتداد ناصر، صورة لبعض أفراد الجيل الثاني. ويظهر من الزملاء المؤسسين الأخ النور كمال الدين أبو صباح الثاني من اليسار وإلى يساره الأخ المرحوح مختار محمد علي.



الأخ مختار محمد علي، على اليمين، وتلميذي سابقاً في مدرسة أم كدادة الأولية وزميلي لاحقاً في جامعة الخرطوم، الدكتور آدم حسن وبينهما ابنة جارنا العم إسماعيل.



جارنا في امتداد ناصر.

العم إسماعيل وزوجته وابنه الطيب وحفيده.



أسرة السيد مازر وابنه اشتفان، وزوجته فراو مازر ووالدتها فراو واشنايدر في إحدى المناسبات في مدينة بوبارت.



مع آسرة السيد مازر أمام منزلهم في بوبارت، ومعنا اتو الياباني الواقف على اليمين والأخ تكما الأثيوبي (الثور الهائج!) الجالس، واستفان وسيمونة وابنة الجيران.



في معهد جوته في بوبارت وبجواري الأخ حسن منقوري، والجالس الأخ كرم الله كركساوي.



مع الأخ حسن منقوري، والأخ محمود خليل، أمام متحف مخترع الطباعة بالحروف المعدنية، الألماني يوهان جوتنبرج (١٣٩٨-١٤٦٨م) في مدينة ماينز بألمانيا على نهر الراين



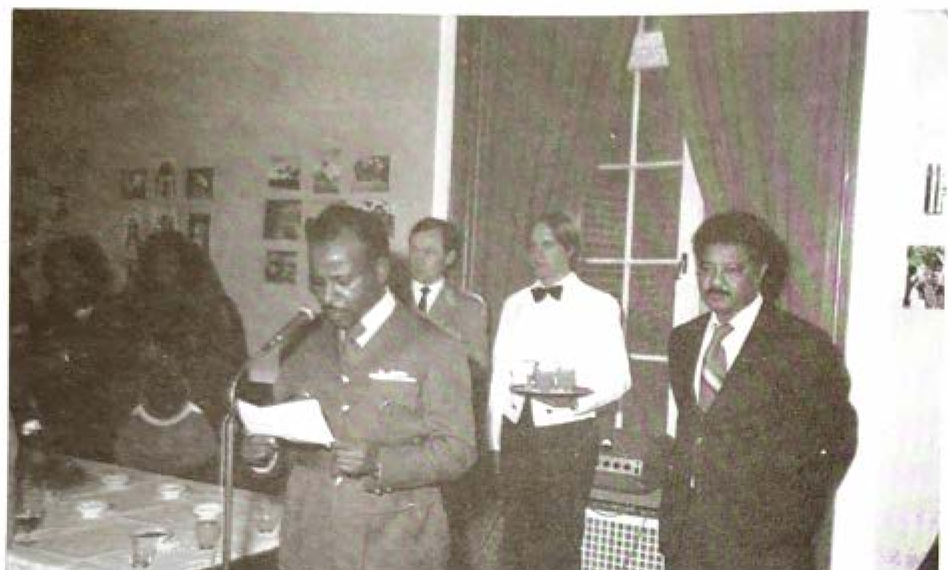
البروفسيور هلموت زقرت في إحدى الحفريات.



مع الزملاء والزميلات في إحدى الحفريات، وعلى يميني بربارة التي جاء ذكرها في صدى الذكريات، وبجوارها ارني الذي اسكنني في شقته في ايزي اشتراسه، ثم على اليسار جزلا التي كانت تحتفظ بعدد لا يستهان به من القطط، مما دعى الأخ يوسف أن يطلق عليها «أم الهررة».



احتفال تخريج العقيد عثمان رأفت من كلية الأركان الألمانية المرموقة في بلاكنيزي، وعلى اليمين الأخ نبيل سعيد ثم زوجة الأخ عثمان منى، ثم مدير الأكاديمية.



الأخ عثمان يلقي كلمة وعلى اليمين سفير السودان حينذاك في بون الأستاذ مصطفى مدني ابشر.



صورة زفاف الأخ الصديق نبيل سعيد وزوجته أوشي.



الطالب توماس الذي كان يشاركنا السكن في الشقة المشتركة في كيفتزمور.



على ضفاف بحيرة الستر الرائعة في هامبورج من اليمين الأخ علي (فلسطيني) والأخ يوسف مسعود (حاتم زمانه) والأخ على عبد الرحمن الذي شرفني بالزيارة في هامبورج.



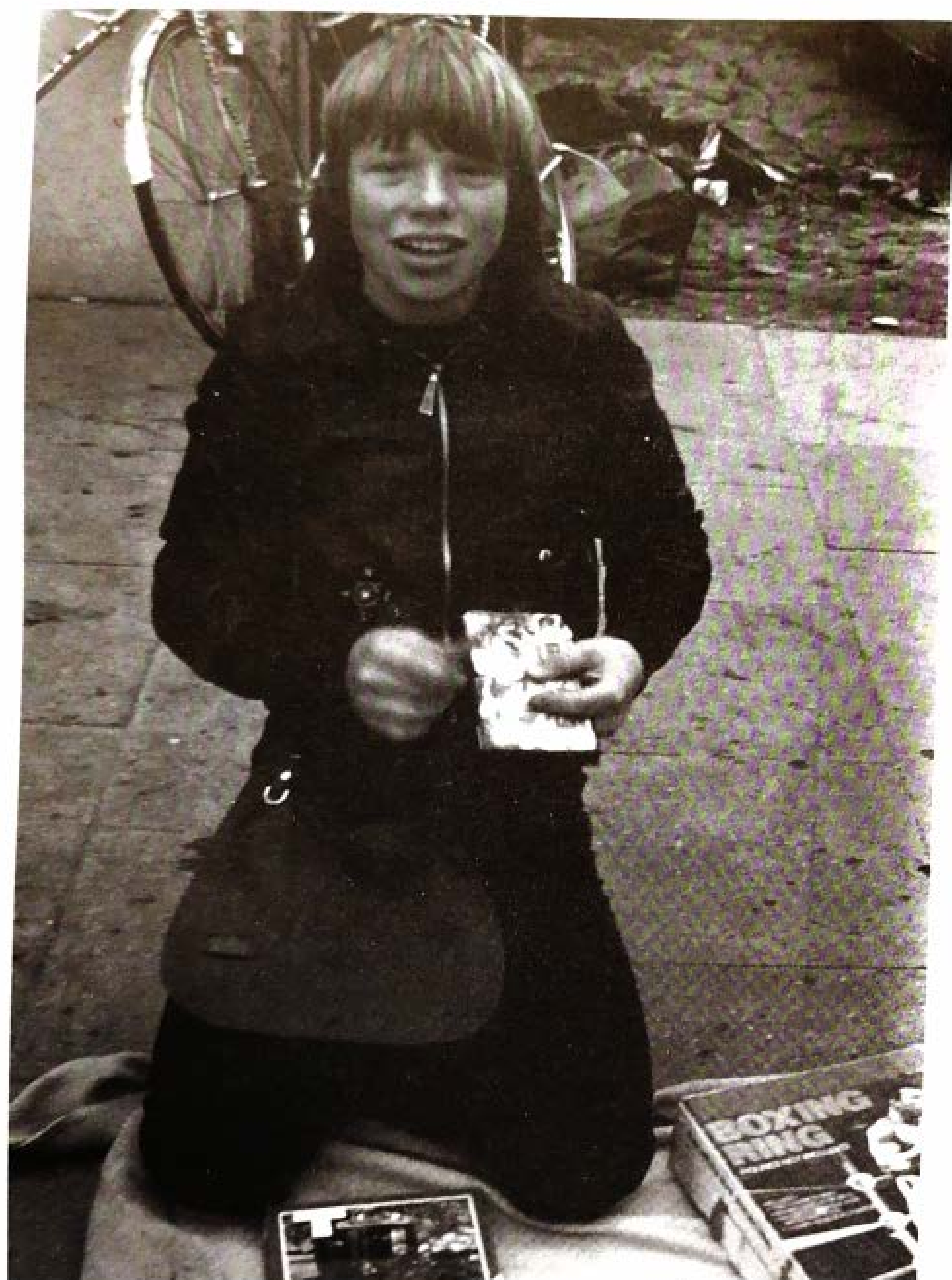
الأخ علي عبد الرحمن في طرف آخر من بحيرة الستر.



مع الأخوة الأصدقاء من اليمين حسن المنقوري، وصديق، وحسن مضوي الذين قدموا من برلين لزيارتي في هامبورج.

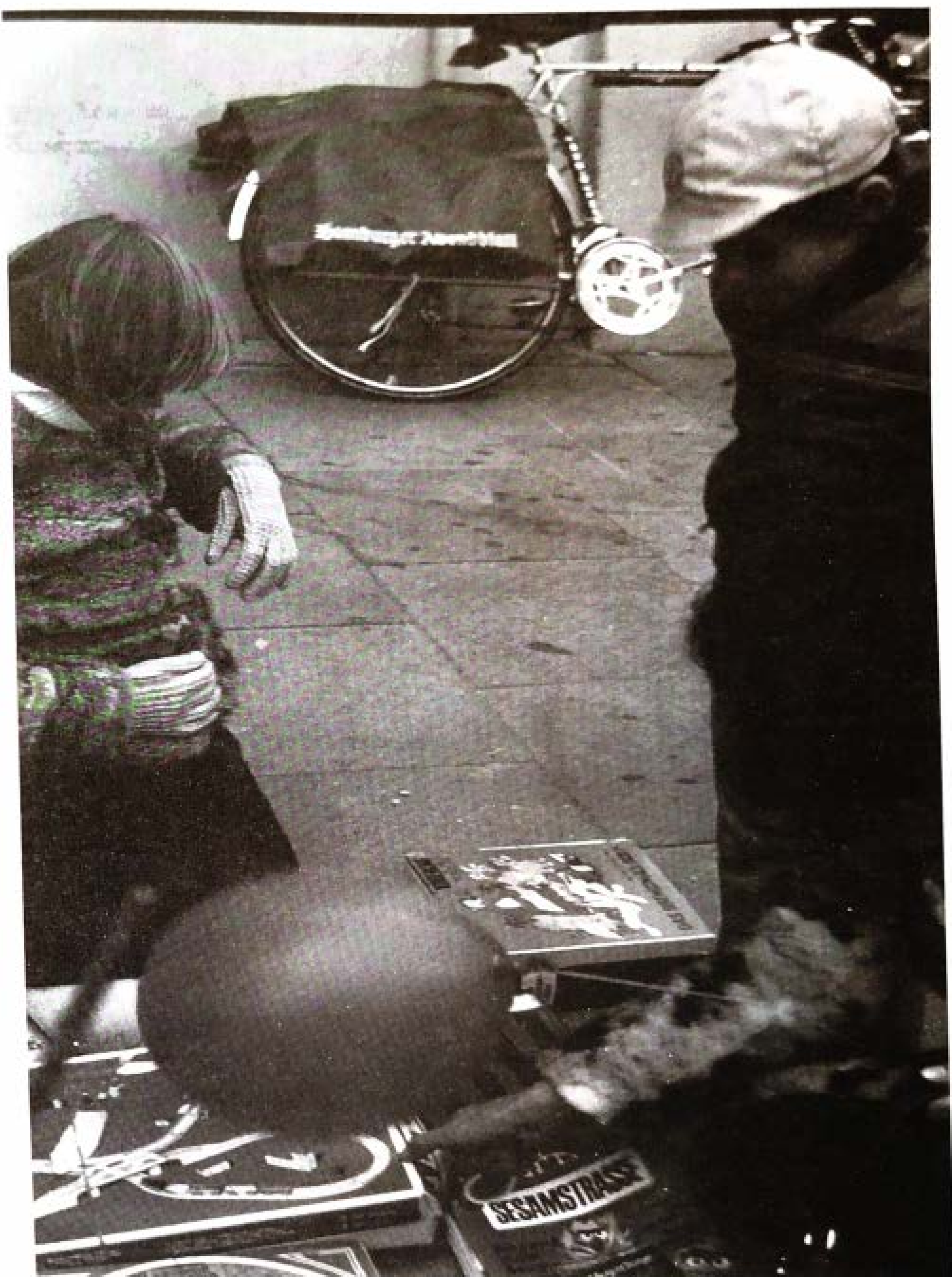


الأخ الصديق عباس حسن ادريس في ميناء هامبورج العملاق.



أحد البائعين في سوق الأطفال في هامبورج

يعرض بضاعته على زملائه الأطفال



جزء آخر من سوق الأطفال في هامبورج.



في أحد احتفالات بيدركيزى التي كان يدعونا إليها مع زوجتي
الهر آوست (الأول على اليمين في الخلف)



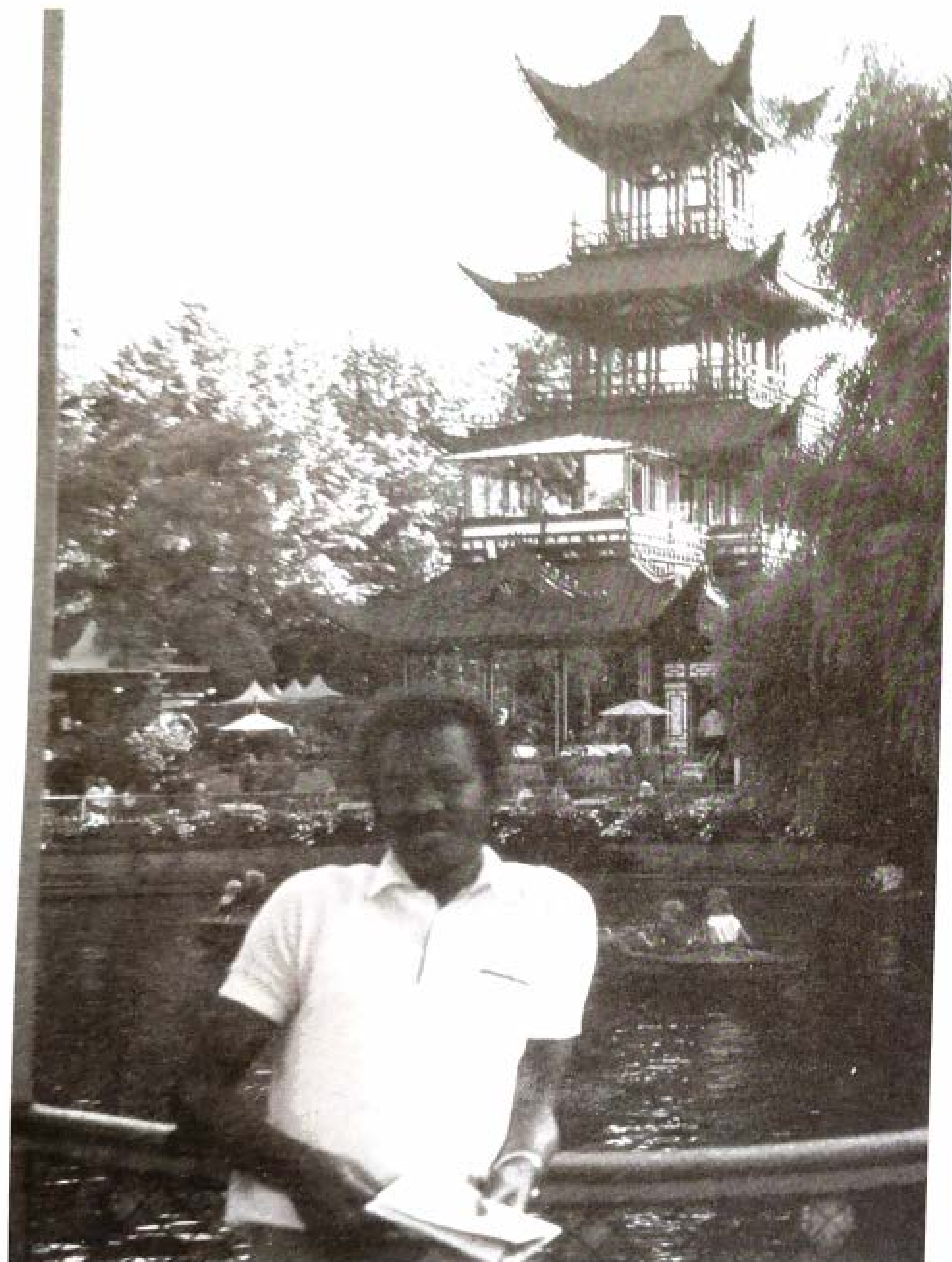
في نفس الاحتفال في بيدركيزي، يتوسطني مع الهر آوست، الهر كلاوس مفتش الشرطة
الذي بعد أن تقاعد عمل معنا عامل حفريات باليومية.



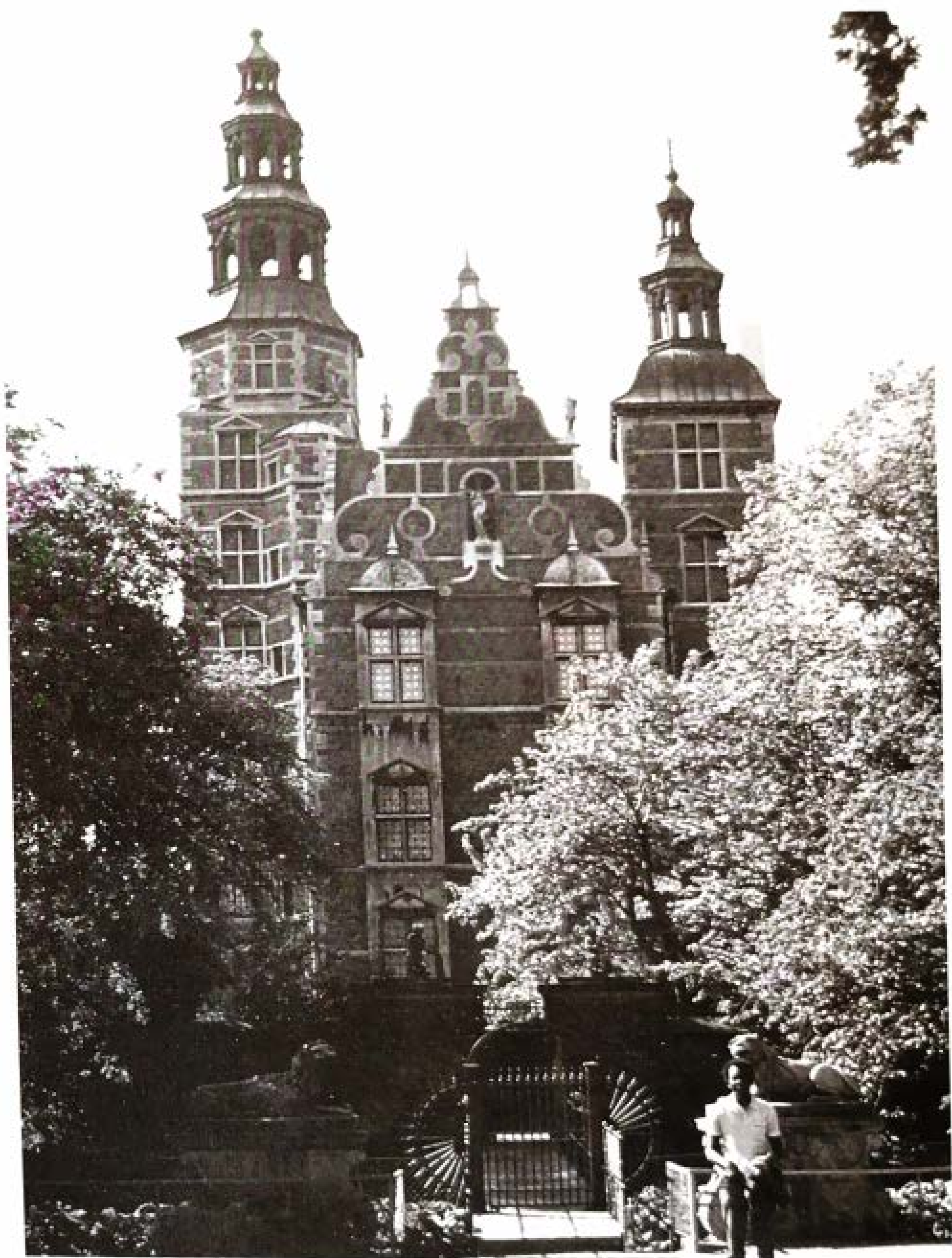
الأسرة التي سكنت معها أثنا الحفريات في بيدركيزي.



الهر كلاوس أثناء عمله في الحفريات.



امام حديقة تروفلي الشهيرة في مدينة كوبنهاجن عاصمة الدنمارك.



امام معلم آخر في مدينة كوبنهاجن.



موقف الباصات في اخانس بجزيرة كريته حيث أجرينا الحفريات.



عند آثار كنسوس عاصمة المينويين الشهيرة في جزيرة كريته باليونان.



مع الحرس الملكي الشهير في لندن.



لدى ايوان كسرى في العراق.



لدى ايوان كسرى في العراق.



امام بوابة اشتار الشهيرة في مدينة بابل بالعراق.



مع زملاء الرحلة إلى العراق الذين قدموا من ألمانيا ومن بلدان أوروبية أخرى أمام معرض بغداد الدولي.



الباصات التي زادت عن الثلاثين. كانت تقلنا إلى
مختلف أنحاء العراق لمشاهدة الآثار والمعالم التاريخية.



الحفلة التي أقامتها لنا الحكومة العراقية
وشرفها الرئيس الراحل صدام حسين.



الحفلة التي أقامتها لنا الحكومة العراقية
وشرفها الرئيس الراحل صدام حسين.



الدارسون داخل القنصلية الألمانية بجدة.

المؤلف في سطور

- من مواليد الفاشر - السودان عام 1945م.
- تلقى تعليمه في الفاشر ومعهد التربية بالدلنج.
- عمل معلماً في المدارس الأولية من عام 1961م إلى عام 1965م.
- تخرج من جامعة الخرطوم عام 1971م بمرتبة الشرف في علم التاريخ.
- نال درجة الماجستير والدكتوراه في علم التاريخ من جامعة هامبورج بألمانيا الاتحادية 1979- 1981م
- عمل في المتحف القومي السوداني 1972-1983م
- ألف كتاب الفلاتة الفلانيون في السودان "مركز الدراسات السودانية، القاهرة" 1996م

- شارك في تأليف:

1. المقدمة من سلسلة متحف عبد الرؤوف حسن خليل، شركة النصر للطباعة والتغليف، جدة 1985م
2. دراسات في آثار المملكة العربية السعودية، الرياض 1992م
3. كتب العديد من المقالات في الصحف اليومية.